

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة



إشبيلية
للدراسات والنشر والتوزيع
دمشق - سورية

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الثامنة ، العددان ٢٥ ـ ٢٦ ، اذار ـ حزيران ١٩٨٧

● بدل الاشتراك السنوي :

للافراد : (٣٠) ل.س.. ثلاثون ليرة سورية

للمؤسسات : (٥٠) ل.س . خمسون ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

البلاد الاجنبية : (١٠) دولارات اميركية (بما فيها اجور البريد) .

● يتم تسديد بدل الاشتراك بحوالة بريدية الى :

جامعة دمشق ـ لجنة كتاب تاريخ العرب ـ مجلة دراسات تاريخية

او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركـزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقـة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦)

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ـ لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق ـ كلية طب الاسنان ط٣ ـ هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية
١٩٨٧ / ١-٢
٢٥ ـ ٢٦

بهذا العدد تدخل مجلة « دراسات تاريخية » عامها الثامن ، ملتزمة بنهجها وتوجهها ، يحدوها الامل في المضي قدما على دربها الطويل ، مسددة الخطا نحو الهدف المقصود والغاية المرجوة ، يؤازرها المؤرخون والمفكرون والباحثون العرب في كل مكان.

وبهذه المناسبة نرى من المفيد ان نذكر بأن هذه المجلة ليست غاية في حد ذاتها ، ولم يكن الغرض من اصدارها اضافة دورية تاريخية جديدة الى الدوريات العلمية المماثلة ، لكنها التوطئة والتمهيد لغاية أكبر ، وهدف اهم واخطر ، الا وهو كتابة تاريخ العرب بأقلام عربية ورؤية عربية ، كتابة تنطلق من منظور وحدوي قومي ، وفهم حضاري للتاريخ ، وتلتزم المنهج التاريخي العلمي النقدي . فمجلة « دراسات تاريخية » اذا خطوة أولى ، بل خطوة من خطوات ، تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي ، والمشروع الام ، تحاول طرح الجديد في ميدان البحث التاريخي ، والكشف عن التيارات العميقة التي حركت تاريخ هذه الامة واعطته مساره الخاص وملامحه المتميزة النابعة من طبيعة الاحداث ، والظروف الاقليمية والدولية التي واكبتها واثرت في تطورها ، على صفحاتها تعرض الوقائع والافكار كيما يثبت الصحيح منها وينتفي كل مشوه او مصنوع . كل ذلك في جو من الحوار العلمي الهادىء الملتزم بأسلوب البحث العلمي الذي ينشر الحقيقة العلمية دون سواها ، في سبيل هدف قومي وعلمي جليل ، الا وهو كتابة تاريخ العرب في موسوعة عربية كاملة ، كتابة تنقي هذا التاريخ مما شابه أو لحق به على يد بعض الدارسين الذين جانبهم التوفيق أو قصروا عن ادراك الحقيقة ، أو تعمدوا تشويهها أو تجاهلها لغاية في نفوسهم ، فتتيح للاجيال العربية الناشئة وعي ماضي امتهم على حقيقته ، وصفاء رؤيتهم لحاضرها ومستقبلها.

ان مجلة « دراسات تاريخية » ، وهي تتوجه بالشكر لكل من شاركها مسيرتها في السنوات السبع الماضيات، وغذاها بثمرات فكره ونتاجه ، ترحب بكل قلم ، وبكل مقترح ورأي يغني فكرتها ويساعدها على النهوض بأعباء مهمتها العلمية والقومية الكبيرة ، وتفتح صفحاتها لكل بحث يندرج في الاطار الذي رسمته لنفسها .

وانا لنرجو ان تؤدي المجلة رسالتها وتبلغ غايتها .

دراسات تاريخية

العددان ٢٥و٢٦ ، اذار ـ حزيران ١٩٨٧

تنويــه

● الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها

● ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

دراسات تاريخيـة

١٩٨٧ / ١-٢

٢٥ - ٢٦

البُنيةُ الاجتماعيةُ والاقتصاديةُ لمحلّة باب المصلّى (الميدان) بدمشق (١٨٢٥ ـ ١٨٧٥) *

د . عبد الكريم رافق

جامعة دمشق

المقدمة :

يتناول هذا البحث بالدراسة واحدة من اشهر محلات دمشق خارج السور هي محلة باب المصلى التي شكلت القسم الرئيسي من الميدان التحتاني وعرفت اساسا باسم ميدان الحصا . وكان هذا الميدان واحدا من أربعة ميادين ، تمركزت الثلاثة الاخرى منها الى الشمال والشرق والغرب من القصر الابلق.(تقوم مكانه اليوم التكية السليمانية) ، الذي انشأه الظاهر بيبرس المملوكي(١) . واستخدم الايوبيون وخلفاؤهم المماليك ، بصورة خاصة ، الميادين لتدريب الفرسان ، وانتشرت هذه في القاهرة ودمشق وحلب وغيرها من مدن السلطنة .

وسيعالج البحث الاهمية التاريخية لمحلة باب المصلى والبعد المكاني لها ، وكذلك البنى الاجتماعية والاقتصادية فيها . وسيولي أهمية خاصة للاندماج والتعايش بين فئات السكان في المحلة بالرغم من اصولهم ومذاهبهم المختلفة .

---

* اعد هذا البحث للمشاركة في الكتاب التكريمي للاستاذ الدكتور قسطنطين زريق رئيس جامعة دمشق سابقا (١٩٤٩ ـ ١٩٥٢) واستاذ شرف التاريخ العربي في الجامعة الاميركية في بيروت ، بمناسبة بلوغه الخامسة والسبعين .

يتميز ميدان الحصا ، الذي عرف بالميدان ، بموقعه الاستراتيجي وأهميته الاقتصادية والعسكرية والدينية ، لانه ربط دمشق بالمركز الرئيسي لانتاج الحبوب في حوران وكان واسطة التبادل التجاري بين دمشق وبين فلسطين والحجاز ومصر ونقطة المرور للحملات المتجهة من مصر الى دمشق سواء منها النظامية الطائعة للسلطنة المملوكية ام الثائرة عليها . وكان في العهد العثماني معبرا للقوات الثائرة القادمة من مصر التي احتلت دمشق ، مثل حملة علي بك المملوكي في عام ۱۷۷۱ ، وحملة محمد علي باشا في عام ۱۸۳۱ .

ولعب الميدان دورا هاما في الحركة الوطنية السورية في القرن العشرين بحكم موقعه الاستراتيجي والاقتصادي . بالاضافة الى ذلك كان للميدان دور هام في تسهيل سفر قافلة الحج الشامي الى الحجاز وتزويدها بالمؤن والجمال . وعرفت نهاية الميدان الجنوبية وما تزال باسم البوابة اختصارا لتعبير بوابة الله ، او باب الله ، لانها تؤدي الى بلاد الله وهي الاماكن المقدسة في الحجاز والقدس . ونظرا لهذه الاهمية فقد استقطب الميدان اعدادا كبيرة من السكان من المناطق المجاورة والبعيدة قدموا اليه للمتاجرة او هربا من الاضطرابات ، ولهذا ازداد امتداده باتجاه الجنوب واندمجت به بالتدريج قرية القبيبات ، وغدا طوله من باب الجابية الذي يربطه بدمشق الى نهايته الجنوبية ما يزيد على ثلاثة كيلو مترات ،ثم اخذ بالتوسع على الجانبين . ونظرا لهذا الامتداد والتوسع قسم الميدان اصطلاحا الى ثلاثةأقسام :الميدان التحتاني ،الاقربالى دمشق ، والميدان الوسطاني ، والميدان الفوقاني الذي ينتهي بالبوابة . وتشكل محلة باب المصلى القسم الرئيسي من الميدان التحتاني(۲) .

تشتق تسمية محلة باب المصلى من جامع المصلى فيها . وكانت منطقة الجامع تعرف قديما باسم المصلى ، وقد اختيرت منذ الفتح الاسلامي لهذا الغرض من قبل ابي عبيدة لاتساعها (۳) ، واستخدمت لايواء جماهير المصلين ، رجالا ونساء ، مدنيين وريفيين ، في المناسبات الدينية مثل صلاة الاستسقاء وصلاة العيدين ، ولهذا عرف هذا المصلى اساسا بمصلى العيدين . وقد ذكر صاحب كتاب « منادمة الاطلال ومسامرة الخيال » ان الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب قد أنشأ في عام ۱۲۰۹/٦٠٦ جامعا عند المصلى وجعله لصلاة العيدين ، وانه ، كما أورد أبو شامة « قد بنى له اربعة جدر مشرفة ، وجعل له ابوابا صونا لمكانه مننزولالقوافل ، وجعل له محرابا من حجارة ومنبرا منها ، وعقدت فوقه قبة ، ثم عمل بعد ذلك في قبلته رواقان ومنبر من خشب »(٤) .

وقد شاع استخدام اسم المصلى او مصلى العيدين لهذا الجامع في كتابات الاخباري الدمشقي محمد بن طولون (١٤٧٦ ــ ١٥٤٦) ، من أواخر عهد السلطنة

المملوكية واوائل السلطنة العثمانية . ونسبت المحلة فيما بعد الى جامع باب المصلى وعرفت اختصارا بمحلة باب المصلى .

تعرّف سجلات محكمة الميدان الشرعية محلة باب المصلى انها ظاهر دمشق تابعة للميدان التحتاني الذي شكل واحدا من ثمانية اقسام قسمت اليها دمشق في القرن التاسع عشر « في دفاتر الحكومة »(٥) ، وذلك لتسهيل جباية الضرائب منها(٦). وتستعمل السجلات هذه في غالب الاحيان العبارة التالية : ظاهر دمشق بمحلة باب المصلى بالزقاق (كذا) ، وفي حالات نادرة جدا تذكر : ظاهر دمشق بمحلة الميدان في باب المصلى بالزقاق (كذا) . والواقع ان محلة باب المصلى هي المحلة الوحيدة في الميدان بكامله وما عداها يشار اليه انه بمحلة الميدان بزقاق القرشي مثلا . وتعبير « المحلة » يطلق على منطقة بكاملها ، داخل دمشق وظاهرها ، مثل محلات السويقة والعقيبة والقيمرية ومأذنة الشحم والخراب وباب توما . وتختلف حدود المحلة من وقت الى آخر .

ادى موقع محلة باب المصلى المتميز على المشارف الجنوبية لدمشق الى استقطاب فعاليات بشرية واقتصادية وعسكرية متنوعة ، معظمها من المناطق المجاورة والجنوبية ، وبعضها من المغرب العربي . وتنوع القادمون بتنوع المناطق التي اتوامنها، والاعمال التي مارسوها ، والمذاهب التي اعتنقوها ، فكان بينهم ريفيون من قرى حوران وجبل العرب (الدروز) ، ومهاجرون من وادي التيم ، وفلاحون وتجار حبوب، وبدو وتركمان واكراد ، ومسيحيون ودروز وسنة ، ومغاربة قدموا كجنود ليبيعوا خدماتهم العسكرية أو كعلماء ليجاوروا الاماكن الدينية أو كمهاجرين من عنت الاحتلال الفرنسي والاوربي بعامة . وبالرغم من تنوع السكان هذا فان المميزات ، وبالتالي المصالح الاستراتيجية والاقتصادية والبشرية لمنطقة الميدان قد جعلت من ساكنيه كتلة متراصة تحدت السلطات المدنية الظالمة عبر العصور. فقد اشار ابن طولون الى مقاومة عوام وزعر (زعران) محلة باب المصلى حكم المماليك ، وكانت نقطة تجمعهم وتعاهدهم على القتال ومقاومتهم للسلطات هي مصلى العيدين . وبالمقابل اتخذ العصاة من المماليك محلة باب المصلى نقطة انطلاق لعصيانهم على الدولة لانها تتحكم بطريق المؤن والامدادات العسكرية القادمة من الجنوب(٧) . وفي العهد العثماني انطلقت أكبر ثورات الانكشارية المحليين على الحكم العثماني ، في عهد اسعد باشا العظم ، عام ١٧٤٦ ، من محلة باب المصلى(٨) . ولعب الميدان دورا رئيسا في الثورات على الفرنسيين ، وبخاصة الثورة السورية الكبرى في ١٩٢٥ ، كما تحدت زعاماته الحكومات الوطنية فيما بعد .

وقد اخترنا الفترة بين عامي ١٨٢٥ ــ ١٨٧٥ لانها شهدت تطورات هامة ، محلية وعربية وعثمانية ، كان لها اثرها الفعال على البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى وغيرها من المحلات بنسب متفاوتة .

فهناك اولا الغاء الانكشارية من قبل السلطان محمود الثاني في عام ١٨٢٦ ، وكان الميدان المركز الرئيسي للانكشارية اليرلية (المحلية) الذين كانوا بمعظمهم ، قيادات وافرادا ، دمشقيين بملابس عسكرية هدفهم المحافظة على امتيازاتهم الاقتصادية والسياسية . ثم تلى ذلك احتلال قوات حاكم مصر محمد علي باشا لبلاد الشام (١٨٣١ ــ ١٨٤٠) . واعقب انسحابه عودة العثمانيين ومحاولاتهم فرض سلطتهم وادخال التنظيمات من الاعلى . وكانت اوربا ، في اعقاب الثورة الصناعية ، تحاول هي الاخرى فرض نفوذها الاستعماري في المنطقة العربية ، على مختلف المستويات .

ونتج عن الازمات الاقتصادية والاجتماعية التي حلت ببلاد الشام بنتيجة هذه العوامل اضطرابات اجتماعية وتخلخل كبير في العلاقات الطائفية شجعته القوى الاستعمارية والعثمانية . واستطاع سكان محلة باب المصلى ، خلافا لما حدث في دمشق ، تحاشي اخطار هذه الاضطرابات بالرغم من كثرة المسيحيين في المحلة. وينتهي البحث في عام ١٨٧٥ ، اي بعد خمس عشرة سنة على احداث عام ١٨٦٠ ، بهدف دراسة آثار تلك الاحداث على الاندماج الاجتماعي والعلاقات الاقتصادية بين فئات السكان في محلة باب المصلى . وقد ازدادت تلك العلاقات ، في الواقع ، انفتاحا وتراصا لمواجهة التحدي الاوربي الذي هددها جميعا على حد سواء .

وقد اخترنا خمس عينات من سجلات محكمة الميدان الشرعية التي تعنى بقضايا محلة باب المصلى ، تتألف كل عينة من وقائع سنة ونحوها ، موزعة بفاصل عشر سنوات تقريبا ، بحسب توافر السجلات ، بدءا من عام ١٨٢٥ .

وتعنى العينة الاولى بالمدة من ٧ رجب ١٢٤٠ الى ٧ رجب ١٢٤١ / ٢٥ شباط ١٨٢٥ الى ١٥ شباط ١٨٢٦ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٠٧) ، والعينة الثانية بالمدة من ٢٥ رجب ١٢٥٠ الى ٢٥ رجب ١٢٥١/ ٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ الى ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٣٣) ، والعينة الثالثة بالمدة من غرة ربيع الاول ١٢٦٢ الى غرة ربيع الاول ٢٧/١٢٦٣ شباط ١٨٤٦ الى ١٧ شباط ١٨٤٧ (سجل محكمة الميدان رقم ٣٩٢) ، والعينة الرابعة بالمدة من ٢١ محرم ١٢٧٩ الى ١٠ محرم ١٩/١٢٨٠ تموز ١٨٦٢ الى ٢٧ حزيران ١٨٦٣ (سجل محكمة الميدان رقم ٥٤٧) ، والعينة الخامسة بالمدة من ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ الى ١٦ ذي الحجة ١٢٩١

/ ٤ شباط ١٨٧٤ الى ٢٤ كانون الثاني ١٨٧٥ (سجلا محكمة الميدان (الكبرى) رقم ٦٥٣ و ٦٥٤) .

البعد المكاني لمحلة باب المصلى :

اكدت الدراسات الحديثة لبعض المدن العربية ومنها دمشق(٩) ان الفعاليات الاقتصادية المتمركزة في الاسواق المتخصصة والتي تعتمد جزئيا على التجارة البعيدة، كالتوابل ، هي التي تشكل نواة المدينة . ويقوي من مركزية هذه الفعاليات وجود الجامع الرئيسي في المركز وما يلعبه من دور ثقافي وما يستدعي وجوده من نشاط اقتصادي . اما مقر الحاكم والقلعة فهما ثانويان في تقرير مركز المدينة بالرغم من انهما يستقطبان بدورهما نشاطا اقتصاديا ولكن من نوع خاص يرتبط بالاحتياجات العسكرية التي يوفرها في دمشق سوق تحت القلعة والسروجية وسوق الخيل ، وكذلك المقاهي حيث يتجمع العساكر . ونظرا لتمركز الفعاليات الاقتصادية الكبرى والنشاطات الدينية في مركز المدينة فان مساكن كبار التجار والعلماء تجاور اماكن الفعاليات هذه ، ثم تتلوها مساكن الحرفيين قرب فعالياتهم الحرفية . وتنتشر بيوت أصحاب الدخل المحدود عند النشاطات الاقل دخلا قرب السور وبوابات المدينة . وتخترق هذه المناطق باتجاه المركز شوارع رئيسية لتسهيل تسويق البضائع ونقلها . اما الضواحي حيث تمتزج النشاطات المدينية والريفية فيتكيف شكلها حسب موقعها ونشاطها التجاري ، وتغيب فيها الاسواق الرئيسية المتخصصة وتقتصر على فعاليات اقتصادية متنوعة معظمها للخدمات . وتعرف هذه الاسواق غير المتخصصة بالسويقة .

ومثلما تقرر الفعاليات الاقتصادية شكل المدينة فانها تقرر ايضا شكل الضواحي. فمحلة باب المصلى مثلا ، شانها شأن بقية اقسام الميدان ، تكيف شكلها بحكم موقعها والنشاطات الاقتصادية التي يقوم بها سكانها ، ولعبت دور الوسيط بين المستهلكين في المدينة والمنتجين في الريف .

ويحد محلة باب المصلى من الشمال جامع المرادية والسويقة المحروقة وحي المغاربة ، حيث خان المغاربة . وذكر احد الباحثين ان بابا من هذه الجهة كان يتحكم في الدخول الى المحلة ، وهو احدثلاثة ابواب يفتح ثانيهما على الشارع السلطاني في المحلة وثالثهما على الجهة الجنوبية الشرقية منها(١٠) . ولم يرد في سجلات محكمة الميدان الشرعية ذكر لهذه الابواب ربما لان اهتمام السجلات منصب على العقارات . وتشمل محلة باب المصلى من الجنوب زقاق المجتهد والنهاية الجنوبية لزقاق التيامنة ومنطقة القبة الحمراء . وفي حالتين من مئات الحالات التي حددت فيها سجلات محكمة

الميدان مواقع العقارات في محلة باب المصلى في فترة دراستنا ذكر موقع دار في محلة باب المصلى في زقاق الموصلي(١١) ، وموقع دار اخرى في محلة باب المصلى تجاه مقام سيدنا صهيب الرومي(١٢) . وكلا الموقعين يقعان في الميدان التحتاني ولكن الى الجنوب المباشر من منطقة القبة الحمراء التي تشكل النهاية الجنوبية من محلة باب المصلى.

وتنتشر محلة باب المصلى على طرفي الشارع الرئيسي المعروف بالسلطاني الذي يخترق الميدان بكامله ، وتتمركز حول جامع باب المصلى الذي يشكل المركز الرئيسي للانشطة الدينية فيه ومحور تجمع الفعاليات الاقتصادية في المحلة . وقد وجدت مراكز دينية اخرى في محلة باب المصلى مثل جامع سيدنا بشارة الى الشرق من الشارع السلطاني(١٣) ، وجامع العمرية بزقاق الاربعين(١٤) ، ومرقد سيدي عسقلان قرب جامع المصلى(١٥) . ولكن هذه المراكز تبقى ثانوية جدا بالمقارنة مع الدور الرئيس الذي لعبه جامع المصلى في حياة المنطقة .

ويشكل الشارع السلطاني الشريان الاقتصادي الرئيسي لمحلة باب المصلى اذ تنتشر على طرفيه البوايك (البوائك) المعدة لبيع الحبوب ، كما توجد الدكاكين التي تقدم الخدمات للريفيين ، مثل الحدادة والنجارة وحلج القطن وغيرها . ويوجد المسلخ في زقاق متفرع عن السلطاني في الجهة الشرقية ، ويؤكد وجوده المتاجرة بالاغنام بين الريفيين والسكان المحليين . والى جانب هذا التجمع الرئيسي للفعاليات الاقتصادية في الشارع السلطاني تقوم دكاكين الافراد او تجمعات منها في الازقة المختلفة وساحاتها لخدمة سكانها .

وتتوزع على جانبي الشارع السلطاني الازقة السكنية ، وتكون كثيفة باتجاه الغرب ، بين السلطاني وزقاق المخللاتي الموازي له تقريبا . اما في الشرق فتخف الكثافة الى حد كبير ، وتقل تبعا لذلك الازقة السكنية التي تحد من امتدادها الجنائن(١٦) المحيطة بالمصلى من الشرق وتلك التابعة للشاغور ، وكذلك تربة الباب الصغير(١٧) ، ولهذا تكثر في هذه الجهة البوايك الكبيرة التي تحتاج الى مساحات واسعة .

ولم يكن من الضروري انفتاح الازقة من طرفيها على كل من الشارع السلطاني وزقاق المخلللاتي ، فقد تتصل بزقاق اخر ينتهي باحد هذين الطرفين . والقصد من ذلك ، كما يبدو ، سهولة الدفاع عن الازقة . ويقع معظم الازقة بموازاة بعضها البعض ويتفرع عن بعضها ازقة فرعية او دخلات غير نافذة تفيد في الامور الامنية وفي الحفاظ على خصوصية الحياة العائلية . وليس هناك من زقاق واحد يجتاز الشارع السلطاني ويستمر في الجانب الاخر منه .

وتذكر سجلات محكمة الميدان في العينـات التي قمنا بدراستها ثمانية وعشرين زقاقا ، بالاضافة الى الشارع الرئيسي السلطاني في محلة باب المصلى . والازقـة هي: أبو البرغل ، ابو مايلة ، الاربعين ، بادر ، البقارة ، البوشي ، البيطار، التركمان، التيامنة ، الجواني ، الحبالة ، حمد ، الحوارنة ، الزين ، سكر ، السمان ، الشعرية، عزام ، عسقلان ، القبة الحمراء ، القملة ، قولبة ، قويق ، المجتهـد ، المخللاتي ، المزرعـة ، النشار ، والوسطاني .

وبعض هذه الازقة رئيسي وما زال قائما وبعضها فرعي اندمج في غيره . وترد معلومات في السجلات توضح اماكن وقوع عدد من الازقة وتسمياتها الاخرى ، فزقاق الاربعين يجاور زقاق التيامنة ، وزقاق بادر يشار اليه احيانا بزقاق المصلى لقربه منه(١٨) ، وزقاق البقارة اشير اليه في عام ١٨٥٩ بزقاق البقارة الكبير(١٩) ، واستخدمت هذه الصفة في المخطط المرفق الموضوع نحو ١٩٣٤ ، مما يدل على توسع زقاق البقارة. ويجاور زقاق البيطار زقاق البقارة . ويتفرع زقاق حمد من زقاق بادر ، ويعرف زقاق الزين بزقاق جوبان(٢٠) نسبة الى بيت جوبان ، ولا تعرف اهمية هـذا الاسم . وينسب زقاق عسقلان الى مرقد سيدي عسقلان ويمتـد الى الشرق مـن الشارع السلطاني . وذكرت بركة سبيل سيدي عسقلان بالجوار(٢١) . واشير الى الزقاق الوسطاني بزقاق المصبنة .

ويلاحظ في الازقة اعلاه ان بعضها يرد ذكره لمرة واحدة في جميع العينات كما في زقاقي النشار وقولبة في العينة الخامسة (١٨٧٤ ـ ١٨٧٥) ، وزقاق قويق في العينة التي تسبقها (١٨٦٢ ـ ١٨٦٣) . وهناك ازقة مثل التركمان والشعرية وعزام والقملة وبعض المواقع في الشارع السلطاني تقع ضمن منطقة القبة الحمراء . وقد اندثرت هذه القبة اليوم ويعرف مكانها بالمخفر . وفي غياب الدراسات الطبوغرافية المتخصصـة تصعب معرفة الازقة التي اندمجت مع غيرها والازقة التي استحدثت .

ومما يلفت النظر تسمية بعض الازقة باسم قوم من الاقوام مثل زقاق التركمان أو باسم المنطقة التي اتى الناس منها مثل زقاق التيامنة المنسوب الى وادي التيم ، وزقاق الحوارنة . وهناك اكثر من زقاق للحوارنة الى دمشق . وتعرف بعض الازقة باسم الاسر مثل زقاق بني سكر وزقاق بني المجتهد حيث تكثر العقارات السكنيـة والتجارية لهاتين الاسرتين وبخاصة اوقافهما الذرية . والمخطط الملحق بهذه الدراسة يبين عددا من الازقة ولكنه لا يشكل حصرا لها ولا يذكر التعديلات التي طرات عليها .

ويبلغ عرض الزقاق الواحد بين ثلاثة وخمسة امتار . وتفصل بين الازقة دور

سكنية بسماكة تتراوح بين دارين وستة دور او اكثر ، كما يبين المخطط الملحق . وطبيعي ان الازقة لم تكن متماثلة من حيث عدد الدور وكثافة السكان فيها .

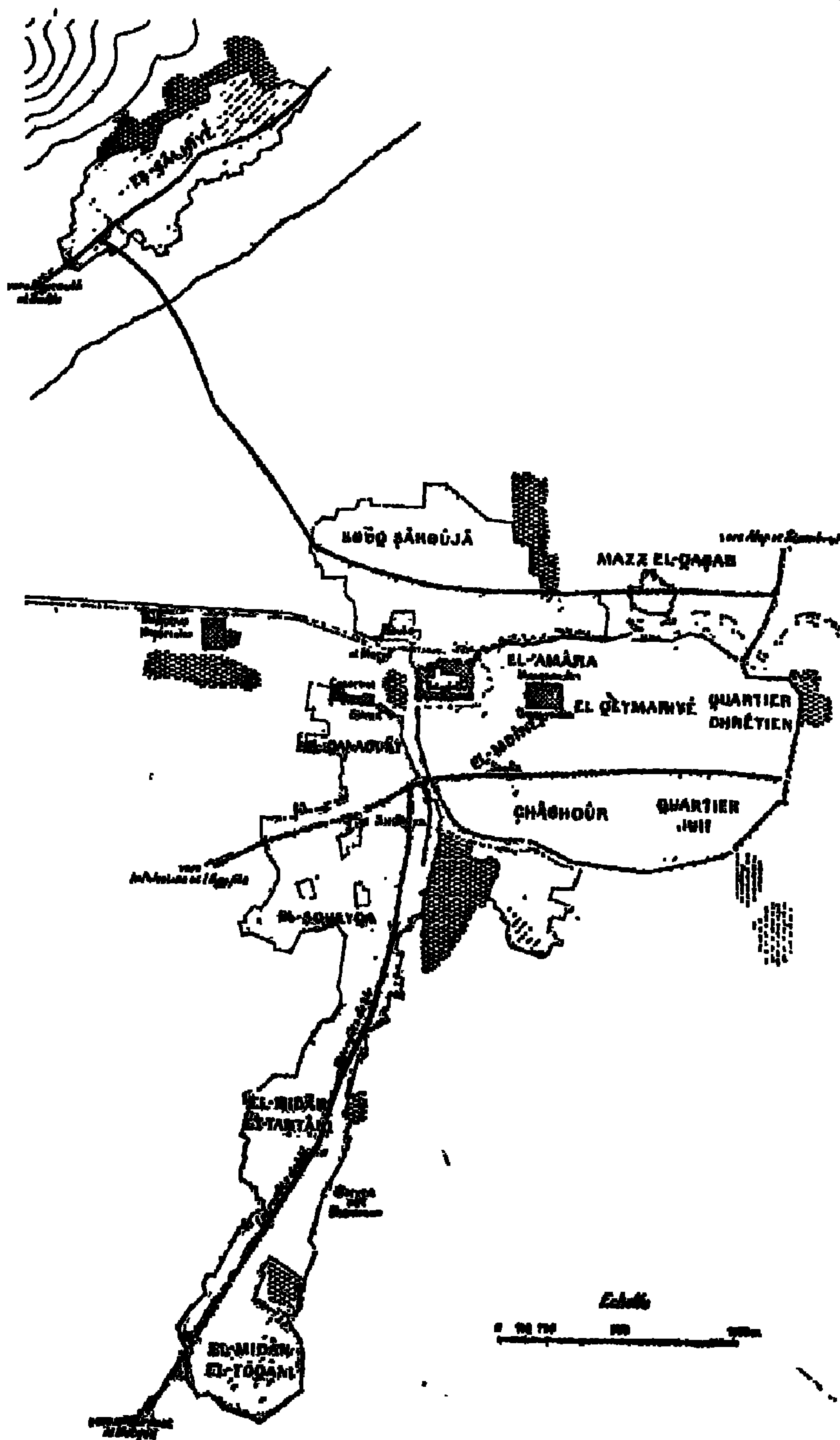
وتوجد في الزقاق الواحد دخلة او اكثر غير نافذة تعرف به وتفتح عليها ابواب الدور ، مثل الدخلة بزقاق ابو مايلة والدخلة بزقاق المجتهد (دخلة بني المجتهد) ، ودخلة اليابوسي بزقاق التيامنة ، ودخلة المشاعلي بزقاق الوسطاني(٢٢) . وذكرت الزبوقة (الزابوقة)(٢٣) ، وهي زقاق ضيق نافذ في الغالب . ولبعض الازقة ساحة مثل ساحة دورة اللوزة ، أو دور اللوز ، بزقاق التيامنة(٢٤) ، والساحة بالقبسة الحمراء(٢٥) ، والساحة بزقاق الوسطاني(٢٦) وساحة الحبالة(٢٧) . ووجدت تلة في بعض الازقة مثل تلة بيت سويم في زقاق المخللاتي نسبة الى بيت ابي سويم في ذلك الزقاق(٢٩) . واشير احيانا الى تلة الزقاق كما في الزقاق الجواني(٣٠) . ويبدو ان للزقاق بابا يؤدي اليه بدليل ما ذكر عن باب الحبالة قرب دخلة زقاق ابو مايلة(٣١). ولم ترد معلومات اخرى عن ابواب الازقة .

وجاء ذكر الحارة ضمن الزقاق كما في العبارة التالية: الدار بزقاق التيامنة بحارة الجوانية(٣٢) ، وهذا يعني ان الحارة تفرع من الزقاق وربما دل ذلك على توسع الزقاق. وورد بالزقاق الجواني ذكر دار شيخ الحارة الى الشمال من دار جرى بيعها فيه(٣٣)،ولا نعلم ما اذا كان شيخ الحارة هنا هو شيخ الزقاق او شيخ الحارة المتفرعة عن هذا الزقاق . كما ذكر لقب شيخ الشباب (٣٤) دون تعريف مكاني ولا ندري اذا كان هذا اللقب يختص بحارة ام بزقاق ام بمحلة باب المصلى بكاملها أم أنه مجرد لقب .

البنية الاجتماعية لمحلة باب المصلى :

يمكننا التعرف على الفئات الاجتماعية التي سكنت محلة باب المصلى من خلال عقود بيع وشراء العقارات السكنية فيها . وكانت الوحدة العقارية السكنية الاساسية هي الدار ، يليها مقسم الدار وهو قسم مفروز من الدار قائم بذاته ، ثم المربع وهو غرفة واسعة تشكل جزءا من الدار له استقلاليته السكنية ضمن اطار حين يباع على انفراد ، ونظرا لرخصه كان الراغبون فيه من غير الميسورين . وهناك الفرنكة ، وهي غرفة علوية اشبه بالمشرقة ، بيعت احيانا على انفراد .

وباستعراض الفئات التي اشترت او باعت افراديا العقارات السكنية كليا او جزئيا ، في محلة باب المصلى ، خلال الفترة ١٨٢٥ – ١٨٧٥ نتبين اية فئة اجتماعية أسهمت في شراء او بيع القارات اكثر او اقل من غيرها، من فترة الى اخرى. وسنلاحظ ذلك من خلال العينات الخمس التي انتقيناها من سجلات محكمة الميدان الشرعية .



Damas au milieu du XIX^e^ siècle.

J. Sauvaget, 'Esquisse d'une histoire de la ville de Damas', REI, IV (1934).

الفئات الاجتماعية المتداولة افراديا للعقارات
العينـة الاولى : ٧ رجب ١٢٤٠ ـ ٧ رجب

المشترون : ٤٠

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	١	٥٠ر٢٪	٢٤	٢٥ر٣٪	٥٦٥	٧٩ر١٪
حاج	١٥	٥٠ر٣٧	٢٧٣	٩٩ر٣٦	١٠٧٤١	٩٤ر٣٣
سيد (شريف)	٥	٥٠ر١٢	٨٧	٧٩ر١١	٣٩٦٠	٥١ر١٢
عسكري(آغا ،جربجي)	٤	٠٠ر١٠	٦٤	٦٧ر٨	٣٧٨٠	٩٤ر١١
عادي (بلا لقب)	٦	٠٠ر١٥	١١٠	٩١ر١٤	٣١٩٥	١٠ر١٠
نساء(٣منهن مسيحيات)	٧	٥٠ر١٧	١٤٤	٥١ر١٩	٦٤٤٥	٣٧ر٢٠
رجال مسيحيون	٢	٠٠ر٥	٣٦	٨٨ر٤	٢٩٦٠	٣٥ر٩
المجموع	٤٠	٠٠ر١٠٠	٧٣٨	٠٠ر١٠٠	٣١٦٤٦	٠٠ر١٠٠

السكنية ، كليا او جزئيا ، المقدرة بالقراريط
١٢٤١/٢٥ شباط ١٨٢٥–١٥ شباط ١٨٢٦

البائعــون : ٤٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
—	—	—	—	—	—
١٣	٣٢ر٥٠٪	٢٤٢	٣٣ر٥٢٪	١١٠٠٩	٣٣ر٢١٪
٣	٧ر٥٠	٤٨	٦ر٦٥	٢٣٦٠	٧ر٢١
٣	٧ر٥٠	٥٢	٧ر٢٠	٢٧٢٠	٨ر٢١
٦	١٥ر٠٠	٩٥	١٣ر١٦	٢٩٤٠	٨ر٨٧
١١ (منهن مسيحية)	٢٧ر٥٠	٢١٣	٢٩ر٥٠	٨٦٣٦	٢٦ر٠٦
٤	١٠ر٠٠	٧٢	٩ر٩٧	٥٤٨٠	١٦ر٥٣
٤٠	١٠٠ر٠٠	٧٢٢	١٠٠ر٠٠	٣٣١٤٥	١٠٠ر٠٠

العينة الثانية : ٢٥ رجب ١٢٥٠ ـ ٢٥ رجب ١٢٥١

المشترون : ٧

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
حاج	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٥٠٠	٩ر٠٠
عسكري	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	١٣٠٠	٢٣ر٤٢
عادي	١	١٤ر٢٨	١٢	٨ر٣٣	٣٠٠	٥ر٤١
نساء (منهن مسيحية)	٣	٤٢ر٨٨	٦٠	٤١ر٦٦	٢٨٥٠	٥١ر٣٥
رجال مسيحيون	١	١٤ر٢٨	٢٤	١٦ر٦٧	٦٠٠	١٠ر٨٢
المجموع	٧	١٠٠ر٠٠	١٤٤	١٠٠ر٠٠	٥٥٥٠	١٠٠ر٠٠

/٢٧ تشرين الثاني ١٨٣٤ ـ ١٨ تشرين الثاني ١٨٣٥

البائعون : ١٠

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
–	–	–	–	–	–
–	–	–	–	–	–
١	١٠ر٠٠	٢٤	١٣ر١٩	١٢٠٠	١٥ر٠٩
٧ (منهن مسيحية)	٧٠ر٠٠	١٢٨	٧٠ر٣٣	٥٢٥٠	٦٦ر٠٤
٢	٢٠ر٠٠	٣٠	١٦ر٤٨	١٥٠٠	١٨ر٨٧
١٠	١٠٠ر٠٠	١٨٢	١٠٠ر٠٠	٧٩٥٠	١٠٠ر٠٠

العينة الثالثة : غرة ربيع الاول ١٢٦٢ ــ غرة ربيع

المشترون : ٩

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	السنة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	—	—	—	—	—	—
حاج	٢	٢٢ر٢٢	٣٤	١٦ر٢٦	١٣٥٠	٨٨ر٢٢
عادي	٥	٥٦ر٥٥	٤٨	٩٢ر٣٦	٢٤٥٠	٥٣ر٤١
نساء	١	١١ر١١	٢٤	٤٦ر١٨	١٢٠٠	٤٣ر٢٠
رجال مسيحيون	١	١١ر١١	٢٤	٤٦ر١٨	٩٠٠	٢٥ر١٥
المجموع	٩	٠٠ر١٠٠	١٣٠	٠٠ر١٠٠	٥٩٠٠	٠٠ر١٠٠

الاول ١٢٦٣/٢٧ شباط ١٨٤٦ ـ ١٧ شباط ١٨٤٧

البائعون : ٦

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
١	١٦ر٦٧	٣	٣ر٠٣٪	٦٠٠	١٧ر٩١
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
٢	٣٣ر٣٣	٣٦	٣٦ر٣٦	١٤٥٠	٤٣ر٢٨
٣	٥٠ر٠٠	٦٠	٦٠ر٦١	١٣٠٠	٣٨ر٨١
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
٦	١٠٠ر٠٠	٩٩	١٠٠ر٠٠	٣٣٥٠	١٠٠ر٠٠

العينة الرابعة : ٢١ محرم ١٢٧٩ ـ ١٠ محرم

المشترون : ٢٢

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	٩ر٠٩	٣٣	٧ر٧٨	٤٢٥٠	٣ر٦٧
حـاج	٤	١٨ر١٨	٨٠	١٨ر٨٧	٢٥٥١٢	٢٢ر٠٥
سيد	٢	٩ر٠٩	٤٨	١١ر٣٢	٤٥٥٠٠	٣٩ر٣٢
عسكري	١	٤ر٥٥	٢٤	٥ر٦٦	١٢٠٠	١ر٠٤
عـادي	٤	١٨ر١٨	٧٨	١٨ر٤٠	٦٧٥٠	٥ر٨٣
نسـاء	٢	٩ر٠٩	٢٨	٦ر٦٠	٣٣٠٠	٢ر٨٥
رجال مسيحيون	٧	٣١ر٨٢	١٣٣	٣١ر٣٧	٢٩٢٠٠	٢٥ر٢٤
المجمـوع	٢٢	١٠٠ر٠٠	٤٢٤	١٠٠ر٠٠	١١٥٧١٢	١٠٠ر٠٠

١٢٨٠/ ١٩ تموز ١٨٦٢ ـ ٢٧ حزيران ١٨٦٣

البائعون : ٢٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
٢	٩ر٠٩	٤٨	١٠ر٨١	١٤٥٧٠	١٢ر٩١
١	٤ر٥٥	٨	١ر٨٠	٢٠٠٠	١ر٧٧
١	٤ر٥٥	٢٤	٥ر٤١	٣٧٥٠٠	٢٣ر٢٢
ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
٧	٣١ر٨١	١٥٠	٣٣ر٧٨	٢١٧٠٠	١٩ر٢٣
٩ (منهن مسيحية)	٤٠ر٩١	١٧٨	٨ر١١	٣١٦٠٠	٢٨ر٠٠
٢	٩ر٠٩	٣٦	٨ر١١	٥٥٠٠	٤ر٨٧
٢٢	١٠٠ر٠٠	٤٤٤	١٠٠ر٠٠	١١٢٨٧٠	١٠٠ر٠٠

العينة الخامسة : ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠ ـ ١٦ ذي الحجة

المشترون : ١٦

الفئات الاجتماعية	عدد العقود	النسبة	مجموع القراريط	النسبة	الاثمان بالقروش	النسبة
شيخ	٢	١٢ر٥٠	٢٥	١٠ر٤٠	٢٤٠٠(٣٥)	٥ر٩٠
حاج	٧	٤٣ر٧٥	٩٤	٣٩ر١٧	١٨٠٣١	٤٤ر٣٣
سيد	٢	١٢ر٥٠	٤١	١٧ر٠٨	١١٣٤٢	٢٧ر٨٩
عادي	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
نساء(منهن مسيحية)	٥	٣١ر٢٥	٨٠	٣٣ر٣٣	٨٩٠٠	٢١ر٨٨
المجموع	١٦	١٠٠ر٠٠	٢٤٠	١٠٠ر٠٠	٤٠٦٧٣	١٠٠ر٠٠

١٢٩١ / ٤ شبـــاط ١٨٧٤ ــ ٢٤ كانــون الثاني ١٨٧٥

البائعــون : ١٢

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
٢	١٦ر٦٧	٢٠	١٤ر٨١	٤٧٧٠	٢٨ر٠١
—	—	—	—	—	—
١	٨ر٣٣	٢٤	١٨ر٧٨	٣١٨٠	١٨ر٦٧
٤	٣ر٣٣	٢٢	١٦ر٣٠	٣٣٠٨	١٩ر٤٣
٥	٤١ر٦٧	٦٩	٥١ر١١	٥٧٧٠	٣٣ر٨٩
١٠٠ر٠٠	١٧٠٢٨	١٠٠ر٠٠	١٢	١٠٠ر٠٠	١٣٥

اعتمدنا في العينات التي اخترناها العقارات التي اشتراها او باعها افراد واهملنا العقارات التي شارك في شرائها او بيعها مجموعة من الشركاء ينتمي معظمهم الى اسرة واحدة كبيرة لان هذه العقارات ارثية بمعظمها . اما العقارات التي اشتراها افراد فهي اكثر دلالة على الفئات الاجتماعية التي كان بمقدورها ان تشتري او التي اضطرت الى البيع لعوامل مادية .

ويلاحظ ان اعداد المشترين والبائعين بلغت الحد الاقصى في العينة الاولى (١٨٢٥ ــ ١٨٢٦) ، وكانت متعادلة ، بواقع ٤٠ عقدا لكل فئة ، مما يدل على استقرار في السوق العقارية بين المشترين والبائعين وعلى عدم وجود محاولة لتجميع الثروة العقارية في ايد قليلة ، وهذا يعني ايضا ان نسبة الملكية المشاعة الى الملكية الفردية كانت متوازنة . وتضاءلت اعداد عقود الافراد في العينات التالية وبلغت ادنى مستوى لها في عينتي ١٨٣٤ ــ ٣٥ و ١٨٤٦ ــ ٤٧ . ويبدو ان فرض الحكم المصري التجنيد الاجباري وقيام الثورات ضده منذ عام ١٨٣٤ ــ ٣٥ قد اوجدا حالة من الخوف وعدم الاستقرار جعلت الناس يحجمون عن توظيف راسمالهم .

كما ان التجنيد من شانه ان يحد من هجرة الريفيين الى المدينة لانهم يصبحون عندئذ تحت سلطة الدولة . وكانت دمشق منذ عام ١٨٤٤ تتعرض لمحاولات الجيش العثماني (النظام) احكام قبضته عليها في وجه مقاومة الاغوات من العسكريين المحليين وبخاصة اولئك في حي الميدان . وهذا ربما يفسر غياب الاغوات عن السوق العقارية خلافا لمساهمتهم فيه في العينة الاولى .

وتعود نسبة المشترين والبائعين من الافراد الى الارتفاع وبشكل متساو في العينة الرابعة (١٨٦٢ ــ ١٨٦٣) ، ابان فترة الهدوء التي اعقبت الاضطرابات الاجتماعية والطائفية في عام ١٨٦٠ . ويذكر القساطلي بهذا الخصوص « ففي سنة ١٨٦١ و ١٨٦٢ و ١٨٦٣ كانت الاعمال بها (دمشق) رائجة والمصنوعات جيدة والذهب كثير في ايدي الناس » (٢٦). ولكن نسبة المشترين والبائعين تتضاءل مجددا في العينة الخامسة (١٨٧٤ ــ ١٨٧٥) ، ولعل احد اسباب ذلك الضيق الاقتصادي الذي لحق بدمشق بنتيجة الغلاء وهبوط اسعار الحرير وانحباس الامطار . ويعلق القساطلي الذي عاصر تلك الاحداث بقوله « واشتد الغلاء (١٨٧٣) .. وكان البعض ياكلون بقول الارض لفقرهم . وسنة ١٨٧٥ عاودها الهواء الاصفر واستقام شهرين فمات به تسعة الاف ومئتان منهم ٢٥٠ نسمة من النصارى »(٢٧) .

واذا كانت مشاركة الاغوات والجربجية العسكريين في السوق العقارية ، او

عدم مشاركتهم تتحكم بهما الاوضاع العسكرية وموقف الدولة العثمانية منهم ، فانهم تبعا لذلك يشكلون اقل الفئات الاجتماعية تعاملا في هذه السوق في العينات الخمس. اذ بلغ مجموع المشترين منهم ستة والبائعين ثلاثة ، وتليهم في ذلك فئة الشيوخ التي بلغ مجموع المشترين منها خمسة والبائعين خمسة . ويمكن تفسير ضآلة المتعاملين من الشيوخ في محلة باب المصلى بسوق العقارات بقلة من يحمل هذا اللقب في المحلة لانه لم توجد فيها مراكز دينية هامة ومتعددة ، وربما لم يكن رجال الدين من الشيوخ في محلة باب المصلى على قدر كبير من اليسر . ونلاحظ ان الشيوخ المذكورين في العينة الخامسة كانوا حصرا من المغاربة . وتلي فئة الشيوخ فئة السادة الاشراف الذين بلغ مجموع المشترين من بينهم تسعة والبائعين خمسة ، وربما تفسر قلة مشاركة هذه الفئة في السوق العقارية بطبيعة التركيب السكاني لمحلة باب المصلى التي ضمت تركمانا وريفيين وبدوا ومغاربة ممن لم يتوافر فيهم شرف النسب .ومع ذلكفان زيادة اعداد المشترين على البائعين بين الاشراف يدل على اتجاه نحو استقرار الاشراف في المحلة .

وتفوق فئة الحجاج الفئات الدينية والعسكرية الاخرى في مدى مساهمتها في السوق العقارية ، وتأتي في المرتبة الثانية بعد النساء في ذلك . وقد بلغ مجموع اعداد الحجاج المشترين للعقارات ٢٢ وهي اعلى نسبة ، كما ان مجموع البائعين من بينهم بلغ ١٤ مما يدل على توظيفهم المال في العقارات وعلى اتجاههم نحو التملك والاستقرار في محلة باب المصلى . ويفسر ذلك بعدة عوامل منها وقوع المحلة على طريق الحج ، وكون عدد من الساكنين في الميدان من اصول حورانية يزودون هم انفسهم ، او معارفهم في الريف ، قافلة الحج الشامي والقوات المرافقة لها بالجمال والمؤن ويرافقونها ايضا . وثمة عامل اخر وهو حمل كثير من المغاربة المقيمين في محلة باب المصلى لقب حاج .

ويشكل عامة الناس من غير ذوي الالقاب فئة معادلة لفئة الحجاج من حيث اعداد المتعاملين منهم في السوق العقارية مع بعض الفوارق الهامة ، فقد بلغ عدد المشترين منهم ١٦ والبائعين ٢٠ . وبالرغم من ان مجموع هذين العددين يساوي مجموع اعداد فئة الحجاج الا ان الاتجاه في الفئة الاخيرة كان نحو الشراء بنسبةبلغت ٦١٪ في حين ان نسبة المشترين في فئة العامة كانت ٤٤٪ ، اي انهم يبيعون باكثر مما يشترون ، وربما يفسر ذلك الاوضاع الاقتصادية المضطربة النى مرت بها دمشق انذاك . ومما يؤكد ذلك رخص اثمان العقارات السكنية التي اشتراها العاديون بالمقارنة مع الفئات الاخرى .

وكانت النساء من انشط الفئات الاجتماعية على الاطلاق في سوق العقارات السكنية ، فقد بلغ مجموع اعداد المشتريات منهن ١٨ والبائعات ٣٥ . وتفوق نسبة

البائعات منهن والبالغة ٦٦٪ نسبة أي فئة اجتماعية اخرى بين البائعين ، ويدل هذا على ان النساء كن يوظفن أموالهن في العقارات السكنية باكثر من العقارات الزراعية التي يصعب عليهن استغلالها . ويدل تعامل النساء في السوق العقارية بهذه النسب المرتفعة على أكثر من مجرد تصفية لحقوق ارثية لانهن في العينات اعلاه يبرزن كمالكات بمفردهن للعقارات التي اشترينها او بعنها . ويؤكد هذا ان النساء تمتعن بثروة ليست بقليلة مصدرها ارث أو عمل بيتي او مهر او نفقة او مجوهرات ، ويشير هذا الى استقلال النساء المالي ، وربما كانت تلك الصفات قد ورثتها الريفيات منهن من حياة الريف .

ويبرز المسيحيون ، رجالا ونساء ، في سوق التعامل العقاري السكني في المحلة ويشكلون الفئة الرابعة في هذا المجال بعد فئات النساء والحجاج وعامة الناس . وقد بلغ مجموع المشترين منهم ١٦ والبائعين ١١ ، ويدل هذا على اتجاه بينهم نحو الاستقرار في محلة باب المصلى .

ومما تجدر ملاحظته في العينات حجم العقارات السكنية المتداولة ، من حيث مجموع القراريط والاثمان ، بالنسبة لمختلف الفئات . فالنساء يبقين في الطليعة بالنسبة لمجموع القراريط التي تداولنها شراء وبيعا اذ بلغ ٩٨٤ قيراطا . وتليهم فئة الحجاج (٧٥٥ قيراطا) ، وعامة الناس (٥٧٥ قيراطا) ، والمسيحيين (٤٧٢ قيراطا) ، والسادة الاشراف (٢٧٢ قيراطا) والشيوخ (١٨٠ قيراطا) ، ثم العسكريين (١٦٤ قيراطا). ويتفق ترتيب هذه الفئات بالنسبة لحجم العقارات السكنية التي تداولتها مع ترتيبها بالنسبة لاعداد عقود الشراء والبيع التي سبق ذكرها .

ولكن الترتيب يختلف بالنسبة لاثمان العقارات المتداولة ، فاعلى المبالغ دفعها السادة الاشراف ومجموعها ١٠٣٨٤٢ قرشا ، أي ان سعر القيراط لديهم بلغ حوالي ٣٨١ قرشا مما يدل على ان نوعية العقارات السكنية التي امتلكها الاشراف ومواقعها كانتا متميزتين . ويلي الاشراف من حيث اثمان العقارات النساء اذ بلغ مجموع ما دفعنه ٧٥٢٥١ قرشا . ولكن سعر القيراط في هذه العقارات لم يتجاوز ٧٦٫٤٧ قرشا ، اي ان العقارات التي امتلكتها النساء كانت متواضعة موقعا وحجما ومحتوى . وتأتي في المرتبة الثالثة اثمان عقارات الحجاج والبالغة ٦٩٧٤٣ قرشا بواقع ٩٢٫٣٨ قرشا للقيراط . ويلي هؤلاء المسيحيون اذ بلغت اثمان عقاراتهم ٥٤٢٥٠ قرشا ، بما يعادل ١١٤٫٦٩ قرشا للقيراط الواحد . وبالرغم من ان عقارات عامة الناس بلغ مجموع اثمانها ٤٣٢٩٣ قرشا الا ان سعر القيراط منها البالغ ٧٥٫٢٩ قرشا يشكل ثاني ادنى نسبة في المجموعة ويقترب في ذلك من سعر قيراط عقارات الحجاج . وتتميز عقارات

الشيوخ عن العقارات الاخرى ، باستثناء عقارات الاشراف ، بان مجموع اثمانها البالغ ٢٧١٥٥ قرشا يجعل سعر القيراط منها ١٥٠ر٨٦ قرشا ، وهذا سعر متميز . وتأتي في ادنى السلم من حيث ثمن القيراط عقارات العسكريين اذ بلغ مجموع اثمانها ٩٠٠٠ قرش وسعر القيراط منها ٥٤ر٨٨ قرشا . ويدل هذا على فقدان هؤلاء العسكريين اهميتهم العسكرية في الدولة العثمانية التي كانت تدخل التحديث والاصلاح في الادارة .

البنية الاقتصادية لمحلة باب المصلى :

تتميز محلة باب المصلى بنوعين رئيسيين من الاعمال : التسويق والخدمات . اما الانتاج فيأتي في مرتبة ادنى وعلى نطاق ضيق كما يستدل من سجلات محكمة الميدان الشرعية . وطبيعي ان موقع الميدان والتركيب الاجتماعي لسكانه قد كيف الى حد كبير نمط الانشطة الاقتصادية فيه .

ويأتي في المرتبة الاولى من النشاط الاقتصادي تسويق الحبوب ، ويتم ذلك بمعظمه في البوايك التي تكثر في الشارع السلطاني ، وبخاصة على جانبي جامع المصلى وبقربه حيث تتسع الارض . ولكنها توجد ايضا بحجم اصغر في بعض الازقة . وتختلف احجام البوايك بحسب عدد الاقواس الحجرية التي توجد فيها والتي يستند السقف عليها ، فالبايكة الصغيرة تشتمل على اربعة جدر وسقف ومنافع ، والمعتدلة الحجم تتألف من اربعة جدر وسقف راكب على قوس حجر وباب ومنافع ، والكبيرة تمثلها البايكة المشتملة على خمسة اقواس حجر وسقف ومخزنين ومنافع ، وكانت تملكها الحرمة رقية بنت المرحوم خالد آغا قصاب باشي(٣٨) . ووصفت بايكة اخرى كبيرة واقعة تجاه زقاق المزرعة بانها معدة لبيع الحنطة ، وتشتمل على جدر وسقف راكب على فواصل حجرية وقواطع بايكية ومنافع(٣٩) . وقد تبنى على سطح (ظهر) البايكة طبقة علوية تضم غرفة يشار اليها باسم فرنكة تتألف من اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك ، وهي ملحقة عادة بعقار مجاور قد يكون دارا او بايكة يصعد اليها منه بسلم (٤٠) .

وبالرغم من ان البايكة قد تحتوي على اكثر من نوع من الحبوب بدليل البايكة التي وصفت بأنها « معدة لبيع الاغلال »(٤١) فان بعضها تخصص ببيع سلعة معينة مثل البايكة المعدة لبيع الحنطة . وذكرت بايكة اخرى معدة لوضع القش وتشتمل على جدر وسقف وباب ومنافع(٤٢) . ويعرف صاحب البايكة بالبوايكي واشتهر باحتكاره الحبوب وبيعها بأضعاف ثمنها في غير مواسمها مما جعله ثريا ، كما انه يسلف الفلاح المال ويأخذ منه حصة كبيرة من الغلال ، ويحتال ايضا في وزن الغلال وكيلها(٤٣) .

وتستخدم بعض البوايك لا لتسويق الحبوب فحسب بل لا يواء الفلاحين وربط الدواب ، وقدوصفت أحداها ، وكانت وفقا اهليا لآل سكر وتقع تجاه جامع المصلى بانها « تشتمل على مقاليب ومخزنين وحوش معد لربط الدواب وحقوق ومنافـع »(٤٤) . وطبيعي ان البايكة التي تضم مجمعا من الابنية كهذه لا ينتظمها سقف واحد لانها تشمل ارضا مكشوفة ، ومثال ذلك استئجار « جميع بياض وقرار ارض القطعة الارض الخالية من البناء والغراس الكائنة داخل البايكة » ، الجارية في وقف آل سكر في محلة باب المصلى بالقرب من الدار المعروفة بدار بني سكر(٤٥) . ويلفت النظر في هذه البايكة ابعاد قطعة الارض المستاجرة اذ بلغ طولها ٣٧ ذراعا وعرضهـا ٣٠ ذراعا بالـذراع المتعارف عليه ، ولعله الاسلانبولي(٤٦) ، الذي كان طوله آنذاك ٦٨ر٥ سم(٤٧) . وتضم بعض البوايك ساحة سماوية كما هو الحال في بايكة الطوير بالشارع السلطاني بالقبـة البيضاء بالقرب من الفواص(٤٨) وبعضها يضم قسما مكشوفا واخر مسقوفا كالبايكة في محلة باب المصلى بزقاق الحبالة « المشتملة على ساحة بعضها مسقفة وبعضهـا سماوية واربعة جدر وسقف وباب ومنافع »(٤٩) .

ومن البوايك الاخرى التي اشارت السجلات الى اسماء اصحابها ومواقعها بايكة السيد خليل التقي التي اشير اليها اختصارا ببايكة التقي ، وتقـع في الشـارع السلطاني(٥٠)، وبايكة محمود آغا تلو ، وبايكة مصطفى تلو الواقعتين بالصف الشرقي من الشارع السلطاني(٥١) . وهناك بايكة بزقاق الاربعين ، واخرى بزقـاق بادر ، وبايكة غربي القهوة خانة تجاه جامع المصلى وتعرف ببايكة الزريق(٥٢) . ويستدل من اسماء مالكي البوايك هؤلاء ان معظمهم من الاغوات العسكريين الذين احتكروا تقريبا تجارة الحبوب في محلة باب المصلى مستفيدين من سلطتهم العسكرية . وبعض التجار اصبح عسكريا ليحمي مصالحه الاقتصادية .

واذا كانت البايكة قد استخدمت اساسا لتخزين الحبوب وتسويقها فان انواعا اخرى من الابنية ، مثل المخزن والحوش والخان ، استخدمت لربط الدواب واحيانـا لسكن اصحابها . فالمخزن وصف باستمرار بانه معد لربط الدواب وانه مؤلف من اربعة جدر وسقف وباب ومنافع . وفي مثال استخرج مخزن من دار بزقاق الاربعين قبل ان اوقفها صاحبها(٥٣) ، وفي مثال اخر حوّل مطبخ واوده (غرفة) في دار موقوفة بالشارع السلطاني الى مخزنين لربط الدواب(٥٤) . وذكرت مخازن اخرى احدها في القبـة الحمراء ، واثنان في زقاق بادر (مخزن بيت قره ومخزن جامع المصلى)(٥٥) . ويستدل من ذلك ان المخازن معتدلة الحجم وموزعة على عدة جهات .

أما الحوش فيبدو ان تعديلات طرات على استخدامه في فترة نصف القرن التي

نعالجها . فالحوش ، على نقيض المخزن ، لم يقتطع من دار وانما كان عقارا قائما بذاته في الغالب ، تجاوره ، كما في المخزن ، دور سكنية . وقد يشكل الحوش جزءا من البايكة . ويشتمل الحوش اساسا«على ساحة سماوية واربعة جدر وباب ومنافع»(٥٦)، واستخدم بصورة عامة لربط الدواب . وذكرت عدة احواش في فترة دراستنا في ازقة المخللاتي ، والوسطاني ، والقبة الحمراء ، والمجتهد . وعرف الحوش باسم صاحبه او اسرته مثل حوش عبد الحق ، وحوش الكحيل ، وحوش بني المجتهد وحوش بني سكر(٥٧) . ويلاحظ تبدل في استعمال الحوش من ربط الدواب فيه اساسا ، كما في الامثلة السابقة ، الى اقامة السكان في بعض الاحواش بعد بناء غرف فيها . وتكثر الامثلة على هذا التبدل في الاستعمال بعد احداث عام ١٨٦٠ حين لجأ عدد من المسيحيين من جبل لبنان وحتى من داخل دمشق الى الميدان ، بما في ذلك محلة باب المصلى ، حيث وجدوا المأوى والامن نظرا لسلامة هذه الاماكن من الفتنة . ففي قضية تتعلق بأوقاف آل سكر عرضت على محكمة الميدان في ٢٣ جمادى الثانية ١٢٧٦ / ١٧ كانون الثاني ١٨٦٣ ، وصف حوش في وقف آل سكر بزقاق البقارة بانه « المشتمل على ثلاث مربعات سكن النصارى»(٥٨) ، كما ان حوش الكحيل بالقبة الحمراء ضم دارا تشتمل على ساحة سماوية ومربعين ومطبخ ومرتفق ومنافع كان يملكها مسلمون، ولم تذكر هوية سكانها(٥٩) .

وعلى نقيض البوايك والمخازن والاحواش التي كثرت اعدادها في محلة باب المصلى، كانت الخانات اقل عددا ولكن اكثر ارتباطا بتجارة الحبوب وما يتعلق بها منها بتجارة الاقمشة او التوابل مثلا ، كما هو الحال في عدد من الخانات داخل دمشق . وقد ذكر خان ابو خليل الدقاق في الشارع السلطاني لصيق قهوة الاوظن ، وخان ابو جوف بجوار بايكة ابن التقي في الشارع السلطاني ، وخان يملكه فارس آغا تلو في الصف الشرقي من الشارع السلطاني . كما ذكر خان الفاخورة في الزقاق الجواني(٦٠) وخان بني المجتهد(٦١) . وكان اكثر الخانات ذكرا خان داود الدوماني المعروف ايضا بخان الحدادين ، ويقع في زقاق التيامنة وقد وصف بأنه « المعد لربط الدواب المشتمل كامله على ساحة سماوية بها بركة ماء ناهدة وبايكتين وثلاثة اود وسلم حجر يصعد منه الى مشرقة بها ثلاث اود ومنافع »(٦٢) .

وعرف مكان بيع الخشب ، وهو الاخر ضروري للفلاحين ، بالحاصل . وذكر حاصل الشيخ عمر افندي المجتهد بالسلطاني في عام ١٨٢٥ ، وبعد حوالي خمسين سنة ، في ١٨٧٣ ، باع الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد ابن عمر افندي لشخص اخر في الاسرة ١٣ قيراطا وثلي قيراط من « جميع الحاصل المعد لبيع الخشب والايتون داخله » بسعر ٥٠٠,٠٠٠ قرش(٦٣) . ومما يلفت النظر تداول اسرة المجتهد لهذا

الحاصل لمدة طويلة ودفع هذا الثمن الباهظ الذي يساوي آنذاك ثمن عدة دور متوسطة الحجم لشراء اقل من ثلثي الحاصل ، مما يدل على ان تجارة الخشب كانت تدر ارباحا كبيرة على اسرة المجتهد التي بلغ من نفوذها الاسروي والديني(٦٤) والمالي ان عرف احد الازقة في محلة باب المصلى بزقاق المجتهد .. ويؤكد قاموس الصناعات الشامية(٦٥) ان حرفة الحواصلي تثرى كثيرا . وكانت اسرة المجتهد صاحبة اوقاف اهلية كثيرة .

ويلفت النظر احتواء حاصل آل المجتهد على ايتون (اتون اي تنور) لصناعة الكلس بحرق«احجار مخصوصة»، وينسجم هذا معمايقولهالقاسمي منان الحواصلي، صاحب الحاصل ، قد يقيم اتونا في حاصله . وذكر اتون اخر بزقاق بادر يملكه الحاج انيس اغا سكر وهو من كبار تجار الحبوب واصحاب الاوقاف الاهلية ، وقد اشتراه منه ، في ١٣ نيسان ١٨٦٣ ، الخواجة الياسابن الخواجة ابراهيم الصارجي بثمن مقداره ٤٥٠٠ قرش ، ووصف هذا الاتون بمناسبة بيعه بانه يشتمل على «جورة وتنور لطبخ الكلس ومتبن وساحة سماوية ومنافع »(٦٦) .

ومن مراكز الخدمات التي توزعت في انحاء محلة باب المصلى الافران التي ذكرت السجلات منها ثلاثة : واحد بزقاق الوسطاني ، واخر بزقاق التيامنة ، وثالث بزقاق بادر . وذكر حمام واحد هو حمام سنقر بالشارع السلطاني بالصف الغربي ، وربما استعمل السكان حمامات مجاورة في السويقة والميدان التحتاني . كما ذكرت ثلاثة مقاهي (قهوة خانة) واحد تجاه مصلى العيدين بالصف الغربي ولعله قهوة الاظن ، واخر عرف بقهوة المجتهد في الشارع السلطاني بالصف الشرقي ، وثالث عرف بقهوة الوسطانية ، ولعله بزقاق التيامنة ، وقد وصف بانه يشتمل على اربعة جدر ومساطب مستديرة واوجاق معد لطبخ القهوة ومصيف براني وسقف وباب ومنافع(٦٧) . كما ذكرت طاحون الارامل في محلة باب المصلى « ويشمل كاملها على اربعة جدر وسقف وباب وحجر واحد مطبق معد لكسر الفلال ومخازن منها لوقف الحرمين »(٦٨) .

ووجدت في محلة باب المصلى دكاكين متفرقة في الازقة لتصنيع المنسوجات مثل الالاجة وهي قماش مقلم مصنوع من الحرير في اللحمة ومن القطن في السدى ، ولهذا كان سعره مرتفعا لغلبة نسبة الحرير فيه . وذكرت احدى دكاكين صناعةالالاجة في زقاق المخللاتي وضمت ستة انوال ، وقد باعها اصحابها المسيحيون الى احد الاغوات المسلمين في عام ١٨٢٦ ، وذكرت دكان اخرى لصناعة الالاجة بزقاق التيامنة اشتراها في عام ١٨٥٩ الخواجة جريس ابن الخواجة يوسف العيسي والخواجة عبد الله ابن الخواجة ميخائيل برصة سوية بينهما من الحاج مصطفى ابن الحاج خليل الزريق ،

واشتملت على اربعة انوال ومطاوى ورفوف وارواس ومنافع(٦٩) . واشترى شخص بمفرده جميع عمارة وبناء الدكان بزقاق الجواني المعدة لنسيج العبي المشتملة على اربعة جدر وسقف وباب وشبابيك وخمسة انوال مع عددهم(٧٠) .

ويلاحظ في هذه الامثلة توزع المشاغل النسيجية في الازقة ، وملكيتها من قبل شخص واحد في الغالب مما يدل على الفردية في العمل . واذا كان المالك اكثر من شخص فتلك حالة ارثية في الغالب . وانتقلت ملكية هذه المشاغل بين السكان المحليين بقطع النظر عن مذاهبهم ، أي ان النسيج لم يكن مختصا بطائفة دون اخرى . والمثال الاخير الذي نص فيه على شراء عمارة وبناء الدكاكين يوحي ان عقد الشراء لم يشمل عدة الدكان ، أي انوال نسيج العبي وملحقاتها ، المعبر عنها بالكدك ، ولا حق استعمال الانوال في الدكان نفسها المعبر عنه بالخلو . ويمكن شراء كدك وخلو الدكان معا او منفردين دون عمارة وبناء الدكان(٧١) . واذا كانت ارض الدكان وقفا لاتباع ويمكن بيع العمارة والبناء وكذلك الكدك والخلو مجتمعين او منفردين . وتنص العقود بدقة عادة على ما يشترى . وحين يذكر شراء جميع الدكان فذلك يعني الارض والعمارة دون العدة وحق استعمالها اللذين يجب ان ينص عليهما(٧٢) .

وتدل كثرة عرض دكاكين النسيج ، بما في ذلك كدكها وخلوها ، للبيع وانتقال ملكيتها بين الناس خلال فترات قصيرة على الازمة التي لحقت بصناعة النسيج الشامية خلال القرن التاسع عشر ، وبخاصة صناعة الالاجة المتميزة ، بفعل منافسة البضائع الاوربية لها ، في السعر والجودة وتقليد النماذج المحلية(٧٣) . وبلغ من سيطرة الرأسمالية الاجنبية ان معظم العقارات في محلة باب المصلى في العينة الخامسة (١٨٧٤ — ١٨٧٥) بيع بالليرات الذهبية الفرنساوية العين (أي غير المثقوبة)(٧٤) ، مما يدل على انهيار قيمة الوحدة النقدية المحلية وهي القرش وعدم الثقة بها .

ويقع اكبر تكتل للدكاكين متنوعة الاختصاص في محلة باب المصلى على جانبي الشارع السلطاني ، في الصفين الشرقي والغربي منه ، فهناك دكاكين لصنع الجلالات (ما يوضع على ظهر الدواب) والشعارة (ضفر الشريط ووضعه في اطار على الابواب) والسمكرية (صنع ادوات التنك ولحمها) ، والحياكة ، والخضرية ، والبندقجية (تصليح البنادق) وغيرها . ومما يلفت النظر ان عددا من الدكاكين كان وقفا خيريا مرصدا على جامع المصلى أو على الحرمين الشريفين .

وباستعراض انواع الحرف التي لحقت باسماء الاشخاص الساكنين في محلة

باب المصلى ، سواء مارسوها بأنفسهم ام ورثوها عن ابائهم ، نتبين طبيعة الاعمال التي كانت تمارس في المحلة على مستوى الانتاج والتسويق والخدمات ، والتي ارتبطت بمعظمها بتسويق الحبوب ، وانتاج مستلزمات الريفيين ، وتقديم الخدمات . فهناك من تلقب بالجمال والخاناتي والقباني والمغربل وابو البرغل والطحان والخولي (له خبرة بالفلاحة والانتاج) ، ويعنى هؤلاء بالحبوب ، ومن تلقب بالجليلاتي والبرادعي (صانع الغطاء لظهر الدابة) والبيطار ، والزرابيلي (صانع الزربول وهو مداس سميك للفلاحين)، والصرماياتي والبسطاطي ، ويهتم هؤلاء باحتياجات السكان المحليين والريفيين . كما وجد حرفيون اخرون لخدمة السكان المحليين والريفيين على حد سواء مثل العكام (الذي يقود الجمال وبخاصة الى الحج) والمشاعلي (الذي يحمل المشعل لمرافقة الحجاج) والشعال (الذي يشعل قناديل المحلة) والبواريدي والبندقجي والمسالخي والقصاب باشي والدباغ . ووجدت القاب تدل على صناعة النسيج مثل الحريراتي والصباغ والملقي (الذي يهيء الحرير للحايك) والالاجاتي والفرا (الذي يبيع الفرو ويصنع منه الفروات) . وهناك تسميات اخرى مثل النحاس والمبيض والحجار والدكاك (يبني الحائط من الدك اي التراب المضغوط) والدهان والقزاز والقضماني والمحمص والنشواتي واللحام والخباز والزبال(٧٥) .

وباستعراض اسماء الاشخاص الذين لحقت بهم هذه الالقاب الحرفية واسماء الازقة التي سكنوها لا نجد ان زقاقا ما اقتصر على ساكنين من حرفة واحدة او من حرف متقاربة ، اي انه لم يكن هناك فرز للازقة على اساس حرف اصحابها ، بل ضم الزقاق خليطا من السكان من كل حرفة . ونظرا لكون دخول هذه الحرف تتفاوت، كثرة او قلة ، حسب نوع الحرفة فهذا يعني ان ساكني الزقاق كانوا من مستويات مادية مختلفة يتعايشون معا في اندماج اجتماعي متسامح .

وعلى صعيد اخر لعبت السوق العقارية دورا نشطا في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى ، ووظفت فيها مبالغ كبيرة من المال اذا ما قيس ذلك باسعار الاراضي الزراعية في منطقة دمشق انذاك ، واسعار السلع المختلفة واسعار الحيوانات التي توردها سجلات المحاكم الشرعية وكتابات الاخباريين وتقارير القناصل الاجانب وغيرها. ونلاحظ في العينات الخمس شراء عدد من العقارات السكنية من قبل الاشخاص انفسهم ، ثم بيعهم لبعضها في اوقات مختلفة . وبرزت النساء بشكل ملحوظ في شراء العقارات الكاملة والجزئية لان في ذلك توظيفا مضمونا للمال فيها .. ويمكننا رصد مجموع المبالغ الموظفة في السوق العقارية في كل عينة ، ووسطي سعر القيراط ، والتبدلات التي طرات عليها ، على ضوء الوضع الاقتصادي العام ، من خلال الجدول التالي :

عقود بيع وشراء العقارات السكنية عموما بمحلة باب المصلى

العينة	عدد العقود	مجموع القراريط	مجموع الاثمـان	وسطي سعر القيراط (بالقروش)
١٨٢٥ – ٢٦	٥٠	٩٣٦	٤٣٦١٨	٤٦ر٦٠
١٨٣٤ – ٣٥	١٣	٢٥٤	١١٣٥٠	٤٤ر٦٩
١٨٤٦ – ٤٧	١١	١٧٨	١٠٣٣٥	٥٨ر٠٦
١٨٦٢ – ٦٣	٢٤	٤٩٠	١٢٤٩١٢	٢٥٤ر٤٠
١٨٧٤ – ٧٥	١٧	٢٨٣	٥٥٤٤٢	١٩٥ر٩١
المجموع	١١٥	٢١٤١	٢٤٥٦٥٧	١١٤ر٦٩ الوسطي العام

ويلاحظ في وسطي سعر القيراط تراجعا ضئيلا في العينة الثانية ، ابان الحكم المصري، ثم ارتفاعا بحوالي الثلث في العينة الثالثة ، وربما نجم عن انخفاض سعر القرش واضطراب الوضع الاقتصادي بتأثير منافسة البضائع الاوربية. وتبلغ الزيادة في وسطي سعر القيراط أعلى مستوى لها في عينة ١٨٦٢ – ١٨٦٣ ، ومرد ذلك انخفاض سعر القرش بالنسبة للنقد الذهبي وبخاصة العملات الاوربية الذهبية التي سيطرت على السوق النقدية المحلية (٧٦) ، وكذلك ارتفاع اجور البنائين ومواد البناء انـذاك(٧٧) ، بالاضافة الى كثرة الطلب على شراء العقارات في المحلة ، وبخاصة من قبل المسيحيين في اعقاب احداث عام ١٨٦٠ . ثم يعود وسطي سعر القيراط في العقارات السكنيـة الى الانخفاض في العينة الخامسة بسبب الموسم السيء وغلاء اسعار الحبوب والاوضاع الاقتصادية السيئة بصورة عامة بشـهادة القساطلي صاحب « الروضة الغنـاء » الذي عاصر تلك الاحداث(٧٨) .

وبالاستناد الى تفاصيل العقود التي بني عليها الجدول السابق تبرز ثلاثة ازقة في محلة باب المصلى استقطبت حوالي نصف عقود بيع وشراء العقارات السكنيـة في العينات الخمس كما يبين ذلك الجدول التالي :

الازقة الرئيسية في سوق التعامل بالعقارات السكنية

الزقاق	عدد العقود	النسبة للمجموع العام	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
القبة الحمراء	٢٢	١٩ر١٣٪	٤١٦	١٩ر٤٢٪	٢٣٠٣١	٩ر٣٧٪
الوسطاني	١٩	١٦ر٥٢	٣٣٧	١٥ر٧٣	٢٩٦١٠	١٢ر٠٥
التيامنة	١٦	١٣ر٩١	٢٦٥	١٢ر٣٧	٤٣٤٧٨	١٧ر٧٠
المجموع	٥٧	٤٩ر٥٦	١٠١٨	٤٧ر٥٢	٩٦١١٩	٣٩ر١٢

يلاحظ في الجدول اعلاه ان منطقة القبة الحمراء التي اشتملت على ارقةالتركمان والشعرية وعزام وبعض العقارات في الشارع السلطاني ضمت اكبر نسبة من عقود البيع وتقدر بـ ١٩ر١٣٪ ولكنها بالمقارنة مع الزقاق الوسطاني وزقاق التيامنة اللذين يلياها في عقود البيع والشراء تشكل اثمان العقارات فيها اقل نسبة في الازقة الثلاثة في حين ان التيامنة تشكل فيها الاثمان اعلى نسبة بالرغم من النسبة المتدنية لعدد عقود البيع والشراء فيها . ويدل هذا على اختلاف سعر القيراط السكني من منطقة الى اخرى ، وسندرس دلالة ذلك بالنسبة لنوعية الساكنين ومستوياتهم في الازقة عموما في فترة الاندماج بين فئات السكان .

وكان للوقف بانواعه دور هام في الحياة الاقتصادية لمحلة باب المصلى . وكان عدد كبير من العقارات التجارية والزراعية والسكنية ، كالبوايك والدكاكين والجناين وقطع الاراضي والدور اما وقفا خيريا مرصدا بمعظمه على جامع باب المصلى او على الحرمين، أو وقفا أهليا « ذريا » تستفيد منه بخاصة بعض الاسر الكبرى ، مثل آل سكر وآل المجتهد . ويصعب احصاء نسب الاوقاف الخيرية الى الاوقاف الاهلية في العيناتالتي قمنا بدراستها بغية معرفة تبدل النسب بين نوعي الاوقاف هذين على مر الزمن . والمعروف في تاريخ بلاد الشام في العهد العثماني ان القرن السادس عشر الذي شهد اهم واكثر المنجزات العثمانية الخيرية كالجوامع التي بناها ولاة عثمانيون مشهورون شهد كذلك ايقاف أهم نسبة من الاوقاف الخيرية لفائدة هذه الابنية . ثم انعكس الامر بدءا من القرن الثامن عشر حين ازدادت نسبة الاوقاف الاهلية بتحويل كثير من الولاة والاغنياء املاكهم الى اوقاف اهلية لتحاشي مصادرة الدولة لها . كما يصعب معرفة

نوعية الوقف في عدد من العقارات ، وبخاصة الدور السكنية ، في محلة باب المصلى لان سجلات محكمة الميدان الشرعية اكتفت بالقول احيانا ان العقار الفلاني وقف دون ان تعين هوية هذا الوقف او الجهة الموقوف عليها . وهناك ايضا تخصيص جزء من اجرة ارض موقوفة شيد عليها بناء ملك ، لصالح وقف خيري . وبالرغم من هذا الغموض في قضايا الوقف يمكن معرفة نسبة العقارات الموقوفة اطلاقا الى غير الموقوفة في كل عينة وذلك بدراسة اعداد العقارات على اختلاف انواعها ، المبيعة كليا او جزئيا ، والمؤجرة ، وتلك التي عرض امرها على المحكمة لاي سبب كان ، او التي ذكرت كحدود لهذه العقارات من جهاتها المختلفة .

نسبة عقارات الملك الى الوقف في محلة باب المصلى

العينة	العقارات السكنية		العقارات التجارية		العقارات الزراعية	
	ملك	وقف	ملك	وقف	ملك	وقف
١٨٢٥ – ٢٦	١٨٢	٥	١٣	٤	٢	–
١٨٣٤ – ٣٥	٧٦	–	٦	–	٢	١
١٨٤٦ – ٤٧	٤٠	٣	١٣	٩	–	١
١٨٦٢ – ٦٣	٩٧	٧	٢٧	١٦	٢	٤
١٨٧٤ – ٧٥	١٠١	٨	٢٠	٢	٥	١
المجموع	٤٩٦	٢٣	٧٩	٣١	١١	٧

يتبين من الاحصاء اعلاه ان عقارات الملك ، على أنواعها ، بلغت ٥٨٦ عقارا ، وعقارات الوقف ، بنوعيه الخيري والاهلي ، بلغت ٦١ عقارا ، أي ان نسبة عقارات الوقف الى مجموع العقارات هي ٩٫٤٣٪ في حين ان نسبة عقارات الملك تبلغ ٩٠٫٥٧٪ ولا يمكننا الحكم بقلة او كثرة هذه النسب الا بعد اجراء دراسات مماثلة لمحلات اخرى في دمشق في الفترة ذاتها . ومع ذلك نستدل من هذه النسبة الكبيرة لعقارات الملك انه بالرغم من حداثة عدد كبير من الاسر في محلة باب المصلى ، وهجرة السكان المستمرة اليها من مختلف الانحاء وتشكلهم من عناصر بشرية متنوعة ، وربما ضآلة دخلهم ، فان الاتجاه هو نحو التملك والاستقرار في المحلة . كما أن قلة الابنية الدينية في المحلة

وعدم اهميتها بالمقارنة مع مثيلاتها داخل دمشق وفي اماكن اخرى ظاهرها ، باستثناء جامع المصلى ، يفسر بدوره قلة الاوقاف الخيرية في المحلة . والملاحظ ان العثمانيين لم يبنوا اية جوامع في محلة باب المصلى، على غرار جامعي الدرويشية والسنانية وحتى جامع المرادية الذي هو على مشارف محلة باب المصلى ، ولم يبنوا كذلك اية ابنية هامة فيها ذات نفع عام او خاص ، وبالتالي لم تكن هناك من حاجة لايقاف الاوقاف من قبلهم باي مقدار لصالح المحلة .

ولم تكن اكثرية العقارات الموقوفة في محلة باب المصلى والبالغة ٦١ عقارا وقفا خيريا فقد كان معظمها وقفا اهليا تستفيد منه بضع اسر كبرى في طليعتها آل سكر وآل المجتهد ، كما ضم اوقافا لصالح الحرمين ، ويبين الجدول التالي نسب هـذه الاوقاف :

نسب الاوقاف في محلة باب المصلى

انواع العقارات	اوقاف خيرية	اوقاف ذرية
سكنية	١٢	١١
تجاريــة	١٣	١٨
زراعيــة	٤	٣
المجموع	٢٩ (النسبة ٥٤ر٤٧٪)	٣٢ (النسبة ٤٦ر٥٢٪(

ويمكن تقسيم الاوقاف الخيرية الـ ٢٩ هذه الى ثلاث فئات من حيث الجهـات المستفيدة منها كما يبين ذلك الجدول التالي :

الجهات المستفيدة من الاوقات الخيرية بانواعها في محلة باب المصلى

انواع العقارات	جامع المصلى	الحرمين الشريفين	غير معروف
سكنية	٤	٢	٦
تجارية	٥	٣	٥
زراعية	٣	—	١
المجمـوع	١٢	٥	١٢=٢٩

بالنسبة للاوقاف التي لا تعرف الجهة التي اوقفت عليها لا يعرف كذلك فيما اذا كانت تلك الجهة او الجهات واقعة بمحلة باب المصلى ام خارجها . وهناك امثلة عن حكر وقفي لم ندرجه في الجدول مثل حكر بعض الدور السكنية التي كانت ارضها وقفا وعمارتها ملكا ، وخصص حكر ارضها لجهة خيرية معينة . مثال ذلك الدار بزقاق الجواني التي كان على ارضها من الحكر كل سنة خمسة مصاري (أي ثمن قرش) لجهة وقف مدرسة الشامية البرانيةبدمشق (٧٩) ، ودار اخرى في الزقاق ذاته كان على ارضها كل سنة عشرون مصرية بطريق الحكر لجهة المدرسة ذاتها(٨٠) . ومثال اخر عن دار في زقاق الوسطاني كان على ارضها من الحكر كل سنة خمس عشرة مصرية لجهة المدرسة نفسها(٨١) . ولم يرد تخصيص حكر لاية جهة اخرى سوى هذه المدرسة . والمعروف ان مدرسة الشامية البرانيةفي دمشق هي من مدارس الشافعية، ولا نعلم المذهب السائد في محلة باب المصلى آنذاك ، علما ان المغاربة الموجودين في المحلة بكثرة هم مالكيـة .

وبالنسبة لاوقاف جامع المصلى فقد ذكر الشيخ عبد القادر بدران (المتوفي سنة ١٣٤٦ هـ) وهو المعروف بتتبعه لقضايا الاوقاف ، ان جامع المصلى لم يتهيأ له وقف(٨٢) ، وربما قصد وقت انشائه في عام ٦٠٦ /١٢٠٩ . ويدل وجود أوقاف لهذا الجامع في فترة دراستنا على انه اكتسبها بالتدريج ، او ربما لم يعثر الشيخ بدران في زمنه على اوقاف له . ومما يلفت النظر ان احدى الدور الواقعةفي الشارع السلطاني وصفت في سجل محكمة الميدان بتاريخ ١٦ ذي الحجة ١٢٩٠/٤ شباط ١٨٧٤ بانها جارية بوقف جامع المصلى قديما والان سكن الشيخ النجار(٨٣) . وربما دل هذا على ان جامع المصلى خسر هذا الوقف بطريق الاستبدال او الاستيلاء(٨٤) . ونظرا لسوء التصرفبالاوقاف آنذاك نظمت الدولة العثمانية ، فيفترة التنظيمات ، أمور الاوقاففي دمشق . وذكر في عام ١٨٦٢ ان مدير اوقاف الشام آنذاك شهد بالتصديق على بيع كدك وخلو عائدين لدكان وقف في محلة باب المصلى(٨٥) .

وكان الناظر على وقف جامع المصلى في عـام ١٨٣٤ السيد محمـد البغدادي القادري، والمتولي هو السيد ابراهيم القباني ، ويبدو ان الوقف آنذاك كان فيه دخل فائض شري منـه للوقف بايكة وجنينة في زقاق المصلى (زقاق بادر)(٨٦) . وبعـد حوالي ربع قرن منذلك ذكر ان متولي وقف جامع المصلى هو محمد آغا ابن ابراهيمآغا القباني بموجب براءة سلطانية(٨٧) .

أما اوقاف الحرمين في محلة باب المصلى فكان المسؤول الاعلى عنها محمد امين افندي ابن المرحوم احمد افندي الاسلانبولي المتولي على اوقاف الحرمين بعامة ، وكان

وكيله في محلة باب المصلى في عام ١٨٤٦ حسين آغا ابن علي آغا القرحصار . وذكر وكيل اخر لهفي العام التالي هو محمود آغا ابن السيد احمد جلبي شيخ الارض(٨٨).

واشتهر من الاوقاف الاهلية من الناحية الاقتصادية اوقاف آل سكر وآل المجتهد . وكانت هذه الاوقاف في اساس ثروة هاتين الاسرتين . وكانت اسرة سكر تركمانية الاصل عسكرية المنشأ برزت من خلال طائفة الانكشارية اليرلية ، وتنتسب الى جدها الامير حسن آغا التركماني الذي اشتهر بين انكشارية دمشق في الربع الاول من القرن السابع عشر(٨٩) . وبقي افراد اسرة سكر يحملون القاب آغا وجربجي العسكرية بالرغم من انهم تحولوا الى تجار للحبوب في الميدان واطلق على عدد منهم لقب عمدة التجار الى جانب لقب آغا . وكان على افراد اسرة سكر ، في فترة دراستنا، النظر والتكلم على اربعة اوقاف اهلية كبرى : وقف جدهم الامير حسن آغا التركماني ، وجدهم محمد آغا شوباصي(٨٢) ، وجدهم الخواجة ابراهيم البيطار ، وجدتهم صالحة قادن بنت المرحوم حسين بشه الارنوط (أي الارناؤوط)(٩٠). واشتملت هذه الاوقاف على بوايك ومقاه وأراضي ودكاكين ودور .

وبرزت اسرة المجتهد بالنسبة لحجم الاوقاف الاهلية التي استغلتها . وبالرغم من صفات العلم والمشيخة والاجتهاد التي تمتعت بها فقد افادت ، على غرار اسرة سكر، من النفوذ العسكري . وكان الشيخ محمد جربجي المجتهد ناظرا على وقف جده الاعلى مصطفى الحوراني(٩١) . ونظرا للمنافسة الاقتصادية والسياسية بين اسرتي سكر والمجتهد وتشابك المصالح بينهما عن طريق تأجير العقارات والعمل كوكلاء لمتداعين من اسرة ضد اخرى حفلت سجلات محكمة الميدان بالدعاوي بين الطرفين(٩٢).
وذكرت اسر اخرى افادت على نطاق ضيق من الاوقاف الاهلية مثل آل الخراط وآل الفرا النظار علىوقفجدهم قره اصلان، وآل الباروديالنظار على وقف جدهم سليمان الخوام .

وكان استئجار الاوقاف الاهلية من قبل المستفيدين منها او غيرهم يتم لسنوات طويلة وباجرة زهيدة تقتطع منها نفقات ترميم العقار .

وبتاجير الوقف لمدة طويلة بأجرة مقررة سلفا يفيد المستأجر من الربح الاضافي الناتج عن تدني قيمة العملة وبخاصة في القرن التاسع عشر ، ولهذا عمد الناظر الى زيادة الاجرة احيانا حتى قبل انتهاء مدة الايجار . ومهما يكن ، فان مستاجر الوقف، وهو عادة من الاسر المستفيدة منه ، تمتع بمعظم عائداته واستخدم ذلك لتوطيد نفوذه الاقتصادي والسياسي في محلة باب المصلى وخارجها على حساب اقربائه المستفيدين نظريا من الوقف .

الاندماج بين فئات السكان :

تعددت الفئات الاجتماعية في محلة باب المصلى بسبب موقعها والخدمات التي تقدمها ، واشتهرت فيها طائفة الانكشارية ذات الاصول التركمانية والكردية التي تحولت بالتدريج الى طائفة محلية (يرلية) يتعاطى افرادها التجارة، وبخاصة الحبوب. وسكنها كذلك المغاربة الذين باعوا خدماتهم كقوة عسكرية ، وكانوا بمعظمهم من قبيلة زواوة من جبال القبائل بالجزائر ، ومنهم اناس من تونس وطرابلس الغرب ، وازدادت اعدادهم في القرن التاسع عشر اثر احتلال فرانسا للجزائر . واستقبل الميدان ،ومحلة باب المصلى بخاصة ، اعدادا من مسيحيي حوران والمناطق المجاورة الذين استفادوا من التسامح الديني ابان الحكم المصري في بلاد الشام مما دعا بطريرك الكاثوليك مكسيموس الثاني مظلوم الى انشاء كنيستين في حي الميدان بين عامي ١٨٣٤ ـ ١٨٣٦، واحدة في محلة باب المصلى والاخرى في زقاق القرشي ، وذلك الى جانب سماح ابراهيم باشا المصري له في عام ١٨٣٢ ببناء كاتدرائية في حارة الزيتون بدمشق . وأدى تزايد المسيحيين الأرثوذكس في الميدان قادمين اليه من حوران ومن راشيا ، وبخاصة بعد احداث ١٨٦٠ ، الى بناء كنيسة لهم في القرشي في اواخر عام ١٨٦٢(٩٢) .

ونظرا لتنوع الفئات الاجتماعية التي سكنت المحلة عبر السنين ، واختلاف اصولها واعمالها ومستوياتها الاقتصادية والاجتماعية ، وتعدد الاسباب التي دفعت بها الى الهجرة والسكن فيها ، تطرح قضية تعايش هذه الفئات واندماجها مع بعضها. ويتجلى هذا اكثر ما يتجلى في تداخل اماكن سكنها ، واستيعاب المحلة للاعداد المهاجرة اليها ، واستمرار التعايش بين مختلف السكان بالرغم من الازمات التي عصفت بدمشق وبالمنطقة . وتزودنا العينات الخمس في سجلات محكمة الميدان الشرعية بمعلومات دقيقة عن تنوع هذه الفئات ومدى اندماجها ببعضها على اساس تجاور عقاراتها .

وسنستعرض في الجداول التالية هويه البائعين والمشترين للعقارات على اختلاف انواعها ، وكذلك هوية اصحاب العقارات المجاورة للعقارات المباعة التي حرصت سجلات المحكمة ان تحددها في اطار التعريف بالعقار المبيع . وبالرغم من التفاوت في اعداد العقارات المدروسة في العينات الخمس فان نسب فئات السكان في كل منها تشكل صورة واقعية للسوق العقارية ولهوية السكان الذين يقومون بعمليات البيع والشراء.

هوية البائعين والمشترين والجوار عموما لكافة العقارات في محلة باب المصلى (١٨٢٥ ـ ١٨٧٥)

العينة الاولى ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦

الهويــة	البائعون	المشترون	الجــوار	المجموع	النسبة
مغاربــة	٨	٢	٣	١٣	٤١ر٤٪
اكراد وتركمان	٣	ـ	١	٤	٣٦ر١
مصريون	ـ	١	١	٢	٦٨ر٠
عسكريون	٧	٥	٤	١٦	٤٢ر٥
من بلاد الشام	٤	٧	ـ	١١	٧٣ر٣
مسيحيون	١٢	١٤	١٦	٤٢	٢٣ر١٤
غير محددة(محليون)	٥٥	٤٣	١٠٩	٢٠٧	١٧ر٧٠
المجمــوع	٨٩	٧٢	١٣٤	٢٩٥	٠٠ر١٠٠

العينة الثانية ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥

الهويــة	البائعون	المشترون	الجــوار	المجموع	النسبة
مغاربــة	٢	٣	ـ	٥	٦٧ر٤
اكراد وتركمان	١	ـ	١	٢	٨٧ر١
مصريــون	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
عسكريــون	٣	٢	٣	٨	٤٨ر٧
من بلاد الشام	٢	١	ـ	٣	٨٠ر٢
مسيحيون	٢	٨	٢	١٢	٢٢ر١١
غير محددة	٢٠	١٨	٣٩	٧٧	٩٦ر٧١
المجمــوع	٣٠	٣٢	٤٥	١٠٧	٠٠ر١٠٠

العينة الثالثة ١٨٤٦ – ١٨٤٧

الهويـة	البائعون	المشترون	الجـوار	المجموع	النسبة
مغاربة	—	—	—	—	—
اكراد وتركمان	٦	—	—	٦	٨ر٠٠
مصريون	—	—	—	—	—
عسكريون	—	—	٢	٢	٢ر٦٧
من بلاد الشام	١	٣	—	٤	٥ر٣٣
مسيحيون	٦	١	٣	١٠	١٣ر٣٣
غير محددة	١٥	١٤	٢٤	٥٣	٧٠ر٦٧
المجمـوع	٢٨	١٨	٢٩	٧٥	١٠٠ر٠٠

العينة الرابعة ١٨٦٢ – ١٨٦٣

الهويـة	البائعون	المشترون	الجـوار	المجموع	النسبة
مغاربة	٢	٤	٣	٩	٦ر٢٥
اكراد وتركمان	—	—	—	—	—
مصريـون	—	١	٣	٤	٢ر٧٨
عسكريون	٤	١	٤	٩	٦ر٢٥
من بلاد الشام	—	١	—	١	٠ر٦٩
مسيحيون	٣	١٧	٩	٢٩	٢٠ر١٤
غير محددة	٣٤	١٥	٤٣	٩٢	٦٣ر٨٩
المجموع	٤٣	٣٩	٦٢	١٤٤	١٠٠ر٠٠

العينة الخامسة ١٨٧٤ ـ ١٨٧٥

الهويـة	البائعون	المشترون	الجـوار	المجموع	النسبة
مغاربـة	١	٦	٢	٩	١٥ر٤
اكراد وتركمان	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
مصريون	١	ـ	ـ	١	٤٦ر٠
عسكريون	ـ	٢	٤	٦	٧٧ر٢
من بلاد الشام	ـ	ـ	ـ	ـ	ـ
مسيحيون	١٢	٨	٩	٢٩	٣٦ر١٣
غير محددة	٧٠	٣٠	٧٢	١٧٢	٢٦ر٧٩
المجموع	٨٤	٤٦	٨٧	٢١٧	٠٠ر١٠٠

يلاحظ في هذه الجداول ، اولا ، ان مجموع اعداد البائعين في العينـات الخمس البالغ ٢٧٤ يفوق مجموع اعداد المشترين البالغ ٢٠٧ ، مما يدل على ان الملكية تميل نحو التجمع لدى مالكين اقل عددا . وتظهر اربع فئات دائمـة الحضور في سـوق العقارات في المحلة هي المغاربة ، والاكراد والتركمان ، والعسكريون ، والمسيحيون، اما المصريون فبالرغم من حكم محمد علي باشا لبلاد الشام مدة تسع سنوات لم يستمر الوجود السكاني المصري على نطاق كبير في دمشـق وبخاصة في محلة باب المصلـى ، بعد انسحاب الجيش المصري . ومن الطبيعي كذلك ان يسكن في المحلة ، كما في محلات دمشق الاخرى ، عدد من سكان مدن بلاد الشام الاخـرى لان ذلك في طبيعـة تنقل السكان المحليين وان كان على نطاق ضيق .

ويشكل المغاربة عنصرا دائما في سوف العقارات وفي الوجود السكني في محلـة باب المصلى ويبلغ حوالي ٥٪ في الجداول مما يدل على استمرار تدفق المغاربة الـى دمشق . ومن المعروف ان اعدادا كبيرة منهم كانت تسكن في حي المغاربة الى الجنوب من محلة باب المصلى وفي محلة العمارة معقل الامير عبد القادر الجزائري واتباعـه . وكذلك في انحاء اخرى من الميدان ، وتبلغ اعداد المشترين منهم في العينات الخمس ١٥ مقابل ١٣ بائعا مما يدل على تعاملهم في السوق العقارية باكثر من الاكراد والتركمان الذين لم يرفدوا باستمرار بعناصر اضافية كالمغاربة . ويلفت النظر في عينتي عـام

١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ وعام ١٨٧٤ ــ ١٨٧٥ ان عددا من المغاربة البائعين والمشترين للعقارات السكنية، وبخاصة في منطقة القبة الحمراء ، يحمل لقب الزواوي، كما في اسم علي ابن سعيد المغربي الزواوي(٩٤) . اما العسكريون من آغاوات وجربجية فكانت نسبة مشاركتهم في السوق العقارية والبالغة حوالي ٦٪ اكثر من نسبة مشاركة المغاربة نظرا للثروة التي تمتع بها هؤلاء العسكريون .

ويشكل المسيحيون الفئة الثانية التي تلي الاكثرية المحلية من المسلمين (حوالي ٧١٪) في التعامل في السوق العقارية في محلة باب المصلى . ويبلغ وسطي نسبة المسيحيين المتعاملين في هذه السوق حوالي ١٤ر٥٠٪ . وطبيعي ان المسيحيين القادمين من حوران ومن منطقة وادي التيم والمناطق الجنوبية الاخرى يصلون الى الميدان اولا حيث تستقر اعداد منهم فيه ثم ينتقل البعض ، بعد مدة ، الى دمشق . ويكثر الوجود السكني المسيحي في عدد من ازقة الميدان ، خارج محلة باب المصلى ، وبخاصة زقاق القرشي وازقة الميدان الفوقاني(٩٥) .

ويلاحظ في العينات زيادة اعداد المسيحيين مشتري العقارات البالغة ٤٨ على اعداد البائعين منهم البالغة ٣٥ . ومما يلفت النظر ازدياد نسبة شراء المسيحيين للعقارات في محلة باب المصلى في عينة ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ ويفسر ذلك من ناحية ، بعدم تعرض المسيحيين في الميدان عموما لاذى الاضطرابات الاجتماعية والطائفية التي حلت بدمشق وبجبل لبنان عام ١٨٦٠ ، مما شجع اعدادا من المسيحيين من خارج المحلة على شراء العقارات فيها بدلالة وجود ١٧ مشتريا مسيحيا مقابل ٣ بائعين في محلة باب المصلى في عام ١٨٦٢ ــ ١٨٦٣ . وحدث هذا الاقبال على شراء العقارات في ذلك العام بالرغم من ارتفاع وسطي سعر القيراط العقاري آنذاك في محلة باب المصلى ــ كما سبق القول ــ الى اعلى مستوى له بالمقارنة مع العينات السابقة واللاحقة اذ بلغ ٢٥٤ر٤٠ قرشا . ويفسر هذا الاقبال بعدة عوامل منها الرخاء الذي عم دمشق آنذاك(٩٦) ، وحصول المنكوبين من المسيحيين في احداث ١٨٦٠ على التعويضات من الدولة العثمانية عن « مسلوباتهم ومحروقاتهم »(٩٧) ، وتفضيل عدد من الذين لجأوا منهم الى لبنان العودة الى دمشق ، وكذلك تحسين الدولة العثمانية معاملتها لهم(٩٨) .

ولم يقتصر الوجود المسيحي في محلة باب المصلى على زقاق معين اذ انتشر المسيحيون في عدد من الازقة ، ومن الطبيعي أن يكثروا في زقاق دون آخر بحكم تعلق ابناء المنطقة الواحدة من المهاجرين منهم ببعضهم ، واستقطب زقاق التيامنة عددا من المسيحيين بحكم موقعه في بداية المحلة بالنسبة للقادمين من الجنوب . وتزايدت فيما بعد اعداد المسيحيين في محلة باب المصلى ، وبخاصة في زقاق التيامنة ، الى الحد

الذي جعل باحثا فرنسيا يكتب في عام ١٩٣١ عن الحي المسيحي في باب المصلى(٩٩)، علما ان سجلات محكمة الميدان الشرعية في فترة دراستنا لم تذكر زقاقا او حيا معينا للمسيحيين في المحلة ، بل اشارت الى زقاق النصارى بالميدان ، ولكن خارج محلة باب المصلى ، بالقاعة بمناسبة بيع عقار فيه في ٨ شوال ٢٩/١٢٧٩ اذار ١٨٦٣ . وكان بائع العقار ومشتريه مسلمين(١٠٠) مما يدل على ان تسمية الزقاق لا تنطبق تماما على هوية سكانه وانما تدل على تكاثر المسيحيين فيه ربما في مرحلة سابقة من تاريخه .

وهكذا لم تعرف محلة باب المصلى التقوقع الطائفي في فترة دراستنا ، فقد اندمج السكان ، على اختلاف مذاهبهم ، مع بعضهم بدلالة مواقع عقاراتهم المختلطة التي تبينها حدود العقارات المبيعة . ويوضح ذلك مثال شراء المسيحي يوسف شاهين من السيد عباس جفال نصف الدار بزقاق الوسطاني ، يحدها قبلة الطريق وفيه الباب وشرقا بيت الحاج خليفة المغربل وشمالا بيت الحاج ضاهر وغربا بيت مراد الدوكزلي(١٠١) . واشترك المسلمون والمسيحيون حتى في ملكية عقار واحد وربما في السكن فيه معا ، كما في مثال شراء الخواجة الياس القاروط من الاخوين محمد والحرمة عايشة ولدي صالح بن حسن العسلي جميع عمارة وبناء المربع داخل دار البائعين بمحلة الميدان التحتاني بزقاق الموصلي ، ويحد الدار قبلة دار خليل الرباط وشرقا الطريق وفيه الباب وشمالا دار المشتري وغربا دار ورثة عبد الله شامية(١٠٢) .

وحدث الاندماج ايضا على مستوى السكان ذوي الاصول الجغرافية المتباينة ، فالمغاربة سكنوا في اكثر من زقاق في محلة باب المصلى ولم يشكلوا زقاقا خاصا بهم فيها ، كما ان زقاق التركمان اندمج بمنطقة القبة الحمراء . وورد ذكر زقاق الحوارنة مرة واحدة في العينة الاولى ولم يذكر ثانية في العينات التالية مما يوحي انه اندمج بدوره في منطقة اخرى .

ويلاحظ الاندماج كذلك على مستوى الفئات الاجتماعية والاقتصادية بدلالة تنوع اسعار البيوت وحجومها في الزقاق الواحد . فلم تكن هناك ازقة للارستقراطية واخرى للفقراء . وان تسمية زقاقين احدهما باسم اسرة سكر وثانيهما باسم اسرة المجتهد لا تعني ان كلا من هذين الزقاقين اقتصر حصرا على اسر سكر او المجتهد ، كما لا تعني ان جميع اسر سكر او المجتهد من الاثرياء ولا تضم فقراء بالرغم من ثروة عدد منهم . ومن الطبيعي ان توجد ازقة اسعار العقارات فيها عموما اكثر ارتفاعا منها في ازقة اخرى حسب نوعية اعمال سكانها ومواقعها .

ويمكن ملاحظة الاندماج بين مختلف الفئات الاجتماعية والاقتصادية في الزقاق الواحد بتصنيف العقارات المبيعة بكاملها وبانصافها بعد مضاعفتها ، في عدد من الازقة

الرئيسية التي تتكرر فيها عقود البيع والشراء وذلك بحسب مستويات اسعارها ، كما في الجداول التالية :

عدد العقارات السكنية المبيعة في محلة باب المصلى (كامل العقار او نصفه بعد مضاعفته) مصنفة حسب الازقة وفئات الاسعار والعينات

العينة الاولى ١٨٢٥ ـ ١٨٢٦

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ــ١٠٠٠	١٠٠١ــ٢٠٠٠	٢٠٠١ــ٣٠٠٠	٣٠٠١ــ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة		٢					٢
التيامنة	٢	١	١				٤
الجواني			١	٢			٣
السلطاني		٢	١				٣
القبة الحمراء	٣	٢	٢				٧
المخللاتي	١	٣	١				٥
الوسطاني	١		٤	١	١		٧
المجموع	٧	١٠	١٠	٣	١		٣١

العينة الثانية ١٨٣٤ ـ ١٨٣٥

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ــ١٠٠٠	١٠٠١ــ٢٠٠٠	٢٠٠١ــ٣٠٠٠	٣٠٠١ــ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة	١	١	١				٣
القبة الحمراء	٢	٢					٤
الوسطاني	١	٢	١				٤
المجموع	٤	٥	٢				١١

العينة الثالثة ١٨٤٦ ـ ١٨٤٧

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١ــ١٠٠٠	١٠٠١ــ٢٠٠٠	٢٠٠١ــ٣٠٠٠	٣٠٠١ــ٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
الجواني	١						١
السلطاني		١					١
القبة الحمراء	١	١					٢
المجموع	٢	٢					٤

العينة الرابعة ١٨٦٢ – ١٨٦٤

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١–١٠٠٠	١٠٠١–٢٠٠٠	٢٠٠١–٣٠٠٠	٣٠٠١–٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة			١			١	٢
التيامنة			١		١	٣	٥
الجواني			١				١
القبة الحمراء			٢	٢	١		٥
الوسطاني			١			١	٢
المجموع			٦	٢	٢	٥	١٥

العينة الخامسة ١٨٧٤ – ١٨٧٥

الزقاق	حتى ٥٠٠ قرش	٥٠١–١٠٠٠	١٠٠١–٢٠٠٠	٢٠٠١–٣٠٠٠	٣٠٠١–٥٠٠٠	فوق ٥٠٠٠	المجموع
البقارة					٣		٣
التيامنة					٣		٣
السلطاني					١		١
القبة الحمراء				١			١
الوسطاني			١			١	٢
المجموع				١	٧		٨

نلاحظ في العينات الثلاث الاولى ، بين عامي ١٨٢٥ – ١٨٤٧ ، ان ٤٢ عقارا من مجموع ٤٦ عقارا (أي بنسبة ٩١ر٣٠٪) تقع في فئات الاسعار الثلاث الاولى ، اي حتى ٢٠٠٠ قرش . وضمن هذا التوزيع نجد ان ١٣ عقارا تقع في فئة الاسعار المتدنية، و ١٧ عقارا في الفئة التالية ، و ١٢ عقارا في الفئة الثالثة . ونستنتج من هذا ان مستويات الاسعار متوازنة ومتتالية وليس هناك من فجوات تفصل بين عقارات متدنية الاسعار واخرى مرتفعتها، ويترجم ذلك بوجود مستويات اجتماعية واقتصادية متقاربة ومتوازنة بين سكان هذه الازقة . ويدل هذا ايضا على ان القوة الشرائية للنقد لم تتعرض الى هزات كبيرة . وينسجم ذلك مع ما سبق ولاحظناه من تقارب في وسطي سعر القيراط في العقارات السكنية في العينات الثلاث الاولى .

ويختلف الامر في العينتين الثالثة والرابعة حيث نجد ١٧ عقارا من مجموع ٢٢ (أي بنسبة ٧٣ر٩١٪) تقع في فئات الاسعار فوق ٢٠٠٠ قرش ، فيما تقع العقارات

الست الباقية في الفئة التي تسبق هذه الفئات مباشرة . وليس مرد ذلك قلةالبيوت المتواضعة الاسعار وازدياد البيوت المرتفعة الاسعار ، وانما السبب يكمن اساسا في التضخم المالي بسبب تدني قيمة القرش الفضي بالنسبة للعملة الذهبية ، العثمانية والاوربية ، وبخاصة الليرة الفرنساوية التي بدأت اسعار البيوت تدفع بموجبها ، كما تظهر سجلات المحاكم الشرعية ، وقد سبقت الاشارة الى ارتفاع وسطي سعر القيراط العقاري في العينة الرابعة بحوالي اربعة اضعاف ونصف عما كان عليه في العينةالثالثة. ثم هبط سعره في العينة الخامسة بحوالي ٢٣٪ من سعره في العينة الرابعة . ويفسر ذلك ايضا باضطراب الوضع الاقتصادي المحلي في الفترة بين ١٨٦٠ و ١٨٧٥ بنتيجة الدمار الذي سببته احداث عام ١٨٦٠ وبسبب عدم استقرار الاقتصاد المحلي وبخاصة ارتباطه بعجلة الاقتصاد الراسمالي الاوربي وتبعيته له ، واستفادت من ذلك طبقة من التجار الوسطاء واصحاب رؤوس الاموال من مختلف المذاهب . وقد عبر هؤلاء عن ثرائهم ببناء البيوت الباذخة في دمشق آنذاك(١٠٢) .

بالرغم من ارتفاع اسعار العقارات السكنية في الفئتين الرابعة والخامسة بقي التوازن قائما بين فئات الاسعار المرتفعة ولم تتخللها ثغرات بين اسعار دنيا واخرى عليا مما يدل ، كما هو الحال بالنسبة لتدرج الاسعار في العينات الثلاث الاولى ، على تقارب في اسعار العقارات وبالتالي في المستويات الاجتماعية والاقتصادية لاصحابها . وهذا ما يؤكد انه لم يكن هناك تباين كبير بين فقراء واغنياء في الزقاق الواحد .

ويندرج في اطار الاندماج الاجتماعي مشاركة المراة في محلة باب المصلى في بعض مظاهر الحياة العامة ، وبخاصة سوق العقارات ، على قدم المساواة مع الرجل وبدرجة فاقت مشاركة مثيلتها داخل دمشق . وربما يعزى هذا الى الاصول الريفية لعدد كبير من سكان المحلة والى انتقال دور المراة الفعال في الريف اليها ، فقد برزت المراة في محلة باب المصلى في شراء العقارات الكاملة ، وهذا امر له دلالته بأكثر من شراء المراة حصة في عقار او اكثر لان هذا يكون في الغالب ناتجا عن ارث او عن تصفية حقوق مع الاقرباء . واشتملت العقارات الكاملة التي تعاطت النساء شراءها او بيعها على العقارات السكنية والتجارية داخل المحلة . وشاركت النساء كذلك في شراء وبيع الكدك والخلو بالنسبة للدكاكين . ونظرا لتملك المرأة العقارات الكاملة عرفت هذه العقارات باسمها ، وذكر ذلك حين تحديد جهات عقار ما كأن يقال « يحده قبلة بيت رحمة بنت ادريس وغربا قسيمه بيد الحرمة فاطمة بنت ابو الحسن الهواري » . ويلفت الانتباه في شراء النساء العقارات الكاملة او بيعهم لها ان معظمهن كن من اصول غير محلية ، كما يظهر ذلك مثلا في اسم الحرمة عاتكة بنت حسين الفلاح التي اشترت جميع الدكان بالقرب من جامع المصلى ، واسم الحرمة فاطمة بنت احمد اغا الترك

التي اشترت بمالها جميع كدك وخلو الدكان بالشارع السلطاني ، واسم الحرمة زينب بنت عمر النحوي المغربي التي اشترت لنفسها جميع الدار بزقاق المخللاتي ، واسم المراة عبدة بنت محمد الطرابلسية التي اشترت جميع الدار بالقبة الحمراء(١٠٤) وتدل هذه الامثلة على فعالية المراة في سوق العقارات في محلة باب المصلى ، وعلى رغبة النسوة المهاجرات اليها بالتملك والاستقرار فيها ، لان ذلك يشكل المجال الاكثر ضمانة لتوظيف ما تمتلكنه من مال ، الى جانب عقد الديون .

وعلى غرار الرجل ظهرت المراة بنفسها في محكمة الميدان الشرعية ، بدون وكيل يمثلها ، في قضايا البيع والشراء التي ساهمت فيها . وزيادة على ذلك قامت المراةبدور الوكيل عن الرجل في شراء العقارات وبيعها ، ليس بصفتها وصية على قاصر بل كوكيلة معتمدة رسميا(١٠٥) .

ونلمح في دور المراة هذا في محلة باب المصلى تراثا ريفيا عريقا لعبت فيه المراة دورا مستقلا معتمدة على نفسها في العمل والمعيشة والدفاع عن حقوقها ، في حين ان المراة في المدينة كانت اكثر انزواء واقل ظهورا وممارسة لحقوقها بنفسها .

ويمكن القول ختاما ان البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى في الفترة التي درسناها لابد وان تتضح مدلولاتها بشكل اكبر باجراء بحوث مشابهة لمحلاتاخرى داخل دمشق وظاهرها . وتفيد مثل هذه الدراسات في توضيح الخلفية الاجتماعية والاقتصادية لمختلف فئات السكان وفي تفهم مواقفهم السياسية والدينية واتجاهاتهم الثقافية .

ملحــق

اسماء بعض الاسر التي سكنت في محلة باب المصلى

(١٨٢٥ – ١٨٧٥)

يبين هذا الملحق اسماء الاسر ، على اختلاف مذاهبها ، التي وردت اسماؤها كبائعة او مشترية او ساكنة او مجاورة للعقارات المبيعة فيأزقة محلة باب المصلى في العينات الخمس المنتقاة في الفترة بين عامي ١٨٢٥–١٨٧٥ . وسنبقي على تكرار اسماء الاسر في العينات هذه لان ذلك يؤكد استمرارية سكنها او علاقتها العقارية في الزقــاق ذاته او الازقة ذاتها على مدى سنوات عديدة . وهناك اسر تحمل نسبة واحدة ، مثل الدركزلي (الدركزنلي) وقروشان ، تسكن اكثر من اسرة منها في زقاق واحد فاكتفينا بذكرها مرة واحدة في الزقاق الواحد .

ونظرا لان اسماء الاسر مستقاة من القضايا المعروضة على محكمة الميدان في تلك الفترة فانها لا تشكل بأي حال مسحا شاملا للاسر التي سكنت تلك الازقة . كما ان عدم ورود الاسم في عينة ما لا يعني انعدامه وانما عدم وجود قضية في العينة يرد فيها. وتجدر الاشارة الى ان تشابه القاب او انساب بعض الاسر لا يعني دائما انها ترتبط بصلة القربى او انها موزعة على عدة ازقة ، او انها نقلت اماكن سكنها من زقاق الــى اخر ، لان معظم الالقاب او الانساب ذو طابع حرفي او يدل على اصول جغرافيــة او جنسية . ومع ذلك فان هذه الالقاب والاسماء الجغرافية ذاتهــا تدلنا على حــرف الساكنين في الازقة واصولهم الجغرافية . وسنذكر فيما يلياسماءالازقة ثم الاسرالتي سكنت فيها مرتبة هجائيا حسب كل عينة .

عينة عام ١٢٤٠ – ١٢٤١ / ١٨٢٥ – ١٨٢٦

اسم الزقاق	اسماء الاسر
ابو البرغل	: اوده باشي ، المغربل ، المكاوي.
ابو مايلــة	: البين ، الحبال ، الحريراتي ،الطوير ، قصاب باشي ،الهواري.
الاربعين	: ابو سيف ، توما ، الحجار ، خاصورة ، الخباز ، الصوص ، عساف ، القزح ، معروني ، النشار ، هواريباشي.

بسادو : ادريس ، الدندشلية ، الدهان ، المعلاوي ، المغربي ، الهواري .

البقارة : ابو صالح ، ابو عزام ، ابو قورة ، تركمان ، الجوقدار ، الحلبي ، الخواجة ، الدركة ، طاش ، الطرابلسي ، القرياني ، المبيض ، المدني ، المصري ، منصور .

البوشي : البوطالب الزبال ، الضاهرلي ، لحلوح .

التركمان : البو سالم ، البوظلي ، الخولي ، الكردي .

التيامنة : الدركزلي ، الناعم .

الجواني : البرادعي ، البوطالب الزبال ، جبر ، جهلان ، شحادة ، عطه ، المعراوي .

الحوارنة : الجليلاتي ، ديب ، المغربل .

السلطاني : التقي ، الحجار ، سعودي ، الطحان ، قرهباش ، المجتهد ، معتوق ، هواري باشي .

عزام : البلخي ، عطفة ، لولو .

القبة الحمراء : ابو عرفة ، بخيت العبد ، البيطار ، التونجي ، الجفال ، الجمال ، الجوقدار ، الحجار ، دنون ، السلطجي ، سليمان ، السمان ، السيد ، شرير ، صفير ، الطحان ، عبيد ، عكامباشي ، الفرا ، الفلاحة ، الكنفاني ، المجتهد ، المحمص ، معتوق ، المنجد ، الميتوني ، النابلسي ، ويس .

المجتهد : بازوباشي ، شحبر ، عكام باشي ، فارة ، المجتهد .

المخللاتي : ابو خاصورة ، ابو داوود ، ابو سويم ، التواتي المغربي ، حموية ، حميم ، الدباغ ، الزبعور ، السواح ، شريف ، شيخ المحيا ، الصواري ، اللحام ، المحمص ، المخللاتي ، المعروني ، النحوي المغربي .

الوسطاني : ابو راس ، جفال ، الحليي ، الدباغ ، الدركزلي (الدركزنلي) ، الدغستاني ، الدينار ، رشيد ، شاهين ، الطويل ، فرح ، الفلاحة ، القباني ، القدسي ، القطان ، الكنفاني ، الكوركرلي ، اللبان ، معتوق ، المغربي .

عينة ١٢٥٠ – ١٢٥١ / ١٨٣٤–١٨٣٥

الاربعين : ابو زيد آغا ، الدقوقي ، الدباك ، الزرابيلي ، السناوي ، الصرصر ، القضماني ، المدكوكي ، المغربي ، المكناسي المغربي .

بـادر : البلتسة ، الخاناتي ، سري مري ، السناوي ، المعلاوي .

البقـارة : ابو جوب ، الإجاتي ، الاشرم ، البيرملي ، البيطار ، التونجي ، الحجار ، الحلبي ، الدباغ ، الدقاق ، الزايد ، الفلاحة ، قدح ، قروشان ، القسيس ، المبيض ، المروش ، المصري ، ممتوق .

التيامنة : بدوه ، الزهـر .

السلطاني : ابو السعود ، الحافي .

الشعريـة : الجراح ، الدكاك ، دنون ، الملقي .

القبة الحمراء : البسطاطي ، الجلاد ، الحلبي ، الخباز ، الدركزنلي ، الشاملي ، الفقير .

المجتهد : ابو النصر ، دبوس ، المعاريني .

الوسطاني : بدر ، البرصلي ، التركماني ، الحلواني ، الحموي ، الدركزلي ، الدوماني ، الزنبركجي ، الزيات ، شاهين ، الشرقاوي ، العبجي ، الفرا ، القاروط ، الكردي ، الكنفاني ، لطفي ، المدني ، مرتضى ، المعروني ، النحاس .

عينة ١٢٦٢ – ١٢٦٣ / ١٨٤٦ – ١٨٤٧

ابو مايلة : الادلبي ، البين ، الحبال ، الحليواني ، السكافي .

بـادر : البغدادي ، رمضان ، السمان ، القضماني .

التيامنـة : ابو عين ، التركماني ، داود ، الدركزلي ، السمـن ، فـرح ، الكفريـا .

الجوانـي : جبر ، الشوا ، الصباغ .

الزيـن : الحصري ، سيالة ، الشعال .

السلطاني : البارودي ، شحيبر ، القدسي .

عـزام : امين ، الجناني ، الحلبي ، ناظرة .

المجتهد : البرطفش ، السرماياتي (الصرماياتي)، سيالة ، فارة ،العطار،

الوسطاني : الداراني ، قاروط ، قصير الديل ، الكسواني ..

عينة ١٢٧٩ ـ ١٢٨٠ / ١٨٦٢ ـ ١٨٦٣

بـادر : الحلبي الشوى ، سكر .

البقارة : البغدادي ، جراح باشي ، الحبال ، الحداد ، زنبركجي ، سكر ، السمان ، صادقة ، العطار ، القهوجي ، مقصود ، الهواري.

التيامنـة : الادلبي ، بربارة ، البطش ، جبر ، الحاصباني (الشهير بابي داود) ، حصوة ، الحمصي ، الدالي ، السيرجي ، شاهـين ، الصباغ ، قروشان ، القسي ، الكنفاني ، المصري ، المعراوي، المغربي ، نونه ، الهوامي .

الجواني : الاشقر ، جبر ، خير ، فرح ، القسي .

الزيـن : أبو جوف ، حباب ، الخباز ، فارة .

سكر : تلـو ، سكر .

عسقلان : كناكرية ، النعسان ، الهواري .

القبة الحمـراء : ابو غرة ، ابو ناعس ، الازن(الاظن)، حباب ، الدقاق ، الدوماني، الطوابلسي ، العسلي ، الفرستقي ، فضول ، الكاتب ، المجتهد، المصري، المغربي ، المغربي الزواوي (احيانا :الزواوي المغربي)، هزوم ، اليبرودي .

قويـق : جوهر ، الحلبوني ، اللحام .

المجتهـد : البرطفش ، حباب ، الدركزلي ، سيالة ، المجتهد ، المعمولي ، المنقاري ، النجار .

الوسطاني : البلدي ، التراس ، الحمصي ، الدركزلي ، الدرقي ،الرنكوسي، قروشان ، قنباز ، المسماري ، المعراوي.

عينة ١٢٩٠ – ١٢٩١ / ١٨٧٤ – ١٨٧٥

ابو مايلة : الادلبي ، البيرقدار ، الحواصلي ، خرمة ، الرباط ، اللحام .

الاربعين : الخرقوقي ، المكاوي ، الكبيش .

بادر : الازهري ، البيرقدار ، الطنطاوي ، الموازنلي .

البقارة : الادلبي ، التركماني ، الجلفي ، حجازي ، الحمصي ، الدنون ، ديب الحاصباني ، الطرابلسي ، القهوجي ، المغربي ، الورع .

التيامنة : الاشقر ، البطش ، التتنجي ، التونجي ، جبر ، الجسروادي ، الجوخدار ، الحجار ، الدرعطاني، الدوماني ، سعده ، شامية ، شرف ، شيخ الحارة ، الصباغ ، عفيف ، قروشان ، النجار ، الهواري ، واكد .

الجواني : داود ، السيرجي ، قروشان ، قطان .

الحبالة : اودهباشي ، الحبال ، الحلبي ، دنون ، زمرد ، السروجي ، الشاغوري ، الشمعة ، طهماز ، القطان ، اللحام ، الهواري .

الزين : تلو ، سيالة ، الصيداوي ، الطرابلسي ، النجار .

السلطاني : رمضان ، الشرقاوي ، المغربي ، المغربي التواتي ، النجار .

القبة الحمراء : الرنكوسي ، المغربي الزواوي . .

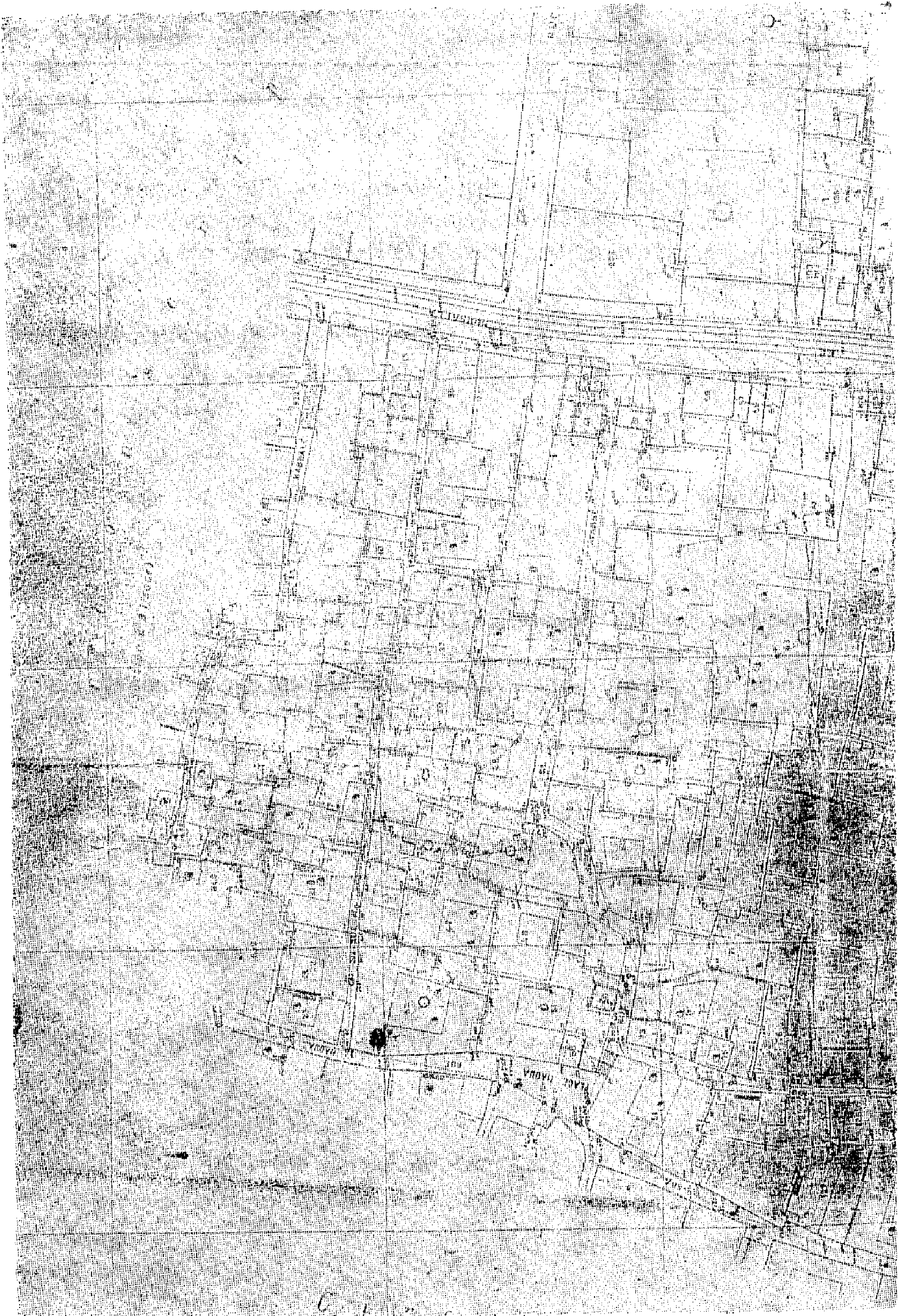
القملة : الانطكلي ، البياض ، جهاني ، الحبوباتية ، السيدة ،الفاعور .

قولبة : الارفلي ، الحلاق ، الحلبي ، الفهد ، القباز ، الملا عيسى .

النشار : الحلاق ، الحموي ، الدركزلي ، علما ، الميداني .

الوسطاني : جمعة ، شامية .





(١) انظر تعليق الشيخ محمد احمد دهمان في تحقيقه كتاب : اعلام الورى بمن ولي نائبا من الاتراك بدمشق الشام الكبرى ، محمد بن طولون ، دمشق ١٩٦٤ص ٦- ١٤٧هـ٥٢ .

(٢) انظر :
J. Sauvaget, « Esquisse d'une histoire de la ville de Damas », **REI**, IV (1934), pp. 460, 469; R. Thoumin, «Deux Quartiers de Damas : le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde' »,**BEO**,(1931), pp. 99 - 135 .

(٣) نعمان القساطلي ، الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ، بيروت ١٨٧٩، ص ١٠٧.

(٤) الشيخ عبد القادر بدران ، منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، دمشق ١٣٧٩ هـ ، ص ٣٨٩ .

(٥) القساطلي ، ص ١١١ .

(٦) انظر : سجل دمشق ، مجلس الولاية ، ١٢٦٠ – ١٢٦١ هـ ص ٣٥٥ – ٣٥٨ .

(٧) انظر كامثلة : محمد بن طولون ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، قسمان ، تحقيق محمدمصطفى، القاهرة ١٩٦٢ – ١٩٦٤ ، قسم ١ ، ص ١٩١ -٢٢٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٨٢ ، اعلام الورى ، ص ١٤٣، ١٤٤ .

(٨) انظر كتابنا :
The Province of Damascus, 1723-1783, Beirut, Pb. 1970, pp. 161-169.

(٩) انظر كامثلة الكتب التالية :
André Raymond,**Grandes villes arabes à L'époque ottomane,** Paris, 1985, **The Great Arab Cities in the 16th - 18 th Centuries, an Introduction,** New York University Press, 1984; Antoine Abdel Nour, **Introduction à l'histoire urbaine de la Syrie ottomane (XVIe - XVIIIe siècle)** , Beyrouth, 1982; D. Chevallier(ed.) **L'Espace social de la ville arabe,** Paris, 1979;A. Bouhdiba et D. Chevallier, (eds.) **La ville arabe dans L'Islam,** Tunis, 1982.

(١٠) انظر : Thaumin, pp. 101-102.

(١١) سجل محكمة الميدان الشرعية ، رقم ٥٤٧ ، ص ١٧٢ .

(١٢) سجل رقم ٣٩٢، ص ١٦ .

(١٣) سجل رقم ٥٤٧، ص ١٧٢ ، رقم ٦٥٣ ، ص ٥٠ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ .

(١٤) سجل رقم٦٥٤،ص ٥٤ .

(١٥) سجل رقم ٦٥٣ ، ص٥٤ رقم ٦٥٤ ، ص ٩٧ .

(١٦) عرفت الجنينة (سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٨٦) بانها تشمل غراس اشجار ليمون حلـو وحامض وكباد ونارنج ومشمش ودراقن وياسمين وغيره .

(١٧) سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٨٦ .

(١٨) المصدر نفســه .

(١٩) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٧٥.

٢٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٢٠ .

(٢١) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٥٧ .

(٢٢) انظر حول هذه الدخلات : سجل رقم ٣٣٣ ، ص ٩٢ ، رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧، رقم ٥٤٧، ص ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٣٩٥ .

(٢٣) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٠ .

(٢٤) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٢٩ ، ٢٥٠ .

(٢٥) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٧٦ .

(٢٦) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦٥ .

(٢٧) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٤٥ .

(٢٨) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١٤٢ .

(٢٩) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٤.

(٣٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٩٧ .

(٣١) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٤٧.

(٣٢) سجل رقم ٤٧٧ ، ص ٥١ ، رقم ٥١٠ ، ص ٥٨ .

(٣٣) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٣٣٢ .

(٣٤) سجل رقم ٣٣ ٣، ص ٣٣٠ .

(٣٥) دفعت اثمان ستة عقود شراء وخمسة عقود بيع في هذه العينة بالليرات الفرنسية . ودفع ثمن عقد واحد بالليرة المجيدية الذهب ، كما دفع ثمن عقد شراء وعقد بيع بريال فنس ، ونظرا لاختلاف اسعار هذه العملات ، حسب السوق العالمية والعثمانية والمحلية ، فقد اخذنا بقائمة الاسعار المعتمدة في المحكمة الشرعية بدمشق بتاريخ ٢٥ صفر ١٨/١٢٩٦ شباط ١٨٧٩ (سجل دمشق ، رقم ٧٠ ، ص١٤٧–١٤٨) على اساس ان الليرة الفرنساوية تساوي ١٠٦ قروش والمجيدية ١٢٢ قرشا ، وريال فنس ٢٠ قرشا .

(٣٦) ص ٩٣ .

(٣٧) ص ٩٣.

(٣٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٨٠ .

(٣٩) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥١ .

(٤٠) انظر مثلا سجل رقم ٦٥٣ ، ص ١١٢ ، رقم ٦٥٤ ، ص١٦٥.

(٤١) انظر مثلا سجل رقم ٥٤٧ ، ص ١٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص٢٠٨.

(٤٢) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٢٨ .

(٤٣) انظر تفاصيل اخرى عن البوايكي في كتاب : قاموس الصناعات الشامية ، الجزء الاول تأليف محمد سعيد القاسمي ، والجزء الثاني تأليف جمال الدين القاسمي وخليل العظم ، وتحقيق ظافر القاسمي ، باريس ـ لاهاي ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ٥٥.

(٤٤) انظر كاملة : سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٣٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ١١ ، رقم ٤٧ ،٥ ص ١٧١.

(٤٥) سجل رقم ٤٨٥ ، ص ٧٨ ، وايضا رقم ٥٤٧ ، ص ١٧٣ .

(٤٦) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٦ .

(٤٧) انظر بحثنا : غزة ، دراسة عمرانية واجتماعية واقتصادية ، المنشور في كتابنا : بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، دمشق ١٩٨٥ ، ص٧٩.

(٤٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٧٦ .

(٤٩) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١٩٥ .

(٥٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٢٣ .

(٥١) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٩٦ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨ .

(٥٢) سجل رقم ٤٨١ ص ١٦٦ ، رقم ٤٧ ،٥ ص ١٩٦.

(٥٣) سجل رقم ٣٢٣ ، ص ٣١٦ .

(٥٤) سجل رقم ٥٠١ ، ص ٦٥.

(٥٥) سجل رقم ٣٠٧ ،ص ١٦١ ، رقم ٥٤٧ ، ص ١ ، ص ٨٩.

(٥٦) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٢٥٦ .

(٥٧) انظر ، سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٩٨ ، رقم ٣٣٣ ، ص ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، رقم ٦٥٣ ،ص ١٥٨ .

(٥٨) سجل رقم ٤٧ ،٥ ص ١٥٤ ، ١٨٢ .

(٥٩) سجل رقم ٣٣ ٢ ،ص ٣٤٩ .

(٦٠) ذكر ان معملا للفخار في زقاق الاربعين قد حلت مكانه دار سكنية في زمن غير معروف ، سجل رقم ٣٢٣ ، ص ٤١١.

(٦١) انظر حول هذه الخانات : سجل رقم ٣٩٢ ، ص ٣١٢ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٢٦٤ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٢٠٨.

(٦٢) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ١١٠ .

(٦٣) سجل رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ ، وكذلك رقم ٦٥٣ ، ص ٥٠ .

(٦٤) انظر مثلا : عبد الرزاق البيطار ، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر ، ٣ اجزاء ، تحقيق محمد بهجة البيطار ، دمشق ١٩٦١ ـ ١٩٦٣ ، جـ٢ ، ص ١١٣١ .

(٦٥) الجزء الاول ، ص ١١٦ .

(٦٦) سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٥٨ ، وانظر ايضا ص ٨٩.

(٦٧) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٨٠ ، انظر ايضا رقم ٤٨١ ، ص ١٦٦ ، رقم ٥٤٧ ، ص ١٧١ ، ١٩٦ ، ٢٣٢ ، رقم ٦٥٤ ، ص ٩٤ .

(٦٨) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٨٢ .

(٦٩) سجل رقم ١٠ ٥، ص ١٠١ .

(٧٠) سجل رقم ٥٠١ ، ص ١٥٥ .

(٧١) انظر كمثال : سجل رقم ٥٠١ ، ص ١١٨ .

(٧٢) انظر كمثال : سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٦.

(٧٣) انظر تفاصيل ذلك في بحثنا : « الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر » مجلة دراسات تاريخية ، العددان ١٧ و ١٨ (١٩٨٤) ، ص ١١٥-١٥٩ ، وقد اعيد نشره في كتابنا بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث ، ص٢٤١-٢٨٥ .

(٧٤) انظر كامثلة : سجل رقم ٦٥٣ ،ص ٥٢ ،٥٤ ، ٥٦ ، ٩٦ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٥١، ١٥٨ ، رقم٦٥٤، ص١٧، ٥٤ ، ٨١ ، ٩٧ ، ١١١ ، ١١٥،١٤٩،٢٢٠ .

(٧٥) استعنت بقاموس الصناعات الشامية لتفسير بعض الحرف .

(٧٦) انظر بحثنا « الاقتصاد الدمشقي » ، ٢٥٥-٢٥٧ .

(٧٧) القساطلي ، ص ٩٢.

(٧٨) ص ٩٣.

(٧٩) سجل رقم ٣٠٧ ، ص٩٧ .

(٨٠) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٣٠١ .

(٨١) سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢٥٥ ، ٢٥٧، رقم ٣٣٣ ، ص ٢٧٣.

(٨٢) انظر كتابه : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، ص ٣٨٩.

(٨٣) سجل رقم ٦٥٣ ، ص ٥٤ .

(٨٤) انظر حول الاستيلاء على الاوقاف الخيرية من قبل اصحاب النفوذ ، بدران ، ص ٥٣.

(٨٥) سجل رقم ٤٧ ٥، ص ١٠٦ .

(٨٦) سجل رقم ٣٣٣،ص ٨٦.

(٨٧) سجل رقم ١٠ ٥، ص ٦٥.

(٨٨) سجل رقم ٣٩٢ ، ص ١٦٠ ، ٢٥٥ .

(٨٩) انظر : محمد خليل المرادي ، سلك الدرر في اعيان القرن الثاني عشر ، اربعة اجزاء ، بولاق، ١٣٠١ ، ج ٢ ، ص٦٢ .

(٩٠) انظر حول استفادة ال سكر من هذه الاوقاف : سجل رقم ٣٠٧ ، ص ١٤١،١٦١ ، رقم٣٩٢ ، ص ٣٢٩ ، رقم ٥٠١ ، ص ٢٦٤ ، رقم ٥٤٧ ، ص٧١ ، ٧٥ ، ١٥٤ ، ١٩٦ ، ٢١٣ .

(٩١) سجل رقم ٠٧ ٣، ص ٦٨ ، رقم ٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٢٥٢ .

(٩٢) سجل رقم٥٤٧ ، ص ٤٥ ، ٧١ ، ٢١٣ .

(٩٣) انظر القساطلي ، ص ١٠٢-١٠٣ وكذلك : Thoumin, pp. 113-115

(٩٤) سجل رقم ٤٧ ،ص ٢٥٩ ، ٢٦٧ ، رقم ٥٣ ،ص ٦، ص ١٤٢ ، ١٥٨ .

(٩٥) انظر كامثلة على شراء المسيحيين الدور في ازقة القرشي والموصلي والعسكري ، سجل رقم ٨٥،٤ ص ٢٤ ، ٢٦٦.

(٩٦) القساطلي ، ص ٩٣.

(٩٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٩٨) ينعكس تحسين الدولة العثمانية معاملتها للمسيحيين في فترة التنظيمات في سجلات المحاكم الشرعية بدمشق . ويشير سجل محكمة الميدان ، رقم ٥٠١ ، لعام ١٢٧٥ - ١٢٧٦ الى المسيحي انه ابن فلان عوضا عن ولد التي كانت مستعملة باستمرار سابقا (ص ١٣، ١٤، ١٠١) . واستمر استعمال « ابن » في السجلات اللاحقة ، ولم تعد السجلات تستعمل الفاظ نصراني او ذمي او عيساوي واستعيض عنها بكلمة خرستياني (وهي تشويه للكلمة الاجنبية) كما يظهر ذلك في سجل محكمة الميدان لعام ١٢٧٩ - ١٢٨٠/ ١٨٦٢ - ١٨٦٤ ، رقم ٥٤٧، ص٢٠٨ ، ٢٢٤، ٣٠٩ . وبدا يستعمل للمسيحيين في السجلات لقب خواجة ، والكلمة فارسية الاصل تعني التاجر او الرئيس او المعلم ، ومنها كلمة خجا (خوجة) التركية وتعني المعلم . ثم اصبح يشار للمسيحيين(انظر سجل محكمة الميدان رقم ٦٥٣ تاريخ ١٢٩٠ - ١٢٩١/ ١٨٧٣-١٨٧٦) بانهم من رعايا الدولة العثمانية كما في المثال التالي « الخواجة الياس ابن الخواجا يوسف القاروط من رعاية الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥/١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص الميدان الشرعية) ، انظر سجل رقم ٦٥٣،ص٢٨ ، وكذلك ص ٩٦ ، ١١٧ . وكانت الدولة العثمانية قد اصدرت امرا في عام ١٢٧٥/١٨٥٩ نقله والي القدس الى قاضي غزة يقضي بالتفحص من هوية المشترين للعقارات وفيما اذا كانوا من رعايا الدولة العثمانية . وجاء في الامر ان ذلك يعرف بالنسبة للمسيحيين من رؤسائهم الدينيين (انظر بحثنا : غزة ، ص٤١)،والهدف من ذلك الحد من شراء الاجانب للعقارات .

(٩٩) انظر :
R. Thoumin, « Deux Quartiers de Damas: Le Quartier Chrétien de Bab Musalla et le Quartier Kurde » **BEO**, (1931) pp. 99-135 .

(١٠٠) سجل رقم ٥٤٧ ، ص٢٤١ .

(١٠١) سجل رقم ٣٠٧ ص ١٦٥.

(١٠٢) سجل رقم ٦٥٣ ص ٢٨ .

(١٠٣) انظر القساطلي ، ص ٩٦-٩٧. وقد بلغ اغلى سعر لدار في محلة باب المصلى في العينات الخمس، مقدار ٣٧٥٠٠ قرش اشتراها به الشيخ محمد سعيد افندي المجتهد بالوكالة عن السيد محمد صالح قصاب من السيد عبد الله حباب ، وكانت الدار بزقاق المجتهد ، وتم بيعها في ٢٥ ذي الحجة ١٢٧٩/ ١٣ تموز ١٨٦٢ (سجل رقم ٥٤٧ ، ص ٢٩٥) . وبلغ السعر التالي لدار سكنية في زقاق البقارة وقد بيعت بعد ثلاثة ايام من الاولى بمبلغ ١١١٠٠ قرش (سجل ٥٤٧،ص٢٩٩).

(١٠٤) انظر مثلا سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٥٢ ، ٢٥٧، ٣١٤، رقم ٣٢٣ ص ٣٦٩ ، رقم ٣٩٢ ، ص٣٤٨، ٣٥٥، رقم ٥٠١، ص٤٤ ، رقم ٥٤٧ ،ص٢٥٤.

(١٠٥) انظر مثلا :سجل رقم ٣٠٧ ، ص ٢١.

الإدارة في الأندلس
في عهد عبد الرحمن الداخل

د . نجدة خماش
جامعة دمشق

ان نظرة على الاحداث التي جرت في الاندلس خلال عصر الولاة ، تكفي للدلالة على انه كان عصراً مضطرباً غير مستقر ، وان سيطرة الخلافة الاموية على هذه البلاد لم تكن اكثر من اسمية محضة ، وانه ، بينما كانت الدولة الاموية في الشرق تتهاوى تحت ضربات العباسيين ، كانت الاندلس تخضع صوريا ليوسف الفهري وفعليا للصميل ، وكلاهما ينتميان الى قيس وقبائلها التي تعتبر اقلية في الاندلس بالنسبة للقحطانية التي تؤلف قبائلها اكثرية العرب النازلين في هذه البلاد . وقد اضطرمت نيران الحرب الاهلية بين قيس ويمن وكل فريق يبذل كل ما لديه من قوى لكي يحرز النصر فيها .

ولكن تطور الاحداث لم يجعل السيطرة على الاندلس من نصيب اي فريق من المتنازعين عليها ، وانما نالها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي نجا باعجوبة من سيوف جلادي بني العباس وحظي بالسلامة في شمال افريقية ، ثم احرز المجد في الاندلس ، حينما اسس لاسرته امارة مستقلة عن الخلافة في المشرق . ولما كان نجاحه في تأسيس الامارة مرتبطاً الى حد بعيد بالتنظيمات التي طبقها ، فانه يحق لنا ان نتكلم عن مآثره في هذا المضمار ، وبالرغم من أن المعلومات المتعلقة بالنواحي

اعد هذا البحث لندوة ((من الشام الى الاندلس)) دمشق ، المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ٤/٢٨ – ١٩٨٦/٥/١ .

الادارية شحيحة ، والمصادر التي بين ايدينا متاخرة لا تعكس الاوضاع في الاندلس بشكل دقيق ، الا انه يمكننا ان نعطي صورة عن مقدرة عبد الرحمن الادارية ، هذه المقدرة التي تظهر اكثر جلاء ووضوحا عند مقارنة ما تم في عهده ، مع ما كانت عليه الاندلس من اوضاع اداريةمتردية من قبل .

تشيد الروايات بعظمة دولة بني أمية التي قامت في الاندلس بفضل عبد الرحمن، هذه الدولة التي دامت نحوا من ۳۰۰ عام ، « والتي لم يك في دول الدنيا انبل منها ولا أكثر نصرا على الشركواجمعها لخلال الخير »(۱) . كما تشير الروايات الى أن عبد الرحمن جدد ما طمس لبني امية بالمشرق من معالم الخلافة وآثارها (۲) ، وانه بالرغم من دخوله بلدا اعجميا منفردا بنفسه ، فقد مصر الامصار ، وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، بالاضافة الى اتخاذه الولاة والحجاب والوزراء والكتاب والقضاة ، وان عدد جنوده بلغ حسب قول المقري ۱۰۰ الف فارس(۳) .

هذه الروايات والاقوال ، على الرغم مما قد تحمل في طياتها من المبالغات تشير الى بدء ظهور ملامح تنظيم حكومي واسع في ايام عبد الرحمن الداخل لم يكن موجودا في عصر الولاة . وليس هذا بغريب ، فعبد الرحمن كان حاملا من جهة لتقاليد الاسرة الاموية في الحكم والتنظيم ، وهي تقاليد اكتسبتها خلال حكمها لدولة مترامية الاطراف متباينة الاجناس مدة تقرب من القرن ، كما انه كان محاطا بجماعات ومساعدين من الموالي والانصار كان بعضهم ذا تجربة في ميدان التنظيم الاداري ، وبعضهم كان بالاندلس يعرف اوضاعها ونواحي ضعف الحكم فيها ووسائل الاصلاح، امثال موالي الامويين وارطباس الذمي ابن الاسرة القوطية الحاكمة ، الا انه يستحيل تحديد دور كل واحد من هؤلاء في العمل التنظيمي ، ولذا فان العمل كله يعزى الى عبد الرحمن ، لا على انه مبتكره وحده، وانما على اساس ان كل ماجرى انما جرى باسمه وتحت اشرافه .

يعد تغيير عبد الرحمن لمفهوم الحكم الجانب الاعظم من اعماله ، اذ ان السلطة قبل عبد الرحمن كانت قبلية ، فعلى الرغم من وجود وال في قرطبة فاننا لا نسمع ولومرة واحدة عن عمال لكور الاندلس في هذه الفترة ، وانما نسمع بوجود رئاسات . والنصوص التي بين ايدينا تشير الى ان معظم ارض الجنوب قسمت بين فاتحيها والمقبلين اليها من العرب والبربر ، وان حقوق العرب على النواحي التي نزلوا فيها كانت حقوقا جماعية ، أي ان الاقطاعات كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على افرادها ، وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين ان « الثغر

كان لليمن » او ان ابا الصباح وحيوة بن ملامس كانا سيدي الغرب (٤) ، بل لا يمكننا تفسير نزول اجناد الشام بالكور ، كل جند بكورة ويكون لهم ثلث اموالها ،الا على هذا الاساس(٥) ، أي ان الجند باسره كان ينزل الكورة ويكون رئيسه صاحب الامر فيها، وهذا يفسر لنا قدرة عرب الاندلس وبربرها الاولين على القتال واستمرارهم فيه،مع النصارى الاسبان في الشمال ومع نصارى غالة في اول الامر ، ثم فيما بينهم وبين انفسهم بعد ذلك ، لانهم كانوا جميعا جنودا لا عمل لهم الا القتال ، ولو كانوا توزعوا الارض قطعا صغيرة فيما بينهم واشتغلوا بالزراعة لاصبح من الصعب اقتلاعهم منها وارسالهم للحرب كما حدث لكثير من عرب مصر ، اما عرب الاندلس فلم يكن احد منهم يملك ارضا لنفسه وانما الارض ملك للقبيلة كلها ، فكان رئيس القبيلة او شيخ مجموع القبائل او صاحب لواء الجند يجمع الاموال بمعاونة رؤسائها من اهل الذمة ويقتطع ثلثها ويؤدي ثلثيها لبيت المال ان كان رئيس جند نازل ، او عشرها ان كانت الارض اقطاعا ، وعليه مقابل ذلك ان يكون مستعدا برجال قبيلته للخروج الى الحرب، أي ان كل ما كان يربط القبيلة بالحكومة المركزية هو اداء ما ينبغي عليها من المال والاشتراك في الحرب مقابل الرزق والعطاء ، وهذا ما ادى الى فقر الادارة المركزية وعجزها عن ادارة البلاد كلها ادارة موحدة ، وهبوط امر ولاة الاندلس واجتراء اجناد العرب في النواحي عليهم ، فاذا اهين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، واذا استنجد رئيس عدد من القبائل ببني عمومته خفت قبائل باسرها لعونه ، فعندما غدر يوسف الفهري (١٢٩ ــ ١٣٨ هـ) بابن حريث الجذامي وعزله عن كورة رية بعد ان جعلها طعمة له ، غضب يحيى بن حريث وتضامن مع ابي الخطار على الصميل ويوسف الفهري واصفقت يمن الاندلس كلها حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها على تقديم يحيى بن حريث والتفت مضر وربيعة حول يوسف والصميل (٦) . .

وبما ان السلطة كانت قبلية ، فقد تجلى المفهوم القبلي للسلطة واضحا عند تنازع القبائل على امارة الاندلس ، اذ ان القبيلة المنتصرة كانت تقوم بالتنكيل بخصومها ولا تكتفي بنيل الامارة ، وهذا ما كان يشكل خطرا على قضية العرب والاسلام في ارض شبه الجزيرة الايبرية ، لا سيما وان الدويلة المسيحية الاسبانية نشأت وترعرعت واصبحت لها كل مقومات الدولة في فترة عصر الولاة(٧) .

لذلك عمل عبد الرحمن جاهدا على احلال سلطة الدولة ، ممثلة بالامير ، محل سلطة القبيلة ، وحاول تطبيق هذا المفهوم مباشرة اثر انتصاره ودخوله دار الامارة في قرطبة ، وتجلى ذلك في موقفه من القيسية ، اذ انه لم ينكل بهم وانما اخضعهم لسلطانه ومنع اتباعه من اليمانية من السلب والنهب(٨) ، كما منعهم من قتل اعدائهم واستئصال شافتهم قائلا : « لا تستاصلوا شافة اعداء ترجون صداقتهم واستبقوهم لمن هم اشد عداوة منهم » يشير الى استبقائهم ليستعان بهم على اعداء الدين(٩) .

اما موقفه من اليمانية الذين دعموه ، فانه بعد ان وصل الى الحكم اعتبرهم اتباعا له عليهم ان يأتمروا بامره ، في حين انه لم يكن بالنسبة لهم اكثر من اداة لتحقيق ثأرهم من القيسية ، وكان هذا التباين في النظرة من العوامل التي ادت الى ثورتهم على عبد الرحمن ، بالرغم من انه حاول بعد دخوله قرطبة ان يتألف رؤساء القبائل ، فعمد لاستحضار الوفود الى قرطبة ، فانثالوا عليه ، كما يقول المقري ، ووالى عبد الرحمن القعود لهم في قصره عدة ايام في مجالس يكلم فيها رؤساءهم ووجوههم بكلام سرهم وطيب نفوسهم(١٠) .

كان من نتيجة الثورات التي اندلعت لا سيما ثورة اليمانية الذين خرجوا في طلب ثار رئيسهم أبي الصباح اليحصبي (قتل سنة ١٤٩ هـ) ان استوحش من العرب قاطبة وانحرف عنهم كما يقول المقري : الى اتخاذ المماليك ، فوضع يده في الابتياع ، « فابتاع موالي الناس بكل ناحية واعتضد ايضا البربر وشجعهم على التوجه اليه من العدوة فأحسن لمن وفد عليه احسانا رغب من خلفه في المتابعة » . وينقل المقري كذلك عن ابن حيان « انه استكثر منهم ومن العبيد فاتخذ اربعين الف رجل صار بهم غالبا على أهل الاندلس »(١١) . ويشير صاحب الاخبار المجموعة الى ان الامير عبد الرحمن أوجد ما يسمى بعرافة السود ، وانه وضع الشراء في المماليك واللحق فثاب الناس اليه وسارعوا نحوه حتى صار في ديوانه جماعة .

بالاضافة الى هذه القوة التي بلغت أربعين الفا (وهو رقم فيه ما يدعو الى الشك) والتي جعلها عبد الرحمن تحت سيطرته المباشرة ، كان هناك الجيش المؤلف من الجند العرب . ومن نص يورده ابن الخطيب نستنتج ان الجيش انقسم في عهد الامارة الى فئتين رئيسيتين هما الشاميون والبلديون ، وانه كان لكل منهما نظام دقيق في العطاء لا نعلم تاريخ وصوله الى هذه الدقة وان كانت ملامحه الاولى قد ظهرت منذ عهد عبد الرحمن الذي قطع البعوث على الاجناد وجعلها بينهم دولا في كل ستة اشهر ، عندما ارسل مولاه بدرا وتمام بن علقمة الى طليطلة لمحاصرة هشام بن عروة(١٢) سنة ١٤٥ هـ ، ويبدو أن الشاميين كانت لهم الصدارة ، فكانوا عماد الجيوش واصحاب الديوان والكتبة فيه(١٤) . وكانوا أحرارا من العشر معدين للغزو ، ولهم لواءان ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الاهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو الا ثلاثة اشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، أما مدة عقد اللواء الغازي من البلديين فستة أشهر ، وكان اصحاب المعاقد من الشاميين يعطون مائتي دينار ، للواحد ، في حين يعطى الغازي بعقد من البلدين عند انقضاء الغزو مائة دينار ، ولا يعطى غير المعقود لهم شيئا . وكان الشاميون من غير بيوتات العقد يرزق الواحد منهم خمسة دنانير ، ويرزق اقرباء اصحاب المعاقد، مثل اخوته او بنيه او بني عمه ، عشرة دنانير عند انقضاء الغزو . وكان المعقود له

يقوم بتقديم اسماء منغزوامعه تحت لوائه ممن يستحقون العطاء فيعطونهم على قولـه تكرمـة له (١٥) .

اما تنظيم فرق الجيش فظل في عهد عبد الرحمن بسيطا كما كان قبلا منقسما الى فرقتين ، فرسان ورجالة ، ولكل منهما قائد يعرف بصاحب الخيـل وصاحب الرجالـة(١٦) . وكانت قيادة الجيش في الفترة السابقة للولاة ، اذ كانوا كما يقـول المراكشي ولاة الحروب فيها(١٧) ، ولا نكاد نسمع بوجود قائد أعلى الا في عهد يوسـف الفهري الذي جعل الصميل قائده الاعلى، فكان ليوسف الاسم وللصميل الرسم ،فأخذ يقرب من يشاء ويدفع من يشاء الى ان تمكن بالدولة (١٨) . فلما نجح عبد الرحمن في الدخول الى قرطبة نجده يقود الجيوش بنفسه أحيانا ، او يجعـل قيادتهـا لبعض اقربائه ومواليه لاسيما مولاه بدر الذي ارسله مع تمام بن علقمة في جيش كثيف الـى طليطلة لاخضاع هشام بن عروة ، كما أرسله الى الثغر حيث تقدم الى البة(١٩) فحاربها فأذعنت وأدت اليه الجزية(٢٠) ، وأرسله كذلك للقضاء على ثورة البربر بقيادة بحره ابن البرانس(٢١) . وعندما نقض يوسف الفهري العهد وخرج سنة احدى واربعـين ومائة ولحق بطليطلة قدم الامير عبد الرحمن للقائه عبد الملك بن عمر المروانـي ، وكان قد نزل عليه في تلك السنة نفسها ، فعقد له على اشبيلية ولابنه عمر بن عبد الملك على مورور ، فانتصر عبد الملك . كما ارسل جيشا بقيادة عبد الملك عندما زحف اهل غرب الاندلس نحو قرطبة لحربه انتقاما لمقتل رئيسهم ابي الصباح ، وهكذا جعل القيادات اما للموالي وعلى رأسهم مولاه بدر ، او لافراد من البيت المروانـي على راسهم عبد الملك بن عمر المرواني الذي اظهر اخلاصا وتفانيا في خدمة عبد الرحمن(٢٢) .

التقسيمات الادارية واهم الموظفين الاداريين

عمد عبد الرحمن اثر استتباب الامر له الى تعيين الولاة على الكور المختلفة . ولا تشير الروايات الى تقسيمات ادارية جديدة في عهده ، كما ان النصوص التاريخية التي بين أيدينا ليس فيها اشارة واحدة الى ان احدا من الولاة او الامراء او الخلفاء قام بتكوير الاندلس او تقسيمه الى اقسام ادارية ، حتى احمـد بن محمد الرازي صاحب اول وأوفى تاريخ للاندلس لم يشر الى ذلك ، ونجد الاندلس في كلامه مقسما تقسيما اداريا ثابتا منذ زمن طويل ، فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار انهـا اشياء معروفة ، اما في جغرافيته (صفة الاندلس ، ٨٩٠ م) فيعطينا بيانا كاملا ليس فيه اشارة واحدة الى تغيير اوتعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك ، هو ان احدا من المسلمين لم يضع هذا النظام ، وانما وجدوا تقسيما قائما فساروا عليه معتعديلات شكلية(٢٣) اقتضتها الاحوال الجديدة،واستبدلوا بما وجدوا منالتسميات والمصطلحات ما حملوه معهم من المشرق .

فمصطلح الكورة مثلا لم يظهر الا بعد سنوات ، واول ما نسمع به في ١٢٠ هـ / ٧٤٣ م في خبر تفريق ابي الخطار الحسام بن ابي ضرار الكلبي للشامين على كور مذكورة باسمائها ، البيرة ، ورية ، وشذونة واشبيلية وجيان وباجة ، وتذكر ايضا تدمير ، ولكنها لم تكن اذ ذاك كورة ولم تصبح كورة الا في عهد عبد الرحمن الداخل(٢٤) . ويبدو ان نظام الكور ، فيما يتصل بنواحي الجنوب ، عم من ايام عبد الرحمن ، اما نواحي الثغور فقد ظلت مدنا ذات احواز حتى نهاية الخلافة ، وبهذا يكون العرب قد اخذوا فيما يتعلق بالتقسيم الاداري النظام الروماني القوطي الذي وجدوه ثم عدلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي مدنا عسكرية ذات احواز . ولكن اذا كانت المدينة تابعة للكورة في المشرق فان الكورة هي التي تتبع المدينة في الاندلس لان العرب في الاندلس اخذوا الاساس الروماني وهو المدينة . وعرف الاندلس الاسلامي نظام الاجناد أو الكور المجندة ، ولم يعرف نظام الاجناد ، الا في الشام ، هذا النظام ، الذي كان من اوكد اسباب قوة الدولة الاموية ، ومن الشام انتقل نظام الاجناد الى الاندلس على ايام ابي الخطار بن الحسام ٧٤٣/١٢٥ ، مع اختلاف واحد هو ان الجند في الشام كان يضم كورا كثيرة ، اما في الاندلس فكان يقابل كورة واحدة . وقد ظلت هذه الاجناد عصبا من اعصاب القوة العسكرية حتى عهد الحاجب المنصور ، ولدينا من عهد الامير محمد ابن عبد الرحمن (٢٣١ — ٢٧٣ هـ) بيان باعداد من كانت بعض النواحي تقدمه من الفرسان الى جيش الدولة ، فاذا نظرنا الى هذا البيان لوجدنا ان اربعا من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان اضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجندة ، وذلك يعطينا فكرة عن الاهمية العسكرية لنظام الاجناد (٢٥) .

نلاحظ من تتبع الاحداث ان عبد الرحمن اعتمد في باديء الأمر على الزعماء القبليين فجعلهم ولاة في مناطق سيادتهم ، كأبي الصباح الذي عينه واليا على اشبيلية(٢٦) وسليمان بن يقظان عامل برشلونة ، وجابر بن العلاء بن شهاب عامل كورة رية ، وكان من القيسيين الذين دعموه(٢٧) . ولكن ثورة العصبيات جعلته يخلع الزعماء القبليين الذين اظهروا رفضا للانصياع الى سلطة الامير العليا ، ويضع بدلا منهم امراء من الامويين او الموالي ، كما فعل في طليطلة التي عين عليها حبيب بن عبد الملك(٢٨) ، واشبيلية التي جعل ولايتها لعبد الملك بن عمر بن مروان ، ويبرز من بين الموالي الذين اعتمدهم عبد الرحمن ، عبد السلام بن بسيل ، وبسيل مولى هشام بن عبد الملك ، اذ استعمله على شذونة وموزور ، والجزيرة ، واستعمله على كورة ماردة وغيرها من الكور . واعتمد عبد السلام بدوره على ابنه عبد الواحد في ادارة هذه العمالات . واذا كانت الروايات تقدم لنا اسماء بعض الولاة ، فانها لا تشير الى مدى صلاحياتهم وسلطاتهم ، ولكنها تظهر بوضوح ان عبد الرحمن كان يطلب من ولاته

الالتزام بالطاعة له وتدبير شؤون كورهم بما يتفق ومصلحة الدولة . ويتضح موقفه هذا من كتاب وجهه الى سليمان بن يقظان الاعرابي عندما وجد انــه سلك معه سبيل الخداع : « أما بعد فدعني من معاريض المعاذير والتعسـف عن جادة الطريق لتمدنّ يدا الى الطاعة ، والاعتصام بحبل الجماعة ، او لازوين بنانها عن رصف المعصية تكالا بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد » (٢٩) .

اما شؤون المعاهدين او العجم فقد تركهم المسلمون احرارا ينظمون امورهم على النحو الذي ارادوه ، ماداموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الامــوال ، فظلوا يفصلون في اقضيتهم وفقا للقانون القوطي القديم المعروف باسم Forum Judicum وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . واقام العرب على اهل الذمة والنصارى رئيسا منهم ولقبوه بقومس ، وجعلوه مسؤولا امامهم عن كل ما يتصل برعاياهم من النصارى ، ونفهم من النص الذي يورده الراهب الــذي كتب مدونة البلدة Chronicon Albeldense ان العرب تركوا لاهل البلاد النصارى حــق اختيار حكامهم ومنظمي امورهم ، وانه كان هناك اكثر من قومس(٣٠) أي انه كان على راس النصارى في كل ناحيــة قومس من أولي الحنكــة والدهاء والمداراة والمعرفــة بالجباية اللازمة ، كما يقول لسان الدين ابن الخطيب(٣١) . وقد عين عبد الرحمــن لاول مرة في الاندلس رئيسـا عاما لهم عرف بقومس الاندلس(٣٢) يقيم الى جواره في قرطبة ويستشيره كأحد علية القوم(٣٣) ، وتسلم هذا المنصب ارطباس الذي يذكره ابن القوطية على انه ابن لغيطشة ، وكان قد انضم الى العرب المسلمين وساعدهم في فتح الاندلس . ولكن قومس الاندلس لم يكن له حق تعيين قمامسـة النواحي لان ذلك كان يعطيه سلطانا واسعا خطرا ، لا سيما وان النصرانيةكانت لا تزال واسعةالانتشار . ويذهب سيمونت Simonet الى ان سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المــدن التي ينتخبهم اهلها بل يمتد الى كل الناحية الداخلة في زمامها ويقول « ولا شك انــه كان يعاون القمامســة موظفون آخرون ، اصغر منهم ، يعملون تحت ادارتهم ويخضعون لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلة في زمــام ناحيتهم ، ويتولــون الاعمال المختلفة من ادارية ومالية وقضائية »(٣٤) .

الى جانب الولاة ورؤسـاء اهل الذمة الذين ساعدوا عبد الرحمن في ادارة الدولة نجد المصادر تشير ، ولاول مرة ، الى وجود حجاب وكتاب ووزراء بالاضافة الــى القضـاة ، في حين تهمل ذكر هؤلاء في الفترة السابقة .

وتكاد المصادر تجمع على ان عبد الرحمن كان لا يكل الامور الى غيره ، ولكنــه ايضا لا ينفرد في ابرامها برأيه ، ولذلك نجد انه جمع حوله عددا مــن المستشارين

اطلق عليهم البعض اسم الوزراء . ولكن المقرى يعلق ان الداخل لم يكن له من يطلق عليه سمة وزير ، ولكنه عين أشياخا للمشاورة والمؤازرة ، وكان بعض هؤلاء من الموالي وبعضهم الآخر من العرب ، أولهم ابو عثمان القائم بأمر دولته وعبد الله بن خالد ، وكذلك شهيد بن عيسى بن شهيد مولى معاوية بن مروان بن الحكم ، وكان من سبي البربر وقيل انه رومي ، وعبدالسلام بن بسيل الرومي ، وقد اصبح لولده فيما بعد نباهة عظيمة في الوزارة وغيرها . أما من العرب فنجد ذكرا لثعلبة بن عبيد بن نظام الجذمي صاحب سرقسطة لعبد الرحمن، وعاصم بن مسلم الثقفي من كبار شيعته(٣٥). لا ننسى انه اعتمد ايضا على الامراء الامويين ، وعلى رأسهم حبيب بن عبد الملك الذي كان من بين من يشاورهم في رايه وادارته ويضمه الى خاصته من نقباء دولته وسائر اصحابه(٣٦) . اما كتابه فكانوا كلهم من الموالي ، فاذا تتبعنا اسماءهم ، وجدنا ان بعض مستشاريه كانوا في الوقت نفسه كتابا له ، وعلى راسهم كبير نقبائه ابو عثمان ، وصاحبه عبد الله بن خالد ،وبالرغم من ان امية بن يزيد مولى معاوية بن مروان كان يكتب قبله ليوسف الفهري ، فانه اتخذه كاتبا له وكان ايضا في عداد من يشاوره ويفضل امره وآراءه(٣٧) . واتخذ عبد الرحمن لنفسه حجابا كلهم من الموالي الا منصور الخصي الذي كان اول خصي استحجبه بنو مروان بالاندلس ، ولم يزل حاجبه الى ان توفي الداخل(٣٨) .

نظم الداخل ايضا شؤون الامن ، فنجد لاول مرة ذكرا لوال على الشرطة .وكان اول صاحب شرطة هو الحصين بن الدجن بن عبد الله العقيلي ؛ فارس أهل الشام ، حضر يوم المصارة مع عبد الرحمن فأحسن البلاء ، فلما استوسق الامر لعبد الرحمن عرف لصالحبلائه فاختصه وولاه الشرطة(٣٩) . كما ضم عبد الرحمن مواليه فجعلهم احراسه (٤٠) .

نستنتج مما تقدم أن عبد الرحمن اتخذ لنفسه عصبية خاصة من اقربائه ومواليه اعتمد عليها منذ ان بدت في الافق ملامح تمرد انصاره من اليمانية عليه ، فاقطعهم الاقطاعات وميزهم بالرتب والمناصب العالية(٤١) . ولم يلبث الامويون ان كونوا في المجتمع الاندلسي طبقة خاصة من نبلاء الدم عرفت بطبقة القرشيين ، كانت تحيط بالامير في بلاطه ولها حق التقدم على غيرها في الاحتفالات الرسمية ، كما كانت تتمتع بامتيازات كثيرة بالاضافة الى المرتبات الضخمة التي كان بعض افرادها يتناولونها ، ويظهر ان ديوانا انشيء لهذه الغاية عرف بديوان قريش . ونظمت هذه الطبقة فيما بعد ليصبح لها نقيب خاص على شاكلة نقيب الهاشميين في المشرق(٤٢)، كما ان الموالي الذين اختصهم عبد الرحمن بالاقطاعات والوظائف لم يلبثوا خلال عصر

الامارة ان اشتهر منهم موظفون كبار في البلاط ، فكونوا نواة تلك الطبقة النبيلة التي قامت نبالتها على الوظيفة ولعبت دورا بارزا في الاحداث خلال عصر الخلافة(٤٣) .

بالرغم من كل ما قدمه عبد الرحمن لاقربائه ومواليه ، وما فعلوه هم من اجل الدفاع عنه ، فانه كان ينظر اليهم كاتباع لا كشركاء في هذه الدولة التي شادهابنفسه، وكان يصرح ان لا منة لاحد عليه في انشائها بعد الله عز وجل ، وان ما فعله بالنسبة لاقربائه شيء عظيم اذ اطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، ولذا فحقه عليهم اعظم من حق المنعم على المولى (٤٤) .

ان نظرة عبد الرحمن هذه ، جلبت عليه نقمة بعض هؤلاء ، الذين حاولوا فيمابعد الاطاحة بحكمه وحياته ، فكانت ردود فعله بالتالي قاسية شديدة القسوة ، لا سيما على اقاربه ، فقد قتل في ١٦٣ هـ عبد السلام بن يزيد وقتل معه من الوافدين عليه عبيد الله بن ابان بن معاوية ، وهو ابن اخيه ، لتآمرهما عليه ، ويقال ان ابا عثمان كبير الدولة قد ساعدهما على ما هما فيه من الخلاف ، ومع ذلك فلم ينله ما نالهما(٤٥) . ولما قيل لعبد الرحمن ان ابا عثمان كان معه وهو الذي ضمن له تمام الامر قال : هو ابو سلمة هذه الدولة فلايتحدث الناس عنه بما تحدثوا عن بني العباس في شان ابي سلمة ، ولكن سأعتبه عتبا اشد من القتل(٤٦) .

القضاء : ان اقدم تاريخ لقضاة الاندلس هو كتاب « تاريخ قضاة الاندلس » لمحمد بن الحارث بن اسد الخشني ، وهو مغربي من تونس اورد أسماء ثلاثة رجال ذكر انهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي ، وذكر انهم كانوا قضاة ايام الولاة ، قبل قيام الدولة الاموية (٤٧) ، وذكرهم ايضا ابو الحسن النباهي في كتابه « المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حوليات الاندلس ولم يشر اليهم احد من اصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ، وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة . ومعظم أخبارهم عند الخشني منسوبة الى احمد بن فرح بن منتيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الاندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي انه كان ينسب الى اعتقاد مذهب ابن مسرة ، وكان المسريون يعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الاندلس ، فأخبار ابن سنتيل ، لهذا ، مشكوك فيها لا يوثق بصحتها(٤٨) .

ومهما كان نصيب اخبار اولئك القضاة الثلاثة من الصحة فمن الثابت وجود قاض عندما دخل عبد الرحمن الاندلس ، وهو يحيى بن يزيد التجيبي ، الذي كان يطلق عليه اسم قاضي الجند(٤٩) . ويشير الخشني الى ان هناك شبه اجماع على ان

يحيى بن يزيد انما استقضي على الاندلس بالمشرق فقدمها قاضيا . ولكن الروايات اختلفت فيمن ولاه ، فبعضها عن ابن وضاح تقول انه عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ) وبعضها تذكر انه لما قدم بلج بن بشر الاندلس واضطربت الاوضاع اتصل الخبر بحنظلة بن صفوان الكلبي ، فوجه الى الاندلس ابا الخطار حسام بن ضرار الكلبي عاملا عليها ووجه معه يحيى بن يزيد التجيبي قاضيا ، وكان من عرب الشام الساكنين في افريقية ، اي انه دخلها في خلافة هشام بن عبد الملك(٥٠) . ويؤكد هذه الرواية ابن القوطية الذي يشير الى ان قاضي هشام بن عبد الملك في الاندلس كان يحيى بن يزيد التجيبي ، اما صاحب الاخبار المجموعة ، فيذكر انه كان مستقضى من الشرق فلم يعرض له يوسف لرضا اهل الاندلس به (٥١) .

وعندما دخل عبد الرحمن قرطبة وقام بالامامة كان القاضي يحيى بن يزيد فاثبته على القضاء ولم يعزله ولقبه بقاضي الجماعة ، اي انه استحدث هذا المنصب الذي ظل طوال تاريخ الاندلس تقريبا لقبا لقاضي الحضرة او العاصمة ولكبير قضاة الدولة الاندلسية ، وهو ما يعادل قاضي القضاة في المشرق(٥٢) .

ونظرا لاضطرار قاضي الجماعة الى الاستقرار في العاصمة ، فقد مست الحاجة الى اقامة قاض خاص بالعسكر يخرج مع الجيش ويعود معه . ونلاحظ في الاندلس مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضيا للجند ثم صار قاضيا للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الامير في الغزوات(٥٣) . ثم اختص قاضي الجماعة بالحاضرة ، واناب عنه قاضيا اخر للعسكر . وكان أول قاض للعسكر جدران ابن عمرو المذحجي من اهل مالقة ومن الذين دعموا عبد الرحمن(٥٤) .

واذا درسنا سيرة قضاة عبد الرحمن وجدناهم من الوافدين الى الاندلس ومن أهل الحديث ، ولعل أشهرهم ، بعد وفاة يحيى ، معاوية بن صالح الحضرمي ، الذي كان من اهل الشام (من حمص)(٥٥) قدم الى مصر ثم الاندلس(٥٦) ، وكان من جلة اهل العلم ورواة الحديث وشارك مالك بن انس في بعض رجاله(٥٧) ، وكان أول من دخل الاندلس بالحديث ، لا سيما حديث اهل الشام ، وكان منفردا به في زمانه ، والدليل على رئاسته وانفراده ان زيد بن الحباب العكلي ، وهو من رجال ابي بكر بن ابي شيبة المشهور في اهل الحديث ، رحل الى الاندلس من العراق واخذ عنه كثيرا من الحديث ولكن اهل الاندلس لم يجمعوا حديث معاوية لانه قدم ، كما قال الخشني عن محمد ابن وضاح ، بلدا لم يكن أهله يومئذ اهل علم(٥٨) . وقد وجه عبد الرحمن معاوية بن صالح الى الشام وحج في سفرته تلك ، وكتب عنه أهل العراق كثيرا من الحديث ، فلما عاد ولاه الامير عبد الرحمن القضاء والصلاة ، ويتضح مما يذكره ابن الفرضي أن

قضاة قرطبة كانوا كلهم من العرب وان الامير محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨ ـ ٢٧٣هـ) كان اول من استقضى بقرطبة من الموالي .

بالاضافة الى القضاة وجد ابتداء منذ عهد عبد الرحمن ، مشايخ للافتاء ، مثل عيسى بن دينار ، ويحيى بن يحيى ، وسعد بن حسان . الا ان اشهرهم كان ابو موسى الهواري الذي يعتبر عالم الاندلس ، رحل الى المشرق من الاندلس بعد دخول عبد الرحمن ، وكان قد جمع علم العرب الى علم الدين ، فكان اذا دخل الى قرطبة لم يفتِ احد من مشايخ قرطبة حتى يرحل عنهم .

وفي عهد عبد الرحمن الداخل دخل كذلك الغازي بن قيس الاندلس بالموطأ عن مالك بن انس ، وقراءة نافع بن ابي نعيم(٥٩) . وكذلك نجد ان مصعب بن عمران الذي اصبح قاضيا للامير هشام دخل الاندلس وهو شاب في ايام عبد الرحمن بن معاوية ، وكان راوية عن الاوزاعي وغيره من الشاميين ، اي‌اننا نلاحظ نشاطافي اقتباس الاندلس من الثقافة المشرقية وهو امر يكاد يكون مفقودا في الفترة السابقة ، اذ كان الولاة حتى عهد عبد الرحمن‌الغافقي(ت ١١٤ هـ) يجاهدون العدو ويتوسعون في البلاد ثم انشغلوا بعد ذلك بالمشاكل الداخلية كثورة البربر والخلاف بين البلديين والشاميين ، وما تبع ذلك من عصبية بلغت اوجها في معركة شقندة ، يضاف الى ذلك ان عرب الاندلس غادروا المشرق في اواخر القرن الاول ومطلع القرن الثاني، قبل‌ان تتطور الثقافة العربية الاسلامية فيه ، كما ان غالبيتهم كانت في مستوى لا يؤهلها لحمل العلم ونقل الثقافة، اذ كانت من الجند المحاربين ، ولنا في الصميل بن حاتم الامي احد زعمائهم مثلا واضحا على مستواهم الفكري . ولهذا اقتصر اقتباس الاندلسيين في هذه الفترة من عهد الامارة على ما هو ضروري لتسيير امور الحياة وفق احكام الدين الاسلامي فسار الاندلسيون على راي الامام الاوزاعي في بادىء الامر ، ثم انتشر المذهب المالكي وساد اعتبارا من ايام هشام الرضا (١٧٢ ـ ١٨٠ هـ) .

التنظيم المالي : على الرغم من سكوت المصادر عن التنظيم المالي‌في‌الاندلس في فترة الداخل فلا شك انه كان استمرارا للتنظيم الذي طبق في عهد الفتوح وعصر الولاة ، ولذلك لابد من الاشارة اليه والى التدابير التي ربما اتخذها عبد الرحمن الداخل‌والتي يمكن التوصل اليها عن طريق الاستنتاج .

سقطت اراضي الاندلس في ايدي المسلمين باشكال مختلفة ، فبعض الاراضي سقطت عنوة وبعضها الاخر وجده المسلمون خاليا فاحتلوه ، وبعضها نزله اهله على الصلح فاحتفظوا باراضيهم وجرى التعامل بينهم وبين الفاتحين بموجب شروط

معاهدات معقودة بين الطرفين . وهذه الشروط مع بعض الاختلافات الجزئية فيما بينها احتوت بصورة جوهرية على امرين : ان يدفع هؤلاء جزية عن رؤوسهم وخراجا عن اراضيهم كان على الاغلب جزءا من غلة ارض يعادل الثلث حينا والربع حينا(٦٠) . أما ارض العنوة فعوملت كلها معاملة الغنيمة ولم تعتبر كما حدث في ارض السواد والشام ومصر ارض فيء ، حيث ابقى عمر بن الخطاب ارض العنوة بيد اصحابها على ان يدفعوا الجزية والخراج . ومعنى هذا ان ارض العنوة قسمت على المقاتلة بعد اخراج الخمس منها ، وجرى هذا التقسيم حسب بعض الروايات بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى بن نصير(٦١) . وتشير بعض الروايات الى انه لم يبق بالاندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم إلا وقسم موسى بن نصير بينهم اراضيها . في حين تشير روايات اخرى الى ان الوقت لم يسمح له بتخميس كل اراضي العنوة ، وانه قسم وخمس بعض البلاد واعجلته حركته منها ، اي انه لم يستطع ان يقوم بهذا العمل كله ، ولذلك ارسل الخليفة عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني من دمشق وامره ان يخمس ارضها ويخرج منها ما كان خمسا لله من ارضها وعقارها(٦٢)، وعندما اراد السمح تطبيق ذلك اظهر العرب رغبتهم في العودة الى المشرق ، كما اظهروا خوفهم من ان يشاركهم القادمون الجدد الذين قدموا مع السمح بن مالك في اراضيهم . ولذلك اضطر عمر بن عبد العزيز ان يقرهم على ما بايديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير ، وامر واليه ان يقر القرى بأيدي اربابها ، وان يقطع الجنود المرافقين له من اراضي الاخماس(٦٣) .

وعندما فرّق أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥ ــ رجب ١٢٧هـ) الشاميين في الكور جعل لهم ثلث اموال أهل الذمة من العجم طعمة(٦٤) ، أي ان الدولة لم تكن تحصل الا علي الثلثين من اموال أهل الذمة في هذه الكور المجندة ، وربما أقل في حالات الفوضى والاضطراب .

ومهما كان المال الذي يصل الى الولاة في قرطبة ، فلا بد ان نتساءل عما كانوا يفعلون به ، وهل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشؤونها واداء الرواتب لاصحابها ، ثم ارسال الباقي الى دمشق ...؟ هنا نجد انفسنا امام حالة فريدة في بابها في اخبار تلك الايام ، اذ ليس لدينا نص صريح واحد يدل على ان شيئا من مال الاندلس كان يرسل الى المغرب او المشرق ، وليس لدينا من اخبار التعمير الا ماتذكره المصادر عن اعادة بناء قنطرة قرطبة وانشاء جبانة المسلمين في عهد السمح بن مالك ، بل ليس لدينا ما يشير الى مطالبة الخلفاء بأموال الاندلس ، كما كان الحال في مصر او افريقية. ولايمكن تعليل هذا الصمت الا بأن ولاة الاندلس لم يكونوا يرسلون الى افريقية او الى المشرق شيئا من المال ، وان الخلافة كانت يائسة

من امر الاندلس لا تنتظر منها مالا ،والراجح ان معظم ما كان يصل الى عمال الاندلس كان يضيع بين ارزاق الجند واعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال البرت ؛ واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها ؛ ثم في الصراعات الداخلية في الاندلس . كما ان الاندلس لم يل امورها خلال هذه الفترة ، فترة عصر الولاة كلها ، الا خمسة ولاة من الطراز الذي يرجى منه ان يقرر شؤون الاندلس المالية على وجه الاحكام والضبط ؛ وهم موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى (قتل سنة ٩٧ هـ) والسمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ــ ١٠٢هـ) وعبد الرحمن الغافقي (١٠٢ ــ ١٠٣ ــ ١١٢ ــ ١١٤ هـ) وعقبة بن الحجاج السلولي (١١٩ ــ ١٢٣ هـ) . ومن الغريب ان هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم من ان يقوموا بشيء ايجابي في هذه الناحية . أما الباقون فكانت اشخاصهم من الضعف او البعد عن التنظيم والميل الى الفوضى بحيث نستبعد ان يكونوا قد استطاعوا او اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديوانا ماليا منظما(٦٥) ، واكبر الظن ان تنظيم الادارة المالية قد بدات بوادره في عهد عبد الرحمن الداخل ، لاننا نجد في فترة الاستقرار والازدهار من عصر الامارة (٢٠٦ هـ الى ما بعد أواسط القرن الثالث الهجري) ذكرا لمراتب اهل الخدمة في قسم الادارة المالية . وايجاد مثل هذه المراتب من مديرين وأمناء ومفتشين ، ثم تصنيف المقامات حتى ضمن المرتبة الواحدة يحتاج الى فترة زمنية اطول من تلك التي انقضت بين وفاة الداخل سنة ١٧٢هـ وعهد عبد الرحمن الاوسط . كما ان تأسيس الدولة واصطناع الموالي والمماليك، وايجاد جهاز اداري ، وبناء مسجد قرطبة الذي انفق عليه وفقا لما يرد في الروايات مائة الف بالوازنة، ومتابعة الجهاد وما يتطلب ذلك من نفقات ، كل هذه الامور تدفعنا الى الاعتقاد بان الداخل عمد الى تنظيم الموارد المالية بشكل يؤمن للدولة متطلباتها ولا شك بانه عمد كذلك الى مصادرة اموال واقطاعات الذين ثاروا عليه ، وحد من عدد الضياع الكبيرة التي منحت لبعض امراء البيت الحاكم القوطي . فقد امضى طارق لاولاد غيطشة حسب رواية ابن القوطية القرطبي ثلاثة آلاف ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك ، فكان للمند بن غيطشة الذي آثر سكنى اشبيلية الف ضيعة غرب الاندلس ، ولارطباس ابنه الاخر الف ضيعة في وسط الاندلس ولزم سكنى قرطبة ، وصار لرملة Ramulo الف ضيعة بشرق الاندلس وآثر سكنى طليطلة (٦٦) . وقد امر عبد الرحمن وفق رواية ابن القوطية بقبض ضياع ارطباس ، ولكنه بعد ذلك امر له بعشرين ضيعة فقط صرفت له . فاذا كان عبد الرحمن قد قبض ضياع ارطباس ، فلا شك انه قبض ضياع آخرين ، وربما استخرج اراضي الخمس التي يجب ان يكون موردها للدولة ، وامر بتسجيل ما يجب ان يجبى من كل كورة في ديوان خاص كما كان الأمر في المشرق . اما من حيث الجباية فيبدو انه قد ترك الامور على ماكانت عليه ، لان النص الذي يورده الطرطوشي يشير الى هذا الاستمرار حتى عهد الحاجب المنصور ، حيث يقول نقلا عن شيوخ الاندلس

من الاجناد وغيرهم : « ان اهل الاسلام ما زالوا ظاهرين على عدوهم وامر العدو في ضعف وانتقاض لما كانت الارض مقطعة في ايدي الاجناد ، فكانوا يستغلونها ، ويرفقون بالفلاحين ، وكانت الارض عامرة والاموال وافرة، والاجناد متوافرين والكراع والسلاح فوق ما يحتاج اليه ، الى ان كان الامر في اخر ايام ابن ابي عامر ، فرد عطايا الجند مشاهرة بقبض الاموال على النطع ، وقدم على الارض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا واجتاحوا اموالهم واستضعفوهم ، فتهاربت الرعايا ، فضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات المرتفعة الى السلطان ، وضعفت الاجناد وقوي العدو على بلاد المسلمين حتى اخذ الكثير منها ، ولم يزل امر المسلمين في نقص وامر العدو في ظهور الى ان دخلها الملثمون فردوا الاقطاعات كما كانت في الزمان القديم » (٦٧) .

وفي الختام لا بد من الاشارة الى ان نجاح عبد الرحمن بتأسيس دولته وتنظيمها والقضاء على الزعامات والثورات ، وفرض هيبة الدولة ، ترك اثره الكبير على علاقاته الخارجية ، فان خيبة شارلمان في حملته على سرقسطة ونجاح عبد الرحمن في اعادتها الى حظيرة طاعته ؛ دفعت شارلمان الى تغيير سياسته نحو شبه الجزيرة ، فتخلى عن السياسة الهجومية ؛ ولجأ الى سياسة تغلب عليها صفة الدفاع ، وهكذا انشأ ضمن امبراطوريته (١٦٥هـ / ٧٨١ م) مملكة اكيتانيا ، ويبدو ان مهمة هذه المملكة كانت مراقبة الاراضي الاسلامية المجاورة الواقعة بين البيرينيه ونهر ابره (Ebro) لتأمين الدفاع عن الممتلكات الكارولنجية والغرب المسيحي ، والاستيلاء عندما تسنح الفرصة على اية ارض اسلامية تبدو لهم فريسة سهلة . اما بالنسبة لدولة اشتوريش ؛ وهي الدويلة الاسبانية الشمالية ، فان توحيد قوى الاندلس تحت راية عبد الرحمن وعبور جيش الامير ووصوله حتى منابع نهر ابره ، وفرضه الجزية على مسيحيي الشمال ، ونجاحه في تقويض سيادتها من الداخل ادى الى ظهور حزب يدعو للخضوع لرغبات الامير الاموي وعدم جدوى الوقوف في وجهه ، واغتيل خليفة الفونسو الكاثوليكي السائر على سياسة معاداة المسلمين ، وتتابع بعده خلال خمس وعشرين سنة ثلاثة من الملوك بدعم وتأييد من عبد الرحمن . وكان هؤلاء الملوك يدفعون الجزية المالية التي وصلت الى حد الاذلال وسمى البعض فترة حكم هؤلاء في اشتوريش فترة التعرب ، لانها كانت تدور في فلك قرطبة ليس سياسيا فقط بل حضاريا ايضا(٦٨) .

وهكذا يعود لعبد الرحمن الفضل في انهاء عصر الولاة المضطرب واقامة دولة اسلامية واحدة تقيم شأن الاندلس الاسلامية ، بعد ان اوشك على الانهيار.

(١) ابن عذاري ، البيان المغرب في اخبار المغرب ، مكتبة صادر ، بيروت ، ج٢ ص٥٨.

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ، بيروت ط ١٩٧١ ، ج ٤ ص ١٢٢ .

(٣) احمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ط .اولى ١٣٦٧ هـ ج٤ ص ٤٩ .

(٤) ابن القوطيه ، تاريخ افتتاح الاندلس ، بيروت ، ١٩٥٧ ، ص ٥٠ . وهناك امثلة متعددة عـن وجود رئاسات في لبلة وباجة ومناطق اخرى ، ص ٥٥ ، والمقرى ، نفح الطيب ، ج٤ ص ٢٨ .

(٥) فرق ابو الخطار جميع العرب الشاميين الغالبين على البلد من دار الامارة قرطبة ، اذ كانت لا تحملهم وانزلهم مع العرب البلديين على شبه منازلهم في كور شامهم ، فانزل في كورتي لبلـة واشبيلية جند حمص مع البلديين ، وانزل في كورة شذونة والجزيرة جند فلسطين ، وانزل في كورة رية جند الاردن ، وانزل في كورة البيرة جند دمشق ، وفي كورة جيان جند قنسرين . اما جند مصر فانزلهم فيكورة باجة وانزل باقيهم في كورة تدمير ، وجعل لهم ابو الخطار ثلث اموال اهل الذمة من العجم (ابن الابار ، الحلة السيراء ، ط ١٩٦٣ ، ص ٦١ ، ٦٣ ، ابن القوطيـة، المصدر السابق،ص٤٤ـ٥٤)ابن عذارى ، ج٢ ص ٤٨ .

(٦) ابن عذاري ، ج٢ ص ٥٢ ، اخبار مجموعة لمؤلف مجهول ، مدريد ١٨٦٧، ص ٥٩.

(٧) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ،ط ١٩٧٢ ،ص١٠٢.

(٨) اخبار مجموعة ، ص ٩ .

(٩) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ، ص ٤١ .

(١٠) المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٨ .

(١١) المصدر السابق ، ج٤ ص ٣٦ ، ابن خلدون ، ج٤ ص ١٢٣ .

(١٢) اخبار مجموعة ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .

(١٣) المصدر السابق ص ١٠١ .

(١٤) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ، ط ٢ ١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣، المجلد الاول ص ١٠٤ .

(١٥) المصدر السابق ص ١٠٤ .

(١٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠١ .

(١٧) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ / ١٩٤٩ ،ص١٢.

(١٨) ابن عذاري ، ج٢ ص ٥٤ .

(١٩) البا Alaba تقع الى الجنوب الغربي من بمبلونا Pamplona في مقاطعة نبارة Navarra

(٢٠) ابن عذاري ، ج٢ ص ٧٩ .

(٢١) ابن خلدون ، ج٤ ص ١٢٣ .

(٢٢) المقري ، ج٤ ص ٥٩

(٢٣) د. حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ٥٣٦.

(٢٤) المرجع السابق .

(٢٥) ابن عذاري ، ج٢ ص ١٦٢ .

(٢٦) اخبار مجموعة ، ص ١٠٦ .

(٢٧) المصدر السابق ، ص ٩٢ .

(٢٨) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج١ ص ٥٩-٦٠ .

(٢٩) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ص ٣٩.

(٣٠) حسين مؤنس ، ص ٤٦٠ .

(٣١) ابن الخطيب ، الاحاطة ، المجلد الاول ، ص ١٠٦ .

(٣٢) ابن القوطية ، ص ٦١ .

(٣٣) المصدر السابق .

(٣٤) Simonet, Historia de los Mosarabes des Espana, p. 108.

حسين مؤنس ، ص ٤٦

(٣٥) المقري ، نفح الطيب ج٤ ، ص ٤٥ .

(٣٦) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ج١ ص٦٠ .

(٣٧) المقري ، ص ٤٥.

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٥.

(٣٩) ابن الابار ، الحلة السيراء ، ص ٢٥٥ .

(٤٠) اخبار مجموعة ، ص ٦١ ، ابن الابار ، ص ٢٥٥ .

(٤١) المقري ، ج٤ ص ٥٩-٦٠ .

(٤٢) احمد بدر ، المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٤٣) المرجع السابع ، ص ١٠٨ .

(٤٤) ابن الابار ج١ ص ٤٩-٤٠ ، المقري ، ج٤ ص ٤٢ ، ٤٦ ابن عذاري ، ج٢ص٨٧.

(٤٥) المقري ، نفح الطيب ، ج٤ ص٤٤.

(٤٦) المصدر السابق ص ٤٤ .

(٤٧) الخشني ، قضاة قرطبة وعلماء افريقية ، ط ١٣٧٢ ص ١٨-٢٠ .

(٤٨) ابو الحسن النباهي ، كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، نشره ، أ. ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٤٢-٤٣.

(٤٩) الخشني ، ص ٢٨ ، ابن القوطية ، ٥٨ ، اخبار مجموعة ، ص ٩٣.

(٥٠) الخشني ، ص ٢٨ ، ٢٩ .

(٥١) الاخبار المجموعة ، ص ٩٣ .

(٥٢) احمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس ، ص ١٠٦ .

(٥٣) الخشني ، ص ٣٢ .

(٥٤) المقري ، ج٤ ص ٣١.

(٥٥) الخشني ، ص ٣٠ .

(٥٦) ابن الفرضي ، تاريخ العلماء والرواة للعلم بالاندلس ، ص ١٣٩.

(٥٧) الخشني ، ص ٣٠

(٥٨) المصدر السابق ، ص ٣٠ .

(٥٩) ابن القوطية ، ص٥٨ ، ٥٩ ، ابن الفرضي ، ص ٢٠٠ .

(٦٠) احمد بدر ، ص٤١ .

(٦١) الرسالة الشريفة ، ص ٢٠٤ .

(٦٢) المصدر السابق ، ص ٢٠٧ ، اخبار مجموعة ، ص ٢٣.

(٦٣) ابن القوطية ، ص ٤٤-٤٥ ، ابن الابار ص ٦١.

(٦٤) انظر الحاشية رقم (٥) .

(٦٥) ابن القوطية ص ٢٩-٣١ .

(٦٦) ابو بكر الطرطوشي ، سراج الملوك ، ص ١٠٧.

(٦٧) احمد بدر ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ .

العلاقات الاقتصادية الاجتماعية
في منطقة ما بين النهرين السورية
(في القرنين الخامس والسادس)

(القسم الثاني)*

د . نعيم فرح
جامعة دمشق

٤ ـ العلاقات الاقتصادية الاجتماعية في الارياف السورية :

آ ـ التركيب الطبقي في الارياف السورية :

ان تحليل المصطلحات الاجتماعية والاخبار التاريخية الواردة في أسفار يشوع العمودي عن الطبقات الاجتماعية وعلاقاتها المتبادلة يكشف اسس العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في أرياف منطقة ما بين النهرين السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتشير المصادر التاريخية الى ان طبقة الفلاحين كانت تضم عدة فئات : فالفلاحون الكولون كانوا يشكلون الفئة الكبرى من طبقة الفلاحين العاملين في الارض . وفي الوقت ذاته وجدت فئة من الفلاحين العبيد ، كما وجدت فئة اخرى من الفلاحين الاحرار صغار الملاكين .

يميز يشوع العمودي جميع السكان العاملين في الزرعة عن سكان المدن ، فيطلق عليهم عادة اسم « القرويين » المشتق من كلمة « قرية » (بالسريانية : قوريس) . اما القرى الكبيرة فتحمل بالسريانية اسم « قريتو » . ودخلت في الاستعمال اليومي للغة السريانية الادبية ايضا الكلمة اليونانية « خورا » المستخدمة بمعنى منطقة أو محافظة . وعندما يتحدث يشوع العمودي عن العاملين المنتجين في القرية يطلق عليهم اسم « أكاري » (agricolai) و « بلاحي » (فلاحون) georgoi (١) . والمؤلف اذ يذكر الاسم « أكاري » والاسم « بلاحي » في وقت واحد ، فانه ، على ما يبدو ،

---

* نشر القسم الاول من هذا البحث في العدد ٢٣ ـ ٢٤ من هذه المجلة ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٦ .

يميز بين المزارعين والفلاحين . فالاصطلاح « بلاح » (الذي صار بالعربية فيما بعد فلاح) مشتق من فعل عربي قديم « بلح » (فلح) الذي يعني العمل بصورة عامة ، لكنه يعني بشكل خاص تنفيذ العمل الزراعي في الارض(٢). أما الفعل « أكر » فله معنى ضيق محدد يستخدم فقط للتعبير عن العمل الذي يمارس في الارض ، واحيانا يعني « حرث » ، كما يقابل الجذر البابلـي الكلداني « اكارو » ikkaru ، ويقصد بــه « حــارث » agricola , arator (٣).. ويمكننا مــن خلال تحليــل تعابــير المصادر السريانية الاخرى ان نوضح بصورة ادق معنى هذين المصطلحين المتشابهين : «اكار» و « بلاح » ، مع العلم انه لايوجد مصطلحات سريانية دقيقة مطابقة للمصطلحات المستعملة في هذا المجال باللغتين اليونانية واللاتينية . ففي الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ورد ان الفلاحين من القرى « بلاحي من فوريس » كانوا يجتمعون في السوق تحت اسوار مدينة آمد السورية . وهنا في عداد الفلاحين يمــكن ان يكــون الكولون والمزارعون الاحرار معا .

كان القانون السـوري (الذي يضم مجموعة من القوانين التي صدرت قبل صدور قوانين الامبراطور البيزنطي جستنيانوس) قد ترجم من اليونانيــة الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس الميلادي . ورغم ان الاصل السرياني لهذا القانون لم يعثر عليه حتى الان ، فان خاتمات المخطوطات السريانية المنسوخــة عنه تفيــد بان الترجمة تمت من الرومية (أي من اليونانية). ويتضمن هذا القانون السوري «قوانين وأوامر مدنية » وضعها الاباطــرة البيزنطيــون : قسطنطــين الاول ٣٠٦ ــ ٣٣٧ ، تيودوســيوس الثــاني ٤٠٨ ــ ٤٥٠ ، ليــون الاول ٤٥٧ ــ ٤٧٤ (٤) . ان القانون السوري (السرياني) ، اذ يتحدث عن السكان العاملين بالزراعة في سورية يميز أيضا بين المصطلحات ، فالفلاح الحر يطلق عليه اسم «جبرا» أي «رجل» . أما الفلاح الكولون التابع لسيد فيطلق عليه اسم « بلاح » ، وذلك في المادة التي تحظــر إيواء الفلاحين الكولون الهاربين . والمصطلح اليوناني اينابوغرافوس Enapographos الذي يعني الكولون غير الحر المرتبط بالارض والتابــــع لسيد قــد ورد في النسخة اللندنية للقانون السوري كما هو باليونانية ، ولكن بحروف سريانية دون ترجمة(٥). أما النسخة الباريسية للقانون السوري فتطلق على الفلاح الكولون اسم « الرجــل الفلاح » المسجل باسم اينابوغرافوس Enapographos (٦) . ان المصطلح اليونانــي « اينابوغرافوس » (باللاتينية adscriptitius) موضح في القانون السوري بمعنــى الفلاح التابع لسيد من كبار الملاكين والمرتبط بالارض لا يحق له مغادرتها . ومن أجل تنظيم واردات الخزانة من الضرائب ، كان الفلاح الكولون غير الحر يسجل في قائمــة ممتلكات سيده الى جانب الارض التي يعمل بها ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولــة

تتم عن طريق ذلك السيد . وكان هذا الفلاح الكولون في وضع قريب من وضع العبد الذي يعمل في أرض سيده ، فان ترك الارض دون علم سيده يعتبر هاربا ، ويحظر القانون ايواءه ، مثله مثل العبد الهارب(٧) .

١ ــ الفلاحون من فئة الكولون الحر :

في القرنين الخامس والسادس الميلاديين وجدت في سورية فئة كبيرة من الفلاحين الكولون . وتميز النصوص القانونية البيزنطية بين الفلاح من فئة الكولون الحر ، والفلاح من فئة الكولون غير الحر . فبالنسبة للفلاح الكولون الحر Coloni liberi لم يكن ملزما بالبقاء في الارض التي استأجرها من المالك الكبير ، بل كان يعمل فيها بشروط محددة ،وله الحرية بمغادرتها في الوقت الذي يريده . ومن الناحية القانونية كان الفلاح من فئة الكولون الحر شخصا حرا يحق له امتلاك الاراضي والقطيع والادوات الزراعية ودور السكن وغير ذلك . اما الاراضي التي يستلمها هذا الفلاح من احد المالكين الكبار ليستثمرها مقابل تقديم حصة من انتاجها للمالك ، فكانت ملكيتها تبقى للمالك الاصلي . وكان يحق للفلاح من فئة الكولون الحر (عند تحسن اوضاعه المادية وحصوله على املاك خاصة به كافية لاعالته مع اسرته) ان يترك ارض الملاك الكبير ، فيصبح ملاكا حرا كأي ملاك حر اخر . ولكن ازدياد الضرائب ادى الى افقار الفلاح الكولون الحر ، فانعكس هذا الامر على وضعه الحقوقي . فبموجب القانون البيزنطي الذي صدر في سنة ٣٦٥ فقد الفلاح الكولون الحر حق بيع أرضه الخاصة دون موافقة سيده المالك الكبير . ومع تدهور اوضاعه المادية تحول الفلاح الكولون الحر تدريجا الى فلاح كولون غير حر تابع لسيده ومرتبط بأرضه لا يحق له مغادرتها(٨) .

٢ ــ الفلاحون من فئة الكولون غير الحر :

كان الفلاح من فئة الكولون غير الحر لا يملك أرضا ، بل يعمل في أراضي كبار الملاكين ويأخذ حصة من انتاجها . وهو مرتبط بهذه الارض لا يحق له مغادرتها الا بموافقة سيده صاحب الارض ، كما لا يحق له الزواج من نساء يعملن خارج أملاك سيده الا بموافقة السيد . ولم يكن هذا الفلاح الكولون غير الحر يملك أدوات العمل او الماشية التي يستخدمها او المنزل الذي يسكنه ، وانما كان كل ذلك ملكا للسيد صاحب الارض . ومن الناحية القانونية لم يكن هذا الفلاح حرا ، بل كان يسجل في قائمة ممتلكات سيده كأداة انتاج حية ، كما كانت جميع علاقاته مع الدولة تتم عن طريق سيده . ان الوضع المشين الذي عاشه الفلاح من فئة الكولون غير الحر دفعه

للهروب احيانا من الارض التي يعمل بها . وعلى هذا صدرت قوانين جستنيانوس التي تنص على الزام الفلاح الكولون الهارب بالعودة الى ارض سيده ، كما حظرت ايواءه. وبصرف النظر عن انقوانين الامبراطور انستاسيوس قيد ميزت بين وضع العبد ووضع الفلاح من فئة الكولون غير الحر ، فان الفروق قد زالت تدريجا بين هذين الوضعين . ففي قوانين جستنيانوس جاء ما يلي : « كيف يفهم الفرق بين العبيد والفلاحين الكولون غير الاحرار ، حينما يكون هؤلاء واولئك خاضعين لسلطة سيدهم الذي يستطيع طردهم من ارضه متى يشاء »(٩) .

٣ ـ الفلاحون من فئة الباريك :

تذكر الاسفار التاريخية المنسوبة لزكريا الميتيليني (الملطي) وجود فئة مستعبدة من الفلاحين الذين يعملون باراضي الكنائس والاديرة في منطقة ما بين النهرين السورية. وتطلق تلك الاسفار على هؤلاء الفلاحين اسم « تاوتيبي » tautebe ، الذي يقابله باليونانية مصطلح « باريك » Paroikoi . ويعتبر هؤلاء الفلاحون في الادبيات الكنسية السريانية والعقود المعمول بها في الاديرة بمثابة فلاحين مستعبدين مرتبطين باراضي الكنائس والاديره في منطقة ما بين النهرين السورية في القرن السادس الميلادي . وجاء في اسفار زكريا الملطي ما يلي : بعد الحرب التي شنها الملك الفارسي قباذ رغب الامبراطور البيزنطي انستاسيوس بتحويل مدينة دارا الصغيرة الواقعة على الحدود مع الفرس الى حصن دفاعي ، ولذا اشترى قرية مجاورة لتلك المدينة من توما أسقف مدينة آمد السورية وحرر فلاحيها من التبعية للكنيسة ، ثم ملك كل واحد من هؤلاء الفلاحين الارض التي يعمل بها والبيت الذي يسكنه(١٠) . وهكذا لم يعد هؤلاء الفلاحون من فئة الباريك تابعين للاسقف الذي كان يملك اراضي تلك القرية ، بل امسوا فلاحين يعملون باراضي الدولة في القطاعات الممنوحة لهم .

٤ ـ الفلاحون الاحرار صغار الملاكين :

الى جانب الملكيات الكبيرة والمتوسطة التي يعمل بها الفلاحون من فئة الكولون والباريك والعبيد وجدت في سورية ملكيات زراعية صغيرة تخص فلاحين احرارا لا يخضعون لسيد مالك ، بل يعيشون في قراهم ويستثمرون اراضيهم بانفسهم ، ولهم حق الملكية التام في هذه الاراضي . وتشير المصادر السورية (السريانية) الى وجود قرى تخص الفلاحين الاحرار في سورية ما بين القرنين الرابع والسابع . وكانت هذه القرى تنظم امورها العامة ذاتيا ، فيختار الفلاحون شيخا للقرية وحارسا للكروم ومراقبا لتوزيع مياه الري حسب مساحة الارض . وتطلق المصادر السريانية على

شيخ القرية اسم « سابا » الذي يعني الشيخ العجوز الطاعن في السن(١١) . وكانت تقع على عاتق شيخ القرية مهمة الاشراف على جمع الضرائب من الفلاحين وتوزيع الواجبات والفرائض عليهم . اضافة الى دفع الضرائب عن الاراضي الزراعية الى خزانة الدولة كان يجب على الفلاحين الاحرار صغار الملاكين أيضا ان يساهموا مجانا في تنفيذ مشاريع الدولة العامة ، كشق الطرق وبناء الجسور والمنشآت الدفاعية ونقل المحاصيل الى مخازن الدولة واطعام الجيوش المارة في مناطقهم وغير ذلك من الفرائض .

٥ ـ الفلاحون من فئة العبيد :

لا تذكر اسفار يشوع العمودي ولا الاسفار التاريخية المنسوبة الى زكريا الملطي وجود الفلاحين من فئة العبيد . لكن مواد « القانون السوري » تتحدث عن العبودية ، دون أن تشير الى نوع العمل الذي يمارسه هؤلاء العبيد . ومع ذلك ، لا شك في ان العبيد في منطقة ما بين النهرين السورية كانوا يمارسون العمل الزراعي في اراضي كبار الملاكين ، اضافة الى استخدامهم رعاة للمواشي وحراسا للكروم وخدما في المنازل وغير ذلك من الاعمال . وكانت مصادر العبودية متعددة . فابناء العبيد والاماء والنساء الحرائر اللواتي يتزوجن عبيدا هم عبيد منذ الولادة . وفي زمن الحروب كان الاسرى يحولون بشكل جماعي احيانا من احرار الى عبيد . فعندما احتل قباذ مدينة آمد السورية اسر معظم سكانها وارسلهم عبيدا له الى ايران(١٢) . اضافة الى ذلك ازداد عدد العبيد عن طريق تجارة الرقيق ، حيث يشتري التجار العبيد من مناطق مختلفة ويبيعونهم في سوق النخاسة . وحددت قوانين جستنيانوس سعر العبد ما بين ٢٠ ـ ٧٠ نومسمة ، حسب الصفات التي يتمتع بها العبد أو المهن التي يتقنها(١٣) . كذلك باع كثير من الاحرار انفسهم مقابل مبلغ من المال واصبحوا عبيدا لمن يدفع الثمن . فالمدين الذي لا يستطيع تسديد ديونه للدائن يصبح عبدا له ، أو يبيع نفسه لشخص اخر بغية تسديد ما عليه من ديون . ويتحدث « القانون السوري» عن الاحرار الذين باعوا انفسهم عبيدا ، كما ينظر في الطرق التي ينفق فيها سعر الحر المباع عبدا(١٤) .

ومن المعروف ان العبيد كانوا محرومين من كافة الحقوق ، كما كانوا يسجلون في قوائم الضرائب بمثابة ممتلكات حية لاسيادهم . وكان بالامكان تقدير عائدات الارض ودخلها بحسب عدد الفلاحين من فئة العبيد العاملين فيها . وعلى هذا كانت الدولة عندما تفرض الضرائب على املاك كبار الملاكين تاخذ بعين الاعتبار عدد الفلاحين العبيد العاملين فيها . اما تحديد نسبة الفلاحين العبيد العاملين بالاراضي الزراعية في سورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين فهو امر يصعب تقديره .

ب ـ الضرائب والفرائض المترتبة على سكان الارياف السورية :

مسحت الاراضي الزراعية السورية في عهد الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) ، فتبع ذلك تقسيم هذه الاراضي الى وحدات انتاجية لا تتساوى في المساحة ، وانما في قيمة المحصول الذي تغله . وكانت الوحدة الانتاجية تسمى باللاتينية « يوجوم » iugum وباليونانية « يوجون » ioigon ، ويؤدى عن كل منها ضريبة محددة . وقد سجل موظفو المساحة والاحصاء عدد الوحدات الزراعية الانتاجية في كل مدينة ذات ادارة محلية وما يتبعها من ارض وقرى وضياع . وفي كل سنة عند اعلان مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية كان الموظفون الماليون في الادارة المحلية للمدينة « الكوريال » Curiales يجمعون الضريبة عن الاراضي الزراعية بمقدار يساوي مقدار الضريبة عن الوحدة الانتاجية مضروبا في عدد الوحدات الانتاجية للمدينة municipality .

لا يعبر الوصف السابق سوى عن جزء بسيط من الصورة . فالى جانب الاراضي العامة في المدينة والقرى كانت هناك ضياع امبراطورية تخص الامبراطور ، وضياع يملكها متنفذون من كبار الملاكين بشروط حيازة مستثناة ، وملكيات زراعية صغيرة يملكها فلاحون احرار . وكان يقوم بالعمل الزراعي ، في الدرجة الاولى ، الفلاحون من فئة الكولون Coloni المرتبطون بالارض ،وفي‌الدرجة الثانية الفلاحون‌الاحرار صغار الملاكين . وبعض الفلاحين‌الكولون الذين يعملون في‌أراضي كبار الملاكين قد يكون مالكا لقطعة ارض خاصة به في مكان اخر . كما ان الدولة الرومانية اعتادت منذ عدة قرون ان تقطع ارضا بايجار دائم ، فنشأ نظام يسمح للفرد ان يقتني ارضا خلاء على اساس حيازة دائمة لنفسه ولورثته ، دون ان يلزم بزراعة الارض ودفع ايجار محدد . وقد استمرت هذه العادة التي كانت تسمى « امفيتيسيس » Emphyteusis في عهد العرب المسلمين(١٥) .

وكان‌بعض أصحاب الضياع يحصلون على حق دفع الضرائب مباشرة للخزانة الامبراطورية ،وليس عن طريق الموظفين الماليين المحليين « الكوريال » في المدينة ذات الادارة المحلية . وكان هذا الحق في دفع الضرائب يسمى «أوتوبراجيا » autopragia كما كانت هذه الضياع تسمى « اجري اكسبتي » agri excepti ، وتملكها الكنيسة او بعض الاسر النبيلة ذات النفوذ الكبير . ولم تكن هذه الضياع معفاة من الضرائب، لكن اصحابها النبلاء كانوا يستطيعون بطرقهم الخاصة ونفوذهم الكبير ان يحصلوا على بعض الاعفاءات من الضرائب او تخفيضها ، في حين كانت أعباء الفلاح الصغير تزيد يوما بعد يوم ، فينوء تحت ثقل اعباء الضرائب وابتزاز موظفي المالية . وعلى هذا

اضطر الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ان يلوذوا بنظام الرعوية او الحماية (التلجئة) « بتروناج » Patronage . لقد وضع هؤلاء الفلاحون الصغار انفسهم وارضهم في رعاية الملاكين الكبار ، كما تنازلوا لهم عن ملكية الارض ، فأمسوا بمثابة مستأجرين، مقابل مسؤولية النبلاء الحماة «البترون» Patroni عن دفع الضرائب وتخليص اتباعهم من تعسف موظفي المالية وحمايتهم من الاعتداء عليهم .

وهكذا كانت تتسع املاك النبلاء كبار الملاكين ، بينما يفقد الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ارضهم ويصبحون مستاجرين مرتبطين بالارض ــ اي فلاحين من فئة الكولون . ودخلت في عداد هؤلاء الموالي الاقنان (الكولون) فئات عديدة من الفلاحين تذكر القوانين البيزنطية منها : الكولون Coloni والقرويين Vicani والمزارعين agricolae وسكان الريف rustici والملاكين Possessores وغيرهم من الفلاحين ممن يطلق عليهم « ميتروكومياي هومولوجي كولوني » metrocomiae homologi coloni ولم تفلح محاولات الحكومة البيزنطية في مقاومة النظام البيروني (نظام الحماية)، بسبب ما كان للنبلاء كبار الملاكين من نفوذ اقتصادي وسياسي ، حتى انه ليمكن ان يطلق على القرنين الخامس والسادس الميلاديين مرحلة الصراع بين الحكومة والارستقراطيين كبار الملاكين (١٦) .

وكان الفلاحون السوريون في زمن الاستعمار البيزنطي يؤدون الجزية (ضريبة الرأس او النفس) والخراج (ضريبة الارض الزراعية) . وكانت الجزية (ضريبة الرأس) مفروضة على جميع الفلاحين الذكور من سن ١٤ سنة الى سن ٦٥ سنة ، وعلى النساء من سن ١٢ سنة الى ٦٥ سنة (١٧) ويقدم المؤرخ الفرنسي فرديناند لوت ادلة دامغة (من خلال المصادر المعاصرة) على فرض الجزية على الفلاحين السوريين قبل الفتح الاسلامي ، في حين اعفي منها سكان المدن من الارستقراطيين والتجار واصحاب الحرف الذين كان يؤدون الضريبة التجارية aurum negotiatorum وضريبة الحرف Chrysargyron . ويستخلص المؤرخ المذكور من المصادر المعاصرة ان الجزية قد اصبحت في سورية بعد القرن الرابع الميلادي وقفا على الفلاح السوري ، كما صارت علما على طبقة الفلاحين، فلصقت بها من جراء هذه الضريبة وصمة اجتماعية injuria تدل على الصغار والهوان ، كما يتضح من العبارة التالية a plebeiae capitationis injuria (١٨). كذلك كانت سمة للذل وعنوانا للوضاعة الاجتماعية الجزية المفروضة على الفلاحين العرب الخاضعين للاستعمار الفارسي الساساني في سواد العراق . وظلت الجزية مذلة في العصر الاسلامي ايضا « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » . ويذكر كل من اليعقوبي والبلاذري ان الملك العربي الغساني جبلة بن الايهم لم يرفض ان يؤدي ضريبة الارض الزراعية (الخراج) ، لكنه انفَ من جزية الرأس ، فقال لرسل

يزيد بن ابي سفيان (بعدمعركة اليرموك) : « انما يؤدي الجزية العلوج (الفلاح الكولون) ، وانا رجل من العرب »(١٩) .

احتلت المؤسسة المالية « المؤسسة التي تنهب الشعوب » مكان الصدارة في نظام الادارة البيزنطية . وتتضمن اسفار يشوع العمودي مادة غنية ومتنوعة عن ثقل الضرائب التي فرضتها الحكومة البيزنطية على السكان السوريين في منطقة ما بين النهرين خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . هذه الاسفار تذكر مرارا ضرائب الدولة التي اثقلت كاهل سكان المدن والارياف السورية على حد سواء ، كما انها تطلق على الضرائب النقدية الاسم اليوناني « سينتيليا » Cinteleia مدونا بحروف سريانية . كذلك يعطي القانون السوري (المترجم من اليونانية الى السريانية في الربع الاخير من القرن الخامس) معلومات هامة عن نظام الضرائب المطبق في الولايات البيزنطية السورية ، حيث تتحدث بعض مواده عن الضرائب المفروضة على الاملاك الزراعية ، التي حدد مقدارها حسب نوعية الاشجار المزروعة وخصوبة الارض . وبقيت نصوص « القانون السوري » كاملة في مخطوطين ، احدهما محفوظ في لندن ويعرف برمز (L. I, 121)، والثاني محفوظ في روما ويعرف برمز (R. II,151) (٢٠).

وذكر في القانون السوري ان الارض قد مسحت وحددت في زمن الامبراطور البيزنطي ديوكليسيانوس (٢٨٤ـ٣٠٥) ، فصادقت السلطات البيزنطية على ذلك المسح . ويقوم هذا المسح على تقسيم الارض بحسب جودتها الى صنف اول وصنف ثانٍ وصنف ثالث ، او الى فئات تحدد بموجبها مساحة الارض او عدد الاشجار التي تدفع وحدة ضريبية محددة . لقد قسمت الاراضي السورية الى وحدات انتاجية اطلق على كل وحدة منها اسم « يوجوم » iugum . واليوجوم هي الوحدة الانتاجية التي يفرض عليها وحدة ضريبية محددة (نقدية أو عينية أو من الشكلين) . لكن الوحدة الانتاجية يمكن ان تشمل مساحةمن الارض تزيد او تنقص ، حسب نوعيتها وحسب نوع او عدد اشجارها . وقد تقرر في ذلك المسح ما يلي :

١ ـ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الاول ، فان كل مساحة مقدارها ٢٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٤٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبة واحدة محددة .

٢ ـ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثاني ، فان كل مساحة مقدارها ٤٠ يوجوم (فدان) ، التي تساوي ٨٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبية محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول المذكورة في البند الاول) .

٣ً ـ اذا كانت الارض المزروعة بالحبوب من الصنف الثالث ، فان كل مساحة مقدارها ٦٠ يوجوم ، التي تساوي ١٢٠ بليترون ، تفرض عليها وحدة ضريبية واحدة محددة (وهي تساوي الضريبة المفروضة على الارض من الصنف الاول والصنف الثاني المذكورين في البندين الاول والثاني) .

هذه الاراضي المختلفة اصنافها ومساحاتها كانت تدفع ضرائب متساوية .وطبق مثل هذا التقسيم على الاراضي المزروعة باشجار الزيتون والكرمة . فكل ٢٢٥ شجرة زيتون من الصنف الاول فرضت عليها وحدة ضريبية محددة ، وهي تساوي الضريبة المفروضة على ٤٥٠ شجرة زيتون من الصنف الثاني ، كما تساوي الضريبة المفروضة على ارض مزروعة باشجار الكرمة مساحتها ٥ يوجوم التي تساوي ١٠ بليترون ــ اي ما يعادل ١٢٦٠٠ م٢ .

اما الاراضي الجبلية ذات الطبيعة الوعرة ، فكانت تحتاج الى حساب خاص . كان موظفو الدولة المكلفون بوضع قوائم الضرائب يدعون فلاحين من مناطق جبلية مجاورة ويطلبون منهم تقدير انتاج تلك الاراضي الجبلية كي يحددوا الضريبة عليها حسب كمية الانتاج . كذلك خضعت للتقدير الاراضي غير المزروعة المعتبرة بمثابة مراعي للمواشي ، وفرضت عليها الضرائب التي تراوحت بين دينار وثلاثة دنانير عن مراعي كل قرية .

لتوضيح صورة المسح (التحديد والتحرير) الذي فرضت بموجبه الضرائب على الفلاحين السوريين في زمن الاستعمار البيزنطي لابد من مقارنة المقاييس الواردة في « القانون السوري » مع المقاييس المعاصرة . كانت الاراضي السورية في زمن الاستعمار الروماني ــ البيزنطي تقاس بالقصبة (بالسريانية : كانجا). والقصبة تساوي ٨ اذرع. وكل ١٠٠ قصبة مربعة تساوي بليترون واحد . وكل بليترون يساوي ١٢٦٠م٢(٢١). اما اليوجوم فيساوي ٢ بليترون اي ٢٥٢٠ م٢ ، كما يترجم عادة باسم « فدان » . وعلى هذا كان مسح الاراضي في القانون السوري على الشكل التالي :

١ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف أول : مساحتها ٢٠ يوجوم=٤٠ بليترون = ٥٠٤٠٠ م٢ .

٢ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف ثاني : مساحتها ٤٠ يوجوم = ٨٠ بليترون = ١٠٠٨٠٠ م٢ .

٣ً ــ الارض المزروعة بالحبوب صنف ثالث : مساحتها ٦٠ يوجوم = ١٢٠ بليترون = ١٥١٢٠٠م٢ (٢٢) .

اما المسح الذي كان يتم على هذه الصورة ويسجل في قوائم المالية ، فكان يبقى ساري المفعول مدة خمسة عشر عاما التي كانت تعتبر وحدة زمنية كاملة(٢٣) . ان نظام الضرائب الذي فرض على الاراضي الزراعية بالشكل الذي اورده القانون السوري ، أو بشكل معدل الى حد ما ، قد بقي نافذا في الارياف السورية خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وفي بعض نسخ القانون السوري التي تعود الى فترات زمنية متأخرة (بعد القرن السابع) نجد ان الفقرة الخاصة بتحصيل الضريبة الزراعية اما مغفلة نهائيا ، او باقية على شكل اشارة موجزة . فعلى ما يبدو ، فقدت هذه الفقرة اهميتها نظرا لانتقال السيادة في سورية الى ايدي العرب المسلمين ، الذين ادخلوا بعض التعديلات على نظام الضرائب البيزنطي .

ولتحديد نوع الضريبة المفروضة على الاراضي الزراعية استخدمت في « القانون السوري » الكلمة اللاتينية « انونا » annonaمكتوبة بأحرف سريانية ، وهي تعني ضريبة عينية أو تقديم عيني للجيش(٢٤). والاكثر احتمالا أن ضريبة«الانونا» (الخراج) كانت تؤخذ بشكل مختلط ــ اي نقدا ومحصولا عينيا ، اذ تشير الى ذلك احدى نصوص قوانين جستنيانوس الجديدة ، حيث تاتي على ذكر الضرائب العينية والنقدية معا(٢٥) .

كانت توجد في المدن السورية عنابر حكومية مخصصة لحفظ الحبوب . وتتحدث أسفار يشوع العمودي عن وجود مثل هذه العنابر في كل من الرها وآمد ودارا(٢٦) . كانت الحنطة تؤخذ من العنابر لصنع الخبز واطعام الجنود ، أو من اجل صنع الخبز الاضافي (الاحتياطي) وبيعه للشعب في زمن المجاعة . وكانت الحبوب والخمور واللحوم تجمع من الفلاحين واصحاب الاراضي كضريبة عينية ، باعتبار انها مواد غذائية يحتاجها الجيش بصورة دائمة . كان الجيش البيزنطي يحشد فيالمدن السورية الواقعة على الحدود مع الفرس في زمن السلم والحرب معا ، لذا فان احتواء هذا الجيش كان يحتاج الى مواد غذائية متنوعة . وعلى هذا اكدت قوانين الامبراطور تيودوسيوس الثاني (٤٠٨ ــ ٤٥٠) على تحصيل الضريبة العينية وحظرت استبدالها بالمال(٢٧) . وفي النصف الثاني من القرن الرابع صدر قانون بيزنطي ينص على الزام اصحاب الاراضي الزراعية بدفع الضريبة العينية (التي تشمل على الحبوب واللحوم والخمور وغيرها) ثلاث مرات في السنة(٢٨) . وهكذا كانت الضريبة العينية ، التي أطلق عليها اسم « انونا » annona ، هي الضريبة الرئيسية في الولايات البيزنطية السورية منذ القرن الرابع حتى القرن السابع . أما الضريبة النقدية فعرفت باسم « سينتيليا » Cinteleia ، ان كان ذلك في « القانون السوري » ، أو في الاسفار التاريخية السورية .

كانت ضريبة الاراضي الزراعية تسدد في زمن الاستعمار الرومانى ثلاث مرات في السنة : في أول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي اول أيلول . وبهذا الشكل كانت تسدد ايضا في القرن الخامس الميلادي ، حيث جاء في قانون الامبراطور انستاسيوس الصادر في سنة ٤٩٦ ما يلي : « ثلاث مرات تدفع عائـدات بيت المال (ديموسيسا demosia) : في أول كانون الثاني ، وفي اول ايار ، وفي نهاية العام (ايلول) » (٢٩) .

كان الفلاحون من فئة الكولون يقدمون لمالك الارض حصة عينيـة من الانتـاج الزراعي لقاء استثمارهم الارض . وكانت الاراضي الزراعيـة (وخاصة المرويـة) تستثمر بالمناصفة ، نصف الانتاج للفلاح الكولون ، والنصف الاخر للمالك . والدليل على ان مثل هذا الشكل من الاستثمار كان معمولا به في القرن الرابع الميلادي واضح من تشريعات تلك الحقبة التاريخية(٣٠) . وبالنسبة للقرن السادس تشـير قوانين جستنيانوس الى ان الفلاحين الكولون كانوا يقدمون للمالكين ربع الارض موادا عينية (in Speciebus) (٣١) . ونتأكد من ذلك في المصادر التاريخية المعاصرة التي تذكر ان كميات كبيرة من الحبوب كانت تتراكم لدى كبار الملاكـين فيتاجرون بها . وتشـير أسفار يشوع العمودي الى المضاربة بتجارة الحبوب التي اتخذت ابعادا غير معروفة من ذي قبل في فترة المجاعة التي عمت منطقة ما بين النهرين السورية في نهاية القـرن الخامس الميلادي .

أعفى التشريع البيزنطي الاطباء والمعلمين من دفع الجزية (ضريبـة الراس أو النفس) . وهذا الاعفاء تكرر ذكره في « القانون السـوري » ، حيث جاء فيه ما يلي : « يعفى الاطباء ومعلمو مختلف العلوم ، الموجودون في المدن والقرى ، من كافة أنواع الضرائب . فهم لا يدفعون ضريبة الرأس (كيسيفـريشا ـ كشف الرأس) ولا ضريبة الخريسار غروس (الضريبة التي يدفعها التجار والصناع)(٣٢ ـ أ) . ان القانون السوري الذي يؤكد على اعفاء الاطباء والمعلمين الذين عاشوا في القرى ، انما يشير ضمنا الى ان الجزية (ضريبة الرأس) كانت تؤخذ بالدرجة الاولى من السكان الذين عاشوا خارج المدن ـ من الفلاحين وسكان القرى عامة . وتشير أسفار يشوع العمودي الى فرض الجزية (ضريبة الرأس) على الفلاحين والقرويين في منطقـة ما بـين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وتذكر هذه الاسفار ان الحاكـم البيزنطي (في سنة ٤٩٩ ـ ٥٠٠) سعى الى اعتصار الضريبة النقدية «سينتيليا» من سكان المنطقة التي أصيبت بالقحط واكل الجراد محاصيلها بواسطة السادة القرويين . ولذا جمع هؤلاء « السادة القرويين » وعذبهم شر عذاب وابتزهم أيما ابتزاز . وارسل الحاكم المال الذي جمعه « الذهب » الى العاصمة ، قبل ان يتمكن « السادة القرويون » أن يطلبوا من الامبراطور اعفاءهم من دفع تلك الضريبة النقدية . لكن الامبراطور البخيل

انستاسيوس ابقى بحوزته النقود التي استلمها ولم يعدها الى دافعيها ، وكل ما فعله هو اصدار مرسوم باعفائهم من ضريبة الراس في المستقبل (٣٢ـب) .. لكن الغاء هذه الضريبة ، الذي بعث السرور في نفوس « السادة القرويين» (الملاكون المتوسطون)، لم يستفد منه الفلاحون الكولون ، بل ظل هؤلاء يدفعونها لاسيادهم المالكين ،اذ تؤكد ذلك اسفار يشوع العمودي في وصفها احداث سنة ٥٠٥م(٣٣) .

كان الفلاحون الاحرار صغار الملاكين ، الذين لا يخضعون لاحد من كبار الملاكين ، يدفعون الضريبة النقدية والعينية (الجزية والخراج) الى موظفي المالية مباشرة دون وسيط . وكان يوجد في كل قرية شخص مسؤول عن جمع الضرائب من الفلاحين الاحرار (في الغالب شيخ القرية) وتسليمها الى جباة خزانة الدولة . اما تسديد الضرائب النقدية والعينية (الجزية والخراج) عن الفلاحين من فئة الكولون الذين يعملون بأراضي كبار الملاكين (الاقطاعيين) ، فكان يتم باشكال تختلف من عصر الى عصر . وفي الغالب كان الفلاحون الكولون المرتبطون بالارض يدفعون ضريبة الرأس وضريبة الارض (الجزية والخراج) عن طريق اسيادهم مالكي الارض ، الذين يجمعون الضرائب من فلاحيهم الكولون مضاعفة ، ويعطونها لجباة الخزانة كما هي مدونة في سجلات المالية ، او منقوصة في أغلب الاحيان .. ولمنع تلاعب كبار الملاكين في تحصيل الضرائب المفروضة على الفلاحين الكولون ، جرت محاولات في عهد الامبراطور جستنيانوس الكبير لاقامة علاقات مباشرة بين الدولة والفلاحين الكولون ، يقوم من خلالها موظفو المالية بجمع الضرائب من الفلاحين الكولون انفسهم ، دون الرجوع الى مالك الارض (٣٤) .

في عهد الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) جرى تغيير في نظام المالية ، اذ ابعدت مجالس المدن المحلية عن مهمة جمع الضرائب ، كما ابعد عن هذه المهمة الموظفون المسمون « كوريال » Curiales ، الذين كانوا مكلفين بجمع الضرائب المفروضة على سكان القرى التابعة للمدن ، في حين كلف بجباية الضرائب موظفون ماليون جدد يسمون « فنديسيس » Vindicec ويخضعون مباشرة للوالي البيزنطي في المنطقة الذي يحمل لقب « بريفكت بريتوريوم » Praefecti Praetorium . وأهم مصدر لدراسة هذه الاجراءات المالية الجديدة هو كتاب يوحنا ليدوس المسمى « دي ما جستراتيبوس » De magistratibus (٣٥). وصاحب هذا الاصلاح المالي الجديد هو موظف سوري الاصل يدعى مارين ، الذي توصل الى رئاسة الادارة المالية في القسطنطينية ، ويذكره زكريا الميتيليني (الملطي) بانه احد اقربائه(٣٦) . لكن هذا الاصلاح المالي ، الذي كان الهدف منه تحقيق مركزية الادارة المالية وجعلها بيد الوالي البيزنطي «بريكفت بريتوريوم » ، لم يخفف العبء المالي الثقيل عن الفلاحين .

فالمؤرخ يوحنا ليدوس يصف ذلك الاصلاح المالي بانه كان مؤذيا ومضرا لسكان القرى العاملين في الزراعة ويقول : « اني اوجه كلماتي ضد مارين » (رئيس الادارة المالية)، كما يذكر ان ذلك الاصلاح لم يستفد منه سوى الامبراطور انستاسيوس ، الذي كان حسب وصف المؤرخ « اغنى من الجميع ومعه مارين والمقربين منه »(٣٧) .

كذا يصف ايفاغريوس (في تاريخه الكنسي) ذلك الاصلاح المالي بانه سلبي ويعتبره مضرا بمصلحة الفلاحين ، ذلك ان الموظفين الماليين الجدد « الفنديسيس »، الذين حصلوا على مناصبهم على مبدأ « من يدفع اكثر » ، شرعوا يبتزون الضرائب من السكان بشكل رهيب . وفي هذا النص نرى ايفاغريوس يدافع عن مصالح الطبقات العاملة التي تدفع الضرائب لخزانة الدولة(٣٨) . وتتحدث الكتابات الرسمية عن اهتمام الامبراطور انستاسيوس الاول (٤٩١ — ٥١٨) بالفلاحين وحرصه على اصدار القوانين التي تخفف من اعبائهم المالية . لكن هذا المديح الرسمي لا يتطابق بأي شكل من الاشكال مع واقع الحال(٣٩) .

تركت اسفار يشوع العمودي شهادة اخرى على اساليب الظلم وابتزاز الضرائب التي مارستها السلطات البيزنطية الاستعمارية مع الفلاحين السوريين في منطقة ما بين النهرين . فاضافة الى ضريبة الراس وضريبة الارض « الجزية والخراج » ألزم الفلاحون الملاكون بدفع الضريبة عن الاملاك المجاورة التي هجرها اصحابها لسبب من الاسباب ، أو ماتوا دون ان يتركوا ورثة لهم ، وهذه الضريبة اطلق عليها اسم «ايبيبولي» Epibole (٤٠) . هناك بردية مصرية تتضمن شكوى من فرض السلطات الرومانية مثل هذا النوع من الضريبة الاضافية على الفلاحين المصريين في القرن الثاني الميلادي (٤١) . وفيما بعد انتقل هذا الاسلوب في فرض الضرائب الاضافية الى العصر البيزنطي وطبق في القرن السادس . ففي عهد الامبراطور جستنيانوس الاول (٥٢٧— ٥٦٥) وصف المؤرخ المعاصر بروكوبيوس (في كتابه : التاريخ السري) هذا الاجراء القسري بمثابة عبء ثقيل على الفلاحين الاحرار صغار الملاكين ، فقال : « لم يخجل جستنيانوس بخصوص الارض التي هجرها أصحابها ، ان كانوا من كبار الملاكين ، او من صغار الفلاحين (kurioi kai georgoi) الذين غادروا ارضهم هربا من ثقل الضرائب ، بل الزم غيرهم من الفلاحين بدفع ضريبتها » . هذه الارض المهجورة agri deserti كانت تضم بصورة غير قانونية الى املاك احد الفلاحين الملاكين المجاورين ، فيحق له إمتلاكها بشرط أن يدفع للخزانة الضريبة المترتبة عليها(٤٢) . ويعتبر الامر الاداري الذي اصدره الوالي البيزنطي « بريفكتبريتوريوم » زوتيك في سنة ٥١١ — ٥١١ أول اشارة صريحة الى فرض ضريبة « الايبيبولي » في العهد البيزنطي(٤٣) ، وهذا الاجراء الاداري لم يكن قانونا جديدا ، وانما كان استثناء من

القوانين النافذة . ولكن هذا الاستثناء عمم تطبيقه في الاراضي السورية ، كما كان مطبقا في مصر وشمال افريقيا العربية منذ امد بعيد . هـذه الشهادات المدونـة ، المذكورة اعلاه ، لها قيمة تاريخية كبيرة ، اذ انها تمكن الباحث من التعرف على الحكم البيزنطي التعسفي في سورية ، القائم على اضطهـاد الفلاحين السوريـين واعتصار عروقهـم .

٥ ـ تجارة الحبوب والمواد الغذائية في منطقة ما بين النهرين السورية .

تعطي الاسفار التاريخية السورية المدونة في القرنين الخامس والسادس تصورا واضحا عن تجارة الحبوب في منطقة ما بين النهرين السورية ، وعن اهتمام السلطات البيزنطية بجمع هذه المادة الغذائية وحفظها وتصنيعها خبزا لجنودها ولسكان المدن . كانت الضريبة العينية « الانونا » annona المفروضة على الاراضي الزراعية تجمـع وتنقل من القرى الى اقرب مدينة مجاورة ، فتحسب الحصص من المحاصيل وتعطى الوصولات الدالة على دفع الضريبة . ولحفظ هذه المواد الغذائية التي اصبحت تخص الدولة كانت توجد مستودعات وعنابر خاصة .

وتذكر الاسفار التاريخية السريانية التي تتحدث عن مدينة الرهـا (اديسا) السورية ان حاكم المدينة البيزنطي « الايغيمون » igimon كان مسؤولا عن تمويـن مدينته بالخبز الجاهز ، كما كانت تخضع لاوامره تعاونيات الخبازين ومستودعـات الحبوب . ويستخدم يشوع العمودي في اسفاره السريانيـة المصطلـح اليوناني « ابو ثيتون » apotheton، الذي يعني المستودعات واماكن حفظ مختلف المـواد والسلع ، وبصورة خاصة الحبوب(٤٤) . واحيانا يستخدم العمودي مصطلحا آخرا مركبا من كلمة يونانية وكلمة سريانية وهو « سيتيكادي ابورا » Sitika de abura اذ تعني كلمة « سيتيكوس » Sitikos اليونانية « المخصص للحبوب » كما تعني كلمة « ابورا » abura السريانية « الحبوب » . وبذا يدل المصطلح المذكور على مستودعات الحبوب المخصصة لصنع الخبز(٤٥) . اما زكريا الميتيليني ، الذي يتحدث عن أوامـر الامبراطور انستاسيوس التي تنص على بناء مستودعات حكومية في كافة المـدن ؛ فيستخدم اصطلاح « هوريا سبكتابيليا امبـلا » Horrea spectabilia ampla الذي يعني المستودع او المخزن الرائع والمشهور(٤٦) .

وكان الهدف من اوامر الامبراطور البيزنطي انستاسيوس الاول (٤٩١ ــ ٥١٨) ببناء مخازن الحبوب في مدن ما بين النهرين السورية هو زيادة القدرة الدفاعية لهذه المدن الواقعة قرب الحدود الفارسية ، حيث أن حصار مدينة آمد من قبل الفرس ،

الذي سبب الكثير من الآلام والمتاعب لسكانها نتيجة الجوع ، كان ما يزال حيا في ذاكرة المعاصرين . الى جانب الاهمية الكبيرة لوجود الاحتياطات الغذائية المخصصة لزيادة القدرة الدفاعية والصمود في وجه الاعداء ، فان بناء مخازن الحبوب الحكومية كان الهدف منه ايضا « ان يزيل العداء ويرسخ السلام » ، حسب قول يشوع العمودي(٤٧) ، الذي يقصد به تخفيف حدة التوتر بين الاغنياء والفقراء وتجنب الاضطرابات في حال فقدان القمح واحتكاره من قبل التجار وكبار الملاكين . ورغم ان الدولة كانت تخزن الحبوب الاحتياطية ، فان كمية كبيرة من الحبوب بقيت في مخازن كبار الملاكين الذين يؤجرون الارض للفلاحين الكولون مقابل حصولهم على حصة عينيةمن انتاجها . وكانت شروط الايجار مجحفة بحق هؤلاء الفلاحين ، الذين فرض عليهم احيانا ان يقدموا لصاحب الارض الحصة المتبقية لاطعام اسرهم . وبما ان اجرة الارض كانت تسدد بتقديم حصة عينية من الانتاج، فان كمية كبيرة من الحبوب كانت تصب في مخازن كبار الملاكين ، فيبيعونها في السوق المحلية ، او ينقلونها الى خارج حدود المنطقة ليجعلو منها صفقة مربحة .

سعت السلطات البيزنطية الى تنظيم اسعار الحبوب وتثبيتها في مستوى محدد. فاصدرت القوانين اللازمة بخصوص هذا الامر . لكن تكرار صدور القوانين بهذا الخصوص يدل على عدم التزام المحتكرين بتطبيقها . وعلى هذا كان الهدف من بناء مخازن الحبوب الحكومية « أن يزيل العداء ويرسخ السلام » بين الاغنياء والفقراء . لكن تلك المخازن الحكومية لم يكن باستطاعتها دوما تأمين الخبز الرخيص للمواطنين الفقراء ، ولذا رفع الحرفيون والفلاحون الفقراء راية الكفاح ضد الاغنياء الذين يحتكرون تجارة الحبوب . والاسفار التاريخية لا تميز بين فئات الطبقة الكادحة في منطقة ما بين النهرين السورية ، بل تطلق عليها اسم « الفقراء » ، أو « البسطاء » أو «الضعفاء» ، وهؤلاء منهم من كان يعمل في المدينة ، ومنهم من كان يعمل في الريف. وتشير الاسفار التاريخية السورية (السريانية) الى المتاجرة بالحبوب وتهريبها ، مما يؤدي الى ارتفاع اسعار قوت الشعب . لقد جاء في الاسفار المنسوبة الى زكريا الميتيليني (الملطي) ان اسقف مدينة آمد السورية « كان يحذر اغنياء المدينة قائلا لهم : في أيام الجوع وغزوات العرب (الموالين للفرس) والطاعون ، ينبغي عليهم الا ينقلوا الحبوب بعيدا ، لان ثمة حاجة لها في الداخل ، ويجب عليهم بيعها وتقديمها للمحتاجين . اما اذا نقلوها بعيدا (خارج الحدود) ، فمعنى ذلك انهم يصنعون احتياطيا للعدو (للشيطان ، حسب تعبير الكاتب)» (٤٨) . ويذكر يشوع العمودي ان في اثناءالمجاعة ، كان هناك أناس مقتدرون لم يحتاجوا شيئا(٤٩) .

في عهد الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٦) ، الى جانب الضريبة المحددة على الاراضي الزراعية ، فرضت على الملاكين الكبار فريضة اضافية تدعى « انديكتيو»

وتقضي بتامين الحبوب وبيعها حسب السعر المحدد المعلن . ان المصطلـح اليوناني « سينوني » Sinone الذي يطابق المصطلح اللاتينـي « إنديكتيـو » indictio ويعني « بيع الحبوب الالزامي باسعار محددة » قد بقي مستعملا في بيزنطة حتـى القرن الحادي عشر الميلادي . وترجم المؤرخ الروسي فاسيلفسكي هذا المصطلـح « سينوني » على انه ابتزاز أطلق عليه اسم « بيع الحبوب الالزامي »(٥٠) . وقد أشار المؤرخ الروسي بانتشنكو الى الوصف السلبي لقانون بيع الحبوب الالزامي «سينوني» الوارد في « التاريخ السري » (الذي وضعه المؤرخ بروكوبيوس في القرن السادس) ؛ كما أشار الى وجـود هـذا القانون في شريعـة الامبراطـور انستاسيوسـ الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) (٥١) .

كانت الضرائب العينية « الانونا » annona مخصصة بالدرجة الاولى لاطعـام الجيوش وتموين العاصمة البيزنطية . ولما كان قمح الخبز الذي تجمعه السلطات في مخازن الدولة لا يكفي لاطعام الجيوش في أوقات الحروب ، فقد اضطرت الحكومـة البيزنطية ان تسن قانونا يلزم كبار الملاكين ببيع القمح للدولة باسعار مخفضة .اضافة الى ذلك خشيت الحكومة من تمرد الكادحين الجائعين بسبب غلاء الحبوب ، لـذا فرضت على كبار الملاكين بيع كمية محددة من الحبوب في السوق باسعار رخيصة(٥٢) . ويجب النظر الى شريعة انستاسيوس وشريعة جستنيانوس بمثابة تأكيد قانوني على بيع القمح الذي كان يجري بشكل الزامي حسب تسعيرة الدولة . فمن بين قوانين جستنيانوس الثلاثة المتعلقة بهذا الموضوع يوجد اثنان باللغة اليونانية(٥٣) ، وهـذا يدل على انهما خصصا للولايات البيزنطية الجنوبية والشرقية ، ومنها سورية التـي كانت اليونانية لغة رسمية فيها .

وتميز قوانين جستنيانوس بين تجارة الحبوب الحرة (حسب الرغبة الذاتيـة للبائع) ، وتجارة الحبوب حسب اوامر الامبراطور . وترتبط تجارة الحبوب حسب اوامر الامبراطور بدفع الضرائب المفروضة على الاملاك الزراعية ، اذ تعتبر فريضة على شكل ضريبة اضافية . وعلى هذا حددت القوانين كمية الحبوب التي يجب أن تباع باسعار مخفضة حسب مساحة الارض (الوحدات الانتاجية ـ الإيغوم ـ) التي بحوزة المالك ، وحسب عدد الفلاحين العاملين بأرضه(٥٤) . هذا ولم تستثن القوانين أحدا من هذا الالتزام على الاطلاق . وبموجب هذه القوانين الزم المالك بتقديم كمية محددة من الحبوب لتباع بالسعر الرسمي السائد في المدينة . وكان الهدف من إلـزام المالكين الكبار ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الرسمي ، هـو تأمين الخبـز الرخيص لسكان المدينة من جهة ، وضمان تحصيل الضرائب النقدية من المالكين من جهة ثانية. وكانت تلك القوانين ، وهي تراعي مصالح الخزانة ، تشير الى أن المال الذي يكسبه

الملاكون ثمن بيع الحبوب يجب ان يغطي بالدرجة الاولى ديونهم المالية للخزانة . وكان على المالك الذي يبيع الحبوب بالسعر المحدد ان يسدد مباشرة الضريبة النقدية المفروضة عليه وعلى « أهل بيته » . ويعني المشرع بعبارة « أهل بيته » جميع القاطنين والعاملين لدى صاحب العلاقة . وعند بيع الحبوب كان موظفو المالية يقتطعون من ثمنها مباشرة الضريبة النقدية المفروضة على المالك البائع . وهكذا كانت الاموال التي يكسبها المالك من بيع الحبوب بالسعر الرسمي يجب أن تسدد منها ديونه للخزانة بالعملة الذهبية . واذا كان المالك غير مدين للخزانة بشيء ، فلا يستطيع احد أن يأخذ منه نقودا او يصادر حبوبه . هذه الفقرة الاخيرة من القانون تشير الى الوسائل التي كان يلجأ اليها موظفو المالية لتحصيل الضرائب . فهم يستغلون فرصة بيع المالك حبوبه ويطلبون منه في الحال دفع الضريبة النقدية المترتبة عليه وعلى « أهل بيته » . وبعد ان يسدد المالك ديونه ويحصل على براءة ذمة من الخزانة ، يصبح حرا في ان يبيع حبوبه المتبقية بالسعر الذي يريده . لكن قوانين جستنيانوس لم تسمح باكراه المالك على بيع حبوبه اللازمة لاطعام اهل بيته ، وانما فرضت عليه بيع الحبوب الفائضة عن الاستهلاك الشخصي(٥٥).

جرت تجارة الحبوب في المدينة المحتاجة للقمح تحت اشراف مباشر من جانب حاكم المدينة ، وحسب الاسعار السائدة والمتعارف عليها في ذلك الزمان والمكان . ان قانون جستنيانوس ، اذ ينشد بالدرجة الاولى تحقيق مصالح الخزانة المالية ، كان يسعى للمحافظة على سعر الحبوب بالمستوى المتوسط ، الذي يطلق عليه اسم « السعر العادل »(٥٦) . وكانت اسعار الحبوب في السوق المحلية تسجل على لائحة وتعلق في مكان البيع . ولكن السعر لم يكن ثابتا دوما ، بل كان يتبدل من وقت لاخر بفعل جملة من الظروف . وفي الغالب كان تقرير الاسعار بأيدي كبار الملاكين الذين يتاجرون بالحبوب ، فهم يرفضون الاسعار ويخضعون السوق لرغباتهم . لقد ارتفعت اسعار الحبوب في الاوقات الحرجة الناجمة عن القحط . وحول هذا الموضوع يتحدث يشوع العمودي بالتفصيل . وكذا تحتوي الاسفار الكنسية من القرن الرابع شواهد كثيرة على صعوبة شراء قمح الدولة ذي السعر المخفض . فالتجار استغلوا المجاعة التي اجتاحت مصر في ذلك الحين واخذوا يبيعون الحنطة بسعر فاحش(٥٧). وعلى هذا يواصل تشريع انستاسيوس الاول (٤٩١ ـ ٥١٨) اقرار الفريضة القسرية لبيع الحبوب التي كانت مطبقة في ايام الامبراطور ديوكليسيانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) . هناك مبررات للاعتقاد بان « السيتوني » ـ بيع الحبوب الالزامي باسعار محددة ـ لم يكن فريضة دائمة ، وانما الزم به ملاكو الاراضي في وقت الحاجة والضرورة ، وذلك بموجب أمر امبراطوري خاص . وفي هذه الحالة لم يستثن احد من هذه الفريضة ، بل نفذها الملاكون الكبار والمتوسطون والصغار ، كل حسب

مساحة املاكه الزراعية . وهكذا كانت فريضة «السينوني» تفرض على الملاكين بمثابة ضريبة اضافية (٥٨) .

رغم إلزام الملاكين ببيع كمية معينة من الحبوب بالسعر الحكومي المحدد ، لم تنوفر لدى الدولة الحبوب الكافية لتلبية احتياجات الجيش وسكان المدن . وكان الملاكون الكبار يمارسون التجارة الحرة بالحبوب ويبيعونها باسعار عالية ، مما يجعل هذه الحبوب صعبة المنال على سكان المدن ذوي الدخل المحدود . وتتحدث المصادر التاريخية المعاصرة بصورة دائمة عن المضاربات وتضخم الاسعار على ايدي التجار الذين سيطروا على الاسواق وفرضوا الاسعار وفق ارادتهم . وحظرت احدى فقرات القانون الذي اصدره الامبراطور انستاسيوس (في الحقبة ما بين ٤٩١ ــ ٥٠٥) ارغام كبار الملاكين والتجار (الذين يملكون مخازن للحبوب في المدينة التي يقطنون فيها) على نقل الحبوب وغيرها من المواد الغذائية الى مدينة او مقاطعة اخرى ، دون استصدار امر امبراطوري خاص يسمح بذلك (٥٩) . ولكن في بعض الاحيان فرضت السلطات البيزنطية على الذين يملكون الحبوب الفائضة ان ينقلوا هذه الحبوب الى مدينة اخرى تعاني من الجوع . ويتحدث يشوع العمودي عن هذا الامر (في سنة ٥٠٤ ــ ٥٠٥) فيقول : « لاقى سكان الرها مختلف انواع العذاب حين كانوا ينقلون الحبوب الى آمد، ولا يعلم احد بهذا الامر سوى اولئك الذين كانوا مكلفين بهذا العمل ، لان الكثيرين منهم لاقوا حتفهم مع حيواناتهم في الطريق »(٦٠) . في تلك الظروف صدرت أوامر حكومية بارغام اصحاب الحبوب على نقلها الى مدينة آمد التي افرغها الفرس من المواد التموينية ، بعد ان انسحبوا منها واعادوها لبيزنطة . وهذه الفريضة القيت على كاهل سكان الرها الذين عانوا من المصاعب والاهوال في تنفيذها .

الى جانب تجارة الحبوب التي نظمتها السلطات البيزنطية ، تجدر الاشارة الى المكانة الكبيرة التي احتلها سوق الفلاحين والتجارة الصغيرة في المدن السورية الخاضعة للحكم البيزنطي . كان الفلاحون (بالسريانية : بلاحي) السوريون يجلبون الى المدينة القمح والشعير والحمص والعدس والخضراوات والثمار والنبيد والزبدة والبيض ، كما كان صيادو الارياف يجلبون لحم الصيد والطيور المصطادة . هذا النوع من التجارة الصغيرة وتجارة القطعة امتلك اهمية لا بأس بها في تبادل السلع بين المدينة والقرى المجاورة لها . وهذه التجارة الصغيرة في فترة حصار آمد هي التي أمنت الغذاء للمحاصرين . فالفرس الذين يسيطرون على المدينة كانوا يسمحون لسكانها بالخروج الى السوق التي اقيمت بجوار اسوار المدينة فيتجمع فيها الفلاحون القادمون من القرى . هؤلاء الفلاحون كانوا يجلبون النبيد والقمح وغيره من المواد التموينية ، فيبيعونها للفرس ولسكان المدينة . واحيانا يسمح الفرس لبعض الفلاحين بالدخول

الى قلب المدينة . وحسب العادات والتقاليد الفارسية « الرائعة » لم يجرؤ أحد (من جنود الفرس) على اغتصاب شيء من القرويين ، الذين كانوا يبيعون كما يحلو لهم ويأخذون النقود والامتعة والاشياء من المدينة ، كما يجتمعون في السوق عندما يشاؤون(٦١) . ولم يمارس هذه التجارة الصغيرة الفلاحون الاحرار فحسب ، بل كان يمارسها ايضا الفلاحون الكولون ، لان القوانين أقرت باعفائهم من دفع الضريبة النقدية «الخريسار غيروس» عن هذه التجارة(٦٢) . وكانت هذه التجارة الصغيرة تجري بالمفرق وبنقود صغيرة ، كما كانت تؤمن المواد التموينية بأسعار رخيصة لسكان المدينة الفقراء من الحرفيين والعمال ، الذين لا يستطيعون الحصول سوى على كميات ضئيلة من هذه المواد .

تشير قوانين انستاسيوس الى الاشخاص الذين يكلفون بشراء الحبوب ونقلها من الريف الى المدينة لبيعها للسكان . وتنص هذه القوانين على ما يلي : « اذا برزت جاحة معينة في مدينة ما الى مستورد للحبوب « سيتونس » Sitones ، فيجب ان يكون اختياره حسب اقتراح اسقف هذه المدينة وكبار الملاكين فيها»(٦٣) . ويجب ان يتم اختيار هذا الشخص المستورد للحبوب من بين الاشخاص الذين لهم خبرة طويلة في هذا العمل . وأشار القانون بشكل محدد الى ان مستوردي الحبوب يجب الا يتحملوا الاضرار الناجمة عن بيع الحبوب ، لان عملهم صعب وشاق بالاساس ، فكيف اذا رافقته الاضرار والخسائر . وعلى هذا يعتبر القانون ان الخسارة الناجمة عن بيع الحبوب والصعوبات المتعلقة بهذا العمل « ظلما » ، اذا ما تحملها المستوردنفسه. وهكذا نلاحظ ان رغبة السلطة في الدفاع عن مصالح التجار والملاكين الكبار قد وجدت انعكاسها في الحرص على الا يتعرضوا للخسارة في الادخار والنقل والبيع ، وذلك لان عليهم أن يقدموا الحبوب بالسعر الرسمي المحدد والمعلن في السوق(٦٤) . كان لا بد من المحافظة على معدل وسطي لاسعار الحبوب وعدم السماح للمستورد برفع ثمنها . لكن قوانين انستاسيوس تعود اكثر من مرة وفي فترات متلاحقة الى هذه المسألة ، الامر الذي يدل على ان هذه القوانين قد خرقت مرارا وتكرارا ، وكان من الصعوبة بمكان تنفيذها ، حيث يسيطر على السوق كبار التجار والملاكين الذين كانوا يفرضون الاسعار حسب مصالحهم الخاصة . بهذا الشكل كانت تجري تجارة الحبوب والمواد الغذائية في مدن منطقة مابين النهرين السورية في نهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي .

كانت مسألة الاسعار على علاقة مباشرة مع التجارة . وتقدم اسفار يشوع العمودي السورية (السريانية) جملة من المعطيات حول هذا الموضوع الهام . تشير هذه الاسفار الى التجاهل الكامل لمصالح الطبقات الفقيرة المستغلة من جانب الحكومة

البيزنطية المستعمرة ، لا سيما في سنوات القحط والجوع والطاعون التي شهدتها منطقة ما بين النهرين السورية . فالجوع الذي جاء نتيجة ابتزاز الحكومة للضرائب وقدوم الجراد والجفاف المتكرر والقحط ، قد شمل هذه المنطقة بكاملها في السنوات ٥٠٠ — ٥٠٢ . وبنتيجة ذلك باع الفلاحون السوريون امتعتهم ومواشيهم بنصف ثمنها ورحلوا الى مناطق اخرى في الشمال والغرب . لم يبق في القرى السورية سوى النساء والاطفال والشيوخ والمرضى ، الذين يطاردهم الجوع في تلك القرى التي لم يكن فيها لسد الرمق سوى الحشائش المرة . راح سكان القرى يجوبون المدن ، وهناك كان مصيرهم التسول والمرض والجوع ، وبالتالي الموت . كان هؤلاء الفلاحون يتسكعون في شوارع الرها وساحاتها طالبين لقمة العيش من المحسنين ، لكن هذه اللقمة لم تتوفر لهم ولم يقدمها احد . ومع تقدم الزمن — يقول يشوع العمودي — كانت الاسعار تتصاعد ، فتتزايد معها آلام الجوع الذي اخذ يهدد حياة الناس اكثر فاكثر . « كل شيء لا يؤكل كان رخيصا . الالبسة ولوازم البيت كانت تباع بنصف او بثلث ثمنها . وحتى هذه الاشياء لم تكن كافية لتطعم اصحابها بسبب السعر الباهظ للخبز »(٦٥).

اضافة الى ارتفاع اسعار الحبوب ، ينقل الينا يشوع العمودي موضوعا اخرا ، وهو ان أفران المدن السورية في منطقة ما بين النهرين لم تعد قادرة على تأمين احتياجات سكانها من الخبز ، بسبب هجرة الفلاحين الى المدن للحصول على لقمة العيش . يقول المؤرخ السوري المذكور : « في سنة ٤٩٩ — ٥٠٠ غادر الوالي البيزنطي (الا يغيمون) مدينة الرها وذهب الى القسطنطينية ، بعد ان اناب عنه شخصا يدعى يوسف ليدير شؤون المدينة . وحينما رأى يوسف ان الخبازين المختصين غير قادرين على صنع ما يكفي من الخبز لتغطية السوق ، بسبب العدد الكبير من سكان القرى الذين ملأوا المدينة ، ولانه لم يعد لدى الفقراء قمحا في بيوتهم ، عندئذ امر يوسف ان يعطى القمح لكل من يتعهد بصنع الخبز وبيعه في السوق . وهكذا جاءت النساء اليهوديات ، فأعطاهن يوسف القمح من مخازن الدولة ، فشرعن يصنعن الخبز للسوق »(٦٦) . يتضح من النص السابق ان صنع الخبز وبيعه في السوق لم يكن بمقدور اي فرد كان ، وانما كان يقوم بهذا العمل الخبازون المختصون الذين كانوا منظمين في جمعيات حرفية تعاونية . ولم تكن تعاونيات الخبازين قادرة ان تؤمن متطلبات مدينة الرها السورية التي أصبحت تغص بالقرويين في زمن المجاعة . وعلاوة على ذلك « لم يبق لدى الفقراء قمحا في بيوتهم » ، وهذا يعني ان الفقراء كانوا عادة يحتفظون بالحبوب ويصنعون خبزهم الخاص في منازلهم . غير انهم في زمن المجاعة لم يكونوا يملكون القمح ، ولذا اضطروا الى شراء الخبز من السوق . تتحدث القوانين النافذة في الامبراطورية البيزنطية عن اسعار الحبوب السائدة في المدن السورية . وكانت هذه القوانين معنية بالا تكون اسعار الحبوب مرتفعة . ففي الاحوال العادية كان الخبازون المختصون

يشترون الحبوب ويطحنونها ، ثم يصنعون الخبز ويبيعونه في السوق . وكان يتبدل سعر الخبز حسب السعر الموضوع على الحبوب ، وذلك كي يبقى للخبازين المختصين ربح معين ثابت(٦٧) . وفي اوقات المجاعة العصيبة اتخذت الحكومة اجراءات وتدابير اخرى ، كتقديم القمح الحكومي « المدعوم » للنساء اللواتي يستطعن صنع الخبز وبيعه في السوق . وفي الوقت نفسه ظلت جمعية الخبازين المختصين تصنع الخبز من احتياطي الدولة ، الذي كان ارخص من الحبوب التي يبيعها التجار في السوق الحرة .

ويعتبر يشوع العمودي غلاء المعيشة (في منطقة ما بين النهرين السورية) شرا كبيرا ، شانه شان الطاعون ، فيقول : « .. كان الفقراءبأمس الحاجة للقوت ، لكن المال لم يكن متوفرا بين ايديهم كي يشتروا الخبز . كانوا يتسكعون في شوارع المدينة (الرهــا) وساحاتها وحدائقها وبيوتها ، طالبين قطعة من الخبز ، فلم يلب احد طلبهم ، لان الخبز لم يكن متوفرا في تلك البيوت . والقروش التي يطلبها الجياع كانت تصرف في شراء بعض الخضراوات التي تؤكل نيئة في الحال . وفي الوقت ذاته اخذ الطاعون الى جانب الجوع يستشري في المدينة ويهلك السكان »(٦٨) . ويذكر يشوع العمودي أيضا ان حاكم الرها ديموسفينوس قد توجه في سنة ٥٠٠ ــ ٥٠١ الى الامبراطور البيزنطي وابلغه عن هذه المصائب التي حلت بمدينته ، فقدم له الامبراطور ذهبا غير قليل لتوزيعه على الفقراء(٦٩) . ولكن حاكم الرها لم يوزع المال على الفقراء ، بل راح يوزع عليهم الخبز بقيمة هذا المال . لقد أمر أن تعلق في اعناق الفقراء اختام فضية ، وان يعطى لكل واحد منهم ليتر من الخبز في اليوم(٧٠) . وفتح الحاكم سجلات خاصة لهؤلاء الفقراء الذين كان يوزع عليهم الخبز يوميا . يزن ليتر الخبز ٣٠٠ غرام تقريبا ويعتبر رزقا للجائع . لكن هذا الرزق كان يعطى للقليلين من الجياع على شكل تقدمة أو هدية ، كما كان يصنع على حساب النقود التي قدمها الامبراطور انستاسيوس الاول لحاكم مدينة الرها السورية .

كان الفلاحون المهاجرون من القرى الى المدينة جياعا ولا مأوى لهم ، فينامون في الاروقة والساحات والشوارع . وقد لاقى الكثيرون منهم حتفهم جوعا . ففي كل زاوية كان الاطفال يبكون ويصرخون ، ولا حياة لمن تنادي ، لان امهاتهم القين بهم ولم يعدن(٧١) . وكان الطاعون « الموت الرهيب » يسير جنبا الى جنب مع الجوع . وبما انه كان من الصعب ايجاد مكان لوضع المرضى فيه ، فقد تم ترتيب مكان بمثابة مستوصف بجانب الابنية المحاذية لمعبد الرها الكبير . ففي الكنيسة القديمة الواقعة قرب الحمامات الشتوية فرش القش والحصر بامر من الحاكم ، وارسل الى هناك الكثيرون من الناس ليستلقوا عليها دون ان ينهضوا . كذلك اقام وجهاء المدينة وجنود بيزنطة ملاجىء صالحة للنوم ، لكن تلك الملاجىء كانت دون الحاجة المطلوبة . ولقد

أجبر عدد كبير من الفقراء المرضى القادمين من القرى على الذهاب الى تلك الملاجىء . وكثر هؤلاء الفلاحون الفقراء في مدينة الرها ، بعد ان وصلت اليهم شائعات مفادها ان المدينة تستقبل الجياع والمرضى . وتفاقم الامر حتى ان الحمام الذي كان قرب معبد الرسل قد شغل من قبل هؤلاء المرضى . هلك العديد من ابناء الشعب ، لان الطاعون قد استشرى في كل مكان . والقيت مسؤولية دفن الموتى من الفقراء على عاتق الحرفيين ورهبان الاديرة . ويذكر يشوع العمودي ان سكان الرها اثناء وباء الطاعون لم يتمكنوا من نقل الموتى الكثيرين ودفنهم ، فساعدهم في ذلك رهبان الدير الذين كانوا ينقلون الموتى الى المستوصف ومن هناك الى الدفن(٧٢) . في البداية كانوا يضعون الموتى في مدافن المعابد . وفيما بعد فتحوا المدافن الحجرية القديمة بالقرب من معبد مار كانون ودفنوا فيها . ومنذ مطلع تشرين الثاني حتى اذار السنة ٥٠١ كانت نسبة الوفيات عالية جدا . واستشرى الطاعون في سكان المدينة في شهر نيسان ، فكانوا ينقلون من الرها اعدادا كثيرة من الجثث لم يستطع احد تقرير عددها(٧٣) . لقد داهم الموت جميع المناطق السورية من نصيبين (بجوار القامشلي) حتى انطاكية ـ اي من نهر دجلة حتى البحر الابيض المتوسط .وامام هذا الوباء (الطاعون) القاتل وقفت الحكومة البيزنطية عاجزة تماما ، كما وقفت عاجزة امام المجاعة ، اذ لم تقدم سوى الحد الادنى من العون ، الذي اقتصر على تقديم المأوى والقبور . وكان الاغنياء كعادتهم ، يهربون من وباء الطاعون ويختبئون في مزارعهم وقصورهم المحاطة بالاسوار تجنبا لخطر العدوى . وتكرر الوباء اكثر من مرة في القرنين السادس والسابع ، فعاش سكان الرها في تلك الحقبة تحت وطأة التهديد بالموت السريع من مرض الطاعون .

وفي اثناء فترة المجاعة (في السنوات ٥٠٠ ـ ٥٠٢) ، كما في اثناء موجة الطاعون، كانت المساعدات التي قدمتها الحكومة البيزنطية للسكان السوريين الفقراء في حدودها الدنيا . وتشير اسفار يشوع العمودي الى ان المساعدات المالية وزعت دون تمييز بين الفقراء والاغنياء ، فلم يؤخذ بعين الاعتبار الفقراء المحتاجون بالفعل . يقول يشوع العمودي : ان الخصي اوربيك المكلف من قبل الامبراطور انستاسيوس بتقديم المساعدة المالية للسكان السوريين في منطقة ما بين النهرين ، قد قام بتوزيع « الدينار تلو الدينار » في مدينة آمد . ومن هناك توجه الى الرها ، فاعطى لكل امرأة رغبت بالمساعدة تريميسونا واحدا ؛ ولكل طفل زوزي (قطعة نقدية صغيرة) . وهكذا حصلت كل النساء تقريبا على المال ـ النساء المحتاجات وغير المحتاجات(٧٤) .

وتذكر اسفار يشوع العمودي أيضا اسعار المواد الغذائية خلال مجموعة من السنوات ، كما تكررها بصورة منتظمة بالنسبة للقمح والشعير . وتعود اغلبية الاسعار الواردة في هذه الاسفار السريانية الى عصر المجاعة في منطقة ما بين النهرين السورية .

ولكن قسما من المعلومات يعود الى فترة لم تكن المنطقة تعاني خلالها من المجاعة ، وفي هذه الحالة تعطي تصورا عن الاسعار الطبيعية . وطالبت قوانين جستنيانوس انتكون تجارة الحبوب حسب الاسعار السائدة في حينها في المنطقة . لكن الاسعار لم تكن ثابتة ولايمكن ان تكون ، بل كانت تتبدل حسب اوقات السنة والظروف المحلية الملائمة وغير الملائمة .

منذ القرن الرابع الميلادي انتقلت التجارة الى التعامل بالنقد الذهبي ، بينما اصبحت الفضة عملة نادرة الاستعمال . وفي القرن الخامس كان المؤرخ السوري يستبدل كلمة « المال » بكلمة « الذهب » . وازدادت الحاجة الى هذا المعدن الثمين من اجل سك النقود ، في حين هبط استخراجه بصورة تدريجية(٧٥) . بدفع الذهب أبعدت كل من بيزنطة وايران بعض القبائل البربرية عن حدودها الشمالية . كذلك لعب تصدير الذهب الى الشرق دورا هاما في شراء المواد الشرقية الفاخرة . ان النظام النقدي الذي كان سائدا في عصر الامبراطور انستاسيوس (٤٩١–٥١٨) والاصلاح الذي أدخله على النقد يعكسان الوضع المالي العام . لقد سك اسلافه مجموعة من النقود المختلفة ، فصارت مادة للمضاربة في السوق السوداء . ولكن اصلاح النقد في سنة ٤٩٧ قد حفظ قيمة الليرة الذهبية (السوليدوس) . ومن اجل الحسابات الصغيرة ضرب نقد برونزي فاكتسب تداولا واسعا في الاسواق . كانت الضرائب تسدد فقط بالمعدن الثمين – بالذهب وبالفضة – . ولكن النقد الفضي في القرن الخامس كان نادرا نسبيا (٧٦) . وعلى هذا صارت الضريبة النقدية تدفع بصورة كاملة تقريبا بالعملة الذهبية . وكل معد نكان له نظامه الخاص المستقل ، فالفضة لا تغطى الذهب ، كما لا يغطي النحاس الفضة(٧٧) .

في القرن السادس الميلادي كانت الليرة الذهبية (السوليدوس) تعادل ٦٠٠٠ نوموس من البرونز . ولتحديد قيمة النقد وضعت عليه شارات معينة . فاكبر قطعة نقدية برونزية في عصر انستاسيوس التي كانت تزن من ١٠ – ١٦ غ وتساوي ٤٠ نوموس كتب عليها رقم ٤٠ . اما القطع النقدية الاقل وزنا فقد كتب عليها رقم ٢٠ او ١٠ أو ٥ أو ١ نوموس. واختصر اسم النوموس Nummus على القطع النقدية بحرفي ن.م . N.M. (٧٨). واصغر قطعة نقدية برونزية هي النوموس الواحد الذي يزن اقل من غرام . الى جانب الليرة الذهبية والنقود البرونزية كانت هناك نقود فضية تسمى باليونانية « كيراتيون » keration وباللاتينية « سيليكوا » Siliqua ، وهي تساوي ١/٢٤ من الليرة الذهبية (السولبدوس) . في عهد الامبراطور زينون (سلف انستاسيوس) كان الميلياريس الفضي يزن ٤٫٥ غ ، والكيراتيون يزن ٢٫٦ غ . وكانت هذه القطع النقدية الفضية نادرة ، بينما كثيرا ما تصادف نقود بقيمة نصف

كيراتيون بوزن ٤٢ر١ ـ ٢٨ر١ غ . وكانت النقود الذهبيــة والفضيــة تسك في القسطنطينية ورافينا. أمابعد اصلاح النقد الذي جرى فيعهد الامبراطور انستاسيوس (في سنة ٤٩٧) فقد اصبحت النقود تسك في مدن كثيرة . وكانت اماكن سك العملات الفضية القريبة من منطقة ما بينالنهرين السورية هي المدن التالية : إفس ، ايسورية ، نيكوميدية ، انطاكية(٧٩) .

وتحسب اسفار يشوع العمودي السورية ثمن الحبوب بالقطعة النقدية التـي يطلق عليها اسم « الدينار » . لقد بقيت اسماء القطع النقدية على ما كانت عليـهمدة طويلة ، رغم تبدل قيمتهاوسكها . وحافظ السوريون ايضا على التسمية القديمـة للدينار ، وهم يقصدون به الليرة الذهبية البيزنطية (السوليدوس) .وهذه التسمية تصادف في اسفار يشوع العمودي وغيرها من الاسفار السورية(٨٠) . وتذكر اسفـار زكريا الميتيليني (الملطي) السورية اسم « الكيراتيـون » في ترجمة غالينوسـ الـى السريانية ، التي قام بها الطبيب السوري سرجيوســ (من راس العـين) في القـرن السادس الميلادي . وهكذا استعمل السوريون النقود البيزنطية مستخدمـين أمـا تسمياتها اليونانية « كيراتيون » ، « نوموس » ، أو تسمياتها السورية القديمـة ، كالدينار على سبيل المثال .

والاسفار السورية (السريانية) عندما تذكر ثمن الحبوب تنطلق من القطعـة النقدية وتشير الى كمية الحبوب التي ابتيعت بها في ذلك الزمن . وهذه طريقة عامة في الحسابات استعملت في الامبراطورية البيزنطية كلها على امتداد قرون عديـدة . فالحبوب في مصر كانت تقاس بالارتاب ، وفي سورية بالمد . وهناك الكثير من النعـوت للمد (كبير ، صغير ، بحري ، قيصري ، وغيرها) . وهذه النعوت تشير الى غياب الوحدة النمطية في المعايير والكميات ، فهي تختلف من مكان الى مكان ، ومن زمان الى زمان(٨١) . ولا يوجد حتى يومنا هذا تحديد دقيق لقياس المد من الحبوب . كذلك من الصعب وضع تناسب دقيق بين المد السوري والارتاب المصري ، لكن الارتاب يساوي ٣ ـ ٥ر٣ مد تقريبا(٨٢) .

يذكر يشوع العمودي (في سنة ٤٩٤ ـ ٤٩٥) الاسعار التالية للحبوب في مدينة الرها السورية فيقول : « في هذا الوقت ، كان كل ٣٠ مد من القمح يباع في الرهـا بدينار واحد ، وكل ٥٠ مد من الشعير يباعبدينار ايضا »(٨٣). وكان الدينار ، أو بالاحرى السوليدوس الذهبي ، يساوي ٢٤ كيراتيون فضي ، وبالتالي كان ثمن المد الواحد من

القمح ٨ر. كيراتيون ، وثمن المد الواحد من الشعير ٤٨ر. كيراتيون ، وهذا السعر طبيعي جدا بالنسبة للقرن الخامس الميلادي . وفيما بعد يتحدث يشوع العمودي عن غلاء المعيشة ويصف المجاعة وارتفاع الاسعار . في سنة ٤٩٤ ــ ٤٩٥ قدم اسعارا طبيعية للقمح والشعير . اما في سنة ٤٩٩ ــ ٥٠٠ فقد حلت الكوارث التي ادت الى حدوث المجاعة(٨٤) . في البدء ظهرت اعداد كبيرة من الجراد في مرحلة الزحف (قبل تكون الاجنحة) ، فأكلت الزرع وكل النباتات الاخرى في اماكن عديدة من منطقة مابين النهرين : اروبا ، تلة ، راس العين ، الرها . وظهرت عواقب هذا الامر في الحال : في شهر نيسان من سنة ٥٠٠ اخذ يتصاعد سعر الحبوب ، فصار كل ٤ مد من القمح يباع بدينار واحد (في السابق كان كل ٣٠ مد من القمح يباع بدينار واحد) . وفي حزيران وتموز من سنة ٥٠٠ حرم سكان هذه المناطق من كل ما هو ضروري للحياة، مما اضطرهم للتسول(٨٥) .

ويذكر يشوع العمودي ارتفاع اسعار المواد الغذائية الاخرى فيقول : كانت محاصيل البقوليات ــ الحمص والعدس والفول ــ تباع بالكابا (الكابا مكيال صغير استخدمه الاشوريون والبابليون والكنعانيون ، وذكره فيلون الاسكندري ، كما اعتبره ابيفانيوس القبرصي ١/٤ أو ١/٥ من المد ، أما المد المزدوج فيساوي ٨ كابا)(٨٦) . ففي زمن المجاعة والقحط في منطقة ما بين النهرين السورية كانت الكابا الواحدة من الفول تباع بمبلغ ٤٠٠ نوموس برونزي ، والكابا الواحدة من الحمص تباع بمبلغ ٥٠٠ نوموس. ويمكن من خلال سعر الارتاب الواحد من العدس في الظروف الطبيعية ، الذي كان يباع بمبلغ ٣ كيراتيون ، الحكم على الحد الذي وصل اليه ارتفاع اسعار الحبوب في زمن المجاعة (الارتاب = ٣ مد = ٢٤ كابا ، السوليدوس الذهبي = ٢٤ كيراتيون فضي= ٦٠٠٠ نوموس برونزي) . أما اللحم فكان ارخص مادة غذائية في السوق . لم تكن الاعشاب متوفرة لاطعام المواشي ، حيث ابادها الجراد . ولذا اخذ الناس يذبحون المواشي ، فكثر اللحم واصبح رخيصا . ويتابع يشوع العمودي حديثه قائلا : « ان السنة التي تلت سنة ٥٠٠ ــ ٥٠١ لم تجلب الراحة والهدوء للسكان ، بل اخذ الجوع يزداد في القرى والمدن . فكل من بقي في القرى راح ياكل العشب المر ، وبعضهم يطبخ حصرم العنب ويتناوله غذاء . وفي شهر شباط من سنة ٥٠١ ازداد الغلاء تصاعدا والطاعون استشراء . بالنسبة للقمح فقد بيعت كل ١٣ كابا بدينار واحد (ليرةذهبية، سوليدوس) . اما الشعير فقد بيعت كل ١٨ كابا بدينار واحد . وبيع ليتر اللحم بمبلغ ١٠٠ نوموس (الليتر = ٣٠٠ غ) ، والبيضة بمبلغ ٤٠ نوموس . وعلى العموم كان كل ما يؤكل غالي الثمن »(٨٧) .

لم يخفف محصول تلك السنة من وطاة غلاء المعيشة الا بقدر ضئيل ، لان القمح الجديد في حزيران وتموز من سنة ٥٠١ قد بيع بعد الحصاد بدينار واحد لكل ٥ مد . « لم تتحقق آمالنا » ـ هكذا كتب يشوع العمودي ـ على اعتبار أن التخلص من غلاء المعيشة لم يتحقق . في شباط السنة ٥٠١ بيع القمح بمكيال صغير (بالكابا) . وبعد الحصاد فقط اصبح البيع بالمد (المد المزدوج = ٨ كابا) . غير ان سعر القمح كانغاليا جدا ، بالمقارنة معالسعر الطبيعي . فكل ٥مد من القمح بيعت بدينار ،بينمافيالاحوال الطبيعية بيعت كل ٣٠ مد من القمح بدينار واحد .

في السنة التالية ٥٠١ ـ ٥٠٢ كان محصول العنب وافرا . وكان العنب والخمر يمثلان عنصرا ضروريا في التغذية بالنسبة لكافة فئات الشعب ، كما يمتلكان اهمية كبيرة في الانتاج الزراعي . في تلك السنة بيع انتاج الخمر من المكبس مباشرة « ٢٥ مكيال بدينار واحد » . كانتكرومالعنب تطعم الفقراء بفضل وفرة العنب المجفف (الزبيب) . وكان الزبيب في تلك السنة اكثر من العنب الطازج الصالح للمكبس ، لان ريحا جافة هبت في فترة النضوج فجففت كمية كبيرة من العناقيد(٨٨). ٢٥ مكيال من الخمر بيعت بدينار واحد ، وهذا السعر ارخص بكثير مما كان عليه في السنة الماضية، حيث كانت كل ٦ مكاييل تباع بدينار واحد . لكن اسعار الحبوب في تلك السنة (٥٠٢) استمرت بالصعود ، فبيعت كل ٤ مد من القمح بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير بدينار . ويقول يشوع العمودي : « ان العنب المجفف (الزبيب) وحده هو الذي اطعم الفقراء وابعد عنهم خطر الموت جوعا » . لم تتحقق الامال المعلقة على محصول تلك السنة ، لان ريحا جافة هبت ثلاثة ايام في شهر ايار من سنة ٥٠٢ ، فسببت هلاك الكثير من المساحات المزروعة بالحبوب .

وأورد يشوع العمودي موضوعا يثير الاهتمام ، دون أن يدرك هو المعنى الحقيقي لهذا الموضوع . ففي سنة ٥٠١ـ٥٠٢ أمر الامبراطور انستاسيوس بالغاء الاحتفالات بالعيد الوثني في أيار ، هذا العيد الذي كان الكثيرون من الناس يتجمعون في مدينة الرها للاحتفال به عدة أيام . وقدعبر يشوع العمودي (الكاهن المسيحي) عن استيائه من الاحتفال بالعيد الوثني ، لكنه تمكن من اعطائه وصفا دقيقا حيا(٨٩) . فهو يعتقد ان البواعث الشريفة التي دفعت الامبراطور على الغاء الاحتفال بالعيد والرقص ومظاهر الخلاعة ، قد كوفئت بهبوط اسعار القمح . فبعد ثلاثين يوما صارت كل ١٢ مد من القمح تباع بدينار واحد ، وكل٢٢مد من الشعير تباع بدينار واحد ايضا . ومن المحتمل ان يكون هذا الهبوط المؤقت في اسعار القمح مرتبطا بالغاء العيد الوثني ، الذي كان الكثيرون من الناس يلتقون خلاله في المدينة ، فتنشط التجارة فيها وتتوارد اليها الاموال . وبما ان الآمال قد تلاشت بخصوص مبيعات الاعياد الوثنية في المدن ، فان

تجار الحبوب وملاكي الاراضي قد وجدوا انفسهم مضطرين لتخفيض اسعار القمح والشعير ، وربما فضلوا بيعه عن البيادر ، بغية توفير اجور النقل والتخزين في المدن، التي تضاف عادة على سعر الحبوب . ومن المحتمل ايضا ان يكون انخفاض سعر العنب والنبيذ ، نتيجة الموسم الجيد ، قد اثر في انخفاض سعر الحبوب .

وفي سنة ٥٠٤ ــ ٥٠٥ يتحدث يشوع العمودي للمرة الاخيرة عن أسعار الحبوب فيقول : « قبل هذه السنة كانت كل ٤ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ٦ مد من الشعير تباع بدينار ،وكل ميكيالين من الخمر بدينار . اما بعد الموسم الجديد فصارت كل٦ مد من القمح تباع بدينار ، وكل ١٠ مد من الشعير تباع بدينار» . وهكذا فيسنة ٥٠٤ ــ ٥٠٥ اصبح بالدينار الواحد يمكن شراء ١/٥ كمية القمح التي كانت تشتري بالدينار في سنة ٤٩٤ ــ ٤٩٥ ، حينما كانت الاسعار طبيعية . وهذا يعني ان اسعار الحبوب قد ارتفعت خمسة اضعاف عما كانت عليه في الاحوال العادية . وسبب هذا الغلاء الفاحش الذي استمر من سنة ٥٠٠ حتى ٥٠٥ هو القحط المتكرر الذي اصاب منطقة ما بين النهرين السورية . اضف الى ذلك ، فان الخلل الذي اصاب الاقنية بسبب الاهمال قد اضر بنظام الري في كثير من القرى . وساهمت في المجاعة وارتفاع الاسعار ايضا بعض الكوارث الطبيعية الاخرى ، ومنها هجمات الجراد العديدة ، والرياح الصحراوية المحرقة التي سببت اليبس للثمار والحبوب وافضت الى الجدب والقحط . لكن ارتفاع الاسعار ارتبط بالدرجة الاولى بسيطرة كبار التجار والملاكين على السوق المحلية لتجارة الحبوب . فالاسعار التي يذكرها يشوع العمودي عالية لدرجة انها يجب ان تعود الى بيع الحبوب من قبل التجار . من المحتمل أن الخبز الجاهز الذي كانت تصنعه مخابز المدينة تحت اشراف الحاكم البيزنطي كان يباع حسب الاسعار الحكومية المحددة ، ولكن حتى هذه الاسعار كانت ثقيلة بالنسبة للفقراء . هذا ولم يذكر يشوع العمودي شيئا ذا قيمة عن الاسعار الحكومية الموضوعة على الحبوب والخبز .

وهكذا يقدم تحليل اسفار يشوع العمودي السريانية جملة من الحقائق التي تكشف نظام الادارة البيزنطية في سورية ، ومشكلات العلاقات الزراعية ، ونشاط التعاونيات الحرفية في المدن ، والعلاقات التجارية الواسعة ، واخيرا تأزم الصراع الطبقي في ظروف الجوع والحرب وابتزاز الضرائب الفاحش . كل هذه المعلومات الحية الساطعة تشهد على وجود ثلاث مؤسسات في الدولة البيزنطية وهي :.

١ ــ المؤسسة المالية ، او المؤسسة المختصة بنهب شعبها .

٢ ـ المؤسسة العسكرية ، أو المؤسسة المختصة بنهب الشعوب المجاورة .

٣ ـ مؤسسة الاشغال والخدمات العامة .

وكانت المؤسسة المالية اكثر هذه المؤسسات عملا ، فبفضلها تحولت الدولة البيزنطية الى آلة عملاقة تمتص خيرات رعاياها . اما النتائج فكانت الظلم والفقر والجوع والموت واحتدام الصراع الطبقي . هذه الامور تحدثت عنها الاسفار التاريخية السورية (السريانية) بكل بساطة ووضوح .



(١) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٥٤، ص٤٠ .

(٢) Payne, Smith, **Thesaurus Syriacus,** t. II, cc. 3147-3151.

(٣) **Ibidem,** t. I, C. 190 .

(٤) **Syrisch, romisches Rechtsbuch aus dem funften Jahrhundert,** Ed. Bruns und Sachau, Leipzig , 1880, Cod. L, P. 36.

(٥) **Ibidem,** Cod. L, § 50, p. 15.

(٦) **Ibidem,** Cod. P, § 28, P. 48.

(٧) **Ibidem,** Cod. L, §§ 49, 50, P. 15; Cod. p. § 28, p. 48.

(٨) **Codex Justinianus,** ed. Kruger, XI, 48, 23, P. 442.

(٩) **Ibidem,** XI, 48, 21, P. 422.

(١٠) Zacharias Mytilenensis, I. 7, cap. 6, P. 36.

(١١) **Syrisches Rechtbuch,** ed. Bruns und Sachau, Cod. L,§95, p.24.

(١٢) Zacharias Myitilenensis, I, 7, caq. 4, t. II, P. 28-30.

(١٣) **Codex Justinianus,** VI, 43. 3.

(١٤) **Syrisches Rechtbueh,** op. cit., § 73, P. 19.

(١٥) J. B. Bury, **History of the Later Roman Empire,** New york, Volume I, PP. 45-63 . (1923) .

(١٦) راجع دانيل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت ١٩٦٠، ص ٩٣-١١٤.

(١٧) Ulpian, **Digest,** L, 15. 3.

(١٨) Lot,**L'Impot foncier et la Capitation personnelle,**Paris 1928,PP.25-40.

(١٩) راجع دانيل دينيت ، الجزية والاسلام ، تعريب فوزي جاد الله ، بيروت ١٩٦٠ ،ص ٩٣-١١٤.

(٢٠) **Syrisches Rechtsbuch,** ed. Bruns und Sachau, L I, 121, PP. 333-334.
Syrische Rechtsbucher, ed. Sachau, B.I. 1907, R II, 151, pp.132-137.

(٢١) Mommsen,**Syrisches Provincialmass und romischer Reichs Kataster-Hermes,** B III, PP. 429-438.

انظر ايضا ف.ي.اوسبنسكي « قياسات الاراضي البيزنطية » ، في ابحاث المؤتمر السادس لعلم الآثار في اوديسا سنة ١٨٨٤ ، اوديسا ١٨٨٨، ص ٢٩٦ (بالروسية) .

(٢٢) Panly - Wissowa, **Real encyclopaedie,** IX, 2, cc. 2507-2508.

(٢٣) ف.ي.اوسبنسكي ، تاريخ بيزنطة ، بطرس بورغ ١٩١٣ ، الجزء الاول ، ص٥٩١ (بالروسية).

(٢٤) Hirschfeld, **Annonae, Philologus,** B. 29, H. I, 1870

(٢٥) **Novellae,** 128, cap. 3, p. 637.

(٢٦) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥ ، وفقرة ٨١ ، ص٧٧.

(٢٧) **Codex Theodosianus,** ed. Haenel, XI. 2, 4, 5, cc. 1058-1059.

(٢٨) Op cit., XII, 6, 15, 18, cc. 1284 - 1285.
(٢٩) **Codex Justinianus**, X, 16, 13, P. 441.
(٣٠) Op. cit., XI, 48, 4, P. 440 .
(٣١) Op. cit., XI, 48, 20, 2, P. 441.
(٣٢-أ) Syrisches Rechtsbuch, op. cit, 116, p. 32.

(٣٢-ب) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥.

(٣٣) يشوع العمودي ، فقرة ٩٣ ، ص٨٥.

(٣٤) **Codex Justinianus**, XI, 48, 20, 3, P. 441.
(٣٥) Joannes Lydus, **De magistratibus**, I. III, cap. 49, ed Wunsch, Leipzig, **1903, P. 138 - Bury, op. cit., t. I, London, 1923, P. 442.**
(٣٦) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap.9.
(٣٧) Joannes Lydus, **De magistratibus**, I.III, cap. 49.
(٣٨) Evagrius . **Historia ecclesiastica**, I. III. cap. 42. Ed. Bidez et Parmentier. London, 1898, P. 144.
(٣٩) Prisciani . **De laudo Anastasii imperat, 193 - 195 , Poetae Latinae minores**, Baehrens, Lipsiae, 1883, t.5. P. 271.

(٤٠) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٢٥ .

(٤١) Rostowzeff. **Studien Zur Geschichte des romischen Kolonates**, 1910, P. 196.

(٤٢) بانتشنكو . حول تاريخ بروكوبيوس السري(بالروسية) ، بطرس بورغ ١٨٩٨ ،ص١٤٢ ومايليها .

(٤٣) Novellae, 168. P. 755.
(٤٤) **Codex Justinianus**, XI, 25, 2, P.435.
(٤٥) Wright, **The chronicle of Joshua the Stylite**, trans., P. 20.
(٤٦) Zacharias Myti lenensis, 1. 7, cap. 6,P. 37.- Payne- Smith, **The saurus Syriacus**, t. I, C. 1236.

(٤٧) يشوع العمودي ، طبعة رايت الانكليزية ، فقرة ٨١ ، ص ٧٧.

(٤٨) Zacharis Mytilenensis, I, 7, caq. 3, t. II, p. 24.

(٤٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٤ ، ص ٤٠ .

(٥٠) فاسيليفسكي . مصادر لدراسة الدولة البيزنطية ، مجلة وزارة الثقافة الشعبية ، العدد ٢٠٢ ، نيسان ١٨٧٩ (بالروسية).

(٥١) بانتشنكو ، ص ١٢٨.

(٥٢) روداكوف . دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١١٧ (بالروسية) .

(٥٣) **Codex Justinianus**, X, 27, 2, 3, PP. 404-408.
(٥٤) OP. cit., X, 27, 2, P. 407, c. 2.
(٥٥) Op. cit., X, 27, I, P. 407.
(٥٦) OP. cit., X, 27, 2.

(٥٧) رودالكوف . دراسات في الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٢ .

(٥٨) Dolger, **Finanzverwaltung**, P. 58.
(٥٩) **Codex Justinianus**, X, 27, I, P. 407.

(٦٠) يشوع العمودي ، فقرة ٨٢ ، ص٧٧.

(٦١) Zacharias Mytilenensis, I, 7, cap. 5. pp. 32-33.
(٦٢) **Codex Theodosianus**, XIII, I, 68, 12, 13 — **Codex Justinianus**, XI,48,1.
(٦٣) **Codex Justinianus**, X, 27, 3, P. 408.
(٦٤) OP. cit., X, 27, 3, P. 408.

(٦٥) يشوع العمودي ، فقرة ٣٩ ، ص ٣٥ .
(٦٦) يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٥–٣٦ .

(٦٧) Stokle, **Spatromische und Bysantinische Zunfte**, P. 101.

(٦٨) يشوع العمودي ، فقرة ٤٠ ، ص ٣٦ .
(٦٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧ .
(٧٠) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧.
(٧١) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧.
(٧٢) يشوع العمودي ، فقرة ٤٢ ، ص ٣٧ – ٣٨ .
(٧٣) يشوع العمودي ، فقرة ٤٣–٤٤ ، ص ٣٨–٤٠ .
(٧٤) يشوع العمودي ، فقرة ٨٤ ، ص٧٩ .

(٧٥) Mickwitz , **Goldwertindex der romisch - byzantinischen Zeit**, Aegyptus, t. XIII, 1933, P. 103.
(٧٦) Soutzo, « Le Systeme monetair d' Anastase » . **Bulletin historique de L'Academie roumaine**, t. 13, 1927, P. 54.
(٧٧) Seeck. « Munzenpolitik Diokletians », **Zeitschrift fur Numismatik**, 1890, B. 16, P. 166.
(٧٨) Babelon, **Traite des monnaies grecques et romaines** 1901, t. I, PP. 616 - 617 .
(٧٩) Babelon, ibidem, C. 1042 .

(٨٠) Payne - Smith, **Thesaurus Syriacus**, t. II, c. 3741.

(٨١) Dolger. **Finanzverwaltung**, P. 123.

(٨٢) Ostrogorsky, « Lohne und Preise », **Bysantinische Zeitschrift**, 1932, B. 32. H. II. pp. 319 - 320.

(٨٣) يشوع العمودي ، فقرة ٢٦ ، ص ٢١.

(٨٤) يشوع العمودي ، فقرة ٣٦ ، ص ٢١ .

(٨٥) يشوع العمودي ، فقرة ٣٨ ، ص ٣٢.

(٨٦) Hultsch . **Metrologie**, P. 451 .

(٨٧) يشوع العمودي ، فقرة ٤٣ ، ص ٣٩.

(٨٨) يشوع العمودي ، فقرة٤٥ ، ص ٤٠.

(٨٩) يشوع العمودي ، فقرة ٤٦ ، ص ٤٢.

مملكة يمحاض (حلب)

د. شوقي شعث
المتحف الوطني بحلب

في نهاية الالف الثالثة وبداية الالف الثانية قبل الميلاد ظهرت على المسرح السياسي في سورية الشمالية قبائل عربية (جزرية)(١) عرفها التاريخ باسم الآموريين(٢) ، او العموريين ، واخذت تتسلل الى المدن في بلاد ما بين النهرين وفي سورية تسللا بطيئا للعمل بصفة عمال او مرتزقة في الجيوش ، ومع الزمن تمكن هؤلاء من الوصول الى المراتب العالية في الدولة والجيش . وعندما غابت دولة سلالة أور الثالثة حوالي عام ٢١٠٠ق.م(٣) ، تلك القوة السياسية القوية التي كانت تسيطر على الاحداث في بلاد ما بين النهرين وسورية ، تمكن الآموريون من البروز الى الصدارة وتكوين كيانات سياسية خاصة بهم في بلاد ما بين النهرين وسورية ، وما ان حل الالف الثاني قبل الميلاد حتى اصبحت سورية أمورية في سكانها ولغتها وكياناتها السياسية(٤) . من اهم تلك الممالك في سورية الشمالية كانت يمحاض وعاصمتها حلبا (حلب اليوم) وماري (تل حريري) وقطنة (المشرفة) وابلا (تل مرديخ) والالاخ (تل عطشانة) وغيرها .

عرفنا الكثير عن تلك الدويلات وعن الحالة السياسية في تلك الفترة في سورية الشمالية من خلال الرقم المسمارية واللقى الاثرية التي عثر عليها في ماري ورأس شمرا والالاخ ، واخيرا في ابلا / تل مرديخ . أما عن يمحاض (حلب) فان معلوماتنا عنها لا زالت مقتصرة على ما ورد من معلومات في محفوظات الممالك السورية المعاصرة لها ، التي المحنا الى بعضها سابقا ، لانه لم تجر في مدينة حلب نفسها تنقيبات اثرية منهجية اثرية تمدنا بمزيد من المعلومات . كذلك وردتنا معلومات عن مملكة يمحاض من المصادر

الكتابية الحثية التي اعطتنا معلومات عن علاقة يمحاض بالحثيين . كانت حدود مملكة يمحاض / حلب ، خاصة في عهد ملكها حمورابي ، تمتد غربا الى البحر المتوسط(٥) وشرقا حتى مجرى البليخ الاعلى حيث كانت كركميش تحت تأثيرها(٦) ، ومن الجنوب تتصل بحدود مملكة قطنة(٧) .

ان ظهور مملكة يمحاض وتطورها كان بسبب موقعها الجغرافي الذي أهلها للسيطرة على الطريق التجاري الكبير (الممر السوري العظيم) الذي يربط بلاد ما بين النهرين بسورية والاناضول وبلاد اليونان والساحل السوري ومصر(٨) ، هذا الممر الذي كانت تستورد بلاد ما بين النهرين عن طريقه النبيذ اليمحاضي والالبسة اليمحاضية والاخشاب من جبال ابلا وجبال جبيل (لبنان) ، والفضة من جبال الامانوس ، وغيرها من المواد الخام . وكذلك كانت تستورد النحاس من الاسيا(قبرص) عن طريق رأس شمرا (أوغاريت) وابلا(٩) اللتين كانتا تابعتين(١٠) لمملكة يمحاض . كما ان موقعها الجغرافي ذلك كان في وسط سهل زراعي خصيب كان ولا يزال ينتج العنب الذي تصنع منه الخمور (النبيذ) والزيتون الذي يستخرج منه الزيت ، والكتان الذي كانت تصنع منه الالبسة اليمحاضية .

مما تقدم نلاحظ ان يمحاض وعاصمتها حلبا كانت مركزا تجاريا كبيرا ومركزا زراعيا لانتاج المحصولات الزراعية ، ومركزا صناعيا يصنع فيه النبيذ والنسيج .

الاسرة الامورية في يمحاض : لا نعرف بالتحديد متى تأسست هذه السلالة في حلب ، ومازال تاريخ بدايتها غامضا نظرا لعدم توفر الادلة الاثرية والشواهد التاريخية، لكن الرقم الطينية التي اكتشفت في الالاخ (تل عطشانة) والتي نشرها وايزمن ، خاصة تلك التي عثر عليها في الطبقة السابعة ، امدتنا ببعض اسماء ملوك الاسرة اليمحاضية ، وقد امكن على ضوء ذلك بناء شجرة سلالية اعتبارا من ياريليم الاول وبعده ابنه حمورابي الذي كان معاصرا لحمورابي البابلي (١٧٩٢ — ١٧٥٠) . وبناء عليه يمكن الافتراض ان السلالة اليمحاضية في حلب تأسست في القرن التاسع عشر قبل الميلاد(١٢)، واستمرت في الحكم حتى دمرت الالاخ على يد الحثيين في عهد الملك اليمحاضي ياريليم الثالث Iarim lim III والى هنا تتوقف الحوادث الواردة في المحفوظات الكتابية في الالاخ والعائدة للطبقة السابعة .

يمحاض والحثيون : تستمد معلوماتنا عن علاقة يمحاض (حلب) بالحثيين من الوثيقة التاريخية الهامة المكتوبة باللغة الاكادية والمعروفة بوثيقة تلبينوس Text of Telepinus (١٣) من القرن الخامس عشر قبل الميلاد(١٤) . وعلى الرغم من

انها تعود الى عهد احدث من تاريخ العلاقات الحثية ـ اليمحاضية ، الا انها تتعرض للاحداث الماضية بشيء من التفصيل . وسبب ذلك ان الوثائق السابقة لهذه الوثيقة فقدت فاعيد كتابة مضمونها ، او ان الملك الحثي اراد ان يوحد تاريخ العلاقات بين بلده ويمحاض في نص واحد .

تبدأ الوثيقة بالقول « هكذا يتكلم تبارنا تيلبينو الملك العظيم(١٥) ، سابقا كان لابارنا Labarna الملك العظيم ، واولاده واخوته وأقرباؤه ومن تربطه بهم علاقة الدم ورجاله المحاربين يتجمعون حوله . .

وعندما حكم مورشيل الاول Mursili I في حاتوشا واولاده واخوته واقرباؤه ومن تربطه بهم صلة الدم ورجاله المحاربين حوله لقد سار الى حلبا Halpa (حلب) ، ودمر حلبا ، وجلب الاسرى من حلبا وامتعتهم الى حاتوشا بعد ذلك سار الى بابل ودمرها »(١٦) .

وفيما بعد اعيد تنظيم العلاقات الحثية اليمحاضية بموجب معاهدة عرفت باسم معاهدة حلب(١٧) وقد عقدت تلك المعاهدة بين الملك الحثي مورشيل الثاني(١٨) ، وبين حفيده ريم شارما Rim Sharma ملك حلب وذلك عام ١٣٣٦ ق.م (١٩) ومن خلال تلك المعاهدة يمكن التعرف على طبيعة العلاقات الطيبة المقترنة بالمصاهرة .

لا تتوسع المصادر كثيرا حول اصطدام يمحاض بالحثيين اذ لم نقف على معلومات مؤكدة تشير الى ان الملك الحثي حتوشيل الاول(٢٠) تمكن من حلب واخضعها لتصبح مملكة تابعة له ، وعليه فانه من المشكوك فيه ان تكون حلب قد خضعت للغازي القادم من الشمال ، ومن المرجح ان يكون قد فشل وعاد الى عاصمته بعد ان هزمته عساكر حلب واوقعت به جراحا في تلك الغارة التي مات بسببها ، وهذا ما دفع خليفته مورشيل الاول ان ياخذ على عاتقه القصاص من يمحاض(٢١) ، فتمكن من احتلالها وتدميرها بعد حروب طويلة وتحالفات كثيرة . كانت حلب قوية جدا لايمكن ان تسقط بغارة واحدة(٢٢)، ومن اجل كسب الوقت والمخادعة قرر الحثيون التوسع جنوب طوروس للتحكم في التجارة الدولية والاستفادة من خيرات السهول الجنوبية ، فبدؤوا زمن حاتوشيل كما يبدو بعقد معاهدة صداقة مع حلب (٢٣) ، فلما فشلوا في الوصول الى هدفهم تحول حاتوشيل الى سياسة القضم الذي طبقها على مملكة يمحاض فتوجه الى الالا خ(تل عطشانة) احدى الممالك الهامة التي كانت تابعة لحلب ويحكمها احد فروع الاسرة اليمحاضية بحلب ، واخذها(٢٤) ، فسلب بذلك يمحاض ميناءها الرئيسي ومنفذها الى البحر المتوسط ، وبعد ذلك توجه الى مدينة اورشو ، المدينة الحليفة

لملكة يمحاض(٢٥)، كما تشير المصادر، على حد قول ماكوين ،الى ان الحثيين تحالفوا مع مملكة حانا (خانا) ـ القوة الجديدة في المنطقة التي ظهرت بعد سقوط مملكة ماري (تل حريري) ـ من اجل احاطة مدينة حلب وقطع تجارتها الدولية ، وبالتالي ضرب رخائها . ويبدو أنهم وجدوا مبتغاهم ، سيما وان حكام تلك المملكة لم يكونوا ، كحكام بابل وحلب ، من الاموريين(٢٦) .

وعلى الرغم من اننا لانعلم بالضبط متى حدثت تلك الاحداث التي اشرنا اليها اعلاه الا انه يمكن ان يكون مورشيل الملك الحثي قد تمكن من تدمير حلب حوالي عام ١٥٩٥ ق.م.(٢٧) وهكذا تحقق الحلم الحثي بالسيطرة على طريق التجارة الدولية حتى الفرات الاوسط ، ولما لم يكفه ذلك استغل صداقته مع ملك خانا وقام بحملة خاطفة على بابل فدخلها ونهبها(٢٨) ، وبذلك اصبح الطريق الدولي التجاري حتى بلاد بابل تحت سيطرته ، ولكن الملك الحثي لم يستطيع الاحتفاظ بالنصر الذي احرزه في بابل ، فقد اجبرته الهجمات الحورية على حدود بلاده ودسائس قصره والطامعين بالملك من اسرته ، على العودة سريعا الى حاتوشا(٢٩) .

بعد موت مورشيل الاول مقتولا على يد صهره حانتيل الاول Hantilis I اخذت المملكة الحثية في الضعف والتقوقع تدريجيا تاركة حلب وسورية الشمالية للحوريين . ولكن بعد اعتلاء تلبينوس العرش الحثي حوالي عام ١٥٠٠ق.م تمكن من اعادة العافية لمملكته واصبح قادرا على التقدم مرة اخرى نحو سورية الشمالية وعقد معاهدة مع حاكم Kizzuwadna التي كانت موالية للحوريين، وبوصول تلبينوس آنف الذكر الى العرش الحثي انتهت الفترة المعروفة بفترة المملكة الحثية القديمة ، فتابع هو وخلفاؤه سياسة اسلافه ملوك المملكة القديمة فيما يتعلق بسورية الشمالية ابان الدور الامبراطوري (١٤٥٠ ـ ١٢٠٠ ق.م)(٣٠) .

حلب والقوى المتنافسة على المسرح السياسي :

خضعت حلب بعد احتلال مورشيل الاول الحثي لها غير مختارة واخذت تتحين الفرص للثورة على اسيادها الجدد لانها كانت تحن الى لعب دور يماثل دورها في العصر اليمحاضي ، وقد ساعدها في بعض الاحيان على تلك الثورات بروز قوى سياسية اخرى كبيرة وهي القوة الميتانية والقوة المصرية ، الا انها بقيت بصورة عامة دولة تابعة تناوبت عليها القوى العظمى في ذلك الزمان طمعا في خيراتها التي كانت تجنيها من سيطرتها على طرق التجارة الدولية .

من الاحداث الهامة التي سجلت في هذه المرحلة قيام الملك الحثي توضاليا Tudhaliya بمهاجمة مدينة حلب وتخريبها . ويعتقد انها المرة الاولى التي يقوم فيها

ملك حثي بقيادة جيشه الى جنوب طوروس منذ ايام مورشيل الاول(٢١) ، ويظهر أن سبب تلك الغارة انتفاضة حلب على محتليها وطردهم مما رتبعلى الملك الحثي اخضاعها مرة ثانية(٢٢) . ولكن فيما بعد وفي أواخر حكم توضاليا هذا ربما ضعفت الدولة الحثية مما اطمع كثيرا من القوى بمهاجمتها والاستفادة من ضعفها ، فقد أقدم الميتانيون على السيطرة على سورية الشمالية وسموها Hanigalbat في حين عرفها المصريون باسم نهارينا ، كما اقدم بعض الامراء الموالين للميتانيين على مهاجمة حدود الدولة الحثية دون ان ينالوا عقابهم(٢٣) . وفي هذه الفترة ايضا وحوالي عام ١٤٧١ ق.م برزت قوة ثالثة على المسرح السياسي في سورية الشمالية الا وهي القوة المصرية حيث قام تحوتمس الثالث بالتقدم بمحاذاة الساحل الشرقي للبحر المتوسط ومنه الى سورية الشمالية واخذ حلب مجهزا بذلك على النفوذ الميتاني في المنطقة(٢٤) ، وبقي المصريون سادة الموقف لمدة تقارب ثلاثين عاما بعد ان اجبروا الحثيين على دفع الجزية لهم(٢٥) .

لم تكن هذه التطورات بالطبع ترضي الحثيين ولا الميتانيين ، واخذ كل ينتظر الفرصة السانحة . ويبدو انها جاءت في ثورة حلب ضد المصريين بعد موت تحوتمس الثالث (١٤٥٠ ق.م) . ولكن هذه الثورة الحلبية ، مع أنها خلصت حلب من النير المصري ، الا انها انتقلت الى تحالف جديد مع الميتانيين القوة الرئيسية الثالثة بالمنطقة(٢٦) واعطت الحثيين في الوقت نفسه الفرصة للململة انفسهم من جديد وتجديد تحالفاتهم مع كيزووادنا . كان ذلك في اول عهد توضاليا ، وفي خلال عام او عامين من بداية حكمه كان قادرا على الحاق الهزيمة بحلب وتدميرها عقابا لها على تحولها الى الميتانيين(٢٧) ، وبذلك اصبح الطريق التجاري الدولي ثانية في قبضة الحثيين(٢٨) .

تابع الحثيون زحفهم نحو الجنوب مستفيدين من انتصاراتهم على حلب وميتاني وتحالفهم مع القوى السياسية المحلية الصغيرة ، ولما كان هذا الزحف قد هدد الممتلكات المصرية وأقلق الميتانيين ، اذ اخذ الحثيون يتوسعون على حسابهم وحساب المصريين(٢٩) ، سارع الميتانيون للاتصال بالمصريين فارسلوا بعثة سلام الى امينوفس (امنحوتب) الثاني تمكنت من ابرام معاهدة سلام معه وعقد مصاهرة بين البيتين الحاكمين في مصر وميتاني ، وعادت المنافسات بين القوى السياسية من جديد على امتلاك حلب وسورية الشمالية .

اعقب حكم توضاليا فترة مدمرة ثانية فقد فيها الحثيون شمال سورية من جديد كما فقدوا حليفتهم كيزو وادنا بسرعة ، واطبق عليهم الاعداء من كل جانب ، فمن الشمال هاجمهم شعب Gasgäz ومن الشمال الشرقي Azzi-Hayasa ومن الشرق Isuwa ، وآخرون كثيرون هاجموا حاتوشا وتمكنوا من احراقها حرقا تاما(٤٠) . ومما

زاد في ضعف بلاد خاطي تلك الهجمات التي قام بهاAr zawaالذي كان راغبا فيما يبدو في السيطرة على طريق التجارة الدولي وبالتالي أن يصبح شخصية دولية. ولكن الحال لم يطل اذ تمكن في عام ١٣٨٠ق.م امير شاب من الوصول الى العرش الحثي اسمه شوبيلوليوما . وقد نجح الملك الحثي الجديد في ان يهزم اعداء بلاده فيالشمال والشمال الشرقي والشمال الغربي ، كما تمكن بعد حملة فاشلة من ان يقوم بحملة ناجحة ضد ميتاني وينتزع منها حلب والالاخ حوالي عام ١٣٧٠ ق.م ويعيدها الى الحظيرة الحثية، حاسما بذلك الموقف في سورية الشمالية لمصلحة بلاده(٤١) ، ولكن شوبيلوليوما عاد الى عاصمة بلاده على عجل بسبباحداث حدثت هناك(٤٢) وترك أمر سورية الشمالية الى ولده تليبنوس الذي عرف بالقديس والذي اتخذ من حلب مركزا له يدير فيها شؤون سورية الشمالية (٤٣) . ومن الواضح أن الذي ساعد على احراز الحثيين لهذه الانتصارات غياب القوة المصرية حليفة الميتانيين وذلك بسبب الاحداث التي جرت في مصر، ومنأهمها ادخال الديانة الآتونيةالتوحيدية على يد أمينوفس (امنحوتب) الرابع (اخناتون) وما ترتب على ذلك من زعزعة السلطة المصرية وضعفها ، وهذا ما ساعد الحثيين على الانفراد بالميتانيين حلفاء المصريين وتحويلهم الى دولة ضعيفة او تابعة . ومن اجل ضمان استمرار الوضع زوج شوبيلوليوما ابنته الى ابن الملكالميتانيشادستارا الكبير(٤٤) . خلف شوبيلوليوما الفاتح الكبير شخص ضعيف مريض يدعى أرنووآندا لم يستطع ادارة البلاد ومن حسن الحظ انمات مبكرا وخلفهاخوه الاصغر مورشيل الثاني الذي ظل في الحكم ثلاثين عاما قام خلالها باستعادة قوة الدولة الحثية التي كانت لها أيام والده شوبيلوليوما . ومن اجل تحقيق ذلك الهدف قاتل مورشيل الثاني شرقا وغربا(٤٥) ، لكن الامر المعقد بالنسبة اليه كان الاصطدام مع المصريين الذين استعادوا قوتهم بعد استتباب الاوضاع الداخلية لديهم فأرادوا زمن سيتي الاول التوسع شمالا في بلاد الشام ، وظل هذا الصراع قائما حتى تم وضع حل نهائي له في بوتقة قادش التي كان من نتيجتها توقيع معاهدة عرفت بنفس الاسم(٤٦) .

١ ـ يمحاض والالاخ :

اصبحت الالاخ (تل عطشانة) تابعة ليمحاض ابان حكم ملك يمحاض ابان نحو عام ١٧٢٠ ق.م حتى ما لايتجاوز عام ١٦٥٠ ق.م اي انها ظلت خلالسبعين عاما تقريبا تابعة ليمحاض(٤٧) حتى تدميرها من قبل الحثيين وهي الفترة التي تقابل الطبقة السابعة في الموقع طبقا لرأي وولي الذي قام بالتنقيب في تل الالاخ(٤٨) ، لقد امدتنا المحفوظات التي اكتشفت في الالاخ بالكثير من المعلومات حول علاقة المدينتين علىالرغم من أن المحفوظات التي اكتشفت في الطبقة السابعة لم تكن تغطي كل الفترة التي كانت فيها الالاخ تابعة لحلب ، وربما تعود الى الجزء الاخير من الفترة المشار اليها .أما

المحفوظات التي تعود الى الفترة المبكرة من العلاقة فقد حفظت في مكان اخر ، عموما فانه نظرا لحجم المحفوظات المكتشفة في السوية السابعة فان معظم اللوحات المكتشفة تغطي الفترة الاخيرة من حكم ياريم ـ ليم الثاني اليمحاضي الذي كان ابن ابان وخليفته في حكم حلب ، والحكام اللاحقين(٤٩) : اما اللوحات التي تعود لفترة مبكرة فقد حفظت في قصرياريم ليم،الاخ الاصغر لابان،الذي بناه فيالالاخ بعـدان عين حاكمامن قبل اخيه.

قام ابان بمنح مدينة الالاخ لاخيه ياريم ليم تعويضا له عن المناطق الواقعة الى الشرق من حلب والتي حدثت فيها القلاقل والاضطرابات ضد يمحاض(٥٠) ، وقد أخذ ابان من اخيه ياريم ـ ليم المواثيق والعهود على ان يظل مخلصاله(٥١) . ومثل هذا المنح كان مالوفا في الشرق القديم فكثيرا ما كان الملوك يعينون اخوتهم أو أبناءهم ليصبحوا حكاما على المدن التابعة ، وهو بالطبع يقلل من المؤامرات على الحكم ويكسبه الاستقرار(٥٢) . وعليه اصبح ياريم ـ ليم يحكم من مدينة الالاخ منطقة العمق كلها ، كنائب لاخيه . وبعد موت ابان تولى حكم يمحاض ولده ياريم ـ ليم الثاني.

ويبدو ان يمحاض بلغت فيعهد ياريمليم الثاني(٥٣) هذا ذروة قوتها حيث اصبحت اقوى ممالك عصرها حسبما ورد في رسائل سفراء ملك ماري زمري ليمالبه ، وهذا ما اكدته الشواهد الاثرية ايضا فقد كان الامن في عهده الطويل نسبيا مستتبا(٥٤) .

وتشير بعض محفوظات القصر الملكي في الالاخ الى ان المدينة اصبحت مقرا للملك اي مقرا للاسرة الملكية في يمحاض ، ومما يؤيد هذه الاشارة هو العثور علىالقصروالمعبد والتحصينات القوية التي اظهرتها التنقيبات الاثرية هناك . ويبدو أن ملك يمحاض، الذي كانت اقامته في حلب تجعله في مواجهة أعدائه وحلفائه غير المخلصين في بلاد ما بين النهرين وتعرضه للسقوط بضربة مفاجئة من أعدائه ، فضل الاقامة في الالاخ، فقام بتوسيع القصر واقامة التحصينات التي تفرضها اقامته الملكية(٥٥) . وعلى الرغم من ان اقامة ملوك يمحاض فيالالاخ طورتالمدينةوزادت فيعمرانها وتطورها الاقتصادي والاجتماعي ، الا ان سكان الالاخ ظلوا ينظرون اليهم كاجانب(٥٦) ، لذلك نجدهم فيبعض الاحيان يثورون على حكامهم من الاسرة اليمحاضية . وقد ثاروا مرة حرق فيها القصر والمعبد والقلعة وبوابة المدينة وبناء ضخم يقع تحت قصر نقميبا(٥٧) . ويتساءل وولي فيما اذا ذلك التدميرمن قبل أهالي الالاخ اومن قبل عسكر حلب والمقاطعات الشرقية التي من الممكن ان تكون قد استقدمت للمساعدة على اخماد الثورة. وعلى اي حال فمن الطبيعي أن نتصورهجمات مضادة وعمليات كر وفر في مثل هذه الاحوال وليس هناك ما ينفي أن الالاخ ربما حاولت بمساعدات خاصة استعادت استقلالها ، وربما كان ذلك الضعف الذي نشأ عن تلك المحاولات سببا في نهاية اسرة ياريم ـ ليم في الالاخ(٥٨).

وخلاصة القول ان الالاخ كانت مملكة تابعة لمملكة يمحاض الكبيرة يحكمها فرع من فروع الاسرة الامورية الحاكمة في حلبا ، وكانت (آلالاخ) المنفذ الرئيسي لحلبا الى البحر المتوسط . ويمكن ان تكون من المدن المحببة الى قلوب ملوك حلب ولذلك اختاروها كي تكون مقرا ملكيا لهم ومقرا لحفظ وثائقهم ومحفوظاتهم . ومن اهم ما اعطت الالاخ لحلب في العصر الحاضر ، اضافة الى ما اعطته في الماضي ، انها اعطت جزءا من تاريخها التي كانت تحتفظ به في جعبتها . ولعل الايام القادمة تتيح لغيرها من المدن ان تعطي حلب ما اعطته الالاخ لشقيقتها الكبرى .

٢ ــ **يمحاض وابلا** : حتى الان لم تمدنا التقيبات الاثرية في ابلا بأية معلومات حول يمحاض (٥٩) خاصة تلك التنقيبات التي تجري في القصر Q الذي يعود الى العصر البرونزي الوسيط (٢٠٠٠ ــ ١٦٠٠ ق.م) ويذكر سيدني سميث انه عثر في احد الوثائق ان ولي عهد مملكة الالاخ (تل عطشانة) ياريم ــ ليم الثاني الذي اصبح ملكا على يمحاض طلب من ملك ابلا يد ابنته كعروس لابنه(٦٠) .

وقد يكون في هذا اشارة الى ان ابلا في عصر قوة يمحاض كانت تابعة لها(٦١) ، ويضيف الكاتب الملمح اليه ، في معرض حديثه عن تحقيق مدينة اورشو ، ان بلاد اورشو ، التي ذكرت في وثائق ماري ، كانت تابعة لابلا عندما بحث ولي عهد الالاخ ياريم ليم عن زوجة لابنه Ir-kabtum ، كما يضيف انه غالبا ما كانت ابلا عضوا في الاتحاد الكونفدرالي ليمحاض(٦٢) .

يذكر ميشيل استور ان ابلا كانت تستورد النحاس من بلاد قبرص Alasiya عن طريق اوغاريت في نهاية الالف الثالث قبل الميلاد ، ويعتقد انها ظلت كذلك في عهدها الاموري (النصف الاول من الالف الثاني) ولكن هذه المدة لصالح مملكة يمحاض (حلب) ، المملكة الكبيرة التي كانت تسيطر على شمال سورية(٦٣) .

٣ ــ **يمحاض وقطنة** : تقع قطنه (المشرفة اليوم) الى الشمال الشرقي من مدينة حمص ، وكانت تقوم فيها احدى الممالك الامورية الهامة في مطلع الالف الثاني قبل الميلاد في الوقت الذي كانت فيه مملكة يمحاض قائمة وتتخذ من حلب عاصمة لها ، وكانت تربطها بيمحاض علاقات من النوع السائد بين ممالك العصر ، فكانت تتأرجح بين العلاقات الطيبة والعلاقات السيئة بسبب المنافسات السياسية او الاقتصادية ، أو بسبب التدخلات الخارجية . بين ما عثر عليه في محفوظات ماري رسائل كثيرة بين زمري ليم وملوك قطنة ويمحاض وبابل وغيرها ، وورد في احدى تلك الرسائل ذكر الملك قطنة امي ــ اول ــ بي ــ ايل A- mie - ul - pi-il ، كما ورد ذكر الملك يمحاض

ياريم ــ ليم(٦٤) وربما جاءهذا في معرض التوسط بين المملكتين الاموريتيين يمحاض وقطنة عندما نشأ الخلاف بينهما وتوسط فيه زمري ليم ملك ماري وحمورابي ملك بابل ، ذلك من اجل ان تكون العلاقة بين ياريم ــليم ملك حلب وأمي ــاول بي ــايل ملك قطنة . ولاجل أن تقوم علاقات طيبة بين الطرفين يشترط ياريم ــ ليم ملك يمحاض حضور ملك قطنة الى حلب ليقدم الاضاحي للرب حدد ويحلف الايمان باسمه(٦٥) . ويعني هذا خضوع ملك قطنة له او على الاقل تقديم اعتذار . وفي رسالة اخرى يذكرها الاستاذ فورزان كنال بجامعة انقرة عثر عليها في ماري ، ان ملك يمحاض ياريم ــليم قد أعلن عن اتفاق مع ملك قطنة ياموت بعل . وربما كان هذا هو السبب الذي دفع شمشي حدد الاول الملك الاشوري ، بعد احتلاله لمدينة ماري في عهد ملكها يهدونليم ، للقيام بحربه في الغرب ، وذلك للانتقام من يمحاض نظرا لطبيعة العلاقات الخاصة بينهما وبين ماري(٦٦) . كذلك نجده لا ياتي على ذكر حلب في رسائله ويتجاهلها تماما بسبب العداء بينه وبينها كما المحنا ، في حين انه حافظ على علاقات طيبة مع قطنة(٦٧) .

بعد انتهاء الاحتلال الاشوري لمملكة ماري عاد زمري ليم الى عرش ابائه في ماري وذلك بعد موت شمشي ــ حدد الاول ، وكانت عودة زمري ليم كما تذكر الوثائق التاريخية بمساعدة عساكر مملكة يمحاض . في هذا الوقت كانت احدى الرسائل التي وجهها أحد سفراء زمري ليم اليه تذكر من بين القوى الرئيسية في المنطقة مملكتي حلب وقطنة(٦٨) .

ويبدو ان العلاقة الحميمة التي اقامها شمشي حدد الملك الاشوري مع اسكي حدد ملك قطنة توجت بزواج ابنة الاخير الى ابن شمشي حدد يشمع حدد نائب الملك في ماري . كان التعاون بين الآشوريين وملوك قطنة في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية واسعا ، فلقد تمركزت قوات أشورية في قطنة . وهذه العلاقات التي اقامها ملوك قطنة مع الاشوريين ازعجت ملوك يمحاض وجعلتهم في خصام مع ملوك قطنة اثناء مدة الاحتلال الاشوري لمدينة ماري ، ولكن عندما تمكن زمري ليم بمساعدة مملكة حلب كما اشرنا من استعادة عرش ابائه وظهرت حلب في مركز المملكة القوية المسيطرة ، كان طبيعيا ان تتحرش بمملكة قطنة ، ولكن توسط زمري ليم ، وتغيير الاسرة الحاكمة في قطنة (او الملك) (٦٩) ، ساعدا على اقامة صلح بين الطرفين فوقعت معاهدة صداقة وحسن جوار بين المملكتين في حلب كما اشرنا(٧٠) . وخلاصة القول ان يمحاض وعاصمتها حلب كانت من اقوى ممالك عصرها في سورية الشمالية وبلاد ما بين النهرين ، وقد ازدهرت وفاقت بازدهارها بابل وماري وابلا وقطنة وغيرها من الممالك السورية في مطلع الالف الثانية قبل الميلاد ولكن ازدهارها اثار حفيظة الاعداء فتآمروا للقضاء عليها . ورغم انها قاومت تلك المؤامرات الا انه اسقطت في النهاية تحت ضربات الدولة الحثية الفتية .

شجرة سلالية للملوك يمحاض

سومو ايبوخ

ياريم ليم الاول

حمورابي الاول

ابان

ياريمليم الثاني

نقميبوخ (نقمي ايبوخ)

اركاب توم (يتزوج ابنة حاكم ابلا) — ياريمليم الثالث — حمورابي الثاني — اما ريكي

(K U B XXX 15)

شجرة سلالية لحكام الالاخ (تل عطشانة)

ياريم ليم

امي تاكوما

حمورابي (AT 6)

زومي ـ ادو (AT 55)



طبعة ختم اسطواني من الطبقة السابعة في الالاخ تل عطشانة
عليها نقش كتابي يقول : نقمي ايبوخ بن ياريليم ليم ملك يمحاض



طبعة ختم اسطواني من الطبقة السابعة في الالاخ تل عطشانة

عليه نقش يقول : ياريم ليم بن ابلن ملك يمحاض



طبعـة ختم اسطواني من الطبقة السابعـة في الالاخ تل عطشانة

عليه نقش كتابي يقول : ابان بن حمورابي ملك يمحاض



هوامش وملاحظـات :

(١) انظر حول مشكلة البدو في سورية الشمالية :

Kupper, J.R., **Les Nomades de Mésopotamie au temps des rois de Mari,** Paris 1957 .

استعملنا كلمة (جزرية) تفاديا لاستعمال المصطلح التوراتي (سامية) ، وبعض الباحثين يفضلون استعمال كلمة (الشامية) ، عموما لم يجر اتفاق حول هذه المصطلحات حتى الان .

(٢) حول الاموريين انظر :
Haldar, Alfred, **Who were the Ammorites,** Leiden 1971.

(٣) Landsberger, « Ammorites » in **Encyclopaedia Britanni ca,** I (1965) pp. 809-10; Albright , W. F ., « A revolution in the chronology of ancient western Asia », **BASOR** 69 (1938) pp. 19-20، .

(٤) حتى ، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، الجزء الاول ص ١ــ٧٥٧ ، دار الثقافـــة ، بيروت ١٩٥٨، صواف ، صبحي ، تاريخ حلب قبل الاسلام جـ ١ (١٩٧٢) ص ٢٠ــ٢١ .

(٥) Al t.I amd 456. حيث استطاع آيا ـ ايل بن حمورابي السيطرة على الالاخ وضمهـا الى مملكته .

(٦) Collon, Dominique, **The seal Impressions from Tell attchana/Alalakh** (1975) p. 146 ; Klingel, H. , **RACA** 1972 , p. 73 « Hammorapi von Jamhad ».

(٧) صواف صبحي ، الحوليات العربية السورية م ٧ (١٩٥٧) ص ١٢٦ .

(٨) حرصت حكومات بلاد ما بين النهرين القوية باستمرار على تامين سلامة هذا الممر الحيوي والسيطرة عليه في كثير من الاحيان . والاعتقاد السائد ان الحملات الحربية من بلاد النهرين ، منذ الرحلة الاسطورية للملك لوغال زاكيزي حتى نهاية الحكم الفارسي ، ما كانت لتهدف الا للسيطرة على ذلك الممر ، وظهور مملكة قوية كيمحاض استطاعت ان تقر الامن على جانبي هذا الممر اكسبها صداقة جيرانها الاموريين في سورية وبلاد ما بين النهرين لكنه ولد عندهم كذلك شيئا من الغيرة والحسد والتنافس كما اكسبها في الوقت نفسه بغض الجيران الشماليين (الحثيون) الذين طمعـوا في السيطرة على ذلك الممر والاستفادة من الثروة التي كانت تتمتع بها يمحاض .

(٩) Astour, M, **Ugarit in retrospect,** edited by Gordon young, pp. 28 - 29 (1981) .

(١٠) Albright, **BASOR** 78 (1940) p. 46.

وشعث ، شوقي ، الحوليات الاثرية السورية العدد ٢٩/٣٠ ص ٦٥ــ٦٩ وهو مكرس لوقائع الندوة العالمية للدراسات الاوغارتية ، كذلك انظر شوقي شعث في كتابـــه « حلب تاريخها ومعالمهـا

التاريخية » ص ٢٦-٢٨ ، جامعة حلب ١٩٨١ ، وانظر :

Kupper , CAH II/I , 1963, pp. 18 - 19 .

يضيف كوبر ان من بين البضائع التي كان يتاجر بها الى جانب المواد الغذائية والنبيذ والالبسة النحاس الذي كان يأتي من قبرص والعاج الذي كان يستحصل عليه محليا من الفيلة السورية التي كانت تعيش انذاك في سورية الشمالية . فقد وجدت بعض قطع العاج الخام في القصر الملكي بالالاخ ومن المؤكد ان تكون حلب جنت ارباحا طائلة من تجارة العاج المربحة .

(١١) يذكر وايزمن في كسرة للرقيم AT 456 ان « ابان » كان Sukkal الملك الحثي في حاتوشا ، اي كان وزيرا ، ويبدو ان ذلك غير صحيح ، حول مزيد من التفصيل والايضاح انظر :

Dratfkorn, A., « Was Abbá - An of Yamhad a Vizier for the king of Hattusa ..? » , in JCS XIII (1959), pp. 94-97 .

(١٢) انظر الشجرة السلالية التي أوردتها دومنييك كولون - المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(١٣) Akurgal, E., The Art of ihe Hittites, Thames and Hudson, (1962) p. 49.

وحول اصول وثيقة تليبينوس انظر : 2 BO Tu 23

وحول ترجمتها انظر Fiedrich , J, AO 42/3 p. 21 f.

(١٤) E. Herzfeld , The Persian Empire, Studies in Geography. (1968) P. 76 .

يذكر هرز فيلد ان الوثيقة تعود الى القرن السادس عشر قبل الميلاد .

(١٥) يظهر ان كلمة لابارنا اصبحت تلفظ فيما بعد تبارنا ، واصبحت لقبا لكل ملوك الحثيين كما هو الحال في لفظ قيصر . انظر : اكورجال ، المصدر السابق ، ص٤٩ .

(١٦) المصدر نفسه والصفحة .

(١٧) يورد غورني ، ص ٧٦ (حاشية ٣٢) ان معاهدة حلب كانت منقوشة على لوح من المعدن الثمين يعرف ذلك الزمان ربما كان من الفضة أو الذهب او الحديد ، وختمت بالخاتم الملكي . وكانت هذه المعاهدة عبارة عن النظام الذي يستمد منه التابع سلطته ويعتبر فقدها خسارة كبيرة له ، وقد سجل ان هذه المعاهدة حفظت في المعبد ، ولكنها سرقت فيما بعد . وقد تألم الملك اليمحاضي لذلك كثيرا وسعى للحصول على نسخة منها من المحكمة العليا .

(١٨) أوردت الموسوعة البريطانية ، المجلد الاول ص ٥٦٣ ، طبعة ١٩٧٥ ، ان الملك الحثي الذي وقع المعاهدة هو : مواتلش (موداتاليش) Muwatallis (١٣٠٦ - ١٢٨٢ ق.م) وليس مورشيل الثاني كما ذكر هرزفيلد . ومما هو جدير بالذكر ان ملك حلب، ريم شارما ، الذيوقع المعاهدة كان احد حلفاء الحثيين في معركة قادش . عثر على نسخة من هذه المعاهدة محفوظات بوغازكوي .

(١٩) هرزفيلد ، ص ٧٦ . وللمزيد من المعلومات عن المعاهدة يمكن الرجوع الى الرقيم K Bo I 6 الذي قام بترجمته E. F. Weider ونشره في BO. ST. (1923)pp. 80—89

(٢٠) يعتقد ان ملك يمحاض في ذلك الوقت كان ((اركابتوم)) الذي هزم حاتوشيل الاول ولاحقه بجيوش حلب حتى حاتوشا ، ويشير احد الرقم الناقصة الذي عثر عليه في الطبقة القديمة لمدينةحاتوشـا « .. ورجال اتوا مع جيوشهم وعجلاتهم من مدينة حلب » .

(٢١) مورتقارت انطوان ، تاريخ الشرق الادنى القديم ص ٢١٨ ، تعريب توفيق سليمان وعلي ابو عساف وقاسم طوير ، وانظر :

Delaporte, L., Les Hittites , Paris (1936) , P. 48,

(٢٢) Macqueen J. G. The Hitties and their contemporaries in Asia Minor, Thames and Hudson, 1975. p. 38 .

(٢٣) Cutney O. R., The Hittites , a Pelican book, Revised adition (1961) P. 23 .

(٢٤) يقول ماكوين في صفحة ٣٩ من كتابه الحثيون (المصدر السابق) : لحسن حظ المهتمين بتاريخ مملكـة يمحاض ان مدينـة الالاخ (تل عطشانـة) نقبت من قبـل ليونارد وولي ، وقـد اظهرت تنقيباته ان هذه الاحداث معاصرة للسوية السابعة في الالاخ ، وتبين ان مدينة السوية السابعة قد انتهت فيحوعام ١٦٥٠ ق.م . انظر ما نشره وولي عن تنقيباتـه بالمدينة في كتابـه الالاخ .

Woolley, L., ALalakh, an account of excavation at Tell Atchana, 1937-1949 , Oxford 1955.

حيث يضع الطبقة السابعة ما بين ١٧٨٠ ـ ١٧٢٠ ق.م، وكتابه :

A Forgotten Kingdom a Pelican book , 1953 , pp. 83-84 .

ومما تجدر الاشارة اليه هنا ان وولي لم يذكر ان الحثيين هم الذين دمروا المدينة ويثير شكوكنا في أن تكون حلب نفسها هي التي دمرت المدينة وان كان لا يملك ادلة على ذلك ويرفض النظريـة القائلة بان المدينة دمرت نتيجة غزو اجنبي . ويضيف بأن هذه الاحداث كلها كانت في الفترة مابين ١٧٥٠ ـ ١٧٢٠ م بفارق مئة عام عن التاريخ الذي اورده ماكوين . كما اننا نلاحظ ان وولي مرة ثانية يضع الطبقة السابعة من الالاخ في الجدول التاريخي المقارن الذي الحقه بكتابه المشار اليه اعلاه ، ما بين ١٧٨٠ و ١٧٥٠ وحول الموضوع انظر :

Gurney O.R., « Anatolia ». c. 1750 - 1600 B. C. , in CAH Vol.II Part 1 (1973) pp. 241 - 243 .

(٢٥) Macqueen, Op. cit., p. 39.

ويذكر غورني ص ٢٤٣ ان حلب كانت المنافس الوحيد لسلطة الحثيين في شمال سورية وعليهم اخضاع تلك القوة وقد نجحوا في ذلك.

(٢٦) Macqueen, Op. cit., p. 42 .

(٢٧) يذكر فوزان ان الاحتلال والتدمير كان نحو عام ١٥٥٠ ق.م ، مورتقارت ، المصدر السابق،ص٢١٩، Gurney, Op. cit. pp. 22-23;

(٢٨) يبدو ان تدمير بابل كان في عهد ملكها شمشو ديتانا . وفي هذا المجال يشير مورتقارت في كتابه الشرق القديم أن حلب كانت اقوى ممالك عصرها فاذا هزمت ، هزمت الممالك الامورية في سورية والعراق .

(٢٩) Macqueen, op. cit. 43 .

ويذكر اكورجال ، المرجع السابق ، انه عثر في عام ١٩٥٧ في بوغازكوى على رقيم مكتوب بالاكادية والحثية ويذكر ان حاتوشيل الاول (١٦٥٠ – ١٦٢٠ ق.م) تمكن من التغلغل جنوبا حتى حلب.

(٣٠) Macqueen, op. cit. p. 43

(٣١) Gurney, P. 26

(٣٢) Gurney, p. 27 .

(٣٣) Gurney, p. 27 .

(٣٤) Gurney,p.27 ; Macqueen, p.43

(٣٥) Macqneen. p. 44,

(٣٦) المصدر نفسه والصفحة ، ويقال ان خليفة تحوتمس الثالث ،امينوفيس الثاني،عاقب الثائرين الا انه لم يستعد السيطرة على سورية الشمالية ، انظر وولي .

Alalakh, an account, p. 391.

(٣٧) Gurney , p. 26.

(٣٨) Macqueen, p. 43

(٣٩) Gurney , p. 27

(٤٠) Macqueen, p. 44

(٤١) Macqueen, p. 44; Gurney, p. 29.

(٤٢) من الملاحظ في التاريخ الحثي ان مثل هذه الامور كثيرة الحدوث فالمؤامرات والدسائس كانت كثيرة في البلاط الحثي وكذلك الصراع على العرش . ويلاحظ ذلك في اواخر عهد مورشيل الاول وها هو يظهر في عهد شوبيلوليوما .

(٤٣) Gurney, p. 30 .

(٤٤) مورتفارت ، ص ٢٢٦.

(٤٥) مورتفات ، ص ٢٣٠ .

(٤٦) يبدو ان هذه الموقعة لم تكن حاسمه وخرج الفريقان بنتيجتها بحالة اللاغالب ولا مغلوب على الرغم من المصادر المكتوبة لدى كل من الطرفين تشيد بانتصاره في موقعة قادش .

(٤٧) تقول دومنيك كولن: ان هذا التاريخ تبناه J.A. Brinkman في ما كتبه ونشره كملحق لكتاب ليو اوبنهايم
Leo Oppenheim , Ancient Mesopotamia, Chicago 1964, pp. 335-352.

(٤٨) انظر نتائج تلك التنقيبات في كتابي وولي المذكورين سابقا .

(٤٩) Collon,op cit. p. 143.

(٥٠) Collon, op . cit , p. 146

ويضيف نقلا عن (AT 456 line 28) ان ابان استطاع سحق الثورة واسر قائدها موشنادو لقد اعطى أبان أخاه (ياريم ليم) الالاخ وغيرها من المدن في الغرب ، وربما لجا لذلك كي تكون المناطق المضطربة في الشرق قريبة من سيطرته المباشرة .

(٥١) Buccellati, Cities and Nations of Ancient Syria, Rome 1967; pp.46-47

(٥٢) woolley, p. 65; في كتابة المملكة المنسية .

(٥٣) يبدو أن هناك خلطا وقع بين ياريم – ليم حاكم الالاخ العم وبين ياريم ليم الثاني ملك يمحاض ابن ابان وهذا ما وقع فيه وولي في Forgotten Kingdom وقد ظهر الامر اكثر وضوحا لدى كولون pp. 143, 144, 146, 147 وربما وقع الخلط لان كلا منهما كان يعاصر الاخر ومما زاد الامر غموضا وسبب الخلط الذي اشرنا اليه ان احد خلفائه كان يحمل ايضا اسم ياريم ليم .

(٥٤) Collon, op. cit. p. 147.

(٥٥) Woolley, Forgotten kingdom, pp. 65, 79.

(٥٦) Ibid. p. 79 .

(٥٧) Ibid, pp. 80, 81.

(٥٨) ibid, p. 81 .

(٥٩) يعتقد ان ملك يمحاض الذ يخطب ابنة حاكم ابلا لابنه هو Niqma - epuh نقمابيوخ ، وان الابن العريس هو Irkabtum انظر AT 35 ; ولتحضيرات الرحلة الملكية الى ابلا من اجل الخطبة انظر AT 269

(٦٠) تمني هنا معلومات كتابية فالمخطوطات التي عثر عليها في القصر G تعود الى اواخر الالف الثالثة قبل الميلاد في حين ان القصر Q الذي يعود الى العصر البرونزي الوسيط لا يزال يحتفظ بمحفوظاته طي الكتمان واننا لنأمل ان يظهر الى الوجود قريبا ليمدنا بمعلومات نتوقع ان تكون هامة لتاريخ حلب والمنطقة باسرها سيما وان البعثة المنقبة عثرت على بعض اللوحات المسمارية التي تعود الى عصر يمحاض ولكن ليس بمكانها الاصلي . اما فيما يتعلق باللقى الاثرية الفنية فلدينا بعض القطع التي تعود الى العصر البرونزي الوسيط ولكنها لازالت غير كافية لتوضيح العلاقة بين ابلا ويمحاض .

(٦١) Smith, Sidney, « Ursu and Hassum » , **Ana . Stud** . 6 (1956) p.39.
Ibid p. 40.

(٦٢) Dominique , C., « Family tree of the kings of Yamhad » At. 53 ch. (Wiseman)p. 145 .

(٦٣) Astour, M., **Ugarit**, p.5.
وانظر كذلك Kupper, in **CAH**, vol . II, Part I (1973) p. 19

(٦٤) Dossin G., RA. 36. 1 (1939) p. 50 .

(٦٥) Dossin, **Ibid**. p. 51.

(٦٦) Kinal Furuzan, « Kingdom Yamhad », pp. 193 - 211 .
مجلة جامعة انقرة عام ١٩٧٠

(٦٧) Kupper J. R., « Northern Mesopotamia and Syria » in **CAH** 1973 , pp. 22-23 .
ربما كان وجود مملكة حلب القوية في الغرب هو الذي منعه من التوسع غربا رغم محاولتهذلك .

(٦٨) Kupper, **Ibid**. p. 14 .

(٦٩) يذكر Furusan ان هناك وثيقة اكتشفت في قطنة تؤكد قتل ملك قطنة على يد ياريمليم ملكحلب، وربما كان ملك قطنة المقتول هو Iskhi - Adad ويقول كوبر في المصدر السابق ص٢٢ انهاية هذا الملك لازالت غامضة بعد انحسار النفوذ الاشوري الذي كان تابعا او حليفا لذلك النفوذ .

(٧٠) Kupper, **Ibid** . pp. 19 - 21

Sime Abbreviations used in the bibliography

AASOR : Annual of the American School of Oriental Research

Al T : (AT) : Alalakh Tablets .

Ana. Stud. : Anatolian Studies.

AO : Archiv fur orientfurschung

BASOR : Bulletin of American School of Oriental Research .

BO. ST. : Boghazkoi Texte Umschrift .

KBO. : Keilschrift texte aus Boghazkoi .

RA. : Revue d'Assyriologie et d'Archéologie Orientale .

RAVA. : Reallexikon der Assyriology vorderasiatischen Archaolgie

JCS. : Journal der Cuneiform Studies .

CAH. : Cambridge Ancient History.

سورية في عصور ما قبل التاريخ

د . سلطان محيسن
جامعة دمشق

مقدمـــة :

ان علم ما قبل التاريخ Préhistoire من العلوم الحديثة نسبيا وهو يعتمد في مادة بحثه على البقايا الاثرية التي خلفها لنا الانسان قبل ان يعرف الكتابة(١) وهذه المخلفات في معظمها ادوات حجرية أو عظمية ، لم تثر في البداية الاهتمام اللازم ، بل انها فسرت باعتبارها من صنـع الطبيعة والصواعـق او من عمل الشياطين الى ان جاء منتصف القرن التاسـع عشـر وأثبت الفرنســي بوشيه دوبرت (Bouchér de Pérthes) ان هذه الادوات ما هي الا اسلحـة صنعها الانسان القديم واستخدمهـا في وظائف مختلفة ، منها صيد الحيوانات الكبيرة كالدب ووحيد القرن ، التي وجدت عظامهـا مقرونـة بتلك الادوات(٢) وبذلك فتحت الاعين وبشكل جدي على آثـار انسان ماقبل التاريـخ الذي أصبح وجوده حقيقة لا جـدال فيها . وقـد دعمت استنتاجـات دوبرت اكتشافات معاصرة او لاحقة اتت معظمها من فرنسـا(٣) وترافق ذلك مـع نشر كتاب داروين الاول عن اصل الانواع(٤) الذي تبنى فيه نظرية التطور Evolution التي اثارت في حينه جدالا شديدا مازال مستمرا بصيغ اخرى . ومنذ مطلـع القرن الحالي بدأت دراسات وتنقيبات ، تبعتها مؤلفات ، اكثر منهجية ودقة شارك فيهـا باحثون مختلفون(٥) . ومازال البحث قائما بعد ان تطورت المناهج والاساليب الى حد كبير واصبحت أقرب الى مناهج العلوم الطبيعيـة كالفيزيـاء والرياضيات(٦) . كما بدأت تتبلور منذ الستينات مدرسة ونهج جديدان في دراسة انسان ما قبل التاريـخ وحضارته ، مما يسمى الان بعلم الاثار الجديد (New Archaeology) وهو يدرس

الانسان ضمن اطاره الجغرافي القديم حسب منهج مختلف عن علم الاثار التقليدي(٧) وفي كل الاحوال فان الهدف الرئيسي للباحثين في عصور ما قبل التاريخ ، هو فهم وتفسير واقع مجتمعات تلك العصور للوصول الى تصور حضاري شامل ومتكامل لها. لقد تزايدت معلوماتنا عن الانسان الاول بشكل أصبح ممكنا اعادة رسم الصورة العامة للحياة الاقتصادية والاجتماعية لذلك الانسان ، الذي وضع الاسس المباشرة لحضارتنا الحديثة . لانه قام بالخطوات الاولى والاهم سواء في مجال ابتكار الاسلحة والادوات والبناء والفن والدين ، أو الزراعة والتدجين . لقد تميز القطر العربي السوري بأهمية خاصة في تلك العصور حيث كشف فيه عن مواقع رئيسية تعتبر المفاتيح الضرورية لدراسات انسان ما قبل التاريخ في منطقتنا وفي العالم .

اولا : تاريخ البحث في عصور ما قبل التاريخ في سورية :

لقد لفت النظر في سورية الى عصور ما قبل التاريخ بشكل متأخر اذ مر زمن طويل كان البحث فيه عن المدن التوراتية واثار الحضارات الكلاسيكية اليونانية والرومانية محط الاهتمام الاول . تعود المعلومات الاولى عن ما قبل التاريخ السوري الى مطلع هذا القرن وكانت نتيجة اعمال فردية بسيطة ومحدودة الاهمية(٨) لكن البحث الحقيقي والعلمي في هذا المجال بدأ في الثلاثينات ، ومنذ ذلك التاريخ وحتى الان تخضع العصور الحجرية الى دراسات منوعة يشارك فيها أختصاصيون عديدون ممن قاموا بمسح عام او تنقيب محدد ويمكن ان نوجز تطور العمل في مراحل ثلاث رئيسية :

المرحلة الاولى : بدات في الثلاثينات ، وترافقت مع الاكتشافات الهامة في جبال الكرمل بفلسطين وتمثلها اعمال الباحث الالماني الفرد روستA. Rustفي وادي سكفتا بيبرود(٩) حيث نقب ثلاثة ملاجىء صخرية رقمها ١ ــ ٢ ــ ٣ ، كان اهمها الملجأ الاول الذي ميز فيه عدة طبقات اثرية.، الدنيا فيها تؤرخ في عصر انسان الهوموارکتوس (الباليوليت الادنى) بينما تعود الطبقات العليا الى الثقافات النياندرتالية (الباليوليت الاوسط)(١٠) ان الجديد والهام من الملجأ الاول هو النوع الجديد من الادوات والاسلحة الحجرية الذي لم يكن معروفا من قبل وقد سُمِّي باليبرودي(Yabrodien)(١١) وفي الملجأ الثاني وجدت آثار تعود الى «الانسان العاقل» في الباليوليت الاعلى(الاورينياسية) بينما قدم الملجأ الثالث في طبقاته الدنيا اثارا من العصر الحجري الوسيط ، وفي الطبقات العليا وجدت اثار العصر الحجري الحديث . لقد نشر السيد روست نتائج تنقيباته في كتاب هام اسماه « لقى مغائر يبرود » وهو يعتبر المؤلف العلمي والمنهجي الاول الذي لفت نظر الباحثين الى الاهمية العالمية لقطرنا في عصور ما قبل التاريخ(١٢).

المرحلة الثانية : بدات في الستينات من هذا القرن على يد باحث هولندي هو السيد فان ليره Van Liere الذي قام بمسح اولي لاثار عصور ما قبل التاريخ حيث

اكتشف العديد من المواقع في مختلف مناطق القطر كان اهمها موقع اللطامنة الفريد من نوعه ، في حوض نهر العاصي ، الذي يمثل ارضية سكن (معسكر) بقيت محفوظة بشكل سليم رغم مرور اكثر من نصف مليون سنة عليها(١٣) . وقد كان السيد فان ليره اول من درس المواقع العائدة لعصور ما قبل التاريخ ضمن اطارها الجيولوجي والجيومورفولوجي العام محددا علاقتها بالاسرة او المصاطب النهرية العائدة الى الزمن الجيولوجي الرابع « الرباعي » (Quaternaire) (١٤) .

المرحلة الثالثة : بدات في السبعينات وهي لا زالت مستمرة حيث تعمل في القطر بعثات مختلفة يشارك فيها اختصاصيون بوسائل علمية وفنية متطورة ، وقد ادت هذه الاعمال الى اكتشاف اكثر من /٣٠٠/ موقع عائد لعصور ما قبل التاريخ ، بعضها له اهمية خاصة كما في منطقة الكوم في البادية السورية والقرماشي في حوض نهر العاصي . وتدرس هذه المواقع بتطبيق المناهج المتقدمة كطرق التاريخ الحديثة والتحاليل المخبرية والحواسب الالكترونية وبمساعدة علوم اخرى كالجيولوجيا والانتروبولوجيا وعلم المستحاثات (البالنتولوجيا) ولا زال العمل مستمرا والكشوف في تصاعد مما يساهم في استمرار توضيح طبيعة عصور ما قبل التاريخ السورية ذات الاهمية المحلية والعالمية(١٥) .

ثانيا : الرباعي في سورية :

تعتبر الابحاث الرباعية ، الجيومورفولوجية ، اي دراسة التشكلات الجيولوجية التي حصلت في الزمن الرابع ، ذات اهمية قصوى في فهم عصور ما قبل التاريخ ايضا وخاصة العصر الحجري القديم (الباليوليت) لان الانسان ظهر في الزمن الرابع وضمن الطبقات الجيولوجية العائدة لهذا الزمن توجد الادوات الحجرية والاثار الاخرى لهذا الانسان . كما انه في الرباعي ثبت توزع اليابسة والمحيط واستقرت البيئة على شكل قريب من الان . لقد بدأ الرباعي منذ حوالي ثلاثة ملايين سنة ودلت البحوث انه حصلت فيه تقلبات مناخية كبيرة حيث تتابعت على امتداد القسم الاول والاطول من هذا الزمن المسمى بالبليستوسن عصورجليدية ، جليديات Glaciations فصلتها عصور اخرى دافئة Interglaciations تركت اكبر الاثر على الانسان وحضارته لقد زحفت طبقات الجليد السميكة على نصف الكرة الشمالي حتى خط عرض ٤٠ ْ ٥ عدة مرات متتالية ، وغطت هذه الجليديات اجزاء واسعة من اليابسة لتجعل الحياة عليها مستحيلة وتجبر الانسان على الهجرة جنوبا ليقيم على تخوم المناطق الجليدية حتى ذوبان الجليد في العصور الفاصلة ذات المناخ الدافىء الماطر المساعد على نمو الغطاء النباتي والحيواني الضروري لاستمرار الوجود البشري(١٦) .

أما نصف الكرة الشمالي ، الواقع بين خط عرض ٤٠ ْ ٥ ــ ١٥ ْ ٥ تقريبا ، بما فيه

الشرق الاوسط وسورية فلم يعرف الجليديات بل انعكست التقلبات المناخية هنا على شكل عصور مطيرة دافئة (Pluvials) تقابل العصور الجليدية في نصف الكرة الشمالي، فصلتها عصور اخرى جافة (Interpluvials) تقابل العصور المطيرة في نصف الكرة الشمالي . لقد ظهرت الدلائل الجيولوجية للعصور المطيرة والفاصلة في سورية واضحة وخاصة في وديان الانهار وعلى السواحل على شكل مصاطب نهرية او شواطىء قديمة تشكلت في الرباعي . ففي وديان الانهار الهامة وروافدها ، اثناء العصور المطيرة ونشاط المياه القوي في الحت والترسيب ، تشكلت مصاطب او اسرة (terrasses) من الحصى والرمل والطمي متدرجة في ارتفاعها عن مجرى النهر الحالي وفي بعدها عنه . أقدمها أعلاها وابعدها عن النهر واحدثها أقربها الى النهر واقلها ارتفاعا . تقابل هذه المصاطب ، في المناطق الساحلية بقايا شواطىء بحرية قديمة (Paléorivages) أبعدها واعلاها عن البحر اقدمها ، بينما أقربها وأدناها هو الاحدث . لقد تضمنت المصاطب النهرية والشواطىء البحرية في ترسباتها بقايا ادوات حجرية ومستحاثات نباتية وحيوانية لانسان ما قبل التاريخ الذي ارتبط وجوده مع المياه وغير مناطق اقامته تبعا لتوفرها . وتعتبر هذه البقايا من اهم المواد المساعدة على دراسة آثار ما قبل التاريخ وتحديد زمن وطبيعة التقلبات المناخية والبيئوية الرباعية .

لقد عرفت سورية في الرباعي اربعة عصور مطيرة ، على الاقل ، تفصلها عصور اخرى جافة . وقد درست دلائل هذه العصور بشكل جيد وظهرت افضل آثارها في أحواض الانهار السورية وخاصة نهر الكبير الشمالي ورقمت التشكلات الرباعية حسب تسلسلها بدءا من الاحدث حسب الرموز العالمية المتفق عليها . واعطيت تسميات محلية خاصة لتمييزها عن غيرها ، بل انها اصبحت النموذج الذي تقاس عليه الدراسات الرباعية في المنطقة كلها(١٧) ، ويمكن ايجاز العصور المناخية السورية بدءا من الاحدث كما يلي :

— عصر الهولوسن الدافىء (ر ب صفر أو ر ن صفر) ولهذا العصر تعود تشكلات السهول الرسوبية لوديان الانهار أو الشاطىء البحري مباشرة ومعظمها اراض زراعية خصبة . وضمن هذه التشكلات نعثر على احدث آثار عصور ما قبل التاريخ التي لا يزيد عمرها على نحو ١٢ الف سنة . وهي تعود الى العصر الحجري الوسيط والحديث والعصر الحجري النحاسي والى العصور البرونزية .

— عصر الشير او العصر المطير الاول (ر ن ١) : ويتمثل بشكل رئيسي في حوض نهر الكبير الشمالي (موقع الشير) وفي احواض العاصي والفرات . وضمن السويات العليا من هذه المصطبة النهرية توجد ادوات حجرية تعود الى العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى ٣٥ — ١٢ الف سنة) بينما في السويات الدنيا نعثر

على ادوات من العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط ١٠٠،٠٠٠ - ٣٥،٠٠٠) وهذه هي مصطبة عصر البليستوسن الاحدث والاقل ارتفاعا والاقرب الى مياه النهر ولا يفصلها عن النهر الا السهل الرسوبي الهولوسيني .

- عصر بانياس او العصر الفاصل الاول (ر ب ١) : ظهرت اثاره في منطقة بانياس على الساحل السوري . وجدت ضمن ترسبات هذا الشاطىء القديم ادوات حجرية تعود الى العصر الانتقالي بين الباليوليت الاعلى والباليوليت الاوسط (١٥٠،٠٠٠ - ١٠٠،٠٠٠ سنة) .

- عصر ابو جمعة او العصر المطير الثاني (ر ن ٢): افضل دلائله اتت من حوض نهر الفرات (موقع ابو جمعة) في محافظة دير الزور ومن احواض نهر الكبير الشمالي والعاصي ، وضمن ترسباته وجدت ادوات حجرية تعود الى زمن يقع بين ٢٠٠،٠٠٠ - ١٥٠،٠٠٠ سنة ، أو ما يسمى عالميا بالعصر الاشولي الاعلى(القرماشي في سورية).

- عصر هنادي - خلالة او العصر الفاصل الثاني (ر ب ٢) : وهو يمثل افضل تشكيلة بحرية جيومورفولوجية محفوظة فيسورية ، تدل على شاطىء قديم للبحر المتوسط افضل بقاياه وجدت في منطقة هنادي وخلالة في محافظة اللاذقية ، وضمن ترسبات هذا العصر عثر على ادووات صوانية تعود الى حوالي ٣٠٠،٠٠٠ سنة ، اي الى القسم الثاني من العصر الاشولي الاوسط (الاشولي الاوسط المتطور) .

- عصر اللطامنة او العصر المطير الثالث (ر ن ٣) : وافضل ظهور له هو في نهر العاصي (موقع اللطامنة) ثم حوض الفرات ونهر الكبير الشمالي . وضمن تشكلات هذا العصر وجدت ادوات حجرية تعود الى القسم الاول من العصر الآشولي الاوسط (ويسمى الآشولي الاوسط) اهمها ارضية السكن الشهيرة في اللطامنة المؤرخة في حوالي ٥٠٠،٠٠٠ سنة (عصر اللطامنة).

- عصر بكسا او العصر الفاصل الثالث(ر ب ٣):اتت تشكلاته من عدة مناطق من الساحل السوري وخاصة من بكسا في اللاذقية ، وفيها وجدت اثار تعود الى القسم الثاني من العصر الآشولي القديم (الاشولي القديم المتطور) والمؤرخ في حوالي ٧٠٠،٠٠٠ سنة خلت .

- عصر ست مرخو او العصر المطير الرابع (ر ن ٤) : افضل دليل عليه اتى من حوض نهر الكبير الشمالي وضمن ترسباته في موقع قرية ست مرخو في محافظة

اللاذقية ، حيث وجدت اقدم ادوات حجرية معروفة في سورية حتى الان وهي تعود الى حوالي مليون سنة خلت ، اي بداية الاشولي العالمي وهي بذلك اقدم آثار لانسان ما قبل التاريخ عثر عليها حتى الان خارج القارة الافريقية .

بقي ان نشير بان هناك دلائل لعصر مطير خامس في حوض العاصي وآخر (رابع) جاف في الساحل يعودان الى بداية الزمن الرابع الا ان التشكلات الجيولوجية لهذين العصرين لم تتضمن ادوات حجرية ، مما يدل على ان حصولهما كان قبل وصول الانسان الى سورية(١٨) .

ثالثا : مراكز حضارات العصر الحجري القديم « الباليوليت »

بدأ هذا العصر في سورية منذ حوالي مليون سنة مضت وانتهى منذ حوالي ١٢٫٠٠٠ سنة ق.م. وهو عصر الصيد والالتقاط ، ونظرا لزمنه الطويل وللتمايز بين مختلف مراحله يقسمه المختصون الى ثلاثة اقسام أصغر هي العصر الحجري القديم الادنى ، ثم الاوسط واخيرا الاعلى .

١ ــ العصر الحجري القديم الادنى « الباليوليت الادنى »

بدأ منذ نحو مليون سنة وانتهى في حدود ١٠٠٫٠٠٠ سنة خلت ، وهو يرادف ما يسمى بالحضارة الاشولية ، او الاشولي ، ذات الانتشار العالمي الواسع ، لقد سكنت ومنذ بداية هذا العصر بعض مناطق سورية من قبل انسان الهومواركتوس الذي وصل الى قطرنا ، قادما على الارجح من القارة الافريقية ، سالكا طريقين رئيسين: الاول ساحلي على امتداد البحر المتوسط والثاني داخلي عبر وديان الانهار الكبرى : وادي عربة ، وادي الاردن ثم الليطاني فالعاصي . ان كل ما نعرفه عن انسان سورية الاول يأتي من خلال الادوات والاسلحة الحجرية التي صنعها واستخدمها في انشطته المختلفة وبقيت ، مقاومة عوامل الفناء ، لتشكل الدليل المادي والمباشر عليه . اهم هذه الادوات هو الفأس اليدوية (Biface) ، الاداة الرئيسة في الباليوليت الادنى ، صنعت منها أشكال مختلفة واستخدمت في وظائف متعددة كالقطع والقلع والضرب والدفاع عن النفس . لقد تطورت قدرة الانسان على تصنيع الادوات الحجرية على امتداد الباليوليت ونحن نستطيع من خلال هذه الادوات متابعة تطور انسان سورية الاول عبر مختلف مراحل هذا العصر الذي نقسمه بدوره تسهيلا للبحث الى الباليوليت الادنى الباكر ، الباليوليت الادنى الاوسط ثم الباليوليت الادنى الاخير .

آ ــ الباليوليت الادنى الباكر :

وهو يوازي مرحلة الأشولي الادنى ويؤرخ في زمن يقع بين مليون الى ٧٠٠٫٠٠٠

سنة خلت . أتت آثار هذا العصر من بضع مناطق في قطرنا وكانت متوضعة ضمن الطبقات الجيولوجية للسرير النهري الرابع (ر ن ٤) ، (عصر ست مرخو او تشكيلة ست مرخو) وقد عثر على الادوات الحجرية العائدة لهذا العصر في موقع ست مرخو نفسه وفي الشيخ محمد فيحوض نهر الكبير الشمالي(١٩) . ومعظمها فؤوس يدوية بسيطة وقواطع وادوات اخرى أصغر حجما ، صنعت كلها باستخدام المطرقة الحجرية الفاسية ، وكانت متآكلة بشدة وعليها كمخة سميكة تشير الى قدمها السحيق اذ تعود الى حوالي مليون سنة خلت . وهي ، كما اشرنا سابقا ، تمثل الدليل الاقدم على وجود الانسان في سورية وخارج القارة الافريقية . في الوقت نفسه تقريبا سكن حوض نهر العاصي ولكن من قبل جماعات بشرية اخرى لم تعرف الفاس اليدوية بل استعاضت عنها بادوات صنعتها من الشظايا الصغيرة . وهذا النوع من الادوات يسبق زمنيا الفؤوس اليدوية ولكننا ، بسبب ندرة الدلائل ، لا نستطيع التقرير فيما اذا كان انسان الساحل السوري قد طور فؤوسه اليدوية من ادوات انسان العاصي ام انه عرف تصنيع تلك الفؤوس قبل وصوله الى هنا .

ب ـ الباليوليت الادنى الاوسط :

وهو يوازي مايسمى بالاشولي الاوسط ويؤرخ على ٧٠٠ ـ ٢٥٠ الف سنة في هذا العصر توضحت استقلالية الانسان السوري الاول وظهرت حضاراتمحلية أصيلة تطورت باشكال مختلفة في مختلف المناطق السورية الساحلية او الداخلية . لقد استمر الناس بالاعتماد على الفأس الحجرية كسلاحرئيسي بعد ان طوروها واعطوها اشكالا جديدة . وصنعت كل منطقة فؤوسها الخاصة فبينما استخدمانسان العاصي الفاس اليدوية الطويلة والمدببة فضل سكان السواحل الفاس العريضةذات الشكل البيضوي، وكما في العصر السابق وجدت جماعات بشرية اخرى لم تستخدم الفؤوس على الاطلاق بل صنعت القواطع والادوات الصغيرة ، بعض هذه الجماعات عاش في حوض نهر العاصي في الرستن وبعضها الاخر وصل الى حوض الفرات في موقع شنينة . ان هذا التباين في تقاليد تصنيع الادوات الحجرية معروف ايضا في فلسطين والاردن ولبنان (٢٠) مما يدل على اننا نتلمس ومنذ هذا الزمن الباكر بوادر تجانس حضاري شمل المشرق العربي القديم كله لا تلبث صورته ان تتبلور في العصور اللاحقة . الى الشمال من مدينة حماه وعلى بعد ٤٠ كم في حوض العاصي قرب اللطامنة يقوم أحد اهم وأندر مواقع هذا العصر في العالم حيث عثر في طبقة من الرمل والطمي الناعم في ترسبات السرير النهري المرتفع العائد الى العصر المطير الثالث (عصر اللطامنة ر ن ٣) على بقايا معسكر سليم سكنته جماعة من صيادي الحيوانات الوحشية كالفيل

والحصان ووحيد القرن ، وملتقطي الثمار البرية كاللوز والزعرور وذلك منذ حوالي نصف مايون سنة مضت . لقد عاش هؤلاءفيحوض نهر العاصي الغني وعرفوا تصنيع الاسلحة والادوات وخاصة الفؤوسالكبيرة الفعالة وبنوا ، لاول مرة خارج افريقيا، الاكواخ البسيطة من الاغصان والجلود ودعموها بالاحجار الكبيرة كما عرفوا الاستفادة من النار منذ ذلك الزمن الباكر(٢١) . ان اللطامنة هو الموقع الوحيد في سورية ، وفي المشرق العربي كله ، المحفوظ بشكل جيد من هذا العصر كما ان المواقع العالميـــة المشابهة له لا يتجاوز عددها اصابع اليد الواحدة علما بان الادوات الحجرية الكثيرة التي اتت من العديد من المناطق في قطرنا تدل على وجود اكثر من موقع لكن عوامل الطبيعة خربتها .

جـ ـ الباليوليت الادنى الاخير :

وهو يــوازي مرحلة الآشــولي الاعلى ويؤرخ بــين ٢٥٠٠٠ ـ ١٠٠٠ الف سنة خلت . في هذا العصر يلاحظ ازدياد واضح في عــدد سكان سوريــة حيث خرجت الجماعات البشرية الاولى من مواطن سكنها التقليدية في السواحل وحوض نهر العاصي واتجهت شرقا نحو مناطق جديدة في البادية والفرات بعد أن تمكنت من استخدام النار ومن بناء الاكواخ البسيطة . وبدءا من هذا العصر أقام الانسان ، وبلا انقطاع ، في كــل المناطق الجغرافية في قطرنا . وبقيت الفاس اليدوية السلاح الاكثر استخداما . ولكن هذه الاداة تحسنت الى حد كبير حيث استخدمت في تصنيعها المطارق الناعمة مــن العظم والخشب مما أعطاها اشكالا أكثر انتظاما . وساد في كل المناطق السورية بل وفي المشرق العربي القديم نوع واحد من الفؤوس يشبــه اللوزة او القلب في شكلــه(٢٢) ترافقه أدوات أخرى كالمخارز والمكاشط والسكاكين بلغت القمة في الدقة الى حــد يتجاوز الحاجةالفعلية والوظيفيةالمخصصة لها . وتعتبر هذه الادوات الجميلة حسب راي البعض الدلالة الاولى على نمو الحس الفني والجمالي لدى تلك المجتمعات التي تناقلت تصنيع أدواتها من جيل الى جيل ، بعد ان اصبح لديهــا لغة متطورة بــلا شك . لقد وجدت آثار هذا العصر بكثافة كبيرة ضمن التشكيلات الجيومورفولوجية العائدة الى العصر المطير الثاني المسمى تشكيلة ابو جمعة او عصر ابو جمعة (ر ن ٢). وفي كل مناطق القطر تقريبا بدءا من الساحل وحتى الفرات الا ان معظم هذه الاثار ، كما في العصور السابقة ، اتى من مواقع مخربية جرفتها المياه من مكانها الاصلي الا في حالة واحدة ونادرة وهي موقع القرماشي في حوض نهر الفاصي الاوسط الى الغرب من حماه حيث عثر على معسكر غير مخرب هجره سكانه منذ حوالي ١٥٠٫٠٠٠ سنــة خلت واظهرت التنقيبات انهم عرفوا تصنيع الفؤوس الحجريــة الرائعة بل بنــوا

الاكواخ البسيطة واستخدموا النار ، واستفادوا مثل أسلافهم في اللطامنة ، من خيرات وادي العاصي الحيوانية والنباتية الغنية في ذلك الوقت (٢٢) .

د ـ العصر الانتقالي بين الباليوليت الادنى والاوسط :

في اواخر الباليوليت الادنى اي نهاية مجتمعات الهوموراكتوس وبداية الباليوليت الاوسط ، اي وقت ظهور انسان النياندرتال ، وهو زمن يقع بين ٢٠٠،٠٠٠ ـ ١٥٠،٠٠٠ ـ ١٠٠،٠٠٠ سنة ، في هذا العصر ساد نوع انتقالي من البشر يسميه المختصون الهوموراكتوس المتطور او انسان ما قبل النياندرتال ، لقد حصلت في سورية والمشرق العربي القديم تغييرات عاصفة شكلت السمة المميزة لهذا العصر الانتقالي، وقد اختلفت التفسيرات حول أسباب ودوافع هذه التغييرات وفيما اذا كانت تقترن بظهور اقوام جديدة أم انها مجرد تحولات داخلية في اطار المجموعات العرقية المحلية . ومهما يكن فلم يعد صناع الفؤوس اليدوية الذين اسميناهم اصطلاحا بالآشوليين يسيطرون بلا منازع، بل ظهرت الى جانبهم حضارات اخرى جديدة (اقوام جديدة) تعايشت كلها في نفس الزمان والمكان . ولكن كان لكل منها ادواتها واسلحتها الخاصة وطرقها المميزة في العيش كما اتضح في كل المناطق السورية (٢٤). لقد نما لدى انسان هذا العصر حس اكبر بالارتباط بالارض وبدل المواقع الصغيرة التي سكنت لمدة قصيرة لا تزيد عن موسم او موسمين ، مثل اللطامنة والقرماشي سابقا ، نجد الاجيال خلف الاجيال تتعاقب على الاقامة في المكان نفسه وافضل دليل على ذلك هو ملاجيء سكفتا في يبرود وخاصة الملجأ الاول الذي سكن على امتداد زمن زاد عن ١٥٠،٠٠٠ سنة، حيث ترددت على هذا الملجأ نحو ٢٥ مجموعة بشرية لكل منها حضارتها الخاصة، ومن اكثرها اصالة كانت الجماعات اليبرودية التي دلت عليها أدواتها الحجرية . لم يعرف «اليبروديون» الفأس اليدوية الا نادرا بل اشتهروا باستخدام المقاحف الغليظة « المقحف اليبرودي » ذات الاشكال المنوعة والمصنعة غالبا من شظية حجرية عريضة وقصيرة لكنها سميكة لها حدان عاملان يلتقيان بزاوية قائمة أو حادة ومحضران بواسطة تشذيب واسع ومتدرج على شكل حراشف السمك(٢٥) ، ان المقحف هو الاداة الافضل لتحضير الجلود ووجود هذه الاداة بكثرة في يبرود ، وفي مواقع هذا العصر عموما ، يجعلنا نعتقد بان الانسان بدأ يرتدي هذه الجلود ويفرش بها مساكنه ، ليس فقط درءا للبرد بل وبدوافع معنوية ورغبة بالظهور بالشكل الافضل بعد ان تطور المستوى الاجتماعي للناس . وقد دلت البحوث على ان الحضارة اليبرودية قد سادت على امتداد هذا العصر الانتقالي وغطت مساحة واسعة امتدت من فلسطين والاردن ولبنان جنوبا وحتى البادية السورية شمالا مما يؤكد مرة اخرى على التجانس الحضاري للمنطقة كما نوهنا سابقا . ومن يبرود أيضا ، ولكن من الملجأ

الرابع ، اتت آثار مختلفة تماما ع ن التي وجدت في الملجأ الاول حيث لم يصنع سكان هذا الملجأ القحف اليبرودي بل الادوات المسننة والمفرضة والسكاكين ذات الظهر السميك .. كما اصطادوا الحصان البري ووحيد القرن والوعل والدب والغزال وغيرها من الحيوانات التي كانت تعيش في هذه المنطقة بجوار بحيرة قديمة حفظت لنا ترسباتها آثارا هامة ونادرة حيث وجدت في طبقات الطمي الناعم البيوض المتحجرة وطبعات طيور وحيوانات وزواحف والاهم من ذلك طبقة كف لانسان النياندرتال الباكر (أو ما قبل النياندرتال) هي الاولى من نوعها في قطرنا وفي المنطقة(٢٦) . واضافة الى يبرود ، تجري الان اعمال تنقيبية هامة في حوضة الكوم في البادية السورية تعرفنا بشكل افضل على سمات هذا العصر الانتقالي(٢٧) . لقد عاشت هنا جماعات بشرية كثيفة وعديدة استفادت من خبرات المنطقة الوفيرة حيث تردد السكان على العديد من الينابيع الطبيعية التي جف بعضها الان بينما لا يزال البعض الاخر جاريا . وتركوا لنا بقاياهم التي تراكمت بسماكة عشرات الامتار بجوار العديد من الابار كبئر الهمل وأم التلال وام قبيبة والندوية وغيرها من المواقع التي ظهرت فيها الاثار بكثافة لم يعرف لها نظير حتى الان ، حيث وجدت مئات الآلاف من الادوات الحجرية مقرونة مع بقايا مستحاثية اخرى وخاصة عظام الحيوانات ومتوضعة ضمن طبقات جيولوجية سليمه مكنتنا من الحصول على تواريخ مطلقة هي الاولى من نوعها في قطرنا ، ارخت العصر الانتقالي بين ١٥٠,٠٠٠ — ١٠٠,٠٠٠ خلت(٢٨) .. لقد صنع سكان حوضة الكوم القدامى أدوات واسلحة حجرية متعددة بقدر تعددهم فمنهم من اعتمد على الفأس اليدوية وهناك من آثر القحف اليبرودي وثالث ابدع انواعا رائعة وطويلة من الحراب ذات الفعالية العالية في الصيد (الحراب الهملية) التي شكلت قفزة في تاريخ صنع الاسلحة الحجرية ، والتي اختفت مع اختفاء الهمليين (نسبة الى بئر الهمل) في نهاية هذا العصر ولم تصنع ثانية الا بعد مرور زمن طويل جدا وعلى يد الانسان العاقل(٢٩) .. اننا ما زلنا بحاجة الى المزيد من البحث لنعرف أسباب هذا التنوع الكبير ، وما اذا كان ذلك يعكس فروقا عرقية أم مجرد طرق مختلفة في أساليب العيش والتكيف مع البيئة ولا بد ان العثور على هياكل عظمية قديمة سوف يساعد كثيرا في جلاء الحقيقة(٣٠) .

٢ — العصر الحجري القديم الاوسط (الباليوليت الاوسط) :

في مطلع العصر المطير الاول (ر ن ١) المسمى تشكيلة الشير اي منذ نحو ١٠٠,٠٠٠ سنة غاب الموزاييك الحضاري الذي ميز العصر السابق واختفى معه انسان الهومو اركتوس ، وظهر نوع جديد من البشر هو انسان النياندرتال ومعه حضارة جديدة . كان النياندرتاليون اكثر عددا من سابقيهم ونجد آثارهم في كل مكان من

قطرنا سواء في المواقع السطحية المكشوفة أو في الملاجيء والمغارات . لقد طور هؤلاء كل ما ابدعه اسلافهم كالبناء والاسلحة والادوات والملابس(٢١) ولكن اختفت الان الفاس الحجرية كلياوتوارت معهاالادوات الثقيلةالمصنعة على النوى (Nucleus)اي الكـدر الصواني لتحل مكانها ادوات اخرى مصنعة على الشظايا الصغيرة (Eclats) هذه الادوات كانت متنوعة الاشكال والوظائف واهمها المقاحف ثم السكاكين والمخارز والمناشر وهي مصنعة وفق تقنيات جديدة وتنسـب الى ما يسمـى باللافلـوازي ـ الموستيري(٢٢) . ان التنقيبات التي أجريت في العديد من المواقع السورية العائـدة لعصر النياندرتال كيبرود وكهف الدوارة وجرف العجلةوالكوم في البادية السورية(٢٣) اظهرت ان ثقافة النياندرتال السوري رغم تشابهها العام مع مثيلاتها في بقيـة المناطق الا انها أقرب بكثير الى النياندرتاليين في المشرق العربي القديم وخاصة في فلسطـين ولبنان والاردن(٢٤) فلقد وصل سكان هذه المنطقة في ذلك العصر الى درجة عاليـة من التجانس وقامت بينهم علاقات مباشرة تبادلوامن خلالها حاجاتهم وخبراتهم مما حقق لهم فائدة أكبر من بيئتهم الغنية التي سخروها لخدمة مصالحهم المادية والروحيـة المتزايـدة .

٣ ـ العصر الحجري القديم الاعلى (الباليوليت الاعلى) :

في النصف الثاني من العصر المطير الاول (عصر الشير) اي منذ حوالي ٣٥٫٠٠٠ سنة اختفى فجأة انسان النياندرتال وظهـر الانسان العاقـل وهو السلـف المباشر للانسان الحالي ، دون أن نعلم بدقة كيفية حصول ذلك(٢٥). ورغم ان منطقة المشرق العربي القديم هي التي أعطت الدلائل الاهم على ظهور الانسان العاقل الا ان هـذا الانسان تابع تطوره الحضاري في مكان اخر ، هو القارة الاوربية وخاصة فرنسـا واسبانيا . وهكذا تغيرت الادوار فبعد ان كانت آسيا وافريقيا مركز النشاط الانساني الاهم انتقل هذا المركز الى اوربة في حين اصبح دور آسيا وافريقيا ، والشرقالاوسط وسورية ضمنا ، هامشيا الى حد ما . لقد تميزت الحضارات السورية والشرق ـ أوسطية في هذا العصر بالجمود وغياب الفن والبناء والادوات العظمية وغير ذلك مـن المبتكرات الجديدة التي عرفت من مناطق اوربـة . ونحن ما زلنـا نجهـل الاسباب الحقيقية لهذا التراجع وهل هو واقع مؤقت سوف تغيره الاكتشافات اللاحقة أم انه حقيقة ثابتة . واذا كان هذا هو الواقع فلا بد ان نبحث عن الاسباب التي أدت اليـه كالتغييرات المناخية او العرقية . ولكننا نعتقد ان سورية لم تكن مهجورة في هذا العصر الى الدرجة التي ظنها البعض وان الموضوع يتعلق بضعف الدراسات ليس اكثر بدليل وجود بعض المواقع الهامة كملجأ يبرود الثاني والطبقات العليا من جرف العجلة وكهف الدوارة التي دلت على أن الانسان قد سكن المغائر والملاجئ بسبب الظروف المناخية

الباردة التي سادت في حينه ولابد من دراسة المناطق الجبلية السورية وخاصة جبال المنطقة الساحلية التي لا زالت بكرا لنتعرف على حقيقة الامر ، علما بان الابحاث الكثيفة التي تجري في فلسطين اثبتت غنى الارض الفلسطينية باثار الباليوليت الاعلى وليس هناك مايقنع ، علميا ، بتخلف سورية عن فلسطين في زمن شكلت فيه كل هذه المنطقة وحدة جغرافية وحضارية تجلت باشكال مختلفة ومنذ بداية عصور ما قبل التاريخ . كما كشف في المناطق الجبلية الساحلية في لبنان عن مواقع هامة لهذا العصر(٣٦) .

٤ ـ الواقع الاجتماعي والاقتصادي لمجتمعات العصر الحجري القديم السوري:

ان من اصعب الامور التي تواجه الباحثين في عصور ما قبل التاريخ هو معرفة الواقع الاجتماعي في تلك العصور التي غابت فيها الكتابة ، وغابت معها المعلومات المباشرة حول تنظيم ومعتقدات وأفكار هؤلاء الناس . ونحن نحاول استدراك هذا النقص من خلال تفسير الاثار المادية الموجودة بين ايدينا والتكهن بوظائفها ومضامينها، واجراء المقارنات الاتنوغرافية بين مواقع ما قبل التاريخ وبين المجتمعات البدائية الحالية رغم ما يحمله هذا الموقف من المخاطرة المجانية الحقيقية(٣٧) ومهما تكن درجة الدقة في حكمنا على الدلائل المادية ، التي تعطينا اياها التنقيبات الاثرية ، فان الامور تبقى ذاتية الى حد ما بحيث يكون الموقف الفكري للدارس عنصرا مؤثرا في طبيعة الحكم لان كل منا يحلل منطلقا من موقفه الفلسفي والايديولوجي العام .. وتصبح القضية اكثر صعوبة عندما يتعلق الامر بمجتمعات تفصلنا عنها الاف السنين . ونحن في الواقع نجهل الكثير عن الحياة الاجتماعية والروحية لانسان الباليوليت السوري (في العالم ايضا) ولكننا نستطيع القول انه قد عاش على شكل جماعات صغيرة متنقلا خلف الصيد واللقط ، في المناطق التي توفرت فيها مقومات العيش ، كالماء والحيوان والنبات والصوان . تؤكد ذلك الكميات القليلة للادوات الحجرية الفعلية التي تركتها هذه الجماعات في مناطق اقامتها ، ففي ست مرخو وجدت عشرون أداة فقط ولم يتجاوز عدد الادوات في اللطامنة والقرماشي الاربعمائة ، كما ان مساحة اللطامنة بلغت ٢٧٠م٢، مما يشير الى ضآلة الجماعات التي سكنت هذه المواقع . ولكن على الرغم من صغر الجماعة الواحدة فان عدد الجماعات كان كبيرا بدليل كثرة المواقع وتمايزها عن بعضها . كما أن الجماعات البشرية الاولى لم تكن معزولة عن بعضها فكثير من المواقع يتشابه بنسب متفاوتة ، مما يؤكد قيام اتصالات وعلاقات مباشرة أو غير مباشرة بينها ، لقد اقام انسان سورية الاول في السواحل وفي وديان الانهار ثم عرف بناء الاكواخ البسيطة من الخشب والجلد والاغصان والحجر كما في اللطامنة والقرماشي واستخدم المغائر والملاجىء الطبيعية كما كما في يبرود واصطاد حيوانات ضخمة كالفيل ووحيد القرن واستفاد من لحمها وجلدها وعظمها ، وصنع اضافة الى الاسلحة الحجرية الفعالة

الاسلحة والادوات العظمية ولكن لم يصلنا منها الا النذر اليسير بسبب فنائها بمرور الزمن . كما عرف انسان الباليوليت السوري النار منذ زمن باكر يعود الى حوالي نصف مليون سنة خلت (اللطامنة) وحقق منها فائدة قصوى في التدفئة او الانارة والطبخ والدفاع عن النفس وغير ذلك . ولا بد ان الناس في ذلك العصر كانوا منظمين بشكل جماعات على راسها رجل قائد ، اب ، يتبعه الباقون من رجال ونساء واطفال. وهم عرفوا تقسيم العمل حسب الجنس والسن فاشتغل الرجال في الصيد والامور الشاقة الاخرى بينما اهتمت النساء بشؤون البيت (المعسكر) والاطفال اضافة الى التقاط الثمار والنباتات البرية . وقد استهلك الجميع من خيرات الطبيعة الحرة بقدر حاجاتهم فقط ولم يكن بينهم اية فروق في توزيع الغنائم (مشاعية بدائية) وليست لدينا من قطرنا اية دلائل على الطقوس الدينية او المعتقدات الروحية لانسان الباليوليت كما في اوربة ، وقد اظهرت التنقيبات ان سكان ملاجيء يبرود قد اكتشفوا الالوان (المغرة الحمراء) . لكننا لا نستطيع ان نقرر كيف استخدموا هذه الالوان ، هل دهنوا بها جلودهم او ملابسهم ام ادواتهم ، كما لا نعلم اي شيء عن لغة انسان الباليوليت ولا عن كيفية تفاهم هؤلاء الناس مع بعضهم ، لكن الادوات والاسلحة المنوعة ذات الاشكال الثابتة والمحددة تشير الى قيام لغة ما تناقلت بواسطتها الاجيال تجاربها وخبراتها في فن تصنيع الحجر(٣٨) .

رابعا : العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) :

بعد الركود الذي ساد في الباليوليت الاعلى استعادت سورية ، ومنطقةالمشرق العربيالقديمعموما ، دورها. ففي نهاية البليستوسن ايمنذحوالي ١٢٫٠٠٠سنةق.م تراجع الجليد عن نصف الكرة الشمالي ومال المناخ نحو الدفء واختفت حضارات الباليوليت الاعلى الاوربية وخاصة الحضارة المجدلانية(٣٩) وتبدلت الادوار منجديد، فانتقل مركز النشاط البشري من اوربة الى اسيا وخاصة منطقة جنوب غرب اسيا التي ستصبح منذ الان مسرح التفاعلات الجديدة الهامة التيهيات لعصر جديد وفاصل انتقلت فيه البشرية من حياة التنقل والصيد والالتقاط الى الاستقرار والزراعة والتدجين . ولعبت المنطقة المسماة بالهلال الخصيب ، ومركزها في سورية وفلسطين، دورا حاسما في ذلك العصر(٤٠) فقد ادى التحسن المناخي الذي ساد في هذه المنطقة الى خروج الانسانمن المغائر الى السهول المكشوفة التيظهرتفيها الحبوبوالحيوانات البرية التي زرعت ودجنت في العصر اللاحق . لقد تبلورت في الميزوليت الوحدة الحضارية للوطن العربي القديم واضحة اكثر من اي وقت مضى ، حيث غابت الحضارات العالمية ذات الانتشار الواسع كالاشوليةوالموستيرية والاورينياسية وظهرت

حضارات اخرى، محلية الاصل والفرع. فالكباريون(٤١) سكنوا في يبرود وجيرود والكوم ووادي الفرات في النصف الاول من الميزوليت (١٢ ــ ١٠ الف سنة ق.م) . وكانوا أول من صنع الادوات الحجرية الصغيرة جدا وذات الاشكال الهندسية Microlithes - géometrique التي ارتبطت ببداية صنع الادوات المركبة حيث ثبتت القطع الحجرية المشذبة بعناية على مقابض عظمية وخشبية لتصبح سكاكين ومناشير ومناجل منوعة . ومع تنامي الالتقاط المكثف للحبوب البرية ، في المناطق الغنية بها ، عرفت الادوات الزراعية الكبيرة من الاحجار البازلتية خاصة، كالمجاريش والاجران والمدقات كما عرف الكباريون البناء البسيط والفنون الاولى لكننا لم نعثر في قطرنا حتى الان ، على دلائل للفن والبناء على غرار تلك التي وجدت في فلسطين . في مطلع الالف العاشر ق.م بدأ عصر مناخي دافيء هو الهولوسن Holocène الذي لايزال مستمرا حتى الان ، ودخلت سورية ، في عصر الحضارة النطوفية(٤٢) التي اتتمتطورة عن سابقتها ، الكبارية . وكان النطوفيون أول المجتمعات المستقرة حيث سكنوا في مراحلهم الباكرة في الكوم ويبرود وجيرود وصيدنايا قرب دمشق والطيبة قرب درعا ، وانشأ هؤلاء قرى الصيادين الاولى في حوض الفرات حيث وجدت بيوتهم في السويات الدنيا من مواقع تل المريبط ، وتل أبو هريرة .. وهي بيوت صغيرة محفورة على السفوح المنحدرة في الارض ، جدرانها من الطين وسقوفها من الاغصان والجلود وكانت المنازل متجاورة لكنها غير متلاصقة ، ورغم استقرار النطوفيين النسبي فهم لم يعرفوا الزراعة ولا التدجين بل اعتمدوا في تأمين غذائهم على الصيد والالتقاط البريين اللذين مورسا بكثافة وتخصص عاليين . كما استفادوا من الثروات السمكية في الانهار وبقوا يستخدمون الادوات الميكروليتية الهندسيةلكنهم اضافوا أشكالا جديدة كالادوات ذات الشكل الهلالي أو أنصاف الدوائر Lunettes التي شذبوهاوجهزوا بها أدواتهم المركبة كالمناجللالتقاط النباتات البرية، كالقمحوالشعير ،والخطاطيف لصيدالاسماك. كما عرفوا الابر والمخارز العظمية ، التي استخدموها في خياطة ملابسهم وجلودهم وأمتعتهم الاخرى ، والادوات الزراعية الثقيلة من الحجر البازلتي ، وهم أول من صنع ، في قطرنا ، مواد الزينة البسيطة كالخرز والقلادات والتمائم وغير ذلك من الانجازات التي تدل على مجتمع انتقل من مرحلة الجماعة الى مرحلة القبيلة وتوضحت سماته الخاصة الى درجة عالية وقامت بين أفراده علاقات اكثر غنى وتنظيما مما كان عليه الحال في عصر الباليوليت(٤٣) .

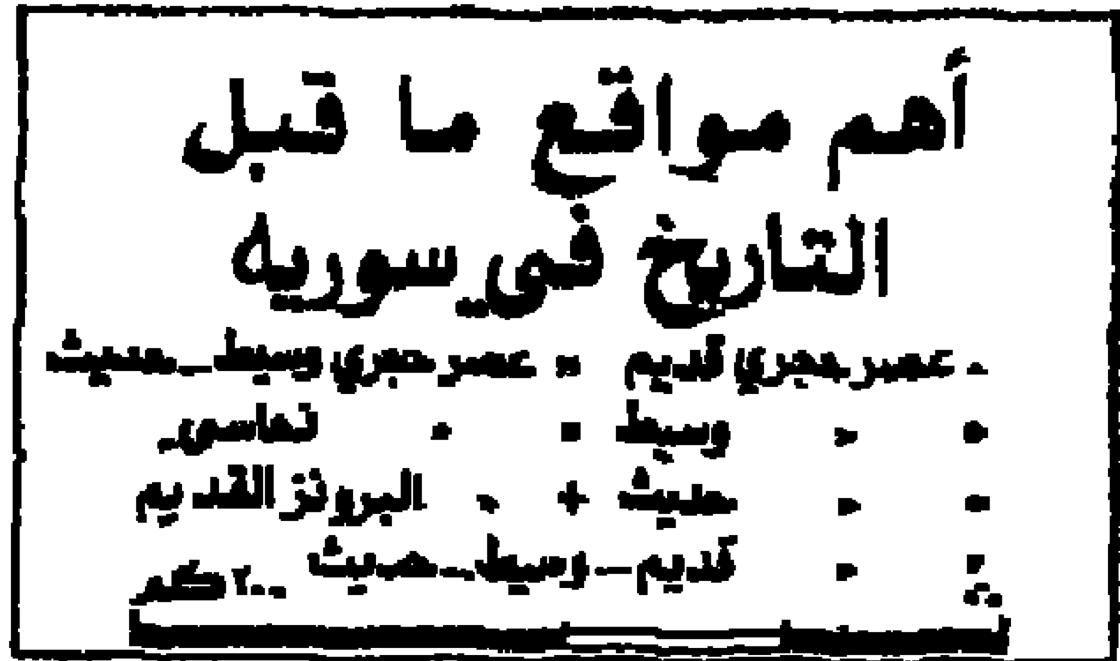
خامسا : الحضارات الزراعية في العصر الحجري الحديث « ما قبل الفخار »

في نهاية الالف التاسع وبداية الالف الثامن ق.م وهي المرحلة المسماة بالنيوليت

ما قبل الفخار آ (٤٤) نضجت تحولات العصر السابق وحصل الانعطاف التاريخي الاول والاهم في تاريخ الانسان الذي انتقل تدريجيا ، من الصيد والالتقاط الى الزراعة والتدجين واصبح بذلك منتجا للطعام بعد ان كان جامعا له(٤٥) . لقد عثر على الاثار الاولى والاقدم لهذا الانعطاف الكبير في سورية وفلسطين ، دلت عليه مواقع تل المريبط وتل الشيخ حسن في حوض الفرات وتل اسود في حوضة دمشق ، واريحا في وادي الاردن ، لقد اقام سكان القرى الزراعية الباكرة في مطلع الالف الثامن ق.م في بيوت كبيرة وقوية استخدموا في بنائها اللبن ، لاول مرة ، والحجر والطين والخشب، وجعلوا أشكالها مستطيلة او مربعة اتت متطورة عن البيوت الدائرية الصغيرة التي ميزت العصر النطوفي السابق ، كما أصبحت البيوت متلاصقة مع بعضها ، مما سمح بزيادة عدد غرفها بسهولة كلما ازداد سكانها او دعت الحاجة . لقد انتشرت ،بكثافة، الادوات الزراعية الثقيلة كالرحى والاجران والبلطات كما صنعت المناجل ورؤوس السهام والادوات العظمية والاواني الحجرية . ومارس سكان القرى الزراعية الاولى صيد الحيوانات المختارة كالثور والغزال والحصان البري وقل اعتمادهم على الاسماك والطيور كما اشارت الى ذلك تنقيبات المريبط . ورغم زراعتهم للقمح والشعير الا انهم استمروا ايضا في التقاط هذه الحبوب التي عاشت في وسطهم برية وكثيرة . وفيما يتعلق بحياتهم الفنية والروحية فهم اول من تركوا لنا الفنون الاولى حيث عثر في المريبط، على جدران احد بيوت السوية الثالثة، على خطوط تزيينية سوداء رسمت على خلفية بيضاء يعتقد انها كانت تمثل شكلا هندسيا محصورا بين اطارين من اللون الاحمر، من المؤسف ان التلف اصابها وضاعت معالمها الحقيقية . وصنع السكان من الحجر ومن الطين تماثيل « الربة الام » التي تمثل امرأة عارية ترفع ثدييها بيديها وتبرز انوثتها، وتماثيل اخرى للثور المقدس .

كما دفنوا موتاهم في ارضيات بيوت سكنهم بعد ان فصلوا الجمجمة عن الجسم، كل ذلك يدل على مواقف محددة من قضايا الخصب والموت والحياة ترسخت مع الزمن واستمرت طويلا في معتقدات الشعوب اللاحقة في الوطن العربي القديم(٤٦) .

وفي مطلع الالف السابع ق.م (النيوليت ما قبل الفخار ب) حصلت حركات واسعة لشعوب المنطقة وقامت اتصالات وعلاقات تجارية ، هي الاولى من نوعها ، بين مناطق تبعد عن بعضها مئات الاميال فوصلت الاحجار النادرة ، كالاوبسيديان من الاناضول الى سورية وخامات اخرى من جبال زاغروس وافغانستان . واذا كان الالف الثامن هو عصر ابتكار الزراعة فان الالف السابع ق.م هو عصر ترسيخ هذا الابتكار من جهة واضافة ابتكار جديد اخر هو تدجين الحيوانات من جهة اخرى، تلك الحيوانات


أهم مواقع ما قبل
التاريخ في سوريه
عصر حجري قديم
عصر حجري وسيط ـ حديث
وسيط
نحاسي
حديث
البرونز القديم
قديم ـ وسيط ـ حديث
٢٠٠ كم

٤ ـ اهم مواقع عصور ما قبل التاريخ كما وردت مرقمة على الخارطة :

١ ـ ست مرخو
٢ ـ الشيخ محمد
٣ ـ المشرفة
٤ ـ مشيرفة الساموك
٥ ـ الشير
٦ ـ بكسا
٧ ـ هنادي
٨ ـ بانياس
٩ ـ تبة الحمام
١٠ـ أرض حمد
١١ـ موقع الحامي
١٢ـ اللطامنة
١٣ـ خطاب
١٤ـ القرماشي
١٥ـ تلول الدفاعي
١٦ـ الرستن
١٧ـ يبرود
١٨ـ جيرود
١٩ـ صيدنايا
٢٠ـ تل العريفة
٢١ـ تل الخزامي
٢٢ـ تل اسود
٢٣ـ تل الرماد
٢٤ـ المجامع
٢٥ـ الطيبة
٢٦ـ تل مرديخ (ابلا)
٢٧ـ جبل عرودة
٢٨ـ حبوبة الكبيرة
٢٩ـ تل قناص
٣٠ـ تل أبو هريرة
٣١ـ تل المريبط
٣٢ـ شمس الدين طنيره
٣٣ـ ام التلال
٣٤ـ الندوية
٣٥ـ بئر الهمل
٣٦ـ الكوم
٣٧ـ كهف الدوارة
٣٨ـ جرف العجلة
٣٩ـ أم قبيبة
٤٠ـ تل بقرص
٤١ـ عين ابو جمعة
٤٢ـ شنينة
٤٣ـ تل حلف
٤٤ـ تل عقاب
٤٥ـ شكر بازار
٤٦ـ تل براك

التي كانت الهدف المفضل للصيد في الالف الثامن والتاسع ق.م ، كالغنم والماعز والبقر. ولقد بدات منذ ذلك الحين تتطور ، جنبا الى جنب ، مجتمعات اعتمد بعضها على الزراعة وبعضها الاخر على تربية المواشي ، علما بان هذا التخصص لم يكن حادا كما قد يظن ، لان الكثير من قرى الالف السابع قد مارست الزراعة والتدجين معا رغم تفاوت دور هذه الانشطة من مستوطنة الى اخرى. في نهاية الالف السابع ق.م تجذرت الزراعة والتدجين كاسلوب رئيسي في انتاج الطعام وخرجت القرى الزراعية الاولى من مناطقها التقليدية في الوديان والسفوح المطيرة ، المواتية للزراعة البعلية الى مناطق جديدة امطارها أقل كالبادية (الكوم ، بقرص) او ساحلية لا تنمو فيها الحبوب البرية (راس الشمرة ، تبة الحمام) لقد بني سكان هذه القرى الجديدة منازل اقوى من اللبن ، على اساس من الحجر ، منظمة بشكل افضل من السابق كانت تتصل غرفها مع بعضها بممرات ومجهزة بالمواقد والتنانير وأرضها وجدرانها مطلية لاول مرة بالملاط الابيض تفصلها شوارع كبيرة أو صغيرة ويعتقد ان بعض هذه البيوت كان له أكثر من طابق واحد . ويعتبر موقع بقرص ، قرب دير الزور ، افضل نموذج للبناء المنظم في هذا العصر(٤٧) كما طور الناس أدواتهم واسلحتهم وخاصة رؤوس السهام الحادة والطويلة وصقلوا بعناية بعض هذه الادوات كالبلطات لتصبح اكثر مضاء ، وصنعوا الاواني من الحجر الكلسي الابيض (الاواني البيضاء) التي مهدت الطريق لظهور الاواني الفخارية(٤٨) ، وعرفوا الاواني الرائعة من المرمر التي يعتقد انه كان لها استخدام ديني واجتماعي خاص . وعلى المستوى الروحي استمرت المجتمعات



١ـ مقطع جيومورفولوجي في حوض العاصي

الزراعية الاولى بصنع الدمى الانسانية والحيوانية المختلفة التي ترمز ، كما اشرنا الى عقائد مجتمع زراعي يقدس الخصوبة والامومة (الربة الام) . لكنهم اصبحوا يدفنون موتاهم خارج بيوت سكنهم الا ان الاهتمام بالجماجم قد تزايد فلم يعد يكتفى بدفنها معزولة عن الجسد ، في قبور خاصة ، كما في السابق وانما اصبحت هذه الجماجم تثبت على قواعد طينية وتوضع على امتداد جدران بيوت السكن ، كما ظهر في السوية الرابعة في المريبط . ثم ما لبثت الجماجم ان حنطت حيث كشط لحمها واعيد تكييف معالمها بالكلس ، ووضعت على تماثيل كبيرة من الطين (تل الرماد) ويرى الباحثون في هذا العمل الدليل الاثري الصريح على انتشار عقيدة «عبادة الاجداد » وهي عقيدة مارستها شعوب المنطقة كلها من الفرات وحتى وادي الاردن . وهي تشكل دليلا اخرا على الرباط الروحي الباكر بين سكان هذه المناطق . وفي نهاية عصر النيوليت قبل الفخار ب حققت الفنون تقدما ملحوظا فتنوعت ادوات الزينة كالخرز والخواتم والامشاط والتمائم وظهرت ولاول مرة الاختام المسطحة من الطين والحجر الاخضر (راس الشمرة السوية Vc) والفنون الجميلة التي تدل عليها الرسوم التي نفذت باللون الاحمر على خلفية بيضاء ووجدت على جدران احد بيوت بقرص وهي تمثل طيور النعام ، كما وجدت في نفس الموقع وجوه بشرية كبيرة من الطين عيونها منزلة ، هي الاولى من نوعها في قطرنا .

سادسا : مجتمعات العصر الحجري الحديث الفخاري :

في بداية الالف السادس ق.م تكتمل انجازات انسان العصر الحجري الحديث بالتوصل الى معرفة الاواني الفخارية التي باتت ضرورية لحفظ وتخزين الطعام والشراب في القرى المستقرة(٤٩) . لقد صنعت من الطين الناعم المحضر مختلف انواع الاواني الكبيرة والصغيرة كالجرار والقدور والصحون والطاسات واصبحت الاواني الفخارية ، بعد ان كانت الادوات الحجرية ، من السمات المميزة للشعوب وعلى اساسها يجري تمييز هذه الشعوب وتحديد انتشارها الزماني والمكاني . ان اقدم ظهور واسع للفخار في قطرنا اتى من الجزيرة العليا (موقع تل اسود) وهو يعود الى نهاية الالف السابع وكان من النوع الاسود والمصقول باليد ويعتقد انه من هذه المنطقة انتقلت صناعة الفخار شرقا الى بلاد الرافدين وغربا الى الاناضول وسواحل المتوسط. تلاذلك فخار منطقة العمق، المسمى بالعمق آ Amuq A الذي انتشر في المناطق الغربية من سورية(٥٠) وهو بني اللون او قاتم عموما عليه بعض الحزوز والطبعات الزخرفية البسيطة (السوية VB في راس الشمرة وموقع تل سوكاس) ، وهو يوازي زمنيا فخار العمق آ . وفي مرحلة لاحقة تسمى العمق ب ، انتشر نوع آخر من الفخار الرمادي المصقول ايضا وهو احدث نسبيا (السوية VA في راس الشمرة) وفي هذه المرحلة

انتقلت صناعة الفخار من سورية الى فلسطين جنوبا وسادت في الالف السادس في كل المنطقة المسماة بالهلال الخصيب حضارة كبيرة متجانسة تألفت من مجموعة مراكز محلية أصغر تشابهت مع بعضها بدرجات متفاوتة فكانت الجزيرة السورية أقرب الى بلاد الرافدين الشمالية بينما شكلت السواحل السورية مع الفلسطينية واللبنانية مركزا حضاريا واحدا، في حين كانت مناطق جنوب سورية اشبه بالحضارات الفلسطينية.
لقد عاشت مجتمعات النيوليت الفخاري، مثل سابقتها ، على الزراعة والتدجين وبقي القمح والشعير والغنم والماعز اهم ما زرع ودجن في ذلك العصر ، وقد تطورت آنئذ الادوات الزراعية والاسلحة وخاصة رؤوس السهام التي اصبحت اكثر تخصصا (كنبال العمق او نبال جبيل على الساحل اللبناني) وزاد استخدام الحجر المصقول كالفؤوس والبلطات والمقدات ولكن لم يطرأ تغير يذكر على البناء ولا على الحياة الفنية والروحية وان كنا نرى نقصا ملحوظا لا نجد له تفسيرا كافيا في صنع الدمى الانسانية والحيوانية.
منذ منتصف الالف السادس ق.م اختلف بشكل واضح وتائر التطور في قطرنا وبعد ان سارت حتى الان بشكل متواز، فواكبت الجزيرة السورية مناطق شمال الرافدين الذي تسارعت فيها التفاعلات الحضارية ممثلة بالثقافة الحلفية الجديدة(٥١) التي حققت انجازات كثيرة ليس اقلها الفخار الرائع ، بينما بقيت المناطق السورية الجنوبية شديدة الصلة بفلسطين والاردن ، وتعيش معها تقاليد العصر الحجري الحديث.

سابعا : حضارات العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) .

في منتصف الالف السادس ق.م ظهرت ، كما ذكرنا ، في شمال بلاد الرافدين وفي الجزيرة السورية الحضارة الحلفية التي عرفت لاول مرة النحاس واستخدمته ، مطروقا ، في تصنيع بعض الادوات الخفيفة وبدأ دور الحجر بالتراجع لتتصاعد اهمية المعادن ، ومن هنا أطلقت تسمية العصر الحجري النحاسي الذي يمثل المراحل الاخيرة من عصور ما قبل التاريخ. ان من اهم ما يميز الحلفيين هو الاواني الفخارية الرقيقة، جيدة الصنع ، الملونة والمزخرفة باشكال هندسة ونباتية وحيوانية وانسانية غاية في الجمال . لقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من شمال الرافدين وحتى سواحل المتوسط مما يشير الى تجانس حضاري شمل ايضا النصف الشمالي من سورية وحتى البقاع جنوبا . لقد انتج الحلفيون السوريون فخارهم الخاص الشديد الشبه بالنوع المستورد من الشمال الرافدي(٥٢) وصنعت هذا الفخار مراكز متخصصة صدرته الى مناطق اخرى بعيدة قامت بينها علاقات وصلات قوية . لقد تطور الحلفيون السوريون بشكل متزامن مع اخوانهم الرافديين وما المواقع السورية الهامة كشاغار بازار، وتل اسود ، وتل عقاب ، وتل حلف ، وتل يونس وغيرها الا المرادف الحضاري لياريم تيه والعربجية في العراق. وكما تطور الحلفيون هناك على مراحل

ثلاث باكرة ومتوسطة واخيرة نلاحظ وجود نفس المراحل التطورية في سورية . لقد سكن الحلفيون في بيوت مستطيلة او مربعة أو دائرية مبنية من اللبن والحجر بعضها بتألف من مدخل مستطيل ينتهي ببيت دائري مقبب(٥٢) ، وصنعوا الادوات الحجرية المنوعة والمصقولة والادوات الاوبسيديانية ، والاختام المسطحة والمواد الفنية كالخرز والدمى وخاصة التي تمثل «الربة الام » . ويدل البيت الصغير فيتل اسود الذي عثر في جداره على جمجمة ثور انه كان معبدا مورست فيه الشعائر الدينية(٥٤) . في النصف الاول منالالف الرابعق.م. ظهرت على انقاض الحلفيينالحضارةالعبيدية(٥٥) ، وان الكثير من المواقع السورية كرأس الشمرة وتل عقاب وتل حلف وشاغاو بازار اعطتنا اواني فخارية لها صفات انتقالية مشتركة بين عصري حلف المتأخر وعبيد الباكر معا يحملنا على الاعتقاد بان العبيديين السوريين هم أيضا مثل الحلفيين ، سكان محليون اصلاء وليسوا مهاجرين ولا غزاة قدموا من جنوب بلاد الرافدين كما ظن سابقا ، لقد انتشر العبيديون على نفس المناطق التي عاشت فيها سابقا المجتمعات الحلفية ، اي بقوا في القسم الشمالي من سورية ولم يتجاوزوا حمص جنوبا ، وعرفوا تصنيع الاواني الفخارية ، لكنها كانت اقل جودة من السابق معظمها بلون واحد ، برتقالي فاتح غالبا ونادرا ما صقلوها ، اما زخارفها فكانت هندسية واحيانا طبيعية ، كالنباتات والحيوانات والبشر . ان الابتكار الهام في هذا العصر هو الدولاب البطيء الذي مكنهم من انتاج أوان أكثر تنوعا وانتظاما . وخير ما يمثل الفخار العبيدي هو راس الشمرة السوية III c التي وجد فيها فخار له عدة الوان أو لون واحد ، غالبا أحمر ، وفيه صفات انتقالية بين حلف وعبيد ، والسوية III B حيث ظهرت فيها الاواني العبيدية الخالصة ، كالجرار والقدور ذات المثاعب المزخرفة ببصمات الاصابع وبعضها باشكال هندسية مختلفة . لقد سكن العبيديون في بيوت مستطيلة من الطين والحجر، رصفت ارضها بالحجارة وتوسطتها المواقد ، وصنعوا أدوات زراعية ، وخاصة المناجل والبلطات لقطع النباتاتوالاخشاب،والقداديم من الاحجار الخضراء ، وعرفوا النسيج وأدوات الزينة من العظم والاوبسيديان والاحجار النادرة الاخرى والدمى الانسانية المختزلة من الطين والحجر والكلس . الى الجنوب من مناطق انتشار الحلفيين والعبيديين ، أي جنوب حمص ،وعلى امتداد الالفين الخامس والرابع ق.م عاشت مجتمعات أقل تطورا تابعت نمط حياة العصر الحجري الحديث ، سكنت في بيوت حجرية كبيرة كما هي الحال في موقع المجامع في منطقة القنيطرة او طينية صغيرة كما هي الحال في تل الخزامى في حوضة دمشق، وصنعت الادوات الزراعية المنوعة وكان لها فنونها ومعتقداتها الخاصة وهي أقرب الى حضارة الغسول الفلسطينية(٥٦) .

ثامنا : نشوء العمران وفجر التاريخ :

في النصف الثاني من الالف الرابع ق.م(٥٧) انطلقت من مدينة الوركاء في جنوب بلاد الرافدين الحضارة السومرية التي ابدعت نظام الكتابة وأسست أول دولة في التاريخ.في هذا العصربلغ التشابه بل التطابق الحضاري بين سورية وتلك البلاد لدرجة اكبر من اي وقت سبق ، دل على ذلك نمط البناء والفخار والفنون والكتابة التصويرية الاولى وغير ذلك ، لقد انشئت المدن المسورة والمحصنة الاولى في وادي الفرات السوري على امتداد الطريق التجاري الهام بين دولة السومريين في الجنوب وسواحل المتوسط والاناضول في الشمال ، كما أظهرت تنقيبات الانقاذ التي جرت اثناء اقامة سد الفرات(٥٨) وادت الى اكتشاف العديد من المواقع الهامة التي نسبت الى حضارة الوركاء وعلى رأسها حبوبة الكبيرة الجنوبية وتل قناص وجبل عرودة ، اضافة الى تل براك في الجزيرة السورية شمال الحسكة المعروف منذ الاربعينات والذي استؤنف التنقيب فيه في السنوات الاخيرة . ان موقع حبوبه الكبيرة الذي بلغت مساحته حوالي ١٨هـ٢، يعطينا أفضل فكرة عن نظام بناء المدن في ذلك الحين(٥٩) فلقد شيدت مدينة حبوبة وفق مخطط مسبق ودقيق وزودت بشبكة من الطرق الرئيسية والفرعية والاقنية لتمديد وتصريف المياه .

بنيت المساكن على الطراز السومري المعروف بثلاثي العناصر Tripartite اي باحة كبيرة مركزية مربعة أو مستطيلة في منتصفها موقد أو كثر ويحيط بها من الجانبين صفان من الغرف الصغيرة وهذا نفس النموذج الذي بنيت وفقه المعابد الاولى . وهناك طراز اخر من البناء ، محلي بحت ، اسماه المنقبون بالبيت الشرقي ويتألف من صالة كبيرة واحدة تطل على صحن دار داخلي . لقد انتشرت معظم المساكن حول شارعين رئيسين يوازيان الفرات ويقطعان المدينة من شمالها الى جنوبها ، وقامت بجوار بيوت السكن الابنية الاقتصادية المختلفة كالمشاغل والمستودعات . احاط بالمدينة من كل جهاتها ، عدا الشرق حيث الفرات ، سور مزدوج هو الافضل حفظا من نوعه في المشرق العربي القديم . لقد بني هذا السور من اللبن وبلغ عرضه ثلاثة امتار وطوله ٦٠٠ متر فيه بوابتان رئيستان وتعلوه ابراج دفاعية مستطيلة وعضادات تدعمه وتعطيه شكلا جميلا . لقد صنع سكان المدينة اواني من الفخار العادي، بعد ان تراجع فخار عصر العبيد الملون ، كالقصعات والجرار والقدور التي طبعت سطوحها بالاختام الاسطوانية التي صنعت لاول مرة في قطرنا ونقشت عليها مواضيع اسطورية وطبيعية تذكر باختام الوركاء . والى الجنوب من تل حبوبة الكبيرة الجنوبية يقوم تل قناص الذي اتضح انه يمثل الجناح الاداري والديني لمدينة حبوبة الكبيرة(٦٠)، حيث كشف عن ثلاثة

معابد مبنية فوق مصطبة مرتفعة وعلى نفس النموذج الثلاثي العناصر الذي بنيت وفقه بيوت السكن ومزودة بمصاطب امامية وادراج ، وجدت في هـذه المعابـد الجـرار الفخارية المزخرفة بالضغط او الحز ، والاواني المرمرية الكبيرة ذات المثاعب ، وأدوات زراعية ومنزلية وصناعات نفيسة واختام واسلحة بل والاهم من كل ذلك اللوحات الطينية التي حملت اشكالا حيوانية بقربها رموز حسابية تمثل الكتابـة التصويريـة Pictographe التي تعـود الى الربع الاخير من الالف الرابـع ق.م وتمثل المرحلـة الاولى من تاريخ الكتابة(٦١) وعلى هذا العصر يؤرخ جبل عرودة الواقع على بعد بضع كيلو مترات الى الشمال من حبوبة ، لقد شيد السكان على قمة الجبل الذي يرتفـع حوالي ٦٠ مترا عن السهل المجاور معبدين كبيرين بنيا على نفس المخطط ثلاثي العناصر ايضا وزينت جدرانهما بالمسامير الطينية الملونة مثل المعابد الرافدية في مدينة الوركاء، في واحد من هذين المعبدين عثر على رقم طينية عليها كتابة تصويرية وطبعات اختام اسطوانية تشبه رقم حبوبة والوركاء وهذا دليل اخر على الوحدة الحضارية للمنطقة .
وجدير بالذكر ان لوحات كتابية مشابهة أيضا آتت من موقع تل براك ، في الجزيرة العليا حيث وجد معبد رائع هو « معبد العيون » زين محرابه بالاحجار النادرة والمعادن الثمينة مما اكسبه صفة محلية خالصة (٦٢) ان عدم استمرار الحياة مدة طويلة في مدن الفرات الاوسط ، التي لم تعمر الا حوالي قرن او قرن ونصف من الزمن اذ اودى بهـا حريق كبير ، حمل البعض على اعتبارها محطات تجارية سومرية مؤقتة ربطت بين بلاد الرافدين جنوبا ، حيث ازدهرت ثقافة الوركاء ،وبين الاناضول والمتوسط شمالا. لكننا نظن انهما مراكز استيطان مدني وأصيل تطورت محليا ، بشكل متزامن مع مثيلاتها في بلاد الرافدين مستفيدة من موقعها الجغرافي المناسب. يدعم هذا الراي العثور على اثار عصر الوركاء وخاصة الفخار في مناطق بعيدة عن الفرات وصلت حتى الكوم في البادية السورية والجزيرة العليا حيث يقوم موقع تل براك الذي بقيـت الحياة فيـه مستمرة بلا انقطاع وحتى العصور التاريخية اللاحقة والذي وجدت فيه كما أشرنـا كتابات تصويرية تعود الى نهاية الالف الرابع ق.م. بعد هذه التاريخ غابت الكتابة في قطرنا لمدة طويلة قبل ان تظهر الكتابة المسمارية المتطورة التي دل عليها الارشيف الملكي في ابلا العائد الى الربع الثالث من الالف الثالث ق.م وهو زمن دخلت فيه سورية بالكامل في العصور التاريخية القديمة(٦٣) .

الرباعي في سورية

الزمن بالسنين	المواقع الهامة	الحضارة	العصر	الانسان	الرباعي الاوربي	الرباعي السوري	اقسام الرباعي	[illegible] انى بارك
٣٠٠٠	تل حلف، تل عقاب، تل براك، تل حبوبة الكبيرة، جبل عارودة، شمس الدين طنيرة، شاغار بازار، المجاسع، تل الخزامي.	مجتمعات انتقالية الى العصور التاريخية	العصر الحجري النحاسي	الانسان العاقل	تشكلات الهولوسن	تشكلات الهولوسن	الهولوسين	
٥٠٠٠	تل المريبط، تل أبو هريرة، بقرص، تل الرقاد، تل العريفة، رأس الشمرة، لبة الحمام	مجتمعات الزراعة والتدجين	العصر الحجري الحديث					
٨٠٠٠	الكوم I، الندوية I، المريبط I، صيدنايا، جيرود، يبرود III، الطيبة	الكبارية النطوفية	العصر الحجري الوسيط		فرم	الشيرم	البليستوسين — البليستوسين الأعلى	
١٢٫٠٠٠	يبرود II والطبقات العليا من كهوف جرف العجلة و الدوارة.	الاوريناسيه	العصر الحجري القديم الاعلى					
٣٥٫٠٠٠	جرف العجلة وكهف الدوارة والطبقات العليا في أكثر مواقع العصر الانتقالي.	اللفلوازية — الموستيرية	العصر الحجري القديم الأوسط	النياندرتال				
١٠٠٫٠٠٠	يبرود I، بئر الهمل، الندوية III، أم التلال، أم قبيبة عشيرته الساموك، تلول الدناعي.	الآشولية الاخيرة اليبرودية، الهملية، السامركية الدفاعية	عصر انتقالي	الهومو اركتوس	ريس — فورم	بانياس		
٥٠٠٫٠٠٠	ست مرخو، الشيخ محمد، خطاب، الرستن، اللطامنة، القرماشي، ارق حمد، موقع الحامي.	التياسية	العصر الحجري القديم الأدنى		ريس	عين أبو جمعة		
					مندل — ريس	هنادي	البليستوسين الاوسط	
					مندل	اللطامنة		
		الآشولية			جينز — مندل	يكسا		
				الاوسترالوبيتك	جينز	ست مرخو	البليستوسين الادنى	
١٠٠٠٫٠٠٠		الابفيلية			دونو — جينز	الشرفة		

(١) لقد ظهر الانسان الاول منذ ما ينوف على المليوني سنة في جنوب وشرق القارة الافريقية، واخترعت الكتابة التصويرية الاولى في بلاد الرافدين وفي سورية منذ نهاية الالف الرابع ق.م . وعليه فان عصور ما قبل التاريخ تقع بين هذين الحدثين . ويقسم الباحثون هذه العصور الى العصر الحجري القديم الباليوليت Paléolithique الذي بدأ في ازمنة متفاوتة مع ظهور الانسان في مختلف الاماكن وانتهى في نحو ١٢٠٠٠ سنة ق.م . وهو عصر التنقل والصيد والالتقاط، ويقسم بدوره الى الباليوليت الادنى والاوسط والاعلى ، يليه العصر الحجري الوسيط الميزوليت Mésolithique وهو عصر انتقالي استمر من نحو ١٢٠٠٠ حتى نحو ٨٠٠٠ سنة ، ثم العصر الحجري الحديث النيوليت Néolitihiqueوهو عصر الاستقرار والزراعة والتدجين واستمر من نحو ٨٠٠٠ وحتى نحو ٤٠٠٠ سنة ق.م . واخيرا العصر الحجري النحاسي الكالكوليت Chalcolithique ويمثل نهاية عصور ما قبل التاريخ وبداية الانتقال الى العصور التاريخية القديمة وقد استمر على امتداد الالف الرابع ق.م . تقريبا . علما بان هذه الارقام مدورة ونسبية وتتباين من موقع لاخر ومن منطقة لاخرى . وتساعدنا الان طرق التاريخ المخبرية في تحديد سلم زمني أدق لعصور ما قبل التاريخ .

(٢) عثر هذا الفرنسي المتعدد الاهتمامات على هذه الادوات في حوض نهر السوم في منطقة ابفيل Abbeville ، ونشر بين ١٨٤٧ - ١٨٦٠ ثلاثة مجلدات حاول فيها تاكيد قدم الانسان السحيق جدا عكس ما كان يعتقد ، وفق التوراة ، من ان الانسان يعود الى الالف الرابع ق.م .

(٣) في الوقت نفسه (١٨٥٩) قام السيد غودري A. Gaudry بالحفر من موقع سان اشول Saint Acheul في حوض نهر السوم ايضا وحصل على المزيد من الاسلحة والادوات الحجرية المتطورة الصنع بينها فؤوس حجرية هي التي تميز ما يسمى الان بالحضارة الاشولية Acheuléen .

(٤) نشر هذا الكتاب The Qrigin of Species في ١٨٥٩ وفيه عالج داروين قضية التطور مؤكدا ان العالمين الحيواني والنباتي قد تطورا عبر زمن طويل في اطار قوانين الاصطفاء الطبيعي وبقاء الافضل . وفي مؤلف اخر عن اصل الانسان The Descent of Man الذي صدر في ١٨٧١ عالج داروين مسالة تطور الانسان نفسه من الرئيسيات وحتى الانسان العاقل . وقد كتب هذا المؤلف في زمن كانت فيه الاكتشافات قليلة ومناهج البحث بسيطة مما جعله يفتقر الى الدقة العلمية التي نلمسها اليوم في مؤلفات اخرى تعالج نفس الموضوع . ومهما يكن فهنالك اتفاق عام الان بين الباحثين على قضية التطور وان اختلفوا في الكيفية او التفاصيل ونامل التعرض لهذا الموضوع في بحث مستقل قريبا .

(٥) نذكر من الباحثين الذين عملوا في النصف الاول من القرن العشرين وكان لهم الفضل في ارساء دعائم علم ما قبل التاريخ ، وكلهم فرنسيون : H. Breuil, H. Christy, E. Lartet, C. de Mortillet, V. Commont, D . Peyrony, فلا نستغرب أن يقال ان علم ما قبل التاريخ علم فرنسي ، كما ان معظم حضارات ما قبل التاريخ اخذت تسمياتها من المواقع الفرنسية ، ولكن ذلك لا يعني أسبقية فرنسا الحضارية في هذه العصور انها قضية تاريخ البحث ليس الا ، وقد دلت الدراسات الحديثة عدم دقة تطبيق النموذج الفرنسي لعصور ما قبل التاريخ على كل المناطق التي كان لها ميزات مستقلة ولا بد من ايجاد نماذج محلية تعبر عن طبيعة تلك العصور بشكل اكثر علمية وموضوعية وهذا ما يحصل الان في مختلف البلدان .

(٦) تستخدم الان بتصاعد الحواسب الالكترونية وطرق التاريخ والتحاليل المخبرية الفيزيائية ـ الكيميائية الحديثة ، اضافة الى القوانين الرياضية وعلوم اخرى ، وذلك في دراسة بقايا عصور ما قبل التاريخ سواء كانت ادوات اثرية حجرية او عظمية أم مستحاثات نباتية او حيوانية او جيولوجية أم هياكل عظمية بشرية ، وتعطي هذه الطرق المتطورة نتائج مشجعة تتحسن دقتها باستمرار .

(٧) يعتبر الامريكي بينفورد والانكليزي دافيد كلارك رائدي علم الاثار الحديث الذي يتبع المنهج الاستدلالي Deductive الذي يعتمد على طرح نظريات تتعلق بحياة انسان ما قبل التاريخ ثم محاولة التحقق من هذه النظريات من خلال البحث الميداني ،على عكس منهج علم الاثار التقليدي الاستقرائي Inductive الذي يدرس عصور ما قبل التاريخ دون افتراضات مسبقة ، بل كما يظهرها واقع البحث الاثري في الموجه سلفا ومهما يكن فاننا لا نعتقد ان علم الاثار الحديث قد أتى بثماره الكاملة او احدث ثورة في معارفنا عن مجتمعات ما قبل التاريخ ، فكلا المنهجين يلتقيان ويكمل احدهما الاخر ومن اجل المزيد من المعلومات حول هذا الموضوع يمكن الرجوع الى المؤلفات التالية :

— R.L. et Sally Binford, 1968, **New Perspective in Archaeology,** Chicago.
— D.L.Clark, 1968, **Analytic Archaeology,** London.
— P. Courbin, 1982, **Qu' est que l'Archeologie,** Payot, Paris.

(٨) لقد قام بالاعمال الاولى حول عصور ما قبل التاريخ رجال دين وضباط فرنسيون جمعوا بعض الادوات الحجرية من مناطق مختلفة في سورية ولبنان، وخاصة من احواض الانهار الرئيسية كالفرات والعاصي والليطاني وقاموا بدراسات اولية لها ، نذكر من هؤلاء الاب زوموفن الذي نشر بعض المؤلفات في مطلع هذا القرن عن ما قبل التاريخ السوري واللبناني ، والضابط برفيه الذي نشر في الاربعينات دراسات اخرى مشابهة عن مواقع ما قبل التاريخ السورية ـ اللبنانية ، ومن اهم المراجع الاولى :

— G. Zumoffen, 1900, **La Phénicie avant Les Phéniciens,** Beyrouth Imp. Catholique.
— Zumoffen, 19o8 « L' Age de la Pierre en Phênicie » **Anthropos,** 3, 431—55 .
— M, Pervés, 1946 — 48 « La Préhistoire de La Syrie et du Liban» **Syria** 9 , 1o9 - 29 .

(٩) قدم السيد روست الى الشرق الاوسط على دراجة عادية مدفوعا بالاكتشافات الانكليزية الهامة لاثار انسان النياندرتال في مناطق جبال الكرمل بفلسطين ، فاستهوته ملاجىء وادي سكفتا في يبرود ونقب منها ثلاثة بين اعوام ١٩٣٠ ـ ١٩٣٣ ونشرها بمنهجية علمية هي الاولى من نوعها .ويعتبر هذا الباحث الاب الحقيقي لما قبل التاريخ السوري . ولكن المؤسف انه اخذ المواد الاثرية معه الى المانيا .

(١٠) اننا نستخدم مصطلح ((حضارة)) Culture لوصف الانجازات المادية او الروحية لمجتمعات ما قبل التاريخ . وفيما يخص عصور ما قبل التاريخ فان هذا المصطلح غالبا ما يقتصر على وصف نمط معين من الادوات الحجرية او العظمية التي كان لها انتشار زماني ومكاني محدد .

(١١) لا زال هذا الملجا محط اهتمام المختصين وقد اعادت التنقيب فيه بعثة امريكية من جامعة كولومبيا بادارة رالف سوليكي وذلك بين أعوام ١٩٦٣ - ١٩٦٥ ، ويتهيا هذا الباحث للرجوع الى يبرود ومتابعة العمل مجددا لتدقيق بعض الامور التي ظهرت اثر تنقيبات الستينات او التي نشرها روست في الثلاثينات وقد نشر السيد سوليكي بالاشتراك مع زوجته تقريرا عن اعماله في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية .

— Solecki, R, L, 1966 « New data from yabroud, Syria, Preliminary Report of the Colombia University Archaeological Investigations. A.A.A.S., 12 (2) 121 - 154 .

(١٢) الكتاب بالالمانية صدر في ١٩٥٠ وهو :

A. Rust, 1950. Die Holenfund Yabrud (Syrien), K. wachholtz Neumunster,.

(١٣) نقب الطاحونة السيد ديزموند كلارك ١٩٦٤ - ١٩٦٥ وسبقه سبر من قبل فان ليرة وعدنان البني ١٩٦٠ ، وتنقيب بسيط في ١٩٦١ - ١٩٦٢ من قبل مودرمان ، واستخدمت لاول مرة طرق الدراسة الكثافية لارضية سكن الموقع بهدف معرفة توزع الاثار وخاصة الادوات الحجرية ومن ثم تحديد طبيعة النشاط الذي مارسه السكان ، مما ساعد على تعيين مناطق لطرق الصوان واخرى للاقامة او القاء الفضلات .

(١٤) استفاد فان ليرة من كونه خبيرا في التربة ولعدة سنوات (١٩٥٥ - ١٩٦٥) لدى الحكومة السورية وقد نشر ملخص اعماله في كتاب صغير اسماه ملاحظات عن الرباعي السوري ، اعيد طبعه من قبل المديرية العامة للاثار والمتاحف .

W. J. Van Liere 1960 - 1961, **Observations On The Quaternary of Syria .**

(١٥) نذكر، من البعثات المتميزة، مجموعة العمل المشترك ٤٣٨ R.C.P.438 التابعة لجامعة ليون الثانية بادارة الاستاذ بول سانلافيل وعضوية كل من : بوزانسون ، اور ، كوبلاند Y. Besançon, F.Hours, L. Copeland وسلطان محيسن كما نذكر البعثة الدائمة العاملة في منطقة الكوم بادارة السيد جاك كوفان العائدة لمركز البحث العلمي الفرنسي والتي يشارك فيها كاتب هذه الدراسة ايضا . وقد ادى نشاط هاتين البعثتين الى اغناء معلوماتنا بصورة كبيرة عن ما قبل التاريخ السوري ، وتجلى ذلك من خلال المؤتمر الدولي الذي عقد في مدينة ليون بفرنسا بين ١٠ - ١٤ حزيران ١٩٨٠ والذي نشرت دراساته في مؤلف كبير ١٩٨١ بعنوان ما قبل التاريخ في الشرق Préhistoire du Levant, C.N.R.S. Paris 1981 كما ان كل البعثات التي عملت او تعمل في قطرنا تنشر تقارير اولية عن نتائج اعمالها في مجلة الحوليات الاثرية العربية السورية التي تصدرها المديرية العامة للاثار والمتاحف بدمشق ، ونجد في كل اعداد هذه المجلة

تقريبا داسات باللغة الاجنبية ، مع ملخص مترجم للعربية حول مواقع عصور ما قبل التاريخ المنقبة علما بان العدد السادس عشر (الجزء الثاني) عام ١٩٦٦ قد خصص كله لما قبل التاريخ.

(١٦) منذ مطلع القرن الحالي استطاع كل من بنك وبروكنر
A, Penck et Bruckner , E., 1908 , Die Alpen in Eiszeitalter, Leipzig Tauchnitz,

تحديد اربعة عصور جليدية هي من الاقدم : جينز ، مندل ، ريس ، فيرم : Guns , Mindel, Riss, wurm. اخذت تسمياتها من روافد فرعية لنهر الدانوب في جنوب المانيا ، وقادت الاعمال اللاحقة الى تحديد عصرين جليديين اخرين هما دونو Donau الذي سبق جينز ،وبيبر Biber وهو العصر الجليدي الاول والاقدم .

(١٧) لقد تبين بانه من غير الدقيق علميا الاستمرار في استخدام التقسيمات والتسميات الاوربية على مناطق الشرق الاوسط . فقد اثبتت البحوث الاخيرة للجيومورفولوجيين الفرنسيين جاك بوازنسون وبول سانلافيل ، انه كان للتغيرات المناخية الرباعية في هذه المنطقة شكلا مختلفا منه في اوربة لذلك اعطيت العصور المناخية الشرق ـ اوسطية اسماء محلية ماخوذة من المناطق التي وجدت فيها افضل اثارها سواء كانت مصاطب نهرية ام شواطيء بحرية . ونحن نستخدم الترميز والترقيم العالمي لتحديد هذه الاثار فنرمز الى تشكلات عصر الهولوسين : راءنون صفر (ر ن ۰) أي رباعي نهـري صفـر او راء بـاء صفر (ر ب ۰) ، أي رباعي بحـري صفـر Quaternary Fluviatile O=QFO , Quaternary Marine O=QMO

واما تشكلات البليستوسين فيرمز لها تتابعا رن ١ ، ر ب ١ ، ر ن ٢ ، رب ٢ ، رن ٣،رب٣، رن٤،رب٤ وهكذا .

(١٨) لا يتسع المجال هنا للدخول في تفاصيل عملية ظهور الانسان وتطوره البيولوجي لكننا نشير الى ان الدراسات المعمقة في هذا الموضوع قد اظهرت ان الفرع الذي آل الى الانسان قـد تطور على امتداد زمن طويل بدءا منذ اكثر من عشرين مليون سنة ، وان الكائن الاول الذي اتفق الباحثون على تسميته بالانسان Homo هو النوع الذي حمل صفات انسانية كالقامة المنتصبة وحجم الدماغ الكبير ، وكان قادرا على التفكير والقيام بالعمليات الذهنية التي مكنته من تصنيع الاداة الاولى هذا الكائن يسمى الاوسترالوبيتك او الهوموهابيل Australopithecus, ou, Homo - Habilis

وقد ظهر منذ بداية الرباعي ، تلته ثلاثة انواع اخرى تتدرج في تطورها الفيزيولوجي والحضاري هي الهومواركتوس ثم النياندتال واخيـرا الانسان العاقل ، الجد المباشر للانسـان الحالي
Homo - Erectus, Néandertal. Homo - Sapiens .

(١٩) P. Sanlaville, (ed.) 1979, **Quaternaire et Préhistoire du Nahr el Kebir septentrional, les debuts de l'occupation humaine dans la Syrie du Nord et au Levant,** C.N.R.S., Paris.

(٢٠) Hours,F.1980,Paléolithique de la Syrie et du liban, thése de Doctorat d' Etat presentée à L l'Universtié de Paris I (Sorbone).

(٢١) — Clark, D. 1966,«The Middle Acheulian Occupation Site Latamne,

Northern Syria» A.A.A.S. 16 (2) 1-120 .

(٢٢) — Muhesen, S., 1981 « The Upper Acheulian in Syria» Colloque, **Prehistoire du levant . 185-191, C.N.R.S. Paris .**

(٢٣) نقبت هذا الموقع بعثة سورية ـ فرنسية مشتركة بادراة كل من سلطان محيسن وفرنسيس اور ، وقد نشرت دراسة مفصلة عنه في اوكسفـــورد اعدها الباحث في جامعة ليون الثانية بفرنسا وهي:

— Muhesen, S., 1985, **L'Acheuleen Recent Evolué de Syrie** B.A.R. International Series 248, Oxford, England.

(٢٤) — Copeland, L. et Hours, F., 1981, « La fin de L' Acheuléen et L'Avènement du Paléolithiqne Moyen en Syrie » Colloque **Préhis toire du Levant** 225 - 238 C.N.R.S. Paric.

(٢٥) — Hours, F., 1983| Le yabroudien d'el kowm et sa Place le Paléolithique du Levant » **Paléorient** 9/1 , 21 - 37.

(٢٦) لم نعثر حتى الان في قطرنا على اية هياكل عظمية مباشرة لانسان الهومواركتوس او النياندرتال واقدم ما وجد من هياكل يعود الى الانسان العاقل وقد اتى من السوية الثانية من تل الرميلة المؤرخة في نهاية الالف التاسع ق.م.

(٢٧) تعمل في حوضة الكوم منذ ١٩٧٨ بعثة فرنسية دائمة بادارة جاك كوفان وتنشر نتائــج اعمالهــا في مجلــة خاصة تسمى الفــرات : (Cahiers de L'Euphrate) وقد صدر حتــى الان منها الربعة اعداد الاول (١٩٧٨) والثاني (١٩٧٩) والثالث (١٩٨٢) والرابع (١٩٨٦) .

(٢٨) استخدمت لاول مرة طريقة اليورانيوم ثوريوم Ur/Th في تاريخ بعض مواقع الكوم وخاصة بئر الهمل وام قبيبة وام التلال ونشرت النتائج في تقرير مختصر هو :

— Hennig, G.Y et Hours, F., 1982 « Dates pour Le Passage entre L' Acheuléen et Le Paléolithique Moyen à el Kowm (Syrie)» **Paléorient.** 8/1,81-83/ .

(٢٩) — Hours , F ., 1982 « Une nouvelle industrie en Syrie entre L'Acheuléen Superieur et le levalloise - moustérien , Archéologie au levant » **Recueil R. Saidah** 33-46, Lyon, Maison, de L'Orient.

(٣٠) فيما يخص التنوع في اثار الباليوليت يسود الان رايان الاول يمثله الاثاريون وعلى راســهم الفرنسي فرانسوا بورد F.Bordes الذي يعتبر ان تنوع المواقع والاثار يدل على تنوع الجماعات البشرية وتنوع التقاليد والثقافات ، والــراي الذي يمثلـــه الانتروبولوجيــون وهـــو يرد هذا التنوع الى اختلاف طبيعــة النشاط الاقتصــادي للناس حســب المناطـــق والفصول : انظر :

— Hours, F., 1982, **Les Civilisations du Paleolithique** , Que Sais-je, Paris .

(٣١) هناك دلائل من خارج قطرنا (فرنسا واسبانيا) على ان النياندرتال عرف لاول مـرة المعتقدات والشعائر الدينية فعبد الدب (الجماجم بخاصة) ودفن موتاه في قبور منتظمة ، وعرف طقوس اكل اللحم البشري (الدماغ) . انظر :

— Leroi - Gouhran, A., 1964, Les Religions de La Préhistoire, Paris

(٣٢) نسبـة الى مواقـع Levallois بفرنسا . وتعتمد التقنيـة اللفلوازيـة علـى اختيار نواة بيضوية ورقيقة غالبا ، وتحضيرها بشكل جيد قبل طرق شظية واحدة منها ، امـا التقنية الموستيرية فهي تستخدم نفس النواة ولكن تستخرج منها اكثر من شظية . وقد استخدمت هاتان التقنيتان من قبل انسان النياندرتال بشكل واسع في الباليوليت الاوسط .

(٣٣) لقد طبقت طرق التاريخ بالفحم المشع في جرف العجلة واعطت تاريخا هو حوالي ٤٣،٠٠٠ سنة ق.م . للطبقة التي تعود الى نهاية الباليوليت الاوسط . كما ارخت السويات الدنيا في كهف الدوارة في حوالي ٧٥،٠٠٠ سنة . حول جرف العجلة يمكن الرجوع الى :

— Coon, Ch., 1957, The Seven Caves, New York.

— Shroeder, B.,1966 , « The Lithic Material from jerf Ajle » A.A.A.S, 16(2)200-210.

واما كهف الدوارة فلقد نشرت في المرجع التالي :

— Hanihara, K. et T. Akazawa . (edi) 1978, Palaeolithic Site of The Douara Cave and The Palaeogeography of Palmyra Basin in Syria Pant 1 1 ; Préhistoric Occurence and chronology in Palmyra Basin) University Museum, Bulletin of The University of Tokyo. 16. Tokyo.

(٣٤) — Copeland , L., 1981 « Chronology and Distribution of the Middle Palaeolithic as Known in 1980, in lebanon and Syria » Colloque Préhistoire du levant, 239 - 263 . C.N.R.S.Paris.

(٣٥) ان موضوع اختفاء النياندرتال ، من اوربة خاصة ، وظهور الانسان العاقل في الشرق الاوسط ، من الامور التي تواجه الباحثين بتعقيداتها وغموضها . ومهما يكن فانه من الواضح الان ان النياندرتال الفلسطيني كان الوحيد الذي تابع تطوره الفيزيولوجي والحضاري نحو الانسان العاقل ، رغم ان هذا الواقع لا يروق للبعض من ذوي الخلفيات العنصرية المرفوضة .

(٣٦) يعتقد ان حضارات الباليوليت الاعلى السوري واللبناني قد اختلفت عن حضارات الباليوليت الاعلى الفلسطيني الذي تميز بكثافة مواقعه . وتعتبر هذه المرحلة من عصور ما قبل التاريخ السوري المرحلة الاكثر غموضا الان . ونامل ان توضح الدراسات في المستقبل اصل حضارات هذا العصر ، ومن ثم كيفية انتقالها الى العصر الذي تلاه .

(٣٧) حتى منتصف القرن الحالي اعتبرت الشعوب البدائية الحالية التي لا زالت تعيشـس في اسيا وافريقيا وامريكا كالبوشمن والاسكيمو والهنود الحمر ، موضوعا للمقارنة مع مجتمعات ما قبـل التاريخ . ولكن بدأ يتضح تدريجيا ان مثل هذا القياس الميكانيكي ليس صحيحا دائما ولا بد من

تطبيق مناهج اخرى مختلفة سعيا وراء معرفة الواقع الحقيقي لمجتمعات ما قبل التاريخ التي قد تكون لها تنظيمات ومعتقدات ومفاهيم مختلفة عن تلك التي نعرفها لدى الشعوب البدائية المعاصرة رغم تقارب المستوى الاقتصادي والاجتماعي بينها .

(٣٨) تجري دراسات منوعة لمراكز النطق في الدماغ والفكين ، في الهياكل العظمية العائدة للباليوليت لتحديد درجة تطور لغة ذلك العصر ، ورغم صعوبة التحقق من هذا الامر فهناك مؤشرات على معرفة النطق منذ بداية العصر الحجري القديم دون ان نستطيع تحديد درجة غنى او فقر اللغة ، او اللغات الاولى لذلك الانسان .

(٣٩) نسبة الى موقع مادلين Madeleine في جنوب فرنسا ، وقد عاشت بين ١٥-١٠ الاف سنة ق.م واشتهرت بفنونها الرائعة .

(٤٠) انظر كتاب جاك كوفان عن نشوء القرى الاولى في سوريه وفلسطين في المرجع التالي :
J. Cauvin, 1978, **Les Premiers villages de Syrie - Palestine de IXme au VIIme millenaire av.J.C.**, Lyon.

(٤١) نسبة الى مغارة الكبارة على الساحل الفلسطيني (جبال الكرمل) وهي ثقافة ميزوليتية انتشرت على مساحة واسعة من فلسطين جنوبا وحتى الفرات شمالا وتميزت بالبناء والفنون الاولى خاصة .

(٤٢) نسبة الى وادي النطوف في فلسطين . تميزت الحضارة النطوفية بابتكارات جديدة : البناء ،الفن الادوات الزراعية ، الادوات العظمية ، المقابر .. الخ وقد مر زمن اقتصر فيه وجود هذه الابتكارات على فلسطين مما جعل البعض يعتقد ان النطوفي هو حضارة فلسطينية بحتة ، ولكن المكتشفات الاخيرة من المريبط وابو هريرة في حوض الفرات السوري اثبت ان النطوفين قد عاشوا في سورية ايضا ، وقد انتشر هؤلاء على منطقة واسعة امتدت من دلتا النيل في الغرب وحتى الفرات في الشرق . وما استمرار البعض في رفض الاعتراف بالنطوفي خارج فلسطين الا تعصب وعنصرية لاتقرهما الاوساط العلمية .وقد وصف جاك كوفان موقف هؤلاء بالعنصرية الثقافية. انظر المرجع رقم ٤٠ ص ١١ .

(٤٣) يميز الباحثون وعلى راسهم الامريكي الان سرفيس E. Service اربع مراحل اجتماعية ، تطورية المرحلة الاولى ، الجماعة Band وهي تمثل العلاقات الاجتماعية في عصر الصيد واللقط اي الباليوليت ، وجزئيا الميزوليت ، تلتها مرحلة القبيلة Tribe التي تميز مجتمعات الزراعة في العصر الحجري الحديث ، ثم مرحلة الرئاسة Chiefdom التي عرفتها المجتمعات الزراعية المتطورة ، واخيرا مرحلة الدولة State التي نشات مع المجتمعات التاريخية الباكرة في الالف الثالث ق.م . (عصر البرونز القديم) انظر :
— Redman, Ch., L., 1948, **The Rise of Civlization from Early Farmers to Urban Society in The Ancient Near East**, San Francicо.

(٤٤) يقسم الباحثون العصر الحجري الحديث (النيوليت) في الشرق الاوسط الى قسمين لكل منهما ميزاته ، الاول النيوليت ما قبل الفخار Pre - Pottery Neolithic ويرمز له P.P.N. وهو بدوره قسمان : ما قبل الفخار ٢ P.P.N.A ويؤرخ من نحو ٨٣٠٠ - ٧٦٠٠ ق.م . يليه ما قبل الفخار ب P.P.N.B ويؤرخ على ٧٦٠٠ - ٦٠٠٠ سنة ق.م . واما القسم الثاني فهو النيوليت Pottery Neolithic ويؤرخ من نحو ٦٠٠٠ - ٤٠٠٠ سنة ق.م تقريبا .

(٤٥) تعتبر الزراعة من اهم ابتكارات انسان النيوليت التي احدثت تحولا جذريـا في الواقع الاجتماعي ـ الاقتصـــــادي حتى ان البعض G,Childe يسمي هـــــذا العصر بالثورة النيوليتيـــة Neolithic Revolution ويشبهها بالثورة الصناعية الحديثة . وتختلف الاراء حول اسباب وعوامل نشوء الزراعة فمنهم من يرد ذلك الى التحسن المناخي الذي ساعد على ظهور الحبوب البرية وبالتالي دفع الانسان الى زراعة هذه الحبوب بعد ان توصـل الى تقنيـات متطـورة R. Braidwood ،في حين يعتقد البعض الاخر (بينفورد) ان الزراعة قد نشأت بفعل الضغط السـكاني على اطراف المناطق الخصبة التي نمت فيها الحبوب البريـة ، ويعالـج السيـد جاك كوفان هذه القضية على ضوء اكتشافاته في حوض الفرات بسورية في بحث متكامل ، وهو رغم اعترافه باهمية دور البيئة فانه يرد نشوء الزراعة الى عوامل اجتماعية ـ فكرية دفعـت الناس الى تنظيم اقتصادهم بشكل افضل : المراجع رقم ٤٠و ٤٣ اضافة الى التالي:

— Childe , V.G., 1952, **New Light On The Most Ancient East**, New York .

— Mellart, J., 1975, **The Néolithic of The Middle East**, London.

(٤٦) — Cauvin, J., 1972, **Religions néolithiques de Syrie - Palestine**, Paris

(٤٧) — Akkermans,P.A. et Fokken, H.,Waterbolk, H.T.1981, Stratygraphy, Archtecture and Lay-out of Bougras » colloque **Préhistore du Levant**, 485 - 501 , C.N.R.S. Panis.

(٤٨) هي ما تسمى بالاواني البيضاء ، Vaisselles Blanches التي صنعت من الحوار او الحجر الكلسي الابيض بعد حرقه ومزجه وقد سبقت الاواني الفخارية بحوالي قرنين من الزمن ، وعثر عليها في العديد من القرى النيوليتية السورية والفلسطينية .

(٤٩) عثر في السوية الثالثة من المريبط المؤرخة على النصف الاول من الالف الثامن ق.م. على بضع اوان فخارية صغيرة وهي تمثل اقدم فخار عرف في منطقتنا حتى الان لكن هذا الابتكار (الطفرة)لم يستمر لاسباب نجهلها ولم تعاود المنطقة تصنيع الفخار الا في مطلع الالف السادس ق.م.

(٥٠) منذ الثلاثينات من هذا القرن قام المعهد الشرقي في جامعة شيكاغو بادراة روبرت بريدوود بدراسة شاملة لمنطقة سهل العمق وتم تتبع تطور تصنيع الاواني الفخارية بدءا من العصر الحجري الحديث وحتى العصور التاريخية البيزنطية عبر مواقع عديدة أهمها تل الجديدة ، وتل عطشانة وتـــل طورلو وتل كردو ، وغيرها ، واصبح التطور الستراتغرافي لفخار العمق النموذج الذي يقاس عليه فخار بقية المناطق حتى الان . وقد نشرت عدة دراسات من هذا الموضوع اكثرها تكاملا هي:

The Excavation in the plain of Antioch

من منشورات جامعة شيكاغوا المعهد الشرقي العدد ٦١ عام ١٩٦٠ تاليف روبرت وليندابريدوود.

(٥١) نسبة الى موقع تل حلف في الجزيرة السورية العليا قرب راس العين حيث نقب الالماني ماكس فون اوبنهايم Max Von Oppenheim منذ مطلع القرن الحالي وكشف السويات الحلفيـة العائدة للالفين السادس والخامس ق.م . تحت انقاض مملكة جوزن الارامية التي قامت في هذه المنطقة في بداية الالف الاول ق.م .

(٥٢) يعاصر الفخار الحلفي السوري فخار العمق (المرحلة د.س) المعروف من غرب سورية .

(٥٣) اطلق على هذا النوع الاسم اليوناني tholos وهـي بيـوت تشبه خلايا النحل ،وجدت نماذجها في جزر بحر ايجة في الالف الثاني ق.م ، واما النوع الذي يعود للحضارة الحلفية فقـد عثر عليه في مواقع العربجية في العراق وتل يونس وتل طورلو في سورية . وهناك جدال حول طبيعة هذه البيوت اذ يعتقد البعض انها كانت معابد تمارس فيها الشعائر الدينية ، في حين يرى

(٥٤) فيها اخرون بيوتا للسكن .

Mallowan, M.E. 1956, **Twenty five years of Mesopotamian discovery,** The British school of Archaeology in Iraq .

(٥٥) نسبة الى موقع تل العبيد في جنوب العراق الذي نقب فيه الانكليزي ليونارد وولي في الربـع الاول من هذا القرن.

(٥٦) نسبة الى موقع تليلات الغسول في وادي نهر الاردن الذي نقب على فترات متقطعة منذ الثلاثينات من هذا القرن واعطى احد اغنى نماذج الحضارات الكالكوليتية في بلاد الشام ، انظر :

Perrot, J., 1968, **Préhistoire Palestinienne,** Supplément au Dictionnaire de Bible , Paris.

(٥٧) لهذا العصر تسميات مختلفة مثل : عصر الوركاء ، او فجر التاريخ ، او فجر الكتابة او عصر ما قبل العمران Proto - History, Proto-Literate, Proto - Urban ومهما يكـن فهو العصر الانتقالي المباشر بين عصور ما قبل التاريخ وبين العصور التاريخية القديمة ..

(٥٨) ادت الحملة الدولية وعملية المسح والتنقيب في حوض الفرات بين ١٩٦٢-١٩٧٢ الى اكتشاف ٥٦ موقعا اثريا من مختلف العصور مهددة بالغمر ، جرت في ٢٣ موقع منها تنقيبات انقاذ بمشاركة بعثات وطنية واجنبية مختلفة ، اعطت نتائج بالغة الاهمية تتعلق بتاريخ وحضارة سورية القديمة .وقد تضمن معرض الاثار السورية المتجول نماذج هامة من اثار حملة الانقاذ وقد صدر عن هذا المعرض حتى الان اربعة كتب (دليل) ترجم منها الدليل الالماني الى اللغة العربية من قبل الدكتور نايف بلوز ونشرته مؤسسة البريد الدولي للصحافة والنشر في فيينا ١٩٨٥ .

(٥٩) — Strommenger, E., 1980,**Habira Kabira, Eine Stad vor 5000 yahren,** Mainz am Rhein.

(٦٠) — Finet, A., 1988, « Bilan Provisoire des fouilles belges de Tell Kannas » **A.A.S.O.R. 44** .

(٦١) حتى زمن قريب كان يعتقد بوجود مركز واحد انتشرت منه الكتابة التصويرية هو الوركاء (السوية الرابعة ب) في جنوب العراق ولكن بعد اكتشافات تل براك وتل قناص وعروده اتضح ان سورية ايضا قد عرفت الكتابة الاولى في زمن يعاصر كتابة الوركاء وربما اقدم . انظر دليل الاثار السورية (المرجع رقم ٥٨) والمرجع التالي :

eurtis , J., (ed) 1982, **Fifty Years of Mesopotamian Discovery,** pp. 62-71, British school of Archaeology in Iraq, London.

(٦٢) سمي اصطلاحا بمعبد العيون بسبب العثور فيه على مئات الدمى الصغيرة ذات العيون الجاحظة ويعود هذا المعبد الى زمن احدث نسبيا من معابد الفرات الاوسط ، وهو عصر جمدة نصر ، اي نحو مطلع الالف الثالث ق.م. انظر :

— Mallowan, M. E. L., 1947, « Excavation at Brak and Chagar Bazar » Iraq, 9,pp. 1-2 66.

(٦٢) يؤرخ الارشيف الملكي في ابلا بين ٢٣٥٠ – ٢٥٠ ٢ق.م . وهي مرحلة ازدهار مملكة ابلا المسماة تل مرديخ ٢ ب (TM II B)

Abbreviations :

— A.A.A.S : Annales Archéologiques Arabes Syriennes .

مجلة سنوية تصدرها المديرية العامة للآثار والمتاحف في دمشق .

— A.A.S.O.R : The Annual of The American School of The Oriental Research (U ew Haven) .

تنويـه :

وقعت بعض اخطاء في طباعة جداول الاحصاءات العائدة لبحث «البنية الاجتماعية والاقتصادية لمحلة باب المصلى» والصواب كما يلي :

الصفحة	السطر	الحقل (من الجداول)	الخطا	الصواب
١٧	٢	٦	٧ر٢١	٧ر١٢
٢٠	٤	٦	٢٠ر٤٣	٢٠ر٣٤
٢٢	٧	٤	٢١ر٣٨	٣١ر٣٧
٢٣	٣	٦	٢٣ر٢٢	٣٣ر٢٢
٢٣	٦	٤	١١ر٨	٤٠ر٠٩
٢٤	١	٤	١٠ر٤٠	١٠ر٤٢
٢٥	٣	٤	١٨ر٧٨	١٧ر٧٨
٢٥	٤	٢	٣ر٣٣	٣٣ر٣٣
٢٥	٦	كل الحقول :		

العقود	النسبة	القراريط	النسبة	الاثمان	النسبة
١٢	١٠٠ر٠٠	١٣٥	١٠٠ر٠٠	١٧٠.٢٨	١٠٠ر٠٠

الصفحة	السطر	الحقل	الخطا	الصواب
٣٥	٦	٥	١١٤ر٦٩	١١٤ر٧٤

٤٨ السطر الذي يبدأ بكلمة الوسطاني في العينة الخامسة زائد .

٤٨ السطر قبل الاخير : الخطأ : الثالثة والرابعة : الصواب ، الرابعة والخامسة

٥٨ الحاشية ١٠ ، Thaumin ، الصواب Thoumin

٦٢ الحاشية ٩٨ ، السطر ١١ صوابه كما يلي : العثمانية بموجب العلم والخبر من بطريق خاتة الكتلوك المحفوظ بالمجلس (أي مجلس محكمة
السطر ١٣ من الحاشية : فاضي ، الصواب قاضي

حركة تدوين الانساب
في العصر العباسي الأول

مريم محمد خير الدرع
مرشحة للماجستير

نشطت في العصر العباسي الاول حركة التدوين عند المسلمين وازدهرت ، وذلك لاسباب عديدة ، منها ان الاسلام منذ البداية حض المسلمين على العلم ودفعهم الى البحث عن المعرفة ، فتعمق حب التعلم لديهم ونمت الرغبة العلمية في نفوسهم ، فاصبح حرص الافرادشديدا على معرفة تاريخ امتهم وامجادها وسير ابطالها والوقوف على أخبارها ، بالاضافة الى اهتمامهم بما لدى الامم التي فتحوا بلادها من ثقافات متباينة نقلوها عن طريق ترجمة مؤلفات الثقافاتاليونانية والفارسية والهنديةوغيرها. ونشأت طائفة من العلماء والادباء الذين نوعوا معارفهم تنويعا واسعا ونهلوا من مختلف الوان المعرفة ، وانتشرت حلقات العلم في المساجد الموزعة وبكثرة في اصقاع(١) بلاد الاسلام المختلفة ، وأصبح مبدأ الرحلة في طلب العلم أمرا لازما وواجبا لكل طالب آنذاك .

وكان لتشجيع الخلفاء والوزراء ورعايتهم العلماء والانعام عليهم بالعطايا والهدايا، الاثر الكبير ايضا في تقدم حركة التاليف والتصنيف . فمثلا ، كان الخليفة المهدي مقصدالعلماء يشدون اليه الرحال من كل بلدة(٢) ، وذكر من تكريم الخليفة هارون الرشيد العلماء انه وصل الاصمعي بخمسمائة الف درهم(٣) ، والخليفة المأمون كان كالغيث المنهمر على أهل العلم اذ قيل انه اعطى النضر بن شميل وهو لا يزال أميرا بمرو خمسين ألف درهم ، وكان كل من يترجم كتابا في عهده يأخذ وزنه ذهبا(٤) .

ولم يكن هذا حال الخلفاء وحدهم بل نافسهم في ذلك الوزراء كالبرامكة الذين بالغوا في رعاية العلماء والانفاق عليهم ، فقد روي ان جعفر البرمكي وصل الاصمعي ايضا بخمسمائة الف درهم(٥) ، وكذلك كان حال القواد ، فقد وصل طاهر بن الحسين القاسم بن سلام بألف دينار ثم عاد فوصله بثلاثين الفا ، وأجرى عليه ابنه عبد الله بن طاهر عشرة آلاف درهم كل شهر(٦) .

ولم يقتصر تشجيع الخلفاء والحكام للعلماء على العطايا بل اهتموا ايضا بانشاء المكتبات ودور العلم وامنوا لوازم كل من يؤمها(٧) ..وكان لاستخدام الورق ـ الذي بدأ ينتشر بشكل واسع بعد ان انشىء له مصنع في بغداد بعهد هارون الرشيد ـ الاثر الكبير والمساعد على اتساع حركة التدوين ، فقد كان الناس قبل ذلك يكتبون في الجلود والقراطيس المصنوعة من ورق البردي في مصر(٨) .

وشجعت كل هذه العوامل وساعدت على وضع اسس التصنيف والتأليف لكل علم من العلوم ففي « هذا العصر وضعت في اللغة العربية اسس كل العلوم ـ تقريبا ـ فقل أن نرى علما اسلاميا نشأ بعد ولم يكن قد وضع اساس له في العصر العباسي ، فقد وضع تفسير القرآن وجمع الحديث ووضعت علومه ، ووضع علم النحو وألف فيه سيبويه كتابه الخالد ، ووضعت كتب اللغة ورسم خطها الخليل بن احمد ، كما وضع العروض ، ودونت اشعار العرب في المعلقات التي دونها حماد الرواية والمفضليات التي دونها المفضل الضبي ، والاصمعيات التي دونها الاصمعي ، ووضع الجاحظ اساس الكتب الادبية ، وحذا حذوه ابن قتيبة والمبرد وغيرهما ، ودون الفقه على يد الائمة وتلاميذهم ، ودون السيرة ابن اسحق ، والتاريخ الواقدي وامثالهما ..» (٩) .

الا أن حركة التدوين هذه التي ازدهرت في ذلك العصر لم تكن وليدة الصدفة او نتيجة ظروف غير طبيعية ، وانما كانت المرحلة الاخيرة من المراحل التي مر بها التدوين عبر مسيرته الزمنية الطويلة التي انتقلت فيها مادة كل علم من الرواية الشفوية الى التدوين المبسط وغير المرتب في مواضيع متفرقة ، الى مرحلة التصنيف المرتب الجامع الشامل لما سبق أن روي ودون ، وكل هذه العلوم الاسلامية التي اعطت في العصر العباسي الاول بواكير انتاجها الثقافي ، وعلم الانساب واحد منها ، مرت بمراحل ثلاث :

ـ مرحلة الرواية الشفوية والتدوين البدائي الذي كان بدافع من اهتمام شخصي وضرورة اجتماعية ، واتسم بطابع العفوية والفضول العلمي . وقد امتدت حتى مطلع القرن الثاني الهجري(١٠) ، فدونت بعض الانساب اتفاقا من أفواه رواتها وبأقلام من اهتموا بها من هذه القبيلة او تلك كما فعل الفقعسي الذي كتب مآثر بني أسد (١١).

والى تلك الفترة تعود المحاولات الاولى للانتقال بعلم الانساب من حالة الرواية الشفوية الى المعرفة الكتابية ، وبروز الصحف والمدونات التي سجلت لمساعدة الذاكرة .

ثم تأتي المرحلة الثانية التي امتدت على القرن الثاني كله تقريبا وفيهاكان التدوين والاهتمام موجها الى جمع المادة من افواه الرواة وترتيب كل موضوع فيها على حدة في كتاب خاص يحمل عنوانا منفردا ، فكتب النسابون انساب القبائل كافة ولكن في كتب منفصلة ايضا وفي محاولة لاستقصائها جميعها وتدوينها(١٢) . ومن أهم هؤلاء محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ الذي قام بدراسات في الانساب والاخبار ، وتشير دراساته هذه الى محاولة لجمع الروايات القبلية معتمدا كما قال على افضل نسابة في كل قبيلة مصنفا انساب كل قبيلة على حدة . وبالرغم من ان ابنه هشاما قد كتب (النسب الكبير) جامعا فيه كل الانساب الا انه افرد داخل الكتاب مجموعة من الكتب للانساب مفردة مستفيدا مما جمعه والده من روايات في هذا المجال ، ومن هذه الكتب : نسب قريش ، ولد العباس ، نسب بني عبد شمس ، كتاب بني محارب وغيرها (١٣) .

وممن كتب على هذا النسق نفسه ابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠ هـ وله كتاب اخبار تميم وكتاب خندف واخبارها(١٤) ، ولم يصلنا من اثاره الا مقتطفات في كتب تالية ولكنها تمثل مرحلة جمع الانساب من الروايات القبلية بالدرجة الاولى ، فابو اليقظان النسابة واحد من نسابي القرن الثاني الهجري الذي عنوا بانساب اكثر من نبيلة في فترة جمع الروايات . وكتب على الطريقة نفسها ايضا عبد الرحمن بن عبدة حيث نقرأ في ثبت كتبه كتاب نسب بني فقعس ، كتاب نسب كنانة ، اشراف بكر وتغلب ، نسب ولد ابي صفرة(١٥) .

اما المرحلة الثالثة للتدوين فكانت على اساس جمع المواد والموضوعات في كتاب واحد مع مراعاة وحدة التسلسل الزمني . ويعود ذلك الى تعمق مفهوم وحدة تاريخ البشرية من خلال سلسلة الانبياء ووحدة التاريخ الاسلامي في نفوس المؤلفين والمصنفين وقد امتدت هذه المرحلة حتى نهاية القرن الثالث الهجري(١٦) حيث استقرت وتوطدت حركة التدوين وتم وضع الاصول والقواعد الاساسية لتصنيف كل علم من العلوم وخاصة الانساب ، الذي بلغ غاية التطور والنضج على يد البلاذري المتوفى ٢٧٩ هـ في كتابه المعروف « أنساب الاشراف » .

وقد اورد الذهبي في كتابه « تذكرة الحفاظ » نصا هاما حدد فيه السنة التي بدأ فيها تدوين العلوم العربية والاسلامية بأنها سنة ١٤٣ هـ ، وقد نقل عنه ابن تغري بردي والسيوطي هذا النص واورداه في كتبهما ، اذ يقول : «في سنة ثلاث واربعين ومائة شرع علماء الاسلام في هذا العصر في تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فصنف ابن

جريج بمكة ، ومالك بن انس الموطأ بالمدينة ، والاوزاعي بالشام ، وابن ابي عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ومعمر باليمن ، وسفيان بالكوفة ، وصنف ابن اسحق المغازي ، وصنف ابو حنيفة رحمه الله الفقه والراي . ثم بعد يسير صنف هشيم والليث بن سعد وابن لهيعة ثم ابن المبارك وابو يوسف وابن وهب .. وكثر تدوين العلم وتبويبه ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وقبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة »(١٧) .. ولدى مطالعة هذا النص نستخلص منه أمورا هامة وحقائق عديدة تتعلق بنشأة العلوم الاسلامية وأول هذه الامور هو تعيين أواسط القرن الثاني الهجري وبالتحديد ١٤٣ هـ كبداية للانتقال من مرحلة التسجيل « غير المرتب » للعلوم الى مرحلة التصنيف المبوب والمتخصص لكل فرع من العلوم الاسلامية ، وازدهار حركة التدوين في مختلف البقاع الاسلامية في آن واحد .

ونستنتج ايضا امرين هامين اولهما التاكيد على أن تدوين وتسجيل العلوم كان موجودا ومعروفا قبل هذا التاريخ في قوله « قبل هذا العصر كان الائمة يتكلمون من حفظهم او يروون العلم من صحف غير مرتبة » . وهذا ما يؤكد على ان التدوين والتصنيف لم يبدأ في العصر العباسي حسبما ظن بعض الدارسين الذين هدفوا الى جعل قضية الثقافة والتأليف عند العرب كأنها فرع من الثقافة الفارسية وليست عربية المنبع ، فالتدوين كان موجودا عند العرب منذ العهد الاسلامي الباكر ، فقد ورد ذكر اسماء لعدة مدونات كانت موجودة في الصدر الاول للاسلام(١٨) . الا ان عامل الضياع الذي تعرضت له الكتب التي دونت في هذا العصر المبكر ساعد على جعل صورة التدوين الاولى عند العرب غير واضحة المعالم لكنها ثابتة في الاصول التي وصلت الينا ، فهي تحوي العديد من النصوص المنقولة عن المدونين الاوائل ، ولكن ذلك بقي في نطاق محدود ، وموجة التأليف التي تقدمت في عهد العباسيين لم تكن الا الحصاد لما بذر سابقا والثمار لغراس ثابتة الجذور ، وهذه سنة النشوء يبدأ الشيء صغيرا ثم يتدرج مع الايام نموا ، وكلما مرت الايام كانت خطوات التقدم أوسع من ذي قبل .

أما الامر الثاني الهام الذي نستنتجه من نص الذهبي فهو انه لم يذكر علم الانساب كعلم مستقل في موضوعه بين العلوم التي ذكرها كالحديث والفقه والتفسير والعربية والتاريخ وأيام الناس مما يدل على أن علم الانساب ، حتى ذلك التاريخ ، كان مرتبطا بعلوم اخرى بصلة وثيقة مثل علم السيرة والمغازي ، اذ نلاحظ لدى مراجعة الكتب التي صنفت في موضوعها أنه ما من كتاب ألف في هذا المجال الا وكان فيه فصل خاص للحديث عن أنساب القبائل العربية وخاصة قريش وبالتحديد بني هاشم ، اذ اليهم يرجع نسب الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم(١٩) . وارتبط علم النسب ايضا ارتباطا وثيقا بكتابة التاريخ وايام الناس والاخبار ، وغالبا ما كان

النسابة يعرف بانه عالم بالاخبار وايام العرب والاشعارمثل الشرقي بن القطامي ودغفل السدوسي الذهلي وزهير بن ميمون القرقبي، وكثيرا ما كان الاخباري يوصف بالنسابة مثل عوانة بن الحكم والمدائني ، ونلاحظ اقتران الانساب بالاخبار كذلك في اسماء الكتب التي ورد ذكرها في المصادر ، فقد ذكر النديم لخراش بن اسماعيل الشيباني شيخ محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ عنوانه « كتاب اخبار ربيعة وانسابها »(٢٠) وكتاب « نسب خندف واخبارها لابي اليقظان النسابة »(٢١) وايضا « كتاب الاخبار والانساب والسير » لابي العباس بن سلام المكاولي(٢٢) ، وكتاب « الانساب والاخبار » لابي الحسن النسابة(٢٣) .

وربما كان الطابع المزدوج لهذه الكتب السبب الرئيسي الذي دفع اسحق الموصلي الى ان يصف « كتاب الانساب » الذي ألفه صديقه الزبير بن بكار بأنه « كتاب الاخبار »(٢٤) . ونلاحظ أيضا أن الكتب التي تحدثت عن اخبار اليمن ذكرت الى جانبها انساب القبائل فيها ، مثل الكتب التي دونت عن روايات عبيد بن شرية الجرهمي ووهب بن منبه ودغفل النسابة . وبناء على ذلك نجد ان علم الانساب قد تأثر تأثيرا كبيرا بالمدارس التاريخية التي برزت آنذاك ، وباتجاهات كل منها ، لذلك يتوجب علينا ان نتابع اثر كل مدرسة من هذه المدارس في علم الانساب وتطوره مثل مدرسة المدينة والشام ومدرسة العراق ومدرسة اليمن .

مدرسة المدينة والشام :

لما كانت المدينة المركز الجغرافي الهام في عصر الرسالة منها انتشر الاسلام وفيها توطن الرسول والصحابة الكبار ، فقد اختصت عاصمة الرسول والخلفاء الراشدين بجمع احاديث الرسول والكتابة في المغازي والسير ونشات فيها مدرسة قوية الاركان عملها رواية وتسجيل كل ما يتعلق بذلك من أحداث . وعندما انتقلت الخلافة مع بني امية الى الشام استقدم الخلفاء العارفين بأمر السيرة وأحداثها والفتوح وأخبارها، والقبائل وعلاقاتها وانسابها وأخبار العرب في الجاهلية ، فتجمع في الشام من يروي للامويين كل ذلك ، وكانت مدرسة الشام وسطا في هذه المواد بين المدرستين المدنية والعراقية ، اذ اهتمت بعدة موضوعات ولم تتوقف عند جزء منها كالسيرة والمغازي فقط ، أو التاريخ الجاهلي ، او الانساب ، بل اهتمت بكل هذه المواد معا(٢٥) .

اول من يمثل هذه المدرسة **الامام الزهري** (ت ١٢٤ هـ) وكانت له منزلته الكبيرة كمحدث وفقيه ومؤرخ ، وقد لخص الطبري دور الزهري كعالم بقوله : « كان محمد بن مسلم الزهري مقدما في العلم بمغازي رسول الله (ص) وأخبار قريش والانصار ، راوية لاخبار الرسول صلى الله عليه وسلم »(٢٦) . ولم يصل الينا من « مغازي » الزهري الا مقتطفات جمعت في كتاب « المغازي النبوية » وهو يحوي اخبارا متفرقة عن سيرة الرسول (ص) ومغازيه ، بالاضافة لبعض اخبار الخلفاء

الراشدين (٢٧) . كما وردت ايضا قطع منه في سيرة ابن اسحق والواقدي والطبري والبلاذري وابن سيد الناس .

كان الزهري اول من أعطى اطارا واضحا للسيرة ورسم خطوطها بجلاء واقترنت تلك الخطة بذكر نسب الرسول (ص) في بداية الحديث عن السيرة النبوية دائما ، وعلى هذا المنهج سار ابن اسحق وابن هشام وغيرهما ممن كتب في السيرة .

ولم يكن الزهري محدثا وفقيها ومؤرخا فقط بل كان عالما بالانساب أيضا(٢٨). وقد سأله خالد القسري ان يكتب أنساب العرب فبدأ بأنساب مضر ولكنه لم يتم ذلك(٢٩) . واخذ عنه مصعب الزبيري في كتابه « نسب قريش »(٣٠) ، وهذا يعزز قول قره بن عبدالرحمن بأنه كتب كتابا في نسب قومه (أي قريش) (٣١).

واذا كان الزهري قد أجاد في مجال التصنيف بالانساب فهذا ليس بغريب ، فقد انصرف في مطلع حياته العلمية الى دراسة الانساب ، ولنستمع اليه يحدثنا عن ذلك بقوله : « نشأت وانا غلام لا مال لي ، منقطعا في الديوان وكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة بن صغير العدوي ، وكان عالما بنسب قومي »(٣٢) وتابع الزهري تحصيله العلمي للانساب شأنه في ذلك شأن كل عالم وفقيه في ذلك العصر . وكان من ابرز تلاميذه الذي قرن السيرة بالانساب أيضا ابن اسحق المتوفى ١٥١ هـ الذي وسع حدود العلم الاول من أهل الكتاب ، ولم يدقق كثيرا في مصادر الاخبار والانساب . لذلك قال عنه ياقوت الحموي انه اخطأ في كثير من النسب الذي اورده في كتابه(٣٣) .

ومن علماء هذه المدرسة أيضا **الضحاك بن عثمان بن الضحاك القرشي** ، علامة المدينة المنورة المتضلع بأخبار العرب وأيامها وأنسابها . كان من اصحاب مالك عينه هارون الرشيد واليا على المدينة وتوفي بمكة ١٨٠ هـ ، لا تعرف اسماء كتبه ولكن توجد نقول عنه في كتب الواقدي والطبري وابن سعد وفي كتاب الاغاني ايضا(٣٤) .

ابو البختري (ت ٢٠٠ هـ) ، وهو ابو البختري وهب بن وهب بن كبير ، قرشي ولد في المدينة كان محدثا ضعيفا لكنه كان من العالمين بالانساب والاخبار ، تولى قضاء المدينة في عهد الخليفة هارون الرشيد (٣٥) ، وذكر له صاحب الفهرست الكتب التالية:

كتاب صفة النبي ، كتاب فضائل الانصار ، كتاب الفضائل الكبير ، كتاب نسب ولد اسماعيل ، كتاب طسم وجديس ، كتاب الرايات(٣٦) .

العقيقي (ت ٢٧٧ هـ) ، وهو ابو الحسن يحيى بن الحسن بن جعفر الحجة

العقيقي ، أصله من المدينة ومولده بها ٢١٤هـ ، الف عددا من الكتب منها : كتـاب اخبار المدينة وكتاب نسب آل ابي طالب . وقد افاد الاصبهاني في كتابه مقاتل الطالبيين من كتاب العقيقي الاخيرة . وقد ذكر فؤاد سزكين اماكن وجود مخطوطات هـذا الكتاب وما نقل منه(٣٧) .

مدرسـة العراق :

من أشهر مراكزها الثقافية البصرة والكوفة اللتان تميزتا بدراسة الاحـداث الاسلامية والانساب خاصة ، نتيجة لطبيعة الصـراع الحزبي والاقليمـي والقبلـي والشعوبي الذي ساد في فترة صدر الاسلام . ففي القرن الثاني للهجرة نسمع بوجود شيوخ ورواة متضلعين بأنساب قبائلهم ومآثرها ، وبوجود كتب تحوي أنسابا وشعـرا واخبارا لبعض القبائل ، ومن المحتمل ان هذه الكتب كانت قد جمعت من قبل بعض الرواة ولكنها كانت تعتبر ملكا مشتركا للقبيلة فالشاعر الطرماح المتوفى ١٠٥ هـ يشير الى كتاب تميم ، وحماد الرواية المتوفى ١٥٦ هـ كانت لديـه كتب قريش وثقيف(٣٨) وعن هؤلاء وامثالهم من الرواة ومن هذه الكتب توفرت مادة هامة افاد منها اخباريون ونسابون علماء خلفوا في منتصف القرن الثاني الهجري مؤلفات وثروة من الروايات المدونة. وكانت تلك الفترة فترة علماء روادفي مختلف الحقول وعلى الاخص في الانسـاب، اذ جمعت مواد عن الانساب العربية من رواة القبائل وممن كتبها بالدرجة الاولى حيث استعان هؤلاء العلماء بالكتابة لحفظ بعض انتاجهم . وفي هذه الفترة نرى تحول اهتمام النسابين من حدود القبيلة الواحدة في تصنيفهم الى القبائل العربية بشكل عـام اذ اصبحت الامة لا القبيلة محور اهتمامهم ، فاتجهوا الى جمع روايات تتعلق بموضوع واحد ووضعوها بكتاب مفرد ، كما فعل النسابة محمد بن السائب الكلبي المتوفى ١٤٦ هـ وابو اليقظان النسابة المتوفى ١٩٠هـ .

وقد خدم النسابون الدراسات التاريخية باعطاء الانسـاب مع بعض المعلومات عن حياة الشخصيات (كما عند مصعب الزبيري) وعن اهم الاحداث التاريخية التي شاركوا بها . وكانت الحاجات الاجتماعية والمنازعات القبلية والانقسامات السياسية بين القبائل والمناقشات والصراع الثقافي مع الشعوبية دافعا وحافزا للنسابين على زيادة الاهتمام بهذا العلم والتوسع في دراسته ، وانعكست كل هذه الامـور على كتابات المؤلفين وانتاجهم ، فنلاحظ مثلا شيئا من الميل العلويين لدى علي بن محمد المدائني(٣٩)، وميلا للشعوبية عند ابي عبيدة اللغوي(٤٠) الذي شارك في الكتابة عن مثالب العرب ، وميـلا للتعصب للعرب عند خالد بـن طليـق والاصمعي والجهمـي (٤١) وهكـذا تنوعت كتب المؤلفين في موضوعاتها بين المفاخر والمآثر والفضائل وبين المثالب واخبار القبائـل .

وفي مطلع القرن الثالث الهجري وصلت الانساب الى مرحلة ادت الى ظهور النسابين الكبار الذين رسموا في الكتب التي الفوها اطار دراسة شملت مختلف جوانب هذا العلم ، اذ تطور اتجاه دراسة الانساب الى اتجاه تاريخي ضمن اطار النسب كما في كتاب (نسب قريش) للزبيري المتوفى ٢٣٦ هـ ، الا ان هشام بن الكلبي قبله قد اوضح خطة الكتابة في هذا العلم واصوله وقواعده وكل النسابين الذين جاؤوا بعده ، وهم عيال عليه ، قد ساروا على منهجه نفسه . وكان هشام قد بدأ بكتابة انساب الانبياء وقبائل العرب الشمالية والجنوبية بفروعها قبل الاسلام وبعده ، فوضع سجلات نسب لامة بكاملها ، واتجه نحو الافادة من المصادر المكتوبة القديمة والمتداولة في عصره الى جانب الروايات الشفوية . وبذلك يكون هشام ووالده محمد بن السائب الكلبي مدرسة متخصصة في النسب قائمة بذاتها أرست قواعد هذا العلم واصوله واثرت في اجيال النسابين الذين جاؤوا فيما بعد ، فساروا على نهجها وقواعدها .

ومما سبق ذكره يمكن ان نستنتج عدة ملاحظات هامة عن واقع المدرسة العراقية، اولها أن نوعا من النظرة الكلية كانت تحكم رجال هذه المدرسة ، فقد تجاوز النسابون في اهتمامهم القبيلة الواحدة الى مجموع القبائل(٤٢) ، واصبح محور اهتمام الاخباريين والرواة والنسابين أخبار وأنساب الامة لا القبيلة ، وخلق ذلك نوعا بالشعور بالامة الواحدة افقيا ، واكد على استمرارية الوحدة الثقافية بين الماضي والحاضر .

وثانيها ان النسابين لم يقتصروا على رواية قطر معين او قبيلة معينة ، بل جمعوا كل ما وقع تحت ايديهم من معلومات شفوية وسجلات قديمة وكتب مدونة ، وسجلوا المعلومات بشكل مترابط مع التسلسل الزمني .

وثالثها أن النسابين قدموا معلومات تاريخية هامة مع الانساب التي دونوها ، وتوسعوا في معلوماتهم تحت ضغط التيار الشعوبي مما أعطى العصبية القبلية واشراف القبائل مادة هامة (٤٣) .

ومن أشهر النسابين في هذه المدرسة **خالد بن طليق** ، وهو أقدم علماء الانساب في العصر العباسي ، عينه الخليفة المهدي قاضيا على البصرة في عام ١٦٦ هـ . وذكر له النديم الكتب التالية : كتاب المآثر ، كتاب المتزوجات ، كتاب المنافرات ، كتاب البرهان(٤٤) .

ولم يصلنا شيء من هذه الكتب ولكن نقل الطبري عنه في تاريخه مرتين(٤٥).

وابو اليقظان النسابة (١٩٠هـ) وكان مولى لبني تميم(٤٦) ، واشتهر بعلمه بالانساب والاخبار والمآثر والمثالب ويتميز بانه كان أول من ألف في الانساب عامة نقلاً

عن الروايات القبلية وله من الكتب « النسب الكبير » الذي يحتوي على نسب اياد ، وكنانة وأسد وابن خزيمة والهون بن خزيمة وهذيل بن مدركة وقريش بن طابخـة ، وقيس عيلان وربيعة بن نزار وتيم بن مرة ، وله ايضا اخبار تميم وكتاب نسب خندف واخبارها(٤٧). وكل هذه الكتب ضاعت ولا يوجد منها الا مقتطفات متفرقة منقولة في كتب الاخرين الذين أخذوا عنه مثل المدائني والبلاذري وابن خياط والطبري وابن قتيبة(٤٨).

ولقيط المحاربي (ت ١٩٠ هـ) وهو ابو هلال لقيط بن بكير بن النضر المحاربي من اهل الكوفة ، كان عالما بانساب وأخبار العرب وأشعارها ذكر له النديم من كتبه كتاب النساء ، كتاب الحراب واللصوص . توجد مقتبسات عنه في كتـاب الاغاني للاصفهاني وفي معجم الادباء لياقوت الحموي(٤٩) .

وعبد الرحمن بن عبدة : من النسابين الثقاة حسن المعرفة بالمآثر وأيام العرب الف على مثال ابن الكلبي كتاب « النسب الكبير » ويحوي انساب القبائل ، وله ايضا احد عشر كتابا اخر في الانساب المختلفة ذكرها النديم بالتفصيل ، وهي كتاب مختصر اسماء القبائل وكتاب الكافي في النسب وكتاب مناكح آل المهلب وكتاب نسب المهلب بن ابي صفرة وولده وكتاب معد بن عدنان وقحطان وكتاب مناقب قريش ، كتاب نسب بني فقعس بن طريف بن اسد بن خزيمة وكتاب ابي جعفر المنصور وكتاب اشراف بكر وتغلب وفرسانهم وأيامهم وأحلافهم ومناقبهم(٥٠) .

ومؤرخ بن عمرو السدوسي (ت١٩٥هـ) ولد في البصرة وينتهي نسبه الى بنـي سدوس ابن شيبان ، من شيوخه الخليل بن احمد وابي زيد الانصـاري(٥١) ، كان معاصرا لحماد بن سلمة والنضر بن شميل وسيبويه واليزيدي وغيرهم ، جمع بـين اللغة والشعر والنحو والانساب والف الكتب في كل موضوع منها ، أما كتابه الشهير في النسب فهو « حذف من نسب قريش » والحذف يعني القطع من الطرف ، أراد فيه ان يتكلم عن نسب قريش من اطرافه فأوجز ولم يستوعبه كله مفصلا قال عنه ابن خلكان « اختصر نسب قريش في مجلد لطيف سماه حذف من نسب قريش » ويعتبر هذا الكتاب أقدم مؤلف وصل الينا عما صنف في الانساب عند العرب(٥٢) .

وعمارة بن القداح (ت ٢٠٠ هـ) : وهو ابو محمد عبد الله بن محمد بن عمارة بن القداح الانصاري النسابة ، اصله من المدينة ، استقر في بغداد وكان من كبار علمـاء النسب في عصره ، من تلاميذه مصعب الزبيري وابن سعد وعمر بن شبة ، ومن أشهر كتبه كتاب « نسب الانصار » ، نقل عنه ابن سعد في طبقاته ، وابن حجر في كتابـه الاصابة والطبري في تاريخه(٥٣) .

وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (ت ٢٠٤ هـ) وهو ابو المنذر هشام بن محمد

ابن السائب الكلبي ، كان عالما بانساب واخبار العرب وايامها ومثالبها ووقائعها ورث الاهتمام بتاريخ العرب القديم والانساب عن والده محمد الذي كان من علماء الكوفة المشهورين ، غزير العلم بالانساب يتلقاها عمن عرفها من اهلها كما ورد في قول النديم عنه انه اخذ نسب قريش عن ابي صالح وأخذه ابو صالح عن عقيل بن ابي طالب .وأخذ نسب كنده عن ابي الكناس الكندي ، وأخذ نسب معد بن عدنان عن النخار بن أوس العدواني . . الخ(٥٤) .

اعتمد هشام بالدرجة الاولى على ما الفه والده أو رواه في الانساب ، أما فيماكتبه عن تاريخ الفرس فقد اعتمد على الكتب المترجمة عن الفارسية على النحو الذي كان معروفا في عصره ، وعند كتابته عن تاريخ الامويين استخدم كتبا كثيرة منها ما الفه عوانة بن الحكم وكذلك استفاد من نقوش كنائس الحيرة للتعرف على تاريخ اللخميين(٥٥) ، وكان هذا المنهج غير المألوف في البحث آنذاك سببا في اثارة التهم وتوجيه المطاعن اليه من قبل معاصريه ، فاتهم بالوضع وقال فيه احمد بن حنبل « من يحدث عنه ؟ انما هو صاحب نسب وسمر ، ما ظننت ان احدا يحدث عنه »(٥٦) . وقال فيه صاحب الاغاني بعد ان نقل عنه أخبارا عن دريد بن الصمة « هذه الاخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بين فيها ، وفي اسفاره وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمة على سائر الروايات وهذا من اكاذيب ابن الكلبي، وانما ذكرته على مافيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه »(٥٧) .

أما في مجال الانساب فكان عالما متخصصا لا يشق له غبار في ميدانه ومكانته كواسطة العقد بالنسبة للنسابين ، وكل الذين جلؤوا بعده عيال عليه ، ومؤلفاته خير دليل على مقدرته العظيمة ، وعندما ذكرها النديم قسمها الى أقسام حسب موضوعاتها : كتب فيالاحلاف وكتب في المآثر والبيوتات والمفاخر ، والموءودات ، وكتب في أخبار الاوائل وكتب في اخبار البلدان ، وكتب في اخبار الشعراء وأيام العرب ، وفي الاخبار والاسمار ، وكتب في نسب اليمن وفي انساب اخرى ، وكتب في موضوعات شتى ، ويبلغ عدد الكتب التي عدها له مائة واربعين كتابا(٥٨) ، وصلنانقول عنها في كتب مشهورة مثل الطبري ، ومعجمي ياقوت الحموي ، وكتاب شرحالانباري للمفضليات وكتاب الاغاني والعقد الفريد وغيرها من الكتب التي اخذت عن مؤلفات ابي المنذر . اما كتبه التي وصلت الينا فهي : كتاب نسب فحول الخيل في الجاهلية ، وكتاب الاصنام اللذان طبعا في مصر . واشهر كتبه في النسب (الجمهرة) تم تحقيقه مؤخرا في دمشق من قبل محمود فردوس العظم ، ويعد مصدرا هاما للنسابين انذاك، ولا يزال هاما،وقد نقل عنه البلاذري اكثر مادته في كتابهعنالانساب(٥٩)، وكان أيضا مصدرا للهمداني نسابة اليمن الشهير في كتابه « الاكليل » الا انه اعتبره ناقصا في انساب قبائل اليمن(٦٠)

وهناك من العلماء من لم يكتف بالنقل عنه بل تناول هذا الكتاب بالاختصار والتهذيب ، وقد ذكر سزكين في كتابه « تاريخ التراث العربي » هذه المختصرات : المقتضب في كتاب جمهرة النسب لياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ . ومختصر قال سزكين انه من تأليف المبارك بن ابي بكر بن احمد ابن الشعار الموصلي المتوفى ٦٥٤ هـ . ومختصر اعده مجهول في مكتبة جامعة برنستون (٢٤٨٨) أعاد كاسكل ترتيبه وقدم له وعلق عليه وسماه جمهرة النسب(٦١) ..

وذكر بروكلمان في كتابه « تاريخ الادب العربي » ان الجزء الاول من هذا الكتاب موجود في المتحف البريطاني وذكر ان كرنكو قال : ان هذه النسخة هي من تاليف ابن الكلبي بتنقيح محمد بن حبيب مع زيادات له(٦٢) .

وللفقيه اللغوي القاسم بن سلام المتوفى ٢٢٤ هـ ، كتاب في النسب اعتمد فيه ايضا على مؤلف هشام بن الكلبي ، لا بل تناوله بالتلخيص والاختصار والتهذيب ، فقد جاء على الصفحة الاولى من مخطوطة كتابه مايلي : « قال ابو سعيد : دفع الينا ابو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد السكري كتابا ذكر انه أصل علي بن عبد العزيز البغوي ، وخطيده ، فنظرنا فيه فاذا هو جمهرة الانساب لهشام بن محمد الكلبي ، واذا على ظهره بخط علي بن عبد العزيز : كتاب النسب ، وذكر من في الجماهر من تسمية الصحابة والتابعين والشعراء في الجاهلية مما الفه ابو عبيد القاسم بن سلام ، وعرضه عليه : علي بن المغيرة ابو الحسن الاثرم ونسخته من نسخة الاثرم فنسب تاليف هذا الكتاب الى ابي عبيد »(٦٣) . وكتاب جمهرة النسب لهشام في الانساب هو نفسه كتاب « النسب الكبير(٦٤) » الذي ذكره النديم ويحتوي على نسب مضر ، كنانة ابن خزيمة ، أسد بن خزيمة ، هذيل بن زيد ، مناة بن تيم ، تيم الرباب عكل ، عدى ، ثور ، اطحل ، مزنية ضبه ، قيس عيلان ، غطفان ، باهلة ، غنى ، سليم ، عامر بن صعصعة ، مرة بن صعصعة ، الحارث بن ربيعة ، نضر بن معاوية ، سعد بن بكر ، ثقيف ، محارب بن خصفه ، فهم ، عدوان ربيعة بن عامر ، اياد ، عك وعكى ، ثم يعدد قبائل اليمن قبيلة قبيلة الى ان ينتهي الى جهينة وفهد ابن زيد(٦٥) .

كما أورد في النسب الكبير ايضا كتبا لانساب مفردة مثل كتاب نسب قريش وكتاب نسب معد بن عدنان وكتاب نسب ولد العباس كتاب نسب آل أبي طالب وكتاب نسب بني عبد شمس بن عبد مناف وكتاب بني نوفل بن عبد مناف وكتاب أسد بن عبد عبد العزى بن قصي وكتاب نسب بني عبد الدار بن قصي(٦٦) .. وغيرهم

ولابي المنذر ايضا كتاب ثان في النسب هو « المنزل » وهو أكبر من الجمهرة ، وثالث هو « الفريد » صنعه للمأمون في الانساب ، وكتاب رابع هو « الملوكي » صنعه

لجعفر البرمكي(٦٧) . واضاف حاجي خليفة ذكر كتاب خامس هو « الوجيز » ويسميه ياقوت الموجز(٦٨) . وكتب ابن الكلبي ليست قيمتها في كثرتها ، وانما تقع اهميتها في موضوعاتهاولو وصلتالينا جميعها لاسهمت اسهاما ايجابيا عمليا في اثراء العقل العربي المعاصر ووضحت جوانب عديدة من الحضارة العربية قبل الاسلام وبعده ، فهي عطاء مبكر وفير في فجر التأليف العربي ، فقد غطت أكثر فروع المعرفة في ذلك الزمان من تاريخ وأخبار وانساب وادب وعلوم دينية .

المدائني ابو الحسن (ت ٢٢٥ هـ) هو علي بن محمد بن عبد الله بن ابي سيف مولى سمرة بن جندب ،كان اخباريا ومؤرخا وعالما بالانساب ، ومن اشهر شيوخ المدرسة العراقية ومؤسسيها ، وكتبه في مجال الانساب تدل على سعة اطلاعه وتضلعه في هذا العلم . ذكر له النديم عددا من المواضيع التي الف فيها كتبه في اخبار النبي (ص)، وفي أخبار ونسب قريش ،وكتبه فيأخبار مناكح الاشراف واخبار النساء، وله كتب مفردة في النسب مثل كتاب اشراف عبد قيس ، وكتابمن نسب الىامه، وكتاب فضائل قريش(٦٩) .

ومن أشهر تلاميذ المدائني الذين اخذوا العلم عنه وتتلمذوا على يديه احمد ابن الحارث الخراز المتوفى ٢٥٨ هـ أورد له صاحب الفهرست اسماء عدة كتب في النسب منها كتاب القبائل وكتاب الاشراف وكتاب ابناء السراري ، وكتاب مختصر كتاب البطون وكتاب جمهرة ولد الحارث بن كعب واخبارهم في الجاهلية ، وكتاب النسب(٧٠) .

مصعب الزبيري (ت ٢٣٣ هـ او ٢٣٦ هـ) وهو من سلالة ابن الزبير ولد بالمدينة ١٥٦ هـ ودرس على يد الامام مالك وغيره ثم رحل الى بغداد وأقام فيها الى ان توفي، كان شاعرا وعالما بالايام والانساب ، له في النسب كتابان معروفان كتاب « النسب الكبير » وكتاب « نسب قريش »(٧١) وقد وصل الينا الكتاب الثاني الذي يعتبر من أفضل كتب النسب المتخصصة في نسب قريش وتدل خطته على ان المؤلف اتبع اطارا ثابتا الكتابة اتبعه ابن الكلبي من قبل والبلاذري فيما بعد ، وهو يشير في كتابه الى اعتماده على روايات ومدونات الزهري الى جانب اخذه عن اهل النسب وبعض الرواة ، ويعطي انطباعا انه رجع الى مختلف الروايات الشفوية ، والكتاب يلقي ضوءا خاصا على التحولات في الروابط القبلية وعلى التبدلات في خطوة الانساب . ويورد الزبيري ، اضافة الى سلسلة الانساب ، اخبارا بعضها مفصل عن بعض الشخصيات المهمة في العصر الجاهلي والاسلامي حتى زمنه ، ويورد بعض الشعر(٧٢) وخاصة في الفترة الاولى ، ويستشهد ببعض الايات القرآنية ، وأورد أيضا معلومات هامة عن احداث تاريخية حصلت في صدر الاسلام ، وبصورة عامة يبين هذا الكتاب قيمة دراسات الانساب في كتابه التاريخ .

ويعتبر هذا المؤلف من اهم المصادر في المكتبة العربية الاسلامية فهو كتاب معارف اسلامية يحتوي على معلومات ادبية وتاريخية ودينية وسير وتراجم هامة ، ويدل على الارتباط الوثيق بين علم الانساب وهذه العلوم .

ابو جعفر محمد بن حبيب (ت ٢٤٥ هـ)، كان مولى لبني العباس بن محمد وكانت امه حبيب مولاة لهم ايضا . قال عنه محمد بن اسحق انه كان من علماء بغداد بالانساب والاخبار واللغة والشعروالقبائل ، وكان مؤدبا وكتبه صحيحة . روى عن ابي عبيدة وقطرب وتتلمذ على يد ابي اليقظان النسابة ، أورد له النديم اسماء عدة كتب بلغت ثلاثة وثلاثين كتابا منهافي الانساب : كتاب النسب، وكتاب العمائر والربائل في النسب وكتاب المؤتلف والمختلف وكتاب المحبر(٧٣)، وصل الينا منها كتاب«المؤتلف والمختلف » ولعله أقدم ما صنف في هذا الفن، طبع بعناية المستشرق وستفلد ١٨٥٠م، وكتاب « المحبر » الذي طبع بعناية المستشرقة شتيتر في بيروت ويحوي هذا الكتاب على خلاصات تاريخية هامة ، كما طبع له في ١٩٨٥ كتاب عن قريش واخبارها اسمه (المنمق) حققه خورشيد احمد فاروق ، وتوجد من كتبه مخطوطتان في دار الكتب بمصر لكتاب من نسب الى امه ، وقد طبعت ضمن نوادر والرسائل ، وكتاب المقتالين. وذكر النديم انه رأى في القرن الرابع الهجري كتاب ابن حبيب الضخم « كتاب القبائل الكبير والايام » الذي كتبه للفتح بن خاقان في اربعين جزءا كل جزء في مائتي ورقة ، ووضع له فهرسا في ١٥ ورقة(٧٤) .

الجهمي : وهو ابو عبد الله احمد بن محمد بن حميد بن سليمان بن عبد الله بن ابي جهم بن حذيفة العدوي ، عاش في عصر الخليفة المتوكل وكان اديبا وراوية وشاعرا متفننا ، يذكر النسب والمثالب ، له كتاب انساب قريش واخبارها وكتاب المثالب وكتاب فضائل مضر ، وكتاب الانتصار في الرد على الشعوبية(٧٥) .

ابن النطاح (ت ٢٥٢ هـ) هو ابو عبد الله محمد بن صالح بن مهران ، بصري الاصل لكنه عاش في بغداد ، وهو راوية ومحدث ومؤرخ ونسابة ، ذكر له النديم عددا من الكتب منها في النسب ، كتاب افخاذ العرب وكتاب انساب أزد عمان ، وكتاب البيوتات ، وقد نقل عنه صاحب الاغاني في مواضع كثيرة ، وكذلك الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد(٧٦) .

الزبير بن بكار (ت ٢٥٦ هـ) ، من اهل المدينة ، اقام في بغداد ثم تولى قضاء مكة في ٢٤٢هـالى ان توفى فيها ، له كتب عديدة في الاخبار والشعراء والعصر الجاهلي والنسب ، لكن أبرز كتبه في النسب كتاب بقي لنا هو كتاب (نسب قريش واخبارها) وهو يختلف في ترتيبه ومضمونه عن كتب النسب الاخرى، اقتبسمنه صاحب الاغاني في كافة فصول كتابه تقريبا ، وتوجد مخطوطات لبعض اقسامه في استانبول ، حقق

الجزء الاول منه محمود محمد شاكر وطبع في القاهرة سنة ١٩٦١ هـ ، كما وصلنا من كتبه « الموفقيات » وطبع ، وهو كتاب عام في الاخبار . وله كتب اخرى له في النسب لم تصلنا ذكرها صاحب الفهرست منها كتاب اخبار العرب وأيامها وكتاب نوادراخبار النسب وكتاب الاحلاف وكتاب اخبار الاوس والخزرج(٧٧) .

احمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٣٧٧هـ) المكنى بأبي الحسن من اهل بغداد وعلمائها المشهورين ، له في النسب كتاب هام هو « انساب الاشراف(٧٨) »وهو كتاب عام للتاريخ في اطار الانساب ، يمثل مزيجا فذا من الخطة في الكتابة والمادة والموضوع ، فخطته تجمع بين اساليب كتابة كتب الطبقات والتراجم وكتب الاخبار وكتب الانساب ، حيث تشمل سيرة كل خليفة الاحداث التي وقعت في عهده بما في ذلك فعاليات الاحزاب السياسية مع عناوين فرعية للحوادث المهمة تشبه عناوين كتب الاخباريين ، وهو يراعي التسلسل التاريخي عادة مع وجود بعض الاستثناءات التي تفرضها ضرورة تسلسل النسب (عندما يرد الكلام مثلا عن يزيد قبل عثمان بن عفان(٧٩)) .واكثر ما يتضح أسلوب كتابة التراجم لديه عندما يورد تراجم مطولة لبعض الاعلام الذين اشتهروا من حكام وعلماء وادباء ، فقد ترجم لابي بكر في ٢٠ صفحة ولعمر بن الخطاب في ٧٢ صفحة ولعلي وبنيه في أكثر من ٣٠٠صفحة ، وترجم لجرير في ١٥ صفحة وللفرزدق في ٢٠ صفحة وللحجاج بن يوسف الثقفي في ٤١ صفحة (٨٠) .

امتاز البلاذري ايضا بانه ينتقد مصادره قبل الاخذ عنها ، وينتقي مادته التاريخية من الرويات التي تعود للمنطقة التي وقع فيها الحادث ومن روايات اخرى حول الموضوع نفسه ، كما أفاد من المؤلفات المدونة أيضا(٨١) . ويستعمل البلاذري الاسناد عادة في بعض الروايات التي تتعلق بحوادث المدينة زمن الراشدين ، وفي غير ذلك يكتفي بذكر سلسلة اسناد ، وكثيرا ما يستعمل الاسناد الجمعي ليدل على الاتفاق على المعلومات الاساسية . وقد عبر البلاذري في كتابة هذا عن فكرة وحدة الامة واتصال خبراتها في التاريخ الاسلامي . وصلت الينا نسخة كاملة من انساب الاشراف مخطوطة في اسطنبول وقام الاستاذ محمد حميد الله بنشر الجزء الاول منه في سلسلة ذخائر العرب (عدد ٢٧) . ويبدأ البلاذري فيه بذكر نسب نوح عليه السلام حتى يصل الى عدنان ، ويتدرج بعد ذلك نزولا الى ذكر أخبار الرسول وسيرته حتى وفاته(٨٢) ، ثم ينتقل الى الحديث عن ابي طالب واولاده ويخص بالحديث علي ابن ابي طالب فيذكر وقائعه وحروبه ويروي سير أولاده ، ثم يتحدث عن ابي العباس السفاح وابي جعفر والخلفاء من بني العباس حتى هارون الرشيد ، ويعود مرة ثانية لاستكمال رواية انساب القرشيين أمثال بني نوفل وبني أمية وبني زهرة وبني تميم بن مرة وبني هصيص بن كعب . وينتهي من نسب قريش في المجلد الرابع فيتتبع

نسب كنانة بن خزيمه بن مدركـه وينتهي منه في المجلد ١٢ ليبدأ بعد ذلك بنسب قيس ولد الياس بن نصر حتى يصل الى ثقيف .. ويبدو انه توني قبل أن ينتهي من بقية قبائل قيس(٨٣) . .

نشر من كتاب الانساب هذا : جزء السيرة ، جزء علي بن ابي طالب ، الجزء الرابع ، معاوية ، الجزء العباسي .

مدرسـة اليمن :

اراد أهل اليمن مضاهاة عرب الشمال بتاريخهم العريق فكانت لهم مدرستهم التي اختصت برواية التاريخ اليمني وانساب قبائله ، وكان من اسباب ظهور هذه المدرسة التنافس القديم بين عرب الجنوب أصحاب الحضارة العريقة وعرب الشمال الذيـن صاروا بعد الاسلام ذوي مجد وسلطة ، لذلك انبروا يقارنوها بانساب اليمن القديمة وعراقتها وأصالتها ، وساعد على ظهور المدرسة ايضا العصبية القبلية التي سادت في العصر الاموي اذ حاول عرب الجنوب اثبات الوجود اليمني الى جانب الوجود القيسي، مما ساعد على زيادة الاهتمام بالانساب والحرص عليها ، لذلك كانت اهتمامات هـذه المدرسة موجهة نحو رواية تاريخ اليمن القديم وقصص الانبياء وأنساب القبائـل العربية (٨٤) ، ولعل اشهر نسابي اليمن انذاك كان دغفل بن حنظلة السدوسي المخضرم الذي عاش في أواخر العصر الجاهلي وفي صدر الاسلام وأدرك معاوية الذي استقدمـه من اليمن وعينه معلما لابنه يزيد(٨٥) ، وظل أشـهر نسابة تناقل تلاميـذه في اليمن معلوماته جيلين على الاقل او ثلاثة ، ومن ابرز هؤلاء التلاميذ في أواخر القرن الثاني الهجري هو عمرو بن مالك الشحري الذي يروى ان الرشيد استدعاه من اليمن ليسمع منه وطلب اليه تسجيل « السيرة » التي رواها دغفل، وفي مكتبة الامبروزيانا في ايطاليا تحت رقم ٣ مخطوطة من ٦٦ ورقة بعنوان « السيرة برواية الشحري » يروي في مطلعها قصة استدعاء الخليفة هارون الرشيد له وسماعه منه وتسجيله لها بناء على طلبه ، ويحوي ذلك الكتاب على قصص اخبار العرب القديمة وحروبها وأمر عـاد وثمـود وعدنان وقحطان ومن خلفه من الابناء والملوك في بلاد اليمن(٨٦) .

الحنبصي ، وهو ابو نصر محمد بن عبد الله بن سعيد الحنبصي وصفه الهمداني بانه أكبر نسابة ومؤرخ للتاريخ الحميري القديم ، أفاد من نقوش وكتب عربية جاهلية مدحه شاعر معاصر له بأنه فاق كل النسابين العرب(٨٧) . كان يعيش حتى ٢٩٥ هـ في قصر حنبص في اليمن ومن كتبه : نسب حمير وكان اهم مصادر الهمداني في كتابه الاكليل ، ذكره ابن ماكولا في كتابه الاكمال(٨٨) ..

أما الذي وضع الاسس الصحيحة لمدرسة اليمن وكون بشخصه مدرسة خاصة

قائمة في النسب وتاريخ اليمن فهو **الهمداني المشهور بابن الحائك ابي محمد بن احمد ابن يعقوب** من قبيلة همدان اليمنية المعروفة ، ولد في أواخر القرن الثالث الهجري وتوفي في صنعاء بعد عام ٣٤٠ (٨٩) ، وله مؤلفات زاخرة اثرت الثقافة العربية بعطائها وبخاصة « الاكليل » الذي لا يستغني عنه اي دارس في تاريخ اليمن وانسابها ويعتبر ركنا اساسيا في مكتبة التاريخ العربي ولبنة هامة في بنائه الشامخ .

يتالف كتاب الاكليل هذا من عسرة اجزاء وصلنا منها الى الان اربعة ، عرفنا من خلالها الموضوعات التي بحثها الهمداني في كتبه العشرة وهي :

مختصر من المبتدا واصول الانساب ، نسب ولد الهميسع بن حمير ، في فضائل قحطان ، في السيرة القديمة وعهد تبع ابي كرب ، في السيرة الوسطى من اول ايام اسعد تبع الى ايام ذي نواس ، في السيرة الاخرة الى الاسلام ، في التنبيه على الاخبار الباطلة والحكايات المستحيلة ، في محافد اليمن ومساندها ودفائنها وقصورها ومرائي حمير والقبوريات ، في امثال حمير وحكمها واللسان وضروب المسند ، في معارف همدان وانسابها وعيون اخبارها (٩٠) .

اما الاجزاء الاربعة التي وصلتنا من هذا الكتاب فهي الجزء الاول والثاني حققهما ونشرهما كاملين الاستاذ محمد بن علي الاكوع الجوالي في القاهرة عام ١٩٦٤ و ١٩٦٦ ، والجزء الثامن من هذا الكتاب نشره الاب انستساس الكرملي في بغداد ١٩٣١ ونشر الجزء العاشر الاستاذ محب الدين الخطيب في القاهرة عام ١٩٦٤ .

ومن مراجعة موضوعات اجزاء الكتاب العشرة نجد ان الجزء الاول والثاني والعاشر اختصوا بالانساب ، ففي الجزء الاول نجد مقدمتين الاولى لمحمد بن نشوان ابن سعيد الحميري (٩١) يقدم فيها كتاب الاكليل بعد ان نقحه ، والمقدمة الثانية للهمداني صاحب الكتاب وهي المقدمة الاصلية وفيها يبين الهمداني ان غرضه العناية بنسب الهميسع بن حمير الذي اهمله النسابة الكلبيون من ولد مالك بن حمير والذي لم يذكره محمد بن اسحق الا في خمسة اسطر . ويذكر الهمداني اهم مصادره في انساب اليمن وهو الشيخ ابو نصر محمد بن عبد الله « شيخ حمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها » ومرجعه الهام الثاني هو ابو نصر الحنبصي (اوردنا ذكره سابقا) الذي كان يقرأ الكتابة الحميرية القديمة والمساند الدهرية ، علامة زمنه بالانساب . واعتمد الهمداني ايضا على الروايات الشفوية التي اخذها عن رجال حمير وكهلان واستفاد من سجل خولان القديم بصعدة (٩٢) . والى جانب هؤلاء نجد من أهم مراجع الهمداني في الانساب محمد بن اسحق وهشام الكلبي ، الا أنه في كثير من الاحيان يشير الى نقص معلومات الكلبيين في انساب اليمن ، فهم وان كانوا يمنيين في الاصل الا انهم لم يرحلوا الى اليمن ليتعرفوا عن كثب على انساب من قطن فيها وانما اخذوا

انسابها من اعتاب من ارتحل ايام الفتوحات ، حيث انساح من اليمنيين مالا يحصى عدده . وانجبوا هناك، وهذا ما جعلهم يجهلون الكثير من المعلومات عن انسابها اذ يقول « لما قلت رحلتهم الى من قطن منهم باليمن ولم يلقوا بنهوجهم من ذوي معرفتهم غير أعقاب من ظعن . . . أتوا من انسابها بعنق يختلف عنها بدنها وكذلك (فعل) غيرهم من النساب(٩٣) » .

بدأ الهمداني موضوع الجزء الاول بالحديث عن اخبار آدم وبنيه ، ثم نوح والطوفان وأبناء نوح سام وحام ويافت ، وسرد انساب العرب العاربة وبعض اخبارها مثل عاد وثمود ، ثم انساب قحطان وحمير بن سبأ ، وانساب قضاعة ومهرة وخولان. ومن خلال ذلك نجد اشارات الى طبقات العرب(٩٤) وأسماء الايام المشهورة عندهم قديما .

اما في الجزء الثاني من الاكليل فيستمر بسرد انساب القبائل اليمنية الى العصور الاسلامية وحتى القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه ، يعالج في ثنايا الانساب بعض القضايا التاريخية في القديم وفي الاسلام ، فيتكلم عن الحارث الرائش افريقيش باني افريقية ، كما يعرض نتفا من تاريخ فارس وعلاقته بتاريخ اليمن والعرب قبل غزو بختنصر(٩٥) ، ويعالج ايضا نقاطا في تاريخ العلويين في اليمن مثل قدوم ابراهيم بن موسى بن جعفر الى صعدة وصنعاء(٩٦) ، كما يشير الى بعض المفاخرات بين اليمن ومضر أيام الامويين وفي ذلك اشارات الى ما امتازت به القبائل اليمنية من الفروسية والشرف والعز والملك والفصاحة والخير والمنعة(٩٧) . والجزء الثامن من الاكليل الذي وصلنا يتخصص موضوعه بذكر آثار اليمن الشهيرة وقصورها وكنوزها ودفائنها ، والبحث في هذا الجزء لا يدخل ضمن دراسة الانساب كما هو واضح ، ولكن الجزء العاشر من الاكليل متخصص بمعارف همدان وأنسابها واخبارها ، واعتمد في ذكر الانساب وتفاصيلها على الروايات الشفوية والكتب المدونة والزبر التي كانت في ايدي شيوخ القبائل ، وعندما يتحدث عن نسب المرانيين وآل ذي المشعار يقارن ما لديه بما رواه نساب العرب وينقدهم ايضا بقوله « ان نساب العراق والشام يقصرون انساب كهلان ومالك بن حمير ليضاهئوا بها الاباء من ولد اسماعيل عليه السلام ، وامتنعت عليهم انساب ولد الهميسع اذ كانت مزبرة في خزائن حمير ، وكذلك انساب الملوك من ولد عمرو بن همدان فاهملوها كي لا يقاس بها انساب باقي همدان وكذلك خالفوا في أصل من نسب ناعط ، والمرانيون باليمن ينكرون هذا التدريج ويعملون على ما قيده آباؤهم في نسبهم وحفظوه كابرا عن كابر »(٩٨) .

ويورد أيضا بين ثنايا الانساب نتفا من المعلومات التاريخية فيتحدث مثلا عن الامام الهادي الى الحق(٩٩) وعن القرامطة ومعركة يوم عرق(١٠٠) ، وغزو قيس لقبائل خولان ووصولهم الى صعدة (١٠١) .

ونتيجه لما نقدم عرضه نلاحظ ان مدارس التاريخ الكبرى ساهمت في اسراء وتطور علم الانساب باعتباره كان طريقة من طرق تدوين مادة التاريخ ، وبفضل ازدهار الحركة العلمية ونشاط التدوين ـ ايضا ـ أصبح علما قائما بذاته له أسس وقواعد واصول مما ادى لظهور مصنفات كبيرة بالنسب اضحت ركنا هاما في المكتبة العربية الاسلامية لا يمكن الاستغناء عنه .

حصلت المرشحة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الماجستير في التاريخ برسالتها « كتاب النسب لابي عبيد القاسم بن سلام ، ١٥٤ ـ ٢٢٤ هـ ، دراسة وتحقيق » باشراف الدكتور سهيل زكار .

(١) العصر العباسي الاول ، شوقي ضيف ، دار المعارف القاهرة ، ص٩٨، ١٠١ .

(٢) انباه الرواة على انباه النحاه ، جمال الدين علي بن يوسف القفطي ، القاهرة ١٩٥٥، ٢/ ٣٤.

(٣) تاريخ الرسل والملوك ، ابن جرير الطبري (طبعة مصورة) بيروت ، ٦/٥٤١ .

(٤) انباه الرواة ، ٢/٣٤٩ .

(٥) المصدر السابق ٢/١٩٩ــ٢٠١ .

(٦) المصدر نفسه ٣/١٦ .

(٧) العصر العباسي الاول ص١٠٢ .

(٨) دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الاسلام ، صالح العلي ، مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٢، ص ٥٨ ــ ٥٩ .

(٩) ضحى الاسلام ، احمد امين ، دار الكتاب العربي بيروت ، ط ١٠ ، ٢/١٣.

(١٠) التاريخ العربي والمؤرخون ، شاكر مصطفى ، دار العلم بيروت ، ١/٩٣ ،

(١١) الفهرست ، النديم ، تحقيق رضا تجدد ، طهران ١٩٧١ ، ص ٥٥ ، وقد ادرك القعسي المنصور

(١٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١/٩٦ــ ٩٨.

(١٣) انظر التفاصيل لهذه المؤلفات في كتاب الفهرست ص ١١٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ١٠٧.

(١٥) المصدر السابق ص ١١٨ .

(١٦) التاريخ العربي والمؤرخون ١/٩٩ .

(١٧) تذكرة الحفاظ ، لابي عبد الله شمس الدين الذهبي ، دار الفكر العربي بيروت ، ١/١٥١ ، ٢٢٩ . النجوم الزاهرة في اخبار مصر والقاهرة لابن تغري بردي ، القاهرة ١٩٥٦، ١/٣٥١ . تاريخ الخلفاء ، جلال الدين السيوطي ، بيروت ٩٨٣ ، ص ٣٦١.

(١٨) راجع : تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ الرياض ١٩٨٣ المجلد الاول ، الجزء الثاني ، ص ١٢.

(١٩) مثال : كتاب المغازي والسير لمحمد بن شهاب الزهري المتوفى سنة ١٢٤هـ ، اورد فيه فصلا خاصا للنسب النبوي القرشي، وعلى ذلك النهج سار مصنفو السيرة فيما بعد .

(٢٠) الفهرست ص ١٠٨ .

(٢١) المصدر السابق ص١٠٧ .

(٢٢) المصدر السابق ص ١٢٦

(٢٣) المصدر السابق ص ١٢٧ .

(٢٤) تاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي بيروت ، ٨/٢٦٩.

(٢٥) التاريخ العربي والمؤرخون شاكر مصطفى ١/١١٧ــ١١٩ .

(٢٦) المنتخب من كتاب ذيل المذيل ــ الطبري ، المطبعة الحسينية ، ص ٩٧ .

(٢٧) انظر كتاب المغازي النبوية للزهري ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، دمشق ١٩٨١.

(٢٨) حلية الاولياء ٣٦١/٣ ، سيرة ابن هشام ٨/١ .

(٢٩) الاغاني لابي الفرج الاصبهاني ، طبعة مصورة عن طبعة مصر ، بيروت ، ٥٩/١٩.

(٣٠) نسب قريش ، المصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار المعارف القاهرة ، ص٣ .

(٣١) الذهبي تراجم ص ٦٨: قال قرة بن عبد الرحمن : (لم يكن للزهري الا كتاب نسب قومه) .

(٣٢) المغازي النبوية ص ٢٦.

(٣٣) معجم الادباء ، ياقوت الحموي ، دار احياء التراث بيروت ٨/١٨ .

(٣٤) تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ، م١،ح١، ص ٤٦.

(٣٥) معجم الادباء ،٢٣٢/٧ - ٢٣٣ ، المعارف لابن قتيبة دار المعارف القاهرة ط٢ سنة١٩٦٩،ص٢٥٨.

(٣٦) الفهرست ص ١٠٠ .

(٣٧) تاريخ التراث العربي ، م١ ، ج١ ص ٦١.

(٣٨) بحث في نشاة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ، المطبعة الكاثوليكية بيروت،ص١٢٠.

(٣٩) له كتاب فضائل محمد بن الحنفية ، كتاب فضائل جعفر بن ابي طالب ، كتاب فضائل عبد الله ابن جعفر ، راجع الفهرست ص ١١٤ .

(٤٠) له كتاب مثالب باهلة ، وكتاب ادعياء العرب ، انظر المصدر السابق ص٥٩.

(٤١) لخالد بن طليق كتاب المآثر ذكره صاحب الفهرست ص١٠٧ ، والاصمعي له كتاب النسب انظر المصدر السابق ص ٦١ والجهمي له كتاب الانتصار في الرد على الشعوبية ذكره النديم ١٢٤ .

(٤٢) التاريخ العربي والمؤرخون ١٧١/١.

(٤٣) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .

(٤٤) الفهرست ص ١٠٧ ، تاريخ التراث العربي ، فؤاد سزكين ،م١، ج٢، ص٥٤.

(٤٥) تاريخ الطبري ، ٥٠٦/٣ ، ٥١٨.

(٤٦) المصدر السابق ٤٤٩/٤.

(٤٧) الفهرست ص ١٠٧ ، الاشتقاق لابن دريد الازدي ،دار المسيرة ،بيروت ،ط٢ ، ١٩٧٩ ، ص ١٤٤ معجم الادباء ، ٢٣٦/٤ .

(٤٨) تاريخ التراث العربي، م١ ، ج٢ ، ص ٤٧.

(٤٩) المصدر السابق ، م١، ج٢ ، ص٤٨ .

(٥٠) الفهرست ص ١١٨.

(٥١) المصدر السابق ص ٥٤.

(٥٢) كتاب حذف من نسب قريش ، تاليف مرج بن عمرو السوسي ، تحقيق صلاح الدين المنجد بيروت ١٩٧٦ ، لمزيد من المعلومات راجع مقدمة المحقق لهذا الكتاب .

(٥٣) تاريخ التراث العربي ، م١، ج٢ ، ص ٥٥.

(٥٤) الفهرست ص ١٠٨.

(٥٥) تاريخ التراث العربي ،م١،ج٢،ص٥١.

(٥٦) تاريخ بغداد ، ابن الخطيب البغدادي ، ٤٦/١٤.

(٥٧) الاغاني ، الاصبهاني ، ١٩/٩ .

(٥٨) الفهرست ص ١٠٨–١١٠.

(٥٩) مقدمة كتاب انساب الاشراف للبلاذري ، الجزء الاول ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٦ .

(٦٠) الاكليل – للهمداني تحقيقمحمد علي الاكوع ، القاهرة ١٩٦٤، ٨٤/١ .

(٦١) انظر تاريخ التراث العربي ،م١، ج٢،٥٣ .

(٦٢) تاريخ الادب العربي ، كارل بروكلمان ، ترجمة عبد الحليم النجار ، القاهرة ط٤ ،٣١/٣.

(٦٣) الورقة الاولى من مخطوطة كتاب النسب لابي عبيد ، نسخة مصورة عن نسخة مكتبة مغنيسا بالاناضول محفوظة فيها برقم (١٥٩٤) .

(٦٤) سماه ياقوت (جمهرة الانساب) وذكر ان ابن سعد رواها عنه، انظر معجم الادباء ٢٩١/١٩ .

(٦٥) انظر الفهرست ص ١١٠ .

(٦٦) المصدر السابق ، الصفحة ذاتها .

(٦٧) وفيات الاعيان لابن خلكان ، ٨٣/٦ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩.

(٦٨) انظر كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون ، حاجي خليفة ، بغداد ، ١٧٩/١ ، معجم الادباء ٢٩٢/١٩ .

(٦٩) الفهرست ص ١١٣–١١٤ ، معجم الادباء ، ١٣٦/١٤ تاريخ بغداد ، ٢٥٧/٥–٢٥٨.

(٧٠) الفهرست ص ١١٧، معجم الادباء ٨/٣ .

(٧١) تاريخ التراث العربي ،م١،ج٢، ص ٥٨، الفهرست ص ١٢٣، تاريخ بغداد ١١٢/١٣–١١٤.

(٧٢) كتاب نسب قريش ، مصعب الزبيري ، تحقيق ليفي بروفنسال ، القاهرة ص٥ ، ٧ ٢٩٩ ،٢٤٦– ٢٤٦ .

(٧٣) الفهرست ص ١١٩ .

(٧٤) الفهرست ص ١١٩.

(٧٥) المصدر السابق ص ١٢٤ .

(٧٦) المصدر السابق ص١٢٠ ، الاغاني ٢٩٨/٣ – ٣٠١ ، ٥١/٨ – ٨٨، ٦٢/١٠–٢٥١ تاريخ بغداد ٢٥٧/٥ – ٢٥٨.

(٧٧) الفهرستص ١٢٣ ، اخبار وكيع بن الجراح ، دار صادر بيروت ،٢٦٩/١، معجم الادباء ١٦١/١١

(٧٨) الفهرست ص ١٢٥–١٢٦ .

(٧٩) بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب ، عبد العزيز الدوري ص ٤٩.

(٨٠) المدخل الى التاريخ ، نور الدين حاطوم ، واخرون ، مطبعة الهلال ،دمشق ١٩٨٢ ص ٣٦٢ .

(٨١) التاريخ العربي والمؤرخون – شاكر مصطفى ٢٤٤/١–٢٤٥ .

(٨٢) بدأ الحديث عن مولد الرسول (ص) في صفحة ٤١ من المجلد الاول واستغرق الحديث عن السيرة النبوية ٢٣٧ صفحة .

(٨٣) التاريخ والمؤرخون العرب ، السيد عبد العزيز السالم ، دار النهضة العربية بيروت ص١٧٨.

(٨٤) التاريخ العربي والمؤرخون ١٣٥/١.

(٨٥) المحبر ، ابو جعفر محمد بن حبيب ، دار الافاق الجديدة بيروت ص ٤٧٨.

(٨٦) التاريخ العربي والمؤرخون ١٣٦/١ .

(٨٧) انظر الاكليل ،الهمداني ١/ص٦ .

(٨٨) راجع كتاب تاريخ التراث العربي ، م١،ج٢ ص٦٢.

(٨٩) انظر مقدمة كتاب الاكليل الجزء الاول محمد بن علي الاكوع دار الحرية بغداد ١٩٧٧ .

(٩٠) كتاب الاكليل ، الهمداني ، الجزء العاشر ، تحقيق محب الدين الخطيب القاهرة راجع الصفحة الخامسة من مقدمة المحقق ، التي اورد فيها ترجمة وافيه عن حياة الهمداني انظر ايضا كتاب الهمداني في مصادره وافاقه العلمية ، محمود ابراهيم الصغيري ، مركز الدراسات والبحوث اليمني صنعاء ، حيث وردت له ترجمة مفصلة عن حياته ومؤلفاته ص ٣٠ .

(٩١) عاش محمد بن نشوان بن سعيد الحميري ، في الربع الثاني من القرن السادس الهجري وقد اورد محقق الكتاب ترجمة عن حياته في ص ٧٩ .

(٩٢) من مقدمة الهمداني في كتاب الاكليل ٨٧/١-٨٩ .

(٩٣) الاكليل ٨٤/١.

(٩٤) المصدر السابق ٩٧/١ - ٩٨.

(٩٥) المصدر السابق ٨٦/٢ ٢.

(٩٦) الاكليل ١٣١/٢.

(٩٧) المصدر السابق ٢٢٠/٢-٢٢٩.

(٩٨) المصدر السابق ٣٠/١٠ .

(٩٩) المصدر السابق ٦٧/١٠، ١١٨ .

(١٠٠) المصدر السابق ١٨٢/١٠ .

(١٠١) المصدر السابق ٢٢٢/١٠.

ذيول مؤرخي الصابئة
على تاريخ الطبري

ثابت بن سنان ، هلال بن المحسن ، غرس النعمة محمد بن هلال

سميحة أبو الفضل
مرشحة للماجستير

ليس من السهل الحديث عن تاريخ الصابئة والوقوف على مافيه ، نظرا لقدم هذا التاريخ ، وقلة المصادر الموثوقة التي يمكن الاعتماد عليها ، ولضياع بعض كتابات القدماء ، ان لم يكن معظمها ، بسبب تلف المواد التي كتبت عليها من رق واوراق بردي بالحروب والغزوات والفتن ، او لانها اهملت كمخطوطات لتعذر من يجيد قراءتها . اضف الى هذا انه نتيجة للصراعات الدينية التي سادت كلا من بلاد الرافدين والشام، عمدت بعض المجموعات الدينية الى اخفاء كتاباتها والتكتم على معتقداتها وطقوسها . ولا شك ان هذه الاحوال جميعا قادت الى نقص في المعلومات واخطاء في التفصيل مغايرة للحقيقة .

وينطبق هذا كل الانطباق على تاريخ الصابئة الذين هم قوم من اصحاب احدى الديانات الشرقية القديمة . واذا كان لا يعنينا هنا الحديث عن ديانة الصابئة فيكفي أن نشير ان العادة جرت على تقسيم الصابئة الى قسمين : قسم عراقي ،وآخر شامي جزري . ويعرف الشامي الجزري عادة باسم صابئة حران ، وقد انقرضوا ولم يبق منهم احد ، أما القسم الاخر فقد عاش في جنوب العراق على ضفاف نهر الفرات وتشعباته ، ويبدو ان خلافاعقائديا ميز الحرانيين عن العراقيين . وما زال في العراق وايران ما يزيد على الاربعين ألفا من الصابئة يعرفون الان باسم المندعين اوالمندائيين(١).

وتذكر المصادر العربية ان اسم الصابئة اطلق على الحرانيين في ايام الخليفة العباسي المأمون(٢) ومن ثم شهروا بهذه التسمية وعم استخدامها ليشمل الطرفين ، وعلى العموم كان لعقيدة الصابئة تأثيراتها على عقائد الشرق القديم السماوية وغير السماوية . كما ان افكارا من هذه العقيدة تغلغلت الى افكار وعقائد بعض الفرق

الاسلامية والحركات الصوفية(٣) .

تكلم صابئة حران اللغة الارامية ثم السريانية ، وأجادوا مع السريانية اللغة الاغريقية ، وشغلوا لهذا دورا كبيرا في تطور الفكر اللاهوتي المسيحي وتميزوا دائما بدور الوسيط بين الاداب الارامية والسريانية من جهة والاغريقية من جهة ثانية ؛ وقاموا أحيانا بالدور نفسه بين اللغات التي سادت اراضي الامبراطوريات الفارسية المتعاقبة .

وبعد قيام الفتوحات الاسلامية ظلت مدينة حران تتمتع بمكانة عالية ، ولعل هذه المكانة كانت سببا من الاسباب التي دفعت مروان بن محمد الى اتخاذها عاصمة له،وبعده أيضا عبد الله بن علي القائد العباسي المشهور(٤) . وشغل بعض الحرانيين ادوارا في الادارة والترجمة في العصر الاموي، لكن هذه الادوار عظمت في العصر العباسي(٥). فالحرانيون كان لديهم تراثهم الفكري الخاص وهو تراث غني،وامتلكوا تراثا مترجما عن الاغريقية ولغات فارس ،وعلى هذا الاساس شهروا منذ فترة مبكرة بالتنجيم والطب والفلسفة والقدرة على الترجمة . وفي بغداد الخلفاء العباسيين الاوائل قام الحرانيون بالدور الرئيسي في حركة الترجمة الى العربية،ودفع هذا عددا منهم ، لا بل عددا من أسر الحرانين البارزة الى الهجرة الى بغداد والاستقرار بها ، حتى غدوا جالية متعاضدة متعاونة ، شهر على رأسها اسرتان هما آل زهرون وآل قرة، اللتان جمعت اواصر الصداقة والقرابة بينهما . وحافظ الحرانيون في البداية على عقائدهم لكن بعد مضي وقت لم يكن بالقصير دخلوا في الاسلام ، وهذا ما اقتضته الاحوال وأوجبته الظروف، ومع ذلك نسجت حكايات طريفة ومثيرة حول دخول بعضهم في الاسلام ، اخترنا منها الحكاية التي تعلقت بهلال بن المحسن لصلة هلال المباشرة بدراستنا هذه . اسلم هلال في أواسط عمره وحسن اسلامه ، وكان أول من دخل الاسلام من آل زهرون ، وبعد أسلام هلال أقبل أفراد هذه الاسرة على الدخول بالاسلام حتى اصبحت اعداد المسلمين من الصابئة تفوق اعداد الذين حافظوا على ديانتهم القديمة .

روى المؤرخون عن هلال قوله : « رأيت في المنام سنة تسع وثلاثين وثلاث مائة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيا قد وافى موضع مقامه ، والزمان شتاء والبرد شديد والماء متجمد ، فأقعدني ، فارتعدت حين رأيته ، فقال لا ترتعد فاني رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وحملني الى بالوعة في الدار عليها دورق خزف وقال توضأ وضوء الصلاة ، فأدخلت يدي في الدورق فاذا الماء جامد فكسرته وتناولت منه ما مررت به على وجهي وذراعي وقدمي ، ووقف الرسول في صفي وجذبني الى جانبه وقرأ « اذا جاء نصر الله والفتح » وركع وسجد وانا افعل مثله ، وقام ثانية وقرأ سورة لم أعرفها ، ثم سلم واقبل علي ، وقال : أنت رجل عاقل والله يريد بك خيرا

فلم تدع الاسلام الذي قامت عليه الدلائل والبراهين ، وتقيم على ما انت عليه . هات يدك فأعطيته يدي وصافحني وقال لي : قل جئت بالبينات والهدى ، فقلت ذلك . ونهض فرايت نفسي قائما في الصفه فصحت صياح المرتاع ، فانتبه اهلي وجاؤوا بعد ان سمعوا صياحي ، ومنهم أبي فقال ما بك وأوقدنا المصباح ، وقصصت للجميع قصتي فوجموا الا أبي فانه ابتسم ، وقال : ارجع الى فراشك وأجل الحديث للصباح ، وتأملنا الدورق المنكسر بفعل العمل ، وقال ابي : يابني هذا منام صحيح وبشرى محمودة ، الا أن اظهار هذا الامر فجاة ، والانتقال من شريعة الى شريعة ، يحتاج الى وقت ، وأعتقد بما أوحيت به فانني معتقد مثله ، وتصرف في صلاتك ودعائك وفق أحكامه ، وشاع الحديث . وبعد مدة رايت رسول الله ثانية في منامي على نهر دجلة في باب البستان ،(وقد عرف هذا البستان بالزاهر ، الذي ابتاعه له جده أبو اسحاق الصابىء لسكناه) فقال لي : ما فعلت شيئا مما وافقتني عليه وقدرته معي ، فقلت بلى يا رسول الله اعتقدت بما أمرتني به ، وتصرفت في صلاتي بموجبه ، فقال له : لقد بقيت في صلاتك شبهة ، فقال : وحملني الى باب المسجد الذي بالمشرعة ، وكان امامه رجل خراساني نائم مصاب بالاستسقاء ، ورم جسمه ، فمر الرسول يده على بطنه وقرأ عليه فقام الرجل صحيحا معافى .

فقلت صلى الله عليك يا رسول الله فما احسن تصديق امرك واعجز فعلك» . واثر هذا اشهر اسلامه(٦) .

لا شك أن هلال بن المحسن الصابىء اسلم لان الظروف اقتضت ذلك ، فأسلافه جاؤوا فيما مضى الى بغداد ليعملوا بالترجمة ، أما هو وطبقته فلم تعد الترجمة ميدان عملهم بل صاروا من كبار موظفي ادارة الخلافة في بغداد ، بعضهم صار كاتبا ، وعمل آخر بوظيفة تعدل وظيفة الوزارة ، وافترضت قوانين الدولة واعرافها ان يكون أصحاب هذه الوظائف من المسلمين لذلك كان لا بد من الدخول في الاسلام . واستدعى الحال اختراع قصة كالتي اثبتناها .

وتزوج هلال اثر اشهاره لاسلامه امراة مسلمة وهي التي انجبت له ابنه محمد ، محور دراستنا هذه وموضوعها الاساسي . وقبل الحديث عن محمد من المفيد أن نذكر ان زوجة هلال المسلمة شكت باسلامه ، وذلك لانه لم يقطع صلاته بأهله وذويه من الصابئة ، وهنا جاءها هي الاخرى الامام علي كرم الله وجهه في المنام فطمأنها(٧) .

ولنلاحظ ان العصر الذي أعلن فيه هلال اسلامه كان هو العصر البويهي ، والاسرة البويهية شيعية ، لذلك اقتضى الحال تكملة قصة اسلام هلال ، التي تمت بمعجزة نبوية ، بقصة بطلها الامام علي بين أبي طالب .

اهتم عدد من رجالات آل الصابىء بتدوين التاريخ ، وبرز من بين صفوفهم عدد من كبار المؤرخين .

يقول القفطي في كتابه أخبار الحكماء : « واذا اردت التاريـخ متصلا فعليـك بكتاب أبي جعفر الطبري رضي الله عنه؛ فانهمن اول العالم والى سنة تسع وثلاثمائة. ومتى شئت ان تقرن به كتاب احمد بن ابي طاهر وولده عبيد الله فنعم ما تفعـل لأنهما قد بالغا في ذكر الدولة العباسية وأتيا من شرح الاحوال بما لم يأت به الطبري بمفرده ، وهما في الانتهاء قريبا المدة ، والطبري أزيد منهما قليلا ، ثم يتلو ذلك كتاب ثابت فانه يداخل الطبري في بعض السنين ، ويبلغ الى بعض سنة ثلاث (الاصح خمس) وستين وثلاثمائة . فان قرنت به كتاب الفرغاني الذي ذيل به كتاب الطبري فنعـم الفعل تفعله ، فان في كتاب الفرغاني بسطا أكثر من كتاب ثابت في بعض الاماكن . ثم كتاب هلال بن المحسن بن ابراهيم الصابىء فانه داخل كتاب خاله ثابت وتمم عليه الى سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، ولم يتعرض أحد في مدته الى ما تعرض له من أحكام الامور والاطلاع على اسرار الدول وذلك انه أخذ ذلك عن جده ، لانه كان كاتب الانشاء ويعلم الوقائع فاستعان بعلم الاخبار الواردة على ما جمعه ، ثم يتلوه كتاب ولده غرس النعمة محمد بن هلال وهو كتاب حسن الى بعد سنة سبعين وأربعمائة »(٨) .

نستدل من هذا النص البالغ الاهمية ان الاهتمامات التاريخية لال الصابىء برزت في العصر البويهي ، وفي الحقيقة كان الذين اعتنوا بالتاريخ من آل الصابىء قد اوقفوا جهودهم تقريبا على التأريخ للعصر البويهي، لكن كتاباتهم تعتبر بحكم المفقـودة لسوء الحظ .

كان ثابت بن سنان اول من أهتم بكتابة التاريخ من آل الصابىء ، فهو متخصص اصلا في الطب ، تعلق بخدمة الخليفة الراضي (٣٢٢- ٣٢٩ / ٩٣٤- ٩٤٠) وتولى تدبير المارستان في بغداد ، وخدم عددا من الخلفاء بعد الراضي . وذكر بعض الذيـن ترجموا لثابت انه توفي سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٣ - ٧٤م ، وهذا وهم اصح منه أن وفاتـه حدثت في عام ٣٦٥/ ٩٧٥-٧٦. وهذا ما تثبته مخطوطة تاريخ أخبار القرامطة المنتزعة من كتابه ، وما نقله ياقوت عن ابن أخت ثابت(٩) هلال بن المحسن الصابىء .

اهتم ثابت الى جانب الطب بالتاريخ وتدوين أخباره فكتب عددا من المصنفات التاريخية ، اشهرها كتاب في التاريخ كبير رتبه حسب حوادث السنين على طريقـة الحوليات وذيل به على تاريخ الطبري لكن بشيء من التداخل ، فقد بدأ ثابـت تاريخه هذا بعهد الخليفة المقتدر (٢٩٥ - ٩٠٨/٣٢٠-٩٣٢) وتوقف عن متابعة الكتابة فيه قبيل وفاته بأيام ، ولثابت تاريخ « مفرد في أخبار الشام ومصر في مجلد واحد » ، وله كتاب آخر دون فيه « وفاءات من توفي في كل سنة من سنة ثلاث مائة الى السنة التي مات فيها »(١٠) أي سنة ٣٦٥ .

ووصلنا كتاب مخطوط صغير جاء بمثابة مختصر لتاريخ ثابت بن سنان ضمنه مختصر ما حواه تاريخ ثابت من اخبار القرامطة ، وهذا المخطوط في حوزة المستشرق برنارد لويس ، وقد نشره سهيل زكار ضمن نصوص كتابه أ خبار القرامطة ، ومن تحليل مواد هذا المخطوط نجد مايلي:

يمكن من حيث المبدا تقسيم المعلومات التي يتضمنها الى قسمين : القسم الاول وقد وردت معظم رواياته في تاريخ الطبري ، والقسم الاخر وقعت احداث رواياته بعد وفاة الطبري ، فقام ثابت كما هو مفترض بتدوين أخبار هذه الاحداث.

وجل الاخبار في هذا القسم من عصر ثابت ، وعندما نقرا هذا القسم نلاحظ امرا مدهشا حيث ان الكتاب يروي أخبار القرامطة ابتداء من « سنة مائتين وثمان وسبعين من الهجرة » حتى « سنة تسع وثلاث مائة » بشكل كامل التسلسل سنة تلو اخرى ثم يقفز فيبدأ بأخبار « سنة ستين وثلاث مائة » .

لا نعرف سبب هذا بالتأكيد ، لكن لدى قراءة المواد الاخيرة ومقارنتها بالمواد الاولى يحصل لدينا انطباع أن المواد الاولى تهتم بقرامطة البحرين والعراق بشكل رئيسي ، في حين ان المواد الاخيرة موقوفة الى أبعد الحدود على نشاط القرامطة في الشام وصراعاتهم مع الخلافة الفاطمية في الشام ومصر ، ان هذا يدفعنا الى الافتراض ان الذي جمع مواد مخطوطة المستشرق لويس جمعها من كتابين لعلهما كانا في مجلد مجموع واحد ، هما : تاريخ ثابت بن سنان الذي ذيل به على تاريخ الطبري ، وكتابه الاخر الذي اوقفه على تاريخ الشام ومصر ، ويرجح ان الكتاب الاول كان مبتورا فهو بالاصل (مسودة المؤلف)(١١) والذي تولى عملية الاختصار لم ينتبه لا الى الخرم الكبير ولا الى طبيعة المواد المروية ولا الى الاختلاف الذي لحقها ، ولعله تنبه ولكنه لم يخبرنا . ومهما يكن الحال فان المواد المتاخرة من مخطوطة المستشرق لويس تتوافق، بل تتطابق تماما مع محتويات تاريخ دمشق او المذيل على تاريخ دمشق لابن القلانسي .

وقد صرح ابن القلانسي بأنه صنع « مذيلا على تاريخ دمشق ». وكما هي العادة ينبني المذيل على ذيل، والذيل يأتي بمثابة ملحق بكتاب اساسي . وبدأ ابن القلانسي مذيلة بحوادث سنة ٤٤٨ للهجرة .

ولنتذكر ما حكاه القفطي عن ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، فثابت كتب فيما كتبه كتابا اوقفه على اخبار مصر والشام ، ووقف به مع احداث سنة وفاته وهي سنة ٣٦٥ هـ ، ومن بعده جاء هلال بن المحسن فكتب مذيلا على تاريخ ثابت تداخلت بعض حولياته ، حيث بداه بحوادث سنة ٣٦٠ ، ووقف به مع نهاية سنة ٤٤٧ هـ .

ولعله سيكون من المفيد قبل الاستطراد في هذا الحديث الوقوف قليلا مع هلال بن المحسن ، وقد كان القفطي وصفه قبل قليل انه كان ابـن اخت ثابت ، وفي الحقيقة جاء هذا التحديد تجاوزا حيث ان ابراهيم جد هلال هو ابن اخت ثابت.

لقد اوردنا قبل قليل مسالة اسلام هلال والمكان هنا للحديث عن انه ولي ديوان الانشاء في بغداد وعاش فترة تاريخية هامة جدا عاصر احداثها، وعرف أخبارها وعاشر ابطالها ، فكتب ما توصل اليه وما عرفه من اخبار بشكل يمكن وصفه بالوثائقية ، وقد اودع ذلك في عدد من الكتب ، مفردة مثل كتابه في تاريخ الوزراء وهو مطبوع واسع الاهمية(١٢) . او ذيل على ما كتبه ثابت بن سنان ، اي انه كتب الذيل للطبري . كما ذيل على كتاب ثابت الاخر الذي اوقفه على تاريخ بلاد الشام ومصر ، وهذا ما أكده القفطي في نصه الذي نقلناه انفا ، وما بينه سبط ابن الجوزي في كتابه مرآة الزمان(١٣) : « وكان هلال من كبار العلمـاء والادباء وله التاريـخ الذي ذيلـه على تاريـخ ثابت ابن سنان وبدأ من سنة احدى وستين وثلاث مائة الى سنة سبع وأربعين وأربـع مائة » . في الحقيقة ابتدأ هلال بن المحسن كتابه الذي ذيل به على تاريخ ثابت بحوادث سنة ٣٦٠ هـ وأنهاه باخبار سنة ٤٤٧ هـ ، فهذا ما قاله ابنه غرس النعمة محمد بن هلال في مقدمة كتابه(١٤) ، وبذلك تداخلت مواد هلال مع مواد ثابت مثلما تداخلت من قبل مواد ثابت مع مواد الطبري .

لسوء الحظ أن معظم مواد التراث التاريخي لاسـرة آل الصابىء هي بحكـم المفقودة وقد اكثر سبط ابن الجوزي النقل من تواريخ كل من ثابت وهـلال كما ان المستشرق اندروز عثر على قطعة من تاريخ هلال حوت أخبار خمس سنين اولها سنة ٣٨٩ هـ وآخرها سنة ٣٩٣ ، وقد الحق مارجليوث هذه القطعة بكتاب تجارب الامم لمسكويه ، وذلك بعد ذيل ابي شجاع ، وطبعها في القاهرة سنة ١٩١٩ .

ونعود الان الى ابن القلانسي فنجد انه لم يصرح في كتابـه باعتماده على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن او على واحد منهما على الاقل ، وكل ما هنالك انـه قال في سياق الحديث عن ولاية حيدرة بن مفلح لدمشق وهو احد الـولاة الفاطميـين « واستمرت عليه الايام في الولاية الى سنة ثمان واربعين واربع مائة التي يبنى هذا المذيل عليها ، وعادت سياقة الحوادث منها ايراد ما فيها وتجدد بعدها »(١٥) .

والبحث التاريخي المقارن هو الذي قاد الى الافتراض ان ابن القلانسي بنى مذيله على كتابي ثابت بن سنان وهلال بن المحسن ، او على واحد منهما ، اذ انه من المؤكد الى حد ما أن مصنف ابن القلانسي بشطريه « الاساسي » و « المذيل » يبدأ بحوادث سنة ٣٦٠ هـ . وبهذه السنة بدأ هلال كتابه ، ومن المسلم به أن ما كتبه هلال عـن

اخبار السنوات (٣٦٠ — ٣٦٥ هـ) ، وهي السنوات التي تداخل بها كتابه مع كتاب ثابت ، هناك تطابق بالمواد ، مع احتمال بعض الفوارق في التفاصيل ، فهذا ما نلاحظه حينما نقارن مواد السنوات المتداخلة بين مواد تاريخ ثابت بن سنان وتاريخ الطبري. لهذا ليس من المستبعد أيضا ان يكون ابن القلانسي اعتمد على تاريخ هلال ابن المحسن دون سواه . وتبقى القضية في حدود الفرضية فتاريخ هلال بن المحسن لم يصلنا كاملا ، ومصنف ابن الفلانسي وصلتنا منه نسخة خطية واحدة(١٦) قد بتر من اولها مقدار اربع عشرة ورقة ،ولا شك ان هذه الاوراق قد حوت خطبة الكتاب مع بعض المواد الاخبارية .

واذا صحت هذه الاجتهادات فهذا يعني انه مع وفاة هلال بن المحسن تم صنع مذيلين على كتابه أحدهما شامي دمشقي صنعه ابن القلانسي ، والاخر عراقي بغدادي صنعه محمد بن هلال بن المحسن ، الذي شهر بلقب غرس النعمة ، وهو بالاصل موضوع هذه الدراسة ، فلنحاول التعرف الى حياته ونتاجه :

تزوج هلال بن المحسن اكثر من مرة قبل اسلامه وبعده ، وانجب عددا من الاولاد شهر منهم من زوجته المسلمة ابنه محمد غرس النعمة ، ويرجح أن محمدا هذا ولد سنة ٤١٨ هـ / ١٠٢٧ م ، على ان بعض كتب التراجم تجعل مولده قبل ذلك بسنة او سنتين(١٧) .

نشا غرس النعمة في كنف أبيه الذي رعاه فاعتنى بثقافته وتعليمه ، فعلى ابيه تخرج في صناعة الانشاء والكتابة والادب . وقد سمع أ يضا من ابي علي بن شاذان ، ولم تذكر المصادر من شيوخ غرس النعمة غير هذا الشيخ مع أبيه(١٨) . لكن لنا ان نفترض انه بحكم مكانة هلال بن المحسن لا بد ان ابنه قد لقي شيوخ بغداد وعلماء الخلافة العباسية في القرن الخامس واخذ عليهم وتثقف ، فهو قدنهض فيما بعد بأعمال ديوان الانشاء ايام الخليفة القائم (٤٢٢ — ٤٦٧ هـ / ١٠٣١ — ١٠٧٥ م) ونهوضه بهذا العمل مع ماخلفهمن مصنفات في التاريخ والادب يدل على ان الرجل قد استوعب معارف عصره استيعابا جيدا ، ومع هذا يرجح ان المؤثر الاكبر في ثقافته وتكوين شخصيته من كافة الجوانب هو أبوه هلال ابن المحسن ، فهو الذي طلب منه التذييل على كتابه بالتاريخ ، وقبل ذلك دفعه بعد تخريجه في طريق التاليف فيالادب وغيره ، فهو في مؤلفاته الادبية ياتي على ذكر ابيه بشكل مستمر وينقل عنه ويحيطه اثناء حديثه عنه بهالة عظيمة من الاجلال والتقدير .

ففي كتابه « الهفوات النادرة » يقول في أحد الامكنة : « وحدثني الرئيس الاجل ابو الحسين والدي قال » . وفي مكان اخر « وحدثني الرئيس والدي ابو الحسين

رضي الله عنه نال » ، ووصف في كتابه في التاريخ اسلوب ابيه بالسحر الحلال والعذب الزلال والصادر عن أوحد دهره وفريد عصره(١٩) .

كان غرس النعمة في حوالي الثلاثين من عمره عندما توفي والده وقد ورث عنه مكانته مع ثروة كبيرة « واملاكا نفيسة على نهر عيسى »(٢٠) وامنت له الثروة الموروثة والحظوة سبل العيش بهناء وسعادة ، ويبدو انه قد عكف على تثمير ثروته وزيادتها ولم يتورط في مؤامرات عصره التي كانت كثيرة وشديدة اضطرب بها القرن الخامس، وابتعاده عن التورط بالمشاكل السياسية ابقاه « محترما عند الخلفاء والملوك والوزراء »(٢١).

استمر غرس النعمة في اهتماماته الثقافية والادبية ، ووصف انه كان كريما صاحب صدقات كبيرة ذلك أنه كما يبدو كان ينفق على بعض العلماء كما ان الذين ترجموا له قد ذكروا في جملة ماثره انه اوقف دارا ، شحنها بالكتب من مختلف الانواع على الناس ، ويروي ابن الجوزي في كتابه المنتظم انه « في رجب من سنة ٤٥٢ وقف ابو الحسن محمد بن هلال الصابيء دار كتب بشارع ابن أبي عوف من غربي دار السلام ونقل اليها نحو الف كتاب ، وكان السبب ان الدار التي اوقفها سابور الوزير بين السورين احترقت ونهب أكثر ما فيها فبعثه الخوف على ذهاب العلم ان وقف هذه الكتب»(٢٢). وغدت هذه الدار منتدى العلماءوملتقى الباحثين والدارسين والمتناظرين، ومن المرجح ان غرس النعمة كان يشرف شخصيا على تسيير امور هذه الدار ويحضر ندوات العلماء ويشارك فيها ، مما كان له ابعد الاثار على نمو ثقافته وارتفاع مكانته اجتماعيا ، كما ان ذلك شجعه على التصنيف فيالاداب ومكنه من سبل النجاح وزوده بمواد غنية جدا وهذا واضح كل الوضوح في كتابه الهفوات النادرة « أو البادرة » .

وكان غرس النعمة اخر المشاهير من قومه من آل الصابيء فبوفاته انتهى مجد الاسرة ، هذه الاسرة التي عاشت العصر البويهي ، الذي شهد غرس النعمة نهايته ، وراى بغداد وديار العرب والمسلمين تدين بالطاعة البداة التركمان ، الذين جلبوا معهم الى بغداد نمطا من الادارةالجديدة وعقلية سياسية ودينية جديدة، ولهذا لا عجب ان انتهى مجد اسر بغداد السياسية والادارية التي شهرت في العصر البويهي .

في ذي القعدة من سنة ثمانين واربع مائة (١٠٨٧م) مات غرس النعمة عن عمر نيف على الستين ، وقد خلف ثروة قدرت بسبعين الف دينار ودفن أولا في داره في بغداد ، ثم نقل فيما بعد الى مشهد علي بالكوفة(٢٣) .

صنف غرس النعمة عددا من المصنفات ، وذكرت له كتب التراجم عناوين ثلاثة كتب منها ، هي : كتاب في التاريخ ، وكتاب الربيع ، وكتاب الهفوات . ولم يصلنا من

هذه الكتب بشكل مباشر غير كتابه الهفوات وقد نشر ، وسنتحدث عن هذا الكتاب وعن كتاب الربيع ثم نخلص للحديث عن كتاب التاريخ الذي وصلنا بشكل غير مباشر. يروى ان كتاب الربيع صنفه غرس النعمة بمثابة ذيل على كتاب نشـوار المحاضرة للتنوخي(٢٤) .ويبدو أن غرس النعمة كان معجبا بكتاب التنوخي ودليلنا على ذلـك كثرة النقول عنه في كتاب الهفوات ، فقد احصى صالح الاشتر محقق كتاب الهفوات قرابة اربعين خبرا منقولا عن القاضي ابي علي التنوخي تصريحا او تلميحا وهذا يعني ان طبيعة كتاب الربيع شابهت طبيعة نشوار المحاضرة ، ومعروف ان كتاب نشوار المحاضرة كتاب رائد في طريقة تدوين الاخبار والحكايات المستطرفة ، املاها التنوخي من ذاكرته وحكى في غالبيتها أخبار من عرفهم وعاصرهم في حياته من وزراء وقضاة وكبار موظفي الدولة من الكتاب والعمال ، ومن هنا يعد كتاب نشوار المحاضرة مصدرا اساسيا في الدراسات الاجتماعية لتاريخ العصر العباسي ، واذا صح وشابه كتاب الربيع كتاب نشوار المحاضرة ففيه دليل على شدة اهتمام غرس النعمة باخبار مجتمعه ونجد ذلك جليا في كتابه الهفوات وفي ثنايا التفاصيل العديدة من اخبار الحوادث التي اتى على ذكرها في كتاب التاريخ وهذا ما سنمر به بعد قليل .

ولا شك أن المكانة الاجتماعية والرسمية لاسرة غرس النعمة ، ولغرس النعمة نفسه قد مكنته من جمع مواد اخبارية اجتماعية لم تتوافر لسواه . ولم يصلنا كتابـه الربيع ، وجل ما وصلنا منه بعض النقول القصيرة في بعض كتب التراجم(٢٦) .

أما الاثر الوحيد من اثار غرس النعمة الذي وصلنا كاملا وبشكل مباشر فهو كتاب الهفـوات النادرة (او البادرة) ويتضمن مجموعة من الاخبار الطريفـة والحكايات المسلية والنوادر المتعة ، أبطالها رجالات الدولة العباسية وسواهم من ذوي المكانة، جاءت بمثابة سقطات على ألسن المتحفظين والمتحرزين من رجالات السلطة والقضاء والادارة ، ولهذا يرجح ان اسم الكتاب كان الهفوات البادرة .

يقول صالح الاشتر محقق كتاب الهفوات « موضوع الهفوات النادرة اذن هـذا اللون الممتع من أدب الاسمار والحكايات والطرائف والملح ، ويبدو ان هذا اللون من التأليف الادبي اصاب ازدهارا في المجتمعات الاسلامية منذ القرن الهجري الرابع ، ففي الحكاية والسمر مؤانسة وامتاع ، وفيها تنفيس عما كان المجتمع يعانية مـن كبت ومرارة وحرمان وفيها عرض لجوانب من الحياة : حياة اناس من جميع الطبقات من ساكني القصور الى الساعين وراء لقمة العيش الشحيحة ساكني الاكواخ »(٢٧) .

وقد أوضح غرس النعمة في فاتحة كتابه « الهفوات » الاسباب التي دفعته الى جمع مادته والغاية من تأليفه ، فقد اراد ان يقدم لقرائه نوادر مستطرفـة تسليهم

وتحمل اليهم ألوانا من الفكاهة والمتعة ، ويرجح انه كان يدون خلاصة الاخبار التي كان تتداولها المجالس التي كانت تعقد في دار كتبه ، وعلى هذا يمكن القول ان تصنيف كتاب الهفوات اقتضى وقتا طويلا(٢٨) .

ويحوي كتاب الهفوات ما يزيد على اربع مائة حكاية عرضت بلغة جيدة ، لكن هذه الحكايات لم تسق حسب موضوعاتها وأبطالها ، وانما جاءت هكذا بلا ترتيب ولا تنسيق ، ومرد هذا كما بينا قبل قليل الى ان المؤلف كان يدون ما يجتمع لديه من مواد فترة تلو الاخرى ، وبعض هذه المواد المدونة في الهفوات وصل الى غرس النعمة عن طريق الرواية الشفوية او المشاهدة وبعضها الاخر نقله من بطون العديد من المصادر التي كان يطلع عليها .

وأسلوب غرس النعمة في الهفوات اسلوب نثري راق ، اسلوب مدرسة الجاحظ ، وهو اسلوب أصيل يمكن التعامل معه بيسر وسهولة ، ويحوي كتاب الهفوات موادا اخبارية هو مصدرها الوحيد ولهذا غدت مكانة الكتاب عالية جدا(٢٩) .

ومهما علت مكانة « الهفوات » فان شهرة غرس النعمة نبعت من كتاب التاريخ ، فغالبا ما يشار اليه من قبل المترجمين باسم صاحب التاريخ ، وكتاب التاريخ لم يصلنا منه نسخة خطية بشكل مباشر ، لكنه وصلنا بشكل غير مباشر عن طريق سبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان ، فقد كتب سبط ابن الجوزي مصنفه مرآة الزمان اكثر من مرة ، وكان في كل مرة يهذب او يزيد ، ويبدو انه عثر في دمشق على مجموعة من الكتب كان من بينها مصنفات آل الصابىء ، فقام باقتباس بعض مواد هذه المصنفات ، واودع في احدى المراتب تاريخ غرس النعمة في متن كتابه بالكامل ، وفي العالم الان عدد كبير من النسخ المخطوطة لكتاب مرآة الزمان ، وفقط نجد نص تاريخ غرس النعمة في نسختين خطيتين احداهن في مكتبة احمد الثالث في اسطانبول برقم ٢٩٠٧ب والثانية في المكتبة الوطنية بباريس برقم عربي ١٥٠٦ .

ان مكانة تاريخ غرس النعمة تتجلى لنا واضحة من خلال الفترة التي ارخ لها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى من خلال المادة الاخبارية التي حواها من حيث التفصيل ودرجة الموثوقية والتفرد .

لقد ارخ غرس النعمة لحوادث السنوات الواقعة ما بين ٤٤٧ هـ/١٠٥٥م و ٤٨٠هـ/١٠٨٧م وهي سنة وفاته .وشهدت هذه الفترة بالنسبة لديار الخلافة العباسية إنهيار الحكم البويهي في العراق وغيره ، وتأسيس السلطنة السلجوقية ، وفي الوقت نفسه اجتياح قبائل الغز والتركمان للعراق والجزيرة والشام وارمينية وآسية الصغرى بعد اجتياحهم خراسان وسواها في المشرق . ويعد تاسيس السلطنة

السلجوقية وامتداد حكمها نحو بلاد الشام والجزيرة واسية الصغرى من اهم احداث تاريخ العرب والاسلام واعمقها تأثيرا ، سواء على الصعيد الديني أم الاجتماعي أم الاقتصادي وحتى البشري والعرقي . ومصدرنا الاول والاساسي حول هذه الفترة والذي يرقى الى الدرجة الوثائقية هو تاريخ غرس النعمة ، ومنه نستخلص ان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة الحادي عشرة للميلاد قد حفل بالاحداث الكثيرة والهامة على جميع المستويات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والثقافية والسياسية.

هذا ويلاحظ انه على الرغم من ان غرس النعمة كتب تاريخه بناء على وصية ابيه وجعله ذيلا على تاريخ هذا الاخير ، اعطاه عنوانا خاصا به هو « عيون التواريخ » وبذلك سبق في اختيار هذا العنوان ابن شاكر الكتبي بسنوات طوال .

وغطى غرس النعمة كشاهد عيان ومشارك في احداث ، اخبار الصراعات السياسية والعسكرية والاجتماعية والاقتصادية والدينية التي رافقت سقوط الحكم البويهي ، وذلك على مستوى الكتل والقبائل والافراد والطوائف ، واهتم بما شهده العراق اولا اثناء قيام السلطنة السلجوقية واتساع رقعة سلطانها ، واولى اخبار الجزيرة من الاهتمام ما جاء بالترتيب تاليا لاخبار العراق ، ثم تعرض بعض الشيء لاخبار بلاد الشام واسية الصغرى ، واحيانا الى اخبار مصر والشمال الافريقي ، ونادرا ما اتى على ذكر وقائع بلدان العرب والاسلام الاخرى ، ومع ذلك يلاحظ ان هذا النادر واسع الاهمية الفردية (*) .

---

* حصلت الباحثة على شهادة الماجستير في التاريخ من كلية الاداب بجامعة دمشق ،برسالتها«عيون التواريخ لغرس النعمة محمد بن هلال الصابيء ، دراسة وتحقيق» باشراف الدكتور سهيل زكار .

ثبت باهم المصـادر والمراجـع

١ ــ احمد بن خلكان ، وفيات الاعيان ، باريس ١٨٢٨ .

٢ ــ احمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل ، بيروت ١٩٧٩ .

٣ ــ الليدي أ. دراوور ، الصابئة المندائيون ، بغداد ١٩٦٩ .

٤ ــ حمزة بن اسد بن القلانسي ، تاريـخ دمشق ، دمشق ١٩٨٣ .

٥ ــ سهيل زكار ، اخبار القرامطة ، دمشق ١٩٨٣

٦ ــ سهيل زكار ، ماني والمانوية ، دمشق ١٩٨٥ .

٧ ــ عبد الرحمن بن علي الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، طبعة مصورة بيروت .

٨ ــ عبد الرزاق الحسني ، الصابئون ، بيروت ١٩٨٣ .

٩ ــ عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ .

١٠ــ عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر .

١١ــ علي بن الحسين المسعودي ، مروج الذهب ، ط . بيروت دار المعرفة .

١٢ــ علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠هـ .

١٣ــ غضبان رومي مكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٣ .

١٤ــ محمد بن اسحق النديم . الفهرس ــ طهران ١٩٧١ .

١٥ــ محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحـر ، لايبزغ ١٩٢٣ .

١٦ــ محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ .

١٧ــ محمد بن علي بن حزم ، الفصل في الملل والنحل ، مكتبة المثنى بغداد .

١٨ــ محمد بن هلال الصابىء ، الهفوات النادرة ، دمشق ١٩٦٧ .

١٩ــ هلال بن المحسن الصابىء ، تحف الامراء في تاريخ الوزراء ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٠ــ يوسف بن تغري بردى ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ط . مصـورة وزارة الثقافة ــ القاهرة .

٢١ــ يوسف بن قز اوغلي (سبط ابن الجوزي) ــ مرآة الزمان ــ مخطوطة احمد الثالث رقم (٢٩٠٧ ب) .

٢٢ــ ياقوت الحموي ، ارشاد الاريب الى معرفة الاديب ، القاهرة ١٩٠٩ .

(١) الصبان رومي عكلة ، الصابئة ، بغداد ١٩٨٢ ص ١٠–٢٥ . عبد الرزاق الحسني ، الصابئون، بيروت ١٩٨٣ ص ١٤–٤٦ . عبد الفتاح الزهيري ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، بيروت ١٩٨٣ ص ٢٦–٣٥ . سهيل زكار ، ماني والمانوية م. دمشق ١٩٨٥ ص ٢٥٨–٢٨٦ . الليدي دراوور ، الصابئة المندائيون بغداد ١٩٦٩ ص ٨–٢٣ .

(٢) محمد بن اسحق النديم ، الفهرس ، طهران ١٩٧١ ص ٣٩٠ – ٣٩١ ، علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ، بيروت ، دار المعرفة ، ج ١ص ٢٢٢–٢٢٣ ، ج٢ ص ٢٥٠ – ٢٥١ . محمد بن علي بن حزم، المفصل في الملك والنحل ، مكتبة المثنى بغداد ص ٩٤–١٠٣ ، محمد الانصاري ، شيخ الربوة ، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، لا يبزغ ١٩٢٣ ص ١٩١ – ١٩٢ ، ٢١٤ –٢١٨. احمد بن يحيى ، المنية والامل في شرح الملل والنحل بيروت ١٩٧٩ ص ٧–٦٨ .

(٣) ماني والمانوية ، ص ١٨–١١ ، ١٤٢ – ١٦٩ .

(٤) محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦ج ٧ ص٤٧٤–٤٧٩.

(٥) الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ، ١٦٥ – ١٧٨ .

(٦) عبد الرحمن بن علي بن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم . بيروت ج٨/١٧٦–١٧٩ . ابن أبي اصيبعة ، ط . بيروت ج٢ ص ١٦٢ – ٢١٧ . ابو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، يتيمة الدهـر في محاسـن اهل العصر ، القاهرة ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ج٢ ، ص ٢٤٢ –٢٦٢ .

(٧) ابن الجوزي المصدر نفسه ، الموجز في تاريخ الصابئة المندائيين ص ٨٥–٨٧ .

(٨) جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف القفطي ، تاريخ الحكماء ، لايبزغ ١٣٢٠ هـ ص ١٠٩– ١١١، احمد بن خلكان ،وفيات الاعيان باريس ١٨٢٨ : ١٤٨/١ ، ياقوت الحموي ، ارشادالاريب الى معرفة الاديب (معجم الادباء) حققه د.س : مرجليوت ، القاهرة ١٩٠٩ : ٣٩٧/٢.

(٩) نشر هذه المخطوطة سهيل زكار ضمن نصوص كتابه اخبار القرامطة . معجم الادباء :٣٩٧/٢.

(١٠) اخبار القرامطة : ٥١–٥٢ .

(١١) اخبار القرامطة ص ٧٠ .

(١٢) نشر كتابه ((تحفة الامراء في تاريخ الوزراء)) في القاهرة عام ١٩٥٨ محققا من قبل عبد الستار احمد فراج .

(١٣) مرآة الزمان ، مخطوطة احمد الثالث ٢٩٠٧ ، المجلد الثاني عشر حوادث سنة ٤٤٧هـ .

(١٤) المصدر نفسه .

(١٥) انظر تاريخ دمشق لابن القلانسي ، دمشق ١٩٨٣ ص ١٤٠.

(١٦) محفوظ في مكتبة البودليان في اكسفورد برقم ١٢٥ .

(١٧) لغرس النعمة ترجمة في المصادر التالية :

- المنتظم لابن الجوزي : ١٥٧/٧ ، ١٨٨/٨ ، ٢١٦ ، ٤٢/٩ – ٤٣ .
- الكامل بالتاريخ لابن الاثير حوادث سنة ٤٨٠ .
- مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي ((نهاية المخطوط الذي نحققه)).
- البداية الزاهرة لابن كثير ١٣٤/١٢ .

- النجوم لابن تغري بردي ١٢٦/٥ في ١٣٢ .

- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ٣٦/٥ ، ١٣٢ .

- كشف الظنون لحاجي خليفة ٢٩٩/١ .

- وورد ذكره في معجم الادباء لياقوت (ط . مرجليوث) ١٧٠/١ ، ١٦٣/٥،١٩٤، ٢٠٤، ٢٥١/٦.

وذكره ابن خلكان في ترجمة ابيه هلال بن المحسن ، وابن الفوطي في كتابه تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ - ١١٦٤ ، كما تحدث عنه ميخائيل عواد في مقدمة رسوم دار الخلافة : ٢٥/٢١ ودرس حياته صالح الاشتر في مقدمة كتاب الهفوات النادرة .

(١٨) انظر المنتظم ٤٢/٩ تلخيص مجمع الاداب ١١٦٣/٢/٤ ، البداية والنهاية ١٣٤/١٢ .

(١٩) انظر الهفوات النادرة دمشق ١٩٦٧ : ١٤، ١٤١ ، ٢٧١ ، ٣٠٤ ، ٣٢١ ، ٣٤٠ ، ٣٤٥ .

(٢٠) المنتظم : ١٠١/٨ .

(٢١) تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج٥ ص ١٢٦ .

٢٢) المنتظم ٢١٦/٨ .

(٢٣) المنتظم ٤٢/٩ ، البداية والنهاية ١٣٤/٢.

(٢٤) انظر معجم البلدان ٩٢/١٧.

(٢٥) انظر مقدمة المحقق ص ٢٨.

(٢٦) انظر معجم الادباء ٢٥٥/٧-٢٥٦ . تاريخ الحكماء للقفطي ٢٩٤.

(٢٧) مقدمة المحقق ص ٣٢ .

(٢٨) مقدمة المحقق ٣٣-٣٤ و ص ٣-٤ من نص الكتاب المحقق .

(٣٠) انظر مقدمة المحقق ٩-٤١ ، وانظر ايضا بحث ((من العربية العباسية استقراء في الهفوات النادرة)) للدكتور ابراهيم السامرائي في مجلة الناشر العربي العدد الرابع ، ابريل ١٩٨٥ ص ٢٦ - ٣٢ .

دراسات تاريخية

١٩٨٠ ـ ١٩٨٦

(الفهرس العام ، الاعـداد ١ ـ ٢٤)

العـدد الاول : آذار « مارس » ١٩٨٠

العدد الثاني : حزيران « يونيه » ١٩٨٠

ـ النشاط التبشيري الالماني في فلسطين بين عامي ١٨٤١ـ١٩١٨ — د. علي محافظة

ـ التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه — د. سهيل زكار

ـ بين التاريخ الجغرافي والجغرافية التاريخية للوطن العربي — مصطفى الحاج ابراهيم

ـ اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١١٧١ ـ ١٢٥٠ — د . عادل زيتون

ـ كتابة تاريخ العرب « مشروع اللجنة التحضيرية »

العدد الثالث : كانون اول « ديسمبر » ١٩٨٠

ـ منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر — د. محمد الطالبي

ـ التراث العربي وعناصر الصالحة لنهضة عربية حديثة — عبرالعزيز بنعبدالله

ـ ابن خلدون والمادية التاريخية — د .. احمد ماضي

ـ بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي — د . نبيه عاقل

ـ البصرة اول قاعدة للتوسع العثماني في الخليج العربي — د. مصطفى عبد القادر النجار

ـ مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي — د. احمد سليم سعيدان

ـ الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين سنتي ١٣٢ ـ ٣٥٩ هـ — د. امينة بيطار

ـ مع المجلات العربية ـ مجلتان تاريخيتان — د. شاكر الفحام

العدد الرابع : نيسان « ابريل » ١٩٨١

ـ مع بدايات السياسة الامريكية في الشرق العربي — د. خيرية قاسمية

ـ مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني — د. عبد الكريم رافق

ـ بعض احداث الدولة العباسية والدور العباسي الاول من خلال منظور عنصري واقتصادي اجتماعي — د . نبيه عاقل

ـ حياة الناس في مدن الثغور ـ مدينة طرسوس — د. مصطفى علي الحياري

ـ اضواء جديدة على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس — د. يوسف درويش غوانمة

ـ التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ـ فترة النشأة والتكوين　د. احمد بدر

ـ مؤتمرات تاريخية . المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية في بوخارست والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب　د. مسعود ضاهر

العدد الخامس : تموز « يوليو » ١٩٨١

ـ المسجد واثره في تطوير التعليم　د. حسين امين

ـ اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين　د. محمد كامل عياد

ـ نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي　د. الحبيب الجنحاني

ـ الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية « فتح افريقية جذوره السياسية وابعاده الاستراتيجية »　د. عمر السعيدي

ـ الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي　د. ناصر الدين سعيدوني

ـ الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية　د. عمر عبد السلام التدمري

ـ أجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي　امين النفوري

ـ بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته　د. يوسف بكار

ـ دو الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند ٨٣٩ ١ ـ ١٩٣٧　سلطان ناجي

ـ الردة وموقف ابي بكر منها　نجدة خماش

ـ وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني　د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم

العدد السادس : تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨١

ـ قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية　د. عبد الكريم رافق

ـ مروان بن الحكم والخلافة　د. صالح الحمارنة

ـ في أصول الكتابة العربية　محمد محفل

- الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصور الشرقية القديمة — قاسم طوير
- حول مصادر تاريخ العرب القديم — د. مفيد رائف العابد
- مملكة بيت بحياني الارامية — د. علي ابو عساف

العدد السابع : كانون الثاني « يناير » ١٩٨٢ م

- معالم الحضارة التربية الاسلامية في افريقية — د. محي الدين صابر
- مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية — د. عبد الحميد حاجيات
- محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر ــ الابعاد الدولية والاستراتيجية — د. عمر السعيدي
- الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام — د. نبيه عاقل
- الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق — د. ملكة ابيض
- سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ ــ ١٩٤٤ — د. رؤوف عباس
- صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام ــ من الجمعيات العلمية الى الجمعيات السياسية — د . سهيلة الريماوي

العدد الثامن : نيسان « ابريل » ١٩٨٢

- جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة القسم الاول (مظاهر عمرانية واجتماعية) — د. عبد الكريم رافق
- العرب والنوبة في صدر الاسلام — د. عوض محمد خليفات
- هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة — د. أحمد بدر
- حول الاهمية الاثرية لمكتشفات ابلا ــ تل مرديخ — د. عدنان البني
- المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع الهجريين — د . نقولا زيادة

العددان التاسع والعاشر تشرين الاول « اكتوبر » ١٩٨٢

العدد الحادي عشر : كانون الثاني ١٩٨٣

العدد الثاني عشر : ايار (مايو) ١٩٨٣

ـ معان وجوارها ـ استعراض تاريخي د. محمد عدنان البخيت

ـ الدولة الرستمية في تيهرت د. سهيل زكار

ـ الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقـع التجزئـة في الفترة بين الحربين العالميتين د. خيرية قاسمية

ـ بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية فيجزيرة صقلية د. فائق بكر الصواف

العددان الثالث عشر والرابع عشر : تشرين اول (اكتوبر) ١٩٨٣

ـ فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية د. عبد الهادي التازى

ـ خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية د.محمد عبدالقادر خريسات

ـ الدعوة العباسية ـ دراسة في الهوية د. نبيه عاقـل

ـ الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام د.يوسفدرويشغوانمة

ـ دور اسرة آل الحنش والمهام التي اوكلت اليهـا في ريف دمشق الشام ـ دراسة وثائقية د. محمد عدنان البخيت

ـ تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين د. سهيلة الريماوي

ـ الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية د.ذوقان قرقوط

العددان الخامس عشر والسادس عشر ، كانون الثاني ـ ايار ١٩٨٤

ـ مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني د. عبد الكريم رافق

ـ المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف د. احمد بـدر

ـ لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي د. صالح درادكـة

ـ حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل (بـين شمشاط وسميساط) د. عبدالمرشدعزاوي

ـ تعريف النقد واثره على العلاقات العربية ـ البيزنطية والوضع الاقتصادي د. نجدة خماش

ـ اضواء على الصناعة والتجارة في مدة بلاد الشام ودورهـا في

التجارة العالمية في العهد البيزنطي — د. نعيم فـرح

ـ صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨ـ١٩١٨)
حزب اللامركزية الادارية العثماني — د. سهيلة الريماوي

ـ حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاديات ومجتمعات الامبراطورية العثمانية — د. زهير غـزال

العددان السابع عشر والثامن عشر : اب ـ تشرين الثاني ١٩٨٤

ـ نظرة في فهم التاريخ — د. سليمان سعدون البدر

ـ بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق — د. احمد درغـام

ـ ايلاف قريش ـ ملاحظات حول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام — د. صالح درادكة

ـ اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام — د. نجدة خماش

ـ ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم — د. نبيه عاقـل

ـ الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي — د. عبد الكريم رافق

ـ المكتب العربي في القاهرة ـ دراسة في الوثائق الدبلوماسية — د. خيرية قاسمية

ـ من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي خلال الحـرب العالمية الاولى — د. عبد النبي اصطيف

العددان التاسع عشر والعشرون : نيسان ـ تموز ١٩٨٥

ـ المؤتمر الاسلامي العام في القدس ١٩٣١ ـ محاولة للبحث عن نصـير — د. خيرية قاسمية

ـ من تاريخ سورية الحديث ـ العلاقات السوريـة ـ التركيـة ١٩١٨ ـ ١٩٢٦ — د. عبد الكريم رافق

ـ الحياة الفكرية في الاندلس من خلال بلاط الحكم المستنصر بالله — د. احمد بـدر

ـ القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي — د. محمد ضيف الله بطاينة

ـ دور جذام في الفتوح الاسلامية — د. صالح الحمارنة

ـ عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم (حتى نهاية القرن الثامن ق.م) — د. محمدحرب فرزات

ـ الصلات التجارية بين مصر وسورية حتى نهاية الدولةالقديمة (٤٠٠٠ ـ ٢٢٨٠ قم) — د. محمود عبدالحميد احمد

ـ الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشـــام من خلال الوثائق العثمانية — علي يوسف البلخي

العددان الواحد والعشرون والثاني والعشرون : آذار ـ حزيران ١٩٨٦

ـ الندوة الثانية حول مشروع كتابة تاريخ العرب

ـ بيان هام لاتحاد المؤرخين العرب

ـ النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين — د. محمد ضيف الله بطاينة

ـ البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهايـة القرن الثالث الهجـري — د. محمد عبد القادر خريسات

ـ النظام المالي عند الحفصيين — د. صالح فياض ابو دياك

ـ استعمال العربية في الدواوين المالية — د. فالح حسين

ـ الادب في التاريخ الارامي القديـم — د. محمد حربفرزات

ـ الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية — د. يسرى الكجك

ـ ماردو (الاموريون) في نصوص ابلا — الفونسو اركي، ترجمة قاسم طوير

ـ وثيقة مقدسية تاريخية جديدة ـ كتاب الوقف الذي انشـاه الملك الظاهر بيبرس البند قداري الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦هـ على مقام النبي موسى عليه السلام — د. كامل جميل العسلي

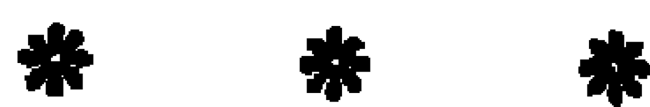
ـ الارشيف الوطني الهندي وموجوداتـه من وثائـق العـراق والخليج العربي — د. مصطفى عبد القادر النجار

ـ كندة وعلاقتها بملوك الفرس وعمالهم ملوك الحيرة — محسن يونس

- جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة — محمد سعيد شكري
- لمحات عن يهود الجزائر (منذ مطلع القرن ١٨ حتى عام ١٨٣٠) — محمد دادة
- قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقيــة — جعفر الحيالي

العددان الثالث والعشرون والرابع والعشرون : ايلول — كانون الاول ١٩٨٧

- عبد الرحمن الكواكبي — دراسة في فكرة السياسي — د. سهيلة الريماوي
- اوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها — د. يوسف نعيسة
- التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام)في العهد المملوكي — د. يوسف غوانمــة
- العلاقات الاقتصادية في منطقة ما بين النهرين السورية (في القرنين الخامس والسادس) — د. نعيم فــرح
- التاجر ونشاطاته في العهد البابلي القديم — د. عيد مرعي
- ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في القرن التاسع عشر — الغالي الغربي
- السياسة التعليمية في منطقة القبايل — عبد القادر حلوش
- عصبة العمل القومي واسهامها في الحركة القومية في سوريــة (١٩٣٣ — ١٩٣٩) — مصطفى بلاوني
- بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشــا — فندي ابو صخر
- ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها — د. عيد مرعي



دراسات تاريخية

١٩٨٠ – ١٩٨٦

بحسب اسماء الباحثين

ابو عساف ، علي : ملوك اوغاريت من خلال الوثائق ، ١ : ١ (٣/١٩٨٠) ص ١٢٩–١٤١ .

ابو عساف ، علي : مملكة بيت بحياني الارامية ، ٢ : ٦ (١٠/١٩٨١) ص ١٤٧–١٥٩ .

ابو دياك ، صالح فياض : النظام المالي عند الحفصيين ، ٧ : ٢١ و ٢٢ (٣–٦/١٩٨٦) ص ٨٧–١١٤ .

ابو فخر ، فندي : بعض مظاهر التنظيم الاداري في بلاد الشام خلال حكم محمد علي باشا ١٨٣١ – ١٨٤٠ ، ٧ : ٢٣ و ٢٤ (٩–١٢/١٩٨٦) ص ١٩٩ – ٢١٦ .

ابيض ، ملكة : الدور التربوي للمسجد الجامع بدمشق (من الفتح حتى عام ٨٦ هـ / ٧٠٥ م) ٣ : ٧ (١/١٩٨٢) ص ٩٨–١١٤ .

احمد ، محمود عبد الحميد : الصلات التجارية بين مصر وسورية ، منذ عصور ما قبل الاسرات حتى نهاية الدولة القديمة (٤٠٠٠ – ٢٢٨٠ ق.م) ، ٦ : ١٩ و ٢٠ (٧/١٩٨٥) ص ١٩٣ – ١٩٩ .

آرسي ، الفونسو : ماردو ، الاموريون في نصوص ابلا (ترجمة قاسم طوير) ٧ : ٢١ و ٢٢ (٣ و ٦/١٩٨٦) .

امين ، حسين : المسجد واثره في تطوير التعليم ، ٢ : ٥ (٧/١٩٨١) ص ٥–١٣ .

بدر ، احمد : كتاب تاريخ العرب ، لماذا ؟ ، ١ : ١ (٣/١٩٨٠) . ص ٩–٢٦

بدر ، احمد : التنظيم العسكري عند العرب المسلمين – فترة النشأة والتكوين ٢ : ٤ (٤/١٩٨١) ص ١١٠–١٦٦ .

اسم الباحث ، عنوان البحث ، عدد سنوات الاصدار : رقم العدد ، (تاريخ صدوره) ، ارقام الصفحات .

بـدر ، احمـد : هجرة الثقافة من المشرق الى المغرب في القرن الثاني للهجرة ٨:٣ (٤/١٩٨٢) ص ٧٧-٩٤ .

بـدر ، احمـد : المجتمع الاندلسي والمجتمع الاسباني في عصر ملوك الطوائف ١٥:٥و١٦ (١ و ٥/١٩٨٤) ص ٣٢-٦٦ .

بـدر ، احمـد : الحياة الفكرية في الاندلس من خلال النشاط الفكري في بلاط الحكم المستنصر بالله ، ١٩:٦و٢٠ (٤و٧ / ١٩٨٥) . ص ١٠٦-١٢٩ .

البدر، سليمان سعدون: نظرة في فهم التاريخ ، ١٧:٥و ١٨ (١١/١٩٨٤) ص٧-٤٣.

بدر الدين عبد الرحمن: العرب في شرق افريقية - جزر القمر ، ١:١ (٣/١٩٨٠) ص ١١٥-٢٨ .

بخيت ، محمد عدنان : الامير حسين بن فخر الدين المعني الثاني - حياته واثاره ، ٩:٣و١٠ (١٠/١٩٨٢) ص ٧٨-٩٣ .

بخيت ، محمد عدنان : معان وجوارها - استعراض تاريخي ، ١٢:٤ (٥/١٩٨٣) ص ٤٤-٧٣ .

بخيت ، محمد عدنان : دور اسرة آل الحنش والمهام التي اوكلت اليها في ريف دمشق الشام ٧٩٠ هـ/١٣٨٨ - ٩٧٦هـ/١٥٦٨ (دراسة وثائقية)، ١٣:٤و١٤ (١٠/١٩٨٣) ص٨٨-١٣٧ .

بطاينة، محمد ضيف الله : القبائل العربية في بلاد الشام وموقفها من حركة الفتح الاسلامي ١٩:٦ و ٢٠ (٤و٧ /١٩٨٥) ص ١٣٠-١٤٨ .

بطاينة، محمد ضيف الله : النظام المالي في عهد الخلفاء الراشدين ، ٢١:٧ و ٢٢ (٣ و ٦ /١٩٨٦) ص ١١-٤٨ .

بكار ، يوسف : بيت المقدس كما صورها ناصر خسرو في رحلته ، ٥:٢ (٧ / ١٩٨١) ص ١١٧-١٢٦ .

بلاوني ، مصطفى : عصبة العمل القومي واسهامها في الحركة القومية في سورية (١٩٣٣ - ١٩٣٩) ، ٧: ٢٣و٢٤ (٩و١٢ / ١٩٨٦) ص ١٩٠ - ١٩٨ .

بلخي ، علي يوسف : الموقف الدولي من احتلال محمد علي باشا لبلاد الشام ١٨٣١-١٨٤٠ من خلال الوثائق العثمانية ، ١٩:٦و٢٠ (٤و ٧/١٩٨٥) ص ٢٠٠-٢١٨ .

بنعبد الله، عبد العزيز : التراث العربي وعناصره الصالحة لنهضة عربية حديثة ١:٣ (١٩٨٠/١٢) ، ص ٣٩-٦٤ .

بني ، عدنان : التدمريون في الدنيا الرحيبة ١ :٢ (١٩٨٠/٦) ص ٢٧-٢٥ .

بني ، عدنان : حول الاهمية الاثرية لمكتشفات ابلا (تل مرديخ) ٣:٨ (١٩٨٢/٤) ص ٩٥-١٠١ .

بيطار ، امينة : الحياة الاقتصادية في بلاد الشام بين ١٣٢-٣٥٩هـ ١ : ٣ (١٩٨٠/١٢) ، ص ١٢٣-١٥٥ .

التازي ، عبد الهادي : فكرة المغرب العربي من خلال الوثائق الدبلوماسية ٤: ١٣و١٤ (١٩٨٣/١٠) ، ص ٥-٢٢ .

التدمري ، عمر عبد السلام : الرباط والمرابطون في ساحل الشام من الفتح الاسلامي حتى الحروب الصليبية ٢: ٥ (١٩٨١/٧) ، ص٧٧-٩٨ .

تميمي ، عبد الخالق خلف : تطور علاقات الكويت ، بالاقطار العربية قبل الاستقلال ٣:٩و١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ٩٥-١١٩ .

الجنحاني ، الحبيب : نظام ملكية الارض في المغرب الاسلامي من القرن ١-٦ هـ/ ٧-١٢ م ٢:٥ (١٩٨١/٧) ، ص ٣٠-٤٤ .

حاج ابراهيم،مصطفى : بين التاريخ الجغرافي والجغرافيا التاريخية في الوطن العربي ١:٢ (١٩٨٠/٦) ، ص ١١٧ — ١٣٣ .

حاجيات ، عبدالحميد : مساهمة المغرب العربي في ازدهار الحضارة العربية الاسلامية، ٣:٧ (١٩٨٢/١) ، ص ٣٤-٧٣ .

الحسون ، مصطفى : الرصافة ايام الغساسنة ٤:١١ (١٩٨٣/١) ، ٧٩-٩٥ .

حسين ، فالح : استعمال العربية في الدواوين المالية قبل عبد الملك بن مروان وبعده ٧:٢١و٢٢ (٣و١٩٨٦/٦) ، ص ١١٥-١٣٤ .

الحمارنة ، صالح : مروان بن الحكم والخلافة ٢:٦ (١٩٨١/١٠) ، ص ٢٩-٥٨ .

الحمارنة ، صالح : دور جذام في الفتوح الاسلامية : ٦:١٩و٢٠ (٤و١٩٨٥/٧) ص ١٤٩ — ١٦٩ .

حلوش ، عبد القادر : السياسة التعليمية الفرنسية في منطقة القبايل (١٨٧١ ـ ١٩١٤) ٧ :٢٣و٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦) ، ص ١٧٩ـ١٨٩.

حيالي ، جعفر : قضية الموصل وصداها في الاوساط العراقية ، ٧ :٢١و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦) ،ص ٢٣٧ـ٢٤٦ .

حياري، مصطفى علي : حياة الناس في مدن الثغور ـ مدينة طرسوس ، ٢ :٤ (٤/ ١٩٨١)، ص٨٥ـ٩٥ .

خريسات ، محمد عبد القادر : البلقاء من الفتح الاسلامي حتى نهاية القرن الثالث الهجري (دراسة سياسية ادارية) ٧ :٢١ و ٢٢ (٣و٦/ ١٩٨٦) ، ص ٤٩ـ٨٦ .

خريسات ، محمد عبد القادر : خالد بن يزيد بن معاوية واهتماماته العلمية ، ٤ :١٣ و١٤ (١٠/١٩٨٣) ، ص ٢٣ـ٥٠ .

خليفات ، عوض محمد : العرب والنوبة في صدر الاسلام ،٣ :٨ (٤/١٩٨٢) ، ص ٥٠ـ٧٦.

خماش ، نجدة : الردة وموقف ابي‌بكر منها ٢ :٥ (٧/١٩٨١)،ص١٥١ـ١٦٣.

خماش ، نجدة : تعريب النقد واثره على العلاقات العربية ـ البيزنطية والوضع الاقتصادي ٥ :١٥و١٦ (١/١٩٨٤) ، ص ١٣٣ـ ١٤٦ .

خماش ، نجدة : اوضاع الفلاحين في العراق والشام في صدر الاسلام ٥ :١٧و ١٨ (٨و١١/١٩٨٤) ص ٧٣ـ٨٧ .

دادة ، محمد : لمحات من يهود الجزائر منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ ٧ :٢١و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦) ، ص ٢٢٠ـ٢٣٦ .

درادكة ، صالح : الردافة على ضوء بعض العلاقات القبلية في شمال شرق الجزيرة العربية قبل الاسلام (في القرن السادس ومطلع السابع للميلاد) ٤ :١١ (١/١٩٨٣) ، ص ٢٢ـ٥٢.

درادكة ، صالح : لمحات من تاريخ ايلة (العقبة) في العصر الاسلامي ٥ :١٥و ١٦ (١و٥/١٩٨٤) ص٦٧ـ١١٠ .

درادكة ، صالح : ايلاف قريش ، ملاحظات حلول عوامل السيادة المكية قبل الاسلام ٥ :١٧و١٨ (٨و١١/١٩٨٤) ص٥١ـ٧٢ .

درغام ، احمد : بعض ملامح الاتجاهات الرئيسية في الاستشراق ٥:١٧و١٨ (٨و١١/١٩٨٤) ص ٤٤ـ٥١ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من الحياة العسكرية العثمانية في بلاد الشام (من القرن السادس عشر حتى مطلع القرن التاسع عشر) ١:١ (١٩٨٦/٣) ، ص ٦٦ـ٩٥ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر من التنظيم الحرفي في بلاد الشام في العهد العثماني ٢:٤ (١٩٨١/٤) ، ص ٣٠ـ٦٢ .

رافق ، عبد الكريم : قافلة الحج الشامي واهميتها في الدولة العثمانية ٢:٦ (١١/ ١٩٨١) ، ص ٥ـ٢٨ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة من خلال الوثائق الشرعية ١٢٧٣ ـ ١٢٧٧/١٨٥٧ـ ١٨٦١، (القسم الاول مظاهر عمرانية واجتماعية) ٣:٨ (١٩٨٢/٤) ص ٧ ـ ٤٩ .

رافق ، عبد الكريم : جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة القسم الثاني مظاهر اقتصادية ٣ : ٩و١٠ (١٠/١٩٨٢) ، ص ٥ـ٣٩ .

رافق ، عبد الكريم : مظاهر سكانية من دمشق في العهد العثماني ٥:١٥و١٦ (١و ١٩٨٤/٥) ص ٥ـ٢٨ .

رافق ، عبد الكريم : الاقتصاد الدمشقي في مواجهة الاقتصاد الاوربي في القرن التاسع عشر ، ٥:١٧و١٨ (٨و١٩٨٤/١١) ، ص ١١٥ ـ ١٥٩ .

رافق ، عبد الكريم : من تاريخ سورية الحديث ، العلاقات السورية التركية من ١٩١٨ـ١٩٢٦ ٦:١٩و٢٠ (٤و١٩٨٥/٧) ، ص ٥٦ـ١٠٥ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام من الجمعيات العلمية الى الجمعيات السياسية ، ٣:٧ (١٩٨٢/١) ، ص ١٣٤ـ١٥٦ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨ـ١٩٠٩) ٣:٩و١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١٢٠ـ١٤٠ .

الريماوي ، سهيلة : تطور مفهوم اللامركزية عند العرب العثمانيين (١٩٠٠ ـ ١٩١٨) ٤:١٣و١٤ (١٩٨٣/١١) ، ص ١٣٨ـ١٨٤ .

الريماوي ، سهيلة : صفحات من تاريخ الجمعيات في بلاد الشام (١٩٠٨-١٩١٨) حزب اللامركزية الادارية العثماني ، ٥:١٥و١٦ (او٥/ ١٩٨٤) ص ١٧٣-٢٠٦ .

الريماوي ، سهيلة : عبد الرحمن الكواكبي دراسة في فكرة السياسي ،٧:٢٣و ٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦) ،ص ٧-٤٦ .

زكار ، سهيل : التشريع الاقتصادي الاسلامي ودور الامام محمد بن الحسن الشيباني في ارساء دعائمه ، ١:٢ (٦/١٩٨٠) ، ص١٠٣ - ١١٦ .

زكار ، سهيل : الدولة الرستمية في تيهرت ، ٤ : ١٢ (٥/١٩٨٣) ، ص ٧٤ - ٩٠ .

زيتون ، عادل : اضواء على العلاقات التجارية بين السلطنة الايوبية وجمهورية البندقية ١٧١ ا- ١٢٥٠ ، ١:٢ (٦/١٩٨٠).

زيادة ، نيقولا : المشرق الاسلامي في القرنين الثالث والرابع للهجرة (عصر الفارابي) ٨:٣(٤/١٩٨٢) ص ١٠٢-١٤٣ .

سطيف ، عبد النبي : من وثائق التاريخ الاجتماعي في القطر العراقي خلال الحرب العالمية الاولى ، ٥:١٧و١٨ (٨و١١/١٩٨٤) ،ص١٨٤ - ١٩٤ .

سعيدان ، احمد سليم: مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الاموي، ١:٣(١٢/١٩٨٠) ص ١١٣- ١٢٢ .

سعيدي ، عمر : الواجهة العسكرية للحضارة العربية الاسلامية - فتح افريقية جذوره السياسية وأبعاده الاستراتيجية ، ٢ : ٥ (٧/١٩٨١) ص ٤٥-٥٥ .

سعيدي ، عمر : محاولات الفاطميين الاستيلاء على مصر - الابعاد الدولية والاستراتيجية ٣:٧ (١/١٩٨٢) ، ص٧٤-٨٢ .

سعيدوني، ناصر الدين: الوقف ومكانته في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في الجزائر في أواخر العهد العثماني وأوائل الاحتلال الفرنسي، ٢:٥ (٧/١٩٨١) ، ص٥٦-٧٦ .

شكري ، محمد سعيد : جغرافية اليمن في القرن الاول للهجرة ، ٧:٢١و٢٢ (٣و٦/ ١٩٨٦) ، ص ٢٠٥-٢١٩ .

شلشر ، ليندا : فصل من تاريخ سورية الحديث — صور من حوران في القرن التاسع عشر (ترجمة) ٣:٩و١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١٤١— ١٦٧ .

صابر ، محي الدين : معالم الحضارة العربية الاسلامية في افريقية ، ٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ٧—٣٣ .

الصواف ، فائق بكر : بعض مظاهر الحضارة العربية الاسلامية في جزيرة صقلية ، ١٢:٤ (١٩٨٣/٥) ص ١٢١—١٤٤ .

ضاهر ، مسعود : المؤتمر الدولي الخامس عشر للعلوم التاريخية والمهمات المطروحة على عاتق المؤرخين العرب ، ٤:٢ (١٩٨١/٤) ، ص ١٦٧—١٨١ .

طالبي ، محمد ، منهجية ابن خلدون التاريخية وتأثيرها في المقدمة وكتاب العبر ، ٣:١ (١٩٨٠/١٢) ، ص٥ — ٣٨ .

طربين ، احمد : اصول تباين مواقف الدول الاوربية حيال المسالة السورية— اللبنانية ١٨٦٠—١٨٦١ ، ١:١٤ (١٩٨٠/٣) ، ص٥٣—٦٥ .

طربين ، احمد : مرافق الامن والتعليم والاشغال العامة في فلسطين كمايكشف عنها موظف كبير في الادارة الانتدابية ، ١١:٤ (١٩٨٣/١) ، ص٩٦—١١٩ .

طوير ، قاسم : الصورة التاريخية والحضارية للقطر العربي السوري في العصور الشرقية القديمة ، ١:٢ (١٩٧١/١٠) ، ص ١١٣— ١٢٨ .

عابد ، مفيد رائف : حول مصادر تاريخ العرب القديم ، ٦:٢ (١٩٨١/١٠)، ص ١٢٩—١٤٦ .

عاقل ، نبيه : انتشار الاسلام في الخليج زمن الرسول الكريم ، ملاحظات ومنطلقات للدراسة ، ١:١ (١٩٨٠/٣) ، ص ٢٧—٥٢ .

عاقل ، نبيه : بعض من ملامح الصراع الطبقي في التاريخ العربي ، ٣:١ (١٩٨٠/١٢) ، ص ٧٦—٩٧ .

عاقل ، نبيه : بعض احداث الدولة العباسية والدور الاول من خلال منظور عنصري واقتصادي واجتماعي ، ٤:٢ (١٩٨١/٤) ، ص ٦٣ — ٨٤ .

عاقل ، نبيه : الاسباب الاقتصادية والاجتماعية لمقاومة قريش الدعوة الى الاسلام ٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ٨٣—٩٧ .

عاقل ، نبيــه : المستشرقون وبعض قضايا التاريخ العربي الاسلامي ، ٩:٣٠ ١٠ (١٩٨٢/١٠) ، ص ١٦٨–١٩٩ .

عاقل ، نبيــه : مشكلة الحكم في الاسلام بعد وفاة الرسـول ، دراســة للمؤشرات الفاعلة في مرحلة الاصول ،١٢:٤٤ (١٩٨٢/٥) ، ص ٧–٢٧ .

عاقل ، نبيــه : الدعوة العباسية ، دراسة في الهوية من خـلال المصــادر الجديدة والاراء المتضاربــة ١٣:٤و١٤ (١٩٨٣/١٠) ، ص ٥١–٧٣ .

عاقل ، نبيــه : ملاحظات حول نمط الحكم في ولايات التخوم في الدور العباسي الاول ، ١٧:٥و١٨ (٨و١٩٨٤/١١) ، ص ٨٨–١١٤ .

عباس ، رؤوف : سورية في مخططات السياسة البريطانية ١٩٤٣ –١٩٤٤ ٧:٣ (١٩٨٢/١) ، ص ١١٥–١٣٣ .

عبد الرحيم ،عبدالرحمن عبد الرحيم : وثائق تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي في العهد العثماني، ٥:٢ (١٩٨١/٧) ، ص ١٦٤–١٨٤ .

عزاوي ، عبد المرشد : حدود الجزيرة الفراتية عند الاصطخري وابن حوقل ، بين شمشاط ، وسميساط ، ١٥:٥و١٦ (١و١٩٨٤/٥) ، ص ١١١–١٣٢ .

العسلي ،كامل جميل : وثيقة مقدسية تاريخية جديدة : كتاب الوقف الذي انشاه الملك الظاهر بيبرس بن عبدالله البندقداري الصالحي المتوفى سنة ٦٧٦ هـ على مقام النبي موسى عليه السلام ، ٢١:٧و ٢٢(٣و١٩٨٦/٦) ، ص ١٨١–١٨٦ .

عياد ، محمد كامل : اثر صقلية في نقل الحضارة العربية الاسلامية الى الاوربيين، ٥:٢ (١٩٨١/٧) ، ص ١٤–٢٩ .

الغربي ، الغالي ، الحياة السياسية في نيابة الجزائر ابان عصر الدايات ، ثورة ابن الشريف الدرقاوي ضد الاتراك في مطلع القرن التاسع عشر ، ٢٣:٧و٢٤ (٩و١٩٨٦/١٢) ، ص ١٦٤ – ١٧٨ .

غزال ، زهير : حول مؤتمر ستراسبورغ عن اقتصاد ومجتمعات الامبراطورية العثمانية ، ١٥:٥و١٦ (١و١٩٨٤/٥) ، ص ٢٠٧–٢١٧ .

غوانمة ، يوسف دويش : اضواء جديدة ، على الملك الناصر داود وتحرير بيت المقدس، ٤:٢ (١٩٨١/٤) ،ص ٩٦–١٠٩ .

غوانمة ، يوسف درويش : الطاعون والجفاف واثرهما على البيئة في جنوب الشام (الاردن وفلسطين) في العصر المملوكي ، ١٣:٤و١٤ (١٠/ ١٩٨٣) ص ٧٤–٨٧.

غوانمة ، يوسف درويش : التجارة الدولية في مناطق شرق الاردن (من جنوب الشام) في العصر المملوكي ٢٣:٧و٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦)، ص ٨٦ – ١٠٢ .

فحام ، شاكر : عود على بدء ، ١:٢ (٦/١٩٨٠) ، ص ٣–٣٦ .

فحام ، شاكر : مجلتان تاريخيتان ١٤، ٣:١ (١٢/١٩٨٠) ص ١٥٦–١٦٦ .

فرح ، نعيم : الصراع العربي البيزنطي للسيطرة على البحر الابيض المتوسط في القرن الثامن الميلادي ، ١٢:٤ (٥/١٩٨٣) ، ص ٢٨–٤٣.

فرح ، نعيم : اضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي، من خلال المصادر اليونانية واللاتينية المعاصرة ١٥:٥، و١٦ (١و٥/١٩٨٤)، ص ١٤٧– ١٧٢.

فرح ، نعيم : الملاقات الاقتصادية والاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية في القرنين الخامس والسادس (القسم الاول)٧: ٢٣و٢٤ . (٩و١٢/١٩٨٦)،ص ١٠٣–١٣٧ .

فرزات ، محمد حرب : عوامل سياسية واقتصادية في تطور سورية في العصر الارامي القديم حتى أواخر القرن الثامن ق.م ٦:١٩، و٢٠ (٤و٧/ ١٩٨٥) ، ص ١٧٠–١٩٢.

فرزات ، محمد حرب : الادب في التاريخ الارامي القديم ٧:٢١، و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦)، ص ١٣٥–١٦١ .

قاسمية ، خيرية : الحركة العربية خلال الحرب العالمية الثانية وفي اعقابها ١٩٣٩–١٩٥٢ ١:١ (٣/١٩٨٠) ،ص ٩٦–١١٤ .

قاسمية ، خيرية : مع بدايات السياسة الامريكية في المشرق العربي ٢:٤، (٤/١٩٨١) ، ص ٥–٢٩ .

قاسمية ، خيرية : روسيا القيصرية والمشرق العربي، ٣:٩و ١٠ (١١/١٩٨٢) ص ٤٠–٧٧.

قاسمية ، خيرية : المقاومة العربية للصهيونية أواخر العهد العثماني (١٩٠٨–١٩١٧) الاتجاهات الرئيسية، ٤:١١(١/١٩٨٣)ص ٥٣–٦٨.

قاسمية ، خيرية : الوطن العربي بين الاتجاه القومي وواقع التجزئة في الفترة بين الحربين العالميتين ٤:١٢ (٥/١٩٨٣) ، ص ٩١–١٢٠.

قاسمية ، خيرية : من خفايا السياسة البريطانية في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الاولى ، المكتب العربي في القاهرة – قراءة في الوثائق البريطانية ، ٥:١٧و١٨ (٨و١١/١٩٨٤) ، ص ١٦٠–١٨٣.

قاسمية خيرية : المؤتمر الاسلامي في القدس ١٩٣١–محاولة للبحث من نصير، ٦:١٩و٢٠ (٤و٧/١٩٨٥) ، ص ١٧–٥٥.

قرقوط ، ذوقان : الطباعة ودورها في النهضة الاوربية وفي اليقظة العربية ٤: ١٣و١٤ (١١/١٩٨٣) ، ص ١٨٥–١٩٦.

كجك ، يسرى : الابلائية لغة مدونة في وثائق ملكية ، ٧:٢١و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦) ص ١٦٢ – ١٧٦.

ماضي ، احمد : ابن خلدون والمادية التاريخية ٢:١٤، (١٢/١٩٨٠) ، ص ٦٥ – ٧٥.

ماضي ، احمد : الثقافة والاتجاه الاشتراكي العلمي في الفكر العربي المعاصر ٤:١١ (١/١٩٨٣)، ص٧–٢١.

محافظة ، علي : النشاط التبشيري الالماني في فلسطين ٢:١٤، (٦/١٩٨٠) ، ص ٥٣–١٠٢.

محفل ، محمد : في اصول الكتابة العربية ، ٢:٦ (١٠/١٩٨١) ص ٥٩ – ١١٢.

مرعي ، عيد : التاجر ونشاطاته في العصر البابلي القديم ٧:٢٣،و٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦) ،ص١٤٨–١٦٣.

مرعي ، عيد : ملاحظات حول اللغة الابلائية وقواعدها (مراجعة) ، ٧:٢٣، ٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦) ، ص ١٥٨–١٦٢.

ناجي ، سلطان : دور الجمعيات الاصلاحية والنوادي الثقافية في مجابهة السياسة التعليمية في عدن خلال تبعيتها للهند (١٨٣٩ – ١٩٣٧) ٢:٥ (٧/١٩٨١) ، ص ١٣٧–١٥٠.

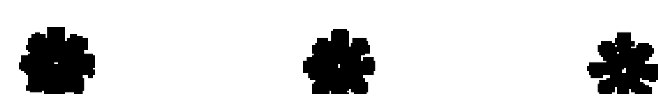
نجار ، مصطفى عبد القـادر البصرة اول قاعدة بحرية للتوسع العثماني في الخليج العربي ١٥٤٦ ــ ١٨٦٩ ١:٣ (١٢/١٩٨٠) ، ص ٩٨ــ١٠٢ .

نجار ، مصطفى عبد القـادر الارشيف الوطني الهندي في نيودلهي وموجوداته من وثائق العراق والخليج العربي ٧:٢١و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦) ، ص ١٨٧ ــ ١٩٢ .

نعيسة ، يوسف : اوضاع الفلاحين في دمشق وصناجقها ١١٨٦ــ١٢٥٦ هـ / ١٧٧٢/١٨٤٠ ، ٧:٢٣و٢٤ (٩و١٢/١٩٨٦) .

نفوري ، امين : اجناد القبائل العربية في بلاد الشام في العهد المملوكي ، ٢:٥ (٧/١٩٨١) ، ٩٩ــ١١٦ص.

يونس ، محسن : علاقة كندة بدولة الفرس وعمالهم ملوك الحيرة ، ٧:٢١و٢٢ (٣و٦/١٩٨٦) ، ص ١٩٥ــ٢٠٤ .



Abonnement : 1987, et anciennes collections annuelles (81,82,83,84,85,1986)

10$ A. (y compris les frais aeropostales)

Paiement : par mandat — poste adressé à la revue

Correspondance : DIRASAT TARIKHIYYAH

Republique Arabe Syrienne
Université de Damas

DIRAŠAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubiêe par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

8e année, No. 25 — 26, Mars — Juin, 1987

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الثامنة ، العددان ٢٧و٢٨ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧

DIRASAT TARIKHIYYAH

Revue historique trimestrielle

S'interesse a L'histoire des Arabes

Pubiée par la Commission de Redaction de l'Histoire des Arabes

8e année, N° 27 - 28, Sept. - Dec. 1987

● بدل الاشتراك السنوي :

للافـراد : (٥٠) ل.س خمسون ليرة سورية

للمؤسسات : (١٠٠) ل.س مائة ليرة سورية
(تضاف اليها اجور البريد)

في البلاد الاجنبية : (١٠) عشرة دولارات اميركية
(بما فيها اجور البريد)

● يتم تسديد بدل الاشتراك بحوالة بريدية الى :

جامعة دمشق ــ لجنة كتاب تاريخ العرب ــ مجلة دراسات تاريخية

او :

● بتحويل القيمة الى حساب جامعة دمشق المفتوح في مصرف سورية المركـزي تحت رقم ٢٣/٣٣٢٣ .

● يمكن للراغبين باقتناء مجموعات الاعداد الصادرة في السنوات السابقـة الاشتراك بالبدل نفسه لكل سنة (١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ ، ١٩٨٧)

المراسلات : مجلة دراسات تاريخية

جامعة دمشق ــ لجنة كتابة تاريخ العرب

المكاتب : جامعة دمشق ــ كلية طب الاسنان ط ٣ ــ هاتف ٢٢٢٤٦١

دراسات تاريخية

السنة الثامنة ، ٢٧و٢٨ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧ .

تنويـه

- الآراء الواردة في المجلة تعبر عن وجهة نظر صاحبها
- ترتيب البحوث يخضع لاعتبارات فنية

ـ ان مجلة دراسات تاريخية تنشر البحوث التي تعالج موضوعات في **تاريخ العرب** مباشرة او بصورة غير مباشرة على أن يراعى فيها ما يلي :

آ ـ أن تتوافر في البحث الجدة والاصالة والمنهج العلمي .

ب ـ ان لا يكون البحث منشورا من قبل .

جـ ـ أن يكون مطبوعا على الآلة الكاتبة ، خاليا من الاخطاء الطباعية .

د ـ تعرض البحوث ، في حال قبولها مبدئيا ، على محكمين متخصصين لبيان مدى صلاحيتها للنشر ، وفق المعايير المذكورة اعلاه ، والتعديلات اللازم ادخالها عليها عند الاقتضاء . وتبقى عملية التحكيم سرية .

ومن الجدير بالذكر أن مجلة دراسات تاريخية هي جزء من **مشروع كتابة تاريخ العرب** ، وخطوة من خطوات تخدم كلها وبمجموعها الغرض الاساسي : كتابة تاريخ العرب من منطلق وحدوي ، وضمن منظوري الفهم الحضاري للتاريخ والتقيدباسلوب البحث العلمي ، فتحاول طرح الجديد في ميدان البحث في التاريخ العربي وتسليط الضوء على التيارات العامة التي حركت تاريخ الامة العربية واعطته خط مسار خاص بـه ، وايضاح ما لفه الغموض وتصحيح ما شوه وكشف الزيف ان وقع، وكل ما يمكن أن يثير جدلا علميا واعيا ينتهي عند الحقيقة الموضوعية ..

والمجلـة ترحب بكل قلم يشارك في اغناء فكرتها وبكل مقترح وراي يساعد في مسيرتها .

الرؤية القومية لكتابة تاريخ الخليج العربي

د. مصطفى عبدالقادر النجار
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

هناك جملة من الحقائق والمسلمات التاريخية لابد من الاخذ بها قبل الكتابة في تاريخ اية بقعة من الوطن العربي ، هي ان تاريخ الامة العربية كل لا يتجزأ وان الكتابة في تاريخ الاقليم او القطر او المدينة لا يعني ان تلك البقاع عاشت بمعزل عن حركة التاريخ الذاتية للامة العربية ، وان اصطناع اي تاريخ لاي بلد عربي يكون عبئا ثقيلا على الصناعة التاريخية وعلى صوت التاريخ .

من هذه الحقائق يستنتج ان التاريخ العربي مهما تعددت ميادينه ومسارحه وتشعبت جوانبه هو تاريخ واحد يرجع لاصل المنبع الواحد .

فتاريخ الخليج العربي هو جزء من تاريخ الوطن العربي . وان اي تغير يبتعد عن هذه الحقيقة لا يمكن ان يجد له المناخ الصالح للديمومة والبقاء . لذا فان اية دعوة برزت في منطقة الخليج العربي تدعوا الى الاسرية او العشائرية او القطرية او الاقليمية في كتابة التاريخ اجهضت ولم يكتب لها النجاح . والواقع ان منطقة الخليج العربي قد ابتليت بتلك الدعوات من لدن نفر اغراه الكسب المادي على حساب الامانة التاريخية، فاصطنع لبعض الاقطار تاريخا قديما ووسيطا وحديثا ، وهم يضربون صفحا عن كل ما جرى في الوطن العربي في ميدان الفعل التاريخي ، ويهملون التفاعلات التاريخية والحضارية ويعزلون تاريخ القطر الواحد عن الروافد التي صبت فيه وتلك التي صب فيها . ويخلون بوحدة التاريخ الكبرى التي يؤلف اي تاريخ قطري جزءا منها .

ان اي فصل بين اجزاء الحياة العربية المتماسكة عبر التاريخ او تقطيع الخيوط التي تربط ما بينها ، او اي سد مصطنع يقدم بين مجاريها ، واي انحراف من هذا النوع هو محنة كبرى يجب الوقوف بوجهها . واقسى ما يواجهه المؤرخ عندما يكتب في تاريخ الخليج العربي ان مصادر بحثه تتفاوت ما بين مصادر اجنبية كتبها مؤرخون اجانب لم ينصفوا المنطقة ولم يكتبوا بروح علمية مجردة ، وفهموا تاريخ الخليج العربي على انه تاريخ للعلاقات الخارجية الدولية ، واهملوا دور الشعب العربي في صنع التاريخ وكأن المنطقة تعيش فراغا . وبين مصادر دينية متطرفة تفهم التاريخ فهما طائفيا او مذهبيا او امميا ، ومصادر رسمية تفهم التاريخ على انه تاريخ الاسر والحكام والملوك .

ومصادر لا هذا ولا ذاك ، ولكنها متاثرة بمدارس الشرق والغرب فتقتات على فتات موائدها وتجد التبرير لتفسير الاحداث المحلية في الخليج العربي وفق القوالب الجامدة التي اقتبستها وكأن تاريخ الخليج العربي لا هوية له ، ومع هذا فمن الواجب الاعتراف بان هناك مصادر اصلية وعلمية ، وذات منهج قومي واضح تبشر بخير هي التي تعتمد من قبل المؤرخين العرب في الدراسات التاريخية المعاصرة ولنا ان نتساءل بعد ذلك عن نظرتنا الى تاريخ الخليج العربي ، وصلة هذه النظرة بالمدرسة التاريخية المعاصرة ، ومن الواضح ان اليقظة العربية الحديثة رافقها اهتمام واسع بالتاريخ العربي فبرز مؤرخون في الوطن العربي اخذوا دورهم في توثيق احداث الامة وكتابة تاريخها ، فكونوا وعيا تاريخيا يشمل منطقة الخليج العربي . فظهرت دراسات جادة تؤكد فكرة الامة ووحدة تاريخها ، وتدعوا الى تأكيد تاريخ الشعب في الخليج العربي لا تاريخ الحكام او الاسر او الطائفة او القبيلة ، لان دراسة التاريخ من تلك الزوايا تورث التجزئة .

كما ان الاهتمام بالتاريخ السياسي قد تم تجاوزه الى التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والحضاري والفكري والعسكري والنفسي وبهذا فان الرؤية التاريخية لصيرورة الامة ومسارها عبر التاريخ قد اكتملت تفسيراتها ولم تبق اسيرة جانب واحد او نظرة ضيقة .

ومن هنا لابد ان نتفاءل بان تاريخ الخليج العربي بدأ في المرحلة المعاصرة يأخذ موقعه بين الكتابات التاريخية القومية ، وخرج من الطرق التقليدية والتفسيرات والمدارس والقيود والانحرافات والتشويهات التي ابتلي بها ردحا من الزمن ، باعتبار ان ازمة الواقع العربي المعاصر خلق وابداع للدراسات التاريخية ، ذلك ان الامة في اوقات محنتها تعود الى التاريخ لتستمد منه القوة ولتفيد في سعيها لبناء حياتها القومية الجديدة . وعليه ان المدرسة التاريخية العربية المعاصرة التي يتبناها اتحاد المؤرخين

العرب ويصر على نشر دعوته لاعادة كتابة تاريخ الامة من منطلق خصوصيتها واهدافها ورسالتها الخالدة تستدعي منا وقفة تاريخية شاملة لتجيبعن اسئلةاساسية عن واقع العرب في منطقة الخليج العربي المعاصر والقيم التي يؤمنون بها ويسعون لتحقيقها ومن اي جذر نبتت وتفرعت المعاصرة العربية في الخليج العربي ، وما هي عناصر قوتها وضعفها ، وما هي طبيعة التراث التي تؤمن به والنهضة التي تتوثب لبنائها . هذه المدرسة التي تبناها المؤرخون في الاتحاد تدلنا على ان الانسان العربي في الخليج العربي الذي يعيش الحاضر لا يمكنه ان يشيح بوجهه عن الماضي وان التنبه الى التاريخالقومي كان من اعظم اركان تلك المدرسة ، على ان تكون العودة الى التاريخ غودة اصيلةمتبصرة بوضحها فهم صادق لعلاقة الماضي بالحاضر والمستقبل . وتذهب المدرسة القومية التاريخية في الاتحاد الى انه كلما ارتفعت مراتب الانسانية عند الانسان العربي فيالخليج العربي ارتقت نظرة التاريخ وغزر فعله التاريخي ، وكلما كان وعيه للماضي اعمق اغتنى كيانه الانساني وزاد الحس التاريخي والفعل التاريخي لديه .

ان كتابة تاريخ الخليج العربي يجب ان ترتفع فوق مجرد رواية الاحداث وترديد الاخبار الى استجلاء معانيها وبيان اثارها في مشكلات الحياة المعاصرة ، والمساهمة في تنقية كيان المنطقة الذاتي وتاصيلهواغنائه ، والعودةالى سير الابطالوسجل الانتصارات وروائع الادب والشعر ، ومآثر العلم والاخلاق والقيم والمبادىء لبناء حياة الخليج العربي الجديدة .

ولهذا بات واضحا بان الصناعة التاريخية تلك تكاد تكون صعبة ، فهي تنطوي على سلسلة من الجهود المحكمة المتتابعة تبدأ في اكتشاف الاثر او الوثيقة الخليجية التي خلفها الماضي وتنتهي بالتاليف التاريخي لبلوغ الهدف السامي . ولا بدهنا منان نذكر بان تلك الايجابيات قد تخفي بين طياتها سلبيات أو مصاعب في كتابة تاريخ الخليج العربي ، يجب ان تتنبه لها المدرسة القومية التاريخية المعاصرة اذا ما اردنا لتاريخنا في الخليج العربي المجد وعدم الشطط ، ومن تلك السلبيات تجزئة الحقيقة التاريخية التي تكون في كثير من الاحيان اصطناعية وحصر النظر في الجزيئات ،وعجز بعض المؤرخين عن رؤية الصورة شاملة ، فياتي انتاجهم مخلا مضللا .. وهذا ما وقع فيه مؤرخون كتبوا عن تاريخ الخليج العربي وهم في الوقت نفسه يتبنون الدعوة لاعادة كتابة ما شوه منه .

فاختيار المصطلح التاريخي بات من اولى ضرورات البحث التاريخي فلا يمكن اقرار مصطلح الانسان الخليجي مثلا او الحضارة الخليجية او التراث الخليجي او الثقافة الخليجية وغيرها في وقت تدعو المدرسة التاريخية الجديدة لاصلاح ما افسده الدهر .. ذلك ان منطقة الخليج العربيعاشت وحدة سياسية وحضارية وتراثية

وثقافية مع المنطقة العربية دون اية فواصل او حواجز او تباعد ، فلماذا تشاع تلك المصطلحات . ولو اقرت تلك المصطلحات مثلا لاصبح بالامكان استعمال مصطلح انسان البحر الاحمر والبحر الابيض والبحر العربي ، وكل الخلجان والبحار العربيةالاخرى.

كما ان كتابة تاريخ الخليج العربي المعاصر متأثرة جدا للاسف الشديد بالوثائق الاجنبية للاقوام التي غزت المنطقة وتركت بصماتها عليها ، فظهرت دعوات لاعتماد الوثيقة وكأنها آية قرآنية لها قدسيتها في وقت نحن نعلم ان تلك الوثائق كتبت من قبل الرسميين الاجانب الذين حكموا المنطقة ونقلوا تصوراتهم الى حكوماتهم وفق الرؤية الخاصة بهم لخدمة مصالح بلدانهم ، فلا تمثل كتاباتهم والحالة هذه كل الحقيقة وانما تعبر عن الصورة ناقصة . لذا فان الدعوة للاخذ بالوثيقة الخليجية هي ان تخضع لتمحيص وتدقيق ودراسة ومقارنات واعية وشاملة وعميقة بغية توثيق حقائقها والاخذ بما يمثل الحقيقة التاريخية فقط .

هذا من جانب ، ومن جانب اخر فان اية دراسة تاريخية لمنطقة الخليج العربي لا تعتمد الوثيقة اساسا لها ، تبقى دراسة احادية الجانب تنظر للحدث التاريخي بعين واحدة . فالوثيقة سند المؤرخ في الكتابة التاريخية . ومن هنا يجب الاخذ بالموازنة في استعمال ادوات البحث التاريخي ..

واخيرا فان التفسيرات التاريخية التي قطعت شوطا كبيرا من اجل ان تحقق المدرسة العربية للتاريخ الحديث في الاتحاد اهدافها قد عالجت مثل تلك السلبيات واعطت نتائج مثمرة يمكن اعتمادها كدليل عمل للمؤرخين العرب في منطقة الخليج العربي حيث نالت تلك المجالات نصيبا واضحا من اهتمامها وعالجت جذورها وسلطت الضوء على دوافعها والمؤثرات العامة التي اثرت فيها ووضحت خصائصها في كل مجالات كتابة التاريخ التي عانت منها .

والمدرسة التاريخية العربية المعاصرة ، اذ تدرس تاريخ الخليج العربي ، تدرسه لتعزز وجهة النظر العربية لاغراض النضال والصمود وقدرة الامة في التقدم الىالامام. ولتنتشل ابناء الامة من التفسيرات البغيضة الحاقدة التي تحاول تشكيك ابناء الامة بذاتهم ، وبماضيهم وقدراتهم وفكرهم الخلاق ..

السمات الأساسية للحركة القومية العربية
في ظل تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة في سورية
(١٩٤٩ ـ ١٩٦٣)

د. نجاح محمد
جامعة دمشق

القومية العربية كحركة وتطور تاريخي:

القومية العربية كحدث اجتماعي وكرابطة تاريخية داخل التاريخ لابد وان تخضع ، بالضرورة ، لقوانين التاريخ ولحركته التطورية مما يعني تغيرها وتبدلها المستمرين ، شكلا ومضمونا ، على مر المراحل التاريخية التي تمر بها .

في حديثنا عن البدايات التاريخية للقومية العربية علينا ان نميز بين بدايتها كواقع اجتماعي عربي ، وبدايتها كفكرة قومية ، وبدايتها كحركة سياسة . بدايتها كواقع اجتماعي عربي مرتبطة ببداية وجود الامة العربية والتي ترتبط ، بدورها ، ببداية وجود التجمع البشري العربي الاول منذ الاف السنين قبل الميلاد ، وبدايتها كفكرة كانت مع بداية هذا الواقع الذي التحمت معه بعلاقة جدلية تبادلية وتطورت بتطوره، واسهمت في عكسه والتعبير عنه، كما ساهمت في تغييره وتحويله ، وكل هذا عبر مسيرة التاريخ العربي الطويلة التي شهد فيها اشكالا كثيرة من اشكال الوحدة الاجتماعية والفكرية والحضارية عند العرب .

تطورت الفكرة القومية خلال هذه المسيرة منتقلة من مرحلة اللاشعور الى مرحلة الوعي العادي لرابطة الانتماء العروبية ، الى مرحلة الوعي المعرفي لهذه العروبة ، ثم الى مرحلة الوعي الايديولوجي الذي هو قمة الوعي واساسه المحرك الدافع للفعل والنضال . ورسالة الاسلام العروبية في القرن السابع الميلادي كانت مؤشر وصول العرب الى مرحلة الوعي الاخيرة هذه ، فكما كان الاسلام بمضمونه الحضاري استمرارا لحضارة العرب القدماء منذ الاف السنين فقد كان بمضمونه القومي العربي الاجتماعي التحريري الموحد مؤشرا الى وصول الواقع الاجتماعي المادي ـ الروحي العربي الى مرحلة الامة العربية ، اولا ، وتعبيرا عن وصول الفكرة القومية الى مرحلة الوعي

الأيديولوجي ، ثانيا ؛ وبداية للقومية العربية كحركة سياسية هادفة لتوحيد العرب في ظل دولة عربية واحدة ؛ ثالثا . وكما كانت توحيدية الاسلام الدينيــة استمرارا للتوحيدية الدينية العربية القديمة ؛ التي نادى بها كل الانبياء العرب قبل الرسول العربي محمد ، فقد كان الاسلام ؛ بالتالي ، استمرارا للشكل الديني للفكرة القومية والذي كانت تعبر عنه هذه التوحيدية الدينية العربية القديمة بمختلـف مسمياتها: الحنيفية والموسوية والمسيحية وغيرها .

وهكذا كان القرن السابع الميلادي بداية للقومية العربية كحركة سياسية ذات مضمون وحدوي عروبي محرر موحد وشكل ديني اسلامي . كانت الرابطة العروبية عند بداية هذه الحركة هي نفسها الرابطة الاسلامية فكانت صفة المسلمين ، استنادا للقرآن الكريم(١) ، تضم كل المؤمنين بالرسالات السماوية الاخرى،وفي الجزيرة العربية كانوا كلهم من العرب ؛ وبهذا فقد كان للعروبة نفس المحتوى البشــري الــذي كان للاسـلام ..

بقي هذا التطابق بين الرابطتين مع بقاء هذا المحتوى وبقاء انسجام الشــكل الاسلامي للحركة القومية العربية مع مضمونها القومي العربي ، وانتهى بنهاية انــجامه أو بداية تناقضــه معه . حدث هذا التناقض نتيجةلازدياد وجود ونفوذ العناصر المسلمة غير العربية وخاصة الشعوبية ، وقيامها ،بقصـد او عن غير قصد ، بضرب وجود ونفوذ العناصر العربية المسلمة وغير المسلمة ، مما ادى الى تعميق التناقضات شيئا فشيئا في الواقع العربي وعلى الساحة السياسية ما بين الرابطة الأسلامية ، التي تغير مدلولها وضاق لينحصر في اطار المسلمين،ممن امن بالرسول العربي محمد فقط ، وليضــم كل المسلمين من مختلف القوميات من عرب وغيرهم ، وبين الرابطة العروبية التي ضمت كل العرب بكافة انتماءاتهم الدينية . وصلت هذه التناقضات الى نقطة اللالقاء نتيجة لازدياد دور الشعوبية المتسترة بستار الاسلام في تهديم الدولة العربية الاسلامية،ثم نتيجة لقيام دولة اسلامية باحتلال الوطن العربي ، فكان الاحتلال الفارسي ثم الاحتلال العثماني التركي الذي لم يكتف بالاحتلال العسكري وانمـا مارس ابشــع اساليب الاستعمار الاجنبي من تجزئة وتفرقة واستغلال ، وتعميق لكل مظاهر الفقر والتخلف.

كانت اواخر القرن التاسع عشر فترة وضوح التناقض بين الرابطة العثمانية التي تتقنع باللباس الاسلامي والرابطة العروبية نتيجة لقيام السلطات التركيــة بالتفريط بالارض العربية وبالتساهل مع اعدائها وعلى رأسهم الصهيونية(٢) ، وتبنيها سياسة التتريك ومحاولة ضرب الذات القومية العربية ، فكانت ، بالتالي ، نقطة الفصــل بين الرابطتين لصالح الرابطة العروبية . ونقطة الفصل هذه كانت بدورها بداية الشــكل

العروبي للحركة القومية العربية ، الشكل الذي جاء اكثر انسجاما مع مضمونها القومي الذي يضع الانتماء للعروبة فوق كل انتماء اخر ويعتبر العروبة بالنسبة للعرب. الام التي تنتسب اليها كل الاديان ، فالعرب كما قال الامير فيصل في احدى خطبه في عام ١٩١٨ : « عرب قبل موسى وعيسى ومحمد »(٣) .

بداية القومية العربية اذا حركة سياسية وبايديولوجية عروبية، شكلا ومضمونا، كانت في أواخر القرن التاسع عشر وبهدف تحرير الوطن العربي من الحكم العثماني التركي واعادة توحيده في ظل دولة عربية واحدة . اما بالنسبة للايديولوجية القومية العربية ، فما هي الا تعبير عن مضمون القومية العربية وشكلها في مرحلة تاريخية من تطورها. من هنا فانه لا يجوز حصر القومية ضمن اطار الايديولوجية من باب عدم جوازية حصر الكل في الجزء ، وبالتالي ، فلا يجوز اعتبار القومية العربية ، مثلها مثل اية قومية ، ايديولوجية طبقية معينة ومطلقة(٤) كما هي الحال عند النظرية الستالينية ، فالايديولوجية القومية مختلفة باختلاف الواقع الاجتماعي وباختلاف المرحلة التاريخية التي يمر بها هذا الواقع .

ينتج من ذلك ان اختلاف الواقع القومي الاجتماعي العربي ما بين مرحلة واخرى هو عامل اساسي هام في اختلاف الايديولوجية القومية العربية ، اي في اختلاف المضامين والاشكال الفكرية والسياسية والاجتماعية والتنظيميةللحركة القومية العربية ما بين هذه المرحلة والاخرى . يقود هذا الى ان المعيار الاساسي لتحديد المراحل التاريخية الرئيسية لتطور الحركة القومية العربية في بلد ما هو طبيعة تطور البنية الاجتماعية المهيمنة على الواقع القومي والاجتماعي والسياسي في هذا البلد . انطلاقا من ذلك نستطيع القول بان الحركة القومية العربية في سورية وحتى في الوطن العربي عموما قد مرت في خمس مراحل رئيسية في تطورها في الفترة التاريخية الممتدة منذ بداياتها ، كحركة سياسية عروبيةفي أواخر القرن التاسع عشر ، وحتى يومنا هذا. والمراحل الخمس بالنسبة للاحداث التاريخية في سورية هي الاتية :

المرحلة الاولى : مرحلة هيمنة الاقطاع ، وامتدت منذ اواخر القرن التاسع عشر وحتى قيام الثورة العربية الكبرى في حزيران ١٩١٦ والتخلص من الاحتلال التركي .

المرحلة الثانية : مرحلة هيمنة البرجوازية الكبيرة ، وامتدت من الثورة العربية حتى الاحتلال الفرنسي لسورية عام ١٩٢٠ .

المرحلة الثالثة : مرحلة هيمنة البرجوازية الوطنية ، وامتدت من الاحتلال الفرنسي حتى الانقلاب العسكري الاول عام ١٩٤٩ .

المرحلة الرابعة : مرحلة هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة، امتدت من انقلاب الزعيم وحتى ثورة اذار ١٩٦٣ .

المرحلة الخامسة : مرحلةهيمنة تحالفالطبقات والفئات الكادحة (٤ب) من ثورة اذار ١٩٦٣ وحتى يومنا هذا ..

* * *

قبل الخوض في صميم موضوع البحث « **السمات الاساسية للحركة القومية العربية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة (١٩٤٩ – ١٩٦٣)**» اي في مرحلتها التاريخية التطورية الرابعة ، نجد من الضروري أعطاء **لمحة موجزة عن صورة الواقع الاجتماعي في سورية في المرحلة التاريخية السابقة ، اي في ظل الاستعمار الفرنسي** ، لنتوصل بعد ذلك الى فهم افضل للحركة القومية العربية في ظل هيمنة التحالف المذكور .

ان الاستفادة من سورية كمنطقة سياسية استراتيجية هامة في المشرق العربي وفي شرقي المتوسط كنافذة على اسيا لم تكن كافية لارضاء فرنسا التي ارادت تحويل سورية أيضا الى مصدر كبير لزيادة اغناء دولتها وشركاتها الراسمالية . هذا مايفسر السياسة الاقتصادية التي انتهجتها سلطات الاحتلال الفرنسي في سورية والتي استطاعت من خلالها التاثير الكبير على العمليات الاقتصادية الجارية فيها(٥) والتصرف بها جميعا بما يتناسب ومصلحة فرنسا وشركاتها فقط ، كرفع التعرفة الجمركية متى ارادت وتنظيم الاتفاقيات بحيث تعرقل عملية تصدير الصناعة المحلية ،فتوقفت كثير من الصناعات الوطنية والحرفية والمنزلية والمانيفاتورية(٦) . وعرقلت السياسة الاقتصادية الفرنسية نمو رؤوس الاموال الوطنية ، وبالتالي قيام صناعة محلية تنهض على اساس وجود المعامل والمصانعفي سورية(٧) ، مما قاد الى ضعف البرجوازيةالوطنية وعدم تطورها ، وقاد هذه البرجوازية الى الهرب من توظيف أموالها في الصناعات ودفع بعضها الى المرابِاة او الهجرة او الى شراء الارضي . ووضع البرجوازية هذا قادها الى النقمة اكثر فاكثر ضد المستعمر لفرنسي . اما العمال فقد زاد تواجدهم نسبيا بالنسبة للسابق .

أما في الريف كانت خطة فرنسا تقضي بتحويله الى واحد منأكبر مصادر تزويدها بالمواد الزراعية ، فتحالفت مع الاقطاع وشجعته وعملت على ادخاله الىميدان التبادل التجاري لتزيد من سيطرتها عليه فيكون وسيطها لتحقيق خطتها هذه ، خاصة وانها لم تكن ترغب في استثمار رؤوس الاموال الفرنسية في الزراعة نتيجة لتخوفها الدائم

من التحركات الوطنية المستمرة ، وبالتالي ، لخوفها من ان تطرد من البلاد(٨) مابين يوم واخر . ما تقدم يفسر تلك الاجراءات التي قامت بها سلطات الاحتلال كتوزيع الاراضي المشاع واراضي الدولة على الاقطاعيين والسماح لهم وللمرابين بشراء اراضي الاوقاف وغيرها لتزيد من مساحة الاراضي الزراعية في أيديهم ، كما يفسر غض النظر عن عملية تجريد الفلاحين من اراضيهم من قبل رجال الاقطاع الخ. كل ذلك قاد الى زيادة مساحة الاراضي الزراعية الكبيرة التي تملكها بعض الافراد(٩) في حين نقصت مساحة الاراضي الزراعية التي كان الفلاحون يمتلكونها(١٠) ، مما اضطر كثيرا منهم الى العمل كإجراء زراعيين . ان سياسة فرنسا هذه في تعزيز العلاقات الاقطاعية وسياستها الاستعمارية الاستغلالية عموما قد أدت الى أزدياد حالة الفلاح السوري بؤسا واستغلالا وتخلفا .

وبشكل عام ، تشكلت البنية الاجتماعية لسورية في نهاية فترة الاحتلال الفرنسي من الفئات الاجتماعية الرئيسية الاتية :

١ ـ **طبقة الاقطاع** التي تحالفت مع سلطات الاحتلال وتحول بعضها وبدعم هذه السلطات الى برجوازية زراعية تابعة(١١) .

٢ ـ **طبقة البرجوازية الكبيرة** ، وابرزها : أ ـ الكومبرادور والبرجوازية الزراعية ، ودعمتهما الامبريالية الفرنسية فوضعتا نفسيهما بخدمتها(١٢) ، ب ـ البرجوازية الصناعية : وقد نمت قليلا بالنسبة للسابق الا أنها بقيت ضعيفة للاسباب التي ذكرناها ، وكانت والبرجوازية التجارية التي نزعت منها مراكزها(١٣) معبأة بمشاعر النقمة ضد المستعمر الفرنسي المحتل للوطن وبمطامح التطلع الى استلام السلطة بعد اجلائه عنه ، مما يفسر وجودهما في صفوف الحركة الوطنية والقومية .أما خروج برجوازية الكومبرادور من قيادة الحركة القومية العربية في هذه المرحلة ، فقد كان بسبب عمالتها وموقفها السلبي من النضال الوطني والقومي ضد الاستعمار الفرنسي .

٣ ـ **الجماهير الكادحة** ، وتشمل الفئات الاجتماعية التي لا تملك سوى جهدها المادي والعضلي ، وجهدها الفكري ، كالعمال وقسم من المثقفين وصغار الفلاحين والموظفين وغيرهم ، الى جانب الفئات الاجتماعية المالكة لراس مال صغير ، أي البرجوازية الصغيرة ، كالحرفيين وأصحاب المهن الحرة وغيرهم .

فالبنية الاجتماعية للحركة الوطنية والقومية كانت في غالبيتها من صفوف هذه الفئات الاخيرة ، أي فئات الجماهير الكادحة وخاصة المثقفين وصغار الفلاحين . ان

الشعور الوطني في ظروف الاحتلال الاجنبي ، شعور الارتباط بالارض ، وبالذات ، وجودا وثقافة وتاريخا ، اي شعور الارتباط بالذات قوميا ، كان وما زال عند الجماهير السورية فوق كل شعور اخر ، كما كان الارتباط بالارض وما زال فوق كل ارتباط.

احتل الاستعمار الفرنسي الارض السورية وتقاسمها مع حلفائه المستعمرين الاتراك والانكليز والصهاينة وجزاها مصطنعا حدودا جديدة لم تكن موجودة . ولكي يمنع اية وحدة وطنية وقومية ، من شانها ان تهدد وجوده وسياسته في سورية ،لجأ الى بث التفرقة ، الدينية والمذهبية والاقليمية وغيرها ، ومحاولة تعميقها بكل انواعها في صفوف المجتمع السوري . ولاتمام ما بداه الاستعمار التركي من ضرب الذات القومية في الصميم ، عمد الى محاولة طمس التراث العربي القومي وطمس مضامينه التقدمية وخاصة ما تعلق منها بنقاط الوحدة التي كانت تجمع ما بين العرب ،ومحاولة تقويض كل دعائم الثقافة القومية(١٤) وتشويه التاريخ العربي الحضاري بما يبرز نقاط الاختلاف بين العرب ويخدم ، بالتالي ، سياسة التجزئة والتفرقة والتي تحقق بالطبع، اهداف المصالح الاستعمارية عموما في الوطن العربي.

كان النضال الوطني والقومي في سورية رافضا لوجود الاستعمار الفرنسي بكل وجوهه ، السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وكان ، قبل كل شيء، متمسكا بالارض والاستقلال والذات القومية ولم يتوقف حتى استرجعت الارض وكان الاستقلال . وبالرغم من وجود قيادات فلاحية بطولية كبيرة لهذا النضال فقد استطاعت البرجوازية الوطنية الهيمنة على شؤونه وقيادته منذ الثورة السورية الكبرى ، كما استطاعت الهيمنة على السلطة وامور الحكم في هذه المرحلة بسبب استنفاذ الامكانات المادية للقيادة الفلاحية ، ونظرا لامكاناتها المادية ولقوة نفوذها وحشد قواها السياسية وتنظيمها في تكتل سياسي واحد اخذ اسم « الكتلة الوطنية » استلم شؤون النضال الوطني وبعض امور الحكم في سورية منذ عام ١٩٢٨ .

تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة :

ان نجاح الحركة الوطنية والقومية في ظل هيمنة البرجوازية الوطنية في الحصول على استقلال البلاد واجلاء جيوش الاستعمار الفرنسي منها في عام ١٩٤٦ وفي المساهمة في خلق الجامعة العربية كان انجازا قوميا هاما ، لكن فشل هذه القيادة ، التي استلمت امور الحكم في سورية كليا في الفترة التي اعقبت الاستقلال ، والذي ظهر في معالجتها لعدة قضايا وطنية وقومية اساسية، قدغطى على نجاحها هذا وجعله منقوصا ،واهم هذه القضايا كانت قضية وحدة سورية بحدودها الطبيعية التي كانت لها قبل الاحتلال الفرنسي ، وقضية لواء اسكندرونة ، وقضية فلسطين ، ثم الهزيمة امام

اسرائيل في الحرب الاولى في ايار ١٩٤٨ . ولم تكن ظاهرة استلام الجيش لامور السلطة المدنية سوى نتيجة طبيعية لفشل القيادة البرجوازية الوطنية هذا ، ولفشلها حتى في تسيير امور الحكم . ما تقدم ، بالاضافة الى وضوح عجز هذه البرجوازية عن القيام بمهام الثورة الصناعية والقومية والديموقراطية نتيجة لظروف نشأتها ولضعفها ولوضوح عجزها عن الاستقلال عن الراسمالية العالمية ، ادى الى ضعف تاثيرها ونفوذها في سورية شيئا فشيئا سواء داخل الحركة القومية العربية او خارجها .

زاد في ضعف البرجوازية الوطنية هذا عدم الاستقرار الذي تعرضت اليه البلاد نتيجة للانقلابات العسكرية من جهة ، ونتيجة ممارستها لعبة المحاور العربية من جهة اخرى، مما ادى الى انقسامها وتشتت قواها ، فقسم منها وغالبيته من برجوازية حلب تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور العراقي ــ الاردني الهاشمي ، وقسم اخر وغالبيته من برجوازية دمشق تبني الدعوة الى ارتباط سورية بالمحور السعودي ــ المصري .. وقد وصل الصراع في أوساط الحزبين اللذين كانا يمثلان البرجوازية السورية عموما آنذاك ، وهما « الحزب الوطني » و « حزب الشعب »(١٥) ، وفي أوساط الحركة القومية العربية بشكل عام ، حدا كبيرا بسبب لعبة المحاور العربية هذه ، التي سببت انقسام الحركة الى ثلاثة اتجاهات رئيسية : الاول وعلى راسه حزب « الشعب »(١٦) تبنى الدعوة الى انضمام سورية الى المحور العراقي ــ الاردني الهاشمي ، والثاني وعلى راسه « الحزب الوطني »(١٧) تبنى الدعوة الى انضمام سورية الى المحور السعودي ــ المصري ، والثالث ، وعلى راسه « حزب البعث العربي » ، دعا الى الوحدة العربية بشموليتها بغض النظر عن جميع المحاور ، وضرورة معالجة اية مسألة مطروحة على الساحة السياسية الداخلية والعربية والدولية من خلال منعكساتها على القضية الوطنية والقومية بشكل عام .. وبناء عليه هاجم هذا الاتجاه لعبة المحاور واعتبرها لعبة استعمارية لعرقلة الوحدة العربية الحقيقية والاساءة اليها(١٨) .

أن خضوع البرجوازية الوطنية السورية للعبة المحاور العربية زاد في ضعف تاثيرها ونفوذها في الحركة القومية العربية وفي سورية بشكل عام. ومقابل هذا الضعف توضح ازدياد تاثير ونفوذ وجود الفصائل اليسارية المؤلفة من الفئات الكادحة في أوساط العمال وصغار الفلاحين والبرجوازية الصغيرة ، وقد مثلها حزبا « البعث العربي » و «العربي الاشتراكي » اللذان ما لبثا ان اندمجا ليشكلا حزب « البعث العربي الاشتراكي » في أواخر عام ١٩٥٢ ، وكان نفوذ الفصائل اليسارية هذه واضحا في الجيش ايضا ومن خلال الضباط البعثيين بشكل خاص .

اما تاثير البرجوازية الصغيرة عموما فقد كان واضحا في المجتمع السوري ككل،

وذلك بحكم تواجدها الواسع فيه نتيجة لضعف الاقتصاد الراسمالي ونتيجة لهيمنة الاقتصاد الصناعي الصغير والملكية الصغيرة في سورية .

ادركت البرجوازية السورية الوطنيةهذا الواقع العام ومدى تأثيره على الاحداث، وادركت ان ضعفها وفشلها المذكور في المرحلة السابقة لا يخولانها القيام وحدها ،بعد الان ، بقيادة الحركة ، ولا بالوصول الى الاستقرار الضروري لصيانة رأس مالها وتحركه ، ولا بتسيير امور الحكم في البلاد ولابالقضاء على حكم الشيشكلي الدكتاتوري الذي توضحت معالم وجهه المتناقض مع مصالحها فتمرد على طلباتها بعد فترة، وادركت أيضا ان تحالفها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور غير قادر على القيام بهذه المهام لان تأثر هاتين الفئتين كان ضعيفا ومحدودا جدا ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وذلك لضعف تواجدهما ولوضوح عمالتهما لسلطات الاحتلال الفرنسي ولتراجع تأثير فكرهما اليميني مقابل تصاعد تأثير الفكر والاتجاه اليساري عند الجماهير السورية بشكل عام وعند جماهير الحركة القومية العربية بشكل خاص. ادراك البرجوازية الوطنية هذا دفعها الى التوجه نحو البرجوازية الصغيرة للتحالف معها ، سواء داخل الحركة أم خارجها ، وفي نيتها استخدام هذا التحالف لخدمة اهدافها ومصالحها بالدرجة الاولى ، هذا التحالف لم يعن تخلي البرجوازية الوطنية عن تعاملها وتعاونها مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور اذ استمرت بالتمسك به بغاية تنسيق جهودها معهما ومع الفصائل اليمينية في البرجوازية الصغيرة من اجل كبح تصاعد الاتجاه اليساري في سورية بشكل عام وفي حركتها القومية بشكل خاص . ولا شك ان هذا الكبح كان من الاهداف الرئيسية التي كانت وراء تحالف قسم من عناصر البرجوازية الوطنية مع قيادة « حزب البعث » آنذاك ، حيث كان في نيتها ان تجعل من هذا التحالف لجاما للاندفاع القومي الاشتراكي لجماهير هذا الحزب. ولم يكن « التجمع القومي » الذي سيطر على امور الحكم منذ عام ١٩٥٦ وحتى عام ١٩٥٨ الا تعبيرا عن هذا التحالف .

السمات الاساسية للحركة القومية العربية (١٩٤٩ ـ ١٩٦٣) .

I ـ تصاعد الاتجاه اليساري حتى قبيل قيام الوحدة السورية ـ المصرية.

١ ـ الضغط الاستعماري ورد الفعل الوطني والقومي عند الجماهير السورية:

ان الشعور بضرورة وحدة النضال ضد الحكم الدكتاتوري قد ساهم في توحيد القوى الاجتماعية للحركة القومية العربية بمختلف اتجاهاتها الفكرية والسياسية ، وهذا ما يفسر تواجدها جميعا في تنظيم « التجمع الوطني » الذي تشكل في اواخر حكم الشيشكلي والذي ضم ممثلين عن حزب « البعث » و « الحزب الوطني » وحزب

« الشعب » وبعض المستقلين . مثل « البعث » الاتجاه اليساري في حين كان حزب « الشعب » يمثل الاتجاهالتوفيقي و «الحزب الوطني » يمثل الاتجاه اليميني ، لا شك ان وحدة نضال التنظيمات السياسية للقومية العربية في سورية ضد حكم الشيشكلي كانت سبب نجاحها في اسقاطه في شباط ١٩٥٤ ، لكن الدور الاكبر بهذا النجاح كان لحزب « البعث » .

عكس هذا التجمع ، من جملة ما عكس ، تحالف القوى الوطنية والقوميةالمنظمة وتحالف القوى البرجوازية،وان نهايته بانهيار وسقوط الدكتاتورية لم تكن نهاية هذا التحالف ، فبقي مستمرا ، وساهم استمراره في تأزم الصراع داخل الحركة القومية وفي الانشقاقات التي تعرضت لها بعض تنظيماتها نتيجة رفض قسم من قواعدها وقلة من قيادتها استمرارها فيه .. من المؤكد من أهم الاسباب لاستمرار هذا التحالف الذي هيمن على الحكم باسم جديد هو « التجمع القومي » كان ادراك غالبية قيادي وجماهير اطرافه لمدى الاخطار التي كانت تهدد سورية في تلك الفترة بسبب تصاعد الضغط الاستعماري الغربيعليها لجرها الى مشاريعه والانضمام الىاحلافه ،وادراكها، بالتالي، لضرورة الوحدة الوطنية للتصدي لهذه الاخطار . ولم تكن هذه الوحدة، سواء داخل الحركة أم خارجها ، النتيجة الهامة الوحيدة لتصاعد الضغط الاستعماري على سورية ، فلقد كان هناك نتائج هامة اخرى صبغتالحركة القومية العربية بصبغتها في هذه المرحلة ، وسنكتفي بتعداد أبرزها :

أ ــ تصاعد موجة العداء لـ « الغرب » : اصبح موقف الرفض او الموافقة على ارتباط سورية بـ « الغرب » ، تحت أية صيغة كانت ، المعيار الاساسيلليسار واليمين في هذه المرحلة سواء داخلالحركة او خارجها ، وادى بروز حزب «الشعب» على انه من مؤيدي التحالف مع « الغرب »» من جهة(١٩)» وبروز موقف « الحزب الوطني »» بعد انشقاقاته الداخلية ، ضد هذا التحالف ، من جهة اخرى(٢٠) ، الى تبادل تمثيل الاتجاهين اليميني والتوفيقي في الحركة القومية بين هذين الحزبين في الفترة الاخيرة من هذه المرحلة فقد اصبح حزب « الشعب » هو الذي يمثل اليمين و « الحزب الوطني » يمثل التوفيقية ، بعد ان كان العكس في بداية المرحلة.اما « البعث » الرافض لاي تحالف مع « الغرب » فقد بقي الممثل الاساسي لليسار القومي العربي .

ب ــ تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية : توافقت الضغط الاستعماري على سورية مع بروز نظام عبد الناصر كنظام عربي معاد للاستعمار نتيجة لتصديه للاستعمار الانكليزي وتأميمه لقناة السويس وصموده أمام العدوان الثلاثي الانكليزي ــ الفرنسي ــ الاسرائيلي على مصر عام ١٩٥٦ .. وقفت سورية الى جانب مصر في هذه

الحرب ، ثم وقف عبد الناصر الى جانب سورية اثناء معركتها ضد « حلف بغداد » ومشروع ايزنهاور واثناء التهديدات التركية لها ، والتي كانت فصلا من فصول الضغط الاستعماري عليها . كل ذلك كان له اكبر الاثر في تأجج الشعور القومي عند الجماهير السورية ، من جهة ، وفي توجهها نحو مصر وزعامة عبد الناصر للامة العربية من جهة اخرى . ولقد كان لهذا التوجه اكبر الاثر في قيام الوحدة السورية ـ المصرية في عام ١٩٥٨ ، حيث « وصلت موجته الى درجة لم يكن ليجرؤ احد على معارضتها والوقوف في وجهها »(٢١) . مما دفع اليمين والقوى الانفصالية الى ركوبها والتستر بها انتظارا للحظة المناسبة لضربها . من هنا جاء اشتراك البرجوازية الوطنية السورية في صنع وحدة ١٩٥٨(٢٢) . وقامت قواعد حزب « البعث » وقيادته، وقيادة « حركة القوميين العرب » بدور فعال في توجيه هذا الشعور نحو الوحدة مع مصر ونحو زعامة عبد الناصر .

جـ ـ وضوح انقسام الوطن العربي الى معسكرين : المعسكر التقدمي الرافض لاي تحالف مع الغرب وتحت اية صيغة كانت وعلى راسه سورية ومصر ، والمعسكر المرتبط بالغرب والداعي للتحالف معه . ان مساهمة الرجعية العربية مع الاستعمار الغربي في الضغط على سورية لجرها للانضمام الى « حلف بغداد » ثم الموافقة على « مشروع ايزنهاور » بحجة كاذبة هي خطر وقوعها بيد الشيوعيين(٢٣) ، كان له اكبر الاثر ايضا في توجه سورية نحو مصر وزعامة عبد الناصر . تساهلت الرجعية العربية على ما يبدو ازاء هذا التوجه انطلاقا من ايمانها بانه « اهون الشرين » ، اي انه افضل من وقوعها في ايدي تلك القوة القومية العربية المندفعة باتجاه تقدمي اشتراكي يساري والتي كانت وحدها ، اي هذه القوة ، تشكل الخطر الحقيقي على مستقبل هذه الدول الرجعية ، وتساهلت انطلاقا من قناعتها ايضا بان الاتجاه الناصري التوفيقي من شأنه ان يكبح اندفاع الاتجاه القومي اليساري وان يستقطب بعض جماهيره الواسعة فيضعفه ، وهذا ما حدث فعلا بعد قيام دولة الوحدة في سورية والحكم الناصري لها .

٢ ـ تصاعد الاتجاه اليساري :

في الفترة التي امتدت حتى قبيل قيام الوحدة كان الضغط الاستعماري بكل وجوهه ونتائجه المذكورة قد ادى الى تصاعد الاتجاه اليساري اكثر فاكثر في سورية نتيجة لمواقفه الوطنية الشجاعة الصامدة امام هذا الضغط وضد الغرب بكل مخططاته ومشاريعه واحلافه . وقد مثل حزب «البعث» الاتجاه اليساري القومي نتيجة لمواقفه النضالية الواضحة هذه ونتيجة لمواقفه التقدمية الاخرى من مجمل

القضايا الوطنية والقومية ، كما برز الحزب الشيوعي أيضا في هذه الفترة وزادت جماهيره .

ان ادراك اليسار عموما لضرورة تنسيق نضاله المشترك من اجل تعزيز صمود سورية امام الضغط الاستعماري عليها يفسر تحسن علاقات « البعث » مع « الحزب الشيوعي السوري » بشكل ملحوظ في هذه الفترة . كان من اهم مظاهر تصاعدالاتجاه اليساري في سورية ومن ابرز نقاط التقائه تدعيم توجه سورية نحو المعسكر الاشتراكي وعلى راسه الاتحاد السوفييتي .. ومما ساهم في هذا التوجه والى درجة كبيرة مواقف دول هذا المعسكر الى جانب سورية في معركتها ضد « حلف بغداد » و «مشروع ايزنهاور » ومن ثم دعمها لمصر في حرب السويس ولنظام عبد الناصر كحاكم عربي معاد للاستعمار كما بينا .

تصاعد الاتجاه اليساري في سورية كان على حساب الاتجاهين التوفيقي واليميني فيها وتجلى ذلك بالنسبة للحركة القومية العربية بتزايد جماهير حزب « البعث » ، وخاصة في اوساط صغار الفلاحين والمثقفين ، وتحسن وضعه التنظيمي مقابل تقلص جماهير حزبي « الشعب » و « الوطني » وانهيار وضعهما التنظيمي . ان موقف هذه الاحزاب من ارتباط سورية « بالغرب » كان سببا هاما لتطور اوضاعها بهذا المنحى ولكن لم يكن السبب الوحيد ، فقد كانت هناك اسباب اخرى لعبت دورا واضحا في هذا التطور واهمها طبيعة بنيتها الاجتماعية والتنظيمية ، ففي حين كانت البنية الاجتماعية لحزب « البعث » منسجمة نسبيا ، ومؤلفة في غالبيتها من عمال وفلاحين صغار ومثقفين ، كانت البنية الاجتماعية لحزبي « الشعب » و « الوطني » مؤلفة بغالبيتها من البرجوازية الكبيرة(٢٤) والمتوسطة والصغيرة وبعض الاقطاع . وكان لعلاقات التنافس والصراع التي كانت تعيشها برجوازية سورية ، وخاصة برجوازية حلب ودمشق ، منعكساتها على تماسك بنية هذين الحزبين الاجتماعية .

اما بالنسبة للبنية التنظيمية ، فقد كان حزب « البعث » من نمط احزاب « الجماهير »(٢٥) التي تعتمد على المركزية ونظام الشعبة والتربية الحزبية والنظرية السياسية، وكان حزبا الشعب والوطني من نمط احزاب «الكادر»(٢٦) ، التي تعتمد نظام اللامركزية ونظام اللجان التي لا تنشط الا في فترة الانتخابات وتفتقر الى التربية الحزبية والاهتمام بالنظرية السياسية .. ولا شك ان ازدياد اقبال جماهير صغار الفلاحين والعمال على الحركة في هذه الفترة وعلى الانتساب لحزب «البعث»بالذات، كان سببا هاما من اسباب تصاعد الاتجاه اليساري فيها أيضا .

ان ماتقدم ، سواء ما تعلق بهذا الاقبال ام بطبيعة البنية الاجتماعية والتنظيمية للاحزاب المذكورة ، ام بطبيعة تطور الاحداث في سورية وخاصة تطور ردود فعلهاضد

الغرب الاستعماري وضغوطه واحلافه ومشاريعه ، قد ادى الى فشل محاولة القيادات البرجوازية اليمينية والتوفيقية لحزبي «الشعب» و «الوطني» في كبح جماح الاندفاع اليساري عند جماهير حزب «البعث» والتي كانت احد الاهداف الرئيسية لتحالفهما مع قيادته(٢٧) .. ومن الملاحظ ان الحرص على هذا التحالف من قبل قيادة البعث كان السبب الاول لقبولها ببعض التنازلات في مجال النضال الاشتراكي ، اما السبب الثاني فهو حرصها على ارضاء عبد الناصر وقيام الوحدة . مع هذا بقي الاتجاه الجماهيري القومي العربي اليساري البعثي في تصاعد مستمر طوال فترة الاحلاف والمؤامرات الغربية التي سبقت قيام الوحدة السورية ــ المصرية .

ان طبيعة الواقع السياسي والاجتماعي لسورية ولحركتها القومية في هذه الفترة قد ساهمت والى درجة كبيرة في اغناء الفكر القومي العربي اليساري في سورية وجعلته اكثر وضوحا ونضجا منه في المرحلة السابقة . ظهر ذلك واضحا في فكر ومواقف «البعث» بشكل خاص ، فقد توضحت عنده قليلا معالم ارتباط النضال التحرري والنضال الوحدوي والنضال الاشتراكي . وقد تبنى البعث في بداية هذه الفترة مقولة الصراع الطبقي والنضال الاشتراكي على انه نضال الطبقات المستغلة ضد الطبقات المستغلة(٢٨) . لكنه ما لبث ان اهمل التحدث في ذلك في الفترة التي سبقت الوحدة مع مصر(٢٩) وذلك بسبب مواقف قيادته التي ذكرناها . لا شك ان مواقف قيادة البعث هذه كانت تعبيرا عن بداية هيمنة الاتجاه التوفيقي عليها مما يفسر كثيرا من الظاهرات الهامة في تاريخ هذا الحزب وابرزها بداية ظهور عجز قيادته عن مواكبة اندفاع جماهيره القومي اليساري ، وبالتالي ، عن تمثل وتمثيل امالها ومصالحها ،ولم يكن قيامها بحل الحزب في سورية الا تعبيرا ناطقا عن هذا العجز ، فالحرص على الوحدة وقيامها ، والذي هو حجة هذه القيادة في الحل ومسايرة توفيقية عبد الناصر آنذاك، لا يكون الا بالحرص على انجازها بصيغة صحيحة تضمن وجود مضامينها القومية التقدمية الثورية وشروط استمرارها ..

II —هيمنة الاتجاه التوفيقي على الحركة القومية العربية في الفترة الممتدة منذ قبيل قيام الوحدة وحتى قيام ثورة اذار ١٩٦٣ :

بالنسبة للاتجاه التوفيقي في هذه المرحلة ككل كان يمثله في بدايتها حزب الشعب نظرا لتبنيه لقضية تاميم المؤسسات الاجنبية في سورية بعد الاستقلال(٣٠) . اما وقوف « الحزب الوطني » ضد التاميم(٣١) وتحالفه مع الاقطاع وبرجوازية الكومبرادور في بداية هذه المرحلة فقد ابرزته كممثل ، عن جدارة ، للاتجاه اليميني في الحركة. وقد ساهمت التبدلات في موقف حزبي «الشعب» و «الوطني» في الفترة التي سبقت

قيام الوحدة مع مصر ، وخاصة ما تعلق منها بموضوع ارتباط سورية مع الغرب ،في تبادل التمثيل بينهما للاتجاهين التوفيقي واليميني كما قلنا سابقا(٣٢) .

ويمكن اعتبار تنظيم حركة التحرير العربي مثالا اخر للاتجاه التوفيقي في الحركة القومية العربية في سورية في هذه المرحلة (٣٣) ، والذي كان من نمط تنظيمات الاشخاص التي تنتهي بانتهاء رئيسها ، حيث انتهى نشاطه الفعلي بعد سقوط الشيشكلي ، اي الشخصية التي كانت وراء تشكيله وتوجيهه .

اما بالنسبة لحركة « القوميين العرب » فقد كان نشاطها في سورية في بداياته ولم يكن لها ، بعد ، ذلك التواجد السياسي والجماهيري المعتبر . ونجد من الضرورة الاشارة هنا الى ان تخلي هذه « الحركة» عن تبني اسلوب العنف السياسي الى اسلوب النضال الجماهيري من اجل الوصول الى تحقيق اهدافها(٣٤) ، قد عكس احدى الملامح الهامة في تطورها في هذه الفترة ، من جهة ، وفي تطور الاتجاه الشوفيني الذي كانت تمثله داخل الحركة القومية العربيةفي نهاية المرحلة التاريخية السابقةعندما كانت تحت اسم « كتائب الفداء العربي » من جهة اخرى(٣٥) . وان الفكر القومي الاشتراكي الاصلاحي عند « حركة القوميين العرب »(٣٦) كان قريبا جدا من الفكر الناصري(٣٧) حتى يكاد يكون تكرارا لــه .

هذا التقارب الفكري كان انعكاسا لتقارب سياسي بين « حركة القوميين العرب » وبين عبد الناصر بدأ ببداية وجودها ، وتمثل بصلات قادتها الوثيقة معه مما دفعه الى الثقة بتبعيتها الكاملة له ، ودفعه ، بالتالي ، الى دعمها اكثر فأكثر للاستفادة من تواجدها في سورية ومن تواجد فروع تنظيمها القومي في بعض الاقطار الاخرى ، كالاردن والعراق ولبنان ، لا شك ان تنظيم حركة القوميين العرب في سورية قدساهم في توجيه المشاعر القومية المتاججة نحو الوحدة مع مصر ولصالح زعامة عبد الناصر للامة العربية في الفترة التي سبقت قيام الوحدة(٣٨) .وكان من الطبيعي بعد تحقيق الوحدة واعلان قيام الجمهورية العربية المتحدة واستلامعبد الناصر لرئاستها انيستمر في دعم حركة القوميين العرب سواء داخل الاقليم الشمالي ، اي سورية ، ام خارجه، وخاصة بعد تبنيها للناصرية وبعد عزمه على طرح تنظيمها القومي كبديل لتنظيم « البعث » ، مما يفسر تساهل نظام عبد الناصر ازاء نشاطها السري بعد قيامها بحل نفسها علنا ، واستمراره في تقريب قيادتها اليه، وابعاد العناصر البعثية عن مؤسسات الحكم وملاحقتها(٣٩) .

وانطلاقا من ايمان عبد الناصر آنذاك بمقولة الوحدة الوطنية بمفهومها البرجوازي القائم على أساس تعايش الطبقات ، قام بتشكيل الاتحاد القومي على ان يكون «اطارا

من الوحدة الوطنية يجمع الجميع »(٤٠) في تنظيم سياسي هدفه العمل على تحقيق اهداف الثورة وحمايتها(٤١) . خرج هذا التنظيم جامعا لجميع التصادمات ولجميع التناقضات على حد قول عبد الناصر نفسه(٤٢) ، فضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية ،ولكنه كان في غالبيته من العناصر القومية التوفيقية من صفوف حركة القوميين العرب وبقية الناصريين . اما قيادته فقد سيطرت عليها العناصر الرجعية اليمينية المستغلة الانتهازية(٤٣) . وباختصار فقد كان الاتحاد القومي تنظيما متناقضا اكثر منه تنظيما شعبيا عقائديا ثوريا(٤٤) . وكان هذا التنظيم بالنسبة للحكم الناصري كما كان تنظيم حركة التحرير العربي ، بالنسبة لحكم الشيشكلي ، اداة طوع امره يحركها كما يريد ومتى شاء وهذا النوع من التنظيم غير قادر على استقطاب الجماهير والدفاع عن الحكم بشكل فعال لان هذا الدفاع يتطلب تنظيما سياسيا جماهيريا صحيحا، فكان كلا التنظيمين المذكورين مفتقدا الكثير من مواصفاته الاساسية .

ادرك عبد الناصر هذا الحال بالنسبة للاتحاد القومي وادرك ان الاساس الذي بني عليه لم يكن بالاساس السليم ، فهو « شيء ضد العقل وضد الطبيعة »(٤٥). لكن ادراك عبد الناصر اتى بعد سقوط دولة الوحدة . لقد تاخر ، ولكنه اتى .

ان غياب التنظيم السياسي الجماهيري الصحيح كان من أهم الاسباب في نجاح حركة الانفصال والقضاء على الوحدة السورية ــ المصرية . لقد اراد عبد الناصر ان يكون الكل في واحد(٤٦) ، والحلقات التي تشكلت حوله وكل منها يدعي انه يمثل تيارا وطنيا شجعته على ذلك وهي التي احاطت به وعزلته عن الجماهير وحالت دون وجود تنظيمها السياسي الحقيقي(٤٧) .. وكما ادرك عبد الناصر متأخرا اهمية هذا التنظيم ادرك ، متأخرا ايضا ، الموقع الصحيح للبرجوازية ولتحالف الاقطاع وراس المال الذي يستطيع ، كما يقول في احدى خطبه : « ان يشكل نفسه وفقا للحاضر .. ووفقا للموقف »(٤٨) .

ان عدم ادراك عبد الناصر ، في بداية هذه المرحلة وحتى تموز ١٩٦١ ، لموقع البرجوازية الكبيرة هذا قاده الى التحالف معها ، سواء في سورية او في مصر ، وتصور انه قادر على جرها للمساهمة فيعملية التنمية وفي عملية التصنيع بالذات ، فكانت هذه البرجوازية هي الطرف الوحيد المستفيد من هذا التحالف مستخدمة اياهلتوظيف الدولة في خدمة مصالحها بالذات وتنمية راس مالها الخاص وذلك من خلال عملية تخريب مخططة للاقتصاد الوطني .. ادرك عبد الناصر نتيجة لذلك خطأ تصوره « فالبرجوازية تؤيد الثورة المجيدة بالكلام وتتصرف معها عمليا ضد الخط العام للحكومة المرتبط بالتصنيع »(٤٩) . لقد وضع موقف البرجوازية هذا عبد الناصر امام

الاختيار بين مواصلة الثورة او الاستسلام لراس المال الوطني واختار مواصلة الثورة فكانت قراراته الاشتراكية في تموز ١٩٦١ بتاميم ممتلكات هذه البرجوازية وضرب مواقعها الاقتصادية تعبيرا عن هذا الاختيار.

ولكن عبد الناصر ضرب مواقع البرجوازية الاقتصادية غافلا عن مواقعها السياسية القوية ، وتواجدها ونفوذها الواسع وخاصة في صفوف الجيش ، بالنسبة لسورية، وذلك بعد قيام حكمه بضرب القوى اليسارية فيه ، البعثية وغيرها ، بحيث تحول الى قوة ضارية لصالح هذه البرجوازية ولصالح تحالفها مع الاقطاع الذي وطدت تعاونها وصعدت نشاطها معه من اجل ضرب دولة الوحدة وانهائها .

من اهم الاسباب التي كانت وراء فشل هذه الوحدة ايضا سياسة الحكم الناصري التوفيقية سواء على المستوى العربي او على المستوى الخارجي بحيث لم يتخذ صديقا بدافع مقابل عدو يخطط ويتآمر . ولا شك بدور هذا العدو ، اي تحالف الرجعية العربية والاستعمار والصهيونية ، في دعم حركة الانفصال والتخطيط لها .

ومن الاسباب الاخرى لفشل وحدة ١٩٥٨ ايضا ممارسة الحكم الناصري للاسلوب البوليسي والبيروقراطي ، خاصة في سورية(٥٠) . الى جانب السبب الاساسي وهو ضرب الاتجاه اليساري القومي كما بينا ، الذي كان من شأنه الدفاع الفعلي عنها ، خاصة وقد كان له الدور الاكبر في صنعها . وهكذا انتهت وحدة ١٩٥٨ بعد ان تركت آثارها الهامة على الحركة القومية العربية في سورية والتي كان من ابرزها تصاعد الاتجاه التوفيقي فيها مقابل تراجع الاتجاهين اليساري واليميني.

الممثل الاساسي للاتجاه القومي التوفيقي المتصاعد كان الناصرية . وعلينا ان نذكر هنا باننا نتناولها في مرحلة تحالفها مع البرجوازية الكبيرة ، اي قبل قرارات تموز ١٩٦١ الاشتراكية التي كانت نقطة انعطاف كبيرة في تاريخها نحو الاتجاه اليساري وادت الى تغير البنية الاجتماعية والفكرية لها نتيجة لاخراج البرجوازية الكبيرة من صفوفها . اما قبل هذه القرارات فقد كانت الناصرية تضم مختلف الانتماءات الطبقية والسياسية والفكرية ولو انه كان يغلب عليها طابع البرجوازية الصغيرة ، سواء داخل تنظيميها ، حركة القوميين العرب والاتحاد القومي ، أم خارجهما . وطبيعة بنيتها الاجتماعية هذه تفسر تعايش اليمين واليسار فيها وتارجحها بينهما وتفسر غلبة الفكر والموقف التوفيقي عليها . تجلى ذلك في تبنيها ، بشكل رئيسي ، لمقولة الوحدة الوطنية بمفهوم التعايش الطبقي وتبنيها لوحدة الصف العربي وللجامعة العربية وفي نظرتها الى الوحدة العربية وقضية فلسطين ، حيث كانت عاجزة عن رؤية قضيتي

النضال الوحدوي والنضال من اجل تحرير فلسطين في سياقهما التاريخي الصحيح وبمضامينهما الاجتماعية التقدمية . فقد عالجت حركة القوميين العرب قضية فلسطين ، مثلا ، كقضية مستقلة ومنفصلة عن مجمل قضايا التحرر العربي على كل المستويات الخارجية والداخلية(٥١) . ومقابل تبني الناصرية للجامعة العربية ولمقولة وحدة الصف العربي ، تبنى « البعث » مقولة وحدة النضال العربي ودعا الى لقاء الحركات الوطنية الثورية في مختلف الاقطار العربية والى تشكيل مجلس نضال عربي كبديل عن الجامعة العربية(٥٢) .

الاتجاه التوفيقي ، اذا ، كان هو الاتجاه الغالب في الناصرية وفي تنظيمها : « حركة القوميين العرب » و « الاتحاد القومي » في هذه الفترة التي سبقت قرارات تموز ١٩٦١ . وباعتبار ان هذين التنظيمين كانا التنظيمين القوميين الوحيدين اللذين كانا يمارسان نشاطهما في سورية في فترة الحكم الناصري لها ، نظرا لحل التنظيمات الاخرى ، فقد استطاعا استقطاب كثير من الجماهير الوحدوية اليهما وخاصة من صفوف البرجوازية الصغيرة ممن استهواها الفكر الناصري التوفيقي . هذا مما ساهم ، الى جانب السياسة الاعلامية المركزة ، في غلبة الاتجاه التوفيقي الناصري على الحركة القومية العربية في سورية في ظل دولة الوحدة ولكن هذا الاتجاه بدأ بالتراجع نحو الاتجاه القومي اليساري في الفترة التي تلت قرارات تموز ١٩٦١ كما قلنا سابقا .

نهاية التحالف ونهاية المرحلة :

كان للحركة القومية العربية ولسورية في ظل هيمنة تحالف القوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبفضل الاتجاه الجماهيري القومي اليساري بالدرجة الاولى، كثير من الانجازات القومية الهامة في هذه المرحلة ، وخاصة من حيث التصدي بنجاح لـ « الغرب » ومشاريعه واحلافه وضغوطه ومن حيث المساهمة من خلال تنظيم « التجمع القومي » ، الذي كان شكلا من أشكال هيمنة هذا التحالف على الحكم في سورية ، في انجاز مشروع الدفاع العربي المشترك والتعاون الاقتصادي ومشروع الوحدة الاقتصادية العربية . اما اهم فعل قومي فقد كان انجاز وحدة سورية مع مصر في عام ١٩٥٨ ، بغض النظر عن الصيغة الخاطئة التي تمت بها .

في فترة دولة الوحدة هذه وفي ظل الحكم الناصري لها ، وبزوال الخطرين الاساسيين اللذين كانا وراء التحالف المذكور ، خطر وقوع سورية في دائرة نفوذ الغرب واحلافه «بالنسبة» للقوى اليسارية ، وخطر سيطرة الاتجاه الاشتراكي القومي

اليساري فيها بالنسبة للقوى اليمينية ، بدات التناقضات الداخلية في التحالف بالظهور على السطح ، وتجلت بمحاولة كل طرف من اطرافه اثارة عبد الناصر وادارته ضد الطرف الاخر بهدف كسب ثقته واقناعه بان يكون هو وحده اداته في حكم سورية. ولا شك ان الطرف الذي نال ثقة ودعم عبد الناصر في البداية كان ، كما رأينا سابقا، طرف البرجوازية السورية التي استمرت في ركوب الموجة القومية بعد حل تنظيميها السياسيين ، الحزب الوطني وحزب الشعب ، في بداية الحكم الناصري لسورية، متقنعة بلباس الناصرية نفسها . لقد رات هذه البرجوازية في المواقف التوفيقية للناصرية وخاصة ما تعلق منها بمقولة السلم الطبقي والوحدة الوطنية ضمانة تستطيع ان تعتمد عليها في جرها لخدمة مصالحها ونفوذها وتعزيز مواقعها السياسية . هذا يفسر تسللها في بداية فترة الحكم الناصري الى صفوف الناصرية وصفوف تنظيميها، ولا شك بمطامح البرجوازية السورية في استخدام هذا التسلل كوسيلة لتسلل اكثر اهمية ، الى الحكم والسلطة ، فلقد كانت تدرك مدى دعم الحكم الناصري لهذين التنظيمين ، وبنت على هذا الدعم والتصور امالا كبيرة سرعان ما خابت .

هذه الخيبة اتت بعد اصدار الحكم الناصري لقرارات التاميم الاشتراكية في تموز ١٩٦١ ، وبعد ما لحقها من تاييد واسع من قبل التنظيمين الناصريين المذكورين . ان هذه القرارات التي وجهت ضربة كبيرة الى البرجوازية السورية الوطنية من خلال ضرب مواقعها الاقتصادية(٥٣) قد وضعت حدا لاي امل لها في امكانية تحول الناصرية في سورية لخدمة مصالحها فكان قرارها بالخروج منها ومن تنظيميها ومعاداتها والعمل على انهاء وجود حكمها في سورية .. ما تقدم يفسر توجه البرجوازية الوطنية السورية الى تحالفها مع الاقطاع الذي كان ناقما على الحكم الناصري منذ قيامه باصدار قانون الاصلاح الزراعي في السنة الاولى من حكمه، وذلك لتصعد نشاطها وتامرها معه للتخلص من هذا الحكم (٥٤) وكان ان نجحت في ذلك في ايلول ١٩٦١ .

خروج البرجوازية السورية الوطنية من الناصرية الحاكمة قد عنى ، من جملة ما عنى ، خروجها من التحالف المهيمن عليها ، تحالف قوى البرجوازية الوطنية والصغيرة ، وبالتالي ، بداية النهاية بالنسبة لهذا التحالف ، اما تامرها مع الاقطاع وقوى الرجعية العربية والمحلية عموما ضد حكم الوحدة ولصالح الانفصال فقد وضعها نهائيا في صف هذه القوى الانفصالية المعادية للحركة القومية العربية وللثورة العربية الوحدوية الاشتراكية الحضارية . وكانت ثورة اذار ١٩٦٣ الحدث التاريخي الهام الذي وضع ، في آن واحد ، نهاية مرحلة هيمنة التحالف المذكور على الواقع الاجتماعي والسياسي في سورية وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة التي نعيشها ، مرحلة هيمنة تحالف « الطبقات والفئات الكادحة » حسب تعبير «البعث» وتحالف « قوى الشعب العاملة » حسب تعبير الناصرية .

الحواشي :

(١) انظر الاية ٤٦ من سورة العنكبوت « وقولوا آمنا بالذي انزل الينا وانزل اليكم والهنا والهكم واحد ونحن له مسلمون » وانظر الاية ١٣٦ من سورة البقرة « قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل الى ابراهيم واسمعيل واسحق ويعقوب والاسباط وما اوتي من موسى وعيسى وما اوتي النبيون من ربهم لانفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

(٢) في الفترة الممتدة ما بين اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تمكن الاستعمار الغربي من السيطرة على غالبية مناطق الوطن العربي المنضوية تحت راية الرابطة العثمانية الاسلامية في الجزيرة العربية ومصر والمغرب العربي، حيث استطاعت انكلترا فرض سيطرتها ، باشكال مختلفة، على شواطىء الجزيرة العربية من عدن الى حضرموت والشواطىء الجنوبية الشرقية وعمان والبحرين والكويت ، واحتلت مصر في عام ١٨٨٢ . اما فرنسا فقد احتلت الجزائر في عام ١٨٣٠ وتونس في عام ١٨٨١ ومراكش في عام ١٩١١ ، واحتلت ايطاليا ليبيا (طرابلس الغرب) في عام ١٩١٢. ولم يكن الوجود العثماني التركي في الوطن العربي الا عاملا مساعدا على نجاح السيطرة الاستعمارية الغربية هذه .

اما بالنسبة للصهيونية فقد تحالفت معها سلطات الاحتلال التركي ممثلة بالسلطان عبدالحميد الذي حكم مابين ١٨٧٦و١٩٠٩، وذلك على عكس ما اعلنه اعلام هذه السلطات . ان الصهيونية بدات بانشاء مستعمرات في فلسطين في عهده في عام ١٨٨٢ واستمرت بذلك منذ ذلك الحين . هذا وان جميع مستعمراتها الرئيسية قد اقامتها في فترة حكمه بالتحديد ، والسلطان عبد الحميد هو الذي قدم النيشان المجيدي للسلطنة الى زعيم الصهيونية هرتزل في عام ١٩٠١ .ونذكر ، على سبيل المثال وليس الحصر ، بان منظمة الاستعمار اليهودي في فلسطين التي انشاها المليونير اليهودي روتشيلد في عام ١٨٨٢ قد انشات لوحدها ما بين هذا العام وعام ١٩٠٠ (٤٢) مستعمرة في فلسطين ، وفي عام ١٩٠١ عقد ، ولاول مرة في فلسطين ، جتماع المؤتمر الصهيوني العالمي ، وفي نفس العام انشىء في فلسطين الصندوق القومي اليهودي، ثم وفي عام ١٩٠٢ انشىء بنك انجلو فلسطين الذي سيطر على اقتصاديات العرب . وفي عام ١٩٠٧ انشئت مستعمرة تل ابيب ..الخ. (انظر عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ ص ٩٨٠ ـ ٩٩٣) .

وهكذا فان المرحلة الاساسية من الوجود الصهيوني في فلسطين قد تمت في عهد السلطان عبدالحميد وبمباركة السلطات التركية كما تذكر كثير من المصادر وكما يؤكد الواقع التاريخي الفعلي بكل بساطة ووضوح .

(٣) من خطاب فيصل في حلب في ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ ، انظر : ساطع الحصري ،يوم ميسلون ، الطبعة الثالثة ، دار الاتحاد ، بيروت ، بلا تاريخ ، ص٢١٤.

(٤) علي محمود العمر ، حركة التحرر العربية الى أين ؟ الطبعة الاولى ، دار المسيرة ، بيروت، ١٩٧٩ ، ص٥٥ـ٨٩ .

(٤) مكرر ـ انظر الى الامام ،ص٥ .

(٥) راجع : ف.ب.فيكتوروف ، اقتصاد سورية الحديثة ، اكاديمية العلوم ، موسكو ، ترجمة هشام الدجاني ، دار البعث ، دمشق ، ١٩٧٠، ص١٦.

(٦) انظر ذوقان قرقوط ، تطور الحركة الوطنية في سورية ، ١٩٢٠ - ١٩٣٩ ، دار الطليعة ،بيروت، ١٩٧٥ ، ص ٤٣-٤٤ .

(٧) لم تكون في سورية في الفترة الممتدة ما بين عامي ١٩٢٨ - ١٩٤٥ سوى سبع شركات صناعية مساهمة برؤوس اموال مقدارها ٣ر١٩ مليون ل.س واهمها : معمل الكونسروة والاسمنت في دمشق ومعمل الغزل والنسيج في حلب . ولقد رفضت السلطات الفرنسية في عام ١٩٢٩ ، مثلا ، فكرة اقامة مصرف صناعي سوري برأسمال قدره ٥٠٠ الف ل.س فقط ليقدم المساعدة الممكنة للمؤسسات الصناعية . انظر فيكتوروف ، المصدر السابق ، ص١٧ .

(٨) نفس المصدر ، ص١٨-٢٠ .

(٩) نفس المصدر ، ص٢٠ ، وانظر صلاح وزان ، من التخلف الى التطور الاشتراكي في القطاع الزراعي، دمشق ، ١٩٦٧ ،ص٤٠ .

(١٠) محمد الزعبي ، مواقف حزب البعث العربي الاشتراكي من مسالة الصراع الطبقي ، دمشق، ١٩٧٣ ،ص ٢٨.

(١١) انظر :

Samir Amin, La Nation Arabe, ed. de Minuit, Paris 1976, p.39.

(١٢) Ibid, p. 63.

(١٣) Ibid, p.54 .

(١٤) جورج انطونيوس ، يقظة العرب ، لندن ، ترجمة م. اسد و م.عباس ، الطبعة الثالثة ، دار العلم للملايين ، بيروت، ١٩٦٩ ، ص ٤٩٦-٤٩٩ .

(١٥) انقسم كل من هذين الحزبين الى جناحين : احدهما ينادي بالوحدة مع العراق والثاني ضدها ويميل الى التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع بعض زعماء الحزبين ومنهم عبد الوهاب حومد في ١٩٧٧/٢/٥ ورشاد برمدا في ١٩٧٦/٦/٣ وعلي بوظو في١٩٧٦/٤/٢٦).

(١٦) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح الوحدة مع العراق (مقابلة مع برمدا في١٩٧٦/٦/٣).

(١٧) كانت الغالبية في الحزب تميل الى جناح التعاون مع المحور السعودي - المصري (مقابلة مع نصوح بابيل في ١٩٧٧/٢/٣ .

(١٨) راجع : نضال البعث ، الجزء الثاني ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٣ ، ص ٥٨-٥٩و ص١٧١-١٧٢.

(١٩) راجع : باتريك سيل ، الصراع على سورية ، لندن ، ١٩٦٥ ، ترجمة سمير عبدو ومحمود فلاحة، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٨،ص ٢٨٠ وما يتبع .

(٢٠) المصدر نفسه .

(٢١) مقابلة مع عبد الحليم قدور (من مؤسسي الحزب العربي الاشتراكي) ، في ١٩٧٧/٢/١٤ .ومقابلة مع جلال فاروق الريف (من البعثيين القدامى) في ١٩٧٦/١/٢٨.

(٢٢) حول اسباب مساهمة البرجوازية السورية في صنع الوحدة انظر : محمد عبد المولى ، الانهيار الكبير : الطبعة الثانية ، دار المسيرة ،بيروت ،١٩٧٩ ، ص ٢٦٠-٢٦٧ وانظر عبد الله الامام ، الناصرية دراسة بالوثائق في الفكر الناصري ، منشورات الوطن العربي ، بدون مكان او تاريخ، ص ٢٢١ .

(٢٣) انظر : سيل ، المصدر السابق ، ص٢٧٣-٤٠٠.

(٢٤) كبيرة اذا ما قورنت ببقية الفئات البرجوازية الاخرى الموجودة في المجتمع السوري ليس الا .

(٢٥) انظر :

Maurice Duverger . Les Partis politiques, 5 em . ed.,A. Colin, Paris 1969, p. 84-101 .

(٢٦) المصدر نفسه .

(٢٧) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في ١٩٧٦/١/٢٨.

(٢٨) انظر جريدة البعث ، عدد ٥٦١ ، ايار ١٩٥٤ ، في : نضال البعث، الجزء الثاني، دار الطليعة، بيروت ، ١٩٦٣ ،ص٢٥٠-٢٥٣ وانظر ص ٢٧٠-٢٧٣ .

(٢٩) قارن بين بيانات الحزب ومنشوراته في هذه الفترة وبينها في الفترة السابقة القريبة وذلك في الجزء الثاني والثالث من نضال البعث ، دار الطليعة ، بيروت ، ١٩٦٣-١٩٦٤ .

(٣٠) ان حكومة ناظم القدسي، المؤلفة بغالبيتها الساحقة من حزب الشعب ، هي التي اصدرت في ٣١ كانون الثاني ١٩٥١ قرارات تاميم شركات الكهرباء في سورية ، واصدرت في ١٧ اذار من نفس العام قرار تاميم ادارة حصر التبغ والتنباك .

(٣١) لقد اعتبرها : مغامرة خطيرة ستؤدي الى هروب رؤوس الاموال الاجنبية وعدم دخولها لسورية بعد اليوم (انظر القبس، الاعداد : ٤٢٥٢ تاريخ ١٩٥١/١/٤ وعدد ٤٢٦٣ تاريخ ١٩٥١/١/١٩ وعدد ٤٢٧٢ تاريخ ١٩٥١/٢/١ وعدد ٤٢٩١ تاريخ ١٩٥١/٢/٢٧ .

(٣٢) للاطلاع على مبادىء هذين الحزبين الرئيسية راجع كتاب بعنوان : الاحزاب السورية ،دار الرواد، دمشق ،١٩٥٤، ص ١٥٧ -١٧٠ وراجع : الحزب الوطني ، الميثاق ، حلب ،بدون تاريخ.

(٣٣) للاطلاع على مبادىء هذا التنظيم السياسية انظر دستوره في كتاب : الاحزاب السورية ،المعطيات السابقة ، ص ٢١٤-٢٢١.

(٣٤) مقابلة مع جهاد ضاحي (من قياديي « كتائب الفداء العربي») ومع سامي ضاحي (من ابرز قياديي « حركة القوميين العرب ») ، في ١٩٧٦/٤/٢٤ .

(٣٥) مقابلة مع جهاد ضاحي في ١٩٧٦/٤/٢٤.

(٣٦) للاطلاع على فكر الحركة في ذلك الحين انظر : حكم دروزة وحامد الجبوري ، مع القومية العربية، الطبعة الرابعة ، دار الفجر الجديد ، بيروت ١٩٦٠ .

(٣٧) كتب الكثير في الفكر الناصري ، ومن الممكن اخذ فكرة واضحة عنه تماما من المصادر الاتية :عبد الله الامـام ، المصدر السابق مارلين نصـر ، التطور القـومي العربي في فكر جمال عبد الناصـر (١٩٥٢ – ١٩٧٠) ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ . و :

Paul Balta et Claudine Rulleau , La Vision nassérienne , Sindbad ; Paris 1982.

(٣٨) مقابلة مع جلال فاروق الشريف في١٩٧٦/١/٢٨ .

(٣٩) المصدر نفسه ، وحول ابعاد ناصر للبعثيين انظر نشرة قيادة « البعث » القومية السرية في اذار ١٩٦٠ في نضال البعث ، الجزء الرابع ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٤ ، ص١٢١–١٧٩ وانظر ،عوني فرسخ ، الوحدة في التجربة ، دار المسيرة ، بيروت ١٩٨٠ ص ٢٨٤–٢٩٩ .

(٤٠) عبد الله امام ،المصدر السابق ص ٣٠٢ .

(٤١) المصدر نفسه ، ص ٣٠٢ .

(٤٢) المصدر نفسه ، ص٣٠٢.

(٤٣) المصدر نفسه ،ص ٣٠٢ .

(٤٤) محسن ابراهيم ، في الديمقراطية والثورة والتنظيم الشعبي ، من منشورات « حركة القوميين العرب »، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٢٨–١٢٩ وص ٢١٤–٢١٧ .

(٤٥) من خطاب عبد الناصر في عيد السد العالي في يناير ١٩٦٣ « شيء ضد العقل وضد الطبيعة ، واحنا كنا طيبين جدا ، عايزين نلم الاقطاعي اللي خدنا منه الف فدان مع الفلاح اللي وزعنا عليه خمسة افدنة » . انظر : عبد الله الامام ، المصدر السابق ص٣٠٨–٣٠٩.

(٤٦) سعد التائه ، مصر بين عهدين ، دار النضال بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ٩٧.

(٤٧) المصدر نفسه .

(٤٨) من احدى خطب عبد الناصر ، امام ، المصدر السابق ،ص٣٢٠ .

(٤٩) ايغور بيليايف وافغيني بريماكوف ، مصر في عهد عبد الناصر ، تعريب عبد الرحمن الخميسي، دار الطليعة ، بيروت ،١٩٧٥، ص ١٣٠ .

(٥٠) انظر : احمد عبد الكريم ، اضواء على تجربة الوحدة ، مكتبة اطلس ، دمشق ، ١٩٦٢ ،وانظر

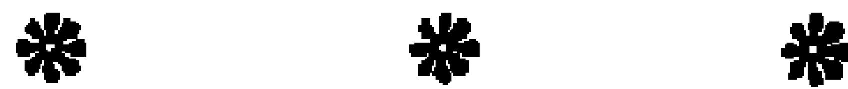
فرسخ ، المصدر السابق ،ص ٣٠١ ، ٣١٠ ، وص ٣٨١-٣٨٨ ، وانظر : مجموعة مؤلفين ،سورية محطمة الاستعمار والصهيونية ، دارالاستقلال ، دمشق ،١٩٦٢.

(٥١) انظر دروزة وجبري، المصدر السابق ، ص١٧٨ ومايتبع .

(٥٢) انظر ، على سبيل المثال ، بيان البعث بعد مؤتمره القومي الثالث ، بتاريخ ١٩٥٩/١٠/١٠ في جريدة الصحافة عدد ٢٨٣ ، في : نضال البعث ، الجزء الرابع ، نفس المعطيات السابقة . ص٩٢-١١٢- وانظر المصدر نفسه ،ص١٥٩(وهو قسم من بيان القيادة القومية للبعث في اذار ١٩٦٠).

(٥٣) انظر محمد عبد المولى ، المصدر السابق ، ص٤٥٠-٤٧٧ .

(٥٤) المصدر نفسه ص ٤٦٢-٤٧٠ .



مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية

(١٥٣٥ و ١٢٩٠)

د. محمد رجائي ريان

جامعة اليرموك

مقدمة : في عام ١٨٦٠ حدث تدخل عسكري فرنسي في سورية (١) ، وهذا التدخل احاطت به ظروف دولية وحسابات استراتيجية ، وكان للدوافع الاقتصادية دور مهم فيه(٢) .

وحدث بعد ذلك تدخل اخر في عام ١٩١٩ ، يسمى تاريخيا بالتدخل «الثاني»، وهو التدخل الذي اعقبه مباشرة القضاء على الدولة العربية الناشئة في دمشق في شهر تموز (يوليو) ١٩٢٠، واحتلال سورية ، وفرض الانتداب الفرنسي عليها واقراره من قبل عصبة الامم في ١٩٢٢(٣) . وكان لهذا التدخل ايضا ظروفه الدولية وحساباته الاستراتيجية والدبلوماسية المعلنة والمستترة . ولكن هل كان لفرنسا مصالح اقتصادية ادت الى هذا التدخل العسكري الفرنسي ؟.

في هذه الورقة ستكون الاجابة على هذا السؤال هي العنصر الرئيسي ، ولا يمكن ان نصل الى هذه الاجابة ، الا اذا تعرضنا الى الجذور التاريخية لتلك المصالح الاقتصادية ، وهذا يحتم علينا الخوض في الامور التالية :

١ ـ المصالح الاقتصادية الفرنسية من خلال الامتيازات في الدولة العثمانية .

٢ ـ التنافس الاقتصادي الفرنسي ـ الانجليزي ، والتنافس الفرنسي ـ الالماني في الامبراطورية العثمانية ، واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

٢٧ و ٢٨ ـ ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧ .

٣ ـ الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية والاستثمارات والديون .

٤ ـ طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى .

وفي هذه المقدمة يجدر بنا ان نشير ان تركيز فرنسا من الناحية الاقتصادية في البداية كان على العلاقات التجارية بالذات ، وهي علاقات تعود الى العصور الوسطى وتوسعت في العصور الحديثة(٤) .

والحقيقة فان العلاقات الاقتصادية التجارية الفرنسية مع الشرق هي جزء من علاقات التبادل بين العالمين الغربي والاسلامي ، وتعود الى حقبة بعيدة في التاريخ كانت المرحلة الصليبية احدى حلقاتها . واستمرت هذه العلاقات وتأكدت لدرجة انه في القرن الثالث عشر التقى العالمان في اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها .

لكن حقيقة هذا الواقع لم تدم طويلا ، فمنذ القرن الخامس عشر ادى اكتشاف البرتغاليين طريق الهند الى انتزاع المبادرة من يد اصحاب القوافل والملاحين العرب الذين كانوا يقومون بالدور الاول في تجارة الترانزيت ، لذلك لم تستمر اشكال النشاط الاقتصادي والانتاج ذاتها خلال كل مراحل التبادل بين العالمين ، فمنذ الفتح العثماني الذي ترادف زمنا مع الصعود الاوروبي والتراجع في الدور الاقتصادي العربي ، انكفأ النشاط الاقتصادي في البلاد الاسلامية على نفسه ليصبح نشاطا داخليا لعالم وضعه تطور التجارة العالمية على الهامش ، وهذه الهامشية في علاقات التبادل العالمية كانت المدخل لتغلغل رأسمالي اوروبي ، ادى الى قلب ميزان التبادل لصالح الغرب(٥) .

كذلك يجدر بنا ان نشير ايضا ، انه في مطلع القرن السادس عشر ، اصبحت سورية عدة ولايات في كيان سياسي كبير هو الامبراطورية العثمانية ، ولم تشكل وحدة ادارية ضمن ولاية عثمانية واحدة(٦) ، وتأثرت بالاتجاهات الاقتصادية التي بدات تواجهها الدولة العثمانية مع الدول الاوروبية ذات الانظمة الرأسمالية بشكل عام ومع فرنسا بشكل خاص ، اذ اخذت هذه الدول وعلى رأسها فرنسا تتجه بانظارها نحو الدولة العثمانية لربطها بعجلة الرأسمالية الاوروبية ، وللحصول على المواد الاولية لتسيير ماكينة صناعة الغرب ومن ثم لتسويق بضائعها . فهيمن التجار الاوروبيون داخل الامبراطورية العثمانية هيمنة كاملة على عمليات التبادل ، وكان لفرنسا دور بارز في هذا المضمار ، وكانت سورية نقطة بارزة فيه .

مصالح فرنسا الاقتصادية من خلال الامتيازات :

بدات التوجهات الاقتصادية الاوروبية وخاصة التجارية نحو الدولة العثمانية عن طريق ما سمي بالامتيازات (Capitulation)(٧)، التي بدا عن طريقها التدخل الاقتصادي المنظم ، ويرجعها البعض الى القرن الثاني عشر الميلادي(٨) ، وقد منحت امتيازات تجارية لتجار المدن الايطالية في القرن الخامس عشر ، وخاصة البندقية(٩)، ولكنها لم تكن باتفاقية ، لان اول اتفاقية عقدت بين الطرفين كانت في كانون الاول (ديسمبر) ١٥٢١ ، صيغت فيها الامتيازات التجارية السابقة التي اعطيت للتجار البنادقة(١٠) ، خاصة فيما يتعلق باعفائهم من الرسوم الجمركية وغيرها من العوائد، بالاضافة الى حرية التجارة(١١) . ولكن ، ومع مرور الايام ، اخذت المكانة الاولى في التجارة مع الامبراطورية العثمانية تنتقل الى فرنسا التي منحت الامتيازات في اتفاقية الصداقة والتجارة التي عقدت في شباط (فبراير) ١٥٣٥(١٢) ، وعلى اساس التحالف بين فرنسوا الاول الفرنسي (١٤٩٤ ــ ١٥٤٧) وسليمان الاول القانوني العثماني (١٥٢٠ ــ ١٥٦٦) ضد امبراطورية الهابسبرج ممثلة بامبراطورها شارل الخامس(١٣).

لقد حصل الفرنسيون على الامتيازات ، وخاصة الاقتصادية ، في ظل ظروف هيات لعقد هذا الاتفاق الشهير .. ذلك ان عهد سليمان الاول تميز بعلامات هامة في علاقات الدولة العثمانية الدولية ، فقد بدأ الصراع العثماني مع دولتين كبيرتين ، امبراطورية الهابسبرج في الجانب الاوروبي ، والدولة الصفوية الاسيوية في المجال الاسيوي . ومن ناحية اخرى تميز هذا العهد بالتحالف بين الدولة العثمانية وفرنسا، وكان ذلك نتيجة طبيعية للعداء التقليدي بين فرنسا وامبراطورية الهابسبرج، وكانت الدولة العثمانية تشتبك في صراع مع اسبانيا للسيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط وشمال افريقيا (١٤) .

ضمنت هذه الامتيازات في ستة عشر بندا ، نصت في جملتها على « انه يجوز لرعايا الطرفين المتعاقدين او تابعيهم السفر بحرا بمراكب مسلحة او غير مسلحة والتجول في بلاد الطرف الاخر والمجيء اليها والاقامة بها او الرجوع الى الثغور والمدن أو غيرها بقصد الاتجار على حسب رغبتهم بكامل الحرية بدون ان يحصل لهم ادنى تعد عليهم او على متاجرهم ، ويجوزلرعايا وتابعي الطرفين البيع والشراء والمبادلة في كافة السلع مع دفع الفوائد والضرائب المعتادة قديما » وجاء فيها ايضا « انه لا يجوزمحاكمة التجار الفرنسيين فيمايختص بالمسائل الدينية امام القاضي العثماني ، بل تكون محاكمتهم امام الباب العالي ويكون مصرحا لهم باتباع شعائر دينهم ، ولا يجوز لستخدام التجار الفرنساويين او سفنهم جبرا عنهم في خدمة جلالة السلطان الاعظم أو غيره في البر والبحر ما لم يكن ذلك بطوعهم واختيارهم »(١٥) .

وترجع أهمية هذه الاتفاقية الى انها اعتبرت المنظمة لحياة الرعايا الفرنسيين التجار واقامتهم في اقاليم الدولة العثمانية ، وتمتعت فرنسا في ظلها ، من الناحيتين القانونية والعملية ، بمركز مرموق ومتفوق في ولايات الدولة وكانت الاساس في التعاون الواسع مع فرنسا ، والذي استمر لثلاثة قرون(١٦) . وبعد عقد هذه الاتفاقية تدفق التجار الفرنسيون الى بلاد الشرق الادنى عن طريق غرفة التجارة بمرسيليا التي كانت تتركز فيها تجارة الشرق (١٧) .

بقيت هذه المعاهدة حجر الزاوية في سياسة فرنسا الاقتصادية نحو الامبراطورية العثمانية ، وبقيت بنودها المتضمنة للامتيازات الاقتصادية الطريق الذي سلكته لجني الفوائد الاقتصادية . وقامت فرنسا بعد ذلك بتعزيز وتأكيد امتيازاتها بعدة اتفاقيات لاحقة جديدة ، الا ان جذورها كانت مستمدة من الاتفاقية الاولى ، التي نص بندها الاول ان مفعولها يستمر في حياة المتعاقدين عليها(١٨) ، وهذا تقليد سارت عليه معظم تلك الاتفاقيات .

ففي اول شباط (فبراير) ١٥٥٣ ابرمت بين السلطان سليمان الاول القانوني وهنري دي فالوا الفرنسي ، معاهدة من تسعة بنود تتعلق في معظمها بالحرب البحرية (٢٠) ، وفي عام ١٥٦٩ واثر وفاة سليمان القانوني ، ومن اجل استمرار فعالية الصداقة الفرنسية العثمانية التي وضعت في عهده ، كان من الضروري لصعود سليم الثاني الى العرش عقد هذه الاتفاقية(٢١) ، وقد اعطت الحرية الكاملة لابحار السفن الفرنسية في المياه العثمانية والموانىء التابعة لها ، وحتى تحصل المراكب الاوروبية الاخرى على الامتيازات التي اعطيت للسفن الفرنسية كان عليها رفع العلم الفرنسي، عدا مراكب جنوه والبندقية التي تمتعت بمثل هذا الامتياز(٢٢) .

ولما راى هنري الرابع محاولات دول اوروبية اخرى للحصول على مثل الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، اضطر الى عقد معاهدة صداقة مع السلطان وعمل على تجديد الامتيازات على يد « دي بريف » في العشرين من ايار (مايو)عام ١٦٠٤ . اضافت مكسبا اخر وهوالسماح للتجار الفرنسيين بالعيش بأمن وطمأنينة وحرية التنقل دون عائق(٢٣) . واستطاع الكاردينال ريشيلو (Richelieu) (٢٤) الذي سار على سياسة فرنسوا الاول وهنري الرابع في التقرب الى السلطان العثماني بسبب نجاحه في ايقاف الحرب بين الامبراطورية العثمانية وجمهورية البندقية ، وبينها وبين بلاد الغرب، أن يحصل على امتيازات للتجار الفرنسيين اوسع مما حصل عليه رعايا الدول الاوروبية الاخرى(٢٥) .

لكن هـذه الامتيازات التي حصلت عليهـا فرنسـا في الامبراطوريـة العثمانية كانت تتارجح بين التجديد والتجميد حسب السياسة التي كانت تنهجها الحكومـة الفرنسـية تجاه الدولة العثمانية بشكل خاص وتارجح العلاقات الفرنسـية العثمانيـة بشكل عام ، وظهر ذلك واضحا بعد انقضاء السنوات الاولى من القرن السابع عشر.

فبعد التجديدات في الامتيازات التي حصل عليها الفرنسيون في عهد السلطان محمد الثالث (١٥٩٥ ـ ١٦٠٣) واحمد الاول (١٦٠٣ـ١٦١٧)(٢٦) فشلت محاولات كونت دي كيسي Comte de Cesy لتجديد الامتيازات السابقة وذلك في عام ١٦١٩، ومنذ ذلك الوقت بدا التاثير الفرنسي في الباب العالي وفي اسواق الشرق في الضعف. وفي عهد اسرة كوبر يلي(٢٧) انقطعت العلاقات السياسية مع فرنسا لفترة من الزمن، وهبط مستوى التجارة الفرنسية الى عشر ما كانت عليه في عام ١٦٢٠(٢٨) .

كذلك ساءت العلاقات بين الدولتين بسبب مساعدة لويس الرابع عشر للنمساويين في سان غوتار (St. Gutar) في الثلاثين من تموز (يوليو) ١٦٦٣، وللبندقية في كريت ١٦٦٨ رغم معارضة وزرائه لا سيما كولبير (Colbert) وزير المالية الذي كان يرغب في تعزيز التجارة الفرنسية في الشرق ، فاصبح الرعايا الفرنسيـون في الامبراطورية العثمانية مهددين بايقاف مصالحهم ، بعد ان توقفت الحركة التجاريـة بين البلدين وفرضت الدولة العثمانية القيود على التجار الفرنسيين(٢٩) .

الا ان لويس الخامس عشر تمكن من تجديد هذه الامتيازات في الثاني والعشرين من ايار (مايو) ١٧٤٠ على يد المركيز فيلنوف (Villeneuve) ، الـذي كان سفيرا لفرنسـا في استانبول وعرف بحنكته السياسية ، وصاحب الكلمة النافذة واليد العليا لدى السلطان(٣٠) ، واضفى عليها صفة الابدية ، فبعد ان كانت غير سارية المفعول الا في عهد السلطان الذي يمنحها اصبحت سارية المفعول في عهد خلفائه(٣١) واصبحت امتيازات ١٧٤٠ مرة اخرى قانونا للفرنسيين يعيشون بمقتضاه في الدولة العثمانية(٣٢).

كان من نتائج تجديد الامتيازات عام ١٧٤٠ تفوق فرنسا في مجال التجارة مع الاقطار العثمانية ، وازدياد اهتمامها بتطوير هذه التجارة وزيادتها ، من ذلك ارسـال الحكومة الفرنسية البارون « دي توت » ما بين (١٧٧٧ و ١٧٧٨) في رحلة سريـة لدراسة الاحوال في الامبراطورية العثمانية واقتراح افضل الوسائل للنهوض بالتجارة الفرنسـية في الشرق(٣٣) .

ومما لا شك فيه ان هذا التفوق الاقتصادي الفرنسي ، الـذي كانت التجارة احدى مظاهره الواضحة ، يعود في جزء كبير منه الى المركز السياسي الفرنسي المؤثر

في الدولة العثمانية ، ولكن اعقب هذا التفوق انحدار مؤقت نجم عن الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، والضربة الحاسمة التي تلقتها حملة نابليون على مصر وبلاد الشام ، اذ اعتبرت الدولة العثمانية ان هذه الحملة موجهة ضدها فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها(٢٤) .

وعندما اصبح نابليون بونابرت قنصلا اولا اقنع سفير الدولة العثمانية في فرنسا المدعو اسعد افندي ، بوجوب تجديد العلاقات الودية مع فرنسا ، فكاتب السفير العثماني دولته بذلك ، وبعد الحصول منها على الاذن أمضى مع بونابرت مشروع معاهدة بتاريخ ٩ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٠١ اساسها اخلاء مصر وتأييد امتيازات فرنسا السابقة في الشرق . وحول الامتيازات نص البند الرابع من المعاهدة على « ان المعاهدات الكائنة فيما بين فرنسا والباب العالي حتى قبل الحرب الحاضرة تجددت بتمامها ، وبناء على ذلك حق لجمهورية فرنسا ان تتمتع في كافة انحاء الممالك العثمانية بجميع الحقوق التجارية وحقوق الملاحة التي كانت تتمتع بها قبلا او سيتمتع بها غيرها من الدول الاكثر تفضيلا في مستقبل الايام »(٢٥) .

كان من نتائج عقد هذه المعاهدة عودة الهيمنة الاقتصادية الفرنسية في الشرق وعودة الامتيازات الاقتصادية الفرنسية في الامبراطورية العثمانية الى سابق عهدها(٣٦) . وتم تدعيم هذه المعاهدة باتفاقية جديدة منحت فرنسا الحق في « ان تشتري من اي مكان في الدولة العثمانية السلع كافة بلا استثناء من منتجات الاراضي او الصناعات في المناطق الخاضعة للدولة اما بغرض التجارة او الاستغلال ، وتعهد الباب العالي بالغاء اي احتكار على المنتجات الزراعية او منتجات اخرى في اراضيه ، وبان تلغى التعريفات المفروضة من جانب السلطات المحلية على شراء هذه السلع او على نقلها من مكان شرائها الى مكان اخر » (٣٧) .

ان هذه الامتيازات الاقتصادية صارت ومنذ مطلع القرن التاسع عشر في نظر فرنسا حقوقا مكتسبة لها ، واصبح بمقدورها تفسير تلك الامتيازات لصالحها دون ان تسمح للسلطان العثماني باعادة النظر فيها ، وكان السلاطين يعون جيدا هذه الحقيقة. وكانت معاهدة باريس ١٨٥٦(٣٨) فرصة مواتية للتخلص من هذه الوصاية ، غير ان المحاولة العثمانية باءت بالفشل . ولجأت فرنسا الى استغلال هذه الاتفاقيات، مستغلة ضعف الدولة العثمانية ومتاعبها الداخلية وحروبها الخارجية ، فجاءت معاهدة باريس في ٢٨ اذار (مارس) ١٨٥٦ لتؤكد ان الباب العالي قد قبل بالمشاركة في فوائد القانون العام والتنسيق الاوروبي وحرمان الدولة العثمانية من حقها في اعادة النظر في الامتيازات او الغائها (٣٩)، وجاءت المادة (٣٢) من هذه المعاهدة لتجدد جميع الامتيازات التي حصلت عليها فرنسا ، وغيرها من الدول من قبل(٤٠) .

ولكن محاولات الباب العالي للتخلص من هذه الامتيازات لم تقف عنـد مؤتمر باريس ١٨٥٦ ، فقد جرت محاولات اخرى تزامنت في معظمها مع مرحلة التنظيمات الخيرية(٤١) كان اهمها عام ١٨٦٣ في عهد الصدر الاعظم عالي باشا، الذي اصدر نظاما، لم يمس الامتيازات الاقتصادية الفرنسية وانما حدد ما يبيح للمواطن العثماني التمتع بالحماية الفرنسية ، وذلك اذا كان مكلفا بمهمة رسمية من السلطات الفرنسية فقط، والغاء منح الحماية الفرنسية بصورة شرفية(٤٢) .. أي انها بقيت بعيدة عن جوهر تلك الامتيازات الاقتصادية التي تمتعت بها فرنسا في املاك الدولة العثمانية ، والدليـل على ذلك ان المادة الثانية من معاهدة برلين المبرمة في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ ، أكدت الحقوق الواردة في الامتيازات السابقة(٤٣) .. اما الغاء الامتيازات الفرنسية في الدولة العثمانية ، فقد تم بصورة رسمية من قبل الحكومة التركية في ٥ ايلول (ستبمبر) عام ١٩١٤(٤٤) .

التنافس الاقتصادي واثر ذلك على التجارة الفرنسية .

التنافس الانكليزي ـ الفرنسي : ان الامتيازات التي حصلت عليها فرنسـا في الامبراطورية العثمانية ، اصبحت ، في نظرها ، حقا مكتسبا لها دون غيرهـا ، فكان همها بالدرجة الاولى ان يظل لها السبق في هذا المجال او ان تحول دون غيرها من دول اوروبا والحصـول على ما حصلت عليه ، الا انها لم تستطع منع دول اوروبية اخـرى ان تحـذو حذوها ، بل وتنافسها ، وتمثل ذلك بشـكل خاص مع انكلترا اولا ومـع المانية ثانيـا .

دخلت انكلتـرا مع فرنسـا في تنافس اقتصادي منـذ عهد مبكر ، خاصـة في المجال التجاري ثم عن طريق الحصول على الامتيازات . فقد حاولت الحكومة الانكليزية الحصول على فوائد للتجار الانكليز بعدما اعطي من امتيازات عثمانيـة للبنادقة ثـم للفرنسيين ، وذلك لتوسيع المصالح التجارية الانكليزية في ممالك السلطان العثماني، لكن هذا النوع من المحاولات كان يجابه عادة بمعارضة شديدة خاصة من قبل ممثلي فرنسا في استانبول(٤٥) . هذا في الوقت الذي كانت فيه المراكب الانكليزية قد بدأت تأخذ طريقها نحو الموانئ العثمانية في النصف الاول من القرن السادس عشر ولكن بدون ان يكون لها وكالات تجارية دائمة .

بدأت المحاولات الانكليزية عن طريق الافراد ، اي التجار انفسهم ، وليس عن طريق الحكومة الانكليزية . واول محاولة كانت تلك التي قـام بها انتوني جنكنسون (Anthony Jenkinson) في عام ١٥٥٣م ، الذي قابـل السلطان العثماني سليمان

القانوني في حلب ، وكان يجهز حملة لمحاربة الفرس ، ممثلا عن نفسه وعن تجار اخرين انكليز ، وتقدم اليه بطلب « حرية التجارة في الامبراطورية العثمانية على نفس الاسس المعطاة للبنادقة والفرنسيين »‌. والذي حصل عليه جنكنسون هو « السماح له ولشركائه بان يحضروا بضائعهم الى الموانىء العثمانية على المراكب الانكليزية ، ولكن بمجرد ان تصبح سفنهم داخل المنطقة الخاضعة للقضاء العثماني كان عليهم الابحار والمرور تحت العلم الفرنسي »‌. وعلى ان هذه الميزة التي حصلوا عليها من السلطان لم ينتفعوا بها ولم تبدأ التجارة المنظمة الانكليزية في داخل الامبراطورية العثمانية الا بعد ذلك بثلاثة عقود(٤٦) ، حيث قام اثنان من التجار الانجليز ، اسبورن (Osborn) وستابر (Staper) وارسلوا وكيلهم وليم هاربورن(william Harborn) محملا برسالة من الملكة اليزابث الى السلطان مراد الثالث ، وبمطالب محددة تتعلق بالتجارة مع اسطنبول ، وفي رسالته الجوابية للملكة اليزابث وافق مراد الثالث على منح الامان للتجار الانكليز كتعبير منه عن الصداقة والوفاء الذين سيحافظ عليهما.

هذا التقارب بين الدولتين العثمانية والانكليزيةادىالى تدشينعلاقاتودية، والى نتائج سياسية واقتصادية ، في الوقت الذي كانت فيه السلطات العثمانية قد وقعت تحت اغراء فرصة شراء المنسوجات الانكليزية بثمن ارخص ، والحصول على المواد الاولية ، مثل القصدير والفولاذ ، التي كانت بحاجة اليها لصناعة الاسلحة . وبرسالة من اليزابث مؤرخة في ٢٥ اكتوبر ١٥٧٩ ، طلبت فيها من السلطان توسيع الامتيازات التجارية بحيث تشمل جميع رعاياها وتكون على اسس الامتيازات الفرنسية ، وتمت الموافقة على هذا الطلب في ايار (مايو) ١٥٨٠(٤٧) . ونتيجة لهذه المفاوضات فياسطنبول والمراسلاتبين مراد الثالث واليزابث ما بين ١٥٧٧و١٥٨٠ صيغت الامتيازاتالممنوحة للانكليز على شكل اتفاقية من اثنين وعشرين بندا ، جاء في احدها « يسمح للتجار الانكليز بالقدوم الى الامبراطورية العثمانية مع بضائعهم عن طريق البر او البحر وتحت حماية علمهم الخاص ويشتروا ويبيعوا في ممتلكات الدولة العثمانية بدون اي عائق، كما يسمح لهم بالعيش في ظل القوانين التابعة لدولتهم »(٤٨) .

واعقب هذه الخطوة الهامة خطوة اخرى ، هي انشاء شركة الشرق الانكليزية (The English Levant Company) في ١١ سبتمبر عام ١٥٨١(٤٩) ، لتبدأ التجارة الانكليزية مع الامبراطورية العثمانية وفق قواعد ثابتة وفي ظل امتيازات معينة ، وليصبح معظم المتشارين والدبلوماسيين الانكليز في الممالك العثمانية مستخدمين في الشركة(٥٠) . وقد بقيت هذه الشركة تقوم بالعمل في املاك الدولة العثمانية وتشرف على التجارة الانكليزية ، تماما كما كانت تقوم غرفة تجارة مرسيليا الفرنسية بالاشراف على التجارة الفرنسية ، الىان حلها البرلمان البريطاني في حزيران١٨٢٥(٥١).

ولتدعيم هاتين الخطوتين ، قامت الملكة اليزابث بافتتاح سفارة في الاستانة ؛ وجددت الامتيازات السابقة في عام ١٥٨٣ ، وحينئذ ارسى هاربورن سفير انكلترا في العاصمة العثمانية ومندوب شركة الشرق الانكليزية القواعد الراسخة لنفوذ بلاده الاقتصادي في الشرق الادنى(٥٢) .

واجهت فرنسا النجاح الذي حققته انكلترا ما بين ١٥٧٧ و ١٥٨١ في مجال الامتيازات والتجارة مع الامبراطورية العثمانية ، بمقاومة عنيفة ، وحاولت ان تضع العراقيل في وجه المحاولات الانكليزية في اسطنبول ، وبذلك يمكن القول ان عهد التنافس الاقتصادي بين انكلترا وفرنسا يكون قد بدأ واخذت ملامحه تظهر واضحة.

لكن شركة الشرق الانكليزية لم تستطع ان تقف في وجه المنافسة الفرنسية، ولذلك كانت تجارة الحوض الشرقي للبحر المتوسط في صالح فرنسا بصفة خاصة حتى اواخر القرن الثامن عشر ، ففرنسا كانت الدولة الاوروبية الاولى لدى البلاط العثماني ، وكانت صادراتها من الصوف ارخص من مثيلتها الانكليزية واكثر ملائمة لمناخ المنطقة ، هذا بالاضافة الى افراط شركة الشرق الانكليزية في البحث عن الربح(٥٣) . ويؤيد هذا الراي جورج كيرك الذي يضع اللوم كله على شركة الشرق الانكليزية في «الهبوط المحسوس في التجارة الانكليزية وما ترتب عليه من فائدة لفرنسا، وهي السياسة القائمة على الاكتفاء بالمبيعات القليلة مع ارتفاع نسبة الارباح فيها» ويقول ايضا : « حقا لقد كانت الاصواف الانكليزية تتمتع بشهرة عظمى ولكن الاصواف الفرنسية كانت اخف منها واكثر ملائمة لجو هذه الاصقاع ، فضلا عن انها تقل عنها في الثمن بنحو ١٠٪ ، وعندما قامت المصانع الانكليزية بصنع اصواف اخف من سابقتها واقل ثمنا تبين ان نوعها قد تدنى لدرجة ان التجار اعرضوا عنها ، وقد قيل في هذه المناسبة : « ان الاتراك في استانبول لم يجدوا الاقمشة التي تلائم رغباتهم وبالسعر الذي يرضونه ولاالبن الذي يستسيغونه الا عند التجار الفرنسيين»(٥٤) .

ويمكن ان نضيف الى ما سبق ان مكانة الفرنسيين التجارية كانت قد تطورت في الامبراطورية العثمانية ، مع انهم لم يستطيعوا منع الانكليز من فتح قنصلية لهم في حلب لتشرف على رعاية مصالحهم ، ولترعى تجارة شركة الشرق الانكليزية الا ان وصول الانكليز الى اسواق الشرق الادنى منذ عام ١٥٨١ انقص من مجموع التجارة الفرنسية ومن عدد السفن الفرنسية ، وظهر ذلك واضحا بعد ٢٥ سنة من هذا التاريخ(٥٥) .

لكن على المدى البعيدلم تؤثر التجارةالانكليزية بشكل عام على التجارة الفرنسية، التي بلغت قبيل اندلاع الثورة الفرنسية ثلاثة امثال هذه الاخيرة ، واضطرت شركة

الشرق الانكليزية بين عامي ١٧٧٨ و ١٧٩١ الى اغلاق محطاتها الاربع في سورية تاركة نسبة كبيرة من تجارة هذا الاقليم في يد الفرنسيين(٥٦) .

اما على صعيد الامتيازات فقد قامت الحكومة العثمانية تدريجيا بتوسيع الحقوق الممنوحة للتجار الانكليز المقيمين في املاك الدولة على اساس عدم الخضوع للقوانين العثمانية ، وتحديد هذه الحقوق ، وعمل اضافات جديدة على الاتفاقيات السابقة باتفاقيات جديدة عقدت في الاعوام ١٦٠٦ و ١٦٢٤ و ١٦٤١ و ١٦٦٢ واخيرا ١٦٦٥، وفي هذه الاخيرة وضعت جميع الامتيازات السابقة والتي بقيت سارية المفعول حتى زوال الامبراطورية العثمانية (٥٧). ثم تم عقد اتفاقية ١٦٧٥ اثر مفاوضات قام بها السفير الانجليزي في استانبول جون فنش (John Finch) نيابة عن حكومته مع الحكومة العثمانية(٥٨) .

وفي خضم التنافس الفرنسي ـ الانكليزي الاقتصادي في الامبراطورية العثمانية، فان هذا التنافس كان يتأثر الى حد بعيد بعلاقات الدولة العثمانية السياسية بهاتين الدولتين وهذا يظهر واضحا من موقف الدولة العثمانية من حملة نابليون بونابرت على مصر والشام ما بين ١٧٩٨ و ١٨٠١ ، فقد اعتبرت الحملة اساسا موجهة ضدها، فجمدت امتيازات فرنسا الاقتصادية فيها ، ولان بريطانيا قامت بالدور الرئيسي في التصدي للحملة وافشالها عسكريا وسياسيا ، لان من اهدافها الرئيسية قطع شريان الطريق التجاري الموصل للهند والحيوي لمصالح بريطانيا الاقتصادية ، وظهرت وكانها حامية للامبراطورية العثمانية ، فزادت التجارة الانكليزية . وبعد انهاء الحملة انتهزت انكلترا ذلك الوضع السياسي ، فعقدت مع العثمانيين اتفاقات جديدة وسعت العلاقات الاقتصادية بين الدولتين ، خاصة في المجال التجاري . ففي عام ١٨١٨ ، عقدت اتفاقية انكليزية ـ عثمانية للتجارة ، استكملت بفرمان صدر عام ١٨٢٠ ،حددت الرسوم على المستوردات الانكليزية الى ولايات الدولة العثمانية بـ ٣٪(٥٩) . ثم عقد اتفاق اخر تجاري بين الدولتين بتاريخ ١٦ اب (اغسطس) عام ١٨٣٨ ، ونص بنده الاول « على ان جميع الحقوق والامتيازات والاعفاءات التي اعطيت للاشخاص والسفن البريطانية في الامتيازات والمعاهدات السابقة ، تؤكد الان وتستمر الى الابد»(٦٠). وعلى هذا النمط جاء الاتفاق الفرنسي مع الباب العالي في ٥ ٢تشرين الثاني(نوفمبر)١٨٣٨.

وعندما حاربت كل من بريطانيا وفرنسا ضد روسيا في حرب القرم ، استطاعت الدولة العثمانية ان تقيم توازنا اقتصاديا في موضوع الامتيازات ، فاعطت الدولتين حقوقا متساوية في معاهدة باريس في ٣٠ اذار (مارس) ١٨٥٦ ، خاصة ما يتعلق بالمتاجرة وجلب البضائع الى الامبراطورية(٦١) . ثم تأكدت حقوق الدولتين بالنسبة

للامتيازات السـابقة وبشـكل متسـاو في معاهدة برلين في ١٣ تموز (يوليو) ١٨٧٨ وذلك في المادة الثانية منها(٦٢) . وبالتالي فقد تميز الربع الاخير من القرن التاسع عشر بجمود التنافس الاقتصادي الانكليزي ـ الفرنسي في الامبراطورية العثمانية .

التنافس الالماني ـ الفرنسي : جاء النشـاط الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية متأخرا . ومنذ النصف الاول من القرن الخامس عشر ،بدأ التجار الالمان من أوغسبورغ (Augsborg) ونورنبورغ (Nurenburg) بالتجارة مع الشرق الادنى تحت حماية علم البندقية ، واستمرت المصالح الالمانية في الشرق الادنى حتى عام ١٨٧٠ يمثـل فيها الجانب الاقتصادي جانبا ضعيفا وهو جانب تجاري(٦٢) .

ثم حدث في عام ١٨٧٠ وعام ١٨٧٨ حادثان اكسبا مركز المانيا سموا كبيرا في أعين الاتراك ، واقترن ذلك بتضاؤل هيبة فرنسـا في الدولة العثمانية . ففي ١٨٧٠ جرت الحرب الفرنسـية ـ الالمانية(٦٤) ، فتأثرت مشروعات فرنسـا من جراء ويلات تلك الحرب ، واصبح همها اثر ذلك المحافظة على مصالحها الاقتصادية في الامبراطورية العثمانية ، امام مزاحمة الدول الاوروبية الاخرى . وفي عام ١٨٧٨ عقد مؤتمربرلين الذي تخلت فيه الدول الاوروبية عن سياسة المحافظة على تمامية الدولة العثمانية فوجدت فرنسـا ان الخطر بدأ يحيق بمصالحها الاقتصادية في سورية . واتخذتالمانيا الخطوة الاولى على طريق الزحف نحـو الشرق (Drang nach Osten) في محاولتهـا التوسط بين الدولة العثمانية والدول الاوروبية(٦٥) . وخرجت المانيا من المؤتمردولة كبرى تريد ان تنفذ الى الشرق وتدخل رؤوس اموالها ومنتجاتها الصناعية(٦٦) .

ولذلك وبعد الانتهاء من اعمال مؤتمر برلين بدأت تركيا تعتمد بصورة كبيرة على تأييد المانيا بعد ان تخلت انكلترا و فرنسـا عن سياسة التكامـل السـياسي للدولـة العثمانية . وكانت المانية في تطورها كدولة صناعية واستعمارية قد تطلعت الى مجالات استعمار خارج اوروبا ، وكان الشرق الادنى احدى هذه المجالات ، وبالتالي فقـد بدأ نشـاطها الاقتصادي في الدولة العثمانية . ورحبت المانيا بسـياسة التقارب مع هذه الدولة لتتخذ ميدانا للتوسع الاقتصادي ، فطبيعة المانيـا في ذلك الوقت كانت تحتم هذه السـياسـة ، فقد كان عدد السـكان يتزايد فيها ، كما ازدادت حاجتها الشـديدة الى المواد الغذائية والمواد الاولية (٦٧) . في الوقت نفســه كانت الدولة العثمانيــة غنيــة بمواردها الاولية ومن الممكن ان تكون سوقا رابحا للبضائع الالمانية وهي ذات موقــع جغرافي ممتاز وقريبة نسـبيا خاصة املاك الدولة العثمانية في اسيا العربية ، التي يمكن ان تكون ميدانا واسعا للتوسع الاقتصادي والسـياسي الالماني(٦٨) ..

كان الامبراطور فيلهلم الثاني (Wilheim II) يعمل جاهـدا في هذا الاتجاه ، فبعد سنة واحدة من وصوله الى العرش ، اي في عام ١٨٨٩ ، قام بزيارة للاستانة على الرغم من معارضة بسمارك(٦٩) . وبعد سقوط بسمارك وظهور الاتجاه الامبراطوري الجديد بشكل واضح تقوى هذا الاتجاه .

وكانت مؤسسة المانية قد حصلت في ١٨٨٨ على موافقة الحكومة العثمانية على بناء خط حديدي الى انقرة ، وتاسست بذلك شركة خط حديد الاناضول من قبل نقابة المانية(٧٠) للقيام بهذا العمل .

وفي عام ١٨٩٨ قام الامبراطور الالماني بزيارته الثانية للسلطان للوصول الى وفاق اقتصادي الماني ـ عثماني ، وكان من نتائج هذه الزيارة اعطاء دفعة قوية للمشاريع الاقتصادية الالمانية . فحصل الامبراطور على وعد من تركيا بالتصريح ببناء خط حديد بغداد بين قونية وبغداد ، وكان الهدف منه تمكين الرأسمالية الالمانية من استغلال المصادر المعدنية والزراعية في الامبراطورية ، وكذلك الاستفادة من هذا الخط لمد فرع منه الى حلب عبر سورية ثم الى شبه الجزيرة العربية ، وقد بقي هذا المشروع معطلا حتى تم تنفيذه في عام ١٩٠٣ وذلك لمعارضة كل من بريطانيا وروسيا له (٧١)، ففي ١٨٩٩ منحت الشركات الالمانية امتياز بنائه باتفاقية ابرمت في برلين بين البنك الالماني (Deutsch Bank) والبنك العثماني وشركة سكة حديد ازمير ـ قصبة (Cie de Smyrne - Cassaba)(٧٢) .

اما على صعيد التجارة فحتى عام ١٨٨٠ كانت تجارة المانيا مع الدولة العثمانية تعادل عشرة ملايين مارك ونصف المليون ، وفي عام ١٨٩٣ ارتفع رقم الصادرات الالمانية الى ما يبلغ خمسين مليون مارك وارتفعت صادرات الدولة العثمانية الى المانيا من نحو ٢ر٥ مليون مارك الى ١٦ر٥ مليون(٧٣) . وهذه الزيادة كانت ناجمة عن معاهدة تجارية المانية عثمانية عام ١٨٩٠ وانشاء شركة الخطوط الالمانية المشرقية (Deutsch Levant linie) لتسيير السفن التجارية بين بحر الشمال والشرق الادنى(٧٤) . والواقع انه منذ عام ١٨٨٩ امتد التوسع الالماني الاقتصادي الى الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية فزادت تجارة المانيا زيادة ملحوظة مع بلاد الشام (٧٥) .

ومنذ عام ١٨٩٩ ولدعم التغلغل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية ومجاراة المشاريع الاستثمارية الفرنسية الواسعة فيها ، بدأ تأسيس البنوك الالمانية ، ففي تلك السنة اسس بعض المولين الالمان البنك الالماني ـ الفلسطيني (Die Deutsche

Palestina Bank) الذي كانت له فروع في عدة مدن منها دمشق وطرابلس وفي عام ١٩٠٤ ، انشا البنك القومي لالمانيا مصرفا ماليا في الدولة العثمانية تحت اسم « بنك المشرق » ، وفي عام ١٩٠٥ انشأ بنك درسدنر (Dresdner) بنكا سمي بنك الشرق الادنى ، وكان لهذا البنك بالذات دور هام في التطوير الصناعي في الدولة العثمانية، وفي ١٩٠٦ انشيء بنك الشرق الالماني (Deutsch Orient Bank) (٧٦) .

ولم تغفل المانيا عن حاجة الدولة العثمانية الى القروض ، وقد ادركت ذلك بوضوح بعد عقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ ، ولتدخل في منافسة مكشوفة مع الدول الاوروبية الاخرى في هذا المجال وخاصة فرنسا ، كان اول القروض الرسمية الالمانية للدولة العثمانية عام ١٨٨٨ ، ثم قرض ثان في عام ١٨٩٤ وتعاقب بعد ذلك عقد هذه القروض مع بنوك المانية من جهة ومع الحكومة العثمانية من جهة اخرى من اجل تغطية عجز الدولة . وتراوحت نسبة الفائدة ما بين ٤و٥ بالمائة . وقد بلغت القروض الالمانية للدولة العثمانية ما بين ١٨٨١ و ١٩٠٨ حوالي ١٢ مليون ليرة عثمانية ذهبا ، وبلغت هذه القروض بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٤ حوالي ٤٦ مليون ليرة عثمانية ذهبا(٧٧) .

ومما لا شك فيه ان هذا التغلغل الاقتصادي الالماني في الدولة العثمانية وبالاشكال والاساليب التي ذكرناها ، قد اثر على دور فرنسا الاقتصادي التقليدي في تلك الدولة ، وكمثال على ذلك ان عدد التجار الالمان بدأ يكبر ، ان لم يتفوق في بعض الاوقات على عدد التجار الفرنسيين بالرغم من زيادة التجارة الفرنسية مع الدولة العثمانية ، وبدت هذه الصورة واضحة في مطلع القرن العشرين (٧٨) .

الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الامبراطورية العثمانية والاستثمارات والديون :

استطاعت فرنسا من خلال اتفاقيات الامتيازات ، ان تبدأ بتطبيق سياسة اقتصادية قائمة على الاستغلال المنظم منذ عام ١٨٥٤ ، وقامت بتمويل عشرات المشاريع برؤوس اموال فرنسية عن طريق طرح الاستثمارات ، وهذه الاستثمارات اتخذت شكلين :

أولهما : الاستثمار المباشر في مشروعات المواصلات والنقل لخدمة الاستيراد والتصدير .

ثانيهما : الاستثمار غير المباشر للحصول على الاحتكارات والامتيازات لانشاء هذه المشروعات(٧٩) .

ففي سنة ١٨٦٣ أنشىء البنك الامبراطوري العثماني (Banque Imperiale Ottoman) وكان لفرنسا حصة الاسد فيه ، وهو البنك الذي منح امتياز اصدار اوراق النقد وكانت له فروع متعددة في الولايات العربية ، مثله مثل بنك كريدي ليونيه (Credit lyonnais) كما ساهمت رؤوس الاموال الفرنسية في البنك العقاري العثماني (Credit foncier Ottoman) وفي بنك لبنان (Banque de Liban) (٨٠) .

اما اول استثمار فرنسي مباشر في سورية فكان في ميدان سكك الحديد تم ابرامه في عام ١٨٨٩ لمدة ٧١ سنة واوكل البناء للشركة الفرنسية (Société des travaux publiques). كذلك قامت شركات فرنسية بشق طريق بيروت ـ دمشق ، وادى نجاح المشروع الى تشجيع الشركات الفرنسية على مد سكة حديد بيروت ـ دمشق ـ حوران فتشكلت الشركة الاقتصادية لسكة حديد ـ بيروت ـ دمشق ـ حوران
La Société des chemins de fer economiques de Beyrouth - Damas - Hauran) في سنة ١٨٩١ ، وتولت منذ عام ١٨٩٣ تنفيذ مد سكة حديد دمشق ـ حمص ـ حماه ـ حلب ـ بيرجك (٨١) .. وتولت الشركة الامبراطورية العثمانية وهي شركة ذات راسمال فرنسي توسيع ميناء بيروت(٨٢) . وتعددت مشاريع الاستثمار الفرنسية في الامبراطورية العثمانية بشكل عام وفي سورية بشكل خاص ، ودلت احصائيات البنك الامبراطوري العثماني في عام ١٨٩٦ ان حصة فرنسا من الاموال المستثمرة في الدولة العثمانية هي ٦٧ بالمائة ، بينما بلغت نسبة الاموال الالمانية ١٧ بالمائة(٨٣) ، وفي عام ١٩١٤ بلغ مجموع رؤوس الاموال الفرنسية المستثمرة في الدولة العثمانية منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى ذلك العام ٥٨٨٠ مليون فرنك(٨٤) .

اما النوع الاخر من الاستغلال الاقتصادي الفرنسي في الدولة العثمانية فهو الديون ، ذلك ان الدولة العثمانية اضطرت الى الاستدانة من البنوك والمصارف الاوروبية منذ مطلع النصف الثاني للقرن التاسع عشر لمواجهة الازمات المالية المتوالية والحروب العديدة التي خاضتها ، وكان لفرنسا النصيب الاكبر من هذه الديون ، وابرمت الحكومة العثمانية اول قرض اجنبي بعد بداية حرب القرم في اب ١٨٥٤ مع شركة بالمر (Palmer and co.) في لندن وشركة جولد شميت (Goldschmidt) في باريس نيابة عن بنكي انكلترا (Bank of England) وفرنسا (Banque de France) وكان مقدار هذا القرض ثلاثة ملايين جنيه استرليني، اي ما يعادل ٢ر٥ مليون ليرة عثمانية ذهبا بفائدة ٦ بالمائة ، وبعد ذلك بعام واحد ، ابرمت الحكومة العثمانية قرضا ثانيا في ٢٧ حزيران (يونيو) ١٨٥٥ مع مؤسسة روتشيلد في لندن ومقداره (٦٥ر٥) مليون ليرة عثمانية ذهبا بفائدة ٤ ٪ . وهكذا تورطت الدولة العثمانية بالديون ؛ فلم

تتمكن من تسديدها ، وبلغ مجموع الديو ن التي تراكمت على الدولة العثمانية منذاول قرض ابرمته وحتى اندلاع الحرب العثمانية ـ الروسية عام ١٨٧٧ ، ٢٥١ر٢٠٩ر٧٥٨ ليرة عثمانية ذهبا(٨٥) .

ولما انتهت تلك الحرب وانعقد مؤتمر برلين عام ١٨٧٨ اخذت الدول الدائنة وخاصة فرنسا تواجه ضغطا من الشركات صاحبة الاسهم من اجل دفع اموالها .وابرم اتفاق في ١٠ـ٢٠ تشرين الثاني عام ١٨٧٩ بين الحكومة العثمانية والبنك الامبراطوري العثماني وعدد من البنوك في استانبول لتسوية الامر ، ولكن هذه الاتفاقية لم ترض الشركات المالية ، فتعرض الباب العالي لضغوط شديدة ادت الى صدور فرمان محرم الموافق (٨ـ٢٠) كانون الاول عام ١٨٨١ والذي نص على قيام ادارة الدين العمومي العثماني (Administration de la Dette Publique Ottoman)(٨٦) لتتولى تسديد ديون الدول الاجنبية ، وتشكل مجلس تنفيذي لهذه الادارة عام ١٨٨٣، وبذلك اصبحت ادارة الدين العام تشرف على الشؤون المالية للدولة العثمانية ، وكانت حصة فرنسا من الدين العام العثماني اكبر النسب ، اذ بلغت حوالي ٤٠٪ في الوقت الذي بلغت فيه حصة انكلترا ٢٩٪ والمانيا ٧ر٤٪ ، والباقي توزعته الدول الاوروبية الاخرى. وفي عام ١٨٩٨ اصبحت النسبة كما يلي : بريطانيا ١٠٪ ، المانيا ١ر١٢٪ فرنسا ٩ر٤٤٪(٨٧) وبهذا تكون نسبة فرنسا قد ازدادت وكذلك المانيا التي كانت تنافسها وانخفضت نسبة بريطانيا .

طبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية في مطلع القرن العشرين وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى

مما لاشك فيه ان مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية ، بدات تتاثر بمتغيرات سياسية كثيرة منذ مطلع القرن العشرين ، اهمها الحرب العالمية الاولى وما سبقها او رافقها من محادثات تقسيم مناطق النفوذ في الولايات العربية الاسيوية التي كانت تابعة للدولة العثمانية ، وفي الحقيقة فان هذه المحادثات كانت تجري على اساس اقتسام اسيا العثمانية من الوجهتين الاقتصادية والسياسية بين الدول الاوروبية .

ولما كانت فرنسا قد استطاعت عبر فترة طويلة من الزمن ان تحقق قدرا كبيرا من المصالح الاقتصادية لم تحققه دولة اوروبية اخرى ، فانها بدات تخشى على هذه المصالح وخاصة في سورية ، وكانت تثير دائما وباصرار ان سورية هي حصتها التي يجب ان تعطى لها سياسيا لصيانة مصالحها الاقتصادية فيها .

هذه الرغبة لدى فرنسا برزت بشكل واضح في مؤتمر برلين ١٨٧٨ الذي اتفقت فيه الدول على تغيير سياسة المطالبة بـ (تمامية الدولة العثمانية) فالحت في هذا

المؤتمر على ان تكون حصتها هي سورية لما لها فيها من مصالح وامتيازات . ثم عندما تعرضت الامبراطورية العثمانية لازمات سياسية وانفصال بعض المقاطعات الاوروبية عن جسمها رات فرنسا الخطر يحيط بمصالحها في سورية ، فلم تتاخر في اعلان رايها بكل صراحة واظهرت عزمها على المحافظة على حقوقها القديمة في هذه المنطقة(٨٨) . وهذا ما اكده رئيس وزراء فرنسا المسيو بوانكارية (Poincaré) في العشرين من كانون الاول (ديسمبر) ١٩١٢ في بيان له امام مجلس الشيوخ عن القضية السورية وعن مصالح فرنسا هناك فقال « اننا مصممون على الدفاع عن حقوقنا ومصالحنا بكل قوة، وعازمون على المحافظة على تقاليد فرنسا العظيمة في الشرق »(٨٩) . وذكر امام مجلس الشيوخ وفي مناسبة اخرى « ان حكومته اتخذت الخطوات التي تضمن مصالحها في سورية »(٩٠) .

وقبل اندلاع الحرب العالمية الاولى مباشرة جرت مفاوضات فرنسية وعثمانية نجم عنها ابرام اتفاقيات مختلفة ، وذلك في ١١ ايلول (سبتمبر) ١٩١٣ بين المفاوض العثماني جاويد بك ووزير الخارجية الفرنسية دومروغ ، تضمنت عدة امور ، منها ما يتعلق بالامتيازات والرسوم الجمركية ، ومد خطوط حديدية بين مختلف المدن السورية ، ونصت على ان يتولى ادارة الشركة الحديدية وفروعها مدير عام فرنسي لمدة عشر سنوات تمنح له صلاحيات واسعة، كما نصت على ان يكون الخبراء والمهندسون الاجانب فرنسيين . واستطاعت فرنسا ان تضيف في هذه الاتفاقيات نصا يحدد منطقة النفوذ الالماني بعيدا عن مركز مصالحها(٩١) .

وفي اعتقادي ان هذه الاتفاقيات كانت في اساسها لتاكيد المصالح الاقتصادية الفرنسية في سورية ، ولابعاد المانيا بشكل خاص عن هذه المصالح وكذلك بريطانيا ، اذ ان هاتين الاخيرتين اجرتا مفاوضات مع الدولة العثمانية في الوقت نفسه تمخضت عن عقد اتفاقيات ايضا(٩٢) كانت في مجملها بعيدة عن الحاق المساس بالمصالح الفرنسية خاصة في سورية .

لقد اعتبرت الحكومة الفرنسية ان عقد هذه الاتفاقيات في هذا الوقت جعل مصالحها الاقتصادية في سورية في امان ، ولكن تلاحق الاحداث السياسية التي كان ابرزها نشوب الحرب العالمية الاولى وابرام الدولة العثمانية معاهدة صداقة مع المانيا، دفع بهذه المصالح الى حالة الخطر ، اذ قامت الدولة العثمانية والغت جميع الامتيازات الاجنبية ، لا سيما الفرنسية والانكليزية لكونها دول الحلف المعادي ، وذلك في اول ايلول (سبتمبر) ١٩١٤ ، وبحجة انها تتعارض مع القواعد القضائية للقرن العشرين ومبادىء السيادة القومية وانها تقف حجر عثرة امام تقدمها وتطورها (٩٣). لكن قرار

الدولة العثمانية لم يمنع فرنسا من متابعة محاولاتها للحفاظ على مصالحها خلال الحرب ، وبالتالي اخذ موافقة الدول الاخرى التي تقف معها للاعتراف بهذه المصالح، لذلك وفي اثناء المحادثات التي كانت تجري بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في عام ١٩١٥ والتي تمخض عنها اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٦ ، كشف السفير الفرنسي في بطرسبرغ في ١٤ اذار (مارس) ١٩١٥ لوزير خارجية روسيا عن اطماع حكومته في سورية ، وحاول ان يضمن موافقة روسيا على ضم بلاد الشام (بما فيها فلسطين) لمنطقة نفوذ فرنسا(٩٤) .

ترافق اهتمام فرنسا بامكانات سورية الاقتصادية مع صعود خطين مترابطين، خط نمو المصالح الفرنسية في سورية نموا مضطردا يهيء للمزيد من المشاريع ، وخط تازم العلاقات ما بين الامبرياليات الاوروبية لاختلاف مواقفها من مصير الدولة العثمانية وطبيعة المصالح الاقتصادية الفرنسية اصبحت تمثل باشكال التلاقي بين معطيات اقتصادية محلية اهمها المواد الاولية الزراعية وبين مجموعة المصالح الفرنسية التي تمثلت في تملك واستثمار عددمن المشاريع التي تلبيحركة التصدير والاستيرادوانتقال السلعة وتسويقها بين محطات الاسواق التاريخية في المشرق(٩٥) . هذه المصالح كانلابد لها ان تتاثر مباشرة بمصير الدولة العثمانية الذي بدا في احداث الحرب العالمية الاولى، والتي كانت سورية احد ميادينها الرئيسية ، واخذت فرنسا تدرك المتغيرات التي يمكن ان تحصل على الخريطة السياسية للدولة العثمانية واثرها على مصالحها الاقتصادية ، وانتاب هذا الادراك شعور بالخوف والقلق عند المسؤولين في الحكومة وفي المؤسسات الاقتصادية في فرنسا ذات العلاقة المباشرة مع هذه المصالح.

وعبر هذا القلق عن نفسه بوسائل وخطط في جهود حثيثة ، وافكار ومشاريع من قبل الدبلوماسيين والخبراء والعلماء واساتذة الجامعات وغرف التجارة ورجال الاعمال واتاحت الظروف السياسية التي رافقت الحرب العالمية الاولى وما اعقبها من تسويات الفرصة المناسبة للتعبير عن هذه الافكار والمشاريعولاخذ المبادرات وترتيب الاستعدادات ، كل ذلك من اجل تلك المصالح الاقتصادية التي تركزت في طبيعة معينة في اطار لعبت فيه مدينة ليون دورا رئيسيا خاصة في مجال الاستفادة منزراعة التوت، وكذلك مرسيليا التي كانت عبارة عن مركز فرنسي مهم في حركة التصدير والاستيراد بين السوق الفرنسي وسوق المناطق السورية .

والجدير بالذكر ان زراعة التوت المرتبطة بتجارة وصناعة مدينة ليون الحريرية، قد نشطت في السنوات الاولى من القرن العشرين . وتشكل الرساميل الليونية الحافز الحقيقي لنشاط زراعة الحرير السورية(٩٦) . ونستطيع من خلال دراسة تجارة هذه

المادة الخام وهي الحرير ان نتوصل الى المدى الذي وصل اليه الاهتمام الفرنسي في امكانات سورية الاقتصادية .

فاهم مادة كانت تستوردها فرنسا من سورية هي الحرير التي تقوم عليها الصناعة خاصة في مدينة ليون(٩٧) ، وكان تجار ليون يسيطرون سيطرة كاملة على هذه التجارة، ففي بداية القرن العشرين كان اكثر من ٩٠٪ من حرير سورية يذهب الى فرنسا ، وفي عام ١٩١٠ دفعت ليون نحو ٨ ملايين وهو مبلغ يعادل اكثر بقليل من ثلث ما يشتريه تجار الحرير من سورية(٩٨) .. وقد ادت سيطرة فرنسا على انتاج الحرير السوري الى دفع رجال الاعمال الى البحث عن الوسائل التي تؤدي الى توسيع هذه السيطرة واستغلال مناطق جديدة اخرى في سورية .

لكن انتاج الحرير السوري هبط في فترة ما قبل الحرب ، من ٥٠٠ الف كيلو غرام حرير سنويا قيمتها ٢٥ مليون فرنك فرنسي ، بين ١٩٠٢ و ١٩١١ الى ٤٠٠ الف كيلو غرام(٩٩) عام ١٩١٢ . وهذا التقهقر في الانتاج جعل رجال الاعمال الفرنسيين في كل من مرسيليا وليون يعملون على دراسة الوضع لتدارك التدهور الذي حصل ، ولذلك ارسلت غرفتا تجارة ليون ومرسيليا عام ١٩١٢ بعثة الى سورية قام احد اعضائها وهو (M.Croizat) بوضع تقرير حول زراعة الحرير فيها ، جاء فيه ان انتاج الحرير تدنى اثناء الحرب العالمية الاولى الى اربعة اخماس ، ويعلل الاسباب التي ادت الى هذا التدهور في :

اولا : نقص البذور التي كانت تستورد كلها تقريبا من فرنسا ، فالحرب بقطعها للعلاقات التجارية حرمت البلاد من هذه المادة الاولية .

ثانيا : النقص في الايدي العاملة .

ثالثا : قطع اشجار التوت .

ثم يشير التقرير الى ان الانتاج السوري من الحرير استؤنف بفضل تدخل الحكومة الفرنسية ، ولكن حتى تعود امور الانتاج الى وضعها الطبيعي لابد من تدخل الراسمال الفرنسي والتقنية الفرنسية . وضمانات ذلك تكمن في ضبط الامن وتحقيق الاستقرار وتأمين احترام الملكية ، وهي الشروط التي يؤكد عليها التقرير لتخطي المشاكل التي تعترض عملية استئناف الانتاج بعد الحرب .

وفي رأي صاحب القرير فان الحل المنشود ، والذي اكده في السابق رجال الاعمال الفرنسيون ، هو ادارة جديدة لسورية تؤمن حقوق الناس واحترام الاشخاص وملكية

الاخرين ، كل ذلك لا يتحقق الا بحل المسالة السورية بشكل يتلاءم مع اماني فرنسا(١٠٠) .

اما (Huvelin) رئيس البعثة فقد وضع هو الاخر تقريرا موسعا في المسالة الزراعية وتطوير الاقتصاد الزراعي السوري ، وقدم هذا التقرير امام مؤتمر رجال الاعمال الفرنسي الذي انعقد في مرسيليا لدراسة اوضاع سورية .

جاء في تقرير هوفولان ان الانتاج الزراعي في سورية يمكن ان يجعل من سورية اغنى البلدان الزراعية واخصب اراضي المعمورة ، وقد بنى اعتقاده هذا على اسس معينة وهي « ان هناك اراضي خصبة في سورية وينبغي على مشاريع الاقتصاد الفرنسي ان ترتكز عليها وان تدخل في مناطق الانتداب الفرنسي . والمناطق السورية التي ستوضع تحت الانتداب الفرنسي تبلغ مساحتها ...ر...ر١٧ هكتار يزرع منها نحو ...ر٧٧٥ هكتار ، اي ما يعادل ٥ر٤٪ ، اما الاراضي الصالحة للزراعة فكانت تبلغ نحو ...ر...ر٦٠٠ر٤ هكتار اي ما يساوي ٢٧٪ .

ويذكر التقرير ايضا ان ما كان مزروعا من الاراضي في سورية قبل الحرب تقدر انتاجيته بـ ٧٢.٠٠ مليون فرنك ، في حين انه لو استغلت الارض الصالحة للزراعة فيمكن ان تغل انتاجية تقدر بمليار ونصف الى مليارين ، وهذا ما يمكن ان يدخل في قيمة الانتاج السنوي للاقتصاد الزراعي وفي حدود الانتداب ، ويعتبر هوفولان ان المشكلة ناجمة عن عدم استغلال جميع الاراضي الصالحة للزراعة ، وحتى الارض المزروعة لا تقدم كل ثروتها ، وفي اعتقاده ان هذا ناجم عن نوعين من العوامل :

١ ـ اسباب ظرفية ناجمة عن الحرب تزول مع زوالها .

٢ ـ اسباب فرضية وتعود الى ما قبل ١٩١٤ ، بل احيانا الى عدة قرون ، وهذه الاسباب تعود في رايه الى النظام السياسي الذي فرضته السيطرة التركية والنظام الاجتماعي الذي استدعته التقاليد الموروثة ، وهذا ما ساهم في شل الانطلاقة التقنية والاقتصادية للزراعة السورية .

اما الحل الذي اقترحه هوفولان فيقوم على اساس تنظيم زراعي راسمالي على غرار ما حدث في اوروبا ، وبالتحديد في فرنسا في سياق التطور الراسمالي ، ثم اصلاح النظام السياسي والمالي(١٠١) .

اما التقرير الثالث فقد قدمه (Achard) (١٠٢) ، وجاء فيه ان المشروع الراسمالي الذي يقترح تطبيقه في سورية يتطلب قرارات تنخرط في مشروع سياسي هو انشاء

دولة حديثة برجوازية على النمط الاوروبي ، وهذا بدوره يتطلب وجود قوى قادرة على التصدي للقوى الاجتماعية المعيقة للمشروع الزراعي الذي يقترحه خبراء الراسمالية الفرنسية ، والادارة التي يقترحها لتنفيذ هذا المشروع هي الانتداب الفرنسي ، وهي الادارة ذات المشروع السياسي الخاص بها والذي يتطلب اولا ضبط الاوضاع في سورية وقمع او استيعاب القوى المعارضة والرافضة لدخول الاجنبي(١٠٣) .

نلاحظ مما سبق ان الفترة الممتدة ما بين عام ١٩١٢ وعام ١٩١٩ ، كانت غنية بالتقارير والدراسات التي دلت على اهتمام فرنسا الاقتصادي بسورية ، ومن ضمن ما تناولته أيضا هذه التقارير موضوع التبادل التجاري ، ويبقى تقرير هوفولان خير ما وضع في ذلك من حيث « انه استطاع رصد السياسة الاقتصادية الفرنسية في سورية ورؤية مجموعة المصالح الاوروبية في نطاق حركة التبادل بين المناطق السورية والاوروبية » (١٠٤) ، فيذكر في تقريره ان قيمة مستوردات سورية من الخارج عام ١٩١٠ – ١٩١١ بلغت نحو ١٦٩مليون و ٣٠٠ الف فرنك فرنسي ، بينما بلغت قيمة صادراتها نحو ٨٥ مليون و ٣٦٨الف ، أي ان القيمة الاجمالية بلغت نحو ٢٥٤ مليونا و ٦٨٦ الف واذ يقدر هوفولان هذه المبادلات بقيمة الربع ، فان ٣٢٠ مليون فرنك هي قيمة المبادلات التجارية السورية في سنة عادية قبل الحرب(١٠٥) .

وبناء على احصاءات قام بها القناصل الانكليز في المدن السورية وضع هوفولان جدولين بين فيهما كيف تتوزع قيمة المبادلات بين الدول الاوروبية(١٠٦) .

الواردات ، المجموع الاجمالي ١٠٧٫٨٨٩٫٠٠٠

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
بريطانيا	٤٠٫٢٥٢٫٠٠٠ فرنك	٣٧٫٣٪
تركيا	١٨٫٠٨٨٫٠٠٠ فرنك	١٦٫٧٪
فرنسا	١٠٫٥٨٩٫٠٠٠ فرنك	٩٫٨ ٪
النمسا	١٠٫٢٠٩٫٠٠٠ فرنك	٩٫٤ ٪
ايطاليا	٨٫٩٣٣٫٠٠٠ فرنك	٨٫٢ ٪
المانيا	٧٫٣٨٨٫٠٠٠ فرنك	٦٫٨ ٪
روسيا	٥٫٤٠٩٫٠٠٠ فرنك	٥٫٠ ٪
بلجيكا	٤٫٠٦٩٫٠٠٠ فرنك	٣٫٧ ٪
مصر	٢٫٩٥٢٫٠٠٠ فرنك	٢٫٧ ٪

الصادرات ٦٧ر٩٠٤ر٠٠٠

الدولة	القيمة	النسبة المئوية
فرنسا	٢٢ر٠٨٣ر٠٠٠	٣٢ر٥٢٪
تركيا	١٥ر٦٥٦ر٠٠٠	٢٣ر٠٥٪
مصر	١٥ر٤٢٦ر٠٠	٢٢ر٧١٪
بريطانيا	٦ر٧٠٧ر٠٠٠	٩ر٨٧ ٪
الولايات المتحدة	٤ر٠٦٨ر٠٠٠	٥ر٩٩ ٪
ايطاليا	١ر٤٢٤ر٠٠٠	٢ر٠٩ ٪
روسيا	١ر٢٠١ر٠٠٠	١ر٧٦ ٪
المانيا	٧٢٦ر٠٠٠	١ر٠٦ ٪
النمسا	٦١٣ر٠٠٠	٠ر٩٠ ٪

ومن هذين الجدولين يتبين ان فرنسا كانت تحتل المقام الاول في الاستيراد من سورية ، وهذا ما تؤكده مذكرة غرفة تجارة مرسيليا المرفوعة الى وزير الخارجية الفرنسية عام ١٩١٥ والتي جاء فيها ان فرنسا هي افضل مستورد من سورية ، فقد بلغت صادرات سورية الى فرنسا ماقيمته ١٥ مليون فرنك فرنسي ، فيما بلغت قيمة الصادرات الى بريطانيا ٦ ملايين ، والمانيا ١ر٣٠٠ر٠٠٠ ، والنمسا ٩٧٥ر٠٠٠ ، واهم هذه الصادرات الحرير ، ويليه الصوف والقطن والجلود والبرتقال .

هذه المعلومات تدل على ان فرنسا كانت تستفيد بشكل اساسي من الموارد الزراعية الاولية تلبية لحاجات صناعاتها ، بينما لا تستفيد بنفس القدر من الامكانات الشرائية السورية ، وتنافسها في ذلك بريطانيا . وقد تنبه الفرنسيون الى ان امكانات سورية الشرائية كانت اخذة في التقهقر وان سورية اخذت تتلقى اكثر مما تعطي ، وفي عام ١٩١٤ ، بلغت قيمة صادراتها نصف قيمة وارداتها ، وفي سنة ١٩١٩ اتسع الفرق بين الصادرات والواردات ، فاذا كان الفرق قبل ذلك بنسبة ١ الى ٢ ، أصبح ١-٦، وفي رأي هوفولان ، وهذا ما ذكره في تقريره ، ان عدم التوازن بين الصادر والوارد مؤقت ، وان التدني عام ١٩١٩ يعود بالدرجة الاولى الى انقطاع العلاقات الاقتصادية بين الداخل الذي تحتله السلطات الشريفية ـ الانكليزية والساحل الذي تديره فرنسا(١٠٧) .

في الوقت ذاته ، كانت غرفة تجارة مرسيليا تتطلع الى تعويض ما فاتها في حركة التبادل مع سورية من جهة مبيعاتها واحتكار السوق السوري كوسيلة لمحاربة تدفق السلع الاوروبية المنافسة لها .

بعد عرضنا للتقارير السابقة والتي جاءت كوثائق هامة ، ليس فيما تحويه من معلومات واحصائيات فحسب ، وانما للاهداف التي وضعت من اجلها ، وظروف وضعها ، وتقديمها للمسؤولين الفرنسيين والمؤسسات الاقتصادية والراي العام ،يمكن ان نجمل مضمونها فيما يلي :

أ ـ ان الوضع الاقتصادي في سورية منذ عام ١٩١٢ وحتى نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان يسير من سيء الى اسوا .

ب ـ ان التدهور الذي اصاب الاحوال الاقتصادية في سورية، والعلاقات الاقتصادية الفرنسية معها والتي اصبحت في غير مصلحة فرنسا ، تعود الى عوامل عديدة ،بعضها آني يتعلق بالحرب العالمية الاولى واحداثها وبعضها مزمن يتعلق بوجود الدولة العثمانية وارتباط سورية بها سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .

جـ ـ بعد ان توصلت التقارير الى ذلك طرحت حلولا متعددة للمشاكل التي قدمتها ، وذلك من وجهة النظر الفرنسية ، تمثلت باقامة نظام سياسي جديد وتغير اجتماعي واقتصادي . ولا يتم ذلك الاعن طريق فرنسا .

وهذه التقارير بما جاء فيها من حلول واقتراحات جاءت في وقت كان فيه القلق والاضطراب قد اجتاح العالم وخاصة بعد ان هبت رياح الحرب العالمية الاولى وما سبقها واحاط بها من تنافس دولي ، وهذا القلق كان لفرنسا نصيب وافر منه ، فهي صاحبة المصالح الاقتصادية المتعددة في سورية ، وقد بدا واضحا على المؤسسات الاقتصادية التي كانت تضغط وبصورة مستمرة على الدوائر السياسية في باريس لتقف بحزم الى جانب الاحتفاظ بهذه المصالح. وهذا ما تؤكده رسالة غرفة تجارة ليون بشأن اتفاقية سايكس بيكو والمؤرخة في ٢٥ تشرين الاول ١٩١٨ والموجهة الى وزير الخارجية الفرنسية(١٠٨) ، فهي تظهر المزج الواضح بين الهدف الاقتصادي والغاية السياسية ، ولذلك ، ومن خلال هذا القلق ، وضعت تلك التقارير المسألة الاقتصادية كمسألة رئيسية يجب حلها بطريقة تخدم مصالح فرنسا الاقتصادية .

لقد توصلت هذه التقارير الى النتيجة التي هدفت اليها وهي ان تقوم الدوائر السياسية بوضع يدها على سورية ، لتقيم فيها النظام السياسي الذي يضع الحلول للوصول الى الاهداف الاقتصادية ، ويربطها بعجلة الراسمالية الفرنسية . ولذلك

حدث التدخل العسكري الفرنسي الثاني في سورية عام ١٩١٩ ، وتلاه القضاء على الدولة العربية القائمة بدمشق عام ١٩٢٠ .

وكان قد رافق هذا التدخل العسكري طرح نظام الانتداب الذي لم يكن سوى شكل جديد من انواع الاستعمار تفتقت عنه عقلية المستعمرين ، عندما اشارت هذه التقارير وبصراحة الى ان نظام الانتداب هو خير طريق لوصول فرنسا الى غرضها في استغلال سورية اقتصاديا ، وهذا سيؤدي الى تحسين اوضاع سورية الاقتصادية ؛ وتعود الفائدة على فرنسا ذاتها .

من ناحية عامة ، فان ما صورته التقارير الفرنسية السابقة بالوضع السيء الذي كان في سورية من الناحية الاقتصادية لم يكن حقيقة ، فالاقتصاد السوري كان مزدهرا ، وهذا لا يعني انه لم يكن يتعرض للازمات خصوصا في الازمات العالمية ؛ ولكن الاحوال الاقتصادية بوجه عام كانت مزدهرة ، والاقتصاد السوري يتمتع بوضع خاص في الامبراطورية ، واوضاع سورية الاقتصادية تعتبر افضل من غيرها من الولايات العثمانية . فالتجارة فيها كانت رابحة ، يخدمها في ذلك وضعها الجغرافي الممتاز ، وتجارة الترانزيت كان لها سهم وافر . وفي الزراعة ، كانت تعتبر موردا رئيسيا للمصادر الزراعية في الامبراطورية العثمانية ، وصناعاتها التقليدية كانت مزدهرة ، والصناعة الحديثة اخذت تجد لها مكانا .

معنى ذلك ان التصور الذي اعطاه الفرنسيون عن سوء الاحوال الاقتصادية قبل الاحتلال الفرنسي لم يكن حقيقة ، وهنا ننتقل الى الاحوال الاقتصادية بعد هذا الاحتلال .

عندما سيطر الفرنسيون على سورية ، ارادوا ان يجعلوا منها قاعدة هامة من قواعدهم الاقتصادية(١٠٩) وذكر غورو (Gouraud)(١١٠)، في تموز ١٩٢٠ وبعد دخوله دمشق « لقد انفتح مستقبل غني للتجارة الفرنسية في الشرق(١١١) » لذلك اصبحت المهمة العاجلة للرأسمالية الفرنسية هي فتح سورية سوقا لسلع فرنسة المصنعة .

خاتمة :

لقد تركزت مصالح فرنسا الاقتصادية في سورية في بادىء الامر من خلال الامتيازات العديدة التي حصلت عليها فرنسا في الدولة العثمانية ؛ على اساس ان سورية كانت جزءا من الامبراطورية العثمانية .

ان التطور التاريخي لهذه المصالح الاقتصادية تأثر بالعلاقات التي كانت تربط الدولتين العثمانية والفرنسية وبالاهداف التي كانت تسعى اليها فرنسا من وراء تلك

العلاقات ، كما ان هذه العلاقات كانت تتأثر تأثرا مباشرا ايضا بالعلاقات التي كانت تربط الدولة العثمانية بالدول الاوروبية الاخرى وهذا بالتالي كان يترك بصماته على المصالح الاقتصادية الفرنسية .

لقد كانت الامتيازات Capitulation هي الباب الذي نفذت منه فرنسا الى الشرق واقامت مصالحها الاقتصادية فيه خاصة في سورية ، من حيث أن هذه الامتيازات كانت في معظمها اقتصادية ، والدارس لبنود هذه المعاهدات التي صيغت فيها هذه الامتيازات ، يجد ان المظاهر الاقتصادية هي الغالبة ، واصبحت هذه المصالح الاقتصادية حسب المنظور الفرنسي المبني على الاستغلال حقوقا مكتسبة لفرنسا لا تقبل فيها المساومة او المنافسة ، خاصة عندما اغتنمت فرنسا فرصة ضعف الدولة العثمانية وحاجتها الى الاموال ، فانفتح الضغط الاوروبي عامة والفرنسي خاصة على مصراعيه ليجعل من الدولة العثمانية ارضا خصبة وملائمة للاستغلال الاوروبي.

وفي مطلع القرن العشرين كانت سورية تشكل الحلقة الرئيسية في بناء المصالح الاقتصادية الفرنسية ، واصبحت الاموال الفرنسية ذات اهمية بالغة في الاقتصاد السوري ، واصبحت معظم المشاريع الاقتصادية يتم تحويلها برؤوس اموال فرنسية.

وكانت قد دخلت تأثيرات اقلقت المسؤولين الفرنسيين وجعلتهم في حالة من الخوف على هذه المصالح ، وهذه التأثيرات بدأت بدخول عنصر المنافسة الانكليزية اولا ثم الالمانية ثانيا . ثم اصبحت انظار فرنسا مركزة على سورية وتخشى ضياع مصالحها الاقتصادية فيها ، وقامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بتوجيه من المسؤولين السياسيين بدراسة الاوضاع الاقتصادية في سورية ذات العلاقة المباشرة مع المصالح الفرنسية ووضعت التقارير التي بينت ، من وجهة النظر الفرنسية ، مدى التدهور الذي أحاط بالوضع الاقتصادي السوري وتأثر فرنسا اقتصاديا بتلك الاوضاع ، وأخذت تشير هذه التقارير بصورة واضحة الى وجوب وضع فرنسا يدها على سورية وخلق نظام سياسي يتمشى مع المصالح الاقتصادية الفرنسية ، خاصة بعد اندلاع نيران الحرب العالمية الاولى .

لقد قامت المؤسسات الاقتصادية الفرنسية بدور رئيسي في توجيه السياسة الفرنسية نحو الاستيلاء على سورية ، وهذا ناجم عن الترابط بين المؤسستين السياسية والاقتصادية في نظام راسمالي تقوم عليه الدولة الفرنسية ، ثم تبنى العسكريون الفرنسيون مبدأ التدخل العسكري الفرنسي في سورية لوضع توجيهات السياسيين والاقتصاديين موضع التنفيذ ، ولذلك كان التدخل العسكري الفرنسي الثاني عام ١٩١٩ في سورية ، الذي اعقبه تدهور اقتصادي انعكست آثاره على السوريين انفسهم وارتبطت سورية بعجلة الراسمالية الفرنسية .

الحواشي :

(١) ان تعبير سورية في هذهالورقة سيطلق اصطلاحا على سورية الطبيعية او بلاد الشام ، والحقيقة توجد اختلافات في استخدام تعبير سورية ، وخير من تعرض لهذه الاختلافات وبين حدود سورية الطبيعية او بلاد الشام الجغرافية ـ التاريخية هو محمد كرد علي في خطط الشام جـ١،بيروت، ١٩٦٩ ، ص ٩ـ١٠ .

وايضا :

A. Hourani , Syria and Lebanon, A political Essay (London: Oxford University Press, 1954), PP.4-5.

(٢) للاطلاع على هذا التدخل والظروف والدوافعالتي احاطت به ، راجع : احمد طربين ١٤ زمة الحكم في لبنان ، دمشق ، ١٩٦٩ ، ص ١١٩ ومابعدها .

وايضا :

Emerit M. « la crise Syrienne et l'expansion econmique française en 1860», Revue historique 22711, 1952, 67 année, pp. 211-232 .

(٣) للاطلاع على نص صك الانتداب على سوريةولبنان ، راجع : حسن الحكيم ، الوثائق التاريخية المتعلقة بالقضية السورية في العهدين العربيالفيصلي والانتدابي الفرنسي (بيروت : دار صادر، ١٩٧٢) ص ٢٢٩ـ٢٣٤ .

(٤) ـكان التجار الايطاليون من البنادقة والفلورنسيين اسبق الاجانب الى التاجرة مع بلاد الشرق الادنى والاقامة فيها ، وكان التجار الاخرونمن انكليز وفرنسيين وغيرهم يمارسون تجارتهم عن طريق هؤلاء التجار الايطاليين . راجع :احمد عزت عبد الكريم ، دراسات في تاريخ العربالحديث (بيروت : دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، ١٩٧٠) ص ٣٨.

(٥) وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والشرق العربي ١٨٦٠ ـ ١٩٢٠ (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٢)، ص ٤١ـ٤٢ . وللتوسع في هذا الموضوعراجع: محمد انيس ، محاضرات في تاريخ الشرق الاوسط الحديث (القاهرة : مكتبة دار العالمالعربي، بدون تاريخ) ص ١١٧ـ١١٨ .

(٦) عبد العزيز محمد عوض ، الادارة العثمانيةفي ولاية سورية (القاهرة : دار المعارف ١٩٦٩) ، ص ٨٠ وما بعدها

(٧) « Capitulations » وهي ماخوذة من Treaty Capitula او Chapter at

انظر: George Lenczowski, The Middle East in world Affairs (Ithaca, New York: Cornell University press,1958), p.5.

اما محمد انيس فهو يستخدم تعبير المعاهدات المنظمة لحياة الاوروبين بدل الامتيازات ، حول ذلك ورايه في اصول الامتيازات راجع : محمد انيس المرجعالسابق ، ١١٨ـ١١٩ .اما تعريف « الامتيازات » فان ساطع الحصري يعرفها «بانها تلك التي نشات عن الفرامين التي اصدرها

والمعاهدات التي ابرمها سلاطين ال عثمان في تواريخ مختلفة في شتى الظروف والمناسبات وانها كانت تاخذ شكل نظم تعهدية » .

راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠)، ص ١٤٢ .

(٨) The Encyclopaedia of Islam, New Edition « Imtiyazat » Vol 111, pp. 1178 - 1195. Leiden :E.J. Brill, and London: Luzac Co. 1979, p. 1178.

(٩) المصدر ذاته ، ص ١١٨٢ . وايضا :

William Yale, The Near East, A modern History (Ann Arbor : The University of Michigan press, 1958),p.23.

ويذكر ستانفورد شو انه في عام ١٤٥٤ اعطيت للبندقية حقوق تجارية خاصة من قبل الدولة العثمانية.

راجع :

Stanford Shaw, History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, Vol. 1. Empire of the Gazis (Cambridge: Cambridge University press, 1956), p. 62.

(١٠) محمد فريد ، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق احسان حقي ، (بيروت : دار النفائس، ١٩٨٣) ، ص ٢٠٢ ويذكر محمد فريد ان اول معاهدة تجارية امضيت بين الدولة العثمانية والاوروبيين تلك المعاهدة التي عقدها مـراد الاول مع جمهورية راجـوزة (راكوز) Raguse عام ١٣٦٥ وهي الان بلدة يوغوسلافية وتسمى دوبروفنيك Dobrovnik وتقع على شاطىء البحر الادرياتيكي . راجع : المرجع ذاته ، ص١٣١.

(١١) George kirk, A short History of the Middle East.(Methuens London: University paper Backs, 1964, p. 55.

(١٢) امكن التوصل الى هذه الاتفاقية بعد مفاوضات اجراها السفير الفرنسي في استانبول جان دي لافوريه (Jean de laforet) وابراهيم باشا الصدر الاعظم . للاطلاع على هذه المفاوضات راجع : The Encyclopaedia of Islam, p. 1183.

(١٣) شارل الخامس هو ملك اسبانيا والهابسبرج هي الاسرة التي ينتمي اليها وهي من الاسر العريقة في اوروبا وتنسب اسرة الهابسبرج الى قلعة هابس (Habs - bourg) اي قلعة الصقر وهي قلعة في سويسرا الالمانية .

راجع : عبد العزيز محمد الشناوي ، اوروبا في مطلع العصور الحديثة جا (الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٧)، ص ٢٢٧.

(١٤) محمد انيس المرجع السابق ، ص٩٨-٩٩.

(١٥) نص هذه الاتفاقية وهو نص مترجم من مجموعة البارون دي تستا الموجودة في الكتبخانة الخديوية في: محمد فريد ، ص ٢٢٤-٢٢٩ . وايضا في J.C. Hurewitz, The Middle East and

North Africa in world politics, A documentary Record, Vol.1. (New Haven and London: Yale University press, 1975), pp. 1-5.

(١٦) Lenczowski, op. cit. p. 5.

(١٧) احمد عزت عبد الكريم ، المرجع السابق،ص ٢٨

(١٨) للاطلاع على الدور الذي لعبته غرفة تجارةمرسيليا في التجارة مع الشرق راجع : رسالة غرفة تجارة مرسيليا الى وزير الخارجية الفرنسيةالمؤرخة في ٢٦ تموز ١٩١٥ في : وجيه كوثراني ،بلاد الشام ، السكان والاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ـ قراءة في الوثائق (بيروت ، معهد الانماء العربي ، ١٩٨٤)،ملحق رقم ٢٢، ص.٢٩٠ـ٢٩١ .

(١٩) للاطلاع على البند الاول من اتفاقية ١٥٢٥ والذي جاء فيه ذلك في : محمد فريد ، ص ٢٢٤.

(٢٠) للاطلاع على نص هذه المعاهدة راجع : محمدفريد ، ص ٢٤٢ـ٢٤٥ .

(٢١) The Encyclopaedia of Islam, p. 1184.

(٢٢) Stanford Shaw, op. cit, p. 177.

(٢٣) عادل اسماعيل واميل خوري ، السياســة الدولية في الشرق العربي (٧٨٦ ١ـ ١٩٥٨) جـ١ (بيروت : دار الكتب ١٩٦٤) ،ص١٨

(٢٤) اشتهر هذا الكاردينال الفرنسي في تاريـخ العالم الاوروبي بالسياسة والتدبير وكانت كل مساعيه موجهة نحو امرين اولهما : اذلال اشراف فرنسا لتقوية سلطة الحكومة وثانيهما : اضعاف مملكة النمسا حتى لا يخشى منها على فرنسا .

راجع : محمد فريد ، ص ٢٩٢ هامش رقم (٣).

(٢٥) حكمت ياسين، السياسة الفرنسية تجاه الثورة العربية (تونس الدار التونسية للنشر ، ١٩٨١) ص ١٤ـ١٥ .

وايضا : Lenczowski, p. 266

(٢٦) للاطلاع على هذه التجديدات في الامتيازاتونوعيتها راجع :

The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٢٧) اسرة كوبريلي (١٦٥٦ ـ ١٦٨٣) مؤسسهاهو محمد كوبريلي الالباني الاصل الذي دخل في خدمة الدولةعن طريق الدفشرمة ثم التحق بالخدمةالعسكرية ثم بقوة حراسة قرية كوبري في الاناضول (ومنها اتخذ اسمه) ثم تولى منصبالصدارةالعظمى حيث تصدى للمشاكل الداخلية والتهديدات الخارجية ، وفي عام ١٦٦١ تولى منصــب الصدارة ابنه فاضل احمد باشا الذي توفي عام١٦٧٦، وخلفه اخرون من نفس الاسرة .

للاطلاع على هذه الاسرة ونشاطها في الدولةالعثمانية راجع : احمد عبد الرحيم مصطفى ، اصول التاريخ العثماني ، (بيروت : دارالشروق ١٩٨٢) ص ١٥٢ـ١٥٨ .

(٢٨) The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٢٩) حكمت ياسين ، ص ١٥ .

(٣٠) راجع : حسين مؤنس الشرق الاسلامي في العصر الحديث (القاهرة ، مطبعة حجازي ،١٩٣٨) ص ٧١.

(٣١) The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٣٢) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص٧٢.

(٣٣) احمد عزت عبد الكريم ،ص٤٩ـ٥٠ .

(٣٤) للاطلاع بشكل واسع على الاسباب التي ادت الى انحدار التأثير السياسي الفرنسي راجع : Hourani, p. 148

(٣٥) للاطلاع على نص مشروع هذه المعاهدة وما سبقها من اتصالات بين الدولتين راجع : محمد فريد ص ٢٧٩ـ٢٨٠ .

(٣٦) Stanford shaw, p. 270.

وايضا: Lenczowski, p. 266.

(٣٧) William Roe Polk and R.L. Chambers, eds., Beginings of modernization in the Middle East: The Nineteenth Century (Chicago : University of Chicago press, 1968), p. 208 .

(٣٨) جاء ابرام هذه المعاهدة اثر عقد مؤتمر في باريس سنة ١٨٥٦ لاعادة الصلح والسلام بين المتحاربين في شبه جزيرة القرم والتي بدات كحرب بين الدولة العثمانية وروسيا سنة ١٨٥٤ عندما هجم الاسطول العثماني الذي كان راسيا في ميناء سينوب ودمره وهبت بريطانيا لمساعدة الدولة العثمانية ، واقنعت دول اخرى للاشتراك معها ومن ضمنها فرنسا لارسال حمله الى القرم لضرب روسيا في بلادها . راجع : ساطع الحصري ، ص ١٥١ .

(٣٩) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ١٩١٩ـ١٩٤٥ (بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٥) ،ص١٦.وللتوسع في هذا الموضوع راجع :
The Encyclopaedia of Islam ,p. 1187.

(٤٠) للاطلاع على نص هذه المادة راجع محمد فريد، ص ٥٢١ ويمكن الاطلاع على نص المعاهدة كاملة في: Hurewitz, pp. 319-322.

(٤١) للاطلاع على هذه التنظيمات راجع : محمد انيس ص ١٥٤ـ١٥٥.

(٤٢) يمكن مراجعة هذه المحاولة التي قام بها عالي باشا في :

Jacques Thobie, Interets et imperialisme français dans l' Empire Ottoman, 1895 - 1914, (Paris: publications de la Sorbonne , 1977), pp. 25 - 27.

وايضا : The Encyclopaedia of Islam, p. 1188.

(٤٤) William yale, op. cit., p. 215.

(٤٥) Stanford Shaw, p. 181.

(٤٦) Hurewitz, pp. 5-6.

(٤٧) للاطلاع على ذلك وبالتفصيل راجع : The Encyclopaedia of Islam, p. 1184.

(٤٨) Shaw, p. 181.

وللاطلاع على النص الانجليزي لهذه الاتفاقيةراجع :

Hurewitz , pp. 8-10 .

(٤٩) تالفت هذه الشركة من نفس المجموعة من التجار الانجليز الذين ارسلوا هاربورن الىاسطنبول وضمت اخرين ، وفي ١١ سبتمبر ١٥٨١ اصدرت الحكومة الانجليزية ميثاقا للشركة تقوم بموجبه بمزاولة التجارة الانجليزية مع الامبراطوريةالعثمانية . انظر : Shaw, p. 181.

وللاطلاع على نصوص ذلك الميثاق بالانجليزيةراجع :

Hurewitz, pp. 10-15.

(٥٠) Ibid., p. 10.

(٥١) للاطلاع على النص الانجليزي لقرار البرلمانالبريطاني ، راجع :

Hurewitz, pp. 223-226 .

(٥٢) A.C. wood, A History of the Levant Company, (London : oxford University press, 1935) , pp. 6-14.

(٥٣) محمد انيس ، ص ١٢٠.

(٥٤) Kirk, p. 69.

(٥٥) احمد عزت عبد الكريم ، ص٣٨.

(٥٦) Kirk, p. 65.

(٥٧) Hurewitz, p. 34.

(٥٨) للاطلاععلىهذهالمفاوضاتراجع: G.F. Abbot, Under the Turk in Constantinople, A record of Sir John Finch's Embassy, 1674 - 1681 (London, Macmillan, 1920), pp. 9-11.

وللاطلاع على نصوص هذه الاتفاقية راجع: Hurewitz, pp. 34-41.

(٥٩) وجيه كوثراني ، الاتجاهات الاجتماعية ـ السياسية في جبل لبنان والمشرق العربي،ص٤٦.

(٦٠) للاطلاع على نص هذه الاتفاقية راجع : Hurewitz, pp. 265-266.

(٦١) راجع نص المعاهدة في : Hurewitz, pp. 319-322.

(٦٢) للاطلاع على ذلك راجع : علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطالية من الوحدة العربية ١٩١٩ـ١٩٤٥ (بيروت : مركز دراساتالوحدةالعربية ،١٩٨٥) ص ١٦. اما نص المادة (٨) من معاهدة برلين فيمكن الاطلاع عليها في : محمد فريد ، ص ٦٨٣.

(٦٣) Kirk, p. 89.

وايضا : The Encyclopaedia of Islam, p. 1185.

(٦٤) في هذا العام تقدمت الجيوش الالمانية سريعاً في الاراضي الفرنسية واخذت تهزم الجيش الفرنسي في مواقع متتالية ، واضطرت باريس في النهاية الى التسليم في ٢٨ كانون الثاني (يناير)١٨٧١ انظر : محمد قاسم واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث (القاهرة : دار المعارف ، بدون تاريخ) ، ص ١٧٣-١٧٤.

(٦٥) للاطلاع على معاهدة برلين راجع :

Hurewitz, Diplomacy in the Near and Middle East, Vol.1 A documentary Record, (Princeton : Van Nostrand, 1956), pp. 189-190.

(٦٦) علي محافظة ، العلاقات الالمانية الفلسطينية، ١٨٤١ ـ ١٩٤٥ (بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨١) ، ص ١٢-١٣.

(٦٧) محمد انيس ، ص١٠٣ و ص ١٤٢.

(٦٨) المرجع ذاته ، ص ١٤٢ .

وايضا : Lenczowski, p. 23.

(٦٩) للاطلاع على وجهة نظر بسمارك حول تلك المعارضة رجع :محمد انيس ، ص ١٠٤.

(٧٠) المرجع ذاته ، ص ١٠٥.

وايضا : زين نور الدين زين ، الصراع الدولي في الشرق الاوسط وولادة دولتي سورية ولبنان (بيروت : دار النهار للنشر ،١٩٧١) ص ٥٠.

(٧١) Kirk, pp. 89-90.

وايضا : محمد انيس ، ص ١٠٥-١٠٦.

Raymond Poidevin, les relaitons économiques et Financieres entre la France et l'Allemagne de 1898 - 1914,(Paris : Armand Colin, 1969) p. 254 .

(٧٣) محمد انيس ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٧٤) Kirk, p. 90.

وايضا : Poidevin, p. 65.

(٧٥) محمد انيس ، ص ١٤٣-١٤٤.

(٧٦) للاطلاع على نشاط هذه البنوك والشركات التي اسستها راجع : Poidevin, p. 568.

(٧٧) Ibid., pp. 488-589.

(٧٨) للتوسع في هذا الوضوع والقارنة بين التجارةالالمانية والفرنسية راجع :
E.m. Earle: Turkey, The great powers and the Bagdad Railway,A study in the imperialism, London, New York, 1923, p. 106.

(٧٩) جلال احمد امين ، الشرق العربي والغرب(بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ،١٩٧٩)، ص ٢٥ .

(٨٠) حول هذه البنوك ونشاطها راجع : Thobie, pp. 450-524.
وايضا :
P. lyautey, le Drame oriental de la Role de la France, paul Brodard, 1924, p. 151.

(٨١) Thobie, pp. 170-172.
وللاطلاع على العوامل التي كانت تشجيع الشركات الاجنبية الىالتسابق في مد الخطوطالحديدية راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ص ١٤٦–١٤٧.

(٨٢) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليةمن الوحدة العربية ،ص٢١.

(٨٣) Poidevin, op. cit,. p. 65.

(٨٤) Thobie, p. 524.

(٨٥) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليةمن الوحدة العربية ص ١٧–١٨.

(٨٦) Thobie, pp. 95-100.

(٨٧) Ibid., p. 158-160.
وايضا : علي محافظة ، العلاقات الالمانية الفلسطينية ، ص ١٨.

(٨٨) حكمت ياسين ، ص ١٩.

(٨٩) Poincaré, Raymond, Au service de la France Les Petits fils de plont et Nouvrit. Paris , 1945, p. 405.
وايضا : ساطع الحصري ، يوم ميسلون ،مذكرات (بيروت : دار الاتحاد ، بدون تاريخ)ص.٥٠.

(٩٠) Leonard Stein, Syria (London: rnest Ben , 1926), p. 19.

(٩١) حكمت ياسين ، ص ٢٨
وللاطلاع على نص الاتفاقيات التي عقدت بينالدولة العثمانية وفرنسا راجع : ساطع الحصري، البلاد العربية والدولة العثمانية (بيروت :دار العلم للملايين ، ١٩٦٠) ،ص٢١٩–٢٢٠ .

(٩٢) للاطلاع على تلك المفاوضات والاتفاقيات راجع: المرجع ذاته، ص ٢٠٤ –٢١٥ و ٢٢٣، ويمكن الاطلاع على تعليق ساطع الحصري حول تلك الاتفاقيات في المرجع ذاته، ص ٢٢٤–٢٢٧.

(٩٣) فاضل حسين ، مؤتمر لوزان واثره في البلادالعربية (القاهرة : دار النهضة ، ١٩٥٨) ، ص ٢٤-٢٥.

(٩٤) علي محافظة ، موقف فرنسا والمانيا وايطاليا من الوحدة العربية ، ص ٤١ نقلا عن :

Emile Laloy, ed ., les documents secrets des archives du Ministère des Affaires Etrangères de Russie Publiés par les Bolcheviks(Paris: Brossard, 1919), pp. 107 - 110 .

(٩٥) وجيه كوثراني ، بلاد الشام : السكان والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، قراءة في الوثائق (بيروت : معهد الانماء العربي،١٩٨٤)، ص ١٠٢ .

(٩٦) P. Chevallier, « lyon et la syrie en 1919, les bases d' un intervention» Revue Historique, oct.-dec . 1960, p.286 .

(٩٧) للاطلاع على المزيد حول هذا الموضوع راجع: حكمت ياسين ، ص ٣٥.

(٩٨) Chevallier, op. cit., p. 295.

(٩٩) وجيه كوثراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢نقلا عن :

Chambre de commerce de Marseille:Note sur la valeur économique de la Syrie, Marseille, 1915, p. 22.

ويمكن الاطلاع على تجارة الحرير السورية مع فرنسا في :

Henry Richard , la Syrie et la Guerre,Dessaint et Cie. 1916., p. 19.

(١٠٠) هذا التقرير في : وجيه كوثراني ، المرجع السابق ، ص ١١٢-١١٤ نقلا عن التقرير الذي وضعه بالفرنسية

(M. croizat) Rapport sur la Sericiculture en Syrie etabli par M. Croizat, a la suite de la mission envoyée en Syrie par les Chambres de Commerce de lyon et de Marseille(1919) .

(١٠١) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيه كوثراني ، المرجع السابق ، ص١١٥ - ١٢١، نقلا عن تقرير Huvelin بالفرنسية Paul Huvelin, que vaut la Syrie, Documents economiques Politiques publiés par « L'Asie française » des. 1921 pp. 15-18.

(١٠٢) هو احد المهندسين الزراعيين اشترك في بعثةهوفولانعام ١٩١٩لدراسة اوضاع سورية الاقتصادية.

(١٠٣) للاطلاع على هذا التقرير راجع : وجيه كوثراني ، ص١٢١-١٢٢ ،نقلا عن تقرير (Achard) بالفرنسية .

Achard, Notes Sur la Cilicie et Notes sur la Syrie par Ed - c. « Supplement a' L'Asie Française » juillet - Aout , 1922, p. 102.

(١٠٤) وجيه كوثراني ، بلاد الشام ، السكان ،الاقتصاد والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين، قراءة في الوثائق ، ص ١٣٩ .

(١٠٥) المرجع ذاته ، ص ٣٩ ١.

(١٠٦) تقرير هوفولان ، ص٤١ .
للاطلاع على نص هذه المذكرة راجع : وجيه كوثراني ، ملحق رقم ٢٢، ص٣٩٠-٤٠٩ .

(١٠٧) تقرير هوفولان ، ص ٤١ .

(١٠٨) للاطلاع على نص هذه المذكرة راجع : وجيه كوثراني ، ملحق رقم ٢٤ ، ص٤١١-٤١٣.

(١٠٩) جريدة فتى العرب ، العدد ٢٤٢٧ ، السنة الثانية عشرة ، ١٣ اذار (مارس) سنة ١٩٢٠ .

(١١٠) غورو هو الجنرال الفرنسي الذي دخل دمشق في تموز ١٩٢٠ بعد معركة ميسلون وهو اول مفوض سامي فرنسي في سورية ولبنان .

(١١١) وجيه كوثراني ، بلاد الشام . السكان والسياسة الفرنسية في مطلع القرن العشرين ، ص١٤٦.

تنويه :

حدث خطأ في السطر الثاني من عنوان البحث ، والصحيح (١٥٣٥ - ١٩٢٠) .

دراســات تاريخية
٢٧ و ٢٨ ، ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧

القطائع في صدر الإسلام
(عصر الرسول والخلفاء الراشدين)

د. محمد عبد القادر خريسات

الجامعة الادرنية

مقدمة : عرف نظام القطائع منذ اقدم العصور ، ومارسته شعوب عديدة كالبابليين واليمنيين والفرس والبيزنطيين . ففي بلاد ما بين النهرين مواد قانونية عديدة تتعلق بالاراضي والملكية وشروط الاستغلال والايجار والقطائع . وتذكر لامبتون ان حكام بلاد ما بين النهرين اعتمدوا في تموينهم للجند ودفع مرتباتهم على منح القطائع لمن يقدمون الخدمات العسكرية(١) .

وقد اشارت المادتان (٢٧ ، ٢٨) من شريعة حمورابي الى هذا الشكل من القطائع(٢). واشارت المادة ٢٧ الى ما نصه : اذا اسر جندي او سماك في اثناء الخدمة المسلحة للملك . وبعد ذلك اعطي حقله وبستانه لرجل آخر ، واوفى ما عليه من الالتزامات الاقطاعية . فاذا عاد (الاسير) ووصل بلدته ، فعليهم ان يعيدوا له حقله وبستانه ، وعليه ان يمارس حقوقه الاقطاعية . اما المادة (٢٨) فقد نصت على ما يلي: اذا اسر جندي او سماك اثناء الخدمة المسلحة للملك ، وكان ابنه قادرا على القيام بالالتزامات الاقطاعية ، فعليهم ان يعطوه الحقل والبستان ، وعليه ان يمارس حقوق والده الاقطاعية . وحظرت المادة (٣٨) من شريعة حمورابي ان يقطع الجندي او السماك زوجته او ابنته من الحقل والبستان والبيت الذي اقطع له او يعطيه مقابل ما عليه من التزامات .

وفي اليمن شكلت الارض العنصر الاول في نظام الاقتصاد اليمني ، فكانت من الوجهة النظرية ملكا للآلهة ، لكنها من الوجهة العملية ملكا للملك يتصرف بها كما يشاء . وكان الملوك اذا غلبوا اعداءهم جعلوا ارضهم ملكا لهم ، لأنهم استولوا عليها

بالقوة ، فهي لهم ومن حقهم مصادرتها ، ويسلم الملك جزءا منها الى الآلهة اي المعبد، وجزءا الى شعب سبأ . وكان الملك يقطع هذه الاراضي الى البارزين في المجتمع مثل رؤساء القبائل : « شعبها » ، والقادة الكبار (كبر) ، مقابل دفع خراج يتفق عليه ، ويقوم هؤلاء باستغلالها (٢) . وقد تشكل هؤلاء (اوليغاركية) اقطاعية تحكم مع الملك (٤) .

وبرزت القطائع عند الفرس في القرنين الثالث والرابع الميلاديين وتميز ذلك بنمو المدن وتكاثرها ، وهي ظاهرة تلازم مقتضيات الاقطاع الشرقي(٥) . وتشير المصادر أن القطائع الفارسية كانت كغيرها من قطائع الشعوب الاخرى تهدف الى تقديم الخدمة العسكرية دون ان تكون حق ملكية خاصة . واصبح اصحاب هذه القطائع يشكلون مع الزمن طبقة بيدها الوظائف الهامة ، كما أصبحت هذه الوظائف وراثية في الدولة الساسانية وسميت بوظائف « شرف » تبين مكانة شاغليها .... وكانت قوة هؤلاء تستند على دخل اقطاعاتهم ، ثم على ما بينهم وبين رعاياهم في الاقطاع من صلة قوية وخاصة في العهد السابق على قباذ وكسرى الاول(٦) . ويعني مصطلح الدهاقين الذي بقي في العصور الاسلامية أنهم « الرؤساء وملاك الاراضي والقرى » . وكان هؤلاء (الدهاقين) كعجلات لا غنى عنها فيآلات الدولة ، ولهم قيمتهم التي لا تقدر على أساس ، من حيث أنهم أساس متين للادارة وبناء الدولة(٧) . وقد اقطع سابور مناطق الطف والقطقطانة والرهيمة وعين جمل الواقعة خلف الخندق الذي حفره بينه وبين العرب الى مرازبته يعتملونها من غير أن يلزمهم الخراج . وغلب العرب على طائفة من تلك العيون بعد ذيقار(٨) . كما كانت هناك قطائع لكسرى في القادسية وبارق ولعلع(٩) .

ولم تقتصر قطائع الفرس على مرازبتهم فحسب ، بل امتد ذلك الى القبائل العربية التي كانت مجاورة لهم . لقد اقطع الفرس الى ذوي الآكال من وائل شيبان ، واقطع قيس بن مسعود الشيباني الأبلة وثمانين قرية من قراها(١٠) ، واقطع الفرس امرأ القيس بن عمر بن علي بن نصر وشرفوه توجوه(١١) . كما قاموا باقطاع عدي بن زيد العبادي ، وكان هؤلاء أهل بيت يكونون مع الاكاسرة لهم معهم اكل وناحية ويقطعونهم القطائع ويجزلون صلاتهم(١٢) .

وتعدت قطائع الفرس اشراف القبائل الى الاشخاص العاديين ، فقد اقطع كسرى امرأة يقال لها ابان فسميت القرية باسمها (١٣)، واقطع المخرم بن يزيد بن شريح منزلا كان ينزله ايام نزول العرب السواد في بلاء الاسلام فسمي الموضع به(١٤) .

وفي الامبراطورية البيزنطية كانت الارض المصدر الرئيسي لخزانة الدولة ، والاقطاع لا يعطى الا لغرض الحماية والمؤونة . وقد كون الاقطاعيون طبقة من النبلاء الذين يتمتعون بالامتيازات الواسعة ، تمكنوا في القرن الرابع الميلادي من الحصول على حق الحماية Autopragia ، وذلك يعني عدم دخول الجباة أراضيهم . ويضاف الى ذلك ان التجارة والحياة المدنية قد ازدهرت الى جانب الاقطاع . وكان النبلاءوالسادة الاقطاعيون يعيشون في المدن ، وأراضيهم موزعة في جهات مختلفة(١٥) . ويذكر ابن عساكر ان قطائع بطارقة الروم في بلاد الشام يديرها الانباط ، اما البطارقة فيقيمون في المدن(١٦) . ومن قطائعهم في بلاد الشام بالس وقاصرين وما جاورهما من القرى(١٧) واندركسيان ، وقبيس بالبلقاء ، وفي خمص(١٨) .

وفي الاسلام اكتسب مفهوم القطائع مدلولات مختلفة عبر فترات التاريخ الاسلامي ، وبدات وجهات النظر تتباين حول مفهوم ملكية الارض منذ زمن عمر بن الخطاب ، وهذا الاختلاف شكل مفاهيم فقهية اخذت تتبلور في الفترة العباسية(١٩) .. وقد أدى ذلك الى اختلاف مفاهيم الاقطاع وتباينها حتى في العصر الواحد أحيانا . وتغير المفاهيم واختلافها امر طبيعي فلكل مجتمع مفاهيمه الفنيةالتي يتغير استعمالها بين فترة واخرى .

والقطائع لغة جمع قطيعة والقطيعة ما اقتطعته منه .. واقطعني اياها اذن لي في اقتطاعها . واستقطعه اياها : سأله ان يقطعه اياها . واقطعته قطيعة : اي طائفة من ارض . واقطعه نهرا : اباحه له(٢٠) . وورد في المصادر لفظة اقطاع وقطائع .. وفي المعنى الاصطلاحي عرف قدامة بن جعفر (ت بين ٣٢٨ ـ ٣٣٧ هـ) الاقطاع فقال « ان يدفع الائمة الى من يرون ان يدفعوا اليه شيئا مما ذكرناه (الارضين) ، فيملك المدفوع ذلك اليه رقبته بحق الاقطاع ، ويجب عليه فيه العشر (٢١) .

وعرّفه الخوارزمي (ت ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) بقوله : « الاقطاع ان يقطع السلطان رجلا ارضا فتصير له رقبتها ، وتسمى تلك الارضون قطائع ، واحدتها قطيعة»(٢٢).

اما ياقوت الحموي فنظر الى الاقطاع من زاويتين وقال: للقطيعة معنيان(٢٣) :

الاول : ان يعمد الامام الجائز الامر والطاعة الى قطعة من الارض ، يفرزها عما يجاورها ويهبها من يرى ، ليعمرها وينتفع بها .. إما ان يجعلها منازل ويسكنها من يشاء ، وإما ان يجعلها مزدرعا ينتفع بما يحصل من غلتها ولا خراج عليه فيه . أو ربما جعل على مزدرعها خراج .

والثاني : ان يقطع السلطان من يشاء من قواده وغيره القرى والنواحي ، ويقطع عليهم عنها شيئا معلوما يؤدونه في كل عام قل او كثر ، توفر محصولها او نزر ، لا مدخل للسلطان معه في اكثر من ذلك .

اما الخزاعي (ت ٧٨٩ هـ) فقد قال عن الاقطاع : « بانه تسويغ الامام من مال الله لمن يراه أهلا لذلك، فاصله كانه اقطع من جملة المال » (٢٤) .

وهذه التعريفات وان اختلفت في اللفظ ، الا انها تتفق في المعنى الذي يتمثل بمنح ولي الامر قطعة من الارض لشخص معين إما لغايات السكن أو الزراعة او الجندية(٢٥).

واورد الفقهاء الى جانب مصطلح الاقطاع والقطائع مصطلحات اخرى تختلف بعض الشيء عن القطائع وهي :

الايغار : وهو ان تحمي الضيعة من أن يدخلها احد من العمال واسبابهم بما يأمر الامام به من وضع شيء يؤدى فى السنة امافي بيت المال او في غيره من الامصار(٢٦). والايغار هنا شكل من أشكال القطائع التي اشار اليه ياقوت .

الطعمة : وهي ان يدفع للرجل الضيعة يستغلها مدة حياته حتى اذا مات ارتجعت بعده . والفرق بين الاقطاع والطعمة ان الاقطاع يكون لعقبه من بعده ، والطعمة ترتجع منه(٢٧) .. وهناك مصطلح ثالث وهو اقطاع الارفاق ويقصد به التمليك المؤقت كالقاعدة بالاسواق التي هي طرق المسلمين ، فمن قعد في موضع منها كان له بقدر ما يصلح له ما كان مقيما فيه ، فاذا فارقه لم يكن له موضع غيره كأبنية العرب وفسطاطيهم ، فاذا انتجعوا لم يملكوا بها حيث نزلوا(٢٨) ، وكذلك الاختصاص بالمساجد والربط لا ملك فيها مع التمكن من التصرف(٢٩) .

ولا يطلق لفظ الاقطاع او القطائع الا على ما يقطعه الامام لمن يراه من رعيته، فاذا صدر عن شخص عادي سمي عطية . فقد اورد البلاذري ما نصه : « كانت عين الرومية وماؤها للوليد بن عقبة بن ابي معيط فاعطاها أبا زبيد الطائي ، ثم صارت لابي العباس أمير المؤمنين فاقطعها ميمون بن حمزة »(٣٠) . كما لا يطلق لفظ القطائع على الارض التي يمنحها الخليفة لغير المسلم . فقد كتب عمر الى نصارى نجران عندما اجلاهم عن اليمن : « فمن مروا به من أمراء الشام وامراء العراق فليوسعهم من حرث الارض ، فما اعتملوا من ذلك فهو لهم ، صدقة لوجه الله عقبة لهم مكان أرضهم ولا سبيل عليهم فيه لاحد ولا مغرم »(٣١) وكتب عثمان بشأنهم الى الوليد بن عقبة

ما نصه : واني وفيت لهم بكل ارضهم التي تصدق عليهم عمر عقبي مكان ارضهم باليمن(٣٢) .

القطائع في عهد الرسول (ص) :

عرف العرب قبل الاسلام الملكية الفردية في المناطق الزراعية ، والملكية الجماعية في المناطق الرعوية . فقد جاء في الاغاني ان اوس بن قلامة قال لايوب بن محروف ، جد عدي بن زيد لما لحق به : فانظر احب مكان في الحيرة اليك فاعلمني به لاقطمكه او ابتاعه لك(٣٣) . وكان اللخميون يقطعون مساعديهم في الحيرة ، فقد اقطع النعمان بن المنذر السوادية لسواد بن زيد بن عدي(٣٤) . كما عرف العرب نظام القبالة ، فذكر البلاذري أن مرداس بن ابي عامر وكليب بن عهمة الظفري من بني سليم قد اختطا القرية وهي خطة بني سليم ، فلم يكن عندهما نفقة فجعلا لمن ينفق عليها ثلثها(٣٥) .

وعندما جاء الاسلام وهاجر الرسول «ص» الى المدينة كانت الملكية الفردية واضحة لان المدينة منطقة زراعية ماهولة . ولم يحاول الرسول «ص» ان يقلب المؤسسات الاقتصادية والمالية التي كانت قائمة فيها او ان يمس املاك اهلها(٣٦) . وبادر الانصار فجعلوا للرسول «ص» كل ارض لا يبلغها الماء يصنع فيها ما يشاء(٣٧) كما وهبوا له كل فضل في خطط المدينة(٣٨) . ثم تبلور بعد ذلك ملكية الدولة للاراضي ، وقد انطلق هذا المفهوم من موات الارض التي لا مالك لها ، ومن هنا قال الرسول «ص» عادي الارض لله ولرسوله ثم هي لكم(٣٩) ، والعادي كل ارض لها ساكن في قديم الدهر ، فانقرضوا حتى لم يبق بها احد فحكمها الى الامام . وتحدد المفهوم الثاني للارض عندما اقصي بنو النضير ، واعتبرت فيئا ، وهو تعبير غير محدد في أصله ومعناه ولكنه يستلزم حتما ان تكون هذه الغنيمة بيد الرسول «ص» يتصرف بها كما يشاء(٤٠) . وقد خص المهاجرين دون غيرهم ما عدا سهل بن حنيف وسماك الانصاريين لفقرهما .

وتمثلت دوافع الاقطاع في عهد الرسول «ص» بالامور التالية :

تالف القبائل على الاسلام : تشير المصادر الى ان الرسول «ص» قد اكثر من هذه القطائع خاصة في السنة التاسعة للهجرة التي سميت بعام الوفود . ومن تتبع المصادر يلاحظ أن هذه القطائع قد جاءت بمبادرة من رؤساء القبائل . وهذه القطائع كما يذكر ابو عبيد(٤١) كانت من موات ارضهم بعد ان اسلموا ، أو من الاراضي التي كانت مشاعا بين القبائل حيث كانت القبائل تتحامى بعض الارض تحاميا(٤٢) ، أو

كانت ملكيات مشتركة بين قبيلة او اكثر كالدهناء التي كانت لبني بكر وتميم(٤٣) . علما بأن القبائل كانت تضع علامات لها تسمى المنار(٤٤) .

ومن الذين اقطعهم الرسول «ص» لغايات التالف على الاسلام فرات بن حيان العجلي ، اقطعه ارضا باليمامة(٤٥) ، والعباس بن مرداس السلمي عندما شخص اليه «ص» واستقطعه الدثنية فاقطعه اياها على ان ليس له منها الا فضل ابن انسبيل(٤٦) ، والدثنية ماء لبني سليم(٤٧) ، واقطع «ص» راشد بن عبد ربه السلمي رهاطا وهي في ينبع ، وسعجى(٤٨) ، واقطع «ص» ربيع بن معاوية ومطرف بن عبد الله ، وانس بن قيس وهم وفد عقيل بن كعب عقيق بن عقيل ، وهي ارض فيها عيون ونخل وكتب لهم بذلك كتابا ، ولم يعطهم حقا لمسلم(٤٩) ، واقطع الرقاد بن عمرو الفلج ضيعة وكتب له كتابا(٥٠) ، وزيد الخيل الطائي فيد ومحطين في أرضه(٥١) ومجاعة بن مرارة بن سلمى الفورة وغرابة والحبل وهي مواضع ومياه في اليمامة(٥٢). واستقطع عمرو بن سلمة حمى بين الشقراء والسعدية فاقطعه اياها(٥٣) ، واقطع حمزة بن النعمان العذري رمية سوط من وادي القرى ، وكان حمزة سيد بني عذرة، وهو اول أهل الحجاز قدم على الرسول «ص» بصدقة بني عذرة(٥٤) . واقطع وائل ابن حجر الحضرمي وكان من ملوك اليمن ارضا بحضرموت(٥٥) ، والعداء بن خالد بن هوذة مياها كان لبني عمرو بن عامر(٥٦) ، ومعاوية بن جرول ما اسلم عليه وقومه من بلادهم ومياههم وغدوة الغنم من وراء البلاد التي اسلموا عليها(٥٧) ، واقطع الرسول «ص» كذلك بلال بن الحارث المزني قطائع متعددة(٥٨) . واقطع «ص» عوسجة بن حرملة الجهني من ذي المروة وهي قرية بوادي القرى ، وما بين بلكثة الى الطيبة الى الجعلاب الى جبل القلعة وهذه المناطق قريبة من ذي المروة(٥٩) . واقطع كشد بن مالك الجهني ينبع ، فلما أخذها قال اني كبير ، ولكن اقطعها لابن اخي فاقطعها له(٦٠)، واقطع لبني شيخ من جهينة ما خطوا من صفنية وما حرثوا (٦١)، والى حصن بن نضلة الاسدي ترمد وهي موضع في بلاد بني أسد(٦٢) ، والى قتادة بن الاعور بن ساعدة التميمي الشبكة وهي موضع بالدهناء(٦٣) ، كما اقطع عيينة بن حصن والاقرع بن حابس ، والرجال بن عنفوة ، ومحكم بن الطفيل(٦٤) .

واقطاع الرسول (ص) لهذه القبائل هو من باب اقرار الحقوق لها او لتاليفها على الاسلام كما ذكرت ، فقد سأل صخر بن العيلة الرسول (ص) ماء لبني سليم هربوا عن الاسلام وتركوا الماء ، فقال يا نبي الله انزلنيه انا وقومي . قال : نعم . فانزله . ولما اسلم السلميون اتوا صخرا فسالوه أن يدفع اليهم الماء ، فابى .. فاتوا النبي (ص) فقال يا صخر : ان القوم اذا اسلموا حرزوا اموالهم ودماءهم ، فادفع الى القوم ماءهم . قال نعم يا نبي الله (٦٥) ..

لاحياء الارض الموات : احياء الموات وسيلة لاستصلاح الاراضي واستغلالها ، ومن هنا راى الرسول (ص) منح هذه الاراضي الى اناس معينين كي يقوموا باستغلالها. ومن الذين اقطع لهم من الاراضي الموات ابيض بن حمال المازني ، اقطعه الملح الذي بمارب وهو يعتقد أن ذلك أرض موات يريد احياءها(٦٦) ، وسليط الانصاري اقطع أرضا ليحييها فاحياها ، لكنه عاد واستاذن الرسول (ص) بالتخلي عنها ، لانها تشغله عنه ، كما لم يعد له بها حاجة فاستقطعها الزبير فاقطعه اياها(٦٧) . واقطع كذلك الزبير بن العوام وابا بكر وعمر وسهيل بن حنيف وعبد الرحمن بن عوف عامرا ومواتا من اموال بني النضير ، وفي بعض الروايات غامرا وهي الخراب التي يبلغها الماء(٦٨) . واقطع عليا ارضا بينبع ، وعمار بن ياسر بذى العشيرة(٦٩) ، واقطع ابا بكر حجر ، وعمر بن الخطاب بئر جرم وصهيب بن سنان الضراطة ، وعبد الرحمن بن عوف سواله وكيدمه ، وابا سلمة بن عبد الاسد البويرة(٧٠) .

والواقع ان الرسول (ص) قد خص المهاجرين بأراضي بني النضير لحاجة المهاجرين أولا ، وحتى يخفف عن الانصار ، ويعيد للانصار ما اعطوا للمهاجرين عند قدومهم المدينة فقال (ص) مخاطبا الانصار : ليست لاخوانكم المهاجرين اموال ، فان شئتم قسمت هذه واموالكم بينكم وبينهم جميعا ، وان شئتم امسكتم اموالكم وقسمت هذه فيهم خاصة(٧١) . فلما طابت نفس الانصار عن هذه الاموال امر المهاجرين برد ما كان للانصار لاستغنائهم عنهم .. ولانهم لم يكونوا ملكوهم ذلك وانما دفعوا اليهم تلك النخيل لينتفعوا بثمرها(٧٢) . فكان هذا الاتجاه نحو الارض الموات وسيلة لاستصلاحها .

الخطط : لما هاجر الرسول (ص) الى المدينة انزل المهاجرين في دور الانصار يسكنون فيها معهم ، حيث يذكر أن سهم عثمان بن مظعون وقع على ام العلاء الانصارية(٧٣) . وبعد أن تخلى الانصار عن فضل خططهم ، واراضيهم التي لا يبلغها الماء الى الرسول (ص) ، قام عليه الصلاة والسلام باقطاع المهاجرين دورا وخططا في المدينة . ومن الذين اقطعوا دورا من الصحابة : أبو بكر(٧٤) ، وعثمان بن عفان(٧٥) ، وعمار بن ياسر(٧٦) ، والمغيرة بن شعبة ، اقطع خطة في البقيع (٧٧) . ولما خط الرسول (ص) المدينة جعل للزبير بن العوام بقيعا واسعا(٧٨) ، ولبني زهرة خطة في ناحية من مؤخرة المسجد فكان لعبد الرحمن بن عوف الحش ، والحش نخل صغر لا يسقى(٧٩) . وجعل الرسول (ص) لسلمة بن عبد الاسد موضع داره(٨٠) كما اقطع خطة لعمر بن الخطاب(٨١) ، وخطة لعثمان بن مظعون واخوته(٨٢) .

اقطاع النفل : وهناك شكل آخر من أشكال الاقطاع ، قام الرسول (ص) بمنحه لبعض الصحابة ، اعتبر من اقطاع النفل ، اي ان الاقطاع كان بمثابة الوعد بعد فتح

انبلاد . ومن الذين اقطعوا تميم بن اوس الداري . والواقع أن المصادر اختلفت في اسماء المواضع التي تم اقطاعها ، كما أن هناك اختلافا في صيغة الاقطاع . ويذكر ابو عبيد ان عمر بن الخطاب قد امضى لتميم اقطاعه لكنه اشترط عليه عدم البيع(٨٣)، كما اقطع لابي ثعلبة الخشني ايضا ارضا بالشام(٨٤) . وقال عبد الرحمن بن عوف: « قطع لي رسول الله ارضا بالشام يقال لها السليل ، ولم يكتب له بهاكتابا(٨٥) .

وقد جاءت صيغ القطائع في كتب الرسول (ص) للمقطع اليهم على اشكال :

اني اقطعتك(٨٦) ، وهذا ما اعطى(٨٧)، وأن لهم (٨٨) ، وما وهب(٨٩) ،وهب لي(٩٠) ، وأن له (٩١) . أما مساحات هذه القطائع فلم تكن معروفة تماما ، ولكن بعض المصادر اشارت الى الغلوة وهي قدر رمية السهم(٩٢) ، وفدوة الفتم(٩٣) .

مما تقدم يمكن القول ان قطائع الرسول(ص) كانت لغايات محددة ، فهي اما بيوتا للسكن او لزراعتها ، وأغلب هذه القطائع من الارض البور او « عادي الارض » التي لم يكن لها مالك،او لم تكن لها اهمية ، وهي بداية لظهور فكرة الملكية الفردية .

القطائع في عهد ابي بكر :

لم تاخذ القطائع بعدا كبيرا زمن ابي بكر ، نظرا لقصر مدته في الحكم وانشغال المسلمين بحروب الردة . وبعد الانتهاء من حروب الردة أخذ مفهوم ملكية الدولة يتبلور بصورة أوضح . فقد اورد الطبري ان ابا بكر اقام على الابرق عندما ارتدت ذبيان اياما وقال : حرام على ذبيان ان يتملكوا هذه البلاد اذا اغناها الله وأجلاها. فلما غلب أهل الردة جاءت بنو ثعلبة وهي كانت منازلهم لينزلوها فمنعوا منها ،فأتوا ابا بكر المدينة فقالوا : علام نمنع من نزول بلادنا . فقال : كذبتم ليست لكم ببلاد ولكنها موهبي ونقدي(٩٤) . ولم يعتبهم . وحمى الابرق لخيول المسلمين ، وارعى سائر بلاد الربذة الناس على بني ثعلبة ثم حماها كلها لصدقات المسلمين(٩٥) . واسكن المجازة ، وهي قرية من ارض اليمامة ، اخلاطا من الناس من موالي قريش وغيرهم بعد مقتل مسيلمة لانها لم تدخل في صلح خالد بن الوليد عندما صالح أهل اليمامة(٩٦) وبهذا المفهوم اصبحت الارض التي فتحها المسلمون ملكا للدولة ، يتولى صاحب الشأن النظر فيها حسب ما يراه منفعة للمسلمين .

واقطع ابو بكر بعض رؤساء القبائل تألفا لهم على الاسلام ، ومن هؤلاء مجاعة الحنفي حيث اقطع الخضرمة في اليمامة(٩٧) ، واقطع عيينة بن حصن قطيعة ، وكتب

له كتابا الا أن عمر رفض ختم الكتاب ورده(٩٨) . وأقطع أبو بكر لغايات احياء الارض واستصلاحها الزبير بن العوام ، فاقطعه الجرف والقناة ، والقناة واد يأتي من الطائف ويصل الى قبور الشهداء بأحد(٩٩) . واقطع عبد الرحمن بن زيد الخطاب بعد مقتل والده في اليمامة ، ولم يشر البلاذري الى مكان الاقطاع(١٠٠) . وتشير بعض المصادر الى ان ابا بكر اقطع طلحة بن عبيد الله أرضا ، فاتى طلحة عمر بالكتاب ، فقال : اختم على هذا . فرفض عمر وقال : أكل المسلمين اعطي مثل ما اعطاك فجاء طلحة الى ابي بكر وقال : والله ما ادري انت الخليفة أم عمر ؟ فقال بل انا ، ولكنه ابى (١٠١) .

القطائع في عهد عمر بن الخطاب :

لم تختلف وجهة نظر عمر بن الخطاب عن وجهة نظر ابي بكر حيث قال : « لنا رقاب الارض »(١٠٢) وهذا يعني أن الارض اصبحت ملكا للدولة ايضا ويشير الطبري الى ذلك فيقول : فسواد العراق أخذ عنوة ، فدعي اهله الى الرجوع ، فمن أجاب فعليه الجزية وله الذمة ، ومن أبى صار ماله فيئا ، فلا يحل بيع شيء من ذلك الفيء فيما بين الجبل الى العذيب من ارض السواد ولا في الجبل(١٠٣) . وأرض مصر كسواد العراق(١٠٤) ، وكذلك أرض الشام الا المدن خاصة(١٠٥) . وقد اقر عمر اهل البلاد في الشام على أراضيهم مقابل دفع الجزية ويكونوا عمارا للارض(١٠٦) . ووجهة نظر عمر بهذا الخصوص ان العرب لم يكن لهم طاقة بعمارة الارض فطلب منهم ان يتركوها لاهلها مقابل دفع الجزية (١٠٧) . ومن مفهوم هذه الملكية للاراضي رجع عمر عن وعده لجرير بن عبد الله وقومه عن نفله لهم بربع السواد وقال : اني قاسم مسؤول، ولولا ذلك لسلمت لكم ما قسمت لكم ولكن ارى أن يرد على المسلمين(١٠٨) .

وقد ابدى عمر بن الخطاب تشددا في بيع هذه الاراضي أو اقطاعها ، ففي مجال البيع قال لعتبة بن فرقد عندما اشترى ارضا من أرض الخراج ، ممن اشتريتها ؟ قال : من أهلها قال : فهؤلاء أهلها (للمسلمين) ابعتموه شيئا .؟ قالوا : لا . قال : فاذهب واطلب مالك حيث وضعته(١٠٩) .

وعن سيف ان جرير بن عبد الله البجلي اشترى من أرض السواد صافية على شاطيء الفرات ، فاتى عمر فاخبره ، فرد ذلك الشراء وكرهه ونهى عن شراء شيء لم يقتسمه أهله(١١٠) ، وكأنه أراد أن تبقى هذه الارض ملكا للمسلمين اجمع لا تباع ولا تورث(١١١) ، في حين رخص البيع في الاراضي التي بقيت بيد أهلها عند فتحها كأرض الحيرة وبانقيا واليس وصلوبا وغيرها (١١٢). وقد استثنى الخليفة أيضا من الارض

الخراجية تلك الاراضي التي اطلق عليها اسم الصوافي حيث ترك أمرها الى الخليفة ليجيز منها ويعطي من كان له غناء في الاسلام ويضع ذلك مواضعة ولا يحابي به(١١٣). واعتبرت الصوافي في العراق كل ارض كانت لكسرى ومرازبته ، وكل ارض جلا عنها اهلها ، ولم يبق بها ساكن ولا عامر ، ومفايض الماء ، وكل دير بريد ، والآجام ، وارض من قتل في المعركة(١١٤) . وعندما مسح عثمان بن حنيف ارض السواد امره أن لا يمسح تلا ولا اجمة ولا سبخة ولا مستنقع ماء ولا ما لا تبلغه المياه(١١٥) . وبهذا المعنى فان الصوافي تمثل خمس الدولة من ارض الفيء يحق للخليفة التصرف به ووضعه كما يرى لمصلحة الدولة .

وفي الشام ومصر فان الاشارات عن طبيعة ارضها قليلة ، وقد طبق عليها ماطبق على ارض السواد . ويذكر البلاذري(١١٦) ان كل عشري بالشام فهو ما جلا عنه أهله فاقطعه المسلمون فاحيوه ، وكان مواتا لا حق فيه لاحد فأحيوه . كما يذكر ابن عساكر بعض الصوافي التي كانت لبطارقة الروم في الشام(١١٧) . أما مصر فالاشارات الى القطائع فيها تكاد تكون معدومة ، ولم يرد فيها الا قطيعة واحدة كما سنرى .

اما من ناحية القطائع فقد اتخذت الاشكال التالية :

ـ **خدمة النفع العام** : فقد اقطع عمر اقواما يقدمون خدمات عامة للدولة ، ومن بين هؤلاء نافع بن الحارث الثقفي الذي اقطع عشرة اجربة في البصرة ، لانه كان أول من افتلا خيلا ليغزو عليها المسلمون . واشترط عمر أن لا تضر هذه القطيعة بمسلم ولا معاهد ولا تقطع شربا ولا طريقا وليس لاحد فيها حق(١١٨) . ويذكر ابن دريد انه اقطعه ثلاثماية جريب ، ولم يقطع بصريا غيره(١١٩) ، ولكن يبدو أن الرواية الاولى اقرب الى الواقع .

وفي الشام طلب أناس ان يقطعهم ارضا من صوافي اندركسيان بدمشق لتكون مربطا لخيولهم فأقطعهم ذلك . لكن عمر عدل عن قطيعته عندما استغلوا القطيعة لغير الغايات التي اقطعوا من أجلها ، فأمر عمر برد الارض وأغرمهم لما زرعوا فيها(١٢٠) .

ـ **احياء الارض واستصلاحها** : فقد اقطع ارضا مواتا من عقيق المدينة لعدد من الصحابة أمثال خوات بن جبير والزبير بن العوام(١٢١) ، واقطع عليا ارضا بينبع(١٢٢) . ويذكر ابن دريد أن عمر اقطع عثمان بن أبي العاص الشط الذي عرف باسمه بالبصرة(١٢٣) . ويوضح ابن زنجوية شكل هذا الاقطاع ويقول : جاء عثمان بن أبي العاص الى عمر وقال له : يا أمير المؤمنين ان عندنا اجمة ليست في يد احد فأقطعنيها فأعمرها ، فتكون فيها منفعة لعيالي ومنفعة للمسلمين ، فكتب له بذلك(١٢٤) .

ـ لمن كان له غناء في الاسلام : وهذهلم يتوسع بها عمر ، ولم ترد الا اشارة واخدة لهذا الشكل من القطائع . فقد كتب عمر الى عثمان بن حنيف ان يقطع جريرا بن عبد الله البجلي قدر ما يقوته لا وكس ولا شطط . فكتب عثمان الى عمر : ان جريرا قدم علي بكتاب منك تقطعه ما يقوته ، فكرهت ان امضي ذلك حتى اراجعك فيه . فكتب اليه عمر : ان قد صدق جرير ، فانفذ ذلك ، وقد أحسنت في مؤامرتي(١٢٥). واقطع عمر ايضا ابا موسى الاشعري ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن عمرو وابا مفزر ، ويرى الطبري أن هذه القطائع على وجه النفل من خمس مما أفاء الله(١٢٦) .

ـ تالفا لبعض رؤساء القبائل : فقد اقطع عمر قوما من اشراف دمشق كابن بحدل وابن مدلج العذري دورا في دمشق خرج منها أهلهـا من الروم(١٢٧) ، واقطع مجاعة الحنفي أرضا بالربا بحجر(١٢٨) .

ـ لدواعي الحاجة والاعاشة ، فقد خير عمر ازواج الرسول (ص) بين ان يعطيهن الارض أو يضمن لهن الوسوق كل عام (٨٠ وسقا تمرا و ٢٠ وسقاشعيرا) فاختلفن ، فمنهن من اختار الوسوق ، ومنهن من اختار أن يضع لهن الارض . فكانت عائشة وحفصة ممن اختار الوسوق (١٢٩) . واقطع فاختـه بنت عتبة بن سهيل وزوجها عبد الرحمن بن الحارث خطة بالمدينة فاوسع لهما . فقيل أكثرت لهما يا أمير المؤمنين قال : عسى الله أن ينشر منهما ولدا كثيرا ورجالا ونساء(١٣٠)، واقطع سندر أو ابن سندر مولى رسول الله (ص) أرضا بمصر . ويذكر ابن سعد(١٣١) : لما ولي عمر قال لسندر : اختر ان شئت ان اجرى عليك ما أجرى ابو بكر ، وان شئت أكتب اليـك الى الامصار . قال : اكتب الى مصر فانها أرض ريف . فكتب عمر الى عمرو بن العاص: اما بعد فان سندر قد توجه اليك فاحفظ فيه وصية رسول الله (ص) فقطع له عمرو بارض مصر أرضا واسعة ودارا ومعاشا ، فعاش فيها ما عاش ، فلما مات قبضت في مال الله .

وكثرت القطائع في عهد عمر لغايات السكن ، فقد اقطع الناس دورا في الكوفة والبصرة ، والمدائن ، والموصل والحديثة ومدن الشام والفسطاط(١٣٢) .

واجاز عمر القطائع لغايات الدفاع وترتيب المسالح في الثغور ، فقد كتب الى ابي عبيدة : ان رتب بانطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسبة ، واجعلهم مرابطة ولا تحبسن عنهم العطاء . ولما ولى معاوية كتب اليه بمثل ذلك(١٣٣) . ولما طالب أهل البصرة باقتسام أرضها ، قسم عليهم ما كان لكسرى فصار فيئا على أن يؤدوا الخمس الى الوالي ، فاجابهم عمر الى ذلك ، فكانت قطائع أهل البصرة نصفين: نصفها مقسوم ، ونصفها متروك للعسكر والاجتماع(١٣٤) .

ومما تقدم فان عمر قد اتخذ لنفسه قاعدة ثابتة في شان القطائع تمثلت بعدم منحها الا اذا رأى اسبابا موجبة لذلك ، كما ان من اقطعهم كانت قطائعهم من الصوافي وهي ارض الفيء او من موات الارض ، وان هذه القطائع كانت على وجه النفل من خمس ما افاء الله كما ذكرت .

القطائع في عهد عثمان :

للوهلة الاولى يخيل للناظر ان القطائع في عهد عثمان قد اتخذت اتجاها سلبيا في حركة الاقطاع . ويرى بعضهم انذ لك ناتج عن نظرة عثمان للتصرف في اموال الدولة، وحصيلة للظروف التي استجدت في خلافته(١٣٥) . صحيح ان احياء الاراضي واستثمارها أدى الى زيادة اقبال الناس على شراء الارض والمضاربة فيها، وهذا ادى الى ارتفاع اسعارها ، الا ان هذا الاقبال لم يخرج عن القواعد التي سنها الرسول(ص) ومن جاء بعده .

ونلمح اثر هذه الصورة القاتمة عن القطائع في عهد عثمان فيما يذكره يحيى بن آدم من قوله : لم يقطع الرسول (ص) الارضين ولا ابو بكر ولا عمر ، وان اول من اقطعها عثمان وباعها عثمان(١٣٦) . وتابعه ابن عساكر وقال : لم يقطع ابو بكر ولا عمر ولا علي ، واول من اقطع القطائع عثمان ، وبيعت الارض فيخلافة عثمان(١٣٧) . وهذه الاقوال لا تتفق مع قول ابي يوسف حيث قال : اقطع الرسول (ص) اقواما ، وان الخلفاء من بعده اقطعوا ، ورأى رسول الله (ص) الصلاح فيما فعل من ذلك اذ كان فيه تألف على الاسلام وعمارة للارض ، وكذلك الخلفاء انما اقطعوا من رأوا أن لهغناء في الاسلام او نكاية للعدو ، ورأوا أن الافضل ما فعلوا(١٣٨) .

ولالقاء الضوء على طبيعة القطائع في عهد عثمان لابد من الحديث على ارض السواد ، لان هذه القطائع تتركز في مناطق السواد بينما تكاد تكون الاشارات قليلة من الاقطاع في مصر او بلاد الشام . وربما لا نبتعد عن الحقيقة كثيرا اذا قلنا ان معظم الاراء الفقهية التي تحددت فيما بعد كانت تتركز على ارض السواد .

لقد حدد ابو عبيد ارض السواد من لدن تخوم الموصل مارا مع الماء الى ساحل البحر ببلاد عبادان شرقي دجلة هذا طوله ، واما عرضه فحده منقطع الجبل من ارض حلوان الى منتهى طرف القادسية المتصل بالعذيب من أرض العرب(١٣٩) . وضمن هذه الحدود وجدت الصوافي التي اصفاها عمر بن الخطاب كما راينا . واعتبر السواد فيئا موقوفا على المسلمين ، واهله عمالا فيه للمسلمين بكراء معلوم يؤدونه ، ويكون باقي

ما تخرج الارض لهم ، وهذا لا يجوز الا في الارض البيضاء ، ولا يكون في النخل والشجر(١٤٠) . وقد قدرت المساحة بـ ٣٦ الف الف جريب(١٤١). وعلى ضوء التحديد السابق فان البصرة من ارض السواد(١٤٢) .. وذكر ابو حنيفة انها من الارض التي احياها المسلمون ، وما اقطعه الخلفاء من القطائع التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد ، يكون ما يجتبى منهم مجرى على الخراج(١٤٣) .. والى مثل ذلك اشار ابو يوسف وقال : أرض البصرة وخراسان عندي بمنزلة السواد ، وما افتتح في ذلك عنوة فهو ارض خراج وما صولح عليه فعلى ما صولح عليه ، لا يزاد عليهم ، وما أسلم عليه اهله فهو عشري(١٤٤).

فاذا ادركنا حدود ارض السواد ، ومعرفة مناطق زراعة النخيل والشجر . ومناطق الصوافي وهي أرض جلا عنها أهلها ، فلم يبق بها ساكن ولا عامر(١٤٥) فحكمها في الاقطاع كحكم عادي الارض ، والمناطق التي لم يمسحها عثمان بن حنيف من ارض السواد ، أمكن على ضوء ذلك بيان طبيعة القطائع التي اقطعها عثمان ، وهذه القطائع تمثلت بما يلي :

احياء الارض الموات : تحتل مناطق البصرة المركز الاول في المصادر من حيث القطائع التي تمت بها ، فالبصرة كانت من ارض الموات كما راينا ، وبالتالي فلا حق لمسلم فيها ولا معاهد .

لقد اقطع عمر بن الخطاب كما راينا عثمان بن ابي العاص اجمة في ارض البصرة ، وفي عهد عثمان اقطع سباخا كما يذكر ابن زنجوية(١٤٦) ، فاستخرجها واحياها ، والسباخ موات كلها ، وكذلك الارض التي يغلب عليها الفياض ، والاجام ، ثم استخرجها مستخرج ، كانت كالموات يحييها . وذكر ابو عبيد(١٤٧) أن ارض (المستنقعات) اذا عولجت بنزع الماء منها حتى ينضب عنها فهي كالارض يحييها ، فتكون لمن فعل ذلك. وذكر قدامة بن جعفر هذا الاقطاع وقال(١٤٨) : « اقطع عثمان ، عثمان بن ابي العاص شط عثمان بالبصرة ، فان البصرة كلها كانت يومئذ سباخا ، فاقطعه اياها فاستخرجها واحياها . والسباخ موات أن كانت لا تنبت الا بعلاج ، وكذلك الارض يغلب عليها الفياض والاجام ، وكذلك الارض التي يركبها الماء ، ويقيم فيها حتى يحول بين الناس وازدراعها والانتفاع بها كالبطائح » .

وتشير بعض المصادر ان هذا الاقطاع قد اشتراه عثمان بن عفان بدار له في المدينة وزادها في المسجد في رواية .. وفي اخرى انه اشتراها بمال له بالطائف(١٤٩) .. ويبدو أن المساحة التي احياها عثمان بن ابي العاص كانت كبيرة حتى انه منح لاخيه حفص الحفصان ، ولاخيه امية الاميتان ، ولاخيه المغيرة المغيرتان ، وحكما لاخيه

الحكم بن ابي العاص ، ونهر الارحاء لابي عمرو بن ابي العاص الثقفي(١٥٠) . ويقدر ابن قتيبة مساحة هذا الاقطاع باثنى عشر الف جريب(١٥١) . ويخطىء ياقوت(١٥٢) عندما يذكر ان نهر مطرف في البصرة قطيعة من عثمان للحكم بن ابي العاص عم عثمان، والواقع أن الحكم هذا هو الحكم الثقفي حيث لا تشير المصادر الى اقطاع عثمان للحكم بن العاص الاموي .

والاقطاع الاخر في البصرة كان لعبد الله بن عامر . وتشير المصادر الى ان ابن عامر كان مهتما باستصلاح الاراضي . وذكر الزبيري انه كان لا يعالج ارضا الا ظهر في الماء(١٥٣) . ومن الاراضي التي قام باستصلاحها نباج الذي سمي باسمه ، وهو موضع يقع بالقرب من البصرة على طريق مكة ، والجحفة وهي بستان نخيل يقع بالحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين(١٥٤) ، والقريتين . وانبط عيونا تعرف بعيون ابن عامر ،بينها وبين النباج ليلة على طريق مكة ، وحفر الحفيرة ثم حفر السمينة ، واتخذ بقرب قباء قصرا ، واتخذ بعرفات حياضا ونخلا ، واحتفر بالبصرة نهرين احدهما في المشرق، والاخر الذي يعرف بام عبد الله وهي امه . وحفر نهر الابلة ، وكان يقول : لو تركت لخرجت المراة في حداجتها على دابتها ، ترد كل يوم على ماء وسوق حتى توافي مكة(١٥٥) .

ومن القطائع التي احياها ابن عامر في البصرة ايضا الارض التي حفر فيها نهر الاساورة ، ونهر نافذ نسبة لمولاه نافذ ، ونهر حبيب نسبة الى حبيب بن شهاب من ولد سامة بن لؤي كان له تدر بالبصرة فمنحه اياها ابن عامر(١٥٦) . وقد بين ابن خياط طبيعة القطائع وقال : افتتح ابن عامر فيض البصرة من الطازات ، فشقه وسط البصرة ، وحفر نهر الاساورة حتى بلغ الشباك ، واحتفرت امه دجاجة بنت الصلت نهرها الذي يقال له نهر ام عبد الله وسط البصرة في سوقها(١٥٧) .

ونلمح موقف أهل العراق من احياء ابن عامر ما أورده البلاذري انه عندما حفر نهر ام عبد الله جاءه حارثة بن بدر الغداني فقال له : لم أر أعظم بركة من هذا النهر يسقى منه الضعفاء من ابواب دورهم ، ويأتيهم منافعهم فيه الى منازلهم ، وهو مغيض مياههم . ولما تولى زياد العراق قال له : ما رايت شرا منه ، ينز من دورهم ،ويفيضون له في منازلهم ، ويغرق فيه صبيانهم(١٥٨) .

ويبدو أن عثمان نفسه قد كان له احياء في البصرة حيث يذكر البلاذري ان خليج بنات نائلة نسبة الى نائلة الفرافصة الكلبية، وكان عثمان اتخذ هذا الخليج ، وساقه الى ارض استخرجها ، واعتملها(١٥٩) . ومما تقدم يمكن القول ان الارض التي اقطعت

في البصرة هي من الارض الموات ، ومن حق الخليفة ان يقطعها لمن يرى لان في ذلك عمارة للبلاد وارد على المسلمين من تعطيله(١٦٠) .

واقطع عثمان القطائع العسكرية خاصة في مناطق الثغور لما لها من اهمية في حماية ارض المسلمين . ومنذ اللحظة التي تولى بها الخلافة كتب الى معاوية يأمره بتحصين السواحل وشحنها واقطاع من ينزلها اياها القطائع(١٦١) . ولم يقف عند هذا الحد بل امر معاوية أيضا ان يعد في جميع سواحل بلاد الشام اذا غزا او اغزى جيوشا سوى من فيها من الرتب ، وأن يقطع الرتب الارضين ، ويعطيهم ما جلا عنه اهله من منازل. وقد ادى ذلك الى اقبال الناس والانتقال الى السواحل من كل ناحية(١٦٢) ، وبهذه الطريقة حصن معاوية انطرطوس ومرقية وبانياس واللاذقية وجبلة وبيت سلمية(١٦٣).

اما في سواحل مصر فلم يرد اقطاع كالشام بل امر عثمان عبد الله بن سعد بن ابي السرح أن يلزم في الاسكندرية رابطة لا تفارقها ، وأن يدر عليهم الارزاق(١٦٤) . وفي الجزيرة طلب عثمان من معاوية ان ينزل العرب مواضع نائية عن المدن ،ويأذن في اعتمار الارضين التي لا حق لاحد فيها ، فأنزل بني تميم الرابية ، وأنزل المازحين والمدير اخلاطا من قيس واسد وغيرهم ، ورتب ربيعة في ديارها على ذلك ، وفعل مثل ذلك في جميع ديار مضر(١٦٥) .

وفي ارمينية كتب عثمان الى معاوية أن يشخص الى حبيب بن مرة من اهل الشام والجزيرة قوما يرغبون في الجهاد والغنيمة . فبعث اليه معاوية الفي رجل اسكنهم في قاليقلا واقطعهم بها القطائع وجعلهم رابطة بها(١٦٦) . وفي اذربيجان سمح عثمان لمن نزع اليها من الكوفة والبصرة والشام ان يتملكوا ما يغلبون عليه ، كما سمح لهم بشراء الارض من العجم . وقد ادت هذه الاجراءات الى التجاء القرى المجاورة اليهم للخفارة وصار أهلها مزارعين لهم(١٦٧) .

وفي قبرص اسكن معاوية سنة ٣٣ هـ اثني عشر الفا كلهم اهل ديوان، ثقل بعضهم من بعلبك ، فبنوا فيها المساجد ، ومدينة ، وأقاموا يعطون الاعطية(١٦٨) .

ويلاحظ ان الغاية من هذه القطائع هي تقوية الثغور ، ومن المؤكد ان هذه الاقطاعات كانت البدايات الاولى لنظام الربط الاسلامية(١٦٩) .

واقطع عثمان لغايات السكن ، ومن الذين اقطعهم العباس بن ربيعة الذي اقطعه دارا في البصرة(١٧٠) ، واقطع حمران بن أبان مولاه دارا بالبصرة بعد أن غربه من المدينة(١٧١) واقطع آل الحكم دورا بناها(١٧٢) واسكن بني حرب من عائلة قريش في

بني شيبان قرية بالشام(١٧٣) ، واقطع لغايات الحاجة حبى أم مالك الـدار مولى عمر بن الخطاب(١٧٤) .

ومما تقدم نرى ان غايات هذه القطائع كالغايات التي كانت في عهد عمر بن الخطاب، والتوسع الذي جاء في عهد عثمان كان ناتجا من عمليات بيع الاراضي التي سمح بهـا عثمان بن عفان في سنة (٣٠) هجرية . ويشير الطبري الى ان عثمـان جمـع أهل المدينة وقال : يا أهل المدينة ان الناس يتمخضون بالفتنة ، واني والله لاتخلصن لكم الذي لكم حتى انقله اليكم ان رأيتم ذلك . فهل ترونه ياتي من شهد مع اهل العراق الفتوح فيه فيقيم معه في بلاده. فقام اولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا يا امير المؤمنين ! فقال : نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز ففرحوا وفتـح الله عليهم به امرا لم يكن في حسابهم(١٧٥) .

ويعطي ابن زنجوية نقلا عن الشعبي تفصيلا أكثر حيث يقول : لما ولي عثمان كان الرجل يقـدم عليه ، له الشرف في قومه من أهـل اليمن والطائف أو عمـان أو البحرين أو حضرموت او اليمامة فيقول : يا امير المؤمنين اني رغبت في الهجرة، وخلفت ارضا نفيسـة ، وذلك ان هؤلاء أهل قرى وعقد ومسـاكن . فيقول عثمان فانا معوضك فيها ، وتجعل ارضك صافية للمسلمين(١٧٦) . وفعلوا ذلك واشتراه رجال من كل قبيلة وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس واقرار الحقوق(١٧٧) .

ومن الذين عوضهم عثمان الاشعث بن قيس أخذ ما لـه بحضرموت واقطعـه طيزناباذ(١٧٨) ، وعوّض طلحة بن عبيد الله النشاستـج ببئر أريس ، واخـذ ماله بحضرموت(١٧٩) ، وفي رواية أخرى أن طلحة اشترى بحصته من خيبر نصيب من شهد القادسية والمدائن من أهل المدينة ممن اقام ولم يهاجر الى العراق(١٨٠) ، وقـام طلحة بتعميرها حتى عظم دخلها فقال سعيد بن العاص عندما قيـل له ان طلحة جواد : ان من له مثل نشاستج لحقيق ان يكون جوادا ، والله لو ان لي مثله لاعاشـك الله بـه عيشا رغيدا(١٨١) .

وعوّض الزبير بن العوام ما والى دير عبد الرحمن ، وخباب بن الارت اشتينيا (استينيا) ، ووائل بن حجر الحضرمي ما والى زرارة ، وعدي بن حاتم الطائي الروحاء، وابا مريد الحنفي أرضه بالاهواز بنهر تيري ، ونافع بن الحارث بن كلـدة الثقفي قطيعته التي بشط عثمان بالبصرة ، وخالد بن عرفطة العذري حليف بني زهـرة أرضه بحمام عمر ، وابا موسى الاشعري قطيعة بحمام عمرة ، واقطع اناسا من أهل البصرة واناسا من اهل الكوفة واناسا من أهل المدينة قطائع كثيرة(١٨٢) .

واشترى مروان بن الحكم بمال كا نله أعطاه عثمان نهر مروان ، وهو يومئذ اجمة ، واشترى منه رجال من القبائل بالعراق اموالا كانت لهم في جزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف واليمن وحضرموت(١٨٣) .

وتختلف المصادر بشأن الصحابيين الخمسة الذين اقطعهم عثمان ، ففي حين ذكر ابو عبيد(١٨٤)، والطبري(١٨٥) والحنبلي(١٨٦) اسماء الزبير وخباب بن الارت وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن هبار ، يذكر ابن زنجوية(١٨٧) سعد بن مالك وابن مسعود وخبابا والزبير واسامة بن زيد .. اما البلاذري(١٨٨) فيذكر قائمة ثالثة مكونة من عبد الله بن مسعود واقطع ارضا بالنهرين (النهر بيل) ، وعمار بن ياسر استينيا (سنينا) ، وخباب بن الارت صعنبا (صعنبى) ، وسعد بن مالك قرية هرمز ، وطلحة بن عبيد الله النشاستج، واسامة بن زيد ارضا باعها ، وكان ابن مسعود وسعد بن مالك يعطيان ارضهما بالثلث والربع .

وهذه الاماكن جميعا من صوافي السواد ، واستدل ابو عبيد على ذلك من أن هرمزكان احد الاكاسرة، وان عثمان اقطع من تلك الارضين التيلم يبق له رب"(١٨٩). ويذكر الطبري ان ما أعطي كان من باب الفيء (اي الصوافي) ، وبموافقة من اصحابه وبمبادلة من عقارهم(١٩٠) . ومن حق الخليفة ان يمنح من خمس الدولة ، وبهذا يكون قد اقطع مما ليس له مالك ، ولم يكن حقا لمسلم او معاهد . واتهام عثمان بانه قد اقطع من أرض السواد واضر بالخراج كان نتيجة اختلاط الامر في شان ارض السواد الخارجية والصوافي التي كانت فيئا للمسلمين ، يؤيد ذلك ما ذكره أبو عبيد(١٩١) بقوله : واما اقطاع عثمان من أقطع من الصحابة ، وقبولهم اياه ، فان قوما قد تأولوا أن هذا من السواد . وقد سألت قبيصة : هل كان فيه ذكر السواد؟ فقال : لا . فان يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصنافالتي كان عمر اصفاها من ارض السواد .

وكان ابن زنجوية اكثر وضوحا في هذا الشان حيث قال(١٩٢) : « اقطع عثمان من اقطع من الصحابة وقبولهم اياه فان اقواما قد تاولوا أن هذا من السواد ، فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر اصفاها من ارض السواد » . وان اعطى من الصوافي راي ان عمارتها ارد على المسلمين ، واوفر لخراجها من تعطيلها ، فاعطى من رأى اعطاءه أن يعمرها كما يعمرها غيرهم ، يؤدون عنها ما يجب للمسلمين عليهم(١٩٣) .

ويذكر الحنبلي ان قطائع عثمان كانت من موات السواد(١٩٤) ، ومن قبله أشار ابو هلال العسكري الى بعض هذه القطائع فقال(١٩٥) : واقطع عثمان طلحة اجمة الجوف ، وهو موضع النشاستج . ويبدو ان سعيد بن العاص قد تردد باقطاعه لانها تصل بين البر والبحر ، فيملك ارضا ونهرا كان له . فكتب عثمان الى سعيد : ويحك انفذك فاني اتخوف عليك ففعل(١٩٦) . ومما يؤكد كذلك ان اقطاع عثمان لم يكن من السواد ما اورده ابو عبيد حيث قال(١٩٧) : سالت قبيصة هل كان فيه ذكر السواد ؟ فقال لا . فان لم يكن كما تأولوا فانه عندي من الاصناف التي كان عمر أصفاها من أرض السواد . وربما كانت كثرة الاحياء التي قام بها بعض الصحابة قد أثارت حفيظة أولئك الذين لا سابقة لهم ولا قدمة(١٩٨) فاتهموا عثمان بادرار القطائع والارزاق والاعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي (ص) ثم لا يغزون ولا يذبون(١٩٩) .

وفي هذا المجال يبقى النص الذي اورده سيف عن هذه القطائع بقوله : فان يكن عثمان اخطأ فالذين قبلوا منه الخطأ اخطأ ، وهم الذين اخذنا عنهم ديننا(٢٠٠) مفسرا بعدم خطأ عثمان . ويستدل على ذلك ما اورده ابن سعد من حديث دار بين علي بن ابي طالب وعمران بن ابي طلحة بن عبيد الله حيث قال علي لعمران : أما انا لم نقبض ارضكم هذه السنين ، ونحن نريد ان نأخذها ، انما أخذناها مخافة ان ينتهبها الناس، وامر بدفع أرضه اليه وغلاتها خلال مدة الاحتجاز(٢٠١) .

ودليل آخر على عدم اكثار عثمان من اقطاع الصوافي او اقطاع الارض الخراجية ما اورده اليعقوبي : وبقيت (الصوافي) على حالها في العراق ، فقد ولى معاوية عبد الله بن دراج مولاه خراج العراق ، وكتب اليه ان احمل من مالها ما أستعين به . فكتب اليه ابن دراج يعلمه ان الدهاقين اعلموه انه كان لكسرى وآل كسرى صوافي يجتبون مالها لانفسهم ولا يجري عليها مجرى الخراج ، فكتب اليه أن احص تلك الصوافي ، واستصفها واضرب عليها المسنيات . فقام ابن دراج واستخرج الصوافي فبلغت جبايته خمسين ألف درهم من ارض الكوفة وسوادها . وكتب الى عبد الرحمن بن ابي بكرة بمثل ذلك في ارض البصرة والشام والجزيرة واليمن(٢٠٢) .

اما قطائع عثمان بالشام فلم ترد الا اشارة واحدة عند ابن عساكر حيث يقول كتب معاوية في امرته على الشام ان الذي اجراه من الرزق في عمله ليس يقوم بمؤن من يقدم عليه من وفود الاجناد ورسل أمرائهم ، ومن يقدم عليه من رسل الروم ووفودها . ووصف في كتابه صفايا اندركسيان بدمشق وقبيس بالبلقاء وغيرها وسأله ان يقطعه اياها ليقوى بها على ما وصف له ، وانها ليست من قرى أهل الذمة ولا الخراج فكتب له عثمان بذلك(٢٠٣) .

وبعد هذا العرض للقطائع التي تمت في عهد عثمان نلاحظ انه لم يخرج عن دوافع الاقطاع التي كانت في عهد عمر بن الخطاب ، وكل ما حدث انه قد سمح بعملية تبادل الاراضي ، والتبادل تم في ارض الصوافي التي يخص الدولة خمسها ، وليس من ارض الخراج ولم يدرك البعض شرعية هذا الاجراء فاعتبروه ماخذا على عثمان ومضرا بضريبة الخراج .

القطائع في عهد علي بن ابي طالب :

لم يبرز موقف علي بن ابي طالبمن القطائعبصورة جلية نظرا لانشغالهبالحروب. ويذكر ابن ابي الحديد ان عليا وعد في اليوم التالي لانتخابه أن كل قطيعة اقطعها عثمان ، وكل مال اعطاه من الله فهو مردود في بيت المال(٢٠٤) . ويبدو ان عليا قد عدل عن هذه الفكرة ،واعاد ارض طلحة في السواد الى ابنه عمران مع غلاتها خلال مدة الاحتجاز كما رأينا .

وترد اشارات في زمن علي الى نزاعات كانت تدور في مناطق السواد ، حيث يذكر ابن آدم ان خلافا نشب بين اهل السواد ، فأرسل اليهم علي مائة فارس فيهم ثعلبة بن يزيد الحماني . فلما رجع ثعلبة قال في مسجد بني حمان : لله علي أن لا أرجع الى السواد مما رأى فيه من الشر(٢٠٥) ويذكر أبو عبيد أن عليا قد هم بتقسيم السواد على المسلمين(٢٠٦) ، ولكن عليا لم ينفذ ذلك خشية أن يضرب الناس بعضهم بعضا(٢٠٧) .

اما من ناحية اقطاعه القطائع فلم يرد عنه الا قطيعة اقطعها لكردوس بن هانيء سميت الكردوسية ، واخرى لسويد بن غفلة الجعفي ، استقطعه ، فكتب اليههذا ما اقطع علي السويد أرضا لدا ذويه ما بين كذا الى كذا وما شاء الله(٢٠٨) .

شروط القطائع :

استمد الفقهاء من الممارسات العملية في عهد الرسول (ص) والخلفاء من بعده شروطا للقطائع ، وصاغوها بمعايير فقهية . وقد تمثلت بما يلي :

● لا يجوز للامام ان يقطع ما كان تابعا لبعض القرى كالمراعي ، والمحتطب حيث اعتبرت من حق اهل القرية . والحد الفاصل ان يسمع صوت الرجل من ادنى الارض المملوكة له، فما لم يسمع صوته فيه ليست بتابعةلقريتهم(٢٠٩) . واستند الفقهاء بذلك

على ما اورده ابن سعد من ان حريث بن حسان الشيباني سأل رسول الله (ص) ان يكتب له كتابا بالدهناء خاصة دون تميم ، وكانت الدهناء مرعى لبني بكر بن وائل وتميم فوافق الرسول (ص)، وهم بالكتابة اليه ، الا ان امراة تدعي قيلة بنت مخرمة كانت في وفد تميم قالت لرسول الله (ص) : انه لم يسألك السوية من الارض اذ سألك ، انما هذه الدهناء عندك مقيد الجمل ومرعى الغنم ونساء بني تميم وابناؤها وراء ذلك(٢١٠) . واعتبر ابو يوسف المقابر من المرافق ايضا(٢١١) ..

● ان الاقطاع لا يكون الا فيما ليس له مالك ، ومن عفو البلاد التي لا ملك لاحد عليها ولا عمارة توجب ملكالاحد سواء كان من المسلمين او المعاهدين(٢١٢) . ومن ذلك ان عمر كتب الى سعد ان يقطع سعيد بن زيد ارضا ، فأقطعه ارضا لبني الرفيل ، فاتى ابن الرفيل عمر فقال :يا أمير المؤمنين على ما صالحتمونا ؟ قال على أن تؤدوا الجزية ولكم ارضكم واموالكم واولادكم . قال يا امير المؤمنين اقطعت ارضي لسعيد بن زيد. فكتب الى سعد ان يرد عليه أرضه ، ودعاه الى الاسلام فأسلم ، ففرض له عمر سبعماية وجعل عطاءه في خثعم(٢١٣) .

● ان يكون المقطع اليه مسلما ، فلا يجوز احياء الكافر الذي في دار الاسلام لانه نوع تمليك ينافيه كفر الحربي ، فنافاه كفر الذمي كالارث من المسلم ، ولكن يجوز الاحتطاب والاحتشاش(٢١٤) .

● لا يجوز اقطاع المال الظاهر العين الحاضر النفع كالشجر والنخيل ، ويجوز في الارض البيضاء . وعلل اقطاع الزبير نخلا بان ذلك من خمس الرسول(ص) الذي هو سهمه ، لان النخل ظاهر العين . وفي رواية اخرى ان هذه الارض كانت من الارض الموات التي اقطعها الرسول (ص) الى سليط الانصاري ، فاستقطعها الزبير فأقطعه اياها(٢١٥) ..

● لا يجوز اقطاع ما كان جوهرها المستودع فيها بارزا كمعادن الكحل والملح والقار والنفط ، لان الناس فيه سواء ، يأخذه من ورد اليه .اما المعادن الباطنة فيجوز الاقطاع فيها . واستدل الفقهاء على ذلك عندما استرجع الرسول (ص) ملح مأرب الذي اقطعه الى ابيض بن حمال المازني لاشتراك الناس في الملح(٢١٦) .

● لا يجوز اقطاع أرض الخراج لان رقابها وقف ، وخراجها أجرة ، فتمليك الوقف لا يصح باقطاع ولا بيع ولا هبة ، وضرب يكون رقابها ملكا وخراجها جزية فلا يصح اقطاع ملوك تعين مالكوه(٢١٧) .

● يرى فريق من الفقهاء أن الارض بمنزلة المال ، فللامام أن يجيز في بيت المال من كان له غناء في الاسلام ، ومن يقوى به على العدو ، ويعمل في ذلك بالذي يرى انه خير للمسلمين وأصلح لامرهم ، وكذلك الارضون يقطع الامام منها من أحب الاصناف التي سميت (الصوافي) ، ولا أرى ان يترك ارضا لا ملك لاحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الامام فان ذلك اعمر للبلاد واكثر للخراج(٢١٨) . ويرى الماوردي(٢١٩) ان امر الارض العامر متروك للسلطان فيه بالخيار على وجه النظر في الاصلح بين ان يستغله لبيت المال كما فعل عمر ، وبين ان يتخير له من ذوي المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته بخراج يوضع عليه مقدر بوفور الاستغلال ونقصه كما فعل عثمان . ويرى الشافعي ان ليس للامام ايقاف الارض ، وعليه قسمتها الا اذا اتفق المسلمون على ايقافها ورضوا ان لا تقسم(٢٢٠) .

● لما كان الاحياء شكلا من اشكال القطائع ، فالاحياء لا يكون الا بالماء ، كاشتقاق او استخراج عين او احتفار بئر ، او بناء ، أو بجعل مسناة للارض ، او بتجفيف السباخ (المستنقعات)(٢٢١) .

● أن يقوم المقطع اليه بعمارة الارض ، فاذا امتنع عن عمارتها كان حكمها الى الامام .. ويذكر ابو عبيد أن عمر جعل مهلة الاحياء ثلاث سنين(٢٢٢). وذكر ابن زنجوية قولا لعمر جاء فيه : من كانت له أرض فعطلها ثلاث سنين لا يعمرها ، فعمرها غيره فهو احق بها(٢٢٣). ويبدو ان عمر قد نفذ ذلك ولم يستثن الا القطائع التي اقطعها الرسول (ص) وقال لاصحابها : لو كانت مني او من ابي بكر لم ارددها ، ولكنها قطيعة من رسول الله (ص) (٢٢٤). وطبق عمر على من يقوم باحياء الاراضي المقطعة بتقويم الارض عامرة وغامرة ، ويقول لاهل الاصل ان شئتم فردوا عليهم ما بين ذلك ، وخذوا ارضكم ، وان شئتم ردوا عليهم فمن اديم الارض هي لهم(٢٢٥) . ومن هذا الشرط ايضا ان يكون المقطع اليه قادرا على عمارة الارض ، واذا لم يكن بمقدوره اخذ منه قسم واقطع للاخرين كما فعل عمر مع بلال بن الحارث المازني في اقطاع العقيق(٢٢٦) .

● تستوفى على القطائع ضرائب كما تستوفى على الاراضي الاخرى . وقد اختلف الفقهاء في هذه الضريبة ، فيرى ابو حنيفة ان البصرة التي احياها المسلمون، واقطع منها الخلفاء التي لا حق فيها لمسلم ولا معاهد يكون مجرى ما يجبى منهم مجرى مال الخراج(٢٢٧)، ورأي آخر يرى ان القطائع اذا كانت على الخراج ادى عنها الذي اقطعها الخراج ، وان كانت من ارض العشر ادى الذي اقطعها العشر الا اذا غير الامام قطائع الخراج(٢٢٨). وفي رأي اخر لابي يوسف يرى ان القطائع كالصدقة يؤخذ منها

العشر ، وذلك الى الامام ان رأى أن يصير عليها عشرا فعل ، وان رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وان رآها يصيرها خراجا اذا كانت تشرب من انهار الخراج .. وانما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الاقطاع من المؤونة في حفر الانهار وبناء البيوت وعمل الارضين(٢٢٩) . ويرى الخوارزمي ان القطائع كالارض التي اسلم عليها اهلها ، والتي أحياها المسلمون تدفع العشر(٢٣٠) .

(١) Lambton, Landlord and peasant in Persia, London (1953) p. 10.

وانظر : نصر الله ، محمد علي ، تطور نظام ملكية الاراضي في الاسلام ، دار الحداثة للطباعة والنشر ، بيروت (١٩٨٢) ، ص ٦ـ٧ . سيشار اليه عند وروده، نصر الله ، ملكية الاراضي.

(٢) فوزي رشيد ، الشرائع القديمة ، دار شيد للنشر ، بغداد (١٩٧٩) ص ١٢٣ـ ١٢٧ .

(٣) جواد علي ، « مصطلحات الزراعة والري في كتابات المسند » ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ٦ شوال ١٤٠٥ هـ/ حزيران ١٩٨٥ ، م ٣٦،ج ٢ ص ٩٠ . وانظر : جواد علي ، « اصول الحكم عند العرب الجنوبيين » مجلة المجمع العلمي العراقي ، (نيسان ١٩٨٠) م ٣١ ص ٧٠ .

(٤) عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع في المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠ ، م٢٠ ص ٧ وانظرايضا:

I, Ryckmans, L' Institution monarchique en Arabie Meridionale p. 124, 178 - 182.

(٥) الدوري ، نشأة الاقطاع ، ص ٥ وانظر :

N, Pioulevskaia, Les Villes de l'Etat Iranien , Paris (1963) p. 135-6 .

(٦) كريستنسن ، ارثر ، ايران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، ومراجعة عبد الوهاب عزام ، دار النهضة العربية ، بيروت د.ت ص ٩٦ .

(٧) المصدر السابق ص ٩٩.

(٨) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ)، فتوح البلدان ، راجعه وعلق عليه رضوان محمد رضوان ، دار الكتب العلمية ، بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م) ، ص ٢٩٦. الطبري ، محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ) تاريخ الرسول والملوك ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر ، (١٩٦٧) ، ج ٣/ ص ٥٠٣ . ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابي عبد الله (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ، دار صادر بيروت ، د.ت. مادة طف .

(٩) ابو البقاء الحلي ، هبة الله (من القرن السادس الهجري) ، المناقب المزيدية في اخبار الملوك الاسدية ، تحقيق صالح دراداكة ومحمد خريسات ، مكتبة الرسالة عمان (١٩٨٤) ج ٢ ص ٤٠٥ ، ٤١٠ .

(١٠) البغدادي ، ابو جعفر محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ) المحبر ، اعتنت بتصحيحه ايلزه ليختن ستيتر ، المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت د.ت . ص ٢٥٣ . ابن دريد ، ابو بكر محمد بن الحسن (ت٣٢١هـ) ، الاشتقاق ،تحقيق عبد السلام هارون ، دار المسيرة بيروت ، ط ٢ (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩) ص ٢٥٣ .ابوالبقاء ، المناقب المزيدية ج ٢ ص٤٠٢ .

(١١) ابو البقاء ، المناقب المزيدية ، ج١ ص ١٠٤ .

(١٢) الطبري ، تاريخ ج ٢ ص ١٩٣ . الاصفهاني ،ابو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ) الاغاني ، اعداد لجنة نشر كتاب الاغاني ، الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر ،١٣٩٠هـ/١٩٧٠ ج٢ ص ١٠٣ .

(١٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة نجران .

(١٤) المصدر السابق ، مادة المخرم .

(١٥) الدوري ، نشأة الاقطاع ص ٦ . وانظر :

A, Ch. Johnson and C.west Byzantine, Economic Studies , pp.20, 28-29, 48; I. Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab conquest, pp. 119-126.

(١٦) ابن منظور ، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)مختصر تاريخ دمشق ج ١ تحقيق روحية النحاس، دار الفكر دمشق (١٩٨٤) ج١ ص ٢٣٩.

(١٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥.

(١٨) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٤٠ .

(١٩) الحنبلي ، ابو الفرج عبد الرحمن بن احمدبن رجب ، الاستخراج لاحكام الخراج ، دار الكتب العلمية / بيروت (١٩٨٥) ص ١٣٥.

(٢٠) ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) ، لسان العرب ، دار صادر بيروت، د.ت. مادة قطع .

(٢١) قدامة بن جعفر (ت ما بين ٣٢٨ ـ ٣٣٧ هـ)، الخراج وصناعة الكتابة شرح وتعليق محمد حسن الزبيدي ، دار الرشيد للنشر (١٩٨٦) ص ٢١٨ .

(٢٢) الخوارزمي ، ابو عبد الله محمد بن احمد(ت ٣٨٧ هـ) مفاتيح العلوم ، الطبعة المنيرية ، القاهرة (١٣٤٢ هـ) ، ص٤٠ .

(٢٣) ياقوت معجم البلدان ج١ ص ٤٢-٤٣.

(٢٤) الخزاعي ، علي بن محمد بن مسعود (ت٧٨٩ هـ) ، تخريج الدلالات السمعية ، تحقيق احسان عباس ، دار الغرب الاسلامي بيروت(١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م) ص ١٨١-١٨٢ .

(٢٥) انظر :

Lokkegaard , Frede, Islamic Taxation in the classic period, Banner and Korch, Copenhagen (1950) p. 14.

(٢٦) قدامة ، الخراج ص ٢١٨ . الخوارزمي ،مفاتيح العلوم ص ٤٠ . الدوري ، نشأة الاقطاع ص ٣٢ .

(٢٧) المصدر السابق .

(٢٨) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢٩) السيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن (ت٩١١ هـ) ، الاشباه والنظائر في قواعد وفروع فقه الشافعية ، تحقيق محمد حامد ، البابي الحلبي مصر ١٣٥٦ هـ ص ٣٦٩ .

(٣٠) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٣١) ابو يوسف ، يعقوب بن ابراهيم (ت ١٨٢هـ) ، الخراج ، تحقيق احسان عباس ، دارالشروق بيروت والقاهرة (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥) ص١٩٣ ـ ١٩٤.

وانظر : ابو عبيد ، القاسم بن سلام (ت ٢٢٤ هـ) ، الاموال ، تحقيق محمد خليل هراس ، مكتبة الكليات الازهرية / القاهرة (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩) ص ٣٢٤ . ابن زنجوية ، حميد (ت ٢٥١ هـ) ، الاموال ، تحقيق شاكرذيبفياض، ، مركز الملك فيصل للبحوثوالدراسات الرياض (١٤٠٦هـ/١٩٨٦) ج ٢ ص ٤٥٠ .

(٣٢) ابو يوسف الخراج ، ص ١٩٤.

(٣٣) الاصفهاني ، الاغاني (الهيئة المصرية) ج٣ ص ١٠٣ .

(٣٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة السوادية .

(٣٥) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٥.

(٣٦) العلي ، صالح ، « ملكيات الاراضي في الحجاز في القرن الاول الهجري » ، مجلة العرب ج ١١ (١٣٨٩ هـ/ ١٩٦٩) ص ٩٦٤ . وانظرابن عبد البر ، الاستيعاب ج١ ص٩٣.

(٣٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٧ . ابن زنجوية،الاموال ج ٢ص٦٢٩ .

(٣٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠.

(٣٩) انظر : ابن ادم ، يحيى (ت٢٠٣هـ) ، الخراج ، صححه وشرحه الشيخ احمد محمدشاكر المطبعة السلفية (١٣٨٤ هـ) ص٨٢. ابوعبيد ، الاموال ص ٢٨٦ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٧. قدامة ، الخراج ص ٢١٥ .

(٤٠) العلي، ملكيات الاراضي ص٩٦٤ـ٩٦٥.

(٤١) الهمداني ، الحسن بن احمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ) ، صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع ، منشورات دار اليمامة ،الرياض (١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤) ص ٣٧٦.

(٤٣) ابن سعد ، محمد (ت ٢٣٠ هـ) الطبقات الكبرى ، عني بتصحيحه وطبعه اوجين متسوخ ، منشورات مؤسسة النصر ، طهران ـ ليدن (١٣٢٢ هـ) ج١ ق٢ ص ٥٨.

(٤٤) ادم ، الخراج ، ص ٩٢ .

(٤٥) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ، ٢٩٥.ابن زنجوية ، الاموال ، ج٢ ص ٦١٣ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٠٣ .

(٤٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج٧ ق١ ص ٥٤.

(٤٧) حمد الجاسر ، القطائع النبوية ٣ ، مجلةالعرب ، ج٣ ص٨ (١٣٩٣ هـ/٩٧٣ ١) ص١٨٤.

(٤٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ق٢ ص٤٩ .ابنمنظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ص ٣٣٤.

(٤٩) المصدر السابق ج١ ، ق٢ ، ص ٤٥ـ٤٦ .

(٥٠) المصدر السابق ج١ ق٢ ص٤٦ ويشير ابن سعد الى ان الرسول (ص) اقطع لود بن عروة ولم يذكر مكان الاقطاع .

(٥١) المصدر السابق ج ١ ق٢ ص ٥٩ . وانظر:

ابن هشام ، ابو محمد عبد الملك ت (مابين٢١٣–٢١٨هـ) ،السيرة النبوية تحقق مصطفى الشمار وزملائه ، مطبعة البابي الحلبي مصر ط٢ ((١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٥) ج٢ ص ٤٩٧ .الطبري ،تاريخ ج٣ ص١٤٥ . الحلبي ، علي بن برهان الدين(ت ١٠٤٤ هـ) ، انسان العيون في سيرة الامين والمامون (السيرة الحلبية) مكتبة مصطفى البابي الحلبي مصر (١٣٨٢ هـ / ١٩٦٤) ج ٣ ص ٢٥٧.

(٥٢) أبو عبيد ، الاموال ص ٣٥٦ . ابن زنجوية ج ٢ ص ٦٣٦ .البلاذري ، فتوح البلدان ص١٠٢.

(٥٣) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة الشقراء .

(٥٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٤٨.

(٥٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٩. البلاذري ، فتوح البلدان ص ٨٤ .

(٥٦) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ق٢ ص ٣٥.

(٥٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج٢ ص ٣٢٥ .

(٥٨) انظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦ .أبو عبيد الاموال ص ٢٩٨ . ابن زنجوية ج٢ ص٧٤٠ – ٧٤١ .

(٥٩) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ذي المروة،بلكثة او بلاكث .ابن منظور مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٤٥.

(٦٠) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وانظرالبكري ، معجم ما استعجم ص ٥٧ ٦.

(٦١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ ص ٣٤٥ .

(٦٢) المصدر السابق ج٢ ص ٣٤٦ ، ياقوت ،معجم البلدان مادة ترعد .

(٦٣) ابن زنجوية الاموال ، ج٢ ص ٦٢٢ .

(٦٤) انظر : ابو عبيد ، الاموال ، ص ٣٩٧ .ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ق١ ص ٤٢ . ابن زنجوية الاموال ج ٢ ص ٦٢٨ – ٦٢٩ . ولمزيد من التفاصيل عن قطائع الرسول (ص) انظر : حمد الجاسر ، القطائع النبوية ، مجلة العرب ج١ س١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ١ – ٩ ، وج٢ س ١ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ٨١–٩٠ ، وج٣ س١ (١٣٩٣هـ /١٩٧٣) ص ١٧٧ – ١٩١ ،وج٥ و ٦ (١٣٩٣هـ/١٩٧٣) ص ٢٥٣–٣٦٧ . وانظر ايضا : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي ، والخلافة الراشدة . عون الشريف قاسم ، نشأة الدولة الاسلامية على عهد رسول الله (ص) ، دار الكتاب اللبناني ط٢ ١٤٠١ هـ/١٩٨١ . والاحمدي ، علي بن حسين علي ، مكاتيب الرسول (ص) ج١–٢ دار صعب بيروت ، د.ت. صالح العلي ، ملكيات الاراضي في الحجاز .

(٦٥) عون الشريف ، نشأة الدولة الاسلامية ص٢٧٧ نقلا عن ابيداود ج٢ ص ٤٩ . ابن الأثير ، اسد الغابة جـ ٣ ص ١٤ .

(٦٦) ابن ادم ، الخراج ص ١٠٧ : ابو عبيد الاموال ص ٣٩٠ ، ٣٩٨ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٠ . البلاذري ، فتوح البلدان ص٨٤. قدامة ، الخراج ص ٢١٦ .

(٦٧) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٣ – ٦١٤، ٦٢٧ . قدامة ، الخراج ص ١٣٦ .

(٦٨) الشيباني ، محمد بن الحسن (ت١٨٩هـ)،كتاب السير الكبير ، املاء محمد بن احمد السرخسي، تحقيق عبد العزيز احمد ، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية ، مطبعة شركة الاعلانات الشرقية (١٩٧٢) ج٢ ص٦١١ .

(٦٩) العلي ، ملكيات الاراضي ص ٩٧٢ . وفاءالوفاء ج ٢ ص ٣٩٣.

(٧٠) المصدر السابق ص ٩٦٥.

(٧١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٣–٣٤ .

(٧٢) الحلبي ، السيرة الحلبية ج٢ ص٥٧٠.

(٧٣) ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٧٤) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص١٢٤ . الطبري ، تاريخ ج ٣ ص٤١٩–٤٢٠.

(٧٥) البلاذري ، احمد بن يحيى (ت ٢٧٩ هـ)،انساب الاشراف ج١ ق٢ . تحقيق احسان عباس ، بيروت (١٤٠٠هـ/١٩٧٩) ج١ ق٤ ص٤٨٢–٤٨٣.

(٧٦) البلاذري ، انساب الاشراف (ج١) تحقيق محمد حميد الله ، دار المعارف مصر (١٩٥٩) ، ج١ ص ١٦٣.

(٧٨) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ص١ ص٧٢–٧٣.

(٧٩) ابن سعد ، الطبقات ج ٣ ق١ ص ٨٩.

(٨٠) المصدر السابق ج٣ ق١ ص١٧١ .

(٨١) ابو يوسف ، الخراج ، ص ١٧٦ . ابن سعد ، الطبقات ، ج٣ ق١ ص١٩٥.

(٨٢) ابن سعد ، الطبقات ج١ ق٢ ص ٣٨.

(٨٣) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٨٩–٣٩٠ . وعن اقطاع تميم بن اوس انظر : ابن دريد ، الاشتقاق ص ٣٧٧ ، ابن سعد . الطبقات ج١ ق٢ ص٧٥ . البلاذري ، فتوح البلدان ، ص١٣٥، ٤١٥ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٧ .

(٨٤) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦١٦.

(٨٥) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص ٨٩.

(٨٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٣ ٦.

(٨٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج٢ ص٣٣٤ ، ٣٤٤–٣٤٥ .

(٨٨) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣٥ .

(٨٩) الحلبي ، السيرة الحلبية ج٣ ص ٢٧٣.

(٩٠) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٨٨.

(٩١) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ٢ص٢٢١-٢٢٢ ، ٣٤٦.

(٩٢) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣٤ .

(٩٣) المصدر السابق ج٢ ص ٣٣٥ .

(٩٤) اي ما استنفذ من العدو .

(٩٥) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٢٤٨ .

(٩٦) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المجازة .

(٩٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٥ . ابن زنجوية، الاموال ج٢ ص ٦٢. البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(٩٨) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩١ .

(٩٩) ابن ادم ، الخراج ص ٧٣ . ابن سعد ،الطبقات ج٣. ق ١ ص ٧٢ - ٧٣ . البلاذري فتوح البلدان ص ٣٦ . ياقوت ، معجم البلدان ،مادة قناة .

(١٠٠) البلاذري ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص١٢٢ .

(١٠١) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩١ ، ٢٩٨ . ابنزنجوية ، الاموال ج ٢ ص٦٢٢ .

(١٠٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٤٩.

(١٠٣) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩.

(١٠٤) ابو عبيد ، الاموال ص ١١٢ . ابن زنجوية، الاموال ج١ ص ٢٥٣.

(١٠٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٢ .

(١٠٦) الازدي ، محمد بن عبد الله (ت نحو ١٦٥هـ) ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عبد الله عامر ، مؤسسة سجل العرب / مصر ١٩٦٩ص ١٤٠ - ١٤١ .

(١٠٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠٧.

(١٠٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٢٤ . ابو عبيد، الاموال ص ٨٧-٨٨ . البلاذري فتوح البلدان ص ٢٤٥-٢٤٦ .

(١٠٩) ابن ادم ، الخراج ص ٥٤ . ابو عبيد ،الاموال ص ١٠٥-١٠١ .

(١١٠) الطبري ، تاريخ ج ٤ص ٣٣.

(١١١) انظر ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص ٢٣٩ .

(١١٢) ابن ادم ، الخراج ص ٥٠ . ابو عبيد ، الاموال ص ١١٦ ، ابن زنجوية ، الاموال ١٠ ص ٢٤٢ .

(١١٣) ابو يوسف ، الخراج ص١٧٠.

(١١٤) ابن ادم ، الخراج ٥٩-٦٠ ابو عبيد ، الاموال ص ٢٩٩. البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢. الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢١ .

(١١٥) ابن زنجوية ، الاموال ج١ ص ٢١٣.

(١١٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٧.

(١١٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص٢٤٠ .

(١١٨) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ق٢ ص ٤٧ . ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٤–٦٢٥ .

(١١٩) ابن دريد ، الاشتقاق ص ٣٠٦ . والجريب١٥٩٢ م٢ .

(١٢٠) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠٠، ابن زنجوية، الاموال ج٢ ص ٦٣٢.

(١٢١) ابو يوسف الخراج ص ١٧٥–١٧٦ . البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦ .

(١٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٨. ياقوت ، معجم البلدان ، مادة ينبع .

(١٢٣) ابن دريد ، الاشتقاق ص٣٠٢.

(١٢٤) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٦ .

(١٢٥) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩ .

(١٢٦) المصدر السابق .

(١٢٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص٢٤٠.

(١٢٨) ابو عبيد ،الاموال ٣٩٥ . ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص٦٠ .البلاذري . فتوح البلدان ص ١٠٣ .

(١٢٩) ابن ادم ، الخراج ص ٣٧ .

(١٣٠) الزبيري ، ابو عبد الله المصعب بن عبد الله (ت ٢٣٦ هـ) ، نسب قريش ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط ٢ دار المعارف مصر (١٩٧٦) ، ص ٣٠٣. وكانا يلقبان بالشريد والشريدة .

(١٣١) ابن سعد ، الطبقات ج٧ ق٢ ص ١٩٧.

(١٣٢) انظر من هذه القطائع على سبيل المثال : البلاذري ، فتوح البلدان ١٣٧ ، ٢٧٤ ، ٣٤٧الطبري تاريخ ج٤ ص٢٠–٢١ ، ٤٥ .

ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ، ج١ ص٢٣٨.

(١٣٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٥٣.

(١٣٤) الطبري ، تاريخ ج٤ ص٧٥.

(١٣٥) انظر : نصر الله ، ملكية الارض ص ١٠٧ .

(١٣٦) ابن ادم ، الخراج ص ٧٥ وانظر : البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٣ . ابو هلال العسكري ، الحسن بن عبد الله (ت٣٩٥هـ) ، الاوائل تحقيق محمد السيد الوكيل ، دار امل طنجة (١٩٦٦) ص ١٤٤–١٤٥ .

(١٣٧) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص٢٣٨.

(١٣٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٧.

(١٣٩) ابو عبيد ، الاموال ص ١٠٢ .

(١٤٠) المصدر السابق ص ٨٤ ، ٩٩.

(١٤١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٦٨-٢٧٠.

(١٤٢) قارن الحنبلي ، الاستخراج ص ١٢٩ .

(١٤٣) البلاذري ، فتوح البلدان ص٨٥ .

(١٤٤) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٢ .

(١٤٥) ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٣ .وانظر نصرالله ، ملكية الاراضي ص ٢٥٥ .

(١٤٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٣.

(١٤٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠١.

(١٤٨) قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٧.

(١٤٩) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، ٢٥٦.

(١٥٠) المصدر السابق .

(١٥١) ابن قتيبة ، ابو محمد عبد الله بن مسلم(ت ٢١٣هـ) ، المعارف ، تحقيق ثروت عكاشة ، دار المعارف مصر ط٢ (١٩٦٩) ص ٢٦٨-٢٦٩ ، ٥٦٤ .

(١٥٢) ياقوت ، معجم البلدان مادة نهر مطرف .

(١٥٣) الزبيري ، نسب قريش ص ١٤٨.

(١٥٤) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة النباج ، البخفة .

(١٥٥) ابن قتيبة ، المعارف ص ٣٢١ .

(١٥٦) ابن بكار، الزبير (ت٢٥٦هـ) جمهرة نسبقريش واخبارها ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار العروبة (١٣٨١ هـ) ج ص ٤٤٥ . الزبيري ، نسب قريش ص٤٠٤ .

(١٥٧) ابن خياط ، ابو عمر خليفة (ت حوالي٢٤٠) ، تحقيق اكرم العمري ، مطبعة النجف (١٣٨٦ هـ / ١٩٦٧) ج١ ص ١٤٣.

(١٥٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٣٥٤ . ومفيض الماء : مدخل ومجتمع الماء . انظر : الرجبي ، عبد العزيز بن محمد ، الرتاج ، تحقيق احمد عبيد الكبيسي ، الدار الوطنية ، بغداد (١٩٧٣) ج١ ص ٣٩٥ .

(١٥٩) المصدر السابق ص ٢٨.

(١٦٠) قدامة ، الخراج ص ٢١٧.

(١٦١) البلاذري ، فتوح البلدان ص ١٣٣ .

(١٦٢) المصدر السابق ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(١٦٣) انظر : قدامة ، الخراج ص ٢٩٨ . الحنبلي، الاستخراج ص ١٣٠ .

(١٦٤) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٢٤ .

(١٦٥) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة المازحين.

(١٦٦) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٠٠-٢٠١ ،قدامة ، الخراج ص ٢٢٥.

(١٦٧) المصدر السابق ص ٢٤ -٣ ٢٢٥ .

(١٦٨) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(١٦٩) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ١١٦ .

(١٧٠) ابن قتيبة المعارف ص ١٢٨ . البلاذري ،فتوح البلدان ص ٣٥٤ ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص ٥٢٨.

(١٧١) البلاذري ، انساب الاشراف ج١ ق٤ ص٥٤٧.

(١٧٢) المصدر السابق ص ٥٨٠ .

(١٧٣) المصدر السابق ج١ ص٤٤.

(١٧٤) ابن قتيبة ، المعارف ص ١٨٩.

(١٧٥) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨٠ .

(١٧٦) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥-٦٣٦.

(١٧٧) ابن الاثير ، ابو بكر محمد بن عبد الله (ت٦٥٣) الكامل في التاريخ،دار صادر بيروت (١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩) ،ج٣ ص١٠٩ .

(١٧٨) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥ - ٦٣٦الطبري تاريخ ج٤ص٢٨٠.

(١٧٩) المصدر السابق .

(١٨٠) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨٠.

(١٨١) ياقوت معجم البلدان ، مادة نشاستج .

(١٨٢) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٣٥-٦٣٦.

(١٨٣) الطبري ، تاريخ ج ٤ ص ٢٨٠ .

(١٨٤) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٣.

(١٨٥) الطبري ، تاريخ ج ٣ ص ٥٨٩.

(١٨٦) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣٢ .

١٨٧) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢٦.

(١٨٨) البلاذري ، فتوح البلدان ص ٢٧٢ - ٢٧٣.وانظر : ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٦-١٧٧.

(١٨٩) ابو عبيد الاموال ص ٤٠٠ . ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص ٦٣٣.

(١٩٠) الطبري ، تاريخ ج٤ ص٣٤٨ .

(١٩١) ابو عبيد ، الاموال ص ١٢١ .

(١٩٢) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٢١.

(١٩٣) قدامة ، الخراج ص ٢١٧.

(١٩٤) الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣١ .

(١٩٥) ابو هلال العسكري ، الاوائل ص ١٤٥ .وقداخطا المحقق بالتشاستج وكتبها التاسيج وقال لعلها التماسيج .

(١٩٦) المصدر السابق .

(١٩٧) ابو عبيد ، الاموال ص ٣٩٩ .

(١٩٨) الطبري ، تاريخ ج٤ ص ٢٨١ .

(١٩٩) ابن قتيبة ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت٢٧٦هـ) (منسوب اليه) تحقيق طه محمد الزيني، مؤسسة الحلبي ، القاهرة (١٩٦٧) ج١ ص٢٥ .

(٢٠٠) الطبري ، تاريخ ج٣ ص ٥٨٩.

(٢٠١) ابن سعد ، الطبقات ج٣ ق١ ص ٩٦. .

(٢٠٢) اليعقوبي ، أحمد بن يعقوب بن جعفر (ت٢٥٩ هـ) تاريخ ، قدم له محمد صادق بحر العلوم المكتبة الحيدرية النجف (١٣٨٤ هـ/١٩٦٤) ج١ ص ٣٥ .

(٢٠٣) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج١ ص٢٤٠ .

(٢٠٤) نصر الله ، ملكية الاراضي ص ٣٧ ١، نقلا عن نهج البلاغة ج١ ص ١٥٠ .

(٢٠٥) ابن ادم ، الخراج ص ٤٥.

(٢٠٦) ابو عبيد ، الاموال ص ١١٤.

(٢٠٧) ابو يوسف ، الخراج ص١٣٢. ابن ادم ،الخراج ص ٤٥.

(٢٠٨) الطبري ، تاريخ ج٣ ص٥٨٩.

(٢٠٩) السمرقندي ، علاء الدين (ت٥٣٩هـ) ،تحفة الفقهاء حققه محمد زكي عبد البر ، مطبعة جامعة دمشق (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) ج٣ ص٥٥٢-٥٥٣.

(٢١٠) ابن سعد ، الطبقات ج١ ق٢ ص٥٨.

(٢١١) ابو يوسف ، الخراج ص ٢٢٤ .

(٢١٢) انظر : ابو عبيد ،الاموال ص ٣٩٤. ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٢٧ ،٦ قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢٠٤ .

(٢١٣) ابن ادم ،الخراج ص ٥٧. الحنبلي ، الاستخراج ص ١٣٤ .

(٢١٤) الحصني ، تقي الدين ابي بكر بن محمد الحسيني (من القرن التاسع الهجري) ، كفاية الاخيار في حل غاية الاختصار ، دار الايمان ، د.ت. ج١ ص ٣١٦.

(٢١٥) انظر : ابو عبيد ،الاموال ص ٩٩، ٢٨٦،٢٩٤ . قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ ، ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢١٦) انظر :ابن ادم ، الخراج ص ١٠٧ .ابو عبيد،الاموال ص ٢٠٩ .ابن زنجوية ج ٢ ص ٦٣٠، قدامة بن جعفر ، الخراج ص ٢١٦ . الماوردي الاحكام السلطانية ، ص ١٩٧. ابن منظور ، لسان العرب ، مادة قطع .

(٢١٧) الماوردي ، الاحكام السلطانية ص ١٩٣.

(٢١٨) ابو يوسف ، الخراج ص ٧٤ ١.

(٢١٩) الماوردي ، الاحكام السلطانية،ص ١٩٢-١٩٣.

(٢٢٠) ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق ج ١ ص٢٣٨.

(٢٢١) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٤١٠ . السمرقندي ، تحفة الفقهاء ج ٣ص٥٥٢.

(٢٢٢) ابو عبيد ، الاموال ص ٤٠٧.

(٢٢٣) ابن زنجوية ،الاموال ج٢ ص ٦٤٤ .وانظرالماوردي ، الاحكام السلطانية ص١٩١ . الموصلي، عبد الله بن محمود بن مودود ، الاختيار لتعليل المختار ، دار المعرفة بيروت (١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥ م) ج ٣ ص ٦٧.

(٢٢٤) ابو يوسف ،الخراج ص١٧٥.

(٢٢٥) ابن زنجوية ، الاموال ج٢ ص ٦٤٣ - ٦٤٤.

(٢٢٦) انظر : ابو عبيد ، الاموال ص ٢٨٢. الزمخشري ، الفائق ج١ ص ٢٤٠ . عون، نشأة الدولة الاسلامية ص ٢٥٦ .

(٢٢٧) البلاذري ، فتوح البلدان ص٥٨.

(٢٢٨) ابو يوسف ، الخراج ص ١٧٣ .

(٢٢٩) المصدر السابق ص ١٧١.

(٢٣٠) الخوارزمي ، مفاتيح العلوم ص ٣٩ .

يخدون ـ ليم ملك ماري

(وثيقة تاسيس معبد اله الشمس (شماش) في ماري)

د. عيد مرعي
جامعة دمشق

اسفرت الحفريات الاثرية التي بدات منذ عام ١٩٣٣ ، باشراف عالم الاثار الفرنسي اندريه بارو André parrot في موقع تل حريري الحالي (على الضفة اليمنى لنهر الفرات الاوسط وعلى بعد ٩ كم شمال غرب البوكمال) عن اكتشاف مدينة قديمة كانت تقوم في موقع هذا التل تدعى ماري Mari ، وكان من اهم المكتشفات في ذلك الموقع الارشيف الملكي الذي يضم نحو خمسة وعشرين الفا من الرقم الطينية كتبت بالخط المسماري وباللهجة البابلية القديمة ، اشرف على تبويبها وتصنيفها وترجمة عدد كبير منها الاستاذ جورج دوسان G.Dossin. ومن هذا الارشيف نعرف ان اسرة امورية قد وصلت الى الحكم في مدينة ماري في بداية الالف الثاني قبل الميلاد .

وكان الاموريون قد بداوا بالدخول الى بلاد ما بين النهرين في الالف الثالث قبل الميلاد . ويظهرون في الوثائق السومرية تحت اسم مارتو Martu وفي الوثائق الاكادية تحت اسم اموروم Amurrum . وهذه التسمية ليست تسمية عرقية بل جغرافية وتعني الغرب ، وتدل على الجهة التي قدمت منها هذه الجماعات البشرية ، اي بادية الشام .

ويذكر شار كالي شاري الملك الاكادي (٢٢٤٢-٢٩١٨ ق.م) بانه احرز نصرا على الاموريين في جبل باسار Basar (جبل بشرى حاليا). كذلك يرد ذكر العديد من الاموريين في وثائق مملكة اور الثالثة . وفي بدايات الالف الثاني قبل الميلاد وصلت سلالات امورية الى الحكم في بابل ، وماري ، وآشور ، وحلب وقطنة(١). الخ،

دراسات تاريخية ، ٢٧ و ٢٨ ـ ايلول ـ كانون الاول ١٩٨٧ .

واول ملك معروف لدينا من الاسرة الامورية التي حكمت في ماري هـو يجيد ـ ليم yaggid-lim، وقد دخل في صراع مع حاكم آموري اخر كان يحكم في تيرقـا Terqa (تل عشـارة حاليا) الى الشمال من ماري ويدعي إلاـكبكابو Ilakabkabu ، وتمكن من طرده من تلك المنطقة وضم مملكته اليه .

خلف يجيد ـ ليم على عرش ماري ابنه يخدون ـ ليم . ومعلوماتنا عن هذا الملك الذي حكم في اواخر القـرن ١٩ ق.م افضل منها عـن والده . فتاريخ احـدى سنوات حكمه يذكر بانه احرز نصرا على مدينة إيمار (مسكنة حاليـا)) الواقعة على الفرات الاوسط الى الشـمـ ال من مملكته(٢)، وهذا يعني ان نفوذه امتد الى تلك الاماكن، كذلك كان له حلفاء او تابعون في تلك المنطقة .

احد هؤلاء التابعين وهو ابي ـ سامار Abi-Samar كتب اليه رسالتين يستنجده فيهما ضد اعداءه الذين كانوا يهددون مملكته من كل جانب (ملوك آشور وكركميش واورشوم وخاشوم ويمحاض)(٣) .

حكم يخدون ـ ليم نحو ثماني سنوات(٤) سقط في نهايتها صريع مؤامرة حيكت خيوطها في قصره .. من المحتمل ان يكون شـمشي ـ أدد بن إلا ـ كبكابو ، الذي طـرد سابقا من منطقة تيرقا مع اسرته وتمكن من الاستيلاء على السلطة في آشور وبدأ ببناء دولة قوية ،وراء هذه المؤامرة . لذلك نراه يحتل ماري بعد مقتل يخدون ـليم .

من اهم مخلفات يخدون ـ ليم وثيقة كتبت على لوح طيني مربع الشكل تقريبا (٤١×٤٠,٥ و٤٠,٥×٧ سم) على عدة اعمدة . وقد عثر المنقبون عـام ١٩٥٣ في أساسات معبد الاله شماش اله الشمس في ماري على تسعة الواح طينية في كل منها نص هذه الوثيقة بالخط المسماري واللهجة البابلية القديمة (احدها محفوظ في المتحف الوطني بدمشق) . وكانت هذه الالواح التسعة قد وضعت في اساسات معبد الالـه شماش لاخبار الاجيال اللاحقة بأعمال هذا الملك .

تعرف الوثيقة حاليا بوثيقة التاسيس لانها كتبت بمناسبة بناء معبد لاله الشمس شماش في ماري، وتذكر النقاط التالية :

١ ـ تعظيم الاله شماش الذي بني المعبد له .
٢ ـ أعمال يخدون ـ ليم العمرانية في مملكته .
٣ ـ قيام يخدون ـ ليم بحملة عسكرية الى شواطيء البحر المتوسط .
٤ ـ الاشتباك مع ثلاثة ملوك على الفرات الاوسط والانتصار عليهم .

٥ ــ تدمير مدينة خامات قاعدة اتصاف البدو الخانيين ؛ وكانوا يشكلون مجموعة بدوية كبيرة في منطقة الفرات الاوسط .
٦ ــ القيام بالاعمال اللازمة على شاطىء الفرات .
٧ ــ بناء معبد للاله شماش وتسميته « معبد بهاء السماء والارض » .
٨ ــ الختام باللعنات على كل من يسيء للمعبد ، ويمحو نص الوثيقة او يشوهه .

كان لحملة يخدون ــ ليم الى شواطىء المتوسط دوافعها السياسية والاقتصادية، فقد كان يعتقد ان بامكانه السيطرة على سورية او على اجزاء منها وفرض الجزية الدائمة عليها . كذلك فان يخدون ــ ليم كان ينشد الشهرة من وراء زحفه الى شواطىء المتوسط مقلدا بذلك شاروكين (صارجون) الاكادي الذي كان اول من سار بجيشه من بلاد الرافدين الى شواطىء البحر الاعلى ، اي البحر المتوسط(٥). ونرى هذا التقليد لدى العاهل الاشوري شمشي ــ أدد الذي يدعي في احدى كتاباته بانه قاد حملة مظفرة الى ارض لابان Laban (المعتقد انها لبنان) على شاطىء البحر الكبير واقام هناك نصبا تذكاريا .

بيد أن يخدون ــ ليم فشل في تحقيق اهدافه السياسية ، ولم يستطع السيطرة على سورية او أجزاء منها ، فما إن انسحبت جيوشه من هناك حتى تلاشى كل نفوذ لمملكة ماري في تلك المنطقة(٦) .

اما الدوافع الاقتصادية لحملة يخدون ــ ليم الى شواطىء المتوسط فكانت الحصول على أخشاب الاشجار الابرية ، كالارز والسرو والصنوبر، اللازمة لبناء المعابد والقصور وغيرها ،.وكانت جبال الامانوس والجبال الساحلية غنية جدا بتلك الاشجار التي كانت اخشابها تستخدم في بلاد الرافدين ووادي النيل ، خلال الفترات التاريخية المختلفة ، في بناء السفن والمعابد والقصور . ولعل من اهم هذه الاوابد المعمارية معبد الاله الشمس ، شماش .

وشماش هو اله الشمس عند الاكاديين والبابليين والاشوريين . وبما انه يرى كل شيء فانه ملك الحق والعدالة ، وكان رمزه في بلاد بابل قرص الشمس مع نجمة رباعية تخرج منها اشعة ،وفي آشور قرص الشمس مع اجنحة،وكانت اهم مراكز عبادة شماش في بلاد الرافدين مدينتي لارسا وسيبار . وعلى مسلة قوانين حمورابي يصور شماش ملكا يجلس على العرش ويقدم لحمورابي بيده اليمنى القضيب والخاتم رمزاً للحق والعدالة .

وفيما يلي النص الاكادي لوثيقة التاسيس مكتوبا بالحرف العربي مع ترجمة وشرح له(٧) .

العمود الاول :

١ ـ أسنا (د) شماش(٨) شار شاسمي ـي	١ ـ الى شماش ملك السماء
٢ ـ أو إرـصي ـتي ـيم	٢ ـ والارض
٣ ـ شلـبي ـبط إلي أو اـوي ـلوـتيم	٣ ـ قاضي الالهة والبشرية ،
٤ ـ شا مي ـشي ـروـوم إـسي ـيق شوـما	٤ ـ الذي العدالة قدره ،
٥ ـكي ـنا ـتوم اـنا شي ـري ـيك ـتي ـيم	٥ ـ الحقيقة كهدية
٦ ـ شاـار ـكا ـشوـوم	٦ ـ تهدى له .
٧ ـ ري ـي صاـالـماـات قابدي ـيم	٧ ـ راعي (ذوي) الرؤوس السوداء
٨ ـ إليم شوـبي ـيم	٨ ـ الاله الساطع ،
٩ ـ داـياـان شاـكي ـين نا ـبي ـيش ـتيم	٩ ـ قاضي الكائن الحي،
١٠ـ ماـجي ـير تي ـيص ـلي ـتي ـيم	١٠ـ المصغي للصلاة ،
١١ـ شي ـمي إكـري ـبي	١١ـ السامع للدعاء ،
١٢ـ لي ـقي أون ـني ـني ـيم	١٢ـ المستقبل للرجاء ،
١٣ـ نادي ـين باـلاـاط طوـوب لي ـبي ـيم	١٣ـ المعطي حياة وفرح لب
١٤ـ شا أوـمي ارـكوـتي ـيم	١٤ـ على مدى الدهر
١٥ـ أسنا باـلي ـخي ـشو	١٥ـ الى عباده ،
١٦ـ شا ماـري(كي)(٩) بي ـرلي ـشو	١٦ـ الذي هو سيد ماري.
١٧ـ يلـاخـدوـون ـلي ـيم	١٧ـ يخدون ـليم
١٨ـ مار يلـجي ـيلـلي ـيم	١٨ـ ابن يجيد ـليم
١٩ـ شار ماـري (كي) أو ماـات خاـنا	١٩ـ ملك ماري وارض خانا(١٠) ،
٢٠ـ بي ـيت ناراتيم	٢٠ـ الحافر للاقنية ،
٢١ـ إـبي ـيش دوـري	٢١ـ الباني للاسوار ،
٢٢ـ موـري ـتي نارـي ـي نابي شوـمي	٢٢ـ المقيم للانصاب باسمه ،
٢٣ـ شاـكي ـين نوـوخ ـشي ـيم	٢٣ـ الواضع الغنى
٢٤ـ أو خي ـجال ـليم اـنا ني ـشي ـشو	٢٤ـ والرفاه لرعيته ،
٢٥ـ موـشاـابـشي مي ـيم ـما شوم ـشو	٢٥ـ الجالب كل شي
٢٦ـ إـنا ماـتي ـشو	٢٦ـ الى بلده ،
٢٧ـ شاروم دان ـنوـوم إطـلوـوم شوـبوـوم	٢٧ـ الملك القوي ، البطل العظيم .
٢٨ـ إـنوـما(د)شماش تي ـيص ـلي ـسو	٢٨ـ عندما أصغى شماش
٢٩ـ إم ـجوـروـشو	٢٩ـ (الى) صلاته
٣٠ـ أو قي ـبي ـسو إش ـموـو	٣٠ـ وسمع قوله

٣١– (د) شماش يا–اخ–دو–ون–لي–يم	٣١– ذهب شماش الى يخدون – ليم
٣٢– أو–دا–ا–سما	٣٢– مسرعا
٣٣– إ–نا إ–ردي–شو إل–لي–يك–ما	٣٣– في الوقوف الى جانبه .
٣٤– شا إش–تو أو–وم صا–ات	٣٤– منذ الايام الغابرة
٣٥– ا–لام ما–ري(كي) إلوم إب–نو–و	٣٥– عندما بنى الاله ماري(١١)
٣٦– شار وم ما–ما–أن وا–رشي–يب ما–ري (كي)	٣٦– ما من ملك مقيم في ماري
٣٧– تي–ا– أم–تا–ام لا إك–شو–دو	٣٧– وصل البحر(١٢)
٣٨– شادي إيرينيم أو تاسكارينيم	٣٨– وفتح جبال الارز والبقس ،

العمود الثاني :

١ – شادي را–بو–تيم لا إك–شو–دو	١ – الجبال العالية(١٣)
٢ – أو إ–صي–شو–نو لا إك–كي–سو	٢ – وقطع اخشابها .
٣ – يا–اخ–دو–ون–لي–يم	٣ – يخدون – ليم
٤ – مار يا–جي–يد–لي–يم	٤ – ابن يجيد–ليم
٥ – شار وم جا–اش–رو–وم ري–يم شار–ري	٥ – الملك القوي ، الثور البري (بين) الملوك .
٦ – إ–نا لي–ا–و–تيم	٦+٩–ذهب ببراعة
٧ – أو جا–مي–رو–تيم	٧ – وقوة
٨ – ا–نا كي–شا–اد تي–ا–ام–تيم	٨ – الى شاطىء البحر ،
٩ – إل–لي–يك–ما	
١٠– أ–نا ا–ا–اب–با (تلفظ ayabba) ني–قي شار–رو–تي–شو	١٠– لـ (اله) المحيط ضحى ضحاياه
١١– را–بي–ا–ام إق–قي	١١– الملكية الكبيرة
١٢– أو صا–بو–شو إ–نا كي–ري–يب ا–ا–اب–با	١٢– وجنوده في وسط المحيط
١٣– مي–ي إر–مو–وك	١٣– استحموا .
١٤– ا–نا شادي إيرينيم أو تاسكارينيم	١٤– في جبال الارز والبقس ،
١٥– شادي را–بو–تيم إ–رو–وم–ما	١٥– الجبال العالية دخل هو ،
١٦–تاسكاريتام إيرينام شورمينام	١٦– البقس والارز والسرو
١٧– أو إ–لام–ما–كا–ام	١٧– والصندل(١٤)
١٨– إ–صي أن–نو–تي–ين إ–كي–يس	١٨– هذه الاشجار هو قطعها .
١٩– خا–مو–صا–ام إخ–مو–وص–ما	١٩– هو اكتسح كل شيء
٢٠– شو–مي–شو إش–تا–كا–ان	٢٠– وشهر اسمه
٢١– أو لي–و–سو أو–وي–دي	٢١– وجعل قوته معروفة .
٢٢– ما–تا–ام شا–تي شا كي–شا–اد	٢٢– هذه الارض على شاطىء المحيط

اـاـابـبا	
٢٣ـ اوـكاـانـنيـيش	٢٣ـ اخضعها
٢٤ـاـنا يـيم اوـشيـشيـيبـرشي	٢٤ـ ووضعها تحت اوامره ،
٢٥ـ واـارـكيـشو اوـشاـرلي ـ يلـشي	٢٥ـ وجعلها تسير خلفه ،
٢٦ـ بيـيلـتاـام كلـياـانـتاـام	٢٦ـ جزية دائمة

العمود الثالث :

١ إـميـسوـنوـتيـما	١ ـ فرض عليها
٢ ـ أو يـيلاـسوـنو ناـشوـنيـ يشـشو	٢ ـ وجزيتها جلبتها له .
٣ ـ إـنا شاـاتـتيمـما شاـاـتي	٣ ـ في هذه السنة
٤ ـ لاـاأوـوم شاو سلـمانيم(كي)	٤ ـ لاؤم ملك سامانوم(١٥)
٥ ـ أو ماـات أبـراـبيـيم	٥ ـ وارض اوبرابوم(١٦)
٦ ـ باـاخـلوـكوـليـيم شار توـتوـول(كي)	٦ ـ باخلوـكو ليم ملك توتول(١٧)
٧ ـ أو ماـات امـنلـنيـيم	٧ ـ وارض امنانوم(١٨) ،
٨ ـ أـيئاـلوم شار أـباـاتـتيم(كي)	٨ ـ ايالوم ملك اباتوم(١٩)
٩ ـ أو ماـات راـابـبيـيم	٩ ـ وارض رابوم(٢٠) ،
١٠ـ شارّو انـنوـتوـون	١٠ـ هؤلاء الملوك(٢١)
١١ـ إـكيـروـشوـما	١١ـ هاجموه (هاجموا يخدون ـليم)،
١٢ـ أـنا تيـلوـتيـشوـنو	١٢ـ لمساعدتهم
١٣ـ صاـاب سوـموـإـپوـوخ	١٣+١٥ ـ جاءت فرق سوموـايبوخ(٢٢)
١٤ـ شا ماـات ياـامـخاـاد(كي)	١٤ـ (حاكم) بلاد يمحاض .
١٥ـ إـليـكاـامـما	
١٦ـ إـنا أـليـيم ساـماـنيم(كي)	١٦ـ في مدينة سامانوم
١٧ـ أومـماـات تورـميـيم	١٧ـ تجمعت (هذه) الجماعات
١٨ـ إشـتيـنيـيش إيـخوـروـ شومـما	١٨ـ كلها ضده
١٩ـ إـنا كاـاكـكيـيم داـانـنيم	١٩ـ (ولكن) بسلاحه(*) القوي
٢٠ـ ٣(شالاشات)شارّي انـنوـتيـين	٢٠ـ أسر هؤلاء الملوك الثلاثة
٢١ـ شا تورـميـيم إكـمي	٢١ـ (ملوك هذه) الجماعات ،
٢٢ـ صاـبـاشوـنو أو صاـبي تيـلاـ تيـشوـنو إـدوـوك	٢٢ـ قتل فرقهم وفرقهم المساعدة
٢٣ـ داـويـداـشوـنو إمـخاـاص	٢٣ـ والحق بهم الهزيمة ،
٢٤ـ جوـروـون شلـاـلـمـلـتيـشوـنو إشـكوـون	٢٤ـ (و) عمل كومة من جثثهم ،

٢٥ـ دو ـ را ـ ني ـ شو ـ نو إق ـ قو ـ ور ـ ما
٢٦ـ إ ـ نا تي ـ لي او(كا) ـ ار ـ مي
٢٧ـ إش ـ كو ـ ون ـ شو ـ نو ـ تي
٢٨ـ أ ـ لام خا ـ ما ـ ان (كي)
اوم ـ ما ـ ات خا ـ نا
٢٩ـ شا أ ـ بو ـ و خا ـ نا كا ـ لو ـ شو ـ نو
إ ـ يو ـ شو ـ شو
٣٠ـ إق ـ قو ـ ور ـ شو ـ ما

٢٥ـ وقوض اسوارهم
٢٦ـ وحولها الى تلال
٢٧ـ واراض جرداء .
٢٨ـ مدينة خامان(٢٢)
(و) قبيلة خانا
٢٩ـ وكل مابناه شيوخ خانا
٣٠ـ دمره هو

العمود الرابع

١ ـ إ ـ نا تي ـ لي أو كا ـ ار ـ مي
إش ـ كو ـ ون ـ شو
٢ ـ أو شار ـ را ـ شو كا ـ صو ـ ري ـ
خا ـ لا إك ـ مي
٣ ـ ما ـ سو ـ نو إت ـ ب ـ با ـ ال
٤ ـ أو كي ـ شا ـ اد پو ـ را ـ تيم إج ـ مو ـ
ور ـ ما
٥ ـ إ ـ نا با ـ لا ـ طي ـ شو بيت (د) شماش
بي ـ لي ـ شو
٦ ـ بيتام شا إ ـ بي ـ يش ـ تا ـ ام شو ـ
وك ـ لو ـ لو ـ ما
٧ ـ اوم ـ مي ـ نو ـ تا ـ ام قو ـ وت ـ تو ـ و
٨ ـ سي ـ ما ـ ات إ ـ لو ـ تي ـ شو إ ـ پو ـ
وس ـ سو ـ وم ـ ما
٩ ـ إ ـ نا شو ـ با ـ سيت را ـ بو ـ تي ـ شو
١٠ـ أو ـ شي ـ شي ـ يب ـ شو شوم
بيتيم شا ـ تو
١١ـ إي جي ـ ير زا ـ لا ان كي إ ـ بي
١٢ـ بيتوم تا ـ شي ـ لا ـ ات شا ـ مي ـ ي
١٣ـ او إر ـ صي ـ تيم
١٤ـ (د) شماش وا ـ شي ـ يب بي ـ تيم
شا ـ تو
١٥ـ إ ـ نا يا ـ اخ ـ دو ـ ون ـ لي ـ يم با ـ ني
بي ـ تي ـ شو
١٦ـ شار ـ ري ـ يم نا ـ را ـ ام لي ـ بي ـ شو
١٧ـ كا ـ اك ـ كا ـ ام دا ـ ان ـ نا ـ ام
١٨ـ كا ـ شي ـ يد أ ـ يا ـ بي
١٩ـ پا ـ لا ـ ام أر ـ كا ـ ام

١ ـ وحوله الى تلال واراض جرداء .
٢ ـ وأسر ملكها كاصوري ـ خالا (ملك
مدينة خامان) ،
٣ ـ وأخذ معه (سكان) بلاده .
٤ ـ وأتم شواطىء الفرات(بناء وتحسينا)
٥ ـ لاجل حياته بنى معبدا للاله شماش
سيده ،
٦ ـ معبدا بناه واتمه
٧ ـ واكمل تزيينه
٨ ـ وعمل فيه ما يخص الهته .
٩ ـ في مكانه الكبير
١٠ـ جعله يجلس (أي شماش) (و) سمى
هذا المعبد
١١ـ إيجير زالا انكي(٢٤)
١٢ـ معبد بهاء السماء
١٣ـ والارض .
١٤+٢٣ ـ ليهب شماش ساكن هذا
المعبد
١٥ـ الى يخدون ـ ليم باني معبده ،
١٦ـ الملك محبوب قلبه ،
١٧ـ سلاحا قويا
١٨ـ ساحقا للاعداء ،
١٩ـ حكما طويلا ،

٢٠ـ شا طوـوب ليـبيـيم
٢١ـ او شاـناـات خيجاليم ريـشاـتيم
٢٢ـانا أوـمي داـروـتيم
٢٣ـ ليـيشـروـوكـشوم
٢٤ـ شا بيـتاـام شاـتو
٢٥ـ أوـشاـالـپاـتو
٢٦ـ اـنا ليـموـوتـتيم
٢٧ـ أو لا داـميـيقـتيم إـكوـپوـشوم
٢٨ـ اـسوـراـشو لا اوـداـناـنو
٢٩ـ ماـاقـتوـسو لا اوشـزاـزو
٣٠ـ او نيـإنـداـباـام

العمود الخامس

١ ـ إـپاـراـسوـشوـوم
٢ ـ شوـمي شاـاطـراـام إـپاـشيـطو
٣ ـ أو أوـشاـابـشاـطو
٤ ـ شومـشو لا شاـاطـراـام إـشاـطارو
٥ ـ أو أوـشاـاشـطاـرو
٦ ـ أو اـشوـوم إرـويـتيم
٧ ـ شاـنيـاـام أوـشاـخاـزو
٨ ـ اـويـلوم شوـو لو شارـروـوم
٩ ـ لو شاـكاـناـكوـوم
١٠ـ لو راـبيـاـنوـوم
١١ـ لو اـويـلوـتوم شوم ـ شا
١٢ـ اـويـلام شاـتو
١٣ـ (د)إنـليل شاـبيـيط إـلي
١٤ـ شارـروـسو ليـماـطي
١٥ـ إـنا كاـال شارـري
١٦ـ (د)سين اـخوـوم راـبوـوم
١٧ـ إـنا إلي اخـخيـشو
١٨ـ إرـريـتاـام راـبيـتام
١٩ـ ليـروـوـشو
٢٠ـ (د)نيـريـجال بيـيل كلـاكـكيـيم

٢٠ـ سرور القلب ،
٢١ـ وسنوات فيض وابتهاج
٢٢ـ الى الابـد .
٢٤ـ من يخرب
٢٥ـ هذا البيت،
٢٦ـ (ومن) بنية سيئة
٢٧ـ وغير طيبة يقترب منه ،
٢٨ـ (ومن) لا يدعم اساساته
٢٩ـ ولا يبني المتهدم منه ،
٣٠ـ (ومن) يبطل تقدمات

١ ـ الخبز ،
٢ـ (من) يمحو اسمي المكتوب
٣ ـ او يجعله يمحى
٤ ـ ويكتب اسمه غير المكتوب
٥ ـ او يجعله يكتب
٦ ـ او بسبب اللعنة
٧ ـ يجعل (انساناً) اخر يقوم بذلك
٨ ـ أكان ذلك الانسان ملكا ،
٩ ـ او حاكما ،
١٠ـ او عمدة ،
١١ـ او أي انسان اخر
١٢ـ هذا الانسان ليجعل
١٣ـ انليل(٢٥) قاضي الالهة
١٤ـ مملكته صغيرة
١٥ـ بين كل الملوك ،
١٦ـ سين(٢٦) الاخ الكبير
١٧ـ بين اخوته الالهة
١٨ـ لعنة كبيرة
١٩ـ ليلعنه
٢٠ـ نيرجال(٢٧) سيد السلاح

٢١ـ كا ـ الك ـ كا ـ شو لي ـ يش ـ بي ـ ير ـ ما
٢٢ـ مو ـ ر تي أ ـ ي ـ ايم ـ خو ـ ور
٢٣ـ بيتوم أ ـ شار شي ـ يم ـ ر تيم
٢٤ـ شي ـ يم ـ تل ـ شو لي ـ رلي ـ رمي ـ ين
٢٥ـ إيلات أ ـ نا كا ـ لا ـ توم
٢٦ـ بي ـ يل ـ توم را ـ بي ـ توم
٢٧ـ لو مو ـ لي ـ مي ـ نل ـ آت أ ـ وا ـ تي ـ شو
٢٨ـ إ ـ نا ما ـ خل ـ ار .(د) شماش أ ـ نا
دا ـ ري ـ أ ـ تيم
٢٩ـ (د) بنو ـ رتي ـ رني شو ـ كا ـ ال
(د) شماش را ـ بو ـ وم
٣٠ـ نا ـ ربي ـ يش ـ تا ـ شو لي ـ ركي ـ يس
٣١ـ زي ـ را ـ شو لي ـ يل ـ قو ـ وط ـ ما
٣٢ـ بي ـ ري ـ يخ ـ شو أ و شوم ـ شو
٣٣ـ إ ـ نا ما ـ خا ـ ار (د) شماش
أ ـ ي ـ تا ـ لا ـ اك

٢١ـ ليحطم سلاحه
٢٢ـ والا يستقبله مع الاموات ،
٢٣ـ ليعمل بيت القضاء (القدر)
٢٤ـ قدره سيئا .
٢٥ـ لتجعل الالهة ايا(٢٨) الكنة ،
٢٦ـ السيدة العظيمة
٢٧ـ اموره سيئة
٢٨ـ أمام شماش الى الابد .
٢٩ـ بونيني وزير شماش الكبير
٣٠ـ ليقص حياته
٣١ـ (و) ليبيد ذريته .
٣٢ـ احفاده واسمه
٣٣ـ لن يمثلوا أمام شماش

* * *

(١) حول الاموريين انظر :

J.R. Kupper. **Les nomades en Mésopotamie au temps des rois de Mari,** Paris 1957, P.149ff.; G. Buccellati , **The Amorites of The Ur III Period,** Neapel 1966.

(٢) G. Dossin, **Studia Mariana, Leiden 1950** , p. 52 Nr. 4.

(٣) Archives Royales de Mari I, Paris 1950, 1, 2.

(٤) W.V. Soden, Das altbabylonische Briefarchiv von Mari, in: Die welt des Qrients 1 (1,47-52); S. 191; G. Dossion, «Les Archives écnomiques de de Palais de Mari», in: **Syria 20** (1939), p. 105.

(٥) D.O. Etizard, **Fischer weltgeschichte2**,Frankfurt a.M.und Hamburg 1965, S.178; H. Klengel, **Geschichte Syriens in 2.** Jahrtausend V.U. Z., Teil 3, Berlin 1970, S.138ff; ders Geschichte und Kultur Altsyriens, wien - München 1980,S.50.

(٦) H. Zlengel.**Geschichte Syriens III**, S 138 ff .; ders : Geschichte und **Kultur Altsyriens,** S. 50.

(٧) نشر الاستاذ جورج دوسان وثيقة التاسيسهذه لاول مرة عام ١٩٥٥ (بالفرنسية) انظر :

G. Dossin, « L' Inscription de Fondation de Iahdun - Lim . Roi de Mari» , in : **Syria,** 32 (1955), P.1-28.

(٨) (د) شماش : الدال الموجودة قبل الاسم هي اختصار للكلمة dingir السومرية التي تعني اله. ووجودها قبل الاسم يعني ان صاحب الاسم اله او الهة . الهيالاكادية ilum انظرحول شماش:

H.Ringgren, **Die Religionen des AltenOrientes,** Gottingen 1979, S. 121 ff,; D.O. Edzard, in Wörterbuch **der Mythologie,**Band I, Gotter und Mythen in Vorderen Orient, Stuttgart 1965, S. 126.

(٩) كي Ki : تاتي في اخر اسماء الاماكن والبلدان .

(١٠) ارض خانا هي المنطقة التي استقر فيها انصاف البدو الخانيون على الفرات الاوسط فسميت باسمهم . انظر :

B. Groneberg, **Répertoire Géographique des Textes Cunéiformes** Band 3, Wiesbaden 1980, S.88 ff .; Kupper, **Les nomdes.** P. 1 ff,; H. Klengel, **Zwischen zelt und Palast,** Leipzig - Wien 1972, S. 55 ff.

(١١) تاسيس المدن وبناؤها كان في اعتقاد سكان بلاد ما بين النهرين عمل الهي . نلاحظ ذلك في اسطورة ايتانا .

(١٢) المقصود البحر المتوسط .

(١٣) المقصود بذلك جبال الامانوس التي كانت غنية بالاشجار الابرية كالارز والصنوبر والسرو، ويذكرها شاروكين الاكادي تحت اسم ((غابة الارز)) وحفيده نارام – سين يذكرها ايضا . ويتحدث جوديا حاكم مدينة لاجاس السومري (٢١٤٣–٢١٢٤) في كتاباته بانه جلب من هناك اخشاب الارز والبقس . كذلك يرد ذكر جبال الامانوس في وثائق عديدة اخرى . انظر :

A. Mari, Der Handel Zwischen Syrienund Babylonien in achtzehnten Jahrhundert, würzburg 1985, S. 70.

(١٤) الاماكوم :elammakku(m) معنى هذه الكلمة لا يزال غير واضح البعض يعتقد انها تدل على خشب الصندل ، في حين يترجمها فون زودن(خشب بناء ثمين من سورية) . انظر :

W. Von Soden, Akkadisches Handworterbuch, S. 96.b.

(١٥) ساماتون Samanum كانت تقع في وادي الفرات الى الشمال من ماري في منطقة تيرقا انظر:
B. Groneberg, RGTC 3 (1980), S.201;Klengel, Zwischen, Zelt und Palast, S.55.

(١٦) ارض اوبرابوم Ubrabum هي المنطقة التي سكن فيها البدو الاوبرابيون ، وكانوا فرعا من البنياميين وقد سكنوا في منطقة تيرقا حول مدينة ساماتوم . انظر :

Groneberg, RGTC 3 (1980) , S. 244;Klengel , Zwischen Zelt und Palast, S. 56; Kupper, Les nomades,P. 49 ff.

· توجد عدة اماكن في بلاد الرافدين بهذا الاسم. توتول Tuttul التي يرد ذكرها في نصوص ماري تقع قرب مصب نهر البليخ . انظر :

Groneberg, RGTC 3. S, 242; E. Strommenger, Tall Bia bei Raqqa , in: Mitteilungen der Deutschen Orient- Gesellschaft 109 (1977), S,5 ff.

(١٨) امنانوم Amnanum هي المنطقة التي سكنها البدو الامنانيون الذين كانوا احد فروع البنياميين وسميت باسمهم ، وتقع في منطقة توتول على نهر البليخ . انظر :

Kupper, Les nomades, P. 49ff.; RGTC3,S. 14; Klengel, Zwischen Zelt und Palast, S.56.

(١٩) اباتوم Abattum هناك عدة اراء في تحديد موقعها . انظر :

RGTC 3, S. 1.

(٢٠) رابوم Rabbum اسم قبيلة بدوية اطلق على المنطقة التي سكنتها في ارض يمحاض قرب الفرات . انظر :

Kupper, Les nomades, P.53; RGTC 3S. 192ff.

(٢١) تعبير ملوك هنا يشير كما هو واضح الى شيوخ قبائل بدوية كانت تتجول بقطعانها قرب الفرات ، ولها في الوقت نفسه مستوطنات سكنية حول ضفاف النهر . انظر :

Klengel, Zwischen Zeit und Palast, S.56.

(٢٢) Sumu-Epuh كان يحكم مملكة يمحاض وعاصمتها حلب . وكانت تشمل شمال سورية . وهو اول حاكم ليمحاض معروف لدينا من هذه الفترة ، وهذه الاشارة هي اقدم اشارة اليه حتى الان

(٢٣) Haman مدينة بناها اشباه البدو الخانيون . انظر : RGTC 3, S. 87.

(٢٤) ايجير زالا انكي : E GI-IR ZA-LA AN KI

هذه الجملة سومرية تعني « معبد بهاء السماء والارض » . وقد تكررت بالاكادية في السطرين ١٢و١٣

(٢٥) انليل Enlil هو الاله الرئيسي في البانثيون السومري؛ وهو سيد القضاء والقدر ، ابو الالهة ملك السماء والارض ، وملك كل البلاد ،كان مقدسا ايضا لدى البابليين والاشوريين ،ومركز عبادته الرئيسي كان مدينة نيبور . انظر :

D. O.Edzard,in wörterbuch der Myth ologie, Band I.S. 5 ff; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients .S.69 .

(٢٦) سين Sin : اله القمر عند الاكاديين والبابليين . وهو ابن انليل . وكان سين يكتب عادة بالعدد الرمزي ٣٠ الذي يطابق ايام الشهر، واماكن عبادته الرئيسية اور وحران. انظر :

Edzard, in : Worterbuch der Mythologie, I.S.10;
Ringgren, Die Religionen des Alten Orientes , S. 119ff.

(٢٧) نيرجال Nergal : اله العالم السفلي واله الطاعون . انظر :

Edzard , in: Worterbuch der Mythologie, I, S. 109 ,; Ringgren, Die Religionen des Alten Orients, S. 80,126.

(٢٨) اية Aya : الربة قرينة شماش . من القابها حبيبة شماش (نارامتو naramtu) والكنة ، والعروس ، كالاتو Kallatu). :ـ

Edzard, in : Wörterbuch der Mythologie , I, S.39; Ringgren , Die Religion en des Alten Orients, S. 121.

المرأة في مملكة حلب (يمحاض)
في القرن الثامن عشر ق.م.

د. فيصل عبدالله

جامعة دمشـــق

ان كتابة تاريخ المراة السورية في القرن الثامن عشر قبل الميلاد ، يعتمد بصورة اساسية على مصادر محفوظات مدينة ماري (قرب بلدة ابو كمال حاليا) ومحفوظات مدينة آلالاخ (قرب مدينة انطاكية حاليا) . ونمتلك اليوم ما يكفي من المعلومات حول نساء قصر زمري ليم في ماري لا سيما بعد صدور المجلد الرابع من السلسلة الفرنسية الجديدة(٢) التي تعنى بدراسة محفوظات ماري . ففي هذا المجلد نصوص تقدم لنـا معلومات وافرة حول ما يسمى « حريم قصر ماري » وكذلك مراسيم الزواج ،والزواج الدبلوماسي ، وما يمكن استنتاجه من عادات وتقاليد مازال الكثير منها مستمرا عبـر العصور حتى يومنا الحاضر .

وفيما يتعلق بمملكة حلب (يمحاض) بالذات ، لدينا اليوم نصوص حصلنا عليها بعد حفريات مدينتي ماري والالاخ ، تعكس بصورة غير مباشرة وضع المراة الحلبيـة ذات الاصل الملكي ، وبعض مظاهر العادات والتقاليد المتعلقة بالزواج .

ومن الجدير بالذكر ان ما نحصل عليه من معلومات تاريخية من تلك النصوص، ليس الا جزءا من تاريخ المجتمع الاشوري ــ البابلي ، الذي تشكل بعـد الهجرات البدوية الامورية في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد ، فهؤلاء الذين اجتاحوا ، انطلاقا من البادية العربية السورية ، سورية والعراق القديمـين ، استولـوا تدريجيا على السلطة فيهما ، واقاموا ممالكهم الشهيرة(٣) .

اعد هذا البحث للمؤتمر الدولي الثالث والثلاثين لعلماء الاشوريات ، باريس ٧ــ١٠ تموز ١٩٨٦، وموضوعه « المراة في الشرق الادنى في العصور القديمة » .

ان الدراسات المستمدة من نصوص مملكة ماري تعكس بوضوح العلاقات المتينة بين هذه الاخيرة ومملكة يمحاض . وعاصمتها حلب(٤) ، كما كانت تسمى في ذلك العصر . وقد توطدت هذه العلاقة منذ عودة زمري ليم الى ماري واسترجاعه مملكة أبيه يخدون ليم التي اغتصبها الاشوريون(٥) . بدأت تلك العلاقة بعد زواج « دبلوماسي » شهير في تاريخ مدينتي ماري وحلب ، ذلك الزواج الذي جمع بين الملك زمري ليم الشهير وشيبتو ، الاميرة الحلبية ابنة ياريم‌ليم ملك حلب / يمحاض ، ذائع الصيت في تلك الايام . وتجدر الاشارة هنا ان معطيات جديدة أثبتت أن ذلك الزواج قد تم بعد تسلم زمري ليم السلطة في ماري، وليس قبلا ، كما كان مفترضا من قبل الاستاذ جورج دوسان(٦).

ان قصة هذا الزواج هي اليوم أكثر وضوحا بعد اكتشاف ملف من النصوص المسمارية سينشرها قريبا الاستاذ جان‌ماري دوران(٧) ، ويشرفني ان اكون اول من يقدم محتوى تلك النصوص الهامة في هذا البحث .

يتضمن الملف الجديد من النصوص المسمارية مجموعة رسائل مكتوبة على الواح فخارية من حجم صغير بلغة اكادية ولهجة مارية غربية (نسبة الى ماري) ارسلت من قبل بعثة ملكية موفدة من مدينة ماري على الفرات الاوسط ، الى مدينة حلب حاضرة مملكة يمحاض الامورية في سورية الشمالية يرأسها كل من أصقدوم وراشيا(٨) ، ومهمتها الوصول الى قصر الملك الحلبي ياريم ـ ليم وطلب يد ابنته الاميرة شيبتو زوجة لزمري ليم ملك ماري . وكانت البعثة تزود زمري‌ليم برسائل عن أخبارها وهي في طريقها الى حلب .

يتضمن هذا الملف من الرسائل التي بين ايدينا النصوص التالية ، مرتبة حسب التسلسل الزمني لارسالها الى بلاط ماري من قبل بعثة ملك ماري وهي في طريقها الى حلب :

اولا : في الطريق الى حلب :

ـ رسالة البعثة عندما كانت على مشارف مدينة تيلازيبوم(٩) ، التي يفترض ان تقع بين ماري وايمار (مسكنة حاليا) .

ـ رسالة ارسلت من مدينة ايمار(١٠) .

ـ رسالة تتضمن معلومات حول عملية الاستعجال بمراسيم الزواج(١١).

ـ رسالة تتعلق بزيارة بلاد يمحاض(١٢) .

ـ رسالة تتضمن اخبارا من البلاط الحلبي(١٣).

ـ رسالة تتعلق بمسالة سكن العروس شيبتو في ماري(١٤) .

ثالثا واخيرا : العودة الى ماري :

ـ رسالة من ايمار(١٥) .

ـ رسالة بعد المرور بحصن دور يخدون ليم(١٦) .

يبدو من خلال الرسائل السابقة ان اصقدوم وراشيا كلفا ، في السنة التالية لعودة زمري ليم الى عرش ابيه ، بمهمة طلب يد اميرة حلبية . وتلك المهمة الدقيقة تحتاج الى تدخلات الحاشية ، وخاصة وزير البلاط المسمى شيمروم ، الذي يعلن للبعثة المارية بعد مقابلة الملك ياريم ـ ليم : امراة مقابل امراة ، لانه كان يرغب بالحصول على مغنية من ماري تسمى كرناتوم .

ونلاحظ من خلال وثائق المجلد الرابع لدراسات ماري(١٧) متعددة الجوانب ، ومن خلال وثائق المجلد السادس والعشرين التي ستنشر قريبا ، ان طرائق الزواج السوري وعاداته تبدو اكثر وضوحا ، على الاقل ، مما كان في مدينة ماري.

ان « كلمة نديتوم »(١٨) الاكادية لم تعد تعني هدية او تقدمة ، وانما « الطرحة »(١٩) ، وهي العطايا التي تحملها العروس من بيت ابيها عندما تغادره الى بيت الزوجية .. اما ما يقدمه الزوج من جهته فهو يسمى بالاكادية « ترخاتوم »(٢٠) والترجمة الفرنسية للكلمة هي « عطاء مقابل »(٢١) ، اي جهاز العروس من عريسها. ولا ندري هنا اذا كانت الكلمة الاكادية ذات علاقة بكلمة «طرحة» .

ان النصوص المنوه عنها هنا ، لا تنبئنا عن النديتوم اي هدايا شيبتو من بيت ابيها ، ولكن نصا(٢٢) مكتشفا من قبل يسجل لنا هدايا العريس الى عروسه . ونستعرض الان المعطيات المستمدة من ملف الزواج هذا :

- تقدم لنا البعثة الموفدة من قبل ملك ماري المثل الاقدم في تاريخ العادات والتقاليد الانسانية على ما يسمى الزواج بالوكالة او التوكيل .

- تمت مراسيم الزواج في قصر الملك الحلبي ،أي في بيت العروس ، وهو مايجري في مجتمعنا في الوقت الحاضر . وهذا شاهد على استمرارية تقاليد هذا المجتمع برغم التبدلات السياسية واللغوية .

- ان موفدي زمري ليم هم الذين وضعوا الغطاء على راس العروس شيبتو ،وبذلك نستطيع الاستنتاج مع جان ماري دوران(٢٣) ان الزوج أو وكلاءه هم الذين يضعون الغطاء على رأس العروس .

- تضع المرأة المتزوجة الغطاء على راسها وهو ما يسمى بالاكادية كتموم(٢٤) ، ومن الواضح هنا أن المصدر « كتم » بالعربية يفيد في المقارنة اللغوية .

- يشير جان ماري دوران في ملفه الى ان النصوص تدل على أن العاهرات المقدسات وحريم « حارمتوم »(٢٥) المعابد في سورية ، في ذلك العصر ، كن يضعن **الغطاء على رؤوسهن** ، على عكس ما هو شائع .

- تدل نصوص اخرى غير منشورة ، كما يشير الاستاذ دوران ، ان عملية **الطلاق** في سورية كانت تتم بصورة رئيسية **من قبل الزوج** ، وعلامتها اقدامه على خلع معطف زوجته او تمزيقه بحضور شهود . الا انه كان للزوجة ايضا، على ما يبدو، الحق بالمبادرة بقطع علائق الزوجية .

والربط بين هذه المعطيات الاجتماعية وعاداتنا وتقاليدنا اليوم لا يحتاج الى مزيد من التفاصيل .

- نستطيع الاستنتاج أيضا أن تقاليد الزواج السورية كانت تقضي بأن تعيش الزوجة ، التي تتحدر من اصل ملكي ، تحت سقف واحد مع زوجها .

- واستنادا الى نص غير منشور(٢٦) ، كانت والدة ملك حلب ياريم ليم هي السيدة سومو ـ نابي(٢٧) ، ونفترض من جهة اخرى انها زوجة أول ملك لحلب سومو ـ ابيوخ المعروف . وكما سنرى فيما بعد ، فإن امرأة حلبية من نسب ملكي تحمل الاسم نفسه ، مذكورة في نصوص مدينة آلالاخ التابعة لمملكة حلب .

- ان دور الملكة الام في المملكة الحلبية غير واضح ، ولكن الكثير من الاشارات تدعو للاعتقاد انه ذو اهمية بالغة .

- ان الملكة الزوجة ، أي زوجة ياريم ليم المسماة جاشيرا(٢٨) ، قد ارتحلت مع زوجها في ارجاء البلاد وفق مايدل عليه نصان(٢٩) بهذا الخصوص ،كماكانت تدير القصر في غياب زوجها(٣٠) .

- تظهر لنا رسالة(٣١) من زمري ليم الى حماته جاشيرا ان عادة اتخاذ أكثر من زوجة ، او عشيقة ، هي من العادات المعروفة في مجتمعنا منذ ذلك الوقت».
- تشير في النهاية الى مهمات كانت تناط بالمرأة في ذلك العصر ، وهي العناية بالمرضى والاطفال . فهناك نص(٣٢) يتحدث عن أكثر من امرأة رافقن طفلا الى مدينة حلب بأمل شفائه على يد اله المدينة أدد وكهنتها . ويرجح أن هذا الطفل هو ابن احد المسؤولين الكبار في ماري.

اذا ما تتبعنا بحثنا هذا حول اوضاع المرأة في سورية الشمالية، في نصوص مدينة آلالاخ ، فاننا نجد نصا مؤرخا في السنة التي « كان فيها اميتكوم ملكا على حلب ، عندما اتخذ ابنة حاكم مدينة ابلا زوجة لابنه »(٣٣) . وهناك نصان(٣٤) يتحدثان عن رحلة ملكية حلبية الى ابلا بمناسبة ذلك الزواج .

ولابد من الاشارة حتا الى ان زواج الملوك كان وسيلة لتدعيم الروابط السياسية ، وقد تم من قبل عدد من هذه الزيجات بين ملوك وحكام الممالك الامورية المعاصرة في ذلك الوقت(٣٥) .

لدينا ، من جهة اخرى ، الكثير من النصوص المكتشفة في مدينة آلالاخ تبرز دورا مهما للمرأة ، بخاصة ذات النسب الملكي ، فهي تستطيع ممارسة التجارة لحسابها الخاص ، وتستطيع أن تكون شاهدا ندا للرجل ، ولها ارثها كما للرجل .

فهناك نص اداري(٣٦) ، يشهد بحضور الملك وأوامره توزيع ميراث بين افراد العائلة .. الملك هو نقمي ــ ايبوخ الملك الثالث لحلب (في نصوص آلالاخ) ، حيث يوزع ارثا خاصا بزوجة رجل مسمى اموراپي ، وقد تم توزيعه بين ابنهاابايل وابنتها بيتاني . وبالرغم من جهلنا للشخصيات التي تحمل هذه الاسماء الا انه من المحتمل ان يكونوا من أعضاء العائلة الملكية أو من اقربائها ، فهم في النتيجة يحصلون على الارث وهو قرية اسمها سوخاراوا ، مع كل الاحترام والتبجيل الواضحين في النص . ونص اخر(٣٧) يذكر اسماء اعضاء في العائلة الملكية بينهم امرأة تدعى تاكي اشخارا ، يعتقد انها زوجة الملك نقمي ــ ايبوخ وقد انجبت له عددا من الاولاد .

اما الوثيقة(٣٨) المؤرخة في اثناء حكم اركيتوم فتذكر اسم امرأة تسمى سوموــنبي (اسم النبي) وهي تقرض الفضة (وفق أوزان مدينة حلب) الى افراد من قرية ايراش . وتقوم هذه المرأة باعمال مماثلة في نصوص اخرى ، وتذكر في النهاية كشاهد(٣٩) . ويعتقد وايزمان مترجم نصوص آلالاخ ، بأن هذه المرأة هي شقيقة حاكم آلالاخ اميتكوم(٤٠) .

اخيرا : اذ اردنا ان نجمل معطيات هذا البحث بخلاصة قصيرة عن المراة الحلبية السورية والعربية بعامة في ذلك العصر ، نجد :

● ان المراة ، تشارك في الحياة الاجتماعية والسياسية ، وتعمل في التجارة ، ولكن من وراء حجاب على ما يبدو .

● اننا لا نعلم الا القليل عن حياة النساء في معابد سورية ولكننا نعتقد انها كانت كحياة غيرهن من النساء في معابد بلاد الرافدين ، التي كانت تضم هيئةكهنوتية نسائية هامة خاصة في معبد الاله ادد / هدد ، الذي كان مبجلا في كل ارجاء المنطقة الرافدية .

● اخيرا ، ما قدمته لنا تلك النصوص وغيرها مما لايزال غير منشور ، وقيد الدرس والتمحيص ، يدل بصورة قاطعة على أهمية المملكة الحلبية ، ويحفزنا اكثر فاكثر على التعرف على قصرها في ذلك العصر . وأهم من هذا هو الوصول الى المحفوظات الملكية التي يجب ان لا تقل أهمية عن محفوظات ماري أو ابلا .

(١) عنوان البحث بالفرنسية
La Famme dans le royaume d'Alep au 18e siécle av.J.C.

(٢) هذه السلسلة تحمل عنوان :
M.A.R.I. : Annales de Recherches Interdisciplinaires, Paris

(٣) من اجل النصوص المسمارية الاكادية والدراسات المتعلقة بهجرة الاموريين وبهجرات القبائلالبدوية الاكادية التي سبقت هذه الهجرة ، وجميع المصادر المتعلقة بهذا الموضوع ، وبموضوعهجرات البدو القدماء انسال العرب ، انظر : فيصل عبد الله :
Les Relations internationales entre le royaume d'Alep / Yamhad et les villes de Syrie du Nord « -1800 à 1594 av . J.C. » p. 23 et suivant; P. 189 nº 90 - 114 .

اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة باريس

(٤) ان اقدم ذكر لاسم يمحاض ياتي في كتابات يخدون ـليم التاسيسية المؤرخة في نهاية القرنالتاسع عشر قبل الميلاد ، ويأتي اسم مدينة حلب في التاريخ نفسه تقريبا ، ولذا فاننا نعتبر ان مدينة حلب هي اقدم مدينة مازال مسكونة منذ ذلك التاريخ حتى عصرنا الحاضر، محافظة على اسمها الاكادي على مر العصور ، من اجل تفصيلات حول هذا الموضوع ، وحول كتابة الاسم بالمسمارية، انظر المرجع السابق ، ص٤٧.

(٥) تؤرخ فترة حكم زمري ـليم في ماري بين ١٧٨٠ـ١٧٥٩ ق.م .

(٦) انظر :
Čharpin, D. et Durand, J.M., Origine de Zumri- Lim, colloque CNRS, 620, Strasbourg, 1983.

(٧) سينشر هذا الملف في المجلد السادس والعشرين من محفوظات ماري الملكية :
Durand, ARM 26

(٨) يكتب الاسمان بالقطعية الاكادية : Ri-Si-ia; As-qu du-um
انظر ايضا : ARM XVI/I

(٩) الرسالة تحمل الرقم (A. 711)
ويكتب اسم تيلازيبوم هكذا : Tillazibum

(١٠) A. 2369; Imar

(١١) A. 2627

(١٢) A. 414

(١٣) A. 3627

(١٤) A. 2679

(١٥) M. 5418

(١٦) A. 973

(١٧) M.A.R.I.4

(١٨) تقدمة ، هدية midittum, Present :
وهي الترجمة المقترحة سابقا .

(١٩) وبالعامية (دوطا) وبالفرنسية dot

(٢٠) terhatim

(٢١) contre-don

(٢٢) النص يحمل الرقم M. 5677

(٢٣) ان معطيات هذه النصوص مستوحاة من ملف الزواج الذي اعده الاستاذ جان ماري دوران ولكننا لانتطوي على محاولات لربطها بمجتمعنا المعاصر .

(٢٤) Kuttumum

(٢٥) بالاكادية Harimtum

(٢٦) ويحمل الرقم A. 2617

(٢٧) Sumu - na-bi

(٢٨) Gasera

(٢٩) ARMT 23, 535, 536

(٣٠) انظر : ARMT 23, p. 472

(٣١) انظر : ARMX 139

(٣٢) RES 1939, p. 68

(٣٣) نص مدينة الالاخ AT+35 حيث يحمل تلك العبارة في نهايته . اسم الملك يكتب بالقطعية المسمارية: Ammitakum اما مدينة ابلا فتكتب بمقطعين Eb - la وقد اكتشفت في ١٩٦٨ جنوب حلب .

(٣٤) AT+269; 235

(٣٥) نشير بصورة خاصة الى زواج جمع بين يسمع-ادد ابن شمش ادد الاول مؤسس المملكة الاشورية في نهاية القرن التاسع قبل الميلاد ، وبين ابنة ملك قطنة (قرب مدينة حمص حاليا) وهو زواج ضجت له البادية السورية ، كما يبدو وصفه في النصوص . انظر المصدر المذكور في الحاشية رقم (٣) ص ٥٧٤.

(٣٦) النص هو AT. 7

والاسماء هي : الملك Niqmi - Epuh

رجل بدون مرتبة اجتماعية Am-mu-ra-pi

رجل بدون مرتبة اجتماعية Ab-ba-An/EL

امراة بدون مرتبة اجتماعية Bi-it-ta-at-ti

Suharawa قرية يفترض ان تكون بجوار الالاخ قرب انطاكية.

(٣٧) AT+409 Taki-Ishara

(٣٨) AT+33 ملك حلب Irkabtum Sumunnabi Airrase

(٣٩) AT+404

(٤٠) AT+34 Amitakum

Wisman, Donald, The Alalakh Tablets, London, 1953.

ملوك إبلا العشرة*

الفونسو اركي
عضو الهيئة الدلية
لدراسة ارشيف ابلا

عربه عن الالمانية
قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف

فكت رموز الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م /٧٥/ ج /٢٦٢٨) ونشر في المجلد السابع من سلسلة مطبوعات الارشيف الملكي لنصوص ابلا (ARET) تحت رقم ١٥٠ . تقول الحاشية الواردة في السطرين الثالث والرابع في الوجه الخلفي من الرقيم ما يلي : اضاحٍ من الضأن لالهة المدن التي يقطن (جوهرها) في مدينة دريب.

ورد ذكر مدينة دريب في الرقيم المسماري الموصوف بـ (ت.م /٧٥/ ج /٢٣٧٧) على أساس انها مدينة من مدن دولة ابلا وبالتحديد مقر لعبادة الالهة نيداكول . وباستثناء اسماء بعض سكان هذه المدينة الوارد ذكرهم في رقم اخرى فاننا لا نعرف شيئا عن امورها الاخرى .

ترجمة الرقيم : آ ـ الوجه الامامي

السطر الاول :

ـ (١٠ اودو) (خراف)
ـ (دينجر)
٣ ـ (اركب دامو)
(دينجر)
٥ ـ (اجريش حلم)
(دينجر)
٧ ـ (ادوب دامو).

السطر الثاني

(دينجر)
(كوم دامو)
٣ ـ (دينجر)
(ابسار ملك)
٥ ـ (دينجر)
(إن ـ آر ـ دامو)
٧ ـ (دينجر)
(با ـ دامو)
٩ ـ (دينجر)

---

* نشر هذا البحث في مجلة الدراسات الاشورية ـ برلين ، المجلد ٨٦ ، الجزء الثاني ١٩٨٦ ص ٢١٣ ـ ٢١٧ .

السطر الثالث
(إبي دامو)
(دينجر)
٣ ـ (آخور ليم)
(دينجر)
٥ ـ (آبور ليم)
(إنـإن) (ملك الملوك)
٧ ـ أو دو (خروف) عدد ٢
نيداكول (دينجر)

السطر الرابع :
و (حرف عطف)
الاله بيـمي (بعلة)
٣ ـ اودو (خروف) عدد ٢
رسب (اله رشف)
٥ ـ و (حرف عطف)
الاله آداما
٧ ـ اودو (خروف) عدد ٢
الاله آجو

٢ ـ الوجه الخلفي للرقيم :

السطر الاول : و (حرف عطف)
الاله جولاتو
٣ ـ اودو (خروف) عدد ١
الاله آرارو
٥ ـ مدينة دريب
اودو (خروف) عدد ١
٧ ـ الاله جا×سيكـرا

السطر الثاني:
لوـ داـ دا ـ إن
اشـدا
٣ ـ غير مقروء عدد ١
(فجـوة)

السطر الثالث (فجوة)
٣ ـ غير مقروء ...اله اله اله (رب الارباب)
اورو ـ(مدينة اورو (مدينة ـمدينة)
٣ ـ (فـراغ)
٤ ـ في (حرف جر)
مدينة دريب
٣ ـ (فراغ)
٥ ـ (فراغ)

يحتوي الجزء الاول من النص على اسماء ثلاثة ارباب مع بعلاتهن ، الاول هو كبير آلهـة ابلا المدعو نيداكول وقرينته بعلة ، والثاني هو اله رشف وقرينته آدما ،والثالث اله آجو وقرينته جولاتو . ويلي هذه القائمة اله مدينة دريب ، غير ان اسمه ناقص في النص ، وهوعلى الشكل التالي في المقاطع السومرية (جا×سيكـرا) . ولحسن الحظ ان هذا الاسم موجود في المعجم اللغوي المكتشف في سجلات ابلا وهو يقابل كلمة (ايشخارا) بالابلائيـة .

يحصل كل اله من هؤلاء الآلهة على اضحيـة مؤلفة من ذبيحة خـروف . ويبدا النص بذكر العدد الاجمالي للذبائح ، وعددها عشر ، وهي موزعـة في بقيـة النص على

الملوك وعلى الالهة.. وتجدر الاشارة ان اشارة الربوبية في المصطلح السومري (دينجر) ملازمة لاسماء الملوك ، يضاف الى ذلك اننا نعرف اسمي اثنين من الملوك الوارد ذكرهم في هذا النص وهما الملك (إركب دامو) والملك (إجريش حلم) من اوائل سلالة ملوك ابلا ، وقد ورد ذكرهما كثيرا في النصوص الادارية لسجلات هذه المدينة . بنا علىذلك نفهم من محتوى هذا الرقيم ان ملوك ابلا يصبحون في مصاف الالهة بعد وفاتهم بحيث ان الاضاحي تقدم لهم على قدم المساواة مع الالهة الرئيسة للمدينة ، مثل نيداكول ورشف .

تبدأ سلسلة هؤلاء الملوك القدسين بالاقدم عهدا وتنتهي بالاحدث عهدا ، ويأتي تسلسلهم على الشكل التالي : إركب دامو ، إجريش حلم ، آدوب دامو ، كوم دامو ، إيسار ملك ، إن ــ آر ــ دامو ، با ــ دامو ، إيي ــ دامو ، آجور ليم ، ابورليم.

ان طريقة التسلسل التراجعي ــ اي البدء بالاقدم والانتهاء بالاحدث ــ متبعة في كافة النصوص الادارية والنصوص المتعلقة بمسك الدفاتر .

لابد اذا من ان تكون مدينة دريب مركزا رئيسا لعبادة الملوك القدماء في ابلا ، ولابد انه كانت لهم عبادة في قلب العاصمة ابلا ايضا ، على الرغم من ان اسمائهم لا يرد ذكرها في قائمة الاضاحي الشهرية التي تقدم للالهة . فالرقيم المسماري الموصوف ب (تـم /٧٥/ج/٥٧٠) المكتشف في الغرفة الموصوفة بـ (لـ-٧١٢) يحتوي على حصة كل فرد من افراد حاشية القصر من الطعام والشراب وعلى تقدمات لمختلف الالهة . فمثلا نقرأ في السطور الثاني والثالث والرابع للوجه الخلفي للرقيم نفسه بالسومرية مايلي:

(واحد جيش) شاماجان (واحد جيش) دينجر ــ ان ــ اه سيكي (واحد جيش) دينجر ــ إن إه ــ سيكي (واحد جيش) ، إنكي دينجر (واحد جيش)، سي ــ إن ، او ــ زال ــ او ــ زال (واحد جيش) ، إكس ، زه (واحد جيش) دينجر ان ــ آر ــ دامو (واحد جيش) دينجر ايسار ملك (واحد جيش) ، انـ ــسي جو (٢٠ جيش) سيليك ــنينداــ سيكيك .

نواجه في هذا الرقيم الى جانب آلهة مشهورة من مجمع ارباب إبلا والاله الحامي للملك الذي كان يقطن في دار الصوف ، اي بيت المال ، نواجه الايام الخوالي (او ــ زال ــ او ــ زال) ، التي تحصل على تقدمات ايضا ، وهذا يعني ان تلك الايام صارت جزءا من عبادة الاموات .

يضاف الى هؤلاء كل من الملك الاله إن ــ آر ــ دامو والملك الاله إيسار ملك ، (اي الملك الخامس والملك السادس في سلسلة الملوك الواردة ذكرهم في الرقيم الاول).

من الملاحظ عدم اشتراك احد هؤلاء الملوك مع غيره بالاسم أو بالكنية ، وقد يعني هذا ان ابلا لم تعرف النظام الوراثي ، وبالتالي لم يكن ملوكها من اسرة واحدة ، غير ان هناك استثناء واحدا يتعلق بالملك إبي ذكير الذي ورث العرش من ابيه الملك إبريوم.

يرد العنصر الربوبي (دامو) مركبا في اسماء ستة من ملوك ابلا العشرة . اما العنصر الربوبي (ليم) فانه مركب في اسمين فقط ، في حين ان كلا من العنصر الربوبي (حلم) و (ملك) مركب في اسم واحد وحما اجريش حلم ـ ايسار ملك .

ان كلمة (داموم) بالابلائية معروفة في الاوغاريتية ، وتعني (شعب،جماعة) اما في الاكادية (لغة العراق القديم) فتعني (الرقم ألف) ، وعندما تستخدم تلك الكلمة في تركيب اسماء الاعلام فانها تضفي الصفة الالوهية الى الاسرة او الجماعة صاحبة الاسم.

نصادف العنصرين (دامو) و (حلم) في كثير من اسماء الاعلام في نصوص ابلا . ويرد العنصر (دامو) في عدد من اسماء اسرة الملكين (ابريوم) و (إبي ذكير) . ونستدل من وجود العنصرين السابقين مركبين في اسماء ثمانية ملوك من اصل الملوك العشرة ان البنية الاجتماعية في ابلا كانت قبلية (عشائرية) .. لكن مع نمو التمدن تمكنت اسر اخرى من الوصول الى سدة الحكم وكسر طوق الاحتكار السياسي لعشيرة معينة .

ظل العنصر (ليم) متداولا في تركيب اسماء الاعلام في ابلا خلال الفترة الامورية في الالف الثاني قبل الميلاد الا انه يختفي في اسماء الاعلام في اوغاريت خلال الفترة نفسها.

أما العنصر (دامو) فينمحي كليا من اسماء الاعلام منذ نهاية ابلا في الالف الثالث قبل الميلاد .. غير انه من الاكيد في هذا الصدد : ان ملوك ابلا القدماء لم يكونوا من اهل الوبر ، أي لم يقطنوا في الخيام ، فالتنقيبات التي تمت خلال موسمي عام ١٩٨٤ ـ ١٩٨٥ اظهرت بوادر قصر تحت اساسات القصر الملكي (ج) الذي ظهرت فيه السجلات الملكية . يضاف الى ذلك ان النظام الاجتماعي في ابلا كان يستلزم وجود اساس حضري ثابت مستقر .

وهكذا تكون الوثيقة موضوع هذه الدراسة قد زودتنا باسماء عشرة من ملوك ابلا في القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد . وبما ان الملكية لم تكن وراثية وتنتقل من الاب الى الابن فلا بد من التحذير بان عشرة ملوك لا يعنون عشرة اجيال في التعاقب الزمني.

هل للعبرانيين وجود في إبلا ؟...

عربه عن الالمانية

البروفيسور و. لوريتس — قاسم طوير

استاذ اللغات السامية في جامعة مونستر بالمانيا — المديرية العامة للاثار والمتاحف

اثارت البيانات والافتراضات الاولية المتعلقة بالربط بين نصوص ابلا من جهة ، والتوراة وشخصيات واحداث التاريخ الاسرائيلي من جهة ثانية اهتماما كبيرا. فقد اثارت الاعجاب من ناحية ، الا انها قوبلت بالرفض من ناحية اخرى . وفي حين اعتبرها البعض في امريكا ضوءا يمكن تسليطه على الظلام الذي ما يزال يكتنف تاريخ نشوء اسرائيل ، نجد ان غالبية العلماء التوراتيين في المانيا أعتبرت المقارنة بين نصوص ابلا والنصوص التوراتية منذ بدايتها نوعا من الاستمرار العقيم للجدل الذي نشأ في مطلع هذا القرن حول العلاقة بين بابل والتوراة (١) ومن ثم بين اوغاريت والتوراة(٢) .

ورغم الزمن القصير الذي يفصلنا عن بدء المقارنة بين نصوص ابلا ونصوص التوراة ، الا انه يجوز لنا من الان استعراض جزء من الخلافات المتعلقة بقوم يحملون اسم « عبري / عبراني وبشخصية « ابرام العبراني » ـ الاب الاول لليهود ـ استعراضا تاريخيا ، ومن ثم شرح اسباب الخلاف ، وبالتالي بيان النتائج في خطوط عامة على الاقل .

في اعقاب الافتراضات التي طرحها جوفاني بيتيناتو(٣) لاول مرة عام ١٩٧٦ حول احتمال وجود علاقة بين اسم ملك ابلا « ايبريوم » من جهة واسم الاب الاول لليهود

---

* اعد هذا البحث و. لوريتس للندوة الدولية حول ((لغة ابلا واللسانيات السامية)) التي نظمها ((معهد اللسانيات واللغات السامية))في جامعة فلورنسا بايطاليا وانعقدت في فلورنسا بين ٢٤و ٢٦ حزيران ١٩٨٢ ، ثم صدر في الكتاب الذي ضم ابحاث الندوة في عام ١٩٨٤ عن المعهد المذكور وذلك في العدد ـ١٤ـ من سلسلة دفاتر الدراسات السامية . تحت عنوان ((دراسات في لغة ابلا)) .

« عبر » الوارد في لائحة الانساب في سفر التكوين (١٠ : ٢١ و ٢٥ ، ١١ : ١٤ و١٧) والاسم التوراتي لقوم العبرانيين (عبرى)، دخلت نصوص ابلا في حقل الجدل القائم منذ ١٢٠ سنة حول العلاقة بين كلمة(عبرو) الهيروغليفية المصرية وكلمة حابيرو المسمارية وكلمة (عبـرم) الاوغاريتيـة من جهـة ، وكلمـة (عبريم) التوراتيـة من جهـة ثانية(٤) ، غير ان سير البحث العلمي حـول العلاقـة بين الحابيرو والعبرانيـين قـد ادخل منذ البداية شخصية ابرام او ابراهيم في حلقة الخلاف حول عبر والعبرانيين ، واخيرا صارت شخصية ابراهيم جزءا لا يتجزأ من اي مناقشة وذلك في اعقاب الابحاث التي قام بها و. ف. اولبرايت حول الحابيرو والعبرانيـين وابراهيـم . وهكذا عـاد الدور الاساسي للاصحاح الرابع من سفر التكوين ، هذا للاصحاح الذي يدور حولـه الجدل الكثير(٥) .

في الوقت الذي اصبح فيه الباحثون ينظرون الى الروابط الاثرية واللغويـة بين ايبريوم الابلائي وعبر وعبريم التوراتيين نظرة انتقادية ومتشككة(٦)، نجد عددا من علماء التوراة قد استأنفوا بحث تلك الروابط واستقلوا بها ، كما صاروا يشكلون حلقة خاصة بانفسهم لدراسة نصوص ابلا ضمن اطار الدراسات التوراتية وبعيدا عن اجـواء علماء الاثار واللغات القديمة . وفي ظل هذه المساعي عقدت آمال متنوعة على نصوص ابلا ، فمثلا ثمة ادعاء بان الحابيرو ليس لهم علاقة لسانية او سوسيولوجية مع العبرانيـين (عبريم) ، واذا ما ثبت بأن كلمة عبري مستمدة من اسم ملك ابلا ايبريوم فان هـذه المشابهة النابعة من ابلا ستلغي كافة النظريات المتعلقة بالربط بين عبريم والحابيرو(٧).

وفي حين يتوقع هؤلاء نتيجة سلبية للربط بين عبريم وحابيرو في ضوء نصوص ابلا، نجد ان الباحث ج. برايت في كتابه « تاريخ اسرائيل » يتخذ موقفا مغايرا، فهو يستنتج من الخبر القائل بوجود ذكر لاسم (عبر) في نصوص ابلا بان الامـر لا يقتصر على ورود ذكر الاباء التوراتيين الاوائل (عبر وابراهيم) في وثائـق اثرية ، بل ان الدليـل صار قائما على ان شمالي العراق وسورية كان يسكنهما جماعات بشرية قريبة من اجـداد بني اسرائيل وذلك قبل قرون من عصر البرونز الوسيط(٨) ، ثم يستطرد قائلا بالحرف الواحد : « ان هذا الامر ليعزز الثقة بقدم التراث المنقول ويضيف ارجحية على زعـم التوراة بان اجداد بني اسرائيل قد هاجروا من تلك المنطقة ».

يربط ج. برايت بين اسم النسب (عبري) وكلمة حابيرو ، ويستدرك بانـه على الرغم من عدم وجود مشابهة بـين الحابيرو والعبرانيـين ، الا انه يجـوز لنا اعتبار العبرانيين جزءا من الحابيرو(٩) .

يكفينا فهما من تلك المقولات . بان هؤلاء الباحثين يرون في اسم ملك ابلا المدعو ايبريوم دليلا على الوجود التاريخي لجد العبرانيين (عبر) الوارد في لائحة الانساب في

سفر التكوين (١٠/١١)(١٠) . والغريب في هذا التطور ان جوفاني بيتيناتو قد تخلى منذئذ عن نظريته حول العلاقة القائمة بين اسم ايبريوم الابلائي وعبر والعبرانيين في التوراة .

سنقتصر فيما يلي على معالجة المسائل المتعلقة بجد العبرانيين (عبر) وبالعبرانيين (عبريم) وبسفر التكوين ١٤، وسنفحص ماهية الاستنتاجات واثرها على المقارنة بين ابلا والتوراة ، لنعرف اذا كان بالامكان الخروج بحقائق تتعلق بما يسمى بتاريخ نشوء اسرائيل او بواكير تاريخ اسرائيل .

اذا اردنا فهم اهمية النقاش القائم حول الربط بين العبرانيين وابراهيم من جهة وابلا من جهة ثانية فلابد من استعراض أصول هذا الجدل الجديد حول العبرانيين . ولعله من المفيد ان نقوم بمثل هذا الاستعراض وذلك لان الباحث ف. شاباس(١١) كان في عام ١٨٦٢ اول من حاول مطابقة اسم (عبريم) في الروايات التوراتية حول الاسرائيليين في مصر مع (عبرو) الواردة في الكتابات الهيروغليفية المصرية ، وبالتالي يكون اول من استعان بدليل غير توراتي لاثبات قدم اسم الكنية التوراتي (عبري). فبناء على الشبه اللفظي بين كلمة عبري وكلمة (عبرو) والشبه في الروايتين التوراتية والمصرية القديمة حول تسخير هؤلاء في الاشغال العامة (بناء الاهرام) استنتج الباحث شاباس بان عبريم التوراة و (ع ب ر و) الكتابات الهيروغليفية اسمان لمسمى واحد(١٢) .

لقيت نظرية شاباس هذه الكثير من الاتباع وفي الوقت نفسه الكثير من الرافضين. فالباحث ج. ماسبيرو رفض اعتبار الـ (ع ب ر و) شعبا من الشعوب ، واعتبر عملية الربط بين (عبريم) التوراتية و (عبرو) الهيروغليفية نظرية خيالية مجردة(١٣) .

في غمرة الظلام الذي اكتنف العلاقة بين (عبرو) و (عبريم) جاءت النصوص السمارية المكتشفة في تل العمارنة ونوزى واوغاريت لتسلط اضواء جديدة ولتثير النقاش مجددا . ففي وقت واحد قام في عام ١٨٩٠ كل من الباحث كوندر والباحث تسيمر(١٤) بربط (عبريم) مع الحابيرو الوارد ذكرهم في رسائل تل العمارنة . وبينما أكد الاول على المطابقة بين عبريم وحابيرو وجعلهم يدخلون فلسطين في ايام يشوع ، كان الثاني اكثر حذرا في تفسيره ، حيث قال انه على الرغم من ان الامر لم يتأكد لكن ثمة مؤشرات تؤيد مطابقة العبريم مع الحابيرو . واذا صح هذا الافتراض فستكون رسائل العمارنة التي تأتي على ذكر الحابيرو في غاية الاهمية بالقياس الى المسألة المطروحة مرارا حول زمن وصول العبرانيين الى فلسطين وشكله وطريقته(١٥) .

لم تؤثر وثائق تل العمارنة تأثيرا اساسيا على مسار النقاش ، لان الباحثين استمروا في اعتبار حابيرو ، من خلال وثائق العمارنة ، شعبا او مجموعة من القبائل،

وذلك انطلاقا من تصوراتهم المستمدة من النصوص التوراتية . فالباحث فبول F. Böhl في كتابه حول الكنعانيين والعبرانيين الصادر في عام ١٩١١ ينطلق من مقولة المطابقة بين الحابيرو والعبريم وعبر ويخلص الى النتيجة بان (العبرانيين) اسم اشمل بكثير من اسم «الاسرائيليين»(١٦) ، ثم يخرج بالمقولة السائدة حتى يومنا هـذا وهي ان العبرانيين تسمية لمجموعة شعوب ومن بينهم الاسرائيليين .

ويرى الباحث نفسه ان العبرانيين من الناحية اللغوية جزء من الاموريين ، لكنهم من الناحية التاريخية جزء من الاراميين . اما الباحث آ. يركو A. Jerku فقد ثبت المقولة في محاضرته امام مؤتمر المستشرقين في عام ١٩٢٤ ، واجرى تعديلا على تلك المقولة بان جميع الاسرائيليين عبرانيون ، ولكن ليس جميع العبرانيين اسرائيليين. وقال ان الاسرائيليين ليسوا فرعا من العبرانيين بل ان كلا منهما مستقل عن الاخر ولعل كل منهما مختلف عن الاخر اصلا ، لكن الاتحاد بين فصائل من كل منهما قد انتج الشعب الاسرائيلي فيما بعد . وقد ظلت فصائل متفرعة من العبرانيين تعيش الى جانب الشعب الاسرائيلي طيلة قرون من الزمن(١٧) .

يركز الباحث يركو نفسه على (ابراهيم العبراني) الوارد ذكره في سفر التكوين ١٤و١٣ ويرى في ان الاصحاح من سفر التكوين تعود اصوله الى ايام ابراهيم ، ولعل الاصحاح نفسه مستمد من وثيقة مسمارية تعود الى ايام ابراهيم نفسه . واخيرا يرى الباحث أولبرايت(١٨) ان جماعة ابراهيم هم انفسهم الحابيرو الرحل ، وهؤلاء هم الذين جلبوا معهم الاصول المسمارية للتاريخ التوراتي من بلاد الرافدين الى فلسطين .

واذا كان علماء الاثار المصرية قد رفضوا منذ البداية اطروحة الربط بين (عبرو) الهيروغليفية و (عبريم) التوراتية ، فقد رفض علماء اخرون عملية الربط بين (عبريم) و(الحابيرو) ، ولم يحقق الجدل تقدما حقيقيا الا على يد الباحث ب. لاندزبرغر(١٩). يرى لاندزبرغر في كلمة الحابيرو اسما لكنية ويعتبرهم طبقة اجتماعية مؤلفة من اللاجئين والمطاردين ، وهم على عكس الـ (عبري) الذي يعتبرهم افرادا من شعب اسرائيل. ويعود الفضل الى لاندزبرغر في تحرير الحابيرو من اي ارتباط مع التوراة . وقد سار على نهج لاندزبرغر كل من دورم وبوتيرو وبورغر وفون سودن ومنذ ١٩٢٤ قام باحثون في مجالي الاثار الشرقية القديمة والعلوم التوراتية بتكوين صورة تاريخية بمحاولات متعددة للتوفيق بين تفسيرات التوراة من جهة والصورة الجديدة للحابيرو من جهة اخرى ، في ضوء النصوص المسمارية المكتشفة في نوزي وفي اوغاريت . وهؤلاء ايضا ركزوا على طرح البراهين المتعلقة بابراهيم العبراني الذي يتردد ذكره كثيرا في

الاصحاحين ١٤و١٣ من سفر التكوين . وعلى الرغم من الاجماع بان سفر التكوين يعود الى فترة ما بعد السبي البابلي ، الا ان هؤلاء يجعلونه اقدم من ذلك بكثير ، فابراهيم اصبح في نظرهم واحدا من الحابيرو وجماعته من الحابيرو هم النواة الاولى للشعب الاسرائيلي .

ومن ابرز ممثلي هذه النظرية نذكر ج ليفي G. Lewy و ف البرايت F. Albright(٢٠) .

قادت الافكار الجديدة التي طرحها لاندزبرغر الى نشوءمفاهيم جديدة حول الحابيرو في اوساط الباحثين التوراتيين وبخاصة لدى الباحث الت Alt . يرى هذا الباحث انه لم يكن هناك حلف للقبائل الاسرائيلية اثناء تغلغل الاسرائيليين داخل فلسطين كما انه يشك بوجود قبائل (اسرائيلية) في ذلك الوقت ، بل ان الامر مجرد وجود عشائر متفرقة او حلف عشائر من الرعاة الرحل الذين كانوا ينتقلون في اطراف الساحل والسهول اثناء الشتاء والربيع وفي الصيف كانوا يضطرون للتسلل الى داخل المناطق الزراعية طلبا للمرعى ، وكان على تلك العشائر ان تتفاهم مع اصحاب الاراضي المزروعة للاستفادة من بقايا المزروعات بعد الحصاد . وعلى هذا المنوال تعلمت تلك العشائر من خلال احتكاكها المتواصل مع مناطق المراعي كيف تستقر تدريجيا(٢١) مع مرورالوقت .

بعد هذا الاستعراض لن يكون مستغربا ان تعود الاشباح للظهور مجددا فور الحديث عن وجود مزعوم لكلمة عبر او عبري في وثائق ابلا . وكما جرى في المحاولات السابقة فقد حاول الباحثون الربط بين الوثائق الاثرية المكتشفة مجددا والمعطيات التوراتية ربطا مباشرا ، ومن ثم الخروج باستنتاجات تاريخية . لكن هؤلاء تجاهلوا ان هذه الطريقة قد اعتمدت على افتراض ان الكتابات التوراتية ذات طابع تاريخي ، وهذا هو الخطأ نفسه الذي قاد الى الاستنتاج بان الحابيرو هم العبرانيون .

لابد لنا من النظر بعين الاعتبار الى ان جهات متعددة في القرن الماضي اتهمت مؤلفي التوراة بالتزوير والمغالطة . لكن هذا الاتهام لا يعني بالضرورة ان المؤلفين اليهود قد زوروا الاحداث التاريخية وقلبوها راسا على عقب ، بل زوروا المفهوم الاساسي لعلاقة الانسان بالتاريخ وبالطبيعة . وينصب الاتهام بالدرجة الاولى على رجال الدين اليهود الذين قاموا بتزوير تاريخ اسرائيل ورسخوه في الكتاب المقدس وفي نمط الحياة اليهودية ايضا . ويعتبر كل من ف.نيتشه و ج. ويلهاوزن وماكس فيبر من حملة لواء هذا الموقف من مؤلفي التوراة .

كان رد الفعل على هذا الموقف شديدا . فالاوساط اليهودية المحافظة اعتبرت مثل هذا الموقف نوعا من العداء للسامية ، اما الاوساط المسيحية المحافظة فقداعتبرته نكرانا لكلام الله الحق . ويتفق الطرفان اليهودي والمسيحي على ان محتويات الكتاب المقدس تاريخية وموثوق بها .

نعود الان الى العلاقة المحتملة بين ملك ابلا ايبريوم من جهة ، والاسم التوراتي عبر وعبريم من جهة ثانية . فمن المقارنة الاولية بين الاسمين نجد ان الاسم التوراتي يبدأ بحرف العين ؛ بينما لا نملك ادلة على ان ايبريوم كان يبدأ بحرف العين(٢٢). وبما ان الاسم التوراتي (عبري) مشتق من فعل (عبر) فانه لا يمكن ان يكون الاسم (عبري) مستق من اسم الملك (إيبريوم) . كذلك اذا اعتبرنا اسم (عبر) مشتق من اسم (عبري) او من (عبر نهرى) فانه لن تكون هناك حاجة للمقارنة بين (عبر) و (ايبريوم) .

واذا اردنا التشبث بالراي ان اسم الملك ايبريوم ظل مستمرا في اسم (عبر) في التوراة : فسيبدو لنا ان ايبريوم الابلائي قد تشوه وتبدلت شخصيته لصالح كتابة التاريخ اليهودي . فعبر في سفر التكوين هو جد ابراهيم والاب الاول للشعب اليهودي اما ايبريوم الابلائي فلا يحمل هذه الصفة بتاتا .

واذا اعتبرنا سفر التكوين (١٤) من وضع مؤلفين يهود بعد النفي فانه يمكننا ان نتوقع نهاية للجهود الرامية الى خلق علاقة بين نصوص ابلا وسفر التكوين ، وبالتالي الوصول الى تحديد تاريخ زمني لابراهيم الخليل استنادا الى تاريخ وثائق ابلا كما فعل الباحث دافيد نويل فريدمان(٢٢) .

ان الاصل المتاخر زمنيا لسفر التكوين ١٤ الذي تم تدوينه بعد السبي البابلي والطابع الادبي لمضمونه يمنعان سلفا اجراء اية مقارنة بينه وبين نصوص ابلا . ان تاريخ المقارنة بين المصادر التوراتية والمصادر الاثرية كتلك التي جرت بين كلمة (عبرو) المصرية و (حابيرو) المسمارية و (عبريم) التوراتية يكشف ان تحديد الزمن الذي تمت فيه كتابة التوراة امر حاسم منأجلالمقارنة معالمصادر الاثرية . كذلك لن يكون بالامكان اجراء مقارنة تاريخية فعلية قبل ان نصل الى تحديد تاريخ زمني لكتابة التوراة .وان اية محاولة للخروج بتحديد زمني للتوراة من خلال المقارنة مع المصادر الاخرى لنتفضي الا الى الدوران في حلقة مفرغة .

ان الاضطراب الناتج عن عدم الاجماع على التحديد الزمني المبكر للنصوص التوراتية يجعل جميع المقارنات الجارية بين وثائق ابلا والنصوص التوراتية من الامور المستحيلة والتي يكتنفها الشك . ونظرا للفاصل الزمني البعيد بين وثائق ابلا

والنصوص التوراتية فقد اصبح عامل الزمن يحتل المقام الاول . لذلك يتوجب على علماء الاثار والاستشراق والتوراة ان يمتنعوا عن القيام باستنتاجات وقياسات انطلاقا من ماثورات توراتية متقادمة وغير مؤكدة .

وانا شخصيا اتنبأ منذ الان أن نصوص ابلا في نهاية المطاف ستؤكد البينة بان التوراة لم تكن من صنع مؤلفين سوريين قدماء او كنعانيين بل من صنع مؤلفين يهود . وفي هذا الصدد ثمة ملاحظة تستحق الذكر وهي أن الغموض الكائن حول البدايات التاريخية لـ (اسرائيل) والزمن الذي بدأ فيه تاريخ اسرائيل من جهة ، وحول مسيرة البحث العلمي حول هذه النقطة من جهة اخرى ، تجعلنا نتفهم لماذا يستمر علماء التوراة في تعليق الامال الكبيرة على النصوص الاثرية التي تكتشف في سورية .

(١) نشأ الجدل حول بابل والتوراة في اعقاب محاضرة القاها ف. ديليتش F. Delitzch في ١٩٠٢/١/١٢ في لايبزغ والمنشورة في كتيب بعنوان بابل والتوراة .

(٢) فيما يتعلق بالجدل الناشيء حول اوغاريت والتوراة .انظر على سبيل المثال لا الحصر بحث جي، سي ، دومور J. C. de Moor ، و ب. فان در ــ لوخت P. Van der Lugt بعنوان Spectre of Pan-Ugaritism المنشور في مجلة Biblioteca Orientalis العدد ٣١ لعام ١٩٧٤ صفحة ٣ــ٤ .

(٣) تحاشيا لكل سوء فهم لابد لنا من نقل التصريحات نقلا حرفيا ، فقد كتب بيتيناتو في مجلة الاثاري التوراتي (العدد ٣٩ لعام ١٩٧٦ صفحة ٤٧) ما يلي : من أهم ملوك ابلا اثارة للانتباه هو بالتأكيد ابروم « لانه يذكرنا بالتوراة . اذ يرد اسمه مكتوبا بشكل متقطع كالتالي (اب ــ أوروــ أوم). وثمة امكانيتان للقراءة الاولى ((ابروــاوم)) والقرابة مدهشة بين هذا الاسم واسم (عبر) جد الساميين حسب سفر التكوين (١٠ــ٢١) والثانية « ايبريوم » الذي يذكرنا قطعا باسم « عبري» وانا شخصيا اميل الى الاخذ بالامكانية الثانية » .

(٤) فيما يتعلق بالجدل حول الصيغة الكتابية حابيرو او خابيرو انظر ج. بوتيرو J. Bottéro في قاموس الاشوريات Real lexicon d' Assyriology السلسلة الرابعة (١٩٧٢ــ١٩٧٥) ص ٢٢.

(٥) انظر مثلا مقالة الفونسو آركي بعنوان: هل مدن السهل الخمس وارد ذكرها في نصوص ابلا ، المدن التي يرى جوفاني بيتيناتو بانها موجودة بالقرب من البحر الميت المنشورة في مجلة الاثار التوراتية Biblical Archaeology Review العدد ٧/٦ لعام ١٩٨١ ص ٥٤ــ٥٥ ، ثم انظر ج.د موهلي J. D. Muhly في المجلة نفسها صفحة ١٠ ، حيث يبدي اهتماما بالربط بين ابلا وسفر التكوين /١٤ ، فقد كتب يقول : من المثير جدا لاهتمام قراء هذه المجلة مسالة ورود اسماء مدن توراتية في نصوص ابلا ، وبخاصة المدن الخمس حيث يفترض بانها ترد في التسلسل نفسه كما في التوراة . ثم انظر دافيد نويل فريدمان في كتاب « دراسات في عصر داود وسليمان ودراسات اخرى » دار نشر ايشيدا ، طوكيو ١٩٨٢ . ص ٣٢٨ــ٣٣٠ .

(٦) انظر باولو ماتييه ، ابلا امبراطورية اكتشفت من جديد ، لندن ١٩٨٠ ص ٢٢٤ ، وانظر جوفاني بيتيناتو ، ابلا ـ امبراطورية منقوشة في الطين ، ميلانو ٩٧٩ ١، ص ٢١٥.

(٧) انظر آ ـ ف. رايني ، مجلة الاستكشافات الاسرائيلية العدد ٣٠ لعام ١٩٨٠ ص ٢٥١ وانظر دافيد فريدمان ، دراسات في عصري داوود وسليمان ، دار نشر ايشيدا ، طوكيو ١٩٨٢ .

(٨) انظر ج. برايت ، تاريخ أسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٧٨ .

(٩) انظر ج. برايت ، تاريخ اسرائيل ، لندن ١٩٨١ ص ٩٥ .

(١٠) انظر ميشيل داوود ، ابلا واوغاريت والعهد القديم ، مجلة الحضارة الكاثوليكية العدد ١٢٩الجزء الثاني لعام ١٩٧٨ ص ـ٢٢٤ـ٢٢٥ .

(١١) انظر ف. شاباس ، العبرانيون ، مجلةمنوعاتمصرية Mélanges égyptologiques السلسلة الاولى ١٨٦٢ ، ص ٤٢ـ٥٤ .

(١٢) انظر ف شاباس ، ابحاث حول تاريخ الاسرةالتاسعة عشر ، باريس ١٨٧٣ ص ١٠١ـ١٠٦ .

(١٣) انظر ج. ماسبيرو ، « هل العبرو همالعبرانيون » مجلة الثيولوجيا والاثار المصرية ، المجلد الثالث ، باريز ١٨٩٨ .

(١٤) C.R. Conder «Monumental Notice of Hebrew Victories, » PEQ 22 (1890) P. 326-329 .

(١٥) انظر H. Zimmern, Palestina um das Jahr 1400 V. Chr, nach neun Quellen, ZDPV 13 (1890), P. 137-138.

(١٦) انظر F. Böhl , Kanaanäer und Hebräar, Leipzig 1911, p. 73-89.

(١٧) انظر A. Jirku, Die wanderung derHebräar im 3 und 2 Jahrtansend Leipzig 1924, P. 29 .

(١٨) انظر W. F. Albright « Deutung der väter israel, ». Biblica 52, 1971, p. 407 - 432 .

(١٩) انظر B. Landsperger, Zeitschnift für Assyriologie 32 (1924), P. 213

(٢٠) انظر W. F. Albright, From the Patriarchs to Moses, Biblical Archaeologist 36 (1973) p. 15-16.

(٢١) انظر M. Weipert, Die Landnahne der Israelitischen Stämme in der neueren wissenschaftlichen Diskussion, Göttingen 1967, 14-51.

(٢٢) انظر Lipnski, West Semitic Personal Names from Ebla, Accadica 14, 1979, 52 .

D. N. Freedman, The Real Story of the Ebla Tablets and the Cities of the Plain, Biblical Archaeologist 41 (1978)P. 153.

مع الكتب

هل جاءت التوراة من جزيرة العرب ؟

د. محمود أبو طالب

الجامعة الاردنية

صدر في ايلول من سنة ١٩٨٥ م من تاليف الدكتور كمال الصليبي الاستاذ في قسم التاريخ والاثار في الجامعة الامريكية في بيروت كتاب بعنوان : « التوراة جاءت من جزيرة العرب »(١) . وهو الان في طبعته الثانية في كل من اللغات العربية والانجليزية والالمانية . واطروحة هذا الكتاب هي ان تاريخ بني اسرائيل ، كما ترويه التوراة قد اتخذ مساره بالكامل في أرض عسير وجنوبي الحجاز في غربي شبه الجزيرة العربية وان الصعوبات التي واجهها ويواجهها دارسو التاريخ التوراتي وادت بالكثيرين منهم الى التشكك في صحة ذلك التاريخ سببها قبولهم بالفكرة التقليدية القائلة بان جذور تاريخ بني اسرائيل تعود الى العراق ومصر وان بؤرته كانت في فلسطين . ووفقا لهذه الاطروحة فان ارض كنعان التي نجح بنو اسرائيل في اقامة كيان لهم فيها ليست فلسطين وانما المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر منطقة رجال المع وحتى منطقة جيزان في الجنوب . كما ان ارض الفلستيين(٢) هي ليست الساحل الفلسطيني وانما ساحل تهامة من جوار الليث في الشمال الى جوار جيزان في الجنوب . وان هيردن ليست نهر الاردن وانما هي لفظة تعني « جرف » او « قمة » او « مرتفع » وقد استعملت للاشارة الى مثل هذه المظاهر الطبوغرافية في عسير وجنوبي الحجاز . وفي عسير ايضا ، وليس في مصر وفي العراق ، نجد نهري مصرايم وفرات ، والاول هو وادي ليه والاخر هو وادي اضم . اما مصرايم نفسها فليست سوى قرية المصرمة (او المصرامة) بين ابها وخميس مشيط . وليس هذا كل شيء فالمؤلف يرى أيضا ان كتابات المصريين والعراقيين ، وممالك الاجزاء الشمالية من بلاد الشام في الالفين الثانية والاولى قبل الميلاد مما له صلة ببيئة تاريخ بني اسرائيل تشير هي الاخرى إلى غربي شبه الجزيرة العربية .

ولقد وصف الدكتور الصليبي نفسه هذه الاطروحة بانها « استنتاج مذهل » (ص٢٧) وهو يقر بانها تبدو « في منتهى الغرابة للوهلة الاولى ليس فقط بالنسبة لليهود

والمسيحيين الذين اعتادوا على ان ارض التوراة هي فلسطين بل ايضا بالنسبة الى المسلمين الذين اخذوا هذه الفكرة عن اليهود والمسيحيين » (ص١٤–١٥) بل انه يعتقد كما ورد على لسانه في مقابلة معه نشرتها مجلة لبنانية(٣) بأن هذه الاطروحة تشكل دعوة الى اعادة النظر في اسس الحضارة الغربية . وكيفما كان الامر ، فان اقل ما تنطوي عليه هذه الاطروحة ، ان صحت ، هو خلق تاريخ قديم كامل لغربي شبه الجزيرة العربية ومحو كامل تاريخ فلسطين القديم واعادة النظر في التاريخ القديم لكل من الشام ومصر والعراق لمدة الفي سنة ــ على الاقل ــ وشطب كل ما كتب في هذه المواضيع لمدة الفي سنة اخرى .

وفي الفصل الاول من هذا الكتاب وهو بعنوان « العالم اليهودي في العصور القديمة » (ص٢٧–٥٦) يفسر لنا الدكتور الصليبي كيف قدر لـ « الوهم » بان فلسطين هي ارض التوراة ان يسيطر على البشرية كل هذه المئات من السنين . ويبدأ تفسيره بالتاكيد على ان كون مسار تاريخ بني اسرائيل في غربي شبه الجزيرة العربية « لايعني ان اليهود لم يكن لهم اي وجود في فلسطين او في غيرها من البلدان خارج غرب الجزيرة العربية في ايام التوراة » (ص٢٨) . وتعود بدايات الوجود «اليهودي»(٤) في فلسطين الى القرن العاشر قبل الميلاد ــ اي الى زمن داود وسليمان ــ وكان الحافز له حينئذ تجاريا . ثم لم يلبث انتقال « اليهود » الى فلسطين ان اتخذ شكل هجرات واسعة النطاق بسبب الحروب التي نشبت بين مملكتي اسرائيل ويهوذا منذ انفصلتا اثر وفاة سليمان وكعادة المهاجرين في كل زمان وفي كل مكان من هذا العالم ، كما يؤكد الصليبي عمد « اليهود » المهاجرون الى فلسطين الى اطلاق اسماء يعرفونها في غربي شبه الجزيرة العربية على مواقع في فلسطين . وهكذا فاننا نجد في فلسطين ومنذ القرن العاشر قبل الميلاد اسماء اماكن توراتية مثل يهودا ، يروشليم(٥) ، بيت لحم ، حبرون ، شمرون ، جرزيم ، عيبال ، كرمل جليل وهيردن(ص٣٥–٣٦) . كما ان الدكتور الصليبي يؤكد ايضا انه لم يكن اليهود اول من استوطن فلسطين قادما من غرب شبه الجزيرة العربية بل هناك الفلسطينيون اي الفلستيون (والتفسير له) الذين وصلوا ولا شك من غرب شبه الجزيرة العربية قبلهم فصارت تعرف باسمهم وهناك ايضا الكنعانيون الذين نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر عندما تفرقت قبائلهم في الارجاء (سفر التكوين ١٠:١٨) ليعطوا اسمهم لارض كنعان(كنعن) على امتداد الساحل الشامي شمالي فلسطين (ص ٣٣) وقد اعطى كل من الفلستيين والكنعانيين اسماء يعرفونها في عسير لمواقع في فلسطين وبلاد الشام، ومن هنا نجد فيها اسماء فلستية مثل غزة واشكلون وبيت دجن منذ « ما قبل بني اسرائيل » واسماء كنعانية مثل صور ، صيدون ، جبيل ، ارواد ولبنان منذ «زمن مبكر» (ص٣٤).

ويستمر الدكتور الصليبي في تفسيره ليخبرنا بانه عندما تحطم كيان بني اسرائيل السياسي في ارض عسير باحتلال نبوخذ نصر البابلي ليروشلم سنة ٥٨٦ق.م ، تركز

التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين وقبل ان يمر وقت طويل كانت اصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت في غياهب النسيان (ص٤٣) وقد تحقق ذلك نتيجة لموت اللغة العبرية الذي بدأ منذ نهاية القرن السادس قبل الميلاد مع بداية شيوع اللغة الارامية كلغة للحياة اليومية اواخر زمن البابليين ، وبلغ ذروته عندما اصبحت الارامية لغة رسمية في زمن الامبراطورية الاخمينية . وبموت اللغة العبرية بدأت صلة يهود فلسطين بكتبهم المقدسة تنقطع وانقطعت ايضا الصلة بينهم وبين يهود غربي شبه الجزيرة العربية ، ولم يلبث هؤلاء ــ اي يهود غربي الجزيرة ــ ان تشتتوا بين الكيانات المحلية الجديدة واهمها دولة معين التي قامت في نفس المنطقة التي كانت قد قامت فيها مملكة بني اسرائيل من قبل . اما بالنسبة ليهود فلسطين فقد كان الحال مختلفا اذا اتاح لهم الصراع بين البطالمة والسلوقيين الفرصة لتحقيق استقلالهم واقامة ما يعرف باسم مملكة الحشمونيين سنة ١٦٧ق.م . ويؤكد المؤلف ان هؤلاء الحشمونيين قد اعتبروا انفسهم الورثة الشرعيين لاسرائيل القديمة وفي ايامهم « تم اعتبار فلسطين بانها الارض الاصلية لشعب اسرائيل البائد والتوراة العبرية » (ص٤٨) . ومنذ ذلك الوقت سيطر هذا الوهم على العالم .

ولا ثبات ان الربط بين فلسطين والتوراة ليس اكثر من وهم ، يستند المؤلف على ركيزتين نجد الاولى في الفصل الثاني المعنون بـ « مسألة نهج » (ص٥٧ــ٧٢) ونجد الاخرى في الفصل الخامس وعنوانه « ما لم يكتشف في فلسطين » (ص ١٠٥ــ١٢١): والركيزة الاولى هي ان النص العبري التوراتي يمثل لغة ميتة يجب عند التعامل معه تعريته من جميع حركاته ، والركيزة الثانية هي ان النشاط الاثري في فلسطين والذي مضى على بدايته اكثر من مئة سنة لم يقدم لنا حتى الان اي دليل على صحة مثل هذا الربط .

وفي توضيحه للنقطة الاولى يؤكد المؤلف على ان النص العبري التوراتي مكتوب بلغة « خرجت عن اطار الاستعمال العام منذ زمن يعود الى ما بعد القرن السادس او الخامس قبل الميلاد (ولذلك) فانه لا يمكن لاحد ان يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الاصل لدى الشعب او الشعوب التي تكلمتها (ص٥٧) . وبدءا من القرن السادس الميلادي قامت جماعة من علماء اليهود اصطلح على تسميتهم بال « ماسوريم » بادخال النقط والحركات على هذا النص ، وبحكم انهم كانوا يتعاملون مع لغة مضى على موتها احد عشر او اثنا عشر قرنا فان ما ادخلوه من الحركات لايمكن اعتباره موثوقا او صحيحا . ومن المؤكد ايضا ، كما يدعي المؤلف ، انهم ارتكبوا الكثير من الاخطاء فيما يتعلق بالحروف الساكنة وبصورة خاصة حين اعتبروا ان كلمة واحدة هي في الاصل كلمتين او حين اعتبروا حرفا ما سابقا لكلمة ما ، بينما هو في حقيقة الامر لا حق للكلمة التي قبلها، وهكذا . .

ولا شك ان الدكتور الصليبي مصيب فيما يتعلق بزمن ادخال الحركات في النص

العبري التوراتي ، اما القول بأن اللغة العبرية قد ماتت منذ القرن الخامس قبل الميلاد ففيه الكثير من المبالغة بل عدم الصحة . صحيح ان استعمال اللغة العبرية في الحياة الدنيوية اليومية قد بدأ منذئذ بالانحسار وصحيح ايضا أن بعض الفاظ التوراة لاتزال الى اليوم موضع خلاف في مبناها ومعناها ، الا انه من المؤكد جدا من الناحية الاخرى ان ترتيل اجزاء من التوراة العبرية قد كان ولايزال هو محور الصلوات في الكنس وفي البيوت الخاصة . ولقد بدأ الربانية منذ القرن الخامس قبل الميلاد بدراسة النصوص العبرية التي بين ايديهم من اجل تقرير ما هو « مقدس » منها وما هو « غير مقدس »(٦) وهي عملية لم تنته الا في اواخر القرن الاول الميلادي ، ولا يصح تكنيكيا الحديث عن « التوراة »(٧) كمجموعة كاملة من الاسفار المقدسة قبل ذلك . وبالعبرية كتبت طائفة الايسينيين اليهودية جل كتاباتها وكل اسفار التوراة المقبولة لديها وهي الكتابات المعروفة باسم « مخطوطات البحر الميت»(٨) ويعود اقدمها الى القرن الثالث قبل الميلاد واحدثها الى أواسط القرن الثاني الميلادي . والى الفترة اليونانية تعود كثير من الكتابات العبرية التذكارية التي كشف عنها في الكنس وعلى المقابر اضافة الى العديد من قطع العملة الحشمونية(٩) . ولقد وجد عدد من آباء الكنيسة الاوائل انفسهم مضطرين الى تعلم اللغة العبرية حتى يتمكنوا من قراءة ما اصطلح المسيحيون على تسميته « العهد القديم » بلغته الاصلية . وفيما يخص اسماء الاماكن وهي لحمة كتاب الدكتور الصليبي وسداه كما يقولون ، وصلنا ومن الفترة اليونانية نص توراتي دخلت عليها فيه الحركات واعني بذلك الترجمة اليونانية المعروفة باسم « السبعونية » Septaugint لم تلبث ان تبعتها ترجمة لاتينية تعرف باسم « الدارجة » Vulgate وفي سنة ٢٤٥م انجز الاب اوريجن Origen عملا ضخما يعرف باسم Hexpala يتألف من ستة اعمدة متوازية الاول منها هو النص العبري بحروفه الساكنة والثاني هو ما يقابل تلك الحروف باليونانية Transcription اما الاعمدة من ٣ الى ٦ فقد حوت نصوص اربع ترجمات يونانية معروفة في زمنه من بينها الترجمة السبعونية . ومن الغريب ان الصليبي قد نوه بالترجمات الارامية زمن الاخمينيين واليونانية زمن الهيللينيين في معرض التدليل على ان اللغة العبرية كانت ميتة تماما (ص ٥٨ــ٥٩) ولكن ما لايستطيع انكاره انها كانت مفهومة على الاقل من قبل أولئك الذين قاموا بتلك الترجمات . وهذا هو اقل ما يقال بشأن ال «ماسوريم»(١٠) الذين بدأوا بادخال الحركات في النص العبري في القرن السادس الميلادي ، اذ من المستحيل أن يكونوا قد قاموا بذلك « بصورة اعتباطية » كما يزعم المؤلف (ص١٥) والا لكان يصح ان يقال بانهم وضعوا قواعد جديدة وبالتالي نصا توراتيا جديدا .

اما الركيزة الثانية التي اعتمد عليها الصليبي لاثبات ان الربط بين فلسطين والتوراة وهم فهي الادعاء بان النشاط الاثري المكثف فيها لم يكشف عما يبرر مثل هذا الربط ، وقد اقتصر الدكتور الصليبي في محاولة اثبات ذلك على مناقشة عاجلة لثلاثة

نقوش هي : نقش ختم من تل الخليفة بالقرب من العقبة ونقش نفق سلوان من القدس ونقش ميشع من ذيبان ومجموعتين من الكسر الفخارية التي تحمل كتابة كشف عن المجموعة الاولى في سبسطية وتعرف باسم كتابات السامرة وكشف عن الاخرى في تل الدوير ويشار اليها عادة باسم كتابات لاخيش . ويخلص من هذه المناقشة الى ان هذه النقوش والكتابات لا تحتوي اسماء أشخاص او اماكن يمكن ان ترتبط بالتوراة. ثم يختتم هذا الفصل بسرد مجموعة من المطابقات اللغوية بين اسماء اماكن وردت في بعض كتابات الملك الاشوري سرجون الثاني (٧٢٢–٧٠٥ ق.م) وهي مما اكتشف في العراق وفي بعض رسائل تل العمارنة (التي تعود للقرن الرابع عشر قبل الميلاد) وقد اكتشفت في مصر ، هذا من ناحية،وبين اسماء اماكن في غربي شبه الجزيرة العربية من ناحية اخرى . وبذلك يختلط في فصل عنوانه « مالم يكتشف في فلسطين » بعض ما اكتشف في كل من فلسطين والعراق ومصر . ولا مجال بالطبع لقبول مطابقاتــه اللغوية المتعلقة برسائل تل العمارنة ونصوص سرجون الاشوري اذا لـم يثبت لنـا بعد ان أرض التوراة هي عسير؛ اما مناقشته للكتابات التي وجـدت في فلسطين فيمكن اعتبارها مثلا لما يجب ان لا تكون عليه المناقشة العلمية .

والتدليل على مدى تهافت هذه المناقشة فاننا سوف نقبل جدلا كل النقاط التي يصر عليها ثم نسأل هل تثبت هذه النقاط حتى لو صحت أن فلسطين هي ليست ارض التوراة ؟ اما النقاط التي يصر عليها فهي:

أولا : ان الحروف الاربعة المكتوبة على ختم الخليفة ل ي ت م هي ليست اسم يوثام ملك يهوذا كما زعم المنقب (نلسن جلوك) N. Glueck وانما الى يوثام ما وقد لا يكون من بني اسرائيل بل قد (يكون اسم الاله المصري اتوم)(١١) . كما ان تحديده لموقع عصيون جبير المذكور في التوراةفي تل الخليفة الحالي ليس صحيحا . والواقع هو أن كثيرين من المختصين قد سبقوا الدكتور الصليبي في رفض المطابقة بين يوثام وملك يهوذا الذي يحمل نفس الاسم ورفضوا أيضا تحديد موقع عصيون في تل الخليفة .

ثانيا : ان اسم الملك حزقيا من ملوك يهوذا غير مذكور في نقش سلوان ولا يرد في هذا النقش ذكر اسم اي موقع بما في ذلك يروسلم ولم يدع احد خلاف ذلك .

ثالثا : ان الكتابات التي عثر عليها في سبسطية ويطلق عليها اسم كتابات السامرة لا ذكر فيها لاسم الموقع (شمرون) .ولم يدع احدخلاف ذلك ابدا .

رابعا : ان كتابات تل الدوير لا ذكر فيها لاسم المكان (لاخيش) المذكورفي التوراة وان ادعاء وليم البرايت W. F. Albright بان لاخيش هي تل الدوير ادعاء باطل وباطل ايضا ادعاؤه بان الحروف . . س ل م هي ما بقي من اسم يروسلم .

خامسا : ان نقش ميشع يتحدث عن حروب هذا الملك المؤابي مع عمري ملك اسرائيل وابنه وقد كتب على نصب اقيم في جحرا جنوبي الكرك بعد اضطرار ميشع للجلاء عن مؤاب في الحجاز .

ويبقى ان ما لا يستطيع الدكتور الصليبي ان ينكره هو ان هذه الكتابات قد اكتشفت في ارض فلسطين والاردن وان اربعا منها بالعبرية واحدها بالمؤابية وهما لهجتان كنعانيتان وان اسم ميشع واسم يوثام مذكوران في التوراة وليس صحيحا ما زعمه المؤلف من ان جلوك ، وبناء على ختم يوثام نقط حدد موقع عصيون جبير التوراتية في تل الخليفة ثم اخذ «يعلن للعالم دون ان يرف له جفن اكتشاف الموقع الصحيح والدقيق لمناجم نحاس الملك سليمان » (ص١٠٦) . لقد نقب جلوك في تل الخليفة (١٢) عدة شهور وكشف عن طبقاته الاثرية وما تحويه من فخار وابنية ودرس سياق ذكر عصيون جبير في النصوص التوراتية قبل ان يقترح هذه المطابقة التي تبقى اقتراحا ربما كان خاطئا . وليس صحيحا ايضا ان البرايت(١٣) قد حدد موقع لاخيش في تل الدوير بناء على الكسرة رقم ٤ التي وجدت فيها ، ومن الغبن الشديد ان يوصف اقتراحه بان الحروف س ل م هي ما بقي من اسم يروسلم بالصفاقة والاعتباطية وغياب اقل احترام للامانة العلمية (ص١١١) اذ ان اقتراحا كهذا ، بغض النظر عن صحته او عدم صحته امر مشروع في مجال الدراسات الاثرية والتاريخية . ثم لماذا كل هذا الغضب الم يؤكد لنا المؤلف في عدة مواضع من كتابه انه كان يوجد في زمن التوراة يروشلم فلسطينية .

ان الثقة المطلقة وغير المعقولة التي يقدم بها الدكتور الصليبي مثل هذه الحجج وتجاهله التام لعشرات بل مئات الدراسات والتقارير التي تتعلق بهذه الكتابات الخمس فقط يؤكد لنا انه لا يقدر مدى التعقيد الذي نجده في تاريخ فلسطين القديم . والا كيف خيل للدكتور الصليبي انه يستطيع ان يقنع احدا باستثناء بعض من قابلوه من كتاب الصحف الدارجة ، ان ميشع قد أقام في جحرا نصبا تذكاريا لتخليد هزائمه ثم انتقل هذا النصب ليكشف عنه في ذيبان ، أو انه حتى يصح الربط بين حزقيا ونقش سلوان ، يجب ان ينص هذا النقش الذي لم يصلنا كاملا على ما يلي « ان هذا النقش قد كتب في زمن الملك حزقيا (ص١٠٧) وتذكر بهذه المناسبة ان نقش سلوان لم يعثر عليه في قرية سلوان قرب القدس كما يزعم الصليبي وانما على جدار نفق يربط بين عين ستنا مريم (وتسمى ايضا عين ام الدرج) وبركة سلوان وكلاهما على التلة الشرقية الى الجنوب من سور الحرم الجنوبي »(١٤) .

هذا عن محاولة الدكتور الصليبي اثبات ان ارض التوراة هي ليست فلسطين فماذا عن محاولته اثبات ان هذه الارض هي عسير ويعرف الجميع بالطبع انه لم تجر في ارض عسير حتى الان اية نشاطات اثرية ولم يكتشف فيها ابدا اي اثر مكتوب لغاية

صلة قريبة او بعيدة بلغة التوراة او تاريخها ، فعلى ماذا يعتمد الدكتور الصليبي اذن ! . .

يعتمد الدكتور الصليبي على ما يدعيــه من وجــود مطابقات بين اسماء اماكن في التوراة واسماء اماكن في عسير وغربي شبه الجزيرة العربية ، ويعترف الدكتور الصليبي بانه اكتشف هذه المطابقات اكتشافا وعن طريق الصدفة ، اذ نقرأ في الفقرة الاولى من الفصل الاول مايلي « لقد كان الامر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة . كنت ابحث عن اسماء الامكنة ذات الاصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية عندما فوجئت بوجود ارض التوراة كلها هناك . . وكان أول ما تنبهت اليه ان في هذه المنطقة اسماء امكنة تشبه اسماء الامكنة المذكورة في التوراة وسرعان ما تبين لي ان جميـع اسماء الامكنة التوراتية العالقة في ذهني او جلها ما زال موجودا فيها » (ص٢٨). وبما ان اسماء الاماكن في غربي شبه الجزيرة العربية واسماء الاماكـن في التوراة لـم تكـن في يوم من الايام سرا خفيا فان سر تفرد الدكتور الصليبي ، دون غيره بهذا الاكتشاف يكمن في المنهج او على الاصح غياب المنهــج الذي اتبعه للوصــول الى هذه المطابقــات وهذا ما نجده فيما عنوانه « ملاحظات لغوية »(ص٢١ــ٢٥) وهي التي نجدها مكررة في « مسـألة نهج» (ص.٦٠ــ٦٣) .

ومما يلفت النظر ان كتابا تستند اطروحته في شقها الاهم على مطابقات لغويــة قد اكتفى مؤلفه بما سماه « ملاحظات لغوية » جاءت مختصرة جدا ومحشورة بـين المقدمة والفصل الاول ولا ذكر لها في قائمة المحتويات وتبدأ هذه الملاحظات بافادتنا بان الابجدية العبرية تشترك مع الابجدية العربية في اثنين وعشرين حرفا وان هنالك ستة حروف عربية لا وجود لها في العبرية . يلي ذلك قائمة « بالتحولات التي يقرها علماء اللغات السامية بين اللغتين » تتألف من حروف عبرية وما يقابلها من الحروف العربية. ولم يقدم الدكتور الصليبي اي دليل على ان علماء اللغات السامية يقرون جميع هــذه التحولات او أي دليل على انها جميعا صحيحة . ولم يميز الدكتور الصليبي بـين تحولات يقبل علماء اللغات السامية بامكانية حدوثها في الفاظ ذات معنى واحد او متشابه او متضاد(١٥) وبين النقل في اسماء الاعلام(١٦) ، اذ ان الاصل في هــذه الاخيرة ان تنتقل بحروفها كما هي فيما عدا تلك الحروف التي لا وجود لها في احدى اللغتين . ومع ذلك فان تحولا في احد حروف اسم العلم كان يحدث ولكن دون ان يحكم ذلك قاعدة جامعة مانعة . اذ ليس شرطا ان تتحول الهمزة مثلا الى واو او ياء بل قد تبقى همزة أو قد تتحول الى عين او قد تسقط.

وتأتي المفاجأة بعد قائمتي الحروف العبرية والعربية حين يقدم لنا الدكتور الصليبي مجموعة جديدة تماما من قواعد التحول في الحروف بينهما استنبطها هو «من المقابلة بين اسماء الاماكن التوراتية وتلك الموجودة الى اليوم في غرب شبه الجزيــرة

العربية »(ص٢٣) . فهو يستنتج مثلا وعلى هذا الاساس ان حرف اللام في اسماء الاماكن التوراتية مهما كان موضعه في التركيب يتحول الى ال التعريف في نظيره العربي في عسير . وهكذا تصبح جلعد : الجعد وتصبح لملاه : الملاه . وهو يقرر ايضا ان اسماء الاماكن التوراتية التيعلى وزن « يفعل » و « تفعل » تتحول الى العربية على وزن « فعل » و « فعلة » وهكذا تصبح يقطن : قطن ؛ تعنك : عنقه ؛ علما بان الدكتور الصليبي يؤكد فيالملاحظة التي تلي ذلك مباشرة انه يجب تعرية الاسماء في كل من العبرية والعربية من الحركات وحروف العلة (ص٢٤) فكيف استقام له مع ذلك الحديث عن الاوزان . ولنفرض جدلا ان اللغة العبرية لغة ميتة فلا نعرف كيف كانت تلفظ اسماء الاماكن فيها فلماذا يريدنا ان نميت اللغة العربية ايضا . ويؤكد الدكتور الصليبي ان الشين العربية لا تنقلب الى ثاء عربية الا في منطقة جيزان حيث تصبح بشن التوراتية بثن كما ان الكاف العربية لا تنقلب ابدا الى خاء وذلك لانه لم يجد مثل هذا التحول على الاطلاق في التعريبالذي حصل لاسماء الاماكن التوراتية في شبه الجزيرة العربية (ص٢٤) . ولا تنسخ هذه القواعد الجديدة عددا من التحولات التي وضعها في القائمتين بل انها تضعنا امام حالة لا مثيل لها من الدوران في حلقة مفرغة ؛ ان الدكتور الصليبي يريد ان ينقلارضالتوراة الى عسير لانه يدعي انه وجد مطابقات لغوية بين اسماء الاماكن في كل منهما وهو يريد ان يقنعنا بصحة هذه المطابقات بناء على قواعد جديدة تماما استنبطها هو دون غيره من افتراض وجود هذا التطابق اصلا .

ولنضرب على ذلك مثلا المطابقة بين يروشلم وآل شريم التي نجدها في الفصل التاسع « اورشليم ومدينة داود » (ص١٧٥-١٩٣) ويتوصل المؤلفالى هذه المطابقة في الصفحة ١٨٣ . وحسب ادعائه فان كل ماحصل لغويا عند النقلمنالاسم التوراتي الىآلشريمهو «تغير موقعي الحرفين الراء واللام بينقسمي الاسم المركب » (ص١٨٣) ولم يتنبه الدكتور الصليبي الى انه لاوجود في النص العبري ابدا لصيغة «يروشليم»، للياء بين اللام والميم وانما يكتب دوما ودون استثناء يروشلم اما ما حصل للاسم يروشلم حتى اصبح آل شريم فهو مايلي:

اولا : تحولت الياء الى مدة .

ثانيا : نقل الحرف الثاني الراء ليصبح الرابع .

ثالثا : سقطت الواو نهائيا .

رابعا : انتقل الحرف الرابع الشين ليصبح ثالثا .

خامسا : انتقل الحرف الخامس اللام ليصبح الثاني .

سادسا : اضيفت ياء جديدة في آل شريم .

وقد اقتصرت محاكمات المؤلف اللغوية على الجملة التي اقتبسناها اعلاه اما الصفحات من ١٧٥–١٨٣ فقد احتلتها مناقشة ما يسميه « احداثيات » يروشلم بالنسبة الى حبرون التي هي الخربان في منطقة المجاردة . ويذكر اسم حبرون للمرة الاولى في الصفحة ٣٥ في سياق التأكيد على ان بني اسرائيل عندما هاجروا من عسير الى فلسطين زمن التوراة استعملوا في فلسطين اسماءتوراتية من بينها حبرون، ويذكر في المرة الثانية في الفقرة الاولى من هذا الفصل ليفرض علينا المؤلف مايلي :

« هناك خمسة امكنة تسمى حبرون ما تزال موجودة تحت اسم (خربان) (خربن بقلب الاحرف) على المنحدرات البحرية لعسير ومن بين هذه الامكنة الخمسة يحتمل ان عاصمة داود الاولى (أي حبرون) كانت قرية الخربان الحالية في منطقة المجاردة » (ص١٧٥) فلماذا وعلى أي اساس اختار خربان في منطقة المجاردة دون غيرها من بين خمسة مواقع تحمل نفس الاسم لتكون عاصمة داود الاولى ويستمر المؤلف « وكما سنرى لابد ان اورشليم كانت تقع على مسافة ما صعودا باتجاه الشرق فيجوار النماص الخ » ولكن ما نراه هو سبع صفحات من « التدقيق في النص العبري لصموئيل الثاني ٥:٦–١٠ الذي يتحدث عن كيفية استيلاء داود على اورشليم » (ص١٧٦) يحدد فيها المؤلف مواقع عدد من اسماء الاماكن الحقيقية او المتخيلة بالنسبة الى خربان في منطقة المجاردة ثم لا يلبث أن يعثر على موقع اورشليم « فورا على مسافة حوالي ٣٥ كم الى الشمال من بلدة النماص في سراة عسير شمالي ابها . انها القرية التي تسمى اليوم آل شريم » (ص١٨٣) .

وفي الفصل المعنون « مسألة الاردن » (ص١٣٣–١٥٤) توصل الدكتور الصليبي في الصفحة الثانية من هذا الفصل الى ان هـ ى ر دن الاردن تعني « جرف » «نتوء» أو « مرتفع » كما يلي : يقرر الدكتور الصليبي في الجملة الاولى من هـذا الفصل ان هـ ى ردن لم تكن في التوراة نهرا لان عبارة نهر هيردن لا ترد في أي مكان فيها ورغم انه يقتبس من كتاب(لجون سيمونز) قوله ان « مشكلة اصل ومعنى كلمة يردن التي اختلفت الاراء حولها ما زالت بلا حل (ص ١٣٣هامش رقم ١) الا انه يقرر انها من الجذر (يرد)بمعنى انحدر ويقابلها في العربية الجذر (ردى) الذي يعني سقط ومنها اشتق الاسم الذي نجده في عسير في صيغة ريدان وهي تعني نتوء او مرتفع (اما النون في كل من يردن وريدان فهي اداة تعريف مماتـه) وعلى ذلك فان هيردن تعني جرف نتوء او مرتفع . من ناحية اخرى وفي الهامش رقم ٣ صفحة ١٣٥ يعترف الدكتور الصليبي ، على مضض ان عبارة « مياه الاردن » ترد في التوراة (وهي تذكر عدة مرات) وهنا يقترح ان (يرد) العبرية مقابلة لـ (ورد) العربية وليس (ردى) ويكون معنى هـ ى ردن هنا ليس جرفا او نتوءا او مرتفعا وانما جدول ماء او بركة(١٧)..

وكتاب الدكتور الصليبي هو مجموعة هائلة من المطابقات اللغوية من هـذا

المستوى وفيه من المفارقات ما لايحيط به حصر ،ومنها ان المؤلف يؤكد لنا ، وفي اكثر من مكان ، ان بعض اسماءالاماكن في عسير زمن التوراة قد اطلقت من قبل المهاجرين الى فلسطين على مواقع فيها ونحن نعرف على وجه التحقيق كيف انتقلت اسماء هذه المواقع في فلسطين الى لغتنا العربية فلماذا انتقلت في عسير على نحو يختلف تمام الاختلاف ، اننا نعرف انه في فلسطين عربت هذه الاسماء كما يلي: يروشلم : اورشليم، يريحو : اريحا ، عزة : غزة، اشكلون : عسقلان ، اشدود : اسدود ، يافو : يافا ، عكو : عكا ،وتعنك:تعنك .. الخ، فلماذا عربت في عسير على النحو التالي : يروشلم آل شريم ، يريحو : الرخية او الورا خ وعزة : آل عزة في منطقة بلحمر او العزة في وادي اضم او عز فيمنطقة بلسمر واشكلون : شقله في جوار قنفذة او ثقالة في الجوار نفسه ولماذا عربت اشدود اما الى السدود فيرجال المع او السداد في منطقة جيزان اوالشديد في منطقة مكة المكرمة ، او السداد في منطقة الطائف وكيف اصبحت يافو : الوفية ، وعكو : العكة وتعنك : عنقة ؟ الخ.

ومن النقاط البارزة في هذا الكتاب التسليم بصحة روايات التوراة التاريخية تسليما مطلقا الى درجة لم يصل اليها اكثر التوراتيين المحافظين تطرفا ولذلك فان المؤلف يرهق نفسه في البحث في جغرافية روايات يحوم شك كبير حول صحة احداثها . والتوراة كتاب ديني ذو نظرة تاريخية خاصة وقد كتب ما فيه من روايات لتعزيز تلك النظرة ونجد في التوراة في بعض الاحيان ، روايتين مختلفتين او متناقضتين لحدث واحد . ونقد الروايات التوراتية من حيث نشأتها وفلسفتها ومن حيث المدرسة التي حررتها وصاغتها ومن حيث انتقالها حتى دخلت في «الكانون Canon »(١٨) الذي لم يغلق الا في القرن الاول الميلادي امر ضروري جدا لتقييم روايات التوراة تاريخيا ، وضروري جدا مقارنة ماله صلة بالاثار منها بنتائج الحفريات الاثرية ذات العلاقة ولو فعل الدكتور الصليبي ذلك لوجد انه لا مجال للشك ابدا في ان التوراة قد نشأت في فلسطين من ناحية ، ولا مجال ابدا ، منناحية اخرى ، للقبول بان كل روايات التوراة التاريخية صحيحة وهذا مثل بسيط :

تذكر مدينة جبعون وسكانها الجبعونيون في التوراة خمسا واربعين مرة. ويفهم من هذه الاشارة ان في مدينة جبعون بركة ماء (ارميا ٤١:١٢) وان سكانها كانوا يتعاملون بصناعة النبيذ او نقله على الاقل (يشوع : ٩:٤) ومنها ايضا ان جبعون ، في زمن يشوع كانت مدينة عظيمةمحصنة(يشوع : ١٠:٩) وانه قد احتلها ، ومنذ سنة ١٨٣٨ ارتأى ادوارد روبنسون E. Robinson ان جبعون هي الجيب التي تقع على مسافة ١٤ كم الى الشمال الغربي من القدس وبين السنوات ١٩٥٦ ــ ١٩٦٢ قام (جيمس بريتشارد) J. B. Pritchard من جامعة بنسلفانيا في فيلادلفيابالحفر في هذا الموقع فكشف عن وجود بركة ماء(١٩) ومعصرة نبيذ(٢٠) وكشف ايضا عن عدد كبير من النقوش و « طبعات » اختام على مقابض جرار فخارية من بينها واحد وثلاثين

مقبضا نقشت عليها كلمة جبعن . وكان على (بريتشارد) ان يقنع المختصين بان هذه الحروف اسم المكان الذي هو جبعون وكان عليه ثانيا ان يقنعهم ان تلك الجرار لم تأت الى الجيب حيث وجدت من جبعون وهذا ما فعله في نقاش مطول.(٢١) وبذلك يصبح تحديد موقع جبعون في الجيب الحالية في حكم المؤكد . من ناحية أخرى لم تكشف الحفريات في الجيب عن اية اثار لمدينة محصنة يمكن ارجاعها الى الزمن الذي يفترض ان يشوع قد احتلها فيه وبذلك تكون رواية سفر يشوع ليست صحيحة وانما نسجت فيما بعد لاعتبارات ايديولوجية لا مجال للخوض فيها .

(١) كمال سليمان الصليبي ، التوراة جاءت من جزيرة العرب ، ترجمة عفيف الرزاز ومراجعة كمال الصليبي . مؤسسة الابحاث العربية ١٩٨٥، م بيروت ، ٣٦٤ صفحة ، ١١ خارطة . ويفهم من تصدير ناشر الطبعة العربية (ص٨) ومن بعض المقابلات مع المؤلف (مثلا القبس اليومية الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩٨٥/١٠/٢ ص ١١) ان مجلة دير شبيغل Der Spiegel الالمانية قد تعاقدت معه في صيف سنة ١٩٨٢م ، بعد ان اوشك على الانتهاء من تاليف كتابه على ان تتولى نشره باللغات الالمانية والانجليزية والعربية والفرنسية والهولندية والدانماركية . ويبدو ان هذه المجلة قد واجهت صعوبات في العثور على دور نشر تتولى القيام بهذه المهمة اذ لم يقدر لهذا الكتاب ان يرى النور الا في ايلول من سنة ١٩٨٥.

(٢) هذا تعريب موفق لاسم هذا الشعب القديم الذي كتب بالعبرية التوراتية Pelishtim وبالمصرية Peleset وبالسمارية الاشورية Palashtu

(٣) مجلة الشراع الاسبوعية الصادر بتاريخ ١٩٨٤/٩/٣ .

(٤) يستعمل الدكتور الصليبي في هذا الكتاب مصطلحي « يهود » و « الديانة اليهودية » كمرادفين لمصطلحي « بني اسرائيل » و « ديانة يهوه » . وينعقد الاجماع على ان المصطلحين الاولين لم يظهرا الا بعد السبي البابلي وانه لذلك لا يصح استعمالها عند الحديث عن الفترة التي سبقت ذلك السبي . ولكن هذه تبقى مسالة ثانوية في ضوء التغييرات الضخمة الاخرى التي يقترحها المؤلف .

(٥) هكذا يكتب المؤلف اسم هذه المدينة المشهورة بالحروف الساكنة كما يعتقد انه ورد في النص العبري للتوراة وهذا خطأ . فقد كتب هذا الاسم في النص العبري دوما ودون اي استثناء يروشلم وينبهنا ال « ماسوريم » الذين ادخلوا الحركات في النص العبري ان هذا ما هو مكتوب Kethib وانها يجب ان تقرا Qere يروشلايم . حول هذه المشكلة انظر :

A.D. Tushingham, « Yerushalayim, » pp. 183 - 193 in Archaeology in the Levant. Essays for kathleen kenyon, R. Moorey and P. Parr ed. Aris and Philips Ltd Warminster, England, 1978.

(٦) ان صفة « مقدس » و « غير مقدس » ليست دقيقة في التعبير عن العملية التي تشير اليها . والمقصود هو مايقابل المصطلح Canon في اللغات الاوروبية الحديثة وفي اليونانية واللاتينية الذي يوصف به نص ما ـ ليس بالضرورة دينيا ـ عندما ينعقد الاجماع على انه ((أغلق)) فلا يزاد عليه

او ينتقص منه.ويختلف « كانون » العهد القديم الكاثوليكي والارثوذكسي عن نظيره البروتستانتي. والاخير مطابق لمجموعة الاسفار التي يصفها اليهود بانها « تلوث اليدين » والتي يفترض في المؤمن ان يغسل يديه بعد كل مرة يمسها خشية ان ينتقل ما بها من القداسة الى ما يمسه فيلوث تلك القداسة . من اجل فكرة عامة عن هذا الموضوع الحساس انظر :

G.W. Anderson, « Canonical and non-Canonical, » pp. 113-159 in **The Cambridge History of the Bilble Vol.** I,P.R. Ackroyd and C.F. Evans ed., The University press, Cambridge, 1970.

(٧) نستعمل مصطلح « توراة » هنا كما استعمله الدكتور الصليبي ، وكما هو شائع في الاستعمال العربي العام رغم عدم دقته . والمقصود هو ما يسميه المسيحيون « العهد القديم » وما يطلق عليه اليهود اسم « تنك » وهو مصطلح يتالف من الحرف الاول من اسم كل جزء من الاجزاء الثلاثة التي يتالف منها كتاب اليهود المقدس تورا ، نبيئيم وكتوبيم . واما بالنسبة للمفهوم الاسلامي فان التوراة هي كتاب واحد مقدس انزل على سيدنا موسى عليه السلام حرف فيما بعد من قبل ربابنة يهود .

(٨) من اجل فكرة عامة عن هذا الموضوع انظر : وليم بروز ، مخطوطات البحر الميت ترجمة محمود العابدي ، دائرة الثقافة والفنون ، ١٩٦٧ ، عمان . وقد اضاف المترجم ، الذي عمل سنوات طويلة في دائرة الاثار الاردنية معلومات مهمة تتعلق بمصير هذه المخطوطات .

(٩) انظر مثلا :

R. Hestern **et. al, Inscriptions Reveal : Documents From the time of the Bible the Mishna and the Talmud,** The Israel Museum, Jerusalem, 1972 .

Synagogue في :

M. Avi, - Yonah ed. **Encyclopedia of Archeological Excavations in the Holy Land, Vol. IV,** The Israel Exploration Society and Massada Press, Jerusalem, 1978.

(١٠) من الجذر الارامي مسر ويعني « ينقل » « يسلم » . واقدم ما وصلنا من جهد هؤلاء ال «ماسوريم» لا يرقى الى ما قبل القرن العاشر الميلادي وهي نسخة من التوراة ب ((ماسورة)) هارون بن موسى بن اشر موجودة الان في متحف لينينغراد في الاتحاد السوفياتي وهي التي اعتمدها رودلف كتل R. Kittel ورفاقه في Biblia Hebraica التي صدرت الطبعة الاولى منها سنة ١٩٢٩ ، والتي حلت فورا محل النسخ العبرية الاخرى التي كانت متداولة وتعمل الجامعة العبرية الان على اصدار تحقيق جديد للتوراة اساسه ما يعرف باسم نسخة حلب Aleppo Codex وتنسب الى هارون بن اشر ايضا وكانت محفوظة في كنيس حلب ولكنها سربت سنة ١٩٦٥ الى الكيان الصهيوني. حول هذا الموضوع انظر :

M. Goshen - Gottstein. « The Aleppo Codex and the Rise of the Massoretic Bible Text», **Biblical Archaeologist, Vol. 42, N°. 3** (1979), pp. 145-165.

(١١) وبالطبع فان اقتراح الدكتور الصليبي المتعلق بان هذا الاسم قد يكون للاله المصري اتوم مرفوض رفضا قاطعا لان اي ختم هو بالضرورة لتوثيق معاملات رسمية ادارية وتجارية مما لا شان للالهة به ولم يحدث ابدا ان اكتشف ختم اله في اي مكان من الشرق القديم . اضف الى ذلك ان المصريين القدماء لم يستعملوا اختاما وان سكان فلسطين القدماء لم يعبدوا الهة مصرية .

V. Glueck. « The First Campaign at Tell el - Kheleifeh (Ezion Geber), Bulletin of the American Schools of Oriental Research N° 71 (1936). pp. 3-17; « The Topography and History of Ezion Geber and Elat,

« ibid N° 72 ,1938), pp. 2-13;« The Second Campaign at Tell el-Kele-ifah (Ezion Geber: Elath) ibid N°. 75 (1939) , pp. 8-22; « The Third Season of Excavations at Tell el-Kheleifeh ibid N°. 79 (1940) , pp. 2-18; «Osttraca from Elath» ibid N°. 79 (1940), pp. 3-10; ibid N° 82 (1941) pp. 3-11.

(١٢) من اجل عرض للاقتراحات المتعلقة باسم تل الدوير في العصور القديمة ، بما في ذلك اقتراح (البرايت) الذي طرحه سنة ١٩٢٩. وتلخيص لابرز موجودات هذا الموقع بما في ذلك الكتابات وقائمة باهم المصادر انظر :

O. Tufnell, « Lachish » , pp . 296-308 in Archaeology and the Old Testament, D. winton Thomas ed, The Clarendon Press, Oxford(1967).

(١٤) ويتحدث النقش عن عملية الحفر نفسها ، ويرد في خمسة مواضع من التوراة (الملوك الثاني ٢٠:٢٠ اشعيا ٢٢:١١ اخبار الايام الثاني ٣٢:٢-٣٢-٣٠ وبن سيراخ ٤٨:١٧) ان حزقيا (٧١٥-٦٨٧ق.م) قد حفر في يروشلم بركة وصلها بنفق الى عين جيحون . وان مناسبة ذلك هو الاستعداد للحصار الذي كان متوقعا ان يفرضه سنحاريب على هذه المدينة .

(١٥) انظر مثلا :

L. H. Gray, Introduction To Semitic Comparative Linguistics, Philo Press, Amsterdam, 1971.

ربحي كمال ، التضاد في ضوء اللغات السامية . دراسة مقارنة ، جامعة بيروت العربية . بيروت ١٩٧٢ .

(١٦) انظر مثلا فيما يتعلق بفلسطين :

A. F. Rainey, « The Toponymics of Eretz-Israel » , Bulletin of the American Schools of Oriental Research N°. 231 (1978), pp. 1-17.

(١٧) يجمع الدارسون على انه من الصعب القبول بان صيغة هيردن مشتقة من الجذر يرد انظر :

J. Simons , The Geographical and Topographical Texts of the old Testament, Brill, Leiden, 1959.

وقد نوه سيروس جوردن بان عبارة « نهر الاردن » لا ترد في التوراة وان هذا الاسم باستثناء مرتين (المزامير ٤٢:٧ ، أيوب ٤٠:٢٣) يكون دوما مسبوقا بأداة التعريف ، هذا بالاضافة الى عبارتي

«هنا الاردن» و « اردن اريحا » وقد قاده ذلك الى اقتراح ان هذه اللفظة تعني « نهــر » اعتمادا على ذكر iardanus في اوديسة هوميروس (٣: ٢٩١–٢) ولكن رايه هذا لم يحظ بالقبول انظر:

C. Gordon, **Before the Bible**. The Common Background of Greek and Hebrew Civilizations, Harper & Row, New York 1962, pp. 284-5.

ونذكر بهذه المناسبة (ان بردية انستاسي الاولى) وهي عبارة عن رسالة سخرية من احد الكتاب المصريين الى غريمه ومنافسه وتعود الى اواخر زمن السلالة التاسعة عشرة المصرية ،اواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، ترد فيها عبارة « جــدول الاردن اين يقع » واسم الاردن هنا مسبوق بالاشارة الدالة على نهر اوجدول . من اجل ترجمة انجليزية لهذه الرسالة الطويلة الممتعة انظر :

J.A. Wilson, « An Egyptian Letter », pp. 475 - 479 in **Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament**, J.B. Pritchard ed. 3rd edition with Supplement, Princeton University Press, Princeton, 1969.

وفي

W. Helck, **Die Beziehungen Agyptens Zu Vorderasien im 3. Und.2. Jahrtausend V. Chr.**, Agyptologische Abhandlungen 5, 2nd revised ed. O. Harrassovitz, Wiesbaden, 1971, pp. 315 - 319.

نجد مناقشة لغوية جغرافية لهذه الرسالة .

(١٨) انظر الهامش رقم ٦ .

(١٩) J.B. Pritchard, **The Water System of Gibeon**, The University Museum, The University of Pennsylvania, Philadelphia, 1961.

(٢٠) Idem **Winery, Defenses and Soundings at Gibeon**. The University Museum, The University of Pennsylvania, Philadelphia, 1964.

(٢١) Idem **Hebrew Inscriptions and Stamps From Gibeon**. The University Museum, The University of Pennsylvania, Philadelphia, 1959.

هل التوراة على حق ؟

المؤرخ اللبناني كمال الصليبي يبدل اماكن المدن المقدسة

ترجمة : قاسم طوير
المديرية العامة للاثار والمتاحف ـ دمشق

يؤكد استاذ الاثار الاسرائيلي في تل ابيب **موشيه كوخاوي** ، وهو واثق من نفسه ، بان « الوصف الجغرافي الوارد في التوراة لا ينطبق الا على فلسطين ، لذلك لا يمكن ان تكون ارض التوراة الا في فلسطين » .

غير ان وجهات النظر المخالفة للراي السابق تعتبر جدية ايضا في اوساط العلماء ، فعالم الاثار التوراتية في جامعة ماينز بالمانية الغربية يقول « ان بعض البقاع في بلدان الشرقين الاوسط والادنى تشبه في مظهرها الجغرافي اجواء فلسطين بحيث لا يكون ضروريا ان نوجه انظارنا الى عسير دون غيرها » . نعم ليس من الضروري، بل لعل وعسى ، فلماذا لا نحاول توجيه الانظار الى عسير ، لا سيما وقد تعذر حتى الان ايجاد الدليل المادي في فلسطين على الاحداث التوراتية التي جرب من أيام ابراهيم حتى السبي البابلي ، في حين يعتقد المؤرخ اللبناني كمال الصليبي انه اكتشف وجود عدد كبير من المدن والبلدان والمواقع في عسير تتفق اسماؤها مع الاسماء التوراتية . واذا نقلنا الشبكة البلدانية التوراتية من فلسطين الى عسير نجد ان التوافق لا يقتصر على اسماء البلدان والمواقع بل ويشمل الطبيعة وخصائص الارض والمعادن والمياه والنبات والحيوان كما ورد وصفها في التوراة .

تقع عسير في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة العربية بين الطائف شمالا واليمن جنوبا ، وقد اصبحت الان البلد « الذي يسيل فيه اللبن والعسل » بدلا من فلسطين.

عن مجلة « دير شبيغل » الالمانية ، ٤٠ ، ١٩٨٥/٩/٣٠ .

وقد وصف الجغرافي اليوناني سترابون الذي عاش بين ٦٣ ق.م و ٢٦ ميلادية ،بلاد عسير بان في داخلها يجري استخراج الحديد والرصاص والذهب .. والذهب موجود فيها على هيئة فلزات اصغرها بحجم الجوزة وليس على هيئة غبار .

يذكر سفر موسى ان الذهب يستخرج من مكان قريب من نهر بيسون تماما كما في منطقة وادي بيشا بعسير حيث يرى كمال صليبي تشابها بين كلمة بيسون التوراتية وكلمة بيشا في بلاد عسير.

ويذكر سفر موسى ايضا ان الله امطر النار والكبريت فوق مدينتي سودوم وعمورة لقاء خطاياهما .

وهذا يعني وجود براكين بالقرب منهما . وثمة اجماع بين العلماء ان المدينتين المذكورتين تقعان في مكان ما قرب البحر الميت، لكن الواقع هو انه لا وجود للبراكين في منطقة البحر الميت ، بل هي موجودة، حسب تحقيق كمال صليبي ، في وادي دميس بمنطقة جيزان .

تهطل الامطار في عسير اكثر من اي مكان اخر في شبه الجزيرة العربية ، ويتراوح معدلها بين ٣٠٠ و ٦٠٠ مم في العام، وهناك خصائص اخرى كثيرة تتفق مع طبيعة عسير ، فالثلوج الكثيرة التي تحدث عنها النبي اشعيا والنبي ارميا تهطل بغزارة في جبال السراة في بلاد عسير . وتنبت في هضاب عسير انواع الحبوب وتكثر اشجار الرمان والزيتون والتين واللوز والكرمة ، وفي السهول المحاذية لساحل البحر الاحمر يكثر العديد من أنواع الخضار ، وقد وجد الجغرافي اليوناني سترابسون ان عسل عسير من أفضل الانواع ، وتنتشر حول المناطق المزروعة المراعي التي تربى عليها قطعان الغنم والماعز وتسرح فيها الحمير والدواب والجمال.

ان الضب من الحيوانات التي حرمت التوراة اكلها ، ويعتقد كمال صليبي ان الكلمة المستخدمة في سفر موسى لهذا الحيوان المحرم اكله تنطبق على ضب الصحراء العربية ولا تنطبق على الضب الذي يعيش في جنوبي فلسطين .

يذكر الجغرافي اليوناني سترابون في سياق حديثه عن حملة القائد الروماني اليوس جالوس الى جنوبي الجزيرة العربية ، ان الدجاج ليس معروفا لدى اهالي عسير . وفي هذا الصدد تجدر الاشارة الى ان قائمة الحيوانات التي يمكن او لا يجوز في تعاليم موسى تقديمها كأضاح لا تتضمن الدجاج ، علما ان الدجاج معروف في فلسطين منذ أقدم العصور .

*· المقصود بـ « سفر موسى » الاسفار الخمسة الاولى من التوراة .

يعتقد كمال الصليبي انه اكتشف في القرآن الكريم ايضا وجود ادلة وقرائن على صحة نظريته بأن عسير وليس فلسطين البعيدة عنها قرابة الفي كيلو متر الى الشمال هي ارض التوراة .

ان الرسول العربي محمد (ﷺ) الذي عاش بين ٥٧٠ ـــ و ٦٣٢م اراد احياء دين ابراهيم الخليل . ولقد تعرف محمد (ﷺ) على الديانة اليهودية وفق المأثور لدى يهود الحجاز الذين كان لهم كنيس في مكة انذاك . ويتحدث القرآن الكريم عن يهود يثرب (المدينة المنورة) . ويعتقد كمال الصليبي ان محمدا (ﷺ) قد تبنى بقايا المأثورات اليهودية الحجازية من يهود يثرب وغيرهم ، ويرى ان القرآن الكريم في سياق الحديث عن الاوائل والانبياء يسرد اسماء مواقع وبلدان حجازية في اشكال مثيرة للاهتمام : فاذا كانت التوراة تكتفي بذكر اسم جبل فان القرآن الكريم يذكر الجبل واسم الوادي التابع له او اسم المدينة او البلدة المجاورة له . فمثلا نادى الملاك على موسى من بين الادغال في جبل حوريب . لكن حتى الان لم يستطع احد تحديد مكان هذا الجبل وجرت العادة على الظن بانه في مكان ما بجنوب سيناء .

أما القرآن الكريم (السور ٢٠ و ١٢ و ٧٩) فيحدد المكان في وادي طوى المبارك، وطوى اليوم هو اسم احدى القرى في عسير .

يرى الصليبي ان جبل حوريب التوراتي موجود في جبل هادي الذي هو جزء من سلسلة جبلية ساحلية منعزلة في عسير . ففي وادي البقرة المحاذي لذلك الجبل بالذات يوجد اليوم موقع اسمه حريب . يضاف الى ذلك ان التوراة (سفر موسى) تتحدث عن اسماء سبعة مواقع تبعد مسيرة احد عشر يوما عن جبل حوريب وهي : عربة ، صوف ، فران ، طوفل ، حازروت ، ديساهب ، لابان . وقد حقق كمال الصليبي ان تلك المواقع تبعد /٢٥٠،٠/ كم عن جبل هادي بعسير ، وبالفعل تحتاج تلك المسافة الى مسيرة احد عشر يوما .

استنادا الى السورة /٢٨/ والسورة /٢٤/ من القرآن الكريم توقف موسى بعد خروجه من مصر في موقع اسمه الظل وقد عثر كمال صليبي على هذا الموقع في منطقة المدينة المنورة بالقرب من ينبع النحك .

مهما كان شأن التفسير المطروح للمأثورات الاسلامية عن اليهود فان بعض التفاصيل في الحياة الاسلامية في الحجاز تبدو وكأنها تشير الى ماض يهودي فأهالي الحجاز اليوم ينعتون اهالي عسير بكلمة (يهودنا) . وثمة عدد من القبائل الحجازية غير اليهودية ما تزال تعتقد حتى الان ان اجدادهم في الازمنة البعيدة كانوا يهودا . كما انهم ما زالوا على قناعة تامة بان ارض الانبياء التوراتيين موجودة في الحجاز .. وفي

الاحساء بالسعودية ما زال البدو هناك يزورون كهوفا ومغارات معينة على اساس انها منازل ابراهيم الخليل . كذلك تقول احدى المأثورات القبلية في غربي الجزيرة العربية ان اليهود كانوا يقطنون الجبال في الوقت الذي كان فيه العرب ينزلون في الصحراء ، وان اليهود هم اول من اهل الجمل ، وما زال اهالي ابها وخميس مشيط في جبال عسير يعتقدون حتى اليوم أن ابراهيم الخليل وموسى عليه السلام من مواليد عسير وانهم (اي اهالي ابها وخميس مشيط) كانوا بالاصل يهودا .

سبق للمستعرب والمؤرخ الهولندي راينهارت دوزي ان جمع ادلة كثيرة على الماضي اليهودي للحجاز وعسير في كتابه الذي صدر قبل ١٢٠ عامابعنوان «الاسرائيليون في مكة من ايام داود حتى القرن الخامس بعد الميلاد ». ونستخلص من كتابه هذا ان اليهود سكنوا الحجاز وعسير على الاقل منذ ايام داود .كما عثر على معلومات مفادها ان دولة عربية قامت بين مكة واليمن بين ١١٥ ق.م والقرن السادس الميلادي،وكانت تدين باليهودية ، وهي دولة حمير التي مقرها اليمن . والمعروف ان اخر ملكين من ملوك حمير كانا يدينان باليهودية ».

وخلافا لرأي كمال الصليبي يعتقد المؤرخ الهولندي دوزي ان الوجود اليهودي القديم في غربي الجزيرة العربية جاء نتيجة لهجرة يهودية الى الحجاز وعسير.

ثمة ادلة مادية على انه لا يوجد اجماع لدى اليهود بان فلسطين هي الوطن الاول لليهود . فالنصوص المكتشفة في جزيرة الفيلة في نهر النيل بمصر العليا تدل بان يهود مصر العليا لم يسمعوا قط بمعبد سليمان العظيم كما انهم عبدوا آلهة اخرى الى جانب يهوا .

ان الفلاشة الذين هاجروا من جنوبي الجزيرة الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد على ما يظهر ، ويعتبرون انفسهم يهودا لم يعترف الحاخام الاكبر في القدس بيهوديتهم الا مؤخرا وذلك عندما هربوا من مجاعة افريقيا الى دولة اسرائيل .

وحتى حرب فلسطين عام ١٩٤٨ كان يعيش في اليمن قرابة ٦٠ الف يهودي ، وهؤلاء لم ينسوا دينهم لكنهم نسوا تاريخ نشوئهم مثلما نسوا اللغة العبرية . وحتى الحاق عسير بالمملكة العربية السعودية في الثلاثينات من هذا القرن كان الاف من اليهود يعيشون في عسير ». وعلى الرغم من ان السعوديين قد اجبروهم على اعتناق الاسلام الا ان هؤلاء احتفظوا بعدد من عاداتهم وتقاليدهم ، وبخاصة في اللباس والطعام والسلوك ، فهم ، خلافا للمسلمين ، يسمحون لبناتهم بركوب الخيل . ولقد اثار « الطابع غير العربي بتاتا » في سلوك اهل عسير اهتمام الرحالة البريطاني وهاوي الاثار السير هاري سان جون فيلبي الذي جاب في جميع ارجاء الجزيرة العربية خلال

الثلاثينات ، ففي احدى مذكراته يتحدث عن نسوة بلا حجاب ، وعن راع يتنفس بموسيقى جبلية مطربة . يضاف الى ذلك ان الغرباء في عسير اليوم يستغربون وجود اسماء يهودية دارجة بين اهالي عسير مثل مناحيم وحبقوق ، وبعضهم لا يدرك انه يحمل اسما يهوديا . من الممكن ان تكون الظواهر اللغوية الغريبة وغيرها مجرد مصادفة ، ولكنها قد تكون قرائن تدعم نظرية كمال الصليبي ، فمثلا نوجد في جنوب الجزيرة العربية لهجات تحتوي على مفردات متصلة اتصالا وثيقا باللغة العبرية وهذا الامر يشير الى وجود عبري سابق في المناطق التي تسود فيها تلك اللهجات ..

جمع عالم اللسانيات الانكليزي ف.ل . بيستون ، من النصف الغربي من الجزيرة العربية من شمالها الى جنوبها ، اعدادا هائلة ومشتتة من النقوش الكتابية التي تتوزع في مجموعتين رئيسيتين ، الاولى تستخدم (ال) التعريف العربية والثانية تستخدم (ها) التعريف العبرية ، واستنتج بتحفظ وحذر « ان هذه الظاهرة تكفي للاعتقاد بوجود مجتمعين لغويين كانا متصلين بعضهما مع بعض جغرافيا ثم تمازجا . وفي كل الاحوال لابد ان نوعا من الفسيفساء اللغوية ساد جنوبي الجزيرة العربية . وقد لاحظ العلماء منذ عشرات السنين وجود كمية من المفردات العبرية في جميع اللغات الحبشية .. ترى هل مصدر تلك المفردات هو فلسطين التي تبعد عن الحبشة قرابة الفي كيلو متر او بالاحرى جنوب غربي الجزيرة العربية المجاورة للحبشة .

ومن الاثار اليهودية الاخرى في الحبشة التي تقع عسير قبالتها ، نرى نجاشي الحبشة وقياصرتها حتى هيلاسيلاسي ينعتون انفسهم بلقب « أسد يهوذا » وينسبون انفسهم الى سليمان ، وان شعار الخطوط الجوية الاثيوبية اليوم هو الاسد التوراتي. وقد فسر عالم الساميات الالماني **فولف ليسلاو** هذه الظاهرة في بحث نشره عام ١٩٦٢ في مجلة الاستشراق الالمانية ، فبين ان جماعات من سكان جنوب غربي الجزيرة العربية هاجروا الى الحبشة في الالف الاول قبل الميلاد ، وهذه هي الفترة التي تقوم عليها نظرية كمال الصليبي .

يفسر كمال الصليبي غياب الماضي التوراتي غيابا كاملا من ذاكرة يهود ما بعد السبي وأهل عسير باسباب لغوية ، ففي نحو ٥٠ ق.م كانت العبرية لغة شبه ميتة اذ حلت مكانها الارامية حتى مطلع الميلاد ، ثم جاءت العربية لتسود كليا . وعندما توقفت العبرية عن ان تكون لغة حية واجه اليهود مشكلة في قراءة النص التوراتي، ويتصور كمال الصليبي الامر كالتالي : كانت نصوص التوراة المتوارثة مليئة باسماء مواقع وبلدان لم تكن مألوفة لدى يهود اسرائيل لان تلك الاسماء كانت تخص مواقع وبلدان في غربي الجزيرة العربية ، وبعد ٥٠٠ ق.م تقلص عدد اليهود في غربي الجزيرة العربية تقلصا شديدا بحيث لم يبق منهم الا اقلية ضئيلة ، ويبدو انه لم يعد بين

صفوف هؤلاء علماء يتمكنون من مساعدة اخوانهم في الدين في فلسطين وبابل في فك طلاسم المواقع والبلدان وتصحيح لفظها لهم . يعتقد كمال الصليبي انعوامل سياسية ايضا فعلت فعلها في محو ذكريات اليهود بعسير ، ففي جنوب غربي الجزيرة العربية صعدت جماعات جديدة مثل المعينيين ، وفي ظل هؤلاء فقد اليهود تماسكهم وقد يمكن ان يكون وصولهم الى البلد الجديد فلسطين ومنثم صعودهم فيمابعد قد محا ذكرياتهم القديمة عن عسير .

تحقق لاسرة الاشمونيين في القرن الثاني قبل الميلاد ، بعد ثورة ناجحة على الحكم السلوقي ، الوصول الى فلسطين ، حتى الجزء الجنوبي من الجليل وفي هضاب شرقي الاردن . وفي ضوء هذه المكاسب التي دفع اليهود ثمنا غاليا لها قد يبدو ان التفكير بعسير صار مزعجا لهم ، فالارض الجديدة يجب ان تحل مكان القديمة وكل تشكيك في ملكية الوطن الجديد لم يعد مرغوبا فيه .

اذا اراد الصليبي أن تتعزز اسس نظريته فلا بد لعلماء التوراة ان يستعدوا للاجابة على سلسلة من الاسئلة . وعلى الرغم من ان المسائل الدينية في التوراة لن تتبدل لان المؤمن الديني سيان لديه اذا كانت الوصايا العشر قد نزلت على موسى في هذا المكان او ذاك ، ففي نهاية المطاف ستبقى التوراةتوراة وسيان مكان نزولها ، هكذا يقول كمال الصليبي . غير انه من المؤكد ايضا ان هناك الكثير من الناس ممن يرون في نظريته عدوانا على هويتهم الدينية والاجتماعية او السياسية .

فاليهود شعب عربي ... رئيس وزراء اسرائيل وملك المملكة العربية السعودية اخوة ، ارض الميعاد ليست فلسطين بل جزء من المملكة العربية السعودية ، تاريخ اسرائيل في فلسطين يتقلص حوالي الف عام ، كل هذه الامور لو صحت ستكون كابوسا علىالاقل على اصحاب الخط المتصلب الذين لا يكتفون بتبرير جود الدولة الاسرائيلية بل والاحتلال الاسرائيلي لقطاع غزة والضفة الغربية بالاستناد الى التوراة . فاليهود المتعصبون لا يرون ان الله عقد حلفا مع شعب اسرائيل وحسب بل ومع ارض اسرائيل (اسرائيل الكبرى) . يضاف الى ذلك ان الليبراليين من الاسرائيليين شعروا بالارتباك نتيجة لنظرية كمال الصليبي فهم كانوا يبحثون في الخفاء عن تأكيد تاريخي قديم بقدر الامكان على استمرارية تاريخ بني اسرائيل ، فاذا استطاع علماء الاثار ان يعثروا على دليل اثري يؤكد وجود اسرائيل في فلسطين منذ ايام يشوع فان اسرائيل اليوم ستعتبره دليلا اضافيا على شرعية وجودها .

لكن حتى العرب المتصلبين قد يجدونفي في نظرية كمال الصليبي نوعا من الاساءة اليهم ، فالسورة (٢١) والسورة (٧١) في القران الكريم تعتبر ان فلسطين الارض التي جعلناها مباركة للناس اجمعين . ومنذ فتح المسلمين لفلسطين في القرن السابع الميلادي

صاروا يطالبون بفلسطين الجغرافية ، وصارت القدس ثالث الحرمين بين مكـةوالمدينة وذلك بسبب احداثها التوراتية بالذات ، والتي جاء كمال الصليبي الان لينقل مسرحها من القدس الى العربية السعودية .

غير ان المسيحيين هم اقل الاطراف انزعاجا من نظرية كمال الصليبي . فالنظرية لا تمس المسيح والعهد الجديد ، لاسيما وان المفسرين في السنوات الخمسين الاخيرة قد اشبعوهما دراسة . اما التوراة ككتاب فقد عززت مكانته نظرية كمال صليبي ولا بد ان العديد من اسماء المواقع والبلدان التي كانت مسرحا للاحداث التوراتية والتي لم يتمكن العلم من تحديد مكانها الجغرافي حتى الان ، اصبحت اماكنها معروفة بدقة اكثر بفضل هذه النظرية .

لكن ماذا في نظرية الصليبي من خروج عن المألوف ، هل الاكتشافات اللغوية (اسماء البلدان والمواقع التوراتية في خارطة عسير) واستنتاجات المراقب الحيادي مجرد مصادفات ولعب بالكلمات وخواطر جريئة . ان مثل هذه الامور لا تتبدى الا بعد المناقشة الجدية للنظرية . وحتى اذا تبين بان نظرية الصليبي لا تستند الى اسس صحيحة كليا او جزئيا ، فانه سيبقى له الفضل في وضع اشارة استفهام جديدة امام عدد من التفسيرات الدراجة للاحداث التوراتية .

كان حكم علماء الاثار التوراتية ممن قرأ الكتاب رافضا للنظرية ، وذلك مثل البروفيسور اوسفالد لوريتس الاستاذ في العهد القديم والعلوم الاوغاريتية في قسم اللاهوت الكاثوليكي بجامعة مونستر بالمانيا الاتحادية منذ ١٩٦٧ . فهو من المختصين في الدراسات الاوغاريتية ، واوغاريت موقع اثري في شمالي سورية وقد تم العثور فيه منذ ١٩٢٩ على نصوص مسمارية سومرية واكادية وحورية واوغاريتية . وحكم البروفيسور لوريتس على نظرية الصليبي هو التالي :

ان عملية نقل احداث التوراة الى مسرح عسير تهمل الادلة غير التوراتية التي يؤكد جزء منها على ان فلسطين الحالية هي نفسها فلسطين يشوع وسليمان ، وبالتالي لابد ان تكون ارض كنعان في منطقة فلسطين الحالية وذلك وفقا للوثائق الاوغاريتية والفنيقية والاشورية والبابلية والمصرية ، والا لن يكون لتلك الوثائق اي مغزى . كما ان منهج كمال صليبي في البحث عن الاسم البلداني العربي المناسب للاسم البلداني التوراتي يستند كليا الى لعب قسري باللغتين العربية والعبرية ، ولا يظهر الا عملية لعب بالكلمات . وعلى اساس مثل هذا المنهج يمكن لاي انسان ان يبرهن على وجود فلسطين في اي بقعة يختارها من بقاع العالم العربي ، كذلك يكرر الصليبي على الطريقة العربية الفرضية القديمة المتعلقة بهجرة اسرائيل الى كنعان ، فهو ينقل الهجرة الى الجزيرة العربية ويفعل ذلك وفق الطريقة المتميزة في التفكير العربي ، اذا يهمل نتائج

التحريات العلمية الحديثة اهمالا تاما . تلك التحريات التي اقرت بنشوء اسرائيل في ارض كنعان .

وممن يقفون موقف الرافض من نظرية صليبي في الجانب البروتستانتي نذكر البروفيسور فولكمار فريتس ، استاذ المعهد القديم والاثار التوراتية والمنقب في عدد من التنقيبات الاثرية في اسرائيل ، وهو يقوم منذ ١٩٨٢ بالتنقيب الاثري في تل العريمي (كينيريت التوراتية) قرب بحيرة طبرية . وعلى الرغم من ان البروفيسور فريتس يعترف بان نتائج التحريات الاثرية في فلسطين ضحلة فيما يتصل بالفترة الواقعة بين ١٥٠٠ — ٥٠٠ ق.م ، لكن اذا جمعنا المأثورات والوثائق غير التوراتية معما تم اكتشافه حتى الان نجد ان الحصيلة تؤيد فلسطين اكثر مما تؤيد لعبة الصليبي بالالفاظ بالقياس الى عسير . فقد تحقق مثلا وجود قرابة ثلث الاسماء البلدانية الوارد ذكرها، وسدس اخر نجد الدليل علىصحة موقعه في فلسطين في مصادر غير توراتية ، مثل النصوص المصرية من الالف الثاني قبل الميلاد . ويخلص البروفيسور فريتس الى النتيجة التالية :

اذا اراد اي زميل لنا ان يتصدى للتاريخ باجمعه وان يقلب الاراء المتعارف عليها رأسا على عقب فلابد له ان يتقدم بحجج ممتازة ، وعليه أن يبرهن بانه على حق . وما من شك ان المادة التييطرحهاالصليبي طريفة للغاية الا انها لا تحمل النظرية التيتقوم عليها . فهو يهمل الادلة التاريخية والجغرافية والاثرية.

لذلك لا غرابة اذا كان الاختصاصيون الاسرائيليون قد نظروا الى نظرية الصليبي بطرة شك منذ البداية وقبل ان يقراوا كتابه . فالبروفيسور **ابراهام مالامات** ، استاذ التاريخ التوراتي في الجامعة العبرية بالقدس يعتبرها « فكرة متمادية » وخرقاء .أما **موشيه كوخاوي وداڤيد اوسيشكين** ، وهما عالما اثار مرموقان في جامعة تل ابيب ، فيعتبرانها « طائشة » و « مضحكة » و « سياسية الغرض من الفها الى يائها » .

يقوم كوخاوي بالتنقيب الاثري في موقع آفق / انتياتريس منذ ١٩٧٢ ، واوسيشكين في موقع لاخيش منذ ١٩٧٣ . وهما لا يعترضان على احتمال الوجود اليهودي في عسير قديما لكن ذلك الوجود ، برأيهما ، جاء نتيجة لهجرة يهودية من فلسطين الى هناك ، وذلك في اعقاب الفتح الاشوري والبابلي لفلسطين بين القرن التاسع والقرن السادس قبل الميلاد.

ان الوحيد الذي ابدى موقفا ايجابيا من نظرية الصليبي عندما سئل ، هو عالم الاثار التوراتية البريطاني جون جيبسون ، فهو يعترف بان اجزاء من كتاب صليبي قد « سلبت البابه » . غير ان علماء اللسانيات تناولوا النظرية بالنقد ايضا

فالبروفيسور **فيرنر ديم** ، استاذ فقه اللغةالعربية في جامعة كولونيا بالمانيا الاتحادية يرى بان صليبي يفتقر كليا الى المنهجية في معالجته للامور ، وطريقتهفي التوفيق اللفظي بين الاسماء العربية والاسماء العبرية ضرب من ضروب الهوى والغي، كما ان الريبة تكتنف كل حلقة في سلسلة البراهين التي يسوقها .

اما البروفيسور **يوشع بلاو** ، استاذ الساميات في الجامعة العبرية بالقدس، ومن المع الاختصاصيين في هذا المجال ، فانه لا يريد ان يدلي بحكمه على النظرية الا بعد ان تكون الاسماء قد صنفت تصنيفا دقيقا وفق توافق مقارناتها وتم تقييمها تقييما احصائيا ، عندئذ سنرى ما اذا كانت ستصمد من الناحية اللسانية .

غير ان استاذ الفقه العربي والتاريخ الاسلامي في جامعة هامبورغ البروفيسور **البريشت نوت** يقف موقفا اقل تحفظا من غيره من نظرية الصليبي ، اذ يقول : فعلا ثمة اسماء بلدانية كثيرة العدد في عسير تكشف عن وجود قرابة ظاهرة مع اسماء بلدانية في اماكن مختلفة من صفحات العهد القديم ، كما ان عملية الصليبي المعقدة للتوفيق بين المجموعتين العسيرية والتوراتية مقبول عادة من الناحية اللسانية ومن ناحية تاريخ اللغات ، لاسيما وانه قد تبين عدم صحة الحجة المضادة بانه من الممكن اكتشاف تشابه بين الاسماء البلدانية التوراتية من جهة وبين اسماء بلدانية في اي بلد عربي من جهة ثانية .لذلك فانه من المحتمل جدا الافتراض بوجود علاقة (مهما كان نوعها) بين الاسماء البلدانية التوراتية والعسيرية .. وسيكون من واجب الباحثين في المستقبل تفسير اسباب ذلك التشابه في الاسماء . ويرشدنا البروفيسور نوت الى الطريقة التالية : من الممكن التفكير مثلا بوجود بقايا صور عسيرية تسللت الى التراث التوراتي عن طريق فئة او طبقة معينة من الاسرائيليين المتأخرين الذين كانوا يشكلون خليطا غير متجانس ، ومع هذا قد تظهر معادلات تأويلية اخرى لا تخطر على بال او على خاطر .

اكد البروفسور **أوتو ياسترو** ، استاذ الساميات وفقه اللغة العربية في جامعة ارلانغن بالمانيا الاتحادية على ان اكتشافات الصليبي للاسماء البلدانية تستحق الدراسة والبحث ، فهو ايضا يرى ان التشابه اللفظي الموجود بين الاسماء البلدانية العسيرية والتوراتية العبرية واضح بشكل كاف ومنتظم بحيث يبدو التوافق بينهما محتملا جدا .

غير ان الاسماء البلدانية العسيرية ليست عبرية بل تحتفظ ، مع تعديل طفيف، بشكل لفظي سامي اقدم عهدا من العبرية ، وهي من الناحية اللغوية أقدم عهدا من الاسماء التوراتية ، لذلك فانه يجوز لنا الاعتقاد بان العبرانيين قد جلبوا تلك الاسماء البلدانية كجزء من تراثهم اللغوي من عسير الى فلسطين ، ثم شهدت تلك الاسماء التطور الذي شهدته العبرية ..

غير ان المستبعد في الامر ان تكون الاسماء البلدانية الحالية في عسير لفظا عربيا للاسماء التوراتية ، اي ان تكون تلك الاسماء قد وصلت الى عسير من فلسطين ، لان

الصيغة اللغوية الاحدث عهدا لا يمكن ان تتحول الى صيغة اقدم عهـدا . واذا قيض لاسماء بلدانية النبات في غير مكانها الاصلي فانه لا يمكن ان يحدث ذلك الابانتقالها من عسير الى فلسطين ولعل ذلك تم بوساطة يهود عسير الذين اسسوا مواطن لهم في فلسطين واطلقوا اسماء مواطنهم السابقة على مواطنهم الجديدة من باب الاحتفاظ بذكريات الوطن الاصلي . وان مثل هذا الافتراض يتفق مع نظرية الصليبي والقائلة بان يهودا من عسير هاجروا في حوالي /١٠٠٠/ ق.م باتجاه الشمال واستقروا في فلسطين .

وثمة مشكلة لغوية اخرى في نظرية الصليبي لم تجد لها حلا حتى الان . فاذا كانت الاحداث التوراتية بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠ ق.م قد جرت في عسير السعودية فلابد ان تكون اللغة العبرية دارجة هناك ، الى جانب ما يسمى باللغات الحجازية . وفي حين يعتقد الصليبي بذلك نجد البروفيسور ياسترو يفترض بان الاشكال البدائية للعبرية التوراتية كانت دارجة في عسير في كل الاحوال ، وبعد ذلك بعدة قرون جرى تدوين الاحداث التوراتية باللغة العبرية التوراتية المتاخرة ، غير ان ما يبدو اكيدا في تحليل البروفيسور ياسترو ان الصورة العلمية اللغوية لذلك الزمان وان كانت معالم حدودها غير واضحة جدا ، لا تتعارض مع نظرية الصليبي .

لعل علماء اللغات من اشد الذين يشقون الطريق لنظرية الصليبي فهم ، خلافا لعلماء اللاهوت ، يتحررون في غالبيتهم من مشاق التغلب على الاحكام المسبقة من الناحيتين الدينية والقومية .

وثمة عقبة اخرى تعترض طريق الاكثرية من علماء التوراة وهي عدم درايتهم دراية كافية باللغات القديمة فالغالبية منهم تعرف اللغة العبرية ويدعون انهم متمكنون منها ، كما يقول الاستاذ لوريتس .

يتوقع كمال صليبي بان يعاني زملاؤه من حدود امكاناتهم مثلما يعاني من حدود امكاناته ، ففي البدء سيحاول هؤلاء ، والكلام للصليبي ، تجاهل نظريتي بكل بساطة ، واذا لم يتحقق لهم ذلك فسيحاولون السخرية منها ، واذا لم يتحقق لهم ذلك ايضا فانهم سيناقشوها ، وهذا ما ارمي اليه .

لا نعرف بعد نتائج مثل تلك المناقشة طالما ان علماء اللغات وعلماء الاثار لم يقوموا بتحريات واسعة في عسير . وحتى عالم الاثار التوراتي فريتس الذي يتخذ موقف المتشكك من النظرية ، يعترف بانه قد يوجد في عسير اثار لم تكتشف حتى الان والتي قد تكون ذات دلالة للتاريخ التوراتي . وقد نسخر الان من نظرية الصليبي ولكن قد نضطر جميعا الى الحج الى عسير بعد عشرين سنة .

مؤتمرات تاريخية

المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الآشوريات

انعقد في باريس ، في الفترة بين ٧و ١٠ تموز ١٩٨٦ ، المؤتمر الدولي الثالث والثلاثون لعلماء الاشوريات حول « المراة في الشرق الاوسط في العصور القديمة » شارك فيه اكثر من مائتي باحث وباحثة ، والقي فيه خمسة وثلاثون بحثا تناولت تاريخ المراة في شرقنا العربي وما جاوره من بلدان، من خلال الوثائق المسمارية فحسب. وهذه البحوث التي كتبت بلغات باحثيها ، وهي الفرنسية والانكليزية والالمانية ، ستنشر في باريس خلال عامين باشراف مركز الابحاث والدراسات الشرقية الفرنسية.

ومما تجدر الاشارة اليه غياب العرب التام عن مثل هذه المؤتمرات العلمية التي تبحث في تاريخنا القديم .. وقد ساهمت جامعة دمشق مشكورة في جزء من نفقات سفري للمشاركة في هذا المؤتمر ببحث عن **المراة في مملكة يمحاض (حلب) في القرن الثامن عشر** .

ولعل عرضا سريعا للبحوث التي القيت في المؤتمر يحفزنا على بذل المزيد من اجل مشاركة المتخصصن العرب فيه ، وفي المؤتمرات الاخرى المماثلة ، بل الدعوة لعقدها في بلادنا ، لان علم الاشوريات علم يبحث في تاريخنا القديم اولا واخرا ، فحري بنا ان تكون من اوائل المشاركين في ابحاثه لان من يكتب التاريخ هو الذي يمتلكه ، ونحن للاسف لم تكتب تاريخنا القديم الذي يمتد الى خمسة الاف عام ، وقد آن الاوان لدخول هذا الميدان الذي يسيطر على قسم كبير منه متخصصون توراتيون وصهاينة متعصبون ، اشبعوا هذا التاريخ دراسة وتمحيصا ومقارنة مع توراتهم بقصد امتلاكه ونسبته اليهم ، كورثة لكل التراث القديم .

فهل يتنبه العرب الى هذه المعركة الصامتة والخطيرة ..

١ ــ باولين البندا Pauline Albenda

صور للنساء والاطفال والعائلة في الفن الاشوري .

٢ ــ بينهاس ارتسي Pinhaz Artzi

الزواج السياسي واثره على العلاقات الدولية في عصر تل العمارنة.

٣ ــ جوليا م. اشر ـ غريف Julia M. Asher - Greve

الكاهنة والحلم . وهو دراسة في اختام السلالات الاكادية الاولى ، حيث تظهر مشاهد هامة ذات دلالة دينية . وتفسر هذه المشاهد على انها احلام مثلت على تلك الاختام ، يصور احدها امرأة ، يعتقد انها كاهنة أو الهة ، مضطجعة على سرير وبجانبها ذكرين وانثى .

٤ ــ ن.ب. جان كوفسكا : E.K. Astakhishvili, N.B. Jankovska

الملكة والكاهنة ، دراسة مقارنة للمرتبة الاكادية « ملكة وكاهنة» في نصوص مدينة نوزي وفي المعطيات الدينية في العصور الباكرة .. في المناطق المجاورة لمنطقة الرافدين السفلى .

٥ ــ زفريدا بن برك Zafrira Ben Barak

الملكة الزوجة والصراع على خلافة العرش . ويدور البحث حول محاولات الملكة الزوجة وام وريث العرش للاستئثار بالسلطة وحكم المملكة من قبلها مباشرة . الامثلة مستمدة من الممالك القديمة على الشاطىء السوري.

٦ ــ اليزابيت كارتر Elisabeth Carter

استعراض لاخر نتائج التنقيبات في موقع مدينة لاجاش جنوبي العراق .

٧ ــ دومينيك شاربن Dominique Charpin

شوبات انليل وبلاد ابوم . يتحدث الباحث عن اخر حفريات تل ليلان في شمال سورية ، ومحاولة ايجاد موقع شوبات انليل التي كانت عاصمة لشمشي ادد الاول مؤسس الدولة الاشورية الامورية . وهويعتقد استنادا الى ان اسم شوبات انليل كان شيخنا في نصوص تل براك . أن تل ليلان التي تجري فيه الان حفريات اميركية هو المرشح لان يكون شوبات انليل القديمة وعاصمة دولة آشور الاولى .

٨ ــ دوغلاس فراين Douglas Frayne

وراد ــ سين وعرش نانا . وهو دراسة لنصين وجدا في مدينة اور ، يصفان عرش الالهة نانا . واهمية ذلك تعود الى امكانية مقارنته مع وصف العروش الملكية التي وجدت في نصوص اخرى .

٩ ــ بيلو فرانزارولي Pelio Fronzaroli

بحث في تركيب اسماء العلم المؤنثة في نصوص ابلا. وهي دراسة لغوية مقارنة للاسماء المؤنثة التي نشرت حتى الان في نصوص ابلا .

١٠ ـ اندريو جورج Andrew George

ختم الحظ والقدر . دراسة عن طبعة لختم يعتقد بانه مصنوع من قبل سنحريب بعد مقارنته بكتابة جديدة لهذا الاخير .

١١ ـ يوحنا غرين فيلد Jonas C. Greenfield

اسماء نساء ، عرفن من خلال نصوص ادبية متأخرة . والبحث يحاول القاء الضوء على اسماء النساء التي وجدت في نصوص العصر البابلي الحديث والنصوص الارامية ، وهي الفترة المواكبة لكتابة التوراة والاسماء التي وردت فيها .

١٢ ـ م. هيلتزا M. Heltzer

شكنتو الاشورية وسكنت التوراتية . محاولة لا تخلو من الحقيقة وهي تقريب لقب شكنتو الاشورية وسكنت العبرية وساكنة العربية . وهي وظيفة امراة في بلاط الاشوريين يحاول الباحث هنا تشبيهها بوظيفة أبيشاح الشونمية ، تلك الفتاة التي كانت تؤانس الملك داود عندما شاخ وطعن في السن وتضطجع في حجره ليدفأ ، (سفر الملوك الثالث ـ الفصل الاول ١ـ٥) . والمقارنة هنا مع المصدر الاكادي /شكن/ والذي يقابله بالعبرية والعربية (سكن) اما شكنتو Sakintu الاكادية ، فهي لقب محدد لوظيفة امراة في البلاد الاشورية تتولى شؤون الحريم وذات نفوذ لا يستهان به . والمحاولة هنا بقصد تقريب التوراة من التاريخ الاشوري وبالتالي الظهور بمظهر المتملك لهذا التاريخ .

١٣ ـ فرانسيس جوانس Francis Joannes

الزواج للمرة الثانية في العصر البابلي الحديث . موشـذب ـ بل من نسل (ابا ايلوتا باني) ، وهو من اعيان مدينة بورسيبا ، كان هذا الرجل متزوجا من « خبيست » ارملة اخيه البكر واسمه ادين ـنبي ، وتزوج بعد موت زوجته من ابنة اخ او اخت بالمصاهرة .

ان مواجهة مثل هذا الزواج العائلي في المحفوظات المسمارية العائلية تدل بوضوح على مخطط عائلي كي لا تبدد الاسرة ثروتها وممتلكاتها . والباحث يقدم نصوصا جديدة تدعم بحثه .

١٤ ـ ج.ب جوزيفوف J.B. Jusifov

المراة في الفن الاذربيجاني القديم . ظهر ، بعد سقوط السلالة الاخمينية في نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، ما يسمى البانيا القوقازية ،التي تميزت بحضارة متطورة ونظام نقدي واقتصادي هام . ظهر في تلك البلاد بعد التنقيبات الاثرية الكثير من التماثيل الصغيرة بهيئة امراة يعتقد بانها الهة الخصب . بالرغم من ظهور

المسيحية ثم الاسلام فان تلك العبادة لم تختف تماما .

١٥ ـ جاكوب كلاين Jacob Klein

ولادة ولي العهد في المعبد رواية الادب السومري ـ في عصره الجديد « الانبعاث السومري » .

تروي النصوص السومرية الادبية الدينية ان شولجي الملك السومري ولد بمعجزة في المعبد والمشكلة المطروحة هي في تفسير النص ، فهل يعني النص السومري ولادته بتدخل الهي ، ام انساني . .والبحث يقدم لنا وجهة نظر المؤلف .

١٦ ـ صموئيل نواه كرامر Samuel Noah kramer

المراة في الشرق القديم من خلال الادب السومري . وهو بحث القصد منه تكوين فكرة عامة عن موقع الام ، والبنت والاخت والزوجة ، والعذراء البتول في الادب ، وبالتالي المجتمع .

١٧ ـ برتراند لافون Bertrand Lafont

بنات زمري ـ ليم ملك ماري او سياسته في الزواج . دراسة لاحدى عشرة بنت للملك زمري ـ ليم ملك ماري . والباحث هنا يستعرض وثائق جديدة غير منشورة توضح اكثر وأكثر سياسة زمري ليم في تزويج بناته الى نوابه في المناطق والمقاطعات وفق سياسة مرسومة للسيطرة على البلاد .

١٨ ـ ماريا هيلينا لوبس . Maria Helena Lopes

دور المراة في مصر القديمة . والبحث دراسة الاوضاع المراة من خلال الاسطورة والملحمة والصلوات المصرية القديمة .

١٩ ـ بيوتر ميشالوفسكي Piotr Michalowski

الاميرات والسلطة والسياسة .وهو استعراض للزيجات السياسية في عصر اور الثالثة او عصر النهوض السومري . ويبرز الباحث أهم زيجتين لاميرتين اصبحتا ملكتين لمدينتي سيمانوم وخمازي.

٢٠ ـ هـ . نويمان H. Neumann

ملاحظات حول موقع المراة الاجتماعي والحقوقي في العصر السومري الجديد . تعتمد هذه الدراسة بشكل خاص على قانون اورنامو في نهاية الالف الثالثة قبل الميلاد.

٢١ ـ السندرا نيبي Alessandra Nibbi

السيدة خطيبا Hatiba **سيدة آلاشيا** Alashiya **في حكاية المراة المصرية .**

البحث يدور حول قصة مصرية عن امراة تدعى خطيبا قامت برحلة في المنطقة .. والباحث يقترح تحديد هوية المناطق والمدن المذكورة في الرواية المصرية .

٢٢ ــ مارفن هـ . بوب Marvin H. Pope

القدرة الخارقة (فوق الطبيعة) للدور البطولي الانثوي في اناشيد الملك سليمان في التوراة . هذه الاناشيد المنسوبة الى الملك سليمان والتي لا علاقة لها به ولا بعصره ربما كانت مستمدة من اناشيد اكثر قدما .

٢٣ ــ اديت بورادا Edith Porada

المذكر والمؤنث في الايقونات الايرانية القديمة.

٢٤ ــ جان بوفل Jaan Puhvel

خلف وولد باللغة الحثية . وهو بحث لغوي مقارن حول معنى هاتين الكلمتين وصلتهما بالفعلين ذاتهما في الاغريقية واللاتينية .

٢٥ ــ جوليان رد Julian Reade

سنحريب والمراة . هنالك وثائق منشورة وغير منشورة تدل على ان لهذا الملك موقف تعاوني خاص تجاه المراة .

٢٦ ــ غرد شتاينر Gerd Steiner

المراة المغوية في الشرق القديم ، وهي من المظاهر التي اغنت الادب القديم . وهناك المراة المتزوجة والغانية والكاهنة ، ولكل منهن غوايتهن .

٢٧ ــ فلاديمير س . تومان Vladimir S. Tuman

ثلاث كدور Kudurru **مكاييل اكادية في متحف اللوفر، وعيد المنقلب الصيفي .** دراسة حول تحديد عيد المنقلب الصيفي من خلال تقدير أعمار تلك المكاييل .

٢٨ ــ كلاوس فيلك Klaus Wilcke

شقيقة الزوج . ان الادب السوري منذ العصور المبكرة يبرز مكانة شقيقة الزوج . وتظهر لشقيقة انليل أهمية خاصة في الزواج .

٢٩ ـ اليزابت وليامس Elizabeth williams

بعض الملاحظات حول طبقات الاختام من عصر ماري ، ومحاولة لدراسة صورة الالهة المؤنثة عليها كفن سوري قديم .

٣٠ ـ ارين ج.ونتر Irene J. wenter

المراة في الحياة العامة . يظهر دور المراة ككاهنة كبرى منذ السلالات الاولى ، وفي العصر الاكادي تظهر لنا شقيقة صارغون ككاهنة . وبصورة عامة كانت مكانة المراة ضعيفة في الحياة العامة .

٣١ ـ يوهنغ يو Yuhong wu

كتابة مسمارية منسوخة عن الختم الاسطواني لقورش . دراسة مقارنة بين تلك الكتابة التي وجدت عام ١٩٨٣ منقوشة على عظمة حصان . والكتابة الاصلية الموجودة في المتحف البريطاني.

٣٢ ـ مينا زوغرافو Mina zografou

اشارات تدل على وجود مجتمع نساء (فقط) في الشرق القديم . محاولة لاثبات وجود مؤسسات نسائية تعيش مستقلة عن المجتمع المختلط . وهذه الدراسة لا تمتلك مستندا مباشرا ، وانما دلائل غير مباشرة وغير أكيدة من الملاحم الادبية والدينية .

٣٣ ـ مارك جيلر Mark geller

((ارادت ليلي)) امراة مغوية . بعض النقاش حول تلك المراة التي تحدثت عنها النصوص السومرية .

٣٤ ـ دورينغ كاسبر E.C.L. During Caspers

الحصان المقرن في وادي الهندوس . تهدف الدراسة الى اثبات ان الاختام على شكل حصان مقرن لها اصل من بلاد الرافدين .

٣٥ ـ فيصل عبد الله

المراة في المملكة الحلبية/اليمحاضية في القرن ١٨ ق.م . يبرز البحث الدور الهام الذي لعبته المراة الحلبية في السلطة ،وكذلك عادات ومراسيم الزواج ، واهمية الزواج السياسي مع امثلة على ذلك (نشرنا ترجمة البحث في هذا العدد).

د. فيصل عبدالله

الهجرة الجزائرية إلى بلاد الشام في مطلع القرن العشرين (١٩٠٩ ـ ١٩١١)

نادیا طرشون
مرشحة للماجستير

اختلفت الهجرة الجزائرية التي حدثت في مطلع القرن العشريـن (١٩٠٠–١٩١١) الى بلاد الشام في بعض اوجهها ، عن الهجرات السابقة التي حدثت على امتداد النصف الثاني من القرن التاسع عشر واشتدت في نهايته .

صاحب الهجرة هذه المرة مظاهر جديدة ، تمثلت اولا في الاهتمام الذي اولتـه الصحافة الفرنسية ، سواء تلك الصادرة في باريس او الصادرة في الجزائر ، وعلى رأسها صحيفةLe Tempsالباريسية فقد كتبت هـذه الصحف عن ظاهـرة الهجرة الجزائرية التي دفعت بالاهالي المسلمين الى التخلي عن بلادهم والبحث عن ملجأ لهم في بلاد اسلامية اخرى .

وابدى الكثير من الكتاب والصحفيين الفرنسيين ذوي الاقلام الحرة اسفهـم على الوضع الذي آلت اليه مستعمرة الجزائر ، فكثرت المقالات في الصحف والمجلات لتفسير وتحليل الاسباب التي دفعت بالاهالي الى اختيار الهجـرة ، واتجه هؤلاء الكتاب للكشف عن الحقائق وابرازها للرأي العام ، لان التقارير الرسمية التي تصدرها الحكومة لا تكشف عن الاسباب الحقيقية ولا تجرؤ على ذكرها ؛ وبذلك برزت لاول مرة انتقادات الصحافة الفرنسـية للسياسة والاسلوب المستبد الذي تنتهجه الحكومـة العامة بالجزائر لادارة شؤون الاهالي المسلمين ، فبينوا من خلال كتاباتهم ان اسبـاب الهجرة داخلية اكثر منها خارجيـة ، وذلك على عكس ما كانت تدعيـه الحكومـة في تقاريرها من ان السبب خارجي وليس داخليا .

والامر الجديد الثاني تمثل في ظهور صحافة محلية غير رسمية بدأت في الظهور مع مطلع القرن العشرين في انحاء مختلفة من الجزائر(١) . وهذه الصحافة ، وان كانت ناطقة باللغة الفرنسية ويديرها فرنسيون ، الا ان بعضها حمل لواء الدفاع عن حقوق الاهالي وتصدى لفضح اساليب بعض الموظفين الاداريين ونوابهم من الاهالي .

اما الاسباب الدافعة للهجرة فقد كانت استمرارا للاسباب السابقة ، وزادت عليها اسباب جديدة تمثلت في القوانين التي اصدرتها السلطات الاستعمارية في الجزائر في مطلع القرن العشرين ، ومنها قانون فصل الدين عن الدولة الذي اصدرته الحكومة الفرنسية بحق الدين الاسلامي في الجزائر سنة ١٩٠٧ ، وقانون التجنيد الاجباري الذي شرع في تطبيقه سنة ١٩١٠ . فقد اجبر هذان القانونان عند الشروع في تطبيقهما المئات من سكان المنطقة الغربية والوسطى وكذلك المنطقة الشرقية ، الى اعتبار الهجرة السبيل الوحيد الذي ينقذهم مما هم عليه ، مثلما انقذ الذين هاجروا في السابق . كما لعبت الدعاية لمشروع الجامعة الاسلامية والتي اشتدت في مطلع القرن العشرين ، دورا كبيرا في تأجيج الشعور بالاخوة والتضامن الاسلامي والالتفاف حول الخلافة العثمانية ردا على استفزازات الدول الاوربية الهادفة الى السيطرة على كل البلاد الاسلامية .

ولكن ، ونتيجة للاجراءات المتشددة التي اصبحت تمارسها السلطات الفرنسية على الحدود الجزائرية ــ التونسية والجزائرية ــ المغربية ، ومنع المسلمين الجزائريين من اداء فريضة الحج مدة اربع سنوات (١٨٩٨ ــ ١٩٠١) اي منع خروج جزائري مسلم من الجزائر ، توقفت ، او بعبارة اخرى قلت الهجرة الجزائرية الجماعية ، ولم تسجل السلطات الفرنسية في الجزائر ولا المراسلات القنصلية من دمشق وبيروت أي نزول لجماعات جزائرية في بلاد الشام حتى عام ١٩٠٩ .

قانون فصل الدين عن الدولة : La Loi de Separation

لم يبق الاهالي المسلمون في الجزائر مكتوفي الايدي تجاه القوانين والتنظيمات التي بدات السلطات الفرنسية على اصدارها بدعوى تنظيم احوال الجزائريين الاجتماعية والقانونية(٢) ، بل ابدوا معارضتهم ورفضهم لكل قانون يمس معتقداتهم وشخصيتهم الاسلامية بعد ان افقدتهم القوانين السابقة اراضيهم واملاكهم .

ويمكن القول ان اكثر القوانين التي اثارت حفيظة الاهالي في مطلع القرن العشرين كان القانون الخاص بفصل الدين عن الدولة ، الذي قررت الحكومة الفرنسية العمل به ابتداء من سنة ١٩٠٧ . والمعروف ان الاسلام لا يعرف فصلا بين الدولة والدين ولكن فرنسا قررت تطبيق قانون الفصل الذي تتبعه في فرنسا على المسلمين في

الجزائر . واهم ما تعرض له قانون الفصل هذا هو توقف السلطات الفرنسية في الجزائر عن اشتراكها في رعاية المساجد وبنائها .

ومعلوم ان السلطات الفرنسية استولت على كل الاملاك العامة بعد الاحتلال مباشرة ومن بينها الاوقاف التي كان المسلمون يخصصونها لصيانة الجوامع ومساعدة الفقراء وابناء السبيل ، ومنها ما كان مخصصا للحرمين الشريفين ، فالحقتها بأملاك الدولة (٣) ، على ان تتحمل هي مسؤولية الجوامع والمساجد مثل الانفاق على بعض الاصلاحات وتعيين مرتبات للائمة وغير ذلك . . الا انه باستيلاء السلطات الاستعمارية على الاوقاف لم تعد هذه تعطي مردودها السابق وضعف شأنها لان الفرنسيين كانوا يؤجرونها مقابل فوائد بسيطة ، واصبحت الديانة الاسلامية تحتل مرتبة اقل من المرتبة التي تحتلها الديانة اليهودية والتي اصبحت تحت حماية الحكومة الفرنسية منذ عام ١٨٤٥(٤) .

وبقي الحال كذلك الى سنة ١٩٠٥ حين قررت الحكومة الفرنسية النظر في امكانية تطبيق قانون الفصل في الجزائر ، فعرض المشروع على التصويت في البرلمان الا انه لقي معارضة شديدة من طرف بعض النواب ، وبفضل تدخل من النائب البان روزيت تم تحاشي تطبيق القانون الفرنسي كلية في الجزائر ..

ولكن المؤيدين لتطبيق قانون الفصل استمروا في حملتهم وعلى رأسهم الحركة الماسونية الفرنسية ، فاعيدت المسألة للمناقشة في مجلس النواب سنة ١٩٠٧ وتقرر هذه المرة تطبيق القانون مع التزام الحكومة العامة بالجزائر بتقديم تعويضات مؤقتة خلال اربع سنوات « لرجال الدين المسلمين » والسماح من جهة اخرى باقامة رابطات دينية Associations Cultuels تكون مهمتها رعاية المساجد وتوزيع المرتبات والاشراف على المؤسسات الدينية عامة وتنظيم الاحتفالات في المناسبات وتعيين الائمة وغير ذلك ... ويكون مديرو هذه الجمعيات الدينية واداريوها من الفرنسيين ، ويمنع كل تجمع سياسي او خطبة تتعرض بسوء للسلطة الفرنسية(٥) .

وشيئا فشيئا وبعد التطبيق الفعلي للقانون وجدت الحكومة العامة في الجزائر زمام الامر يفلت من يدها وادركت انها ارتكبت خطأ عندما نزعت سلطتها عن المساجد والائمة في الجزائر . واعلم الحاكم العام « جونار » وزارة الداخلية الفرنسية بذلك ولاحظ . . ان المصلحة العليا لفرنسا في الجزائر تقتضي الاحتفاظ بسيطرة مباشرة على ممارسات وانشطة المؤسسات الدينية وهذه السلطة يجب ان تتمثل في حقنا في ممارسة التعيينات(٦) .

ومن سلبيات قانون الفصل هذا ان المساجد اصبحت عرضة للخطر اكثر من

اي وقت مضى اذ رفضت المجالس البلدية في كثير من المناطق الاصفاء لمطالب النواب المسلمين الخاصة بتقديم بعض المعونات واداء بعض الخدمات للمرافق الدينية ، فقد رفضت الحكومة العامة بعد عام ١٩٠٧ تسجيل قروض مالكة لصالح المؤسسات الدينية مما اثار غضب وسخط النواب المسلمين في المجالس المالية وطالبوا باعادة الاوقاف للمسلمين ، ولكن حكومة « جونار » رفضت الطلب وانتقدته بشدة .

واكثر ما كان يثير الادارة في الجزائر ويزيد من حقدها على الاهالي المسلمين مسألة الحج لذلك راحت تخلق لهم الاعذار لتمنعهم من تأدية الفريضة ، ومنع الحج عام ١٨٩٨ لمدة اربعة سنوات تحت اعذار صحية مختلفة ومنها انتشار الاوبئة ، ثم سمحت به سنة ١٩٠١ و ١٩٠٢ ، ولكن المسلمين الجزائريين كانوا يشكون دوما من العراقيل التي تضعها الادارة الفرنسية امام منحهم جوازات السفر ومن سوء المعاملة التي يلقونها في السفن الفرنسية الحكومية والتي يحشرون فيها كقطعان الماشية، اذ كان يفرض على الحجاج ركوب السفن من الجزائر رغم ارتفاع سعر التذكرة (٣١٥فرنك ذهاب واياب) في حين ان التذكرة نفسها تباع في تونس بسعر (١٥٠ فرنكا)(٧) . وعندما طالب النواب المسلمون في المجالس المالية ترك حرية الاختيار للحجاج لركوب السفن التي يشاؤون ، قوبل طلبهم بالرفض التام ، واعلن عن الغاء الحج في عام ١٩٠٣ وعام ١٩٠٤ . ولكن امام استمرار الخروج الخفي للراغبين في الحج عبر الطرق البرية ، وامام ازدياد الانتقادات من طرف بعض المسؤولين اضطرت السلطات لالغاء المنع وسمحت بالحج خلال سنوات (١٩٠٥ ، ١٩٠٦ و ١٩٠٧) ، ومنع الحج مجددا سنة ١٩٠٨ بسبب قيام الثورة في تركيا ، وسمح به سنة ١٩٠٩ ، وعادتالى منعه مرة اخرى خلال الاعوام (١٩١٠ ، ١٩١١ ، ١٩١٢) ، بدعوى الوضع الدولي المتوتر انذاك(٨) . وسمح بالحج سنة ١٩١٣ ، وصدر قانون سنة ١٩١٤ الذي سمح للمسلمين في الجزائر بأداء فريضة الحج بدون التزود برخصة ادارية (٩). وكانت هذه السياسة الفرنسية التعسفية تحمل العشرات من الحجاج الى الاقامة النهائية في الحجاز أو الهجرة الى بلاد الشام او مصر .

قانون التجنيد الاجباري : Le Service militaire obligatoire

لم يكن مشروع التجنيد الاجباري للمسلمين في الجزائر ـ والذي تقدم به النائب مسيمي سنة ١٩٠٧ اول مشروع من نوعه وضع للاستفادة من الطاقات البشرية في الجزائر ، بل سبقته عدة خطط ومشاريع وضعها جنرالات فرنسيون خلال القرن التاسع عشر .

فالاصداء الاولى للتجنيد الاجباري ترجع الى سنة ١٨٥٥ حين رفضت وزارة الدفاع الفرنسية فكرة استبدال التجنيد الاجباري بالتجنيد التطوعي الذي كان مطبقا

على فرق الاهالي . وجاءت الحرب البروسية ـ الفرنسية لتظهر مدى قوة واندفاع فرق القناصة الجزائرية ، فبرزت الى الاذهان مرة اخرى فكرة تشكيل جيش من المسلمين الجزائريين ، ولكنه لم يكن بامكان فرنسا المهزومة والضعيفة انذاك تحقيق المشروع . وتوالت الخطط والمشاريع وآلت في غالبيتها الى الفشل(١٠) . وكان الفرنسيون وخاصة المستوطنون في الجزائر يخشون من تشكيل جيش من المسلمين اذ ان هذا الجيش اذا ما تعرف على فنون القتال واتقنها قد يتحول الى عنصر خطر ضدهم ، لذلك كانوا يفضلون دوما الابقاء على نظام الارتزاق ..

ولكن جملة اسباب ومن بينها نقص في نسبة الولادة في فرنسا، والقانون العسكري الذي صدر سنة ١٩٠٥ ، ونص على تقليل مدة الخدمة العسكرية في فرنسا من مدة ثلاثة سنوات الى سنتين (وهو القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية للتخفيف من الاعباء العسكرية على ابنائها ، ولتظهر لجيرانها الاوربيين مدى حبها للسلام) دفعت بالحكومة الفرنسية الى اعادة التفكير في الاستفادة من طاقات الشباب المسلمين في الجزائر وهذه المرة ليست بالزيادة في عدد الفرق المرتزقة ، وانما بفرض التجنيد الاجباري للحصول على جيش نظامي جزائري(١١) : فتقدم النائب « ميسمي » مقرر الميزانية الحربية بمشروعه بعد أن تبين له ان تجنيد الشباب من الجزائر هو الوسيلة الوحيدة التي يمكن ان تخرج فرنسا من المأزق ، وخاصة وان الاوضاع في اوربا كانت تسير نحو التأزم ، فكتب رسالة بتاريخ ٧ديسمبر عام ١٩٠٧ وجهها الى وزير الحربية يقترح عليه فيها :

- التخفيض من القوة الفرنسية في الجزائر .

- الزيادة بالمقابل في القوة العسكرية للاهالي .

- تنظيم الاحتياط منهم .

وشكلت لجنة للنظر في امكانية تطبيق المشروع جديا ، ودامت اعمالها من عام ١٩٠٧ الى عام ١٩٠٨ ، وعلى ضوء نتائجها اتخذ قرار فرض الجنيد الاجباري سنة ١٩١٢(١٢) . وعلى ضوء قرارات اللجنة بادرت السلطات الفرنسية في كل انحاء الجزائر الى احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية سنة ١٩٠٩(١٣) ..

ويتوجب علينا في هذا الصدد ان نلقي نظرة على مضمون مشروع « ميسمي » وردود الفعل التي نتجت سواء في الاوساط الحكومية الفرنسية او في اوساط المستوطنين والاهالي المسلمين في الجزائر ، اضافة الى ردود الفعل التي سجلتها الصحف والمجلات .

يقول ميسيمي في مشروعه «ان رغبة فرنسا في السلام التي اظهرتها فعليا بالتخفيض من فعاليتها العسكرية ، لم تتبع من طرف جيرانها ، فايطاليا لم تعر المسألة اهتماما في حين ان المانيا تعمل جاهدة للزيادة من قواتها ونفقاتها العسكرية بنسب خطيرة . بما انه لا يمكننا التراجع عن قرار عام ١٩٠٥ الخاص بالمدة المحددة للخدمة العسكرية ، فان الحل الوحيد يكمن في تطبيق الخدمة العسكرية على الاهالي المسلمين في الجزائر». ويستطرد ميسيمي قائلا : ان القوة العسكرية الافريقية والقائمة على وضعها الحالي منذ نصف قرن لا تعرف الا التطوع لاجال طويلة ، ولنا في المستعمرة ١٦٠٠٠ قناص ومرتزق يخدمون منذ ١٠ او ١٥ سنة وتكاليفهم مرتفعة بصورة كبيرة (١٤) .

ويجري « ميسيمي » مقارنة بين ما تعطيه تونس وما تعطيه الجزائر من قوات عسكرية ، فالعطاء التونسي هو اكبر واحسن بكثير من العطاء الجزائري (رغم التفاوت الكبير في عدد السكان بين البلدين) ، والقوة التونسية رغم حداثة تأسيسها (منذ عشرين عاما) فان التجنيد فيها يتم بالقرعة ، والخدمة تدوم ثلاث سنوات ، ويمكن لتونس ان تمدنا في حالة السلام بقوة تعدادها ٧٠٠٠ جندي بسعر تكلفة منخفض جدا، بالقياس مع الجندي الجزائري، كما يمكنها ان تمدنا في حالة الحرب بين ٢٥ و ٣٠٠٠٠ جندي (١٥) .

اما عن ردود الفعل التي اثارها هذا المشروع فقد تميزت بالاختلاف والتعدد ، فالراي العام الجزائري ابدى معارضته الصريحة له ، وازدادت معارضته عندما شرعت السلطات الفرنسية في عمليات الاحصاء في مدينة الجزائر ووهران وقسنطينة .. في حين ان النخبة الجزائرية والتي اصبحت تمثلها في هذه الفترة جماعة الشبان الجزائريين « les Jeunes Algériens » وجدت فيه فرصة لحصول الاهالي على بعض حقوقهم او تعويضات مقابل ضريبة . وكانت فعلا فرصة توفرت للاهالي للتعبير عن رغباتهم ومطالبهم في لوائح تقدموا بها للحكومة العامة بالجزائر ، وحتى للحكومة في باريس ، اذ توجهت لجنة من النخبة برئاسة « بوضربة » الى باريس تحمل جملة من مطالب الاهالي الى الحكومة الفرنسية وملخصها انه « يجب ان تقابل ضريبة الدعم على المسلمين في الجزائر بتعويضات حقيقية ، فالاهالي يطالبون بكامل حقوقهم السياسية او بحقهم في الهجرة حيث يشاؤون(١٦)» . واستقبلت اللجنة من طرف الرئيس الفرنسي كليمانصو ، ووافقت الحكومة مبدئيا على مشروع التجنيد مع منح الاهالي بعض الحقوق السياسية مثل حق التمثيل النيابي والانتخاب .

وبلغ الاسى باهالي (ندرومة) شمال تلمسان مبلغه اذ تبين لهم ان الفرنسيين يريدون ان يزجوا بهم في ميادين القتال لمحاربة اخوانهم المسلمين في المغرب الاقصى ، ومع رفضهم الكامل للمشروع قرر بعضهم الذهاب الى (طنجة) لطلب الحماية من الالمان ، في حين قرر اخرون ارسال لجنة الى الحكومة الفرنسية يراسها ابن رحال

لتطلب « اما سحب مشروع التجنيد الاجباري ؛ او منح تعويضات مقابل تطبيقه ، او توفير الحرية للاهالي للهجرة الى البلاد الاسلامية » .

وسادت في هذه الفترة وبهذه المناسبة مقولة مفادها انه لاول مرة يتفق الاهالي المسلمون والمستوطنون على أمر وهو معارضة الطرفين لمشروع التجنيد الاجباري . وفي حين ان الاهالي وجدوا في هذا المشروع خطرا على عقيدتهم وكيانهم، فان المستوطنين الفرنسيين راوا فيه خطرا على مصالحهم ومكاسبهم ووجودهم كمستوطنين في الجزائر ، وابدوا تخوفهم الشديد مما يمكن ان يجره هذا الاجراء الجديد من مخاطر على امن المستعمر .

اما موقف البرلمان فقد تميز باختلاف الاراء وتضاربها ، فمن النواب من عارض مشروع القانون كلية(١٧) ومنهم من دافع عنه وابدى تحمسا لتطبيقه ، ومنهم من وقف موقفا وسطا مطالبا بمنح الاهالي حقوقا مقابل ذلك ومن بين هؤلاء النائب البان روزي Albin Rozet الذي طالب الحكومة بضرورة ادخال تغييرات على قانون الاهالي لصالح هؤلاء وذهب في انتقاداته الى درجة انه طالب الحكومة الفرنسية باعطاء اهتمام اكثر للمسلمين وللاسلام في الجزائر ومما قاله « . .ان العالم الاسلامي يشهد نهضة حقيقية . .باستثناء الجزائر التي بقيت خارج اطار هذه النهضة، والمستوطنون والادارة يعملون على الابقاء على جهل الاهالي الجزائريين وتخلفهم لاخضاعهم لسيطرتهم فيزداد بذلك الضغط على المسلم الجزائري ويتوقف او يمتنع عن اي تطور اجتماعي او ثقافي(١٨)» .

ومن الانتقادات التي وجهت لميسيمي حول مشرعه ، من طرف الكتاب والصحفيين ما جاء في مقال لـ« بيفيا» J.bevia « . . .ان مسيمي ارتكب خطأ عندما قارن بين وضعية الجزائر ووضعية تونس ، فنحن في الجزائر نتعامل مع تابعين لنا وليس مع مواطنين ، اي تابعين يعملون في خدمة مسيحيين ، اما التونسي فهو يخضع لنظام يعمل بمقتضى القانون الاسلامي » ، وعن اقتراح مسيمي التخفيض من عناصر القوات الفرنسية في افريقيا الشمالية ، فان «بيفيا» يرى في ذلك حرمان المستوطنين الفرنسيين والاوربيين من عناصر امنهم . ولاحظ انه لا يجب اهمال راي المستوطن في مثل هذه الاجراءات، وهم اول متعرض للخطر (٨٩) .

وظهرت الى جانب مشروع مسيمي في هذه الفترة. اتجاهات اخرى نبهت الى امكانية استعمال قوة سوداء من السنغال في الجزائر لتعوض النقص في القوات الفرنسية النظامية التي سيتم نقلها الى اوربا، ولكنها كانت خطة فاشلة .

كان النجاح حليف مشروع« مسيمي »للتجنيد الاجباري للاهالي المسلمين في الجزائر اذ ان جملة ضغوط وظروف دولية تدفع بالحكومة الفرنسية الى اصدار قرار بتاريخ

٣ فبراير (شباط) ١٩١٢ ، يقضي بتطبيق التجنيد الاجباري ، فبالاضافة الى العامل الرئيسي وهو الانخفاض الذي طرأ على القوة العسكرية الفرنسية ، وجد الفرنسيون ان فرق القناصة الجزائرية لم تعد تجند بسهولة وهذا راجع الى عدة اسباب منها الازدهار الاقتصادي الجزائري ، والشروع في استغلال مواردها المنجمية، وتطور الخدمات العامة بها ، وكل ذلك يتطلب يدا عاملة ، وارتفعت الاجور بازدياد الطلب على اليد العاملة ، لذلك اصبح الكثير من الناس يفضلون هذه الاعمال المربحة على ان يلتحقوا بالخدمة العسكرية .

وهناك ضغط آخر يتمثل في الحملة الفرنسية على المغرب الاقصى ، ونظرا للضغوط والظروف الدولية الصعبة التي كانت تعيشها اوربا انذاك لم يكن من الممكن نقل قوات فرنسية كبيرة للقتال في المغرب الاقصى ، فكان لابد من اللجوء الى فرق من افريقيا الشمالية . فتم نقل حوالي الثلثين من القوات الجزائرية والتونسية الى المغرب الاقصى في حين كان الاحصاء متواصلا بهدف فرض التجنيد الاجباري(٢٠) .

وبمجرد الشروع في عمليات الاحصاء افتضح الامر لدى الاهالي ، واعلنوا عن عن رفضهم ، ولجأ الكثير من الناس الى اخفاء ابنائهم ، وتظاهر الناس في مدينة تلمسان في مظاهرة عارمة شارك فيها حوالي ٢٠٠٠ شخص ، وبسرعة قدم امام رئيس الدائرة ٣٢١ طلبا للحصول على جواز سفر للهجرة الى بلاد الشام ، وعادت الرغبة في الهجرة والدعاية لها في الظهور من جديد ، ودائما في مدينة تلمسان ، عمل المفتي « شلبي جلول » لتحريض الناس على الهجرة من خلال خطب الجمعة كرد فعل انتقامي على الاجراء الفرنسي الجديد الذي تحول الى الاستيلاء على الابناء بعد اخذ الارض والاملاك ، ونجح الشيخ في تسفير اثنين من ابنائه الى دمشق(٢١) .

وعبرت الطريقة الدرقاوية السائدة في تلمسان عن رفضها لعمليات الاحصاء بقصد تجنيد الشباب المسلمين ، ونشط مقدمان من الطريقة يدعيان « كزبور » و « الحاج محمد بن يلس » لدعوة الناس للهجرة الى بلاد الشام ، وتقدم المقدم الاول بطلب خمسين جواز سفر ، ولكن طلبه رفض ورغم ذلك خرج اولئك الدرقاويون على افواج في اتجاه دمشق ، ضم الفوج الاول ٧٥ شخصا وضم الفوج الثاني ٤٠ ، ثم تبعهم فوج من ٢٥ شخصا(٢٢)، وفي عام ١٩٠٨ تقدم الحاج « محمد بن يلس » بطلب عدد كبير من الجوازات ، ولماشعر بالخطر يتهدده عمد الى الفرار في سبتمبر عام ١٩١١ ولجأ الى دمشق(٢٣) .

ـ الهجرة الى بلاد الشام ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ :

بعدما تعرضنا بشيء من التفصيل لاهم القوانين التي اصدرتها الحكومة الفرنسية

في مطلع القرن العشرين لتطبيقها على الاهالي المسلمين في الجزائر (قانون فصل الدين عن الدولة وقانون التجنيد الاجباري) الذين كانا السبب المباشر وراء هجرة الكثير من العائلات خاصة من منطقة تلمسان والوسط ، نتعرض الان لاول موجة هجرة سجلت في هذه الفترة ، ثم نلقي نظرة موجزة عن الاسباب الاخرى الكامنة وراء هجرة الاهالي الجديدة بما في ذلك الاسباب الداخلية والخارجية .

بدات موجات الهجرة الجديدة في الظهور في أواخر سنة ١٩٠٩ وبداية سنة ١٩١٠ في القطاع الشرقي من الجزائر وخاصة منطقتي قسنطينة وسطيف . ولم تسمح السلطات الاستعمارية بهذه الهجرة ، وانما حدثت خفية عبر حدود التونسية ــ والليبية ، رغم أننا لا نستطيع ان ننفي تماما علم السلطات المحلية في هاتين المنطقتين بهذه الهجرة ..

واول من اعلن عن هذه الهجرة من المسؤولين الفرنسيين السيد تريل « Treille » النائب السابق في مقاطعة قسنطينة ولم تتفطن السلطات المحلية للوضع الا من خلال حركة البيع النشطة والمستعجلة للاراضي وقطعان الماشية التي بدات تشهدها اسواق المنطقة(٢٤) . واخبر السيد « Treille »ان منطقة الهضاب العليا القسنطينية من عين البيضاء الى الحضنة تشهد موجة هجرة كثيفة بين الاهالي المسلمين باتجاه تركيا، وربط النائب الحادث مباشرة بالاجراءات التعسفية التي تنتهجها الادارة في معاملتها للاهالي(٢٥) .وانتقلت القضية مباشرة الى صفحات الجرائد المحلية والفرنسية وحتى التونسية ، في حين اتجهت الردود الحكومية الى التقليل من اهمية الحادث . ولكن الحكومة وتحت ضغوط مختلفة اضطرت الى التحقيق في المسالة فمنيت الكاتب العام السيد Varnier على راس لجنة توجهت الى الشرق الجزائري . استعرضت اللجنة في تقريرها الذي قدمته الى الحاكم العام عدة اسباب نذكر من بينها السبب التالي « فقد ظهرت مع مطلع عام ١٩٠٩ حملة جديدة تهدف الى تحريض الناس لبيع ممتلكاتهم والهجرة الى بلاد الشام ، وتزعم هذه الحملة مقدم من الطريقة الرحمانية يقيم بالقرب من عين تافروت وهو رجل دين ، وضع نفسه في خدمة مستوطن فرنسي لكي يتمكنا هما الاثنان من شراء قطع من الاراضي .وللوصول الى ذلك راح المقدم يثني في حملته على الجزائريين الذين هاجروا في السابق الى بلاد الشام ، ويعدد الفوائد المادية والمعنوية التي يجنيها المهاجر عند اقامته في سورية(٢٦)» ..

وكاي تقرير رسمي ذهب هذا التقرير كذلك في اتجاه ينفي اي مسؤولية مباشرة او غير مباشرة للسلطات الفرنسية في هذه الظاهرة ،وأكد السيد وارنيه مرة أخرى ان الاسباب هي خارجية اكثر منها داخلية ، موضحا ان اهم سبب يدفع بالاهالي المسلمين في الجزائر الى طلب اللجوء الى البلاد العثمانية انما هو الاهتمام الذي توليه الحكومة العثمانية للمهاجرين الجزائريين ، وفي ذلك ما يكفي من الاغراء ، اضافة الى

الحملات الصحفية التي تشنها صحف بيروت ودمشق ضد السياسة الفرنسية في الجزائـر .

ولكن مثل هذه التغطية والتمويه لم يعد يخفى على بعض الفرنسيين الذين راحوا يرفضون كل ادعاءات الحكومة وتفسيراتها لهذه الظاهرة . ونشط هـؤلاء للبحث والكشف عن الاسباب العميقة التي ادت الى تفشي هذا الوباء المعنوي الذي اضـر بالاهالي وسيلحق الضرر بمصلحة المستعمرة كلها ، ولعبت الصحافة المحلية الناطقـة باللغة الفرنسية والصحافة الفرنسية دورا كبيرا في هذا المجال .

ولا يسعنا هنا ان نتعرض لجميع اقوال الصحف في هذا الشأن وانما نكتفي ببعض النماذج . فبالنسبة للصحف التالية La democratie de Tebesse, L'Islam de bône Tunisien اتهمت صراحة قانون الانديجينا واخطاء الادارة الفرنسية والسياسة الاستعمارية بوقوفها بطريقة مباشرة او غير مباشرة وراء خروج الاهالي . اما صحيفة L' Essor d' Ain-beida فانها كشفت انه « في منطقة سطيف يضطر الكثير مـن الناس الى الهجرة بسبب نقص في الاراضي »، ولا حظت ان موجة الهجرة الجديدة تزامنت مع اقامة مراكز استيطانية فرنسية جديدة ، وبينت ان هناك دعاية للهجرة يقوم بها بعض الناس والتي يتساهل معها بعض رجال الادارة ويذهبون الى حـد تغطيتها والتحريض لها . وارجعت « la Depêche Tunisienne» سبب الهجرة الـى عمليات مصادرة الاراضي من الاهالي ومنحها للمستوطنين الجدد « .. وعندما تعطى للاهالي أراض غير اراضيهم فانها لاتساوي في شيء تلك التي صودرت منهـم ، واذا ما عوض لهم عن ذلك بالاموال فان هذه الاموال سرعان ما تنضب ..»(٢٧) .

واهتمت صحيفة الاخبار L'Akhbar(٢٨) جديا بالمسالة وابرزت امورا كثيرة لم تجرؤ الصحافة الرسمية ولا الحكومة الكشف عنها وكتبت تقول « .. لم تكن كل الاثارات خارجية ففي بعض المراكز نلاحظ قيام رابطات حقيقية بين بعض المستوطنين وبعض رجال الطرق أحدهما يدعو للهجرة والاخر يشتري اراضي واملاك المهاجرين . وقد هاجرت كل العائلات وساعدها في ذلك بعض الاوربيين الراغبين في الحصـول على الاراضي ، واقر بعض الموظفين هذه الدسائس ومنحوا جوازات سفر بدون تأشيرات من السلطات الولائية .. في حين استغل مستوطنون آخرون تجمعات الاهالي للقاح او اجراءات التجنيد وراحوا يبادروا الى الخروج ..» ولاحظت الصحيفة من جهة اخرى « .. اذا كان من واجبات الادارة استخدام رؤوس الاموال وافساح المجال امام مبادرات المستوطنين لتطوير المنطقة فلا يجب ان يحدث ذلك على حساب الاهالي..» ودعت الراي العام الفرنسي الى الاهتمام بالمسلمين ومساعدتهم على النهوض بانفسهم والتخفيف من الضرائب التي لا تفرق بين غني وفقير ..(٢٩).

ولم تشذ عن هذه القاعدة الا صحيفتا le Tell, la Depêche Algerienne فقد ارجعتا سبب الهجرة الى التعصب ، وذكرت هذه الاخيره « .. ان سبب هجرة اهالي سدارة بنواحي قسنطينة هو الرغبة الملحة لاداء فريضة الحج فهم يهاجرون الى بلاد الشام ليسهل عليهم اداء هذه الفريضة والتخلص من العراقيل التي تفرضها السلطات الفرنسية في الجزائر ، كما يدفعهم الى الهجرة رغبتهم في الحصول على اراض مجانا من الحكومة التركية ..»(٣٠) ..

اما صحيفة(الطان) الباريسية Le Temps فانها بعد ان عرضت بالتفصيل لاخبار الهجرة الجديدة التي شهدتها المنطقة الشرقية طالبت الحكومة بضرورة اعطاء اهتمام اكبر لمصالح الاهالي حتى لا يقعوا ضحية للدعاية القادمة من المشرق ، وحتى لا يقعوا كذلك فريسة لعمليات الابتزاز التي يقودها بعض الاوروبيين . اذ ان نسبة كبيرة من الملاكين فقدوا اراضيهم نتيجة عمليات ربوية .وختمت المقالة بالقول « .. علينا ان نجعل الجزائري يشعر بالراحة والاطمئنان في الجزائر اكثر من تركيا ، ولا يتطلب هذا الامر احداث تغييرات مادية فقط بل يجب غزو قلوب الاهالي ، بمعنى توفير وضعية مرضية لهم في المجتمع الجزائري الحديث»(٣١) .

وعبرت الادارة الفرنسية عن موقفها من خلال هذا المقال الذي نشرته الصحف الفرنسية ومما قالته « .. انا هنا امام حالة ليس فيها ما يخالف المألوف ، ففي كل المجتمعات تساهم الطبقات الفقيرة في حركة الهجرة بوحدات تفوق بكثير تلك التي نلاحظها في الجزائر ، ومع ذلك فالحكومة المستعمرة ابدت انشغالها بالوضع وعملت على استجلاء الاسباب التي ادت الى اشتداد الهجرة في هذه السنة وتبين ان هذه الاسباب تكمن كلها في الوضع الاقتصادي للاهالي(٣٢) . فاذا ما اخذنا دائرة «سطيف» كنموذج ، وهي التي شكلت الهجرة منها حوالي ثلاثة ارباع ، نجدانه قامت فيها مضاربة جنونية على الملكيات ، فبعض الاراضي غير المروية وصل ثمنها الى ١٠٠٠ فرنك فرنسي للهكتار ، اما الاراضي الجماعية ، والتي تكون فيها الملكية ثابتة ، فان سعر الهكتار الواحد فيها وصل الى ٣٥٠ فرنكا وبالتال فالاهالي لا يستطيعون الثبات أمام هذه الاغراءات ، اضافة الى مضايقات الدين والربا والتي كثيرا ما كانت تكون السبب في فقدان الاهالي لاراضيهم واملاكهم ، ومن هنا فغالبية المهاجرين هم من الفلاحين الذين فقدوا املاكهم بطريقة أو باخرى ، وعندما تقترن حالتهم البائسة هذه مع الاماني والوعود القادمة من المشرق ، فلا شك انهم يبادرون بسرعة الى الهجرة ، ويظل السبب الرئيسي هو الحالة الاقتصادية للفلاح الجزائري والذي راح ضحية غفلته وسذاجته ..»(٣٣) .

يبدو جليا من خل هذا التفسير تهرب السلطات الاستعمارية واغفالها ذكر اخطاء نظام الانديجينا وتعسف الحكام ورجال الادارة في الاقاليم والمقاطعات ، ولكن

بعض الفرنسيين لاحظ انه اذا كانت السلطات لم تستطع اخراج الفلاح الجزائري من جهله فانها على الاقل تستطيع محاربة اولئك المرابين وتقويم سلوك الموظفين الجشعين(٢٤).

والحقيقة ان وضع الاهالي المسلمين في الجزائر استمر على ما هو عليه منذ القرن التاسع عشر بل ازداد سوءا . ولكن الامر الذي استجد في هذه المرحلة هو الاهتمامات التي اصبحت توليها الصحافة لمعاناة الاهالي، وقد افادهم ذلك كثيرا فمعاناتهم اصبحت تجد لها محلا في الصحف والمجلات ، وفي مطالب ولوائح اللجان المالية والنواب المسلمين ، الامر الذي مكنهم في هذه المرحلة من التعبير عن معارضتهم لبعض القوانين في شكل تظاهرات وتجمعات شعبية او ارسال لجان للتفاوض مع الحكومة الفرنسية في باريس .

وبعبارة اخرى فقد ساد نوع من حرية التعبير احسن المدافعون عن الاهالي من المسلمين ومن الفرنسيين استغلاله ، وسيكون لهذه المساعي نتائجها الحسنة بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى .

ومثلما سبق القول فان لكل موجة هجرة اسبابها الداخلية واسبابها الخارجية واذا ما تفحصنا في الاسباب الخارجية لهجرة عام ١٩١٠ وعام ١٩١١ نجدها ذات صلة كبيرة ان لم نقل مباشرة بالتغييرات التي طرات في تركيا ، ويأتي في اولها مرحلة فرض الدستور على السلطان عبد الحميد ، ثم الثورة عليه . ووضع بعض المحللين الفرنسيين هذا السبب على رأس الاسباب كلها ، وابدى هؤلاء الفرنسيون اسفا كبيرا تجاه حركة الاتحاد والترقي التي تلقت تكوينها السياسي في فرنسا ، وعندما رجعت الى بلادها اعجبت بمشروع الجامعة الاسلامية ، ورات امكان احيائه من جديد بعد ان عرف توقفا مؤقتا(٢٥) .

أما تأثيرات التغييرات التي طرات في تركيا على المسلمين في الجزائر فقد برزت جلية خاصة بين الشباب الجزائريين « les Jeunes Algeriens »، اذ عمل التقارب التركي ـ الالماني على غرس التفاؤل والامل لدى هذه النخبة ، والنخبة في بلاد المغرب بصفة عامة(٢٦) ، خاصة وان المانيا هي عدوة فرنسا منذ القديم . واتضح لهؤلاء الشباب ان المانيا هي القوة الاوربية الوحيدة التي تظهر اهتماما بالاسلام والمسلمين، وترغب في اقامة تحالفات مع مختلف البلاد الاسلامية .

اتجهت انظار الجزائريين والتونسيين في هذه المرحلة الى تركيا التي تساندها المانيا خاصة وان بلاد المغرب بدأت تشهد تطورات جديدة حيث تجلت النوايا الاستعمارية الجديدة لكل من فرنسا في المغرب الاقصى وايطاليا في طرابلس(٢٧) . ومن الفرنسيين الذين شغلتهم افكار الجامعة الاسلامية وتاثيراتها على الاهالي المسلمين في

الجزائر «بورداري» «Bourdarie» ومما جاء على لسانه « .. انه بالنسبة للجزائر فان هؤلاء الاتراك استغلوا اخطاء نظام اداري قديم لاثارة موجة هجرة قد تعمل على زعزعة الوجود الفرنسي في الجزائر لاسيما ان الحكومة الفرنسية اقتربت او بالاصح حسمت مسألة التجنيد الاجباري وهو الامر الذي تخشاه برلين أكثر من غيره لما خلفته ذكرى معركة «wissembourg» من اثار في اذهان الالمانيين(٣٨)» .

واكد الكاتب « .. ان هذه الهجرة لم تحدث سنة ١٩١٠ بل ظهرت عشية الانقلاب العثماني واشتدت سنة ١٩٠٩(٣٩) » .

فهذه الهجرة قد حصلت اذن ، حسب راي الكاتب ، بايعاز من المانيا التي التي خشيت امر التجنيد الاجباري للمسلمين الجزائريين ، ولافشال الخطة الفرنسية في هذا المجال ، وراحت تحرض بطرق غير مباشرة على خروج الاهالي من الجزائر لتقلص ، بقدر الامكان ، من عدد المجندين الذين سيدخلون صفوف الجيش الفرنسي. وادعاء كهذا قد يكون له جانب من الصحة خاصة وانه ليس هناك ماينفيه، ولاسيما اذا ما وضعناه في اطار سياسة التحالفات الدولية الجديدة التي بدات في الظهور في هذه الفترة .

وتواصلت من جهة اخرى عمليات الدعاية للهجرة من بلاد الشام واستانبول ، سواء عن طريق الصحف ام بواسطة الرسائل المتبادلة بين المهاجرين وذويهم في الجزائر . وقد اتخذت هذه الدعاية طابعا شبه رسمي في هذه الفترة ، اذ شكلت مؤسسات وتجمعات منحتها الحكومة العثمانية صلاحيات للاهتمام بأمر المهاجرين وتوطينهم ، فظهر في دمشق « اللجنة الدمشقية للتجمع الاخوي الجزائري ــ التونسي » والتي واظبت على ارسال النداءات ودعوة الجزائريين والتونسيين للهجرة الى بلاد الشام تعبيرا عن سخطهم على النظام الفرنسي في الجزائر . ومما جاء في احدى هذه الرسائل ــ وكانت موجهة لشخص يدعى الحاج ابراهيم الصادراتي « .. نطلب منكم ان تعرفوا اخواننا المغاربة الذين بطرفكم بما اعرفكم على فضائل بلاد الشام وبما فيه من خير .. اعلموا اننا في انتظاركم بدمشق على القدوم الينا عزما عزما من غير تأخير لان الحكومة العثمانية تحتفل بالقادمين اليها من المهاجرين المغاربة ، واول وصولهم الى بيروت تركبهم الحكومة العلية الى الشام ، والسكن ايضا بلا شيء من غير دراهم وتعطي الدولة ايضا لكل نفس عشرين هكتار تراب وتعطي له ثورين وزريعة، والولد الذي يولد عند المهاجرين يعطى له مثل كبير ولا يؤخذ منهم العشر الا بعد العشرين سنة ويصير يدفع مثل اهل البلد(٤٠) .

وكان مركز هذه اللجنة في بيروت ولها فروع في استانبول ودمشق ، وكان ممثلها في دمشق مهاجر جزائري يدعى محمد بن شطة كان قد هاجر من مدينة الاغواط (بجنوب الجزائر) الى تونس ، وعندما سقطت هذه تحت الحماية الفرنسية اضطر

الى الخروج منها وتوجه الى دمشق هو وعائلته وتولى في دمشق رئاسة تحرير جريدة الـ « المهاجر » التي كانت تصدر في دمشق بين سنة ١٩١٢ و ١٩١٤ وهي الناطقة بلسان المهاجرين في بلاد الشام .

اما عدد المهاجرين الذين خرجوا من المنطقة الشرقية وفي هذه الفترة فنستطيع الحصول عليه من الارقام التي وردت في التقارير الرسمية ، ومن خلال الصحافة المحلية والتونسية التي اهتمت بهذه الهجرة . وقد عملت الادارة الاستعمارية من خلال تقرير وارنييه الخاص بالهجرة التي حصلت سنة ١٩١٠ في الشرق الجزائري ،وخاصة من نواحي سطيف ، وبرج بو عريريج وصدراته ، احصاء عدد المهاجرين ومعرفة اوضاعهم الاجتماعية ، ولكن مهما كانت قيمة هذه التقارير فان ارقامها تظل تقريبية خاصة وان السلطات المحلية كانت تحاول دوما التقليل من اهمية الحادث وخطورته يضاف الى ذلك التقارير الصحفية ، ومنها الصحافة التونسية التي اهتمت بظاهرة الهجرة الكثيفة التي انطلقت من الموانىء التونسية وبخاصة مينائي تونس وقابس ، وكانت ارقام هؤلاء المهاجرين حسب ما اوردته الصحف التونسية تصل مرة الى ٢٣ شخصا ، ومرة الى ٨٠ شخصا ويذكر « Spielman »من برج بوعريريج الارقام التالية: هاجرت من صدراته ١٥ عائلة أي حوالي ١٠٠ شخص ، ومن زمورة ٧عائلات ، ومن المجانة عائلة واحدة ، واربع عائلات من المعاديت(٤١) في حين ذكرت صحيفة « La Depêche Algerienne »انه ومنذ عام خرجت ٨٠ عائلة مهاجرة الى تركيا ومن بينها ٣٢ عائلة من بلدية « عين تافروت » وحدها ، وهناك اعداد اخرى (هي الان) موقوفة في ميناء تونس حيث رفضت السلطات المحلية ابحارهم . ويكون العدد الكلي لهؤلاء الذين قرروا الهجرة واستعدوا لها يتراوح ما بين ٥١١ ــ ٦٠٠ شخص(٤٢) .

ولم تقتصر هجرة عام ١٩١٠ على الجزائريين في منطقة الشرق الجزائري فقط بل استجاب لها كذلك المهاجرون الذين هاجروا في السابق الى تونس ، واستجاب لها كذلك التونسيون انفسهم خاصة من اهالي «الكاف»(٤٣) ، وغالبية هؤلاء المهاجرين كانوا حسب التقارير الرسمية والصحفية من متوسطي الحال من الذين اضطروا الى بيع ممتلكاتهم الى الاوربيين تحت ظروف وضغوط مختلفة ، وقد كتبت صحيفة الاخبار عن « الرغبة الملحة لدى بعض المستوطنين لطرد الاهالي حتى يتوفر المكان لهم (٤٤)» .

هجرة تلمسان ١٩١١ :

تميزت هجرة اهالي مدينة تلمسان وضواحيها عن باقي الهجرات بكثافتها بحيث لم تعط منطقة في الجزائر وفي خلال شهر واحد مقدار ما اعطته تلمسان وضواحيها من مهاجرين ، فبين شهري تشرين الاول والثاني ١٩١١ خرج ما بين ١٠٠٠ و١٢٠٠

شخص مما دعى الفرنسيين الى وصف هذه الهجرة « بالهلع الحقيقي وبالوباء الحقيقي الذي سيطر على البلاد كلها ، وكان يوميا يرمي بالعشرات بل بالمئات من العائلات على الحدود الوهرانية ـ المغربية ، وسجل في احد الايام خروج ١٢٠ شخصا دفعة واحدة(٤٥) .. وهناك من يقول ان العدد وصل الى ٢٠٠ عائلة اي ٣٠٠٠ شخص تقريبا. وكانت هذه العائلات قد ابحرت الى بلاد الشام من الموانىء الاسبانية في المغرب الاقصى، وتجاهلت السلطات الفرنسية في المنطقة كلية هذه الحوادث ، ولم تتخذ اي اجراء لايقاف الهجرة او تكليف لجنة للتحقيق في الامر(٤٦) .

وظهرت البوادر الاولى لهذه الهجرة مع اواخر عام ١٩١٠ كرد فعل على اجراءات التجنيد الاجباري ، وعندما شرعت السلطات الاستعمارية في عمليات احصاء الشباب منذ سنة ١٩٠٩ ، فقد انتقل الى دمشق وبدون جواز سفر « قائد وادي شولي » في ضواحي تلمسان المدعو « سي الاخضر » ورافقه ٢٧ فردا من عائلته ،ولحق به المدعو « مومزيان بن المنور » وقد ركب هؤلاء قطار الحدود الى المغرب الاقصى ، وهناك اقاموا اياما في زاوية الشيخ الهبري ، ثم انتقلوا منها الى مليلة ومنها الى تطوان ثم الى طنجة التي ابحروا منها الى بلاد الشام(٤٧) . وشرع هذا القائد فور وصوله في مراسلة اقاربه ومعارفه يحثهم على الهجرة الى بلاد الشام للتخلص من تسلط الفرنسيين عليهم ، وكان يعدد لهم محاسن بلاد الشام وكرم اهلها ، ويذكر لهم اهتمام الحكومة بالمهاجرين ومن جملة ما ذكره « .. ان دمشق مدينة تجارية تستطيع ان تبدا فيها بفرنك مثل ٥٠ الف فرنك ويمكن فتح مقاه بدون رخص من الحكومة .. »(٤٨).

وقد اثار رحيل هذا القائد تساؤل الفرنسيين واستغرابهم خاصة وانه كان يتمتع بوظيفة حكومية (قائد) ولم يتعرض لاي مساس في شخصه او امواله . ومع اعلان ٨ فبراير (شباط) ١٩١١ ، والخاص بالشروع في احصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية في تلمسان ، اشتدت الرغبة في الهجرة وعمت كل سكان المنطقة ، وقام المفتي « شلبي جلول » في خطب الجمعة يحذر الناس « .. من الخطر الذي يتهدد المسلمين » ودعا الى الهجرة موضحا « الخطورة التي تنجم عن اقامة المسلمين بين المشركين(٤٩) » .

وعرفت القرى والمدن القريبة من تلمسان (الرمشي ، وسبدو ـ ندرومة ـ تورين) استعدادات كثيفة للهجرة حيث قام الاهالي ببيع ممتلكاتهم للاوربيين من اراض وعقارات واموال والفرار خفية عبر الحدود المغربية . وامام هذه الحالة من الاضطراب قررت صحيفة L'echo d'Oran ارسال احد محرريها وهو Euq Gross الى تلمسان للتحقيق في امر الهجرة واثار التقرير الذي نشرته في ست حلقات ضجة كبيرة واعتمدته اكثر الصحف التي كتبت عن هذه الظاهرة ومن بينها صحيفة الطان

البـاريسـية . ومماجاء في احد هذه التقارير « .. ان الهجـرة اشتدت خلال النصف الثاني من شهر سبتمبر والايام الاولى من شهر اكتوبر ثم خفت ربما لفاعلية الحراسة التي وضعتها السلطات على الحدود مع المغرب . والملاحظ ان عائلات من اعيان المدينة هاجرت من تلمسان ، الامر الذي دفع ببقية الناس الى اتخاذ قرار الهجرة كذلك . « فالكل يريد الهجرة لان الجار هاجر » والوسيلة الوحيدة ذات الفاعلية التي اتخذتها السلطـات المحليـة كان قرارهـا بحبـس كل من يكشـف وهو يسـتعـد للهجـرة أو اتخذ قرار الهجرة(٥٠) .

واعلنت الجريدة ان لجانا خاصة بالهجرة شكلت في بلاد الشـام لاستقبـال المهاجرين(٥١) واكدت في مقال اخر ان التجنيد ليس السبب الوحيد للهجرة كما ادعى بعض الاوربيين بل الاسباب عديدة ومختلفة وهي كلها ناتجة عن الوضعية المزرية التي التي يعيش فيها المسلم الجزائري . وما قضية التجنيد الا القطرة التي طفح بها الكيل وراحت الصحف المحلية الاخرى كل من جهتها تكتب عن معاناة الاهالي . فصحيفة الحق الصادرة في وهران ذكرت في مقال لها عن الهجرة التلمسانية ان نائب المحافظ كان يشجع الناس على الهجرة ، كما اعلن (المنادي العمومي) في احد الايام « ان الكل يستطيع السفر بشرط ان يكون قد ادى ما عليه من ضرائب »(٥٢) واوردت صحيفـة الرشيـدي El Rachidi قولا لشخصيات من الاهالي جاء فيه « ... عندما نتكلم عن مطالب الاهالي يقولون ان ممثلي الاهالي في مختلف الجمعيات لا يذكرون ذلك ، ولكن هل للاهالي حقا ممثلون ؟. وهل ننسى الضغط الاداري مع كل حملة انتخابات ، وهل هناك من مثقفين يرشحون انفسهم؟ ، طبعا لا ، لانهم متأكدون مسبقا من فشلهم ، فهم غير مرغوب فيهم في المجالس ، اما في الجمعيات العمومية فالمرشحون هم عموما من القادة(٥٣)» .

وفي احصاء للادارة المحلية بتلمسان عن عدد المهاجرين ورد في القائمة (٥٠٨) اسماء ، ولوحظ ان العدد لا يتجاوز رقم (٦٥٠) شخصا في منطقة تلمسان كلها . ولكن جريـدة L'écho d'Oran قدرت العدد بـ (١٢٠٠) شخص ، واعتمد هذا الرقم من طرف غالبية الصحف والمجلات التي كتبت عن هجرة تلمسان . ومما ذكرته صحيفة « الاسلام » انه « لوضع حد لهذا الهروب الجماعي قامـت السلطات الفرنسـية بغلـق الحدود التونسـية ، والليبية ، وسجلت مشادات يومية في قرية (بن فرداري) بين حراس الحدود وبعض المهاجرين عند اجتيازهم للحدود المغربية(٥٤)» .

والجدير بالذكر ان تونس لم تعد مركز استقطاب للمهاجرين منذ ان احتلهـا الفرنسيون ، بل خرج منها كل المهاجرين الجزائريين الذين قصدوا الاقامة فيها في فترات سابقة . وتوزع هؤلاء المهاجرون بين طرابلس والقاهرة والاسكندرية ودمشـق

وحلب وبيروت ، وحتى بغداد واستانبول وسالونيك واضنة ، دون ان ننسى المهاجرين الذين اقاموا في الحجاز في مكة والمدينة ، ولولا الحرب التركية ــ الايطالية لاتخذت الهجرة في هذه الفترة شكلا خطيرا وواسعا . ومما اخبرت عنه صحيفة « الاخبار » El Akhbar . . . ان ۳۰۰ مهاجر عطلوا في ميناء مليلة ولم يتمكنوا من الابحار لما نتج عن هذه الحرب من مخاطر على حرية الملاحة في اتجاه بلاد الشام(٥٥).

تقرير باربودات

على اثر الازمة والضجة التي اثارتها الصحافة حول هذه الهجرة ، تقدم المجلس البلدي لتلمسان بطلب للحكومة العامة بالجزائر للمبادرة الى تعيين لجنة للتحقيق في امر هذه الهجرة على ان تكون شخصيات هذه اللجنة ممن تتوفر فيهم ثقة الاهالي . فبادر الحاكم العام « ليتو LuTaud» الى تعيين لجنة وضع على راسها السيد « باربودات » وهو مندوب مالي(٥٦) .

والجديد في اعمال هذه اللجنة انها اتجهت الى استطلاع كل الاراء بما فيها اراء السلطات المحلية والمستوطنين والاهالي ، وذلك تحت ضغط بعض الفرنسيين الذين طالبوا ان تكون اللجنة موضوعية في اعمالها حتى تتمكن من التوصل الى الحقيقة باكملها .

والجدير بالذكر هنا ان الفرنسيين اعتبروا تلمسان مدينة مختلفة ومتميزة عن باقي المدن الجزائرية ، وجعلوا منها المدينة الوحيدة التي تحمل صفة الاصالة والقدم ، خاصة من حيث عادات الناس وتقاليدهم(٥٧) . فويليام مارسيه W.Marçais وهو مدير مدرسة في تلمسان انذاك يقول « .. عرفت في تلمسان مجتمعا يعمل ليعيش ، وهو المجتمع الاكثر اصالة في الجزائر كلها ، وهو شديد التدين والمحافظة ».

اما باربودات Barbedette فانه يصف اهالي المدينة بالمسالمة والوداعةوالهدوء « مع احترامهم الدائم للسلطات المحلية اذ لم يعلنوا ابدا تضايقهم من المستوطنين الفرنسيين ، كما لم يشتركوا في اية ثورة ضد الفرنسيين .. ولكن بالمقابل نجد ان ارتباطهم بمعتقداتهم الدينية عميق جدا ».

واول سبب تعرضت له اللجنة كان مسالة التجنيد الاجباري ، فقد اوضح الاهالي ان ابناءهم سيجبرون على مقاتلة مسلمين مثلهم في المغرب الاقصى ، وهذا ما يرفضه الدين ، بالاضافة الى انهم سيجدون انفسهم مبعدين عن ممارسة شعائرهم الدينية(٥٨) .

ولوحظ في مسالة فصل الدين عن الدولة ان الاهالي يرون ان نتائج قانونالفصل

ستكون وخيمة على المؤسسات الدينية ، فالتعويضات التي قررتها الحكومة ستنتهي بعد مدة وليس بيد الاهالي اوقاف ينفقون منها على مؤسساتهم ، باعتبار أن تلك الاوقاف اصبحت ضمن املاك الدولة اضافة الى العراقيل والصعوبات التي خلقتها الادارة امام تشكيل الجمعيات الدينية

وعبر الاهالي من جهة اخرى عن معارضتهم الشديدة للقانون الذي اتخذه الحاكم العام السابق السيد « جونار » والقاضي بتقييد الملكيات الخاصة وفق القانون الفرنسي وبعيدا عن قانون الارث في الشريعة الاسلامية . وكان سخط الاهالي شديدا تجاه قانون الاهالي (الانديجينا) الذي تطبق مواده على أي كان ولاتفه الاسباب وقد تصل العقوبات الى غرامات مالية قدرها ١٥ فرنكا او حبس لمدة ٦ ايام .

وكثرت الشكاوى من الضرائب الثقيلة والتي ترتفع يوما بعد يوم ، فضريبة العشر اصبحت تطبق في المدن حتى على الحدائق الخاصة اضافة الى ضرائب البلدية المتعددة . ويطالب الاهالي باعادة القضاة المسلمين للفصل بين المسلمين بدل قضاة الصلح المعينين من طرف السلطة فالقاضي يحكم بمقتضى نصوص الشريعة والاستماع الى الشهود في حين ان قاضي الصلح الفرنسي ينزعج لاتفه الامور ، وقد يتحول الى تطبيق قانون الانديجينا على اية مخالفة قد ترتكب في المحكمة .

وتمثيل الاهالي في المجالس والجمعيات هو بدون شك ضعيف في حين حصل اليهود وابناء الاجانب على حقهم في الاقتراع باكتسابهم الجنسية الفرنسية . وفي المجالس البلدية لا يمكن ان يمثل الاهالي اكثر من ٦ أشخاص مهما كان عدد سكان المدينة(٥٩) .

ثم انتقل التقرير الى الحديث عن الازمة الاقتصادية التي يتخبط فيها المسلمون في تلمسان ، ويذهب في تحليله الى القول ان الكثير من المدن فقدت حيويتها الاقتصادية والتجارية نتيجة تحول الاسواق عنها ، ومنافسة البضاعة الفرنسية لها مما عرض البضاعة المحلية الى الكساد والصناعة الحرفية الى التقهقر ، كما اثرت خطوط السكك الحديدية التي انشئت حديثا على اهمية بعض المدن ومنها تلمسان ، اذ اصبحت البضائع تنقل عبر السكك الحديدية مباشرة الى وهران والمدن الساحلية للتصدير او للاستهلاك في تلك المناطق . ويقول اهالي تلمسان عن هذه السكك (انها حملت عنهم البركة) ، اما معاناة تلك الارياف والمناطق الجبلية فقد لخصها التقرير فيما يلي « .. اولا اجراءات قانون الغابات والتي اوصلت الاهالي الى حالة من الفقر والبؤس ، فهؤلاء الناس طردوا في السابق من اراضيهم الخصبة ، التي صادرتها السلطات الفرنسية ومنحتها للمستعمرين بحجة احيائها واستغلالها الاستغلال الحسن ، وحوصروا في مناطق جبلية وغابية ، واصبحوا يعيشون من بيع منتوج حيواناتهم او من

بيع اكوام الحطب في المدن ، وينجم عن الاحتطاب او رعي الماشية بدون رخصة عقوبات صارمة تصل الى الحبس عدة ايام حسب قانون الغابات(٦٠) » .

ويشترك اهالي الارياف مع اهالي المدن في معاناتهم من ثقل الضرائب ، فضريبة العشر في المناطق الريفية غالبا ما تتعدى العشر ، اما الزكاة فتفرض بحسب احتياجات الجابي لان مرتبه يجب ان يكون العشر من الضرائب التي يجبيها في منطقته ، وتستمر الاحوال على هذا الشكل ، واذا تقدم احد بشكوى فان شكواه تجر عليه عقوبات اخرى بتطبيق قانون الاهالي عليه . وخلصت اللجنة الى القول ان الهجرة انطلقت من مدينة تلمسان . ولاحظت اللجنة ان هذه الموجة قد شجع عليها قدوم بعض الشخصيات الشرقية الى تلمسان ، ومن هؤلاء الزعيم المصري المعروف « محمد فريد بك » الذي نزل ضيفا على القاضي « سي شعيب » ، وقد كتب فريد بك عن رحلته هذه السنة ١٩٠٣ و ١٩٠٤ ، في مقالات في جريدة اللواء المصرية ، وانتقد بشدة السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر . ومن اسباب هذه الهجرة كذلك الرسائل التي كانت تصل الاهالي من المهاجرين الى بلاد الشام ومن خلال اطلاعهم على الصحف العثمانية والمصرية التي تدخل للجزائر خفية ونتيجة لمواقف مفتي تلمسان التي اثارت موجة من التعصب بين السكان ، ومما زاد في اضطراب الاهالي وهيجانهم قانون الفصل الذي راوا فيه تهديدا صريحا لحريتهم الدينية اضافة الى الاشاعات والاخبار التي نشط في نشرها بعض الاوربيين ممن لهم مصلحة في ذلك(٦١) .

واوضحت اللجنة ان الاهالي يرفضون الجنسية الفرنسية لان الحياة الدينية للمسلم تمتزج امتزاجا كاملا بالحياة المدنية ، ولا يمكنهم بأي حال التخلي عن قانونهم الشخصي .

وعند مناقشة اللجنة للشكاوى التي طرحها الاهالي بين يديها على امل ان تأخذها بعين الاعتبار ، ابدت اللجنة تأييدها لكثير من المطالب وتكلمت عن حق الاهالي في التمتع بحياة كريمة ، وطالبت الادارة العامة بضرورة الاستعجال لادخال اصلاحات وتغييرات على بعض القوانين التي تنظم حياة الاهالي المسلمين . وطالبت باحداث تغيير لمضمون قانون الغابات(٦٢) ليكون اكثر ملائمة لظروف الحياة الريفية ، اذ تبين استحالة تطبيق قانون الغابات الفرنسي على بيئة غير البيئة الفرنسية ، وطالبت من جهة اخرى بالتوقف الفعلي عن حجز الاراضي لاقامة المستوطنات ، وضرورة مراجعة قانون الضرائب ووضعه في اطار من المساواة والعدالة ، وضمان تمثيل احسن للاهالي في المجالس البلدية وفي اللجان المالية ، والزيادة في اطار محدود من عدد المستشارين المسلمين . كما الحت على ضرورة ممارسة الشدة والصرامة في اختيار الموظفين ونوابهم او ممثليهم من الاهالي ومراقبتهم باستمرار ، وايدت من جهة اخرى مطالب الاهالي الخاصة « بقانون الاهالي »(الانديجينا)(٦٣) ، واوضحت ان هذه الشكاوى لا تقتصر

على اهالي تلمسان بل تشمل الجزائر من الحدود المغربية الى الحدود التونسية ،ومن الشمال الى حدود الصحراء ، وقالت ان مطالب الاهالي في هذا الخصوص جديرة بالنظر والملاحظة .

وبالمقابل ابدت اللجنة معارضتها لرفض الاهالي لقانون التجنيد الاجباري ولكنها اوصت بعدم اللجوء اليه الا في الحالات التي تستدعي ذلك ، بسبب الصعوبة في تطبيقه نتيجة رفض الاهالي له .

وبعد ان قدمت اللجنة تقريرها الى الحاكم العام LuTaud، تقدم هذا بتقرير عن الهجرة الى وزير الداخلية الفرنسية(٦٤). واظهر من خلال تقريره دفاعا عن القوانين الفرنسية المطبقة على الاهالي في الجزائر ، مؤكدا ان غالبية المهاجرين هم من اتباع الطريقة الدرقاوية او من الشباب الذين وصلوا الى سن الخدمة العسكرية .

واوضح من جهة اخرى ان قانون فصل الدين عن الدولة ، هو من الاسباب المباشرة للهجرة« .. لا يمكنني مناقشته باعتبار انه اصبح امرا واقعا ،ورجال الدين الاسلامي مازالوا يتقاضون من الحكومة تعويضات ، لم يحرم منها الا مفتي تلمسان لما اظهره من عداء للحكومة الفرنسية عند شروعها في عمليات الاحصاء تمهيدا لتطبيق التجنيد الاجباري » .

.. اما الوضعية الاقتصادية للاهالي فلا يمكننا ايجاد حل لها ـ باعتبار انها تخضع لتطورات العصر ـ الا بدفع الاهالي للاستفادة من هذا التطور .. اما موقفه من الهجرة فقد عبر عنه بقوله « .. اريد ان اوضح ان هذه الهجرة حدث عادي وكثيرا ما يحدث في البلاد الاسلامية ..».

وتبين لنا ارشيفات الحكومة وتقارير القناصل من مصر وسورية انه طيلة مدة سيطرتنا على هذه البلاد حدثت فيها حركات هجرة فاقت هجرة تلمسان بكثير مثلما حدث سنة ١٨٥٤ ، ١٨٦٠ ، ١٨٧٠ ، ١٨٧٥ ، ١٨٨٨ ، ١٨٩٨ ، لهذه الهجرات اسباب ثقافية او عرضية ، واسباب عميقة ، فالاولى غالبا ما تكون نتيجة استياء عابر قد يكون خطرا احيانا وشكليا احيانا اخرى . فاذا ما اصاب الاهالي قحط ومجاعة اتخذوا بسرعة قرار الهجرة بحثا عن لقمة العيش ، واحيانا تكون بوقوع المالكين غير المتبصرين تحت اغراءات بعض الاوربيين اما الاسباب العميقة والدائمة فتكمن في الروابط الدينية التي ما لبثت تجذب دوما المسلمين الى الاراضي المقدسة .

واضاف الحاكم العام ان الادارة الفرنسية اجتهدت لايجاد علاج لهذه الوضعية فلجأت الى الفتوى ومما قاله « .. ان (بوجو) هو اول من لجا الى الفتوى عندما

ارسل (ليون روش L.Roche) لياتيه بفتوى من مكة ، تجيز للاهالي المسلمين البقاء في (الارض غير الاسلامية) Terre infidèle (٦٥) كما حصل جول كامبون J. Cambon على فتوى من علماء مكة سنة ١٨٩٣ اجازوا فيها بقاء الاهالي في الجزائر ، وحديثا حصلنا من مفتي القاهرة الشيخ محمد عبده عند زيارته الجزائر سنة ١٩٠٣ على فتوى أوضح من خلالها للمسلمين الجزائريين ان ارض الجزائر ليست مستعمرة من طرف ملحدين لان المسيحيين هم اهل كتاب ، كما اعطى موافقته على وضع القبعة محل « الشاشية » .

ووصلت قضية الهجرة الى مجلس النواب حيث فسح المجال امام النواب لمناقشة ظاهرة الهجرة ، وكان ذلك فرصة لمناقشة السياسة الفرنسية بأكملها في الجزائر . واختلفت الاراء وتباينت بين معارضين لاي تغيير للسياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر وبين مؤيدين لسياسة اكثر مرونة وعدالة تجاه المسلمين ، ومن بين هؤلاء نجد النائب « البير فيري » الذي طالب بضرورة تطبيق سياسة اسلامية في الجزائر ترضي المسلمين الجزائريين وتبعدهم عن التاثيرات الاتية من المشرق ، واورد في عرضه قولا للورد كرومر قال ان هذا الاخير كتبه عن الجزائر وضمنه جملة من النصائح للفرنسيين يتبعونها في سياستهم ، يقول اللورد كرومر : « .. باهتمامنا بالجانب المادي للشعب يمكننا ان نخلق طبقة من ذوي الفكر المحافظ ، هذه الطبقة وان لم تتمتع بميل كبير لاسيادها الاجانب الا انها على الاقل تمنع الشعب من ان يكون سهل الانجذاب الى ناحية السياسيين الوطنيين .. » ، ويعلق البير فيري بقوله « .. ان الخطر يتمثل في ان بعض المتعصبين والسياسيين يجدون الاذن الصاغية لنداءاتهم ضمن قاعدة شعبية شديدة السخط والاستياء والخطر كذلك هو ان فرنسا لم تعمل على خلق هذه الطبقة المحافظة التي يمكنها ا ن تكون معادية لاي تغيير جذري .. ورغم ان الخطر يقتصر في الوقت الحالي على الجانب السياسي فانه ليس بعيدا ان يصبح بعد ذلك اجتماعيا حتى ان (باربودات) يتكلم في تقرير عن بروليتاريا من الاهالي المسلمين »(٦٦) .

من خلال هذا العرض البسيط ؛ يتضح ان هجرة تلمسان قد نالت قسطا كبيرا من الاهتمام خلافا للهجرات السابقة ، التي لم تكن اقل خطورة وكثافة من هجرة تلمسان سنة ١٩١١ ، وكانت هذه الهجرة الكثيفة المنبه الذي ايقظ الفرنسيين ودفعهم الى النظر في سلبيات وايجابيات السياسة الفرنسية المتبعة في الجزائر ، الا ان هذا المنبه جاء في غير اوانه ، اذ ان هجرة تلمسان كانت اخر موجة للهجرات الجماعية التي شهدتها الجزائر المستعمرة .

وفيما يتعلق بالاماكن التي توجه اليها هؤلاء المهاجرون ، تبين أن نسبة كبيرة منهم اختاروا الاقامة في القاهرة والاسكندرية ، ومنهم من نزل في هاتين المدينتين ،

ثم اخذ طريقه الى دمشق ، او الى مكة والمدينة ، مع العلم ان غالبية مهاجري تلسمان كانوا من الميسورين ، ولم يلاقوا صعوبات كبيرة في هجرتهم او استيطانهم .

وفي برقية من وزير الخارجية الى الحاكم العام في الجزائر ، اخبره ان القنصل العام في الاسكندرية يعلمه عن « وجود جماعة من حوالي ٢٠٠ جزائري من اهالي تلسمان متوزعين بين فنادق البلدة »(٦٤) . وفي تقرير آخر لنيابة القنصلية الفرنسية في « مرسين واضنة »ان الشركة الخديوية Companie Kheldive حملت الى مرسين ٥٠٠ جزائري بين رجال ونساء واطفال ، غالبيتهم من سكان تلسمان وضواحيها وقد استقر بعضهم منذ اشهر في سورية ، ثم قررت الحكومة العثمانية توطينهم في منطقة Anawarza في نواحي اضنة(٦٥) . وسبق ذلك تقرير بعث به من دمشق القنصل «M.Piat» الى وزارة الخارجية اخبر فيه ان عدد الجزائريين المهاجرين الى بلاد الشام وصل الى ٢٨٥٠٠ ؛ وفي كل يوم تصل دمشق اعداد جديدة في جماعات بين ١٥و٣٠ شخصا ، واورد هذا القنصل احصاء للمهاجرين الجزائريين وتوزعهم على مناطق مختلفة من بلاد الشام ، ودمشق وحدها كان يوجد بها ٤٠٠٠ جزائري(٦٦) .

ومما اوردته احدى الصحف الفرنسية عن الهجرة « ان الجريدة الرسمية العثمانية نشرت (مؤخرا) فرمانا يقضي بمنح المسلمين المهاجرين والجزائريين القادمين حديثا الى سورية في جماعات من عشرة اشخاص ، قطعا من الارض مع حيوانات ووسائل الفلاحة وقروضا لمساعدتهم لبدء حياة كريمة »(٦٧) .

وقد اعترف الفرنسيون ان الاخبار والمعلومات التي تتضمنها رسائل المهاجرين ، عن وضعية المهاجرين الحسنة ، ليست خاطئة بل هي صحيحة في غالبيتها . واعترف احد القناصل انه « .. بحسب السياسة الدائمة التي يتبعها الوالي (العثماني) في دمشق ، فان المهاجرين يلقون الحفاوة والاستقبال ، وتسلم لهم الادارة قرشين ونصف يوميا لكل فرد ، الى حين تمنح لهم قطع من الارض .. اما بعض الشخصيات ،والتي يمكن ان تكون ذات فائدة دعائية ، فانه يمنح لهم مقدار ما يشترون به قطيعا والات زراعية كما يمنح لهم السكن(٦٨)» .

وبهجرة ١٩١١ ، توقفت موجات الهجرة الجماعية الجزائرية الى المشرق والتي دامت قرابة الثمانين سنة ، ولم يكن هذا التوقف محض صدفة او نتيجة حتمية للاجراءات التي اتخذتها السلطات الفرنسية ، بل نلاحظ ان هذا التوقف قد تحكمت فيه عدة ظروف خارجية لا علاقة لها بالجزائر .

فالحرب التركية الايطالية من جهة ولدت مخاوف كثيرة ، وتعطلت بسببها عدة سفن كانت تقل مهاجرين جزائريين باتجاه بلاد الشام ، في الوقت الذي كان فيه العالم

الاوربي وحتى العربي يسير بخطى بطيئة نحو تأزم عالمي، كانت نتيجته اول حرب عالمية عرفتها البشرية وشغلت الساسة والشعوب ، بما فيها الشعب الجزائري ، هذا اضافة الى ان السلطات العثمانية ، ولظروفها الداخلية والخارجية الصعبة ، لم يعد يهمها ويشغلها كثيرا قدوم المهاجرين الى البلاد العثمانية ، فقل الاهتمام بالمهاجرين الجزائريين ونقصت الدعاية للهجرة .

وستشهد فترة الحرب وما بعدها هجرة جزائرية من نوع اخر ، اذ يخرج مئات من الجزائريين مهاجرين الى فرنسا طلبا للرزق ، وقد تحكمت في هذه الظاهرة الجديدة ظروف الحرب العالمية الاولى في فرنسا ، حيث كان الطلب يتزايد على الايدي العاملة من شمال افريقيا .

المصادر والمراجع

(١) وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هذه الصحف: Le Tell-L'islam- L'Akhbar Rachidi - el Hack- ومن بين هذه الصحف ثلاث منها وهي الاخبا روالحق والاسلام كانت تصدر صفحات باللغة العربية ، مع الصفحات الاصلية المكتوبة باللغة الفرنسية . اضافة الى الصحف العربية التي كانت تصدر في المشرق العربي ، والتي دافعت بكل حماس عن معاناة الجزائريين مثل صحيفة « اللواء،المؤيد » المصريتين وصحيفة « المفيد » الصادرة في بيروت ، واهتمت الصحف التونسية كذلكبفضح ممارسات السلطات الفرنسية في الجزائر ، مثل صحيفة « الحاضرة » و « le Tunisien »

(٢) عارض الاهالي بشدة قانون استبدال القضاة المسلمين ، بقضاة صلح فرنسيين ، والذي صدر في سنة ١٨٨٦ ، والزم قضاة الصلح Juges de paix بتطبيق الشريعة والقانون الفرنسي جنبا الى جنب واعترض الاهالي كذلك على القانون الذي صدر سنة ١٨٨٦ بدعوى تنظيم الاحوال المدنية للاهالي بايجاد اسماء جديدة لهم.

(٣) حسبما اورده « اسماعيل اربان » Ismail Urbain فان مدينة الجزائر كانت تضم سنة ١٨٣٠ (١٣) جامعا كبيرا ، و (١٠٩) جامعا صغيرا و (٣٢) مصلى و(١٢) صغيرة زاوية ،وتناقصت هذه الاعداد سنة ١٨٦٢ الى (٤) جوامع كبيرة و (٨) صغيرة و (٩) مصليات . وقسم موظفو الجوامع الى فئتين : فئة عليا وتضم ، المفتي ويوجد تحت رئاسته الائمة ، والفئة الثانية تضم : المدرس ـ باش حزاب الحزاب ، والمؤذن

Bomtems, C., Manuel des institutions Algériens de la domination turque à l'indépendance, t.I, G.U.J.A.S. Paris 1975 , pp. 501.

(4) Bomtems, op. cit. pp 502-503..

(5) Ageron, ch. R., Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1918), P.U.F. Paris 1968, t.II, p. 895.

وجاء على لسان احد الجزائريين المسلمين(نائب) في المجالس المالية ، قوله : .. ان رغبة غالبية المسلمين ، انه ما دام القانون يحرم المسلمين من المساعدة المالية للحكومة ، فعلى هذه ان تعيد للجوامع والمؤسسات الدينية ، الاوقاف لتكون تحت خدمتها .

(6) Ageron, op. cit. p. 896

وتمكنت الادارة الفرنسية من استعادة سلطتها سنة ١٩٠٩ على بعض الجوامع التي لم تكن مرتبطة بالجمعيات الدينية .

(7) Bourdarie, P., « L'Ottomanisme et l'éxode Algérien,» in R.Indigéne, 1910, p. 563.

(8) Ageron, op. cit. p. 898.

(٩) ولقيت سياسة الفرنسيين هذه تجاه المسلمين في الجزائرانتقادات شديدة من طرف الصحافة العربية في مصر وبيروت ، واعترض عليها القناصل الفرنسيون في المشرق ، وراحوا يتاسفون على ما تجره هذه الاجراءات من سمعة سيئة لمكانة فرنسا في المشرق .

Ageron Ch. R, op. cit p. 899.

(10) Bevia, S., « Le Service Militaire obligatoire pour les indigènes en Algérie in R.Africaine , n.52, 1908,p. 116 .

ومن بين الخطط خطة الجنرال martimprey التي وضعها سنة ١٨٦٤ والتي اقترح من خلالها ان يتم ارسال المجندين الى فرنسا ومزجهم مع الفرق الفرنسية فيكتسبون بذلك اللغة والعادات ، وفي ذلك فوائد كبيرة لفرنسا .وبرزت الفكرة كذلك لدى نابليون الثالث في اطار مشروعه الهادف الى جعل الجزائر مملكة عربية تابعة لفرنسا ، ويكون بامكانها تزويد فرنسا بقوة عسكرية تستعين بها في اوربا .

(11) Prunnel, A., Le Recrutement indigèneAlgérien par voie de l'appel, Alger 1913, p. 22.

(12) Ibid, p. 26.

وكانت النتائج التي توصلت اليها اللجنة :يمكن تطبيق القانون الاجباري على الاهالي من الان دون خشية اي اضطرابات او ثورة من جانب الاهالي على ان :

ا ـ لا يؤخذ في الاول الا نسبة ضئيلة بين ٥٪ و ١٠٪ وبالقرعة ، ثم يزاد في العدد عاما بعد عام .

ب ـ ان يسمح بحق البدل

Bobiny, G., Le Service Militaire des indigènes, in R.Française de l'etranger et des Colonies 1908.

(13) Messimy , A ., Ressource Militaire de L,Afrique du Nord , » R. de Paris, n.II, nov, - dec. 1910, p. 341.

(١٤) ان المجند الواحد يكلف الحكومة ٤٨٠ فرنكا سنويا في حين يكلفها المرتزق او القناص ١٥٠٠ف اي ان تكلفة ١٠٠٠٠ قناص هي اكبر من تكلفة ٢٥٠٠٠ مجند Ageron, op. cit., 1061

(15) Prunnel , op. cit. p. 27.

(16) Ageron, op. cit. p. 1067 .

(١٧) من ذلك ما جاء على لسان النائب Treille : اذا لم يثر الاهالي ضد قانون التجنيد ، فينبغي دفعهم لذلك اوردت ذلك صحيفة « الاخبار » الصادرة في الجزائر في عدد من اكتوبر ١٩١١ .

(18) Depince, Ch., « Le Régime de l,indigénat· Algerien,» in R.Politique et Parlementaire, n. 72,1912, p. 298.

(١٩) وكانت مطالب المعارضين تنحصر في الابقاء على نظام التجنيد التطوعي مع منح هؤلاء المتطوعين عندما تنتهي خدمتهم ، وظائف مدنية تساعدهم في ضمان بقية ايامهم ، اغراء للجزائريين للالتحاق بفرق السباهية وغيرها .

(20) Prunnel, op. cit. p. 31 et suiv.

(21) Conseil général d,Oran, « rapport exode de Tlemcen 1911» rapport de la commission barbebtte ..

(22) Conselil général d'Oran, Ibid.

(٢٣) دائرة المعارف الاسلامية ـ المجلد السابع ـ كلمة درقاوي ، ص ٢٠٤ ، ومما جاء في هذا التعريف ايضا ان الحاج محمد بن يلس مقدم الهبرية (الدرقاوية) عندما عجز عن تحريض ابناء قبيلته على الجهر بالثورة ، اخذ يدعو اخوانه الى الخروج الى ارض المسلمين ـ كما هاجرت مئات من اسر تلمسان وما جاورها الى طرابلس الغرب وبلاد الشام بين عام ١٩٠٩ وعام ١٩١١ .

(24) Marchand, H., « L'Exode des Musulmans Algériens, » in Questions diplomatiques et coloniales ; n° 33, 1912, p. 96.

(25) Bourdarie , P., « L'Ottomanisme et L'éxode Algérien, in » R.I. 1910 P-556.

(26) A.O.M. 9h. (104), Rapport Varnier, Alger 18 juin 1910 .

(27) Bourdarie, op. cit. pp. 559 - 560 .

(٢٨) كانت صحيفة الاخبار قد اصدرتها الولاية الفرنسية العامة سنة ١٨٣٩ محررة باللغة الفرنسية وبداية لسنة ١٩٠٣ وتحت اشراف فيكتورباروكان وتطبيقا لسنة التقرب العام الاسلامي في الجزائر راى « باروكان » ان يضيف لها صفحات باللغة العربية .

وكان Barrucand يدعو الى منح الجزائريين حقوقهم مع المحافظة على الامتياز الفرنسي ، ومن هنا نجد في بعض الصفحات انتقادا مريرا وصريحا لسياسة المعمرين الحاقدة (باللغة الفرنسية) وتخلو الصفحات العربية من المقالات السياسية ، محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من ١٨٤٧ ـ ١٩٣٩ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، ١٩٧٠ .

(29) Bibliothèque Nationale de Paris, Annexe de Varsaille, presse d'outre mer. El - Akhbar, 3 juil. 1910.

ونفت هذه الصحيفة ان تكون لتركيا يد في هذه الهجرة او ارسال الدعاة للتحريض عليها .

(٣٠) Bibliothèque Nationale de Paris, OP. Cit., Le Tell (Juin 1910).

(٣١) Le Temps, (27 Juil. 1910).

(٣٢) اثرت سنوات الجفاف كثيرا على نفسية الفلاحين الجزائريين وامكانياتهم المادية ولما استمر الجفاف الي سنة ١٩٠٧ اضطر الكثير مـن الفلاحين الى بيع اراضيهم لتسديد ماعليهم من ديون.

(33) Bourdarie, op. cit, p. 561-562.

(34) perriquet, G., Le Rechat des terres de colonisation par les Indigènes **Bull. de la réunion d'etudes algériennes, Paris 1910 p. 124**

(35) Bourdarrie, op. cit. p. 552

(٣٦) يقول علي مراد في مقال له : « ان زعيم الشباب التركي انور باشا والذي اصبح وزيـــرا للحربية سنة ١٩١٤ حمل اهتماما خاصا بالولايات العثمانية السابقة في افريقيا الشمالية ، وكان احد مستشاريه لشؤون افريقيا الشمالية ، وطني تونسي (اصله جزائري) هاجر الى الشرق العربي وهو « صالح الشريف »

Ali Merad, La Turcophilie dans le débat national en Algérie au début du siécle 1911-1918, in R. d'Histoire Maghrébine, 1983.

(٣٧) كان من اسباب رفض الجزائريين التجنيـد الاجباري معرفتهم انهم سينقلون الى المغرب الاقصى لقتال اخوانهم المسلمين هناك لذلك كانـت هجرة المئات من العائلات هي الرد الوحيد الذي يمكن ان ينقذهم من ذلك وابدى المسلمـون الجزائريون تعاطفا كبيرا مع المسلمين في طرابلـــس الغرب اثناء الحرب التركية ـ الايطالية سنة ١٩١١ وتجلى هذا التعاطف في حملة التبرعات لتقديم المساعدة للمجاهدين ، في حين وقف الاوربيون في الجزائر الى جانب ايطاليا فاظهروا بذلك عداءهم ليس لتركيا فقط وانما لمسلمي الجزائر كذلك .

(38) Bourdarie, op. cit. p. 555.

(39) Ibid , P. 557.

(40) A.A.E., Algériens en Turquie - Lettre du consil général à M.Boppe le chargé d'affaires à Constantinople, Damas, 15 (des. 1910).

ـ ومما جاء في الرسالة ايضا : « .. امامن جهة الرخاء الذي في الشام فلا تسال عليه مثل الفواكه لا لها ثمن ، ايضا اننا سومنا (قدرنا السـعر) النعجـة فوجدناها بثلاثـة فرنك والمـزة بفرنك ونصف وكذلك اهل الشام يضيف(كذا) المهاجرين القادمين ثلاثة ايام حسب العادة الشريعية (كذا) . اننا قد وزنا « راس اللفت » وجدنا فيه ثلاثة كيلو والبطيخة ياكل فيها اربع بيوت .. واسرعوا بالقدوم وبيعوا الغالي بالرخيص لان كل شيء تخلفوه ، والهجرة قد حلت الى الشام الى بلاد الاسلام احسن لكم من بلاد الكفر الذي يرفع اليهود على الاســلام وينصر حق اليهود على الاسلام ولو كان باطل» الدعي لكم الشيخ الحسين والعيد بن الزيتونـي المقيمين في الشام ذو القعدة ١٣٢٨ .

(41) Boudarie, op. cit. p. 556.

(42) Le Temps, 27 juil. 1910.

(43) Bardin, P., Les Algériens et les Tuni siens dans l'Ampire Ottoman 1848 - 1914, C.N.R.S. Paris 1979 p; 166.

ومما قالته الجريدة انه « انه وردتنا رسائل عيدة من اوربيين من منطقة قسنطينة ووهران تقول انه لايجب منع الهجرة الى بلاد الشام لان ذلك يوفر المكان للمستوطنين وعلى الحكومة العامة - بالعكس - تشجيع هذه الهجرة بكل مالديها من قوة وامكانات .

(45) « L'Exode des Indigènes de Tlemcen,» in Afrique Fr., jan. 1912 p.38 .

(46) Bourdarie, « nouvel exode Algérien,» in La Revue Indngène N° 6, 1911 .

(٤٧) وجاء ذلك في رسالة وجهها احد الجزائريين الى « بور داري » واستهلها بقوله : « لن نتوجه ان لم يكن اليكم انتم الذين اضطلعتم بمهمة الدفاع عن الاهالي .

(48) Conseil général d'Oran, Exode de Tlemcen; Rapport Barbedette .

(49) Ibid

(50) Ibid

(51) Marchand , op. cit. p. 90.

فقد اعلنت ذلك Journal Jeune Turque في عدد ١٩١١/١١/١٠ عندما نشرت برقية من استانبول«اللجنة المركزية لتجمع المهاجرين الجزائريين»جاء فيها «لقد انشانا جمعية خيرية للمهاجرين الجزائريين والتونسيين ، وهذه الجمعيـة لها هدف المساعدة المادية والمعنوية والتعليم وقد حصلنا على الموافقة من الحكومة العثمانية .

A.A.E., Algérien En Turquie, carton N° 281 (1907-1910)

(52) El hack , 14 aout 1911 (Le petit egyptien)

(٥٢) وما ذكرته هذه الصحيفة التي كانت قد نشرت تحقيقا عن الهجرة قبل جريدة L'Echo d'Oran انه يمكننا ان نعد في فاس وحدها (٨٠٠) بيت تلمساني وفي « تطوان » ٤٠ بيت جزائري . وجريدة الحق هذه كانت تصدر في وهران ١٩١٠/١٩١١ ، وكانت في بداية الامـر باللغـة الفرنسية وفي افريل ١٩١٢ اضافت الى صفحاتها الفرنسية صفحتين باللغة العربية وكان مكتوبا تحت عنوانها هذه الكلمات لنابليون الثالث« اني اريد ان اجعلكم تشاركون شيئا فشيئا في ادارة وطنكم »

(53) El rachidi, D., Organe endependant d'union Franco-Arabe, N° 26, oct. 1911.

(54) L'Islam (Article de Tlemcen) oct. 1911.

(٥٥) اوضح الحاكم العام « ليتو » في تقريره الذي رفعه الى وزير الداخلية الفرنسية انه لم يرغب في تكليف شخص واحد باجراء التحقيق مما سيعطيه صفة ادارية ، بل قرر تكليف لجنـة مؤلفة من اداريين ورجل وبرئاسة رجل اجنبي عن الادارة وعن منطقـة وهـران . وهـو السيد Barbedette وبقية اعضاء اللجنة هم على التوالي M.Mirant, M.Dupief

(٥٦) ذهبت الى ذلك اغلبية الصحف التي تطرقت الى الهجرة الجماعية لاهالي تلمسان ، وكذلك التقارير الرسمية .

(٥٧) اوضحت بعض الصحف في مقالاتها عن اسباب الهجرة ان التجنيد الاجباري لم يكن هو الدافع وراء هجرة الاهالي ، بل ان هؤلاء قد يرغبون في التجنيد مقابل الحصول على حقوقهم السياسية

والمدنية ، واوضحوا من جهة اخرى ان اولمعارض للتجنيد انما هم المستوطنون الذين يخشون كثيرا دخول الشباب المسلمين في صفوف الجيش وبالتالي قد يحصلون على حقوق تجعلهم في المرتبة نفسها ، او في مرتبة قريبة للمستوطنين .

(٥٨) ويضيف التقرير ان وضعية المستشارين المسلمين في المجالس البلدية هي ادنى مما كانت عليه منذ ٣٠ سنة مضت اي قبل اصدار قانونعام ١٨٨٤ حول نظام البلديات . ففي هذه الفترة كان كل المستشارين من الفرنسيين والاجانبوالمسلمين يشتركون في انتخاب رئيس البلدية ، اما اليوم فلم يعد مسموحا لاي مستشار مسلم(بحكم القانون) بالاشتراك في انتخاب رئيس البلدية ونوابه وبالتالي لا تؤخذ بعين الاعتبار مطالبهم واقتراحهم من طرف الغالبية الاوربية التي تعتبرهم اقلية لا اهمية لها .

(٥٩) كان يلزم على الاهالي دفع ضريبة سنويـــةلترعى قطعانهم في الغابات وهذه الضريبة تتراوح بين ٢ف/راس الى ٥٠اروس ، وتصل الى ٢٠ف/اعو٦٠ راس و ٦٤ف/ ٩١و١٠٠ راس من الغنم.

(٦٠) من جملة الاشاعات ، القول ان حفلات الزواج ستكون مختلطة ، وسيلزم النساء بالخــــروج سافرات وبارتداء القبعات .

(٦١) واوضحت ان ادارة الغابات ورغبة منها فيتوسيع سلطتها تقوم بفرض القانون على اراض ليست من الغابات في شيء يستعملها الاهالي لرعيقطعانهم وهي بذلك تزيد من حالة البؤس والشقاء التي يعانيها هؤلاء السكان الفقراء وتدفع بهم الى ارتكاب الجريمة .

(٦٢) بعدما كان مقررا تطبيق هذه القوانين الاستثنائية الخاصة بالاهالي لمدة سبع سنوات فقط انطلاق من عام ١٨٨١ ، تم تمديد هــــذهالمدة بعد تردد اعضاء مجلس النواب لمدة سبــــع سنوات اخرى اي الى سنة ١٨٨٩ ـ ثم مدد مرة ثالثة سنة ١٩٠٤ وعرض مرة اخرى على المجلس سنة ١٩١١ لتمديده مع ادخالتغيرات على مواده للتخفيف من وطاته على الاهالي .

rapport du gouvernement général de L'Algérie, A.M. le ministre de L'Imterieur (service de L'Algérie) Paris, émigration d' Indigènes de la région de Tlemcen en Syrie, Alger, le 28 fev. 1912. (63)

(٦٤) كان ذلك ردا على الامير عبد القادر الذيكان يعد الاراضي التي تحت سلطته دار اســـلام والاراضي التي تحت سلطة الفرنسيين دار حرب ، وكان يجد في دعوة المسلمين الذين يقيمون في دار الكفر الى الهجرة الى ارض الاسلام .ولا ندري ما مدى صحة الخطوة التي اقدم عليهـا المسيحي الذي اسلم « ليون روش » عندما جاء الى «بيجو» بفتوىتجيز بقاء الاهالي فيالاراضي التي يحتلها الفرنسيون . ومن جهة اخرىفقد رفض مفتي العاصمة دعـــوة الامير عبـــــد القادر ورد عليها في رسالة وجهها اليه (توفيهذا الشيخ سنة ١٨٣٧) ونشرت الرسالة كاملة في كتاب محمد بن عبد الكريم ، حكم الهجرةمن خلال ثلاثة رسائل جزائرية ، الشركة الوطنيـة للنشر والتوزيع ، الجزائر ١٩٨١ ص ١٠٥ .

Chambre des députés: 1° Seance de 16 dec . 1913. extrait du disconr de M.Abel Ferry . (65)

A.O.M., 9 h. (105), (naturalisation ottomane) Emigration, divers (1910-1918) lettre de M. le ministre des A.F. A. M. le gouverneur général de L'Algérie, Paris, 5 des . 1911 . (66)

A.O.M. 9 h. (105) , Mercine (20 nov. 1911). M . Bone de lancy , (67)
conseil chargé de vice - consulat derance à Mercine et Adana .

(٦٨) وجاء الاحصاء على الشكل التالي :

نولـة	٦٠٠
خربة شـباب	٣٠٠
ازدع (حوران)	٥٠٠
كفر ناسج	٥٠٠
جمل دون (حماة)	٥٠٠
كفر سبت (حيفا)	٣٠٠٠
هوشة (حيفا)	١٠٠٠
صفد وعموكة	٢٠٠
ديشوم (صفد)	٢٠٠٠
سمخ	٣٠٠
طبرية	١٠٠
حسينية (حيفا)	٥٠٠
القدس وضواحيها	١٠٠٠
المدينة	١٠٠٠
المهاجرون الجدد	٣٠٠٠

A.O.M. : rapport, Varnier, juin 1910. (69)

حصلت الباحثة من كلية الاداب بجامعة دمشق على شهادة الماجستير في التاريخ برسالتها ((الهجرة الجزائرية الى بلاد الشام بين ١٨٤٨ و ١٩١١)) المعدة باشراف الاستاذ الدكتور محمد خيرفارس.

رجال الإدارة والسياسة والجيش

من الأندلسيين والمغاربة في مصر

من القرن السادس حتى نهاية القرن التاسع للهجرة

علي أحمد
مرشح للدكتوراة

مقدمة :

لم تكن العلاقات بين مصر والمغرب والاندلس مستقرة على حال واحدة ، فقد كانت طبيعية خلال العصر الاموي ؛ لان المغرب والاندلس كانتا تتبعان في كثير من الاحيان لولاية مصر . تغيرت الاحوال مذ تسلم العباسيون شؤون حكم الدولة العربية الاسلامية ، فانفصلت الاندلس عن المشرق واصبحت مستقلة حتى عن المغرب العربي.

على الرغم من هذه الحال بقيت العلاقات قائمة بين البلدين في جميع الميادين ،انما ليس دوما على نطاق رسمي حكومي او معترف به من قبل رجال السلطة والحكم .

ففي الميدان السياسي ، يمكن القول ان القطيعة كانت شبه كاملة ، اذا ما استثنيت فترة قصيرة سيطر خلالها الفاطميون على الغرب العربي . وعلى الرغم من واقع القطيعة هذه والحالة العدائية التي كانت تخيم على الاجواء السياسية ، فان اتصالات سرية تمت بين بعض قوى البلدين كان وراءها طموح بعض حكام الاندلس للسيطرة على المشرق العربي ليصار الى ضمه الى المغرب والاندلس كما كان الامر قبل مجيء العباسيين الى السلطة . وكان يساعد على ذلك ان عددا كبيرا من المغاربة والاندلسيين كان من أصل مصري ، لان المصريين شاركوا في فتوح المغرب والاندلس كما هو معروف وهنا يجب ان يفرق بين المغرب والاندلس ، لان المغرب باقطاره الحالية كان مسرحا لتغيرات سياسية متتالية . وقامت على أرضه دول متعددة ، كانت تختلف

بولائها للمركز في المشرق . ففيه قامت دولة الفاطميين وسيطرت عليه اكثر من نصف قرن من الزمن ، من اواخر القرن الثالث حتى ما بعد منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي .. وكان الفاطميون يتطلعون باهتمام بالغ الى مصر ، حتى ترجموا تطلعاتهم الى حقيقة واقعية سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م(١) فغدت العلاقة شبه طبيعية حتى كانت سنة ٤٤١هـ/١٠٤٦م عندما قام المعز بن باديس الصنهاجي بالغاء الولاء والطاعة للفاطميين ودعا لبني العباس . ومنذ ذلك الحين بدأت الهجرة العربية الجديدة من مصر الى المغرب لاعادة الامور الى حالتها السابقة(٢) . ولكن النتيجة لم تكن في صالح الفاطميين هذه المرة فعادت العلاقة الى التوتر بين البلدين وظلت هكذا حتى سقوط دولة الفاطميين سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م(٣) .

حدث هذا على مستوى الحكام والسلطات السياسية في البلدين، اما على مستوى الشعب فان حركة الاتصال لم تتوقف لحظة واحدة . وعلى الطرف الاخر من جناح العرب والاسلام (الاندلس) لم يخل الامر من بعض الاتصالات التي تمت بالسر مع بعض اقطار المشرق العربي ، مثل العراق وبلاد الشام وغيرها . ولعل خير مثال على ذلك ما قام به الخليفة الاموي عبد الرحمن الناصر لدين الله الذي كان يرسل الى مصر ، في كل سنة ، ما مقداره عشرة الاف دينار للمالكيين . وكان قصده من هذا تحقيق هدف سياسي يتجلى بالامل والتطلع للسيطرة على المشرق العربي. وحدث ان ظهر خلال هذه الفترة في بلاد الشام بعض الكتب التي تدعو للامويين ، والتي كان حكام الاندلس على صلة بها وربما كانوا المشجعين عليها، ولابد انها وصلت الى مصر بعد ان ظهرت وانتشرت في الشام(٤) .

أما على الصعيد الثقافي والفكري ، فان العلاقة بين القطرين العربيين ، مصر والاندلس ، كانت تمتاز بالحيوية والنشاط، في الوقت الذي كانت فيه الاندلس والمغرب تعتمدان على المشرق مصدرا رئيسيا للثقافة وأمور الفكر ، ومنه مصر ، الذي لم يكن التوجه اليها بالشكل الذي كان بالنسبة لبقية الاقطار العربية المشرقية الاخرى ، كالعراق وبلاد الشام على سبيل المثال ، وبخاصة خلال فترة حكم الفاطميين . فقد جاء اليها محمد بن عبدون العدوي سنة ٣٤٩/٩٦١ ، فدرس علوم الطب والصيدلة وعاد الى الاندلس سنة ٣٦٠هـ/٩٧١(٥)، والى الاسكندرية وصل في سنة ٤٣٨هـ/١٠٤٢م عبد الرحمن بن عتيق الصقلي المعروف بابن الفحام ، وظل يدرس حتى سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٥٨م(٦) . والامثلة في هذا المجال كثيرة جدا ، وهي كلها تبرهن على استمرار العلاقة على صعيدا الفكر والثقافة بين البلدين العربيين .. وبالمقابل كان المصريون يقصدون المغرب والاندلس للمشاركة في التدريس ونشر ما يحملونه من علوم هناك ، مثال هؤلاء ، مثل أحمد بن ابي عبد الرحمن الزهري ، الذي قدم على الناصر لدين الله بقرطبة سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٢م فقوبل بالترحاب والسرور وأخذ يدرس بقرطبة حتى وفاته(٧) ، وغيره كثيرون .

واتخذت العلاقة الفكرية بين البلدين شكلا آخر ، تجلى بنقل المؤلفات العربية الموجودة في المشرق وبخاصة من مصر الى الاندلس والمغرب(٨) ، وفي الحقيقة لم يبخل المصريون بشيء من علم او معرفة على الرواد المغاربة والاندلسيين فبرهنوا بذلك على أن العداء السياسي يبقى منفصلا دون ان يؤثر على اية ناحية من نواحي الفكر والثقافة، خاصة وان روابط مشتركة ، هي روابط اللغة والاصل والانتماء تجمع بين العرب في اية بقعة من وطنهم الكبير . وهي التي جعلت هذه العلاقة تبدو طبيعية ، واستطاعت بذلك أن تعلو على الخلافات السياسية .

اما في الميدان الاقتصادي ، فان الامور ظلت هي الاخرى طبيعية جدا ، وبقي التعاون قائما في ميادين الاقتصاد المتعددة . ففي ميدان الزراعة اعتمد المغرب والاندلس على مصر ، ونقلوا عددا من طرق وأساليب الزراعات المصرية المعروفة ، وهذا ما حدث زمن الاغالبة خلال القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي عندما انتقلت الى المغرب زراعة شجرة القطن و قصب السكر(٩) .

وفي حقل الصناعة ، كان الامر مختلفا ، ويأتي هذا الاختلاف من واقع المعلومات المتوافرة حول ذلك والذي لا يتعدى أكثر من اشارات بسيطة جدا ، لكنها تساعد على الاستنتاج ان التعاون بين مصر والمغرب والاندلس كان قائما خلال هذه الفترة في ميدان الصناعة ، مثال ذلك صناعة السكر ، فالعرب الفاتحون للمغرب والاندلس، والمصريون قسم منهم ، هم الذين نقلو هذه الصناعة الى الاندلس والمغرب(١٠) .

واما التجارة فقد ظلت طبيعية الى درجة كبيرة جدا ، ولم يتوقف تجار البلدين عن الحركة ونقل البضائع بينهما . وكانت البضائع تأتي الى الاندلس والمغرب عن طريق الاسكندرية التي تعتبر المنفذ الرئيسي لمصر على البحر المتوسط الى البلدان الاخرى(١١) . وكانت مصر هي الاخرى تستقبل البضائع من المغرب والاندلس(١٢) .

وهكذا فان العلاقات بين مصر والاندلس قدر لها ان تكون طيبة وطبيعية خلال فترة ما قبل القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي موضوع هذا البحث . فقد استقبل المغاربة والاندلسيون في المشرق على هيئة حجاج وطلبة علم وتجار وزائرين خلال هذه الفترة ، لتختلف الصورة خلال الفترة التالية ، فتصبح مصر العربية من اهم أقطار المشرق العربي ، بالنسبة للمغاربة والاندلسيين ، الذين قصدوها واستقروا فيها واصبحوا من مواطنيها بدون معارضة ولا قيود . فما الذي حدث على الساحة الاندلسية حتى لجات فئة من سكانها الى المشرق ، وبخاصة الى مصر .. وما العوامل التي شجعت على ذلك .

للاجابة على هذا التساؤل يمكن القول ان ماحدث ، وبخاصة في الاندلس ، كان امرا كبيرا وقطيعا من حيث تاثيره وفعاليته ، وبالتالي من حيث النتيجة السلبية التي

انتهى اليها ، وهي ضياع ارض وتشتت شعب وموت حضارة . فالاضطرابات الداخلية التي تجسدت بالانقسامات الحادة وتبدل الدول ثم نجاح الاسبان في السيطرة على معظم نواحي الاندلس ، كل ذلك اجبر مجموعة كبيرة من الاندلسيين على الهجرة باتجاه مصر وبقية اقطار المشرق العربي الاخرى . والامثلة كثيرة في هذا الميدان ، فمنهاماكان من جراء تبدل الدول الذي بدا بمجيء المرابطين وانحسار دول الطوائف سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، وهجرة قسم كبير من سكان الاندلس نتيجة ذلك، منهم والد ابي بكر بن العربي ، من رجال اشبيلية المعروفين والمعول عليهم ، عشية وصول المرابطين الى الحكم(١٣) ، ومثله كثيرون لاطائل من ذكرهم لكونهم جميعا يشتركون في امر واحد ، هو الهرب من المرابطين لانعدام التوافق على صعيد المبدأ العام . والامر نفسه حدث عندما زال حكم المرابطين بمجيء الموحدين . فهاجر الكثيرون من الاندلس والمغرب الى المشرق خوفا منهم . مثال هؤلاء الوهراني صاحب كتاب المنامات المعروف، الذي هجر الاندلس والمغرب ونزل مصر ، وفيها عبر عن كرهه الواضح للموحدين في كتابه المذكور آنفا(١٤) . لكن الذي حدث بتأثير التقدم الاسباني باتجاه المعاقل العربية في الاندلس كان أوسع واشمل وأشد فعالية . فلم تأت سنة ٦٥٩هـ/١٢٦١ م حتى سقطت معظم مدن الاندلس في أيدي الاسبان ، وترافق ذلك باجراءات قاسية وسلبية اجبرت معظم سكان المدن المحتلة على الهجرة منها الى غير رجعة(١٥) . وهذا يظهر بوضوح من خلال تتبع هجرة الاندلسيين باتجاه المغرب والمشرق العربيين . وبمقابل هذه العوامل السلبية المحزنة ، وجدت عوامل ايجابية في المشرق العربي حيث استقر قسم كبير من المغاربة والاندلسيين، وكانت مصر في مقدمة الاقطار العربية الشرقية التي استقبلت عددا من هؤلاء القادمين الذين لم ينقطعوا عن التوافد اليها ، وفي مقدمة هذه الايجابيات ، التي تميزت بها مصر في تلك الفترة من الزمن ، الامكانات الاقتصادية التي اعتبرت في المقدمة بدون منازع وخاصة بالنسبة للاندلسيين والمغاربة الذين لا يملكون شيئا ، فقد كان لمصر وجودها البارز من هذه الناحية ، فهي بلد زراعي وصناعي وتجاري ، يتوافر فيها كل ما يطلبه الناس من لوازم واحتياجات . وهذا ما أكده الرحالة المعروف ابن بطوطة الذي زار مصر خلال الربع الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي فوصفها بأنها أم البلاد ، يعيش فيها الفقير الى جانب الغني والضعيف الى جانب القوي(١٦) . يضاف الى هذا أن الغرباء ، ومنهم المغاربة، كانوا يخصون بمساعدات كبيرة جدا من قبل الحكومات والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر ، فالغلال توزع عليهم بنسب معينة ، ويرصد لهم ما يكفي لتكفين موتاهم ودفنهم . واختصت السلطات المصرية المغاربة من بين كل الغرباء الذين عرفتهم مدن مصر وحواضرها ، اضافة الى ما ذكر ، بان اوقفت باسمهم بعض الاوقاف وجعلتها للصرف عليهم (١٧) .

الى جانب العوامل الاقتصادية وجدت عوامل اخرى كان لها تأثيرها الفعال على حركة المغاربة والاندلسيين باتجاه مصر ، فالمغاربة والاندلسيون كانت لهم اهتماماتهم

العلمية البارزة التي تجلت بانتشار المدارس ودور العلم . فلم يشارف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي نهايته حتى كان في الاسكندرية والقاهرة وحدهما ما يقرب من ثلاث وسبعين دارا للحديث، واضعاف هذا العدد من المدارس والخانقاهات، التي ما انقطع التسابق الى بنائها والصرف عليها منذ فترة حكم صلاح الدين الايوبي في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي ، حتى الفترة التي يتوقف عندها هذا البحث (١٨) . وبالاضافة الى ذلك ، فان مناهج التعليم وأساليبه التي كانت معروفة آنذاك توافقت مع المبادىء التي كان يعتنقها ويسعى لاجلها المغاربة والاندلسيون.

وكان للعوامل الدينية دورها الفعال في هذا الميدان فساعدت في نشاط حركة الاستقطاب باتجاه مصر التي كان لاسمها وقعه الخاص في اسماع المغاربة والاندلسيين من الناحية الدينية ، فلها ذكر طيب في القرآن الكريم والاحاديث النبوية الشريفة . يقول الله تعالى : « واهبطوا مصر فان لكم ما سألتم »(١٩) . وفيها أماكن يحترمها المسلمون ويجلونها ، ذكرها الكندي ونقلها السيوطي في كتابه حسن المحاضرة ، فذكر الطور والنيل المبارك وقبري موسى وهارون ، والنخلة التي ولد عيسى بن مريم تحتها ومساجد ابراهيم ويعقوب وموسى ومارية سرية رسول الله الى غير ذلك(٢٠) . وكان لطبيعة مصر تأثيرها الواضح والمؤثر على حركة المغاربة والاندلسيين ففيها العديد من المدن والنواحي تشبه ما في الاندلس والمغرب ، كالاسكندرية وبعض مناطق الدلتا ، وتأتي اهمية هذا الامر من سرعة التأقلم مع البيئة الجديدة وسهولته الامر الذي أخذ بعين الاعتبار عند الفتح العربي للاندلس ، عندما نزل جند مصر في كورة تدمير بالاندلس لشبه طبيعتها بطبيعة مصر(٢١) . وشبهت منطقة فحص البيرة بمنطقة الفيوم في دلتا النيل(٢٢) .

وأما العوامل الاخيرة التي ساعدت على استقطاب المغاربة والاندلسيين الى مصر، فهي العوامل السياسية وكانت بمعظمها لصالحهم ، فقد لاقوا في مصر كل العناية والترحيب من السلطات الحكومية والرسمية منذ فترة حكم نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، حتى نهاية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وشيدت المدارس باسم المغاربة ، والزوايا والخانقاهات الصوفية والمساجد في كل انحاء المشرق العربي وبصورة خاصة في القاهرة والاسكندرية ،حيث كان الوجود الاندلسي والمغربي كثيفا ومتميزا .

بعد هذه المقدمة المقتضبة ننتقل الى دراسة الاداريين والسياسيين والعسكريين، كل على حدة .

١ ــ **الاداريون** : نقصد بالاداريين مجموعة المغاربة والاندلسيين التي عملت في ميدان القضاء والحسبة والدواوين ، الى غير ذلك من التسميات الادارية التي

عرفت واشتهرت في المشرق العربي . ويبدو ان الاداريين المغاربة والاندلسيين كانوا كثيرين جدا ، توصل بعضهم الى تسلم مناصب رفيعة المستوى في المشرق وفي مصر بصورة خاصة ، ويمكن تقسيم هؤلاء الى قسمين رئيسيين : العاملون في ميدان الادارة العامة على مختلف درجاتها ، والعاملون في القضاء .

آ ـ **العاملون في ميدان الادارة العامة** : في مقدمة هؤلاء من حيث التسلسل الزمني **سليمان بن ابراهيم أبو الربيع الفرناطي** المتوفى سنة ٦٣٤هـ/١٢٣٧م وقد عمل في حقل الحسبة بمدينة القاهرة حتى وفاته . ومن المعروف ان منصب الحسبة كان احد المناصب الادارية الكبيرة(٢٣) .

ولم تخل ميادين الكتابة من وجود اندلسي أو مغربي ، على الرغم من ان اعمال الكتابة كانت نادرا ما تسلم لغير أهل المشرق الذين تميزوا باتقانها والقيام بأعبائها على خير وجه ، وبصورة خاصة كتابة مدينة القاهرة عاصمة الدولة ومقر الحكومة والسلطان. ففي هذا الميدان عمل من المغاربة نزلاء مصر **محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجي البوصيري** من قلعة بني حماد في الاصل الذي اقام ببلدة بوصير من ارض مصر وتسلم منصب كتابة ديوان منطقة الشرقية حتى وفاته سنة ٦٩٧هـ/١٢٩٨م ، فمكس المسيرة الاخلاقية التي لم يحد عنها معظم من تسلم مناصب ادارية في مصر العربية من المغاربة والاندلسيين ، وهي مسيرة الصدق والامانة والنزاهة والاندفاع في العمل ، وتألم للحالة المأساوية التي كانت تسود تلك الفترة من الزمن ، والتي تميزت بمجانبة الصدق واستغلال المناصب الادارية للصالح الشخصي فثارت في اعماقه مشاعر السخط والاسى على هذا الواقع الصعب فقال :

فقدت طوائف المستخدمينا	فلم أر فيهم رجلا امينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيها	مع التجريب من عمري سنينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا	بهم فكانما سرقوا العيونا(٢٤)

وعرفت مدينة المحلة الكبرى اداريا مغربيا عمل في ديوان الانشاء موظفا عاديا وهو **رضي الدين محمد بن حمزة المغربي** المتوفى سنة ٦١٥هـ/١٢١٩م(٢٥) . وبلغت ثقة الحكام المصريين بالمغاربة والاندلسيين حدا كبيرا جعلهم يستخدمونهم في مناصب امانة السجن في القاهرة الذي تسلمه في أواخر القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي ، المغربي **ابو الحسن علي بن عثمان الصنهاجي اللمتوني** المتوفي سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٥م . وبرهن من خلال عمله الذي لم ينفصل عنه الا بالموت ، انه اهل للثقة التي أولاه اياها رجال الحكم في مصر آنذاك(٢٦) . كما توصل معاصره **الامير بدر الدين المغربي** المتوفي سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٩م الى منصب رفيع جدا بمدينة القاهرة هو منصب الدوادارية الذي لم يتسلمه مغربي غيره خلال الفترة موضوع هذا البحث ، لان مثل هذا المنصب

غالبا ما كان يسند الى المقربين من السلطان وحاشيته . وقدعينه فيه السلطان المنصور لاجين وكلفه بتجديد عمارة جامع ابن طولون(٢٧). وفاق جميع الاداريين في مصر والمشرق العربي **عبد الواحد بن اسماعيل الافريقي** المتوفى سنة ٧٨٦هـ/١٣٨٤ م من حيث المرتبة والمنصب الذي شغله بمدينة القاهرة وهو منصب كتابة السر لدى السلطان، وهو من أكبر المناصب الادارية ومن يتسلمه يعتبر احد شخصيات الدولة المرموقة والتي يعول عليها في كثير من الامور التي تهم الدولة والمجتمع ، لاهمية الامور التي يطلع عليها كاتب السر وحساسيتها . وقد تدرج الافريقي في السلم الوظيفي حتى توصل الى هذه المرتبة العالية ، اذ عمل في البداية شاهدا في ديوان أحد امراء الطبلخاناه ، ولما اصبح برقوق امير طبلخاناه استخدمه كشاهد ديوانه ايضا . ثم انتقل بعد ذلك الى وظيفة موقع الدست . وعندما تسلم الظاهر برقوق السلطنة عينه كاتبا للسر فسار فيها سيرة حميدة أرضت الجميع . لكن مدة توليه هذا المنصب لم تدم طويلا ، فمات متأثرا من مرض أصابه قبل ان يبلغ الاربعين(٢٨).. ويبدو أن السلطان الظاهر برقوق، كان لا يثق الا بالمغاربة ، ودليل ذلك انه لما تسلطن للمرة الثانية ، قام بتعيين مغربي آخر لمنصب كتابة السر في الدولة وهو **علي بن عيسى العامري** المعروف **بالكركي** المتوفي سنة ٧٩٤هـ/١٣٩٢م ، وكان قد قدم له بعض المساعدات في منفاه بالكرك، فكافأه حين عودته الى السلطنة بهذا المنصب المرموق . وهو كالذي سبقه لم تطل مدته بسبب الوفاة(٢٩) .

وتسلم مغربي آخر كشف منطقة الوجه البحري جميعها، وهو **احمد بن شرف الدين عبد الهادي بن احمد المغربي** المعروف **بابن الشيخ** المتوفى سنة ٧٨٧هـ/١٣٨٥م ، ولم يعرف عنه ما يسيء الى سمعته خلال عمله هذا(٣٠) .

وخلال النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، تسلم الحسبة بمدينة الاسكندرية **يوسف بن محمد الفلاحي المغربي** المتوفي سنة ٨٧٥هـ/ ١٤٧١م وقد اختاره نائبها لهذه الوظيفة سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م . وقد حمدت سيرته فيها (٣١) .

ب ــ العاملون في ميدان القضاء : كان منصب القضاء من اهم المناصب الادارية التي شغلها المغاربة والاندلسيون في مصر خلال الفترة المعنية بهذا البحث ، وبخاصة القضاء على المذهب المالكي مع وجود بعض القضاة على المذاهب الاخرى . ومن الجدير ذكره قبل استعراض بعض اسماء هؤلاء القضاة ، أن منصب القاضي المالكي في مصر، وخاصة في مدينتي الاسكندرية والقاهرة ، كان من أقدم المناصب القضائية ، لكون هاتين المدينتين ، وبصورة خاصة الاسكندرية ، تضمان الكثيرين من الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، زاد عليهم المغاربة الاندلسيون وكلهم على هذا المذهب . الا ان القضاة المالكيين من المغاربة والاندلسيين لم يكونوا جميعا في سوية واحدة ، سواء أكان ذلك

من حيث الاهلية والثقافة ، ام على صعيد الاخلاق والسوية الانسانية . على عكس جميع من عرفتهم مصر في حقل الادارة أو غيرها ، والذين اتسموا بشكل يكاد يكون كاملا بالاخلاقية والجدية في العمل ، والصدق والامانة .. وبعد القضاء على المذهب المالكي ، في الاسكندرية بشكل خاص ، القضاء الوحيد حتى ٧٦٨هـ/١٣٦٧م حين استحدث منصب اخر ، وهو منصب قاضي الحنفية . يقول المقريزي في حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م ((**واستقر شهاب الدين ابراهيم بن عمر** المعروف **ربيبة الحنفي** قاضيا بالاسكندرية زيادة على قاضيها جمال الدين ابن الريغي المالكي ، ولم يعهد قبل ذلك في الاسكندرية قاضيان))(٣٢) .

وتمثلت اول مشاركة للمغاربة في منصب قاضي المالكية بمصر بحسب معطيات المصادر المعاصرة بوجود **محمد بن الحسن بن عبد السلام** المعروف **بابن المقدسية ابو بكر السفاقسي** ، وهو ابن اخت الحافظ ابي الحسن المقدسي الذي لا يستبعد أن تكون ولادته ونشأته بمصر ، حيث درس بالاسكندرية وتولى نيابة القاضي المالكي فيها حتى وافته المنية سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٧م(٣٣) . وافتتح قائمة القضاة المستقلين المالكيين بالاسكندرية ، قاضي القضاة **محمد بن ابي القاسم بن عبد السلام الربعي التونسي شمس الدين** المتوفي سنة ٧١٥هـ/١٣١٦م، الذي اهلته ثقافته لهذا المنصب ، فقد درس على عدد من كبار علماء القاهرة ، الامر الذي ساعده لان يفتي ويدرس في عدة مدارس بالقاهرة قبل توليه منصب القضاء بصورة مستقلة ، فانساق وراء شهواته مستغلا ما هو عليه من علو المرتبة والمكانة المرموقة وقبل الرشاوى وسلك جميع الاساليب غير المستقيمة وغير اللائقة بمنصب قاضي القضاة ، وكان يصرح دائما بقوله: « انا اعرف كيف آخذ الدراهم في قضاء الحوائج »(٣٤) .

ولم يكن وجود العاملين في ميدان القضاء من المغاربة والاندلسيين مقتصرا على المدن الكبرى التي كانت محط أنظار الغرباء بشكل خاص ، مثل القاهرة والاسكندرية، بل انتشروا في مناطق كانت أقل سكانا وادنى مستوى، ففي مدينة المحلة الكبرى توصل الى نيابة القضاء على المذهب المالكي **ابو القاسم بن بنون التونسي** ، الذي زاره ابن بطوطة سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦ م خلال مروره بالمحلة الكبرى ضمن رحلته المعروفة ، وكان مايزال على راس عمله الذي مارسه بعفة واخلاص(٣٥) ..

وعلى الرغم من كثافة الوجود المغربي الاندلسي في مدينة القاهرة خلال هذه الفترة فان وصول المغاربة الى منصب القضاء في هذه المدينة بصورة مستقلة جاء متأخرا بعض الشيء ، اذ ولي منصب قاضي قضاة المالكية **عيسى بن مسعود الزواوي** خلال النصف الاول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي ، وتوفي سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٣ م . وقد تلقى معظم ثقافته التي كانت في غالبها دينية مثل الفقه والحديث والعربية من المغرب في بجاية وتونس ، وبدأ عمله القضائي بمدينة دمشق نائبا لقاضيها

حتى استقل بهذا المنصب في القاهـرة ، ولم يؤخذ عليـه شيء فيما يتعلق بمجـال عملـه هـذا(٣٦) .

اما معاصره **احمد بن محمد** المعروف **بابن المخلطة الصنهاجي** المتوفي سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٨ م فقد ولي قضاء الاسكندرية بصورة مستقلة ايضا بعد اقامة وجيزة بدمشق عشية وصوله من المغرب ، وكان من القضاة الذين حمدت سيرتهم واثني عليهم(٣٧) . ولم تكن اهلية القضاة الذين تسلموا القضاء هي التي اوصلتهم الى حيث وصلوا في كثير من الاحيان ، انما وجدت عوامل على ارض الواقع المصري كان لها تأثيرها ، الامر الذي لا يمكن تجاهله او غض الطرف عنه عند بحث مسألة من هذا القبيل ، مثال ذلك ان السلطان في كثير من الاحيان كان يقدم بعض من وقف الى جانبه في امر من الامور او في مناسبة ما ، ويوليه القضاء بغض النظر عن المؤهلات الثقافية التي لابد من توافرها فيمن يتولى هذه المهمة الصعبة . وهذا ما حدث بالفعل في زمن السلطان الظاهر برقوق وتحديدا خلال فترة سلطنته الثانية سنة ٧٩٢هـ/١٣٩٠م ، عندما قدم **محمد الركراكي المغربي** على جميع من في حاضرة حكمه وعينه قاضي قضاة المالكية بالقاهرة ، وهو الذي امتنع عن فتيا ضد السلطان الظاهر برقوق خلال فتنة حدثت قبل تسلمه هذا المنصب بزمن قليل ، مع العلم ان ماضيه الاخلاقي ، لم يكن يؤهله للتربع على عرش منصب القاضي المالكي(٣٨) . فاصبح اداة طيعة في ايدي السلطان وحاشيته فحاباهم ونفذ كل ما طلبوه منه في ميدان عمله ، الامر الذي جعل بعض من رثاه يفصح عن ذلك بوضوح تام ، ومنهم عيسى بن حجاج الذي قال فيه :

لهفي على قاضي القضاة محمد ... الف العلوم الفارس الركراكي
قد كان رأسا في القضاء فلاجل ذا ... حزنت عليه عصابة الاتراك(٣٩)

ولعل أعظم من ولي القضاء على المذهب المالكي من المغاربة والاندلسيين في مصر كلها من حيث المؤهلات العلمية والقضائية والسيرة الحميدة والسلوك المستقيم القاضي **عبد الرحمن بن محمد بن محمد ولي الدين الحضرمي** المعروف **بابن خلدون** المتوفى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٦م ، الا انه على الرغم من أهليته التي لا شك فيها عزل عن عمله وأعيد مرات عديدة ، كان اخرها السنة التي فارق الحياة فيها . والسبب في ذلك يعود الى انه وجد في عصر كان فيه سلاطين المماليك ورجال الحكم من معاونيهم لا يقيمون وزنا للنزاهة وخاصة في منصب حساس مثل منصب القضاء ، لانها تطال بالضرورة مصالحهم ، وهي في نظرهم تتقدم على كل شيء . لذلك كان ابن خلدون الذي اتصفت احكامه بالصرامة والاستقلال يعزل لاتفه الاسباب واقلها شأنا وموضوعية ، كرفض وساطة للسلطان او غيره من الامراء الذين جعلوا من منصب القضاء وسيلة لجمع المال والثروة ، على اعتبار انه كان يباع لمن يدفع أكثر من المال دون النظر الى أهلية المشترى العلمية والاخلاقية شأنه في ذلك شأن المناصب الادارية الاخرى . وقد صور المقريزي

هذا الجو الفاسد بقوله : « فاذا اراد احد ولاية شيء من الامور تحدث مع حاشية الامير بركة حتى يتقرر له ما يريد ، ثم يستقر فيما يقرر فيه من الوظائف . .غير أن الولايات كلها من القضاء والحسبة وولاية الحرب في الاعمال والكشف وسائر الوظائف ، لاسبيل أن ينالها أحد الا بمال يقوم به او يلتزم بادائه ويكتب به خطه ، فتطاول كل نزل وذل وسفلة الى ما سنح بخاطره من الاعمال الجليلة والرتب العلية ، فدها الناس من ذلك بداهية دهياء ، أوجبت خراب مصر والشام »(٤٠) . .

وذكر ابن خلدون عن نفسه ، وذكره غير واحد ، أنه سلك عكس ما اراده بعض من ضعفت نفسه من أهل السلطة والحكم في عصره .. فقد سلك طريق الحق في كل احكامه ، الامر الذي لم يعجب الكثيرين من ذوي الشأن الذين اعتادوا على أن تكون جميع طلباتهم مقبولة وشفاعاتهم مستجابة ، وهذا ما رفضه ابن خلدون، فكثر الشغب عليه وأظلم الجو بينه وبين اهل الدولة . ويذكر ان ذلك توافق مع مصابه بفقد اهله وماله في السفينة التي غرقت وهي في طريقها الى مصر(٤١) .

وقد طال أمد عدم وجود المغاربة والاندلسيين في منصب القضاء المالكي بعد ابن خلدون إكثر من ربع قرن من الزمان في مدينة القاهرة ، حتى جاء واحد منهم وبصفة نائب للقاضي المالكي هو **علم الدين أحمد بن تاج الدين محمد بن محمد الاندلسي** المتوفى سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٩م . وهو من الذين ولدوا بمصر وترعرعوا فوق اديمها وكان مثالا يحتذى في عمله ، ترفع عن سقطات القضاة ذوي النفوس الضعيفة والضمائر الميتة ، الذين اتخذوا من القضاء وسيلة لجمع الثروة(٤٢)،واحدهم شغل منصب قاضي قضاة الاسكندرية وكان من الذين عرفوا بجهلهم المطبق بالمعارف الضرورية لمن يريد العمل في هذا الميدان كعلوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير ، وهو **احمد بن سعيد التلمساني** المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢ م . ومع ذلك فقد سار في وظيفته مسيرة حق واستقامة(٤٣) . وعلى النقيض منه من جهة المؤهلات ، اشتهر بالقاهرة نائب للقاضي المالكي **نور الدين الرهوني المغربي** المتوفى سنة ٨٧٠هـ/١٤٦٦م ، وعرف بشدة تهوره في أحكامه واقدامه على ظلم الناس وأتى على تنفيذ احكام لا يقدم عليها أحد من القضاة الواعين (٤٤) .

وتسلم ، خارج مدينتي القاهرة والاسكندرية ، منصب قاضي قضاة المالكية المغربي **محمد بن محمد** المعروف **بابن حريز** المتوفى سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٩م بمدينة منفلوط .. وجمع هذا القاضي ما يحتاجه أمثاله من معرفة ومؤهلات وامانة وحرص على الحق ونصرته في احكامه . وهذا ما اجمع عليه كل الذين عاصروه وفرحوا به لما خلف القاضي ولي الدين السنباطي بمدينة القاهرة(٤٥) .. وولي **محمد بن محمد الريفي** المتوفى سنة ٨٨١هـ/١٤٧٧ م ، نائبا للقاضي المالكي بالاسكندرية فترة تقرب من عشرين عاما لم يعرف عنه خلالها ما يسيء اليه(٤٦) . واشتهر من آل حريز الذين

كانوا يسكنون مدينة منفلوط عمر بن محمد سراج الدين المغربي المنفلوطي المتوفى سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٧م ، الذي حصل على ثقافته الواسعة من شيوخ مكة ومنفلوط ، وتميز باخلاقه واحكامه الحيادية المنصفة لم تحرفه عنها حالته المادية البائسة وديون اخيه الذي تكفل بتاديتها عنه ، فكان مثال القاضي الذي لايرى بدلا عن امتثال الحق في ميدان عمله(٤٧) . وخلفه في القضاء المالكي بالقاهرة القاضي **ابراهيم بن محمدالمغربي** المتوفى سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م ، الذي كان كسابقه متنوع المعارف فباشر عمله القضائي سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢ موانتهى منه سنة ٨٨٦ هـ/١٤٨٢م . وادى عزله الى الاسف والحسرة لما اتصف به من دقة وصلابة في احكامه ، التي لم يراع فيها غير مصلحة القضاء (٤٨) .

والشيء اللافت للانتباه هنا ، أن جميع القضاة الذين التزموا في مهماتهم القضائية جانب الحق والصدق والامانة تعرضوا للمضايقات وانتهوا نهايات محزنة مثل العزل، وجدوا ان من مصلحتهم تنفيذ مايريده السلطان ومعاونوه الذين لم يروا الا مصالحهم الشخصية ، فتهافتوا على جمع المال غير آبهين بمصالح الناس ولا بقذارة الوسائل التي توصل الى ذلك . وعكس ابن تغري بردي هذه الحال في كتابه النجوم الزاهرة كمافعل المقريزي من قبله ، عندما تفاقمت الامور واصبحت اسوء مما كانت عليه زمن المقريزي، علما ان ابن تغري بردي ينتمي بالاصل الى المماليك الذين حكموا مصر والشام(٤٩) .

وهكذا فقد كان للقضاة المالكيين دور مهم في الحياة الاجتماعية بمصر من خلال منصب القضاء ، وتأتي اهمية هذا الدور من شهرتهم بالاحكام الصعبة والقاسية من حيث نتيجتها ، فجميع المسائل الكبرى التي كانت تواجه القضاة من المذاهب الاخرى تحال الى القاضي المالكي ، مثل قضايا الكفر والالحاد والزندقة والخروج على الدين، وقضايا الخيانة . فيشبه بذلك ما يسمى في هذه الايام بقاضي (محكمة الامن القومي او محكمة امن الدولة العليا) والامثلة في هذا الميدان كثيرة جدا ، منها انه سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨ م ادعي عند القاضي المالكي علىالطنبغا الحلبي والطنبغادوادار جنتمربأمورتقضي الكفر ، فحكم باراقة دمهما واعدما (٥٠) . وحدث في سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٤ م أن جماعة بالقاهرة اتهموا بالزندقة فأحيلوا الى القاضي المالكي الذي امر بضرب رقاب ستة منهم(٥١). وكذلك كانت عاقبة من يرتد عن الاسلام (٥٢).

واما من كان يتآمر على الدولة بتعامله مع الاعداء ، فانه كان ينتظر قرار القاضي المالكي الذي لم يكن بأقل من الموت، مثال ذلك أن السلطان قام بتكليف القاضي المالكي **شمس الدين محمد البساطي** سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٩ م بالنظر بقضية الجاسوس العجمي علي التبريزي ، الذي اتصل بملك الحبشة وهون عليه امر المسلمين ، فحاكمه القاضي المذكور وحكم عليه بالاعدام(٥٣) .

اما نواب القضاة ، فان عددهم لم يكن ثابتا ، كأن يكون ذلك عرفا أو عادة ففي بعض الاحيان كان عددهم يصل الى نحو خمسة عشر نائبا عند القاضي الشافعي،

وعشرة عند القاضي الحنفي ، والى سبعة نواب عند القاضي المالكي ، ومثل هذا العدد عند القاضي الحنبلي واحيانا اقل . ولعل خير اشارة الى ذلك وجدت عند ابن تغري بردي في كتابه النجوم الزاهرة حيث ذكر انه في سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م امر السلطان بعزل جميع نواب القضاة الاربعة ، وكان عددهم يومئذ مئة وستة وثمانين قاضيابمدينة القاهرة وحدها . فقرر السلطان ان يكون لكل قاض ثلاثة نواب فقط . ويعلق ابن تغري بردي على ذلك بالقول : « وما كان احسن هذا لو دام او استمر . وقد تضاعف هذا البلاء في زماننا ، حتىخرج عن الحد ، وصار لكل قاض عدة كبيرة من النواب ». وعلى الرغم من الضغوط المستمرة التي مارسها رجال الحكم من الامراء على السلطان، فقد قرر ان يكون للقاضي الشافعي عشرة نواب ، وللقاضي الحنفي خمسة وللقاضي المالكي اربعة(٥٤) . وفي سنة ٨٣٣هـ/١٤٣٠م قرر السلطان ا نيكون للقاضي الشافعي أربعة نواب وللحنفي ثلاثة ، واثنان لكل من القاضي المالكي والحنبلي ، ليرتفع عددهم بعد مضي ثلاث سنوات ، فيصبح للقاضي الشافعي خمسة عشر نائبا بمصر كلها ، وللحنفي عشرة ، وللقاضي المالكي سبعة ، وللحنبلي خمسة . وبعد فترة قصيرةعادوا الى ما كانوا عليه في البداية دون معرفة السلطان(٥٥) . وهذا يدل بصورة واضحة على الواقع المر ، الذي كان يعاني منه الحكم المملوكي من فوضى وعدم استقرار وتفشيكل ما هو سيء ورديء .

وكان القضاة يمارسون أعمالهم في معظم الاوقات في مكان يعرف بدار العدل او ما شابه ذلك في قلعة الجبل بمدينة القاهرة ، وبأمكنة متنوعة في بقية المدن والحواضر، وان كان معظمها في مقر الحاكم او النائب(٥٦) ، وهو يشبه ما يسمى في ايامنا هذه (قصر العدل) .

٢ ـ **السياسيون** : وهم مجموعة من المغاربة والاندلسيين ، لم يتعد عدد افرادها أصابع اليد ، تدخلوا في شون الحكم والسياسة وكان لهم رايهم الخاص في هذاالمجال، وبخاصة في فترة حكم المماليك . وكان لواحد منهم طموح لتولي السلطة ، الامر الذي لم يوجد عند احد من العربالمشارقة على الاطلاق. واعتبر تدخلهمفي شؤون السياسة، التي كانت تنتهجها طبقة الحكم آنذاك من اشد الامور مساسا بمركز السلطان . لانه لم يسبق لاحد او لجماعة ان تدخلت في شؤون السلطنة من اهل البلاد الاصليين ، فالمشاكل من هذا القبيل تصدر عن المماليك انفسهم .

الحادثة الاولى كانت خلال فترة حكم صلاح الدين الايوبي ، لكنها لم تكن بقصد الاضرار بالسلطة الايوبية بقدر ما كانت لاجل ترسيخها وتقويتها ، وهي ما قام به **اليسع بن عيسى بن حزم الجياني** المتوفى ٥٩٥هـ/١١٩٨م الذي تجرأ وخطب باسم العباسيين في أواخر ايام الفاطميين في مصر . وكانت مبادرة منه دون توجيه من صلاح الدين الايوبي لم يتجرأ احد غيره على القيام بها . ونجحت المبادرة فنال مكانة مرموقة عند صلاح الدين الذي ظل يكرمه حتى اخر ايام حياته(٥٧) .

وكانت الحادثة الثانية سنة ٧٤٢هـ/١٣٤٢م ، وتتلخص بقيام احد المغاربة بمجادلة جركتمر بن بهادر احد الامراء المماليك انذاك بالقاهرة ، وكان المغربي يتهمه بانه قتل الملك المنصور بن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، الذي خلفه بالسلطنة مباشرة بعد موته ولفترة قصيرة لم تتعد بضعة اشهر . وبلغت الجراة بهذا المغربي ان كتب بذلك الى الامير قطلوبغا الفخري . فقبض على المغربي ، ولا ريب في ان مصيره كان القتل ، فلا رحمة فيمن يطرح مثل هذه الامور وعلى الاخص في فترة من اصعب فترات التاريخ العربي الاسلامي واحلكها وهي فترة حكم المماليك في المشرق العربي(٥٨) . ولايذكر المقريزي اسم هذا المغربي على الرغم من دقته وشدة ملاحظته بالاضافة الى انه المصدر الوحيد ، الذي اتى على هذه الحادثة .

وبلغ الامر ببعض نزلاء القاهرة الدائمين من المغاربة الى ارجاع سوء الحالة الاقتصادية وتفاقم الامور وتدهورها الى سياسة السلطان نفسه ، فقد اتهم مغربي جريء السلطان بأنه السبب فيما وصلت اليه حالة الاقتصاد من سوء وتدهور ، وتحمس بصورة كبيرة لهذه القناعة التي تكونت عنده حتى اخذ يدعو الناس في القاهرة للتخلص من السلطان . وحدث ذلك سنة ٧٧٥هـ/١٣٧٤م التي عمت خلالها موجة من الغلاء والقحط لم يعهد لها مثيل من قبل على حد قول من كتبوا عنها . وبلغ الامر بهذا المغربي ، الذي لم يذكر المقريزي اسمه ايضا ، الى التوجه الى مكان قريب من القلعة مكان اقامة السلطان والامراء وتحريض الناس علانية على قتل السلطان والتخلص منه لان في ذلك مفتاح حل الازمات التي تعاني منها مصر في ذلك الوقت . يقول المقريزي : « وفي ثالث عشر ذي الحجة ، قبض على رجل مغربي ، كان يقف في الليل تحت القلعة ويصيح ، اقتلوا سلطانكم ترخص اسعاركم ويجري نيلكم فضربه والي القاهرة وتركه لحاله »(٥٩) .

والحقيقة ان السبب الذي دفعه لان ينادي بقتل السلطان لا يمكن التكهن به انما يمكن القول ان السبب في ذلك ، ربما يعود الى ان السلطان كان بمقدوره ان يحرك الازمة باتجاه الافضل اذا ترفع على جشعه وطمعه ، لان حكام مصر المماليك ، من امراء وسلاطين ، لم يكن همهم الا انفسهم ومن يدور في فلكهم من ابناء جنسهم ، فاحتكروا التجارتين الخارجية والداخلية وسيطروا سيطرة تكاد تكون شبه كاملة على جميع مصادر الثروة لصالحهم الشخصي .

وحادثة رابعة تدخل من خلالها المغاربة في امور السياسة كانت من اخطر الحوادث على مستقبل السلطان والحكم بصورة عامة ، وبطلها احد المغاربة الذي قام بالتخطيط مع بعض امراء العرب للاطاحة بالسلطان المملوكي والتخلص من حكم المماليك نهائيا . لكن هذا التخطيط لم يكن له من العمق والارتكاز على ثوابت موضوعية ما يمكن صاحبه من الوصول الى ما يهدف اليه . وكان ان اخفقت اول واخر محاولة من هذا القبيل

خلال العصر المملوكي . وهي ان دلت على شيء ، فعلى ان المغاربة والاندلسيين نـزلاء المشرق العربي . كانوا على درجة من الوعي والنضوج بصورة تدعو للقول انهم تفوقـوا على اضرابهم من المشارقة.. وصاحب هذه المحاولة الفريدة في عصر المماليك **جمال الدين محمد العنابي** المتوفى سنة ٧٩٦هـ/١٣٩٤م ، وهو الذي اختصه السلطان الظاهر برقوق وقربه اليه وملخص محاولته الفاشلة قيامه بالاتصال مع الأمير العربي موسى ابن محمد بن عيسى وهو في السجن بأمر السلطان برقوق ، وعرضه عليه ان يخبر جميع انصاره بان يحضروا الى قريب من القاهرة وينتظروا حتى يخرج السلطان ــ الذي كان على وشك الخروج الى الشام ــ ومن ثم يهاجمون القاهرة يدعمهم في ذلك خمسمائة مملوك بقيادة العنابي من داخلها ويسيطرون عليها . وبعد ان تتم عملية السيطرة على القاهرة ، يعلن العنابي خليفة وشهاب الدين بن قايماز اتابكا للجيش ، ويتم ايضا تعيين سلطان جديد ، ومن ثم تنفيذ ما يراه هؤلاء مناسبا من الاعمال .. لكن الامير السجين لم يوافق على ما يبدو على خطة العنابي لانه لم يعطه منصبا قياديا كبيرا ، فكان ان سلم مذكرة العنابي الى من اوصلها الى السلطان الذي امر باعتقال العنابي واجرى معه تحقيقا طويلا اعترف هذا من خلاله بخطته الرامية لقلب نظام الحكم والاطاحة بالسلطان فصدر الامر بقتل هذا المغربي(٦٠) وبذلك انتهت اول محاولة تجرا مغربي ان يقوم بها . وتدل هذه المحاولة على مدى الوعي الذي تجسد في الاوساط الشعبية وعدم رضاها عن الحكام المماليك الذين عاشوا في غربة دائمة كانت تفصلهم عن الشعب والارض على حد سواء في كل تصرف وفي كل خطوة خطوها على ارض المشرق .

٣ ــ **العسكريون** : والجهة الاخيرة المهمة التي شارك فيها المغاربة والاندلسيون في مصر هي مؤسسة الجيش . فمن المعروف ان الاعداء التاريخيين الذين هددوا وجود العرب وكيانهم منذ أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي تجسدوا بالدرجة الاولى فيمن عرفوا باسم الصليبيين ، وكان من الطبيعي ان يتطوع المغاربة والاندلسيون لمحاربتهم ، وهم الذين شاركوا وساهموا في طرد العرب من الاندلس . ومما يلفت الانتباه ان من تطوع وشارك في الجيش المصري من المغاربة والاندلسيين عمل في سلاح البحرية . وتفوق هؤلاء في هذا المجال لكونهم ابناء بيئة بحرية ، وهم من ذوي الخبرة في شؤون البحر . والبحث في هذا الامر ، لابد من ان يصطدم ببعض العراقيل ، فالمصادر تضن بمعلوماتها وكل ما نجده إشارات في سياق اخبار اخرى . ولكن لهذه الاشارات اهميتها البالغة لانها تدل على الحجم الكبير لمشاركة المغاربة والاندلسيين في مؤسسة الجيش في مصر .

ولعل اول اشارة في هذا المضمار وردت عند ابن جبير في رحلته المشهورة ، اذ يروي انه في سنة ٥٧٩هـ/١١٨٤م ، جاءت جماعة من نصارى الشام فاستولوا على بضاعة كان تجار اليمن يحملونها في ميناء عيذاب .. وفوق هذا فقد اشاعوا انهم بصدد اخراج ضريح الرسول العربي الكريم من الحجاز ، واقتربوا من المدينة ، فجهزت مراكب

من مصر والاسكندرية برئاسة الحاجب المعروف بلؤلؤ ومعه نخبة من انجاد المغاربة البحرين لحقوا بالنصارى المذكورين وتمكنوا من اbادتهم جميعا(٦١) . وتجسد وجود المغاربة بشكل رئيسي بمدينة الاسكندرية القاعدة البحرية المهمة التي كانت تنطلق منها القطع البحرية المصرية الى المناطق الاخرى . ويفهم من بعض الاخبار أن المغاربة توصلوا الى أرفع المناصب القياديةفي بحرية مصر العسكرية، فتوصل احدهم الى مرتبة رئيس في البحرية . ويذكر اليونيني صاحب كتاب ذيل مرآة الزمان ، أن من بين الاسرى الذين اسرهم الفرنج سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٥م بالقرب من قبرص الرئيس **شهاب الدين ابو العباس المغربي** . ولا يعطي اليونيني تفاصيل وافية عن تدرجه في البحرية المصرية، حتى وصل الى هذه المرتبة . لكن الذي يفهم من لقبه (الرئيس) أنه كان من القادة المشهورين في عصره ، اذالم يكن قد تسلم رئاسة بحرية مصر خلال فترة خدمته العسكرية . ودليل ذلك انه اثر عودته من احدى الغزوات طلبه الظاهر بيبرس ومن كان معه من الجنود ووبخهم ، فبادر للدفاع عن نفسه ومن كان معه(٦٢) .. واتفق أن احد الامراء المغاربة ولامور غامضة ترك بلاده ولجأ الى القاهرة وفيها عمل في الجيش المصري البري ، وهو **ابو دبوس عثمان بن سعيد المغربي** أمير قابس ، الذي أقطع فيها بعض الاقطاعات . ويذكر ابن كثير انه كان يركب مع الجند في زي المغاربة متقلدا سيفا . وكان نظاميا لا يتغيب عن الخدمة وظل هكذا حتى وفاته سنة ٧١٣هـ/١٣٣١م(٦٣).

وكان المغاربة في مقدمة المتطوعين والمندفعين اذا ما طلب منهم ذلك ، وفي معظم الاحيان يسبقون أهل البلاد الاصليين الى مسألة الدفاع . ذكر المقريزي في كتابه السلوك أن الامير يلبغا الاتابك اهتم بعمل الشواني البحرية لغزو الفرنج ، وبعد إتمام العمل : « نودي بالقاهرة ومصر بحضور البحارة والنفاطة ومن يريد الجهاد في سبيل الله الى بيت الامير يلبغا الاتابك للعرض واخذ النفقة للسفر في المراكب ، فاجتمع عدة من المغاربة رجال البحر وكتبت اسماؤهم وقررت لهم المعاليم واقيمت لهم نقباء وقاموا بمساعدة صناع المراكب » وقد حدث ذلك سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م(٦٤).. ويقول في مكان اخر وضمن حوادث سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م مايلي « .. كملت عمارة الشواني البحرية وعدتها ماية قطعة ما بين غربان وطرائد ، فاستخدم الامير يلبغا من الرجال مايكفيها، وجمعهم ما بين مغاربة وتراكمين وصعايدة ورتب لهم رؤساء ونقباء وانفق فيهم المعاليم المقررة وشحن الاغربة بالعدد الحربية وجميع الات السلاح ... »(٦٥) .

وتكرر تسلم المغاربة لقيادة الاسطول الحربي في مصر في بعض الغزوات ، كما حدث سنة ٧٦٩ هـ/١٣٦٨م عندما تسلم قيادة الاسطول **الحاج محمد التازي المغربي**. يقول المقريزي : « وقدم الحاج محمد التازي المغربي رئيس البحر ، وقد تسلم من الشواني التي عمرها الامير غرابا اكمله بالعدد والالات وشحنه بالمقاتلة من رجال المغاربة، واخذ غرابا آخر من الاسكندرية مكملا بالعدد والرجال . ومضى في البحر وهجم على الفرنج فملك منها غرابا قتل منه جماعة واسر باقيهم . وقدم في التاسع والعشرين من

شعبان ، فتلقاه جماعة من الامراء بتجمل عظيم وخرج الناس الى لقائه وسروا بـه ، فلما تمثل بين يدي السلطان خلع عليه وأنعم عليه بجميع ما احضره من الغنائم»(٦٦). ويبدو ان معظم البحارة الذين وجدوا بصورة دائمة في مواقع البحرية بمدينة الاسكندرية كانوا من المغاربة ، ودليل ذلك انه في سنة ٧٧٠هـ/١٣٦٩م هوجمت الاسكندرية فتولى المغاربة الدفاع عنها بشكل رئيسي . يقول المقريزي: « وفي يوم الجمعة ثامن ذي الحجة ، قدم الخبر بنزول اربع قطايع على الاسكندرية من الفرنج وانهم رموا المدينة بمنجنيق ، فخرج تلك الليلة ثلاثة وعشرون اميرا منهم ثلاثة من الالوف وعشرة من الطبلخاناة وعشرة من امراء العشرات ، فقدم الخبر في عشية السبت ان المغاربة والتركمان نزلوا في المراكب وقاتلوا الفرنج وقتلوا منهم نحو المائة وغنموا منهم مركبا » (٦٧) .

وقد دلت بعض الاحداث ، التي ذكرها المؤرخون عن مشاركة المغاربة في اعمال البحر انه لم يكن في سلاح البحرية المصرية اشجع من اهل المغرب والاندلس . وتكاد شهرتهم في هذا الميدان تعلو كل شهرة ، وانه كان لايدانيهم في صدق العمل وشدة الاندفاع اية مجموعة اخرى . ففي سنة ٧٦٧هـ/١٣٦٦م فوجيء اهل مدينة الاسكندرية بالفرنج في عقر دارهم وهم على حالة من عدم الاستعداد والغفلة ، فبادر المغاربة بالنزول الى البحر بدون لباس ولا مراكب واستطاعوا ان يقبضوا على غراب القدمة المعادي واقتادوه باتجاه الشاطيء بقصد حرقه ، الامر الذي لم يتم لان الرماة لم يكونوا على استعداد لهذا الامر . ويذكر المقريزي ، ان هذه المجموعة من المغاربة اشتبكت بعد ذلك مع ركاب الغراب بالسيوف على الشاطيء(٦٥) .

واستمرت مشاركة المغاربة والاندلسيين مع مرور الايام في الجيش المصري ، وقد اصبحوا من سكان المشرق مثلهم مثل السكان الاصليين لا يمتازون عنهم . ففي زمن السلطان الاشرف برسباي وخلال النصف الاول من القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي ، شاركوا في غزو قبرص ، وكان منهم **حسين بن احمد المغربي المعروف بالطولوني** الذي غزا مع الغازين ثم عاد وتوفي سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٦م(٦٩) . على هذا لم يكن المغاربة والاندلسيون سلبيين بل قدوة جيدة في العمل والمسار العام ، باستثناء بعض الحالات الشاذة ، وساعدهم ذلك على الوصول الى ارفع المناصب الادارية كالقضاء والحسبة وكتابة السر والدوادارية وغير ذلك ، وكانوا في الميدان العسكري من اخلص العناصر .

ويستخلص مما سبق عرضه ، ان الوطن العربي عاش دوما في وحدة شبه كاملة، لم تعرف بلدانه الحدود الفاصلة ولم يعرف سكانه الا جنسية واحدة ، ولم يحتج العربي قط الى اشارة مرور واذن بالعمل والاقامة . ولا يمكن وصف التمزق الذي عرفه الوطن العربي في الماضي بالتمزق السياسي لما لهذه الكلمة في هذه الايام من معان، بل ان الامر لم يتعد وجود حكام مختلفين هنا وهناك ، والفرق شاسع فيما بين تعدد الحكام وتباين مصالحهم ، والتمزق السياسي .

الحواشي :

(١) ابن العماد الحنبلي (عبد الحي) شذرات الذهب ،ج٣ ، الطبعة الثانية دار المسيرة ، بيروت ١٩٧٦ ص ٥٢–٥٤ .

(٢) ابن الخطيب (لسان الدين) أعمال الاعلام ج٣ ، تحقيق احمد العبادي ومحمد الكتاني،. دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص٥٩–٧٢ .شذرات الذهب .ج٣ ص ٢٦٤ .

(٣) ابن دحلان ، خلاصة الكلام في بيان امراءالبلدالحرام ، الطبعة الاولى ، المطبعة الخيرية ، القاهرة ١٣٠٥ هـ ، ص ٢٠ .

(٤) المسعودي (علي بن الحسين) مروج الذهبومعادن الجوهر ، ج٤، تحقيق شارل بلا ، بيروت ١٩٧٣ . الجاحظ ، كتاب العثمانية ، (تح) عبد الله محمد هارون ، طبعة مصر ١٩٥٥ ، ص ١٣٦

(٥) الصفدي (صلاح بن ايبك) الوافي بالوفيات،ج٣، (تح) محمد بن عبد الله ،ومحمد بن محمود باعتناء س.ديدرينغ ، دمشق ١٩٥٩ ص٢٠٧.

(٦) القفطي (علي بن يوسف) انباه الرواة علىانباه النحاة ، ج٢ ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم،دار الكتب المصرية ،القاهرة ١٩٥٥ص١٦٤–١٦٥.

(٧) المقري (احمد بن محمد) نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ،ج٣(تح) احسان عباس ،دار صادر ،بيروت ١٩٦٨ ص ١٤٣.

(٨) انظر عدداً من الامثلة ، ابن مخلوف (محمد)شجرة النور الذكية في طبقات المالكية، الطبعة الاولى، دار الكاتب العربي ، بيروت ١٣٤٩ هـ ص٩٧.

(٩) شجرة النور الذكية ، ص ١٢١ .

(١٠) يعقوب (جورج) اثر الشرق في الغرب خاصة في القرون الوسطى ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، مطبعة مصر ، القاهرة ١٩٤٦ ص٩٧ .

(١١) الحميري (محمد بن عبد المنعم) الروض في خبر الاقطار ،(تح) الدكتور احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ١٩٧٥ ص ٥٨٣. وانظر حول بعض التجار المصريين الذين اتجروا مع الاندلس : ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك) كتاب الصلة ، ج٢ ، الدار المصرية للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ ص ٦٣٩.

(١٢) نفح الطيب ، ج٣ ص ٢٤.

(١٣) البكري (عبد الله بن عبد العزيز) صفة المغرب وارض السودان ومصر والاندلس ، ص ١٨٨.

(١٤) الوهراني (محمد بن محمد) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله ، (تح) ابراهيم شعلان ومحمدنغش، دار الكاتب العربي ، القاهرة ١٩٦٨ ص١١.

(١٥) البتنوني (محمد لبيب) رحلة الاندلس ،الطبعة الاولى ، مطبعة الكشكول ، القاهرة ١٩٢٧، ص ١٣٧ . محمد عبد الله عنان ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والاندلس ، ق٢ ، الطبعة الاولى ، القاهرة ١٩٦٤ ص٦٢٧ .

(١٦) ابن بطوطة : (محمد بن عبد الله الطنجي)مهذب رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ، دار صادرللطباعة والنشر ، بيروت ١٩٦٤ ص ٣٦٠ .

(١٧) السيوطي (جلال الدين) حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ، ج٢ (تح) محمد ابو الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة (بت) ص ٣٢٤. اليونيني (موسى بن محمد) ذيل مرآة الزمان ، ج٢ ، الطبعة الاولى ، حيدراباد ـ الدكن ١٩٦٠ ص ٢٥٢ . ابن حجر (أحمد بن علي) انباء الغمر بانباء العمر ، ج١ ، (تح) حسن حبشي ، دار التحرير للطبع والنشر ، القاهرة ١٩٦٩ ص٤٤ .

(١٨) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٥٤ وما بعدها . الخطط المقريزية مجلد ١ ص ١٧٢ .

(١٩) سورة البقرة (الاية ٦١) .

(٢٠) حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٣٢٤.

(٢١) ابن خلدون (ولي الدين عبد الرحمن) كتاب العبر والمبتدأ والخبر ، ج٤ ، بيروت (بت) ص١١٩.

(٢٢) الروض المعطار ، ص ٤٥ـ٤٦ . والحسبة هي من الوظائف التي ينظر صاحبها (المحتسب) في الرقابة على جميع النشاطات الاقتصادية وبعض الاعمال الاخرى كالاشراف على السقائين ومعلمي الصبية والسباحة والمكاييل والموازين والاقوات ودار العدل (صبح الاعشى ٥/٤٥١) .

(٢٣) نفح الطيب ج٢ ص ٦٢٩

(٢٤) الوافي بالوفيات ، ج٢ ، ص ١٠٠ ومابعدها.

(٢٥) الوافي بالوفيات ، ج٤ ، ص٢١٣ .

(٢٦) ابن فهد ، لحظ الالحاظ ، دار احياء التراث العربي ، بيروت (بت) ص ٨٤ . والدوادارية وظيفة يشرف صاحبها على مصالح السلطان وينفذ ما يأمره به ولا يكتمه شيئا ولو كان على نفسه (التعريف بالمصطلح الشريف ص١٥٠) .

ـ المنصور لاجين هو احد سلاطين المماليك الذي حكم سنتين وشهرين ويسمى أيضا علم الدين سنجر الدواداري (السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ قسم ٣ ص ٨٢٧ـ٨٥٩) .

(٢٧) المقريزي (أحمد بن علي) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج١ قسم ٣ ، (تح) محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية القاهرة ١٩٦٤ ص ٨٨٢ـ٨٨٣ .

ـ كتابة السر وظيفة يقوم بها صاحبها بادارة ديوان الانشاء التي تصدر عنه جميع الرسائل والمكاتيب الداخلية والخارجية (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ٦٢/١).

ـ الطبلخاناه وظيفة ديوانية موضوعها التحدث في استخراج الاموال السلطانية ، ويكون صاحبها رفيقا للوزير ويكون امير طبلخاناه أو أمير عشرة ، وتقابل في يومنا المدير او معاون الوزير (ولاة دمشق في عهد المماليك ص٢٦).

ـ موقع الدست هو الذي يجلس مع كاتب السر بدار العدل أمام السلطان او النائب بمملكة من الممالك (المنتقى من صبح الاعشى لعبد القادر زكار ٦٢/١).

(٢٨) انباء الغمر ، ص ٢٩٥ .

(٢٩) ابن قاضي شهبة ، التاريخ ، مجلد ٣ من المخطوط ، (تح) عدنان درويش ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ، دمشق ١٩٧٧ ص ٤٤٦

(٣٠) ابن حجر (أحمد بن علي) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، ج٤ ، (تح) محمد سيد جاد الحق ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٦ ص٢٠٧ـ٢٠٨ .

(٣١) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن) الضوء اللامع ،ج١٠، مكتبة المثنى ، القاهرة ١٣٥٤ هـ ص ٢٣١-٢٣٢ .

(٣٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٣، قسم ١ ،تحـسعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٨٠ ص١٢٨.

(٣٣) الوافي بالوفيات ، ج٢ ص١٨.

(٣٤) الدرر الكامنة ، ج٤ ص ٢٦٦ . ابن فرحون(علي بن محمد) الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، ج٢ ، (تح) محمد الاحمدي ابو النور ، القاهرة ١٩٧٤ ص ٢١٧ . الداودي (محمد بن علي) طبقات المفسرين ، (تح) علي محمد عمر، الطبعة الاولى ، مكتبة وهبة ، القاهرة ١٩٧٢ ص ٢٣١ .

(٣٥) رحلة ابن بطوطة ، ص ٣١.

(٣٦) ابن القاضي (أحمد بن محمد) ذيل وفيات الاعيان المسمى درة الحجال في اسماء الرجال ،ج٣، (تح) محمد الاحمدي ابو النور ، طبعة القاهرة وتونس ١٩٧١ ص ١٨٧ .

(٣٧) المرجع السابق ج١ ص ٤٧.

(٣٨) ابن قاضي شهبة ، مجلدا ج٣ ، ص ٤١٣ .ابن تغري بردي (يوسف الاتابكي) النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب بوزارة الثقافة والارشاد القومي بمصر ، ص ٨.

(٣٩) انباء الغمر ، ج١ص ٤٣٠ .

(٤٠) السلوك لمعرفة دول الملوك ،ج٢ قسم ١ ،ص ٣٢٤ .

(٤١) كتاب العبر ج٧ ص ٤٥٢ وما بعدها . انباءالغمر ج ٢ ص ٣٣٩-٣٤٠ . الضوء اللامع ج٤ ص١٤٥ وما بعدها . شذرات الذهب . ج٧ ص٧٦-٧٧ .

(٤٢) النجوم الزاهرة ،ج١٥ ص ٤٦٨.

(٤٣) السخاوي ، التبر المسبوك في ذيل السلوك ،القاهرة ، (ب.ت) ص٢٧-٤٠.

(٤٤) الضوء اللامع ، ج٨ ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٤٥) السخاوي ، الذيل على رفع الاصر ،(تح) جودت هلال ومحمد محمود صبح ، الدار المصرية للتأليف والنشر (ب.ت) ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٤٦) الضوء اللامع ، ج٩ ص ٢٦٩ .

(٤٧) الذيل على رفع الاصر ، ص ١٩٨ وما بعدها.الضوء اللامع ج٦ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤٨) الضوء اللامع ، ج١ ص١٦١ وما بعدها .

(٤٩) انظر حول هذا الامر : النجوم الزاهرة ، ج١٣ ص ٣٩-٤٠.

(٥٠) انباء الغمر ،ج١ ص ٤١٨.

(٥١) المرجع نفسه ، ج ١ص ٢٧٤ .

(٥٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ قسم ١ ، ص ٣٧٢-٣٧٣ .

(٥٣) النجوم الزاهرة ، ج١٤ ص ٣٢٤ وما بعدها.

(٥٤) المرجع نفسه ،ج١٤ ص٤٠ وما بعدها .

(٥٥) المرجع نفسه ،ج١٤ص٣٤٥-٣٦٢ .

(٥٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٢ قسم ٣ص ٨٨٨ .

(٥٧) ابن الابار (محمد بن عبد الله) المعجم في أصحاب القاضي ابي علي الصدفي ، القاهرة ١٩٦٧، ص٣٤-٢٣٥٣ .

(٥٨) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣٣ قسم ١ ص٢٢٦ .

(٥٩) المصدر نفسه ، ج٢ قسم ٣ ص ٥٩٤

(٦٠) ابن قاضي شهبة ، مجلد ١ج٣، ص ٥٠٩ ومابعدها . انباء الغمر ، ج١ ص ٤٧٠ .

(٦١) ابن جبير (محمد بن احمد) رحلة ابن جبير،دار صادر ، بيروت ١٩٥٩، ص٣٤-٣٥ .

(٦٢) ذيل مرآة الزمان ،ج٣ ص٨٦.

(٦٣) ابن كثير (اسماعيل بن عمر) البداية والنهاية ، ج١٤، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٧٣ص٥٥ .

(٦٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج٣ قسم ١ ص١١٣.

(٦٥) المصدر نفسه ، ج٣ قسم١ ص ١٢٩ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ص١٥٩ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ص ١٧٥-١٧٦

(٦٨) المصدر نفسه ص ٤٢٠ .

(٦٩) التبر المسبوك في ذيل السلوك ، ص ١٢٨.

دراسات تاريخية

مجلة علمية فصلية محكمة

تعنى بالدراسات حول تاريخ العرب

تصدرها لجنة كتابة تاريخ العرب بجامعة دمشق

السنة الثامنة ، العددان ٢٧و٢٨ ، ايلول – كانون الاول ١٩٨٧